جامعة الأزهـــــر
كلية أصول الدين بالقاهرة

النص القرآني
بين
التفسير والتأويل

نص الرسالة المقدمة

لنيل إجازة العالمية « الدكتوراه »

من

عبد الفتاح إبراهيم سلامة
المحاضر بكلية الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

بإشراف فضيلة الأستاذ الدكتور

عبد الغني عوض الراجحي
عميد كلية أصول الدين بأسيوط سابقا

وفضيلة الدكتور

عبد الباسط إبراهيم بلبول
أستاذ التفسير المساعد بكلية أصول الدين بالقاهرة «مشرفا متابعا»

١٣٩٩ هـ ★ ١٩٧٩ م

النص القرآني

بين

التفسير والتأويل

نور من القرآن

حول موضوعنا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ① قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ② ماكثين فيه أبدا ③ الكهف

* * *

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ⑨ الإسراء

* * *

ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ㉝ الفرقان

* * *

هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ⑦ آل عمران

كنائن الرسالة

المحتويات

فصل من قصة هذه الرسالة ..... ص هـ

توطئة القول ..... من ص ١ إلى ص ١٤

صوى المنهج ..... من ص ١٥ إلى ص ١٨

حول تقسيم هذه الرسالة ..... من ص ١٩ إلى ص ٢٠

فواتح البحث ..... من ص ٢١ إلى ص ٤٣

السفر الأول

النص القرآني والتفسير

من ص ٤٤ إلى ص ١٤٣

النجم الأول : فقه اللغة وفقه التفسير ..... من ص ٤٤ إلى ص ٨٢

النجم الثاني : التكامل الموضوعي في القرآن الكريم ..... من ص ٨٣ إلى ص ٩٧

النجم الثالث : العلم بأسباب النزول ..... من ص ٩٨ إلى ص ١١٣

النجم الرابع : الأصحاب ونهجهم في التفسير ..... من ص ١١٤ إلى ص ١٤٣

السفر الثاني

النص القرآني : بين أطوار التأويل وقضاياه

من ص ١٤٤ الى ص ٢٧٧

النجم الأول : قضية التأويل : عند اليهود والنصارى ..... من ص ١٤٤ إلى ص ١٦٤

النجم الثاني : التأويل : معانيه وأطواره ..... من ص ١٦٥ إلى ص ٢١٤

النجم الثالث : التأويل : وصلته بالمحكم والمتشابه ..... من ص ٢١٥ إلى ص ٢٥٩

النجم الرابع : التأويل : بين منهجين متقابلين ..... من ص ٢٦٠ إلى ص ٢٧٧

السفر الثالث

النص القرآني : وصور من التأويلات

من ص ٢٧٨ إلى ص

النجم الأول : تأويل المعجزات والغيبيات ..... من ص ٢٧٨ إلى ص ٣٢٧

النجم الثاني : تأويلات وتلبيسات حول حقيقة الجن ..... من ص ٣٢٨ إلى ص ٣٧٧

النجم الثالث : التأويلات العلمية : من أنمائها وأمثالها .. من ص ٣٧٨ إلى ص ٤٩٦

المراجع من ص ٤٩٩ إلى ص ٥٣٨

الفهارس التحليلية من ص ٥٣٩ إلى ص ٥٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل من قصة هذه الرسالة

ظلت هذه الرسالة سنين عددا جنينا فى رحم الغيب ، لايعلم إلا العلى العظيم متى يكون مولده ، ولا أين يكون مهبطه ؟ ....

" وكل شىء عنده بمقدار " ٨ : الرعد

وكانت الإرهاصة الأولى بهذا الجنين : فاه بها رجل كريم كان عائدا لتوه من رحلة الحج إلى بيت الله العتيق ، ثم شاء الله أن يجعل المرض له طهورا آخرا ، ونسأله سبحانه أن يكون هذا صنعه به ...

وفى صحوة من غواشى المرض ، قال لولده كاتب هذه السطور وهو يعوده :

يا ولدى كنت أريد لك أن تأخذ نصيبك من الدنيا لتجمع بين سعى الآخرة وسعى الاولى ... لكنى أحس الآن أن الله سيمن عليك بخير مما أريده لك ... وسيفتح الله عليك ... وستحصل على الدكتوراة ... ثم سكت هنيهة وقال : لاتقولن إن والدى فى سكرات الموت ، ... فإن فضل الله عظيم ... ومضت أيام قلائل ووقعت المحنة بوفاته ... وتفضل الله بالسكينة وأخذ الابن يفكر طويلا فى هذه الكلمات الأخيرة لوالده ، ويعاوده التفكير حتى ذلل الله الصعاب ، ويسر الصواب ، وفتح من أبواب رحمته ...

أما وقد غاب عن هذه الفاعة جسده فإن فريضة الوفاء تملى على أن أردد ما أردده دبر كل صلاة " رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا " (١) وأجزهما أعنى خير الجزاء .

وإن رحم العلم ، وأواصر الصحبة فى حقل الدعوة إلى الله تجعل من الواجب علىّ أن أستمطر رحمة الله الكريم للدكتور محمد خليل هراس الأستاذ السابق بكلية أصول الدين ، والذى كان من عزيز أمنياته أن يرى هذه الرسالة ، ولكن قدر الله أعلى ، وقضاء الله لامرد لحكمه

أسأله سبحانه أن يتقبل عملى وأن يختم لى بالحسنى

" وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين " (٢)

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة الإسراء .

(٢) تأسيا بالأخيار الذين أثنى عليهم فى قوله تعالى : " دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " ١٠ : يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

موطئات القول

الحمد لله الذى أنزل القرآن بيانا ، وجعله فرقانا ، وأنقذ به من العمى ، وهدى به من الحيرة ، وأحيا به القلوب من بعد موات ، وأطلع به شمس الحقيقة من بعد احتجاب .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لا ند له ولا ظهير له ، شهادة بها قامت السموات والأرض ، وعلى أساسها يكون الفصل بين الخلق ، وبها نسأل الله النجاة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، جعل الله رسالته رحمة ، ودعوته فتحا ، وكلمته حكما ، وجعل العزة فى اتباعه ، والأمنة فى اقتفاء طريقه ، والسكينة فى التزام هديه ، وضرب الذلة على من عصاه ، وكتب الشقوة موردا على من خالف أمره ، وجعل الفتنة مهيعا لمن أعرض عن الوحى أو بعضه .

صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى إخوانه الأكرمين من النبيين والمرسلين ، وعلى آله الأخيار وأصحابه الأبرار ، ومن اهتدى بهديه واتبع صراطه بإحسان لا يزيغ ويقين لا يرتاب .

وبعد .

فموضوع هذه الرسالة هو :

" النص القرآنى : بين التفسير والتأويل "

ولم يكن اختيارى لهذا الموضوع لأجعل منه ميدانا لبحثى ، وأجعل من معضلاته باحات لدرسى ، وليد المصادفة ، ولا نتيجة محاكاة ، ولا ثمرة إلزام .

ولقد صدتنى عن تسجيله موضوعا لأطروحة العالمية "الدكتوراه" عوائق وصرفتنى عنه صوارف ، حتى صرفت عنه إلى غيره ، ولكن ظل الحنين إليه يمور فى الأعماق ،

ويتأجج فى الفؤاد ، وظل العقل يطلب علمه فى مظانه ، ويحوم حوله ، ويجس خلاله شعابه ، حتى قَدَّرَ اللهُ وقدرُه أعلى ، وقضى — وقضاؤه لا مرد له — أن أظفر ببغيتى وأنال رغيبتى فى تسجيله ،

ولسائل أن يسأل : ولِمَ كل هذا العناء وماسر هذا الحنين ؟ ولماذا أعرضتَ عن الثمار الدانيةِ والقطوف الينا نعةٍ والراحة المعروضةِ وآثرت ارتيادَ الدروب الصعبة ؟

والجواب : لا أكتمه عن سائل ، وهو أن هذا فى نظرى هو الطريقُ ، وإذا عرفتَ فالزم .

وموضوع الدراسة ذو ثلاث شعب :—

(١) شعبة حول قواعد التفسير : تستشرف ملامحَ منهج .

(٢) وشعبة حول قضايا التأويل : تسجل من تاريخه ، وتفصل من أنواعه .

(٣) وثالثة تسير مع المؤولين فى أوديتهم : تلتقط لأفكارهم صورا ، وتقدم للقارئ من أخاليلهم عبرا ، وتشخص داءً ، وتصف دواءً .

فأما الشعبة الأولى وهى التى تدور حول قواعد التفسير فقد كُتِبَ عن قواعده فى القديم والحديثُ لكنَّ العينَ لم تبصر كتابا جامعا محررا مستوعبا فى هذا الموضوع ، وأزعم أن الكتاب الأمثلَ فى موضوع قواعد التفسير زال يدعو الأثبات الثقات إلى بذل السنوات واستفراغ الطاقات لتحريره وإخراجه ، إن المنى تَطَّوفُ حوله وإن الآمال تتخيله ، وإن هواتفَ فى الأنفس تتوثب إليه ، ولقد ظننت أنى سأقضى من ذلك وطرا ، وأظفر ببغية .. لكنى حاولت وحاولتُ ، وواصلتُ وماقعدت ، وكانت النتيجة أنى قد عرفت بين العلماء قدرى ، وإن كنت بعد لم أستسلم ليسكن السفوح أو الهناءة بالوهاد ، وربما أكون قد وضعتُ على الطريق صُوَّةً ، أو أضأت شمعة ، أو أسرجتُ سراجا ، وحسبى أنى حاولت ..... والله من وراء القصد .

وأما موضوع التأويل : فكم فيه من عقبات وعراقيل ، وإخال مشكلاته من المعضلات ، .... وهذا يستوجب أن تكون مسائله مبسوطة من بعد تعقيد ، محررة من بعد قيود ولعلى قد بذلت فى ارتياد دروب التأويل أكثرَ مما بذلته لضروب التفسير ، لأن الموضوع

رغم ماكتب فيه لم يزل بكرا ،ومعين البحث مازال ثراً .

وأحسب أن موضوع التأويل : لايزال يشغل الفكر الإنسانى حتى يومنا هذا ،كما كان يشغل فكر بنى البشر منذ فكروا ومارسوا التفكير قبل قد زعم الزاعمون ولست لهم بمصدق أن آدمَ عليه السلام أكل من الشجرة متأولا .

وقال العالمون : إن إبليس عليه لعائن الله هو أول من تفلسف فتزندق ،وأولُ من ضل بضلالة سوء القياس ،وأول من لَمَّسَ وخادع ،وأول من جعلَ العقلَ حَكَماً ، والهوى فيصلاً ،وكل هذه الخطايا الإبليسية : تجدها وافرة كاثرة فى دروب التأويل الذى ضل به من ضل ،وشَقِىَ به من شَقِىَ .

عرف أهلُ النحل الوضعية التأويلَ ،فيه زاغوا وعن الاستماع لرسل الله عليهم السلام - أعرضوا ،وعرف أهلُ الملل المحرفة المبدلة التأويلَ : فنُكِسُوا على رؤوسهم وضل سَعْيُهُم .

كان العربُ على شرعةِ إبراهيم عليه السلام ،فزاغوا عنها بتأويل رؤوسائهم ،وأضاعوها بدجل كهنائهم ،طافوا بالبيت عرايا متأولين أن ذلك فى طاعةِ اللهِ ومن مرضاته : إذ كيف يطوفون ببيته العتيق فى ثيابٍ عصوا الله فيها ، وتألوا فى العقيدة فجعلوا لله الأنداد ،وضربوا له الأمثال وله سبحانه المثل الأعلى ،من ذلك مثلا : أنهم كانوا يحجون ويلبون وكانت تلبيتهم :

لبيك اللهم لبيك ،لبيك لاشريك لك لبيك ،إلا شريكا هو لك تملكه وماملك ، فتأمل سوءَ معتقدهم فى اتخاذ شريكٍ لله ،ثم قبحَ تأويلهم أنه يملكه وماملك .
وقارن هذه الضلالةَ الرعناءَ بقول أهل الصليب : " باسم الأب والإبن والروح القدس: إله واحد " فأولئك جعلوا له شريكا يملكه وماملك ،وهؤلاء جعلوا الثلاثة واحدا وتلك وأيم اللهِ ضلالةٌ جامعة بين ضلالات : فهى فى التوحيد ضلالة ،وفى التشريح أبطولة ،وفى المعقول أغلوطة الأغاليط ،وفى نظر العين الكذوبة الأكاذيب ،إذ كيف للثلاثة أن يكونوا واحدا وكيف للواحد القهار أن يتخذ شريكا .

* * *

وأما فى الإسلام فقد كان التأويل مفرقا لجمع المسلمين فى نهاية عهد الراشدين ، وباعثا لشق عصا الطاعة على ثالث ورابع الراشدين ، فاستباحوا دم الراشد عثمان رضى الله عنه متأولين وخرجوا على علىّ رضى الله عنه متأولين ، وقتلوه متأولين ، وعبد وممتأولين !!!

واستنفروا الحسين — رضى الله عنه — للخروج متأولين ، وخذلوه متأولين ، وظاهروا على قتله متأولين ، وأطروه جبا زائفا ، وامتثالا زائفا لـ " المودة فى القربى (١) "

---

(١) تشير بذلك إلى قول الله جل ذكره : " قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى " ٢٣ : الشورى ، وقد قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش : لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تتقطونيه إنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى ، وتدرونى أبلغ رسالات ربى إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة ، وروى ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لا أسألكم على ما جئتكم به من البينات والهدى أجرا إلا أن تودوا الله تعالى وأن تتقربوا إليه بطاعته" وهكذا روى قتادة عن الحسن البصرى مثله ، ثم علق ابن كثير على هذا الرأى بقوله : وهذا كأنه تفسير بقول ثان ، كأنه يقول إلا المودة فى القربى أى : إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم إلى الله زلفى ... وعن سعيد ابن جبير أنه قال" معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى : أى تحسنوا إليهم وتبروهم " وقد أطال ابن كثير فى مناقشة المسألة فليرجع إليه من شاء وانظر تفسير ابن كثير جـ٤ ص١١١ : ١١٤ وقد راجعنا فى تفسيرها أيضا القرطبى جـ١٦ ص٢١ـ٢٤ وكشاف الزمخشرى جـ٣ ص ٨١ـ ٨٢ ، وغيرهما وقد وجدنا عند ابن كثير فى هذه الآية مالم نجده عند غيره من تخريج الأحاديث .

ولكن الذى دعانا إلى ذكر هذه الآية الكريمة :

هو استغلال أهل الأهواء لها استغلالا سيئا ، وتستر الشيعة خلفها لتفسيق نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتقاد غير الحق فى بعض آل بيت النبى رضوان الله عليهم أجمعين .

وهكذا كان التأويلُ من مصائب المسلمين ، وباعثَ البلايا ، ومثيرَ الفتن ، وراءه تستتر المغرضون ، وبقناعه تقنعوا ، وكم من كلمات الحق التى أريد بها الباطل تاهلا وما أكثر النصوص الهادية التى صرفت عن قاصد الصراط ، وحُمِّلت ماتنوء به الألفاظ ، أو ماتزور عنه ، وتنفر منه ، وكل ذلك كان باسم التأويل ، حتى قيل فى شأن أولئك المؤولين " لو نزل رغيفٌ من السماء مكتوب عليه حرام لقال المؤولون أى على غيرنا ". كم من هالكٍ فى ردغة التأويل هلك ، وكم من عاثرٍ فى حفرة التأويل سقط ، ولست أنسى هذه المأساة المضحكة التى تولى كبرها المختارُ بن أبى عبيد الثقفى (١) ، وكان المختار هذا يظهر التشيع ويتباكى على مصائب آل البيت ، حتى استطاع أن يجيّش جيشا بلغت عدته سبعةَ عشر ألف رجل بدعوى الثأر للحسين من قتلته ، وتمكن من قتل عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وهو الذى قاد جيش عبيد الله بن زياد لقتال الحسين رضى الله عنه ، ثم قتل جعفر بن عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وجعفر هذا : هو ابن أخت المختار وقال المختار — بعد أن قتل عمر وابنه جعفر — : رأس سعد برأس الحسين ، ورأس ابنه برأس ابن الحسين : الذى قُتِل معه فى كربلاء ، وتصايح المخدوعون : بأن المختار قتل ابن اخته حبا لآل البيت ، وتم له الأمر فى الكوفة ، وصار أميرا عليها ثم أخذ يسجع أسجاع الكهنة ، ثم ادعى أن الوحى عليه تنزل .

وتراءت أخبار فتنته إلى محمد بن الحنفية وخشى على دين الله من هذا الخبيث ، وأراد ابن الحنفية أن يسير إليه ، وعلم المختار بذلك ، وعلم أن فى قدوم محمد بن على ذهابَ رياسته ، وضياعَ دولته ، فقال : إنّا على بيعة الإمام القائم وعلامته عندنا أنه إذا ضرب بالسيف لم يختر ط جلده ، فإن اخترطه فليس هو الإمام ، وفطن محمد بن على رضى الله عنهما إلى لؤم هذا المتدجال الخبيث وظل مقيما بمكة خيفة أن يقتله دجال الكوفة الذى يتاجر باسمه .

---

(١) لخصنا هذه القصة عن كتاب الفَرْق بين الفِرَق للشيخ عبد القاهر بن طاهر البغدادى المتوفى ٤٢٩ هـ ص ٣٩ — ٤٧ من الطبعة التى حققها الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

وقصة اخـــــرى :

لاتقل غرابة عن سابقاتها — وهى (١) : "أن عبدالله بن خَبَّاب بن الأرت: لقيه نفر من الخوارج وهم فى طريقهم إلى النهروان ،وكان يحمل مصحفا فى عنقه ،وتصحبه امرأته وكانت حاملا ،فقالوا له : إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا ان نقتلك ،فقال لهم : ماأحيا القرآن فأحيوه ،وماأماته فأميتوه" . ثم سألوه رأيه فى على بـــن أبى طالب فقال فيه خيراً فقالوا : إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجـــال على أسمائهم ،ثم قربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه" ومن عجيب أمر هؤلاء الذيـن قتلوا هذا المسلم الورع ابن الصحابى الورع الذى أُوذِىَ فى الله ،واستحلوا دمه ، وذبحوه ،وقد تجردت قلوبهم من الرحمة ،كان من أمرهم مايرويه أيضا أبو العباس المبرد بقوله (٢) : " ومن طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلما ونصرانيا فقتلوا مسلما وأَوْصَـوا بالنصرانى ،وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم" .

كل هذه الأحداث ترسخت فى ذاكرتى ،وكانت من بين بواعثى على العنايـــة بدراسة قضايا التأويل ومشكلاته .

ومن البواعث الأخـــــرى :—

أنه على أرض التأويل رفعت الفرق قواعدها ،ونشرت مانشرت من بدعها وأراجيفها .

وعَرَفَ الفقهاءُ التأويل ،وقسموه أنواعا ،وماوسوه أحيانا .

ومارس النحاة التأويل واستخدموه وتوسعوا فيه .

وأما البلاغيون فلم يكونوا عنه بمعزل بل صاحبوه وارتقوه فى بعض مباحثهم .

وفى ميدان القانون الوضعى — وأكثره شرع لم يأذن به الله — كان التأويـل يقود خطا المقننين يستمتع بالتلاعب بعقولهم ،ويستمتعون بتسخيره لأهوائهم ....

ولا أطيل بذكر البواعث والحوافز فإن الإطالة جالبةٌ للملال ،ممدعاةٌ للسآم .

* * *

(١) انظر فى هذه القصة الكامل للمبرد جـ٣ ص ١٢٤ ، ١٢٥ ط : الأزهرية والفتوح الأدبية فى ١٣٣٩ هجرية ،وذكرها أيضا عبدالقاهر البغدادى ص ٧٦ ، ٧٧ ط : محيى الدين .

(٢) انظر الكامل جـ٣ ص ١٢٤

وقد قسمت هذه الرسالة إلى ثلاثة أسفار :ـ

فجعلت عنوان السفر الأول : " النص القرآنى : والتفسير "

وأنشأت له الفواتح التى عبدت الطريق ، ومهدت السبيل وأظهرت الغاية ،
ثم قسمت هذا السفر نجوما أربعة :

النجم الأول : " فقه اللغه وفقه التفسير "

وقد أظهرت فيه أنه لابد للمفسر من امتلاك أداة اللغة والغوص فى أعماقها والتحليل لألفاظها ، وذهبت إلى نظرية سميتها بـ " الأرحام اللغوية " : أسستها على دعائم "المقاييس اللغوية " عند ابن فارس الرازى ، وعرفت له قدره وأشدت بذكره ولم اهتضم له حقا ، وأشرت إلى انتفاعه هو بجهود سابقيه ومع معرفتى بجليل قدره ، فلم أقع أسير الإعجاب به ، وإنما وردت حوضه ، واغترفت من ينابيع غيره .....

ويزعم كاتب هذه السطور أن فكرة الأرحام اللغوية : إذا كتب معجم ألفاظ القرآن الكريم على هدى منها فإن ذلك سيكون عملا مثريا للدراسات القرآنية ، فيصلا فى كثير من الخلافات الدينية واللغوية ، وسيكون قاصما لتحكيم المصطلحات والمحدثات فى ألفاظ القرآن الكريم ، ولعل هذا المنهج إذا طبق تطبيقا أمينا ، يعود بنا إلى فهم لغة القرآن ، كما فهمها أولئك الذين نُزِّلَ عليهم القرآن ، أو إلى قريب منه

والنجم الثانى : " التكامل الموضوعى فى القرآن الكريم "

بينت فيه أهمية هذا المنهج فى دراسة الموضوعات القرآنية ، وكيف أنه ينأى بنا عن النظرة الصوراء ، وعن التفكير الأبتر ، وجليت أنه لابد للناظر فى كتاب الله : أن يستقصى استقصاء الحَفِيِّ كُلَّ النصوص الواردة حول موضوعه ، وإلا فهو حاطبُ ليلٍ ، وضائعٌ فى متاهةٍ ، ومتقول على الله وفى دين الله غيرَ الحق .

وأما النجم الثالث : " العلم بأسباب النزول "

، بينت فيه ما هو من هذه الأسباب ، وما لا يمت إليها بسبب ولا نسب ، وبينتُ أن علم السبب هو تحديثٌ بالرواية ، وليس قولا بالاستنباط ، أو تخرصا بالظن ، وناقشت عموم

اللفظ خصوص السبب ، وقد تدعوى القول بتعدد أسباب النزول ، وتكلمت على الطريق الذى يجب أن ينتهج إذا تعارضت دلالة اللفظ مع دلالة السبب ، وما شابه ذلك من المباحث .

وأما النجم الرابـــــع : " الأصحاب ونهجهم فى التفسير "

فقد أردت أن أتكلم فيه عن تفاوت عطاء الأصحاب رضى الله عنهم للتفسير ، وأنهم ليسوا سواء ، فكان لابد لتجلية هذه الفكرة أن أُبَيِّنَ كيف تباينت مواهبهم ، وتنوعت تخصصاتهم ، واختلفت ملكاتهم ... وقد يحسب الناظر أنى قد أطلت فى التمهيد لفكرتى وما أرانى إلا قد أوجزت بل أَوْمَأْتُ ، فإن حقَّ هذا الموضوع عظيمٌ ، وعلى كثرة ماكتب عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلازلنا فى حاجة إلـــى درس محرر يضع النقاط على الحروف فلايهمل دورهم ، ولا يجحد قدرهم ولاينكر عطاءهم ، ثم هو لايدعى العصمةَ لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا وإن دور الأصحاب فى العطاء ، وقع بين نظرتين متناقضتين : وهما نظرة الجحود والإنكار ، ونظرة الغلو بدعوى الإكبار ، والحقيقةُ مهيعٌ بَيِّنٌ لا حبٌ بين دربين جائرين .

* * *

والسفـــر الثانى هو : " النص القرآنى بين أطوار التأويل وقضاياه "

وقد فَصَّلتُـــه نجـــوما أربعـــــة : —

النجم الأول : " قضية التأويل عند اليهود والنصارى "

وقد جعلته كمقدمة تاريخية لموضوعى : بينت فيها كيف سجل عليهم القرآن فى محكم آياته وقوعهم فى ورطة التحريف ، وباطل التأويل ، ثم بينت أثر الثقافـــة الإغريقية فى إفساد عقائد اليهود ، وإبعادهم عن وحى الله ، وبينت أن من أهـــم الأسباب التى دعت اليهودَ وأهلَ الصليب الى التأويل أنهم حَرَّفُوا وحىَ اللـــه وبدلوه ، وكتبوا بأيديهم كتبا زعموا أنها من عند الله ، وما خطتها إلا يراعة الشيطـــان وإن ملأت به الأسفارُ مما يجافى العقل ، ويناقض الحق الواضح ، ويخالف المشهودَ الواقعَ ، هو الذى دفع القومَ إلى مزيدٍ من الإغراق فى التأويل ، والإمعان فى الرمزية

وذكرتُ من واقع أسفار العهدين القديم والحديث ما يقطع بأن هذه الأسفار ليست من عند الله .

وخصصت سفرا يقال له : " نشيد الإنشاد " بمزيدِ دراسة : بينت فيها أنَّ هذا السفر يُحِلُّ الخطيئةَ ، ويمجد الرذيلة ويشن حربا عوانا على الفضيلة ، وأنه لا يمكن لإنسان قد بقيت له بقية من لُبٍّ أن يزعم أن هذا المجونَ المخبولَ هو من عند الله ، وختمت هذا النجم بذكر بعض التأويلات العملية التي يمارسها القوم النصارى ، ومن صورها " سر التناول " .....

النجم الثاني : " التأويل : مصائبه وأطواره "

تتبعت فيه كلمةَ التأويل ، وردد تها إلى أصولها اللغوية ، وذكرت أمثلةً لاستعمالاتها العربية ، ثم تتبعت استعمالاتها في مكّيّ القرآن ومدنيّه ، مبارحا معانيها في هذه الاستعمالات كلها ، مستأنسا بأقوال المفسرين مستخلصا نتيجةَ هذا التتبع .

ثم استعرضتُ موارد الكلمة في بعض أحاديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلت في ذلك بعض إطالة لأهمية السنة من القرآن ، ولأن بيانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الهدايةُ من الحيرة ، وهو النجاةُ من الشقوة .

ثم تكلمت عن التأويل في عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووقفتُ عند ما نسب إلى أم المؤمنين عائشة وإلى عثمان رضي الله عنهما من تأويل وألقيت بعض الضوء على المسألة ، وتكلمت عن بعض ما عُرف على عهد الأصحاب من تأويلات منها المرجوح ومنها الخاطئ ، وكيف كان كبارُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بما مَنَّ اللهُ عليهم من علم يجلون الحق ، ويبينون الصوابَ ، لمن لا علم له به .

ثم تكلمتُ عن معركة التأويل العملي بين المسلمين في صفين ولم أسهب فيها .

ثم انتقلتُ إلى درسٍ عن التأويل في عهد التابعين ، وبينت ما نسب إلى التابعي الجليل مجاهد بن جبر المكي من تأويلات : بعضها يكاد يكون شبيها بما عرف عند أهل الرأي في التفسير ، وما عرف عند المعتزلة خاصة

ثم تكلمت عن التأويل فى المعنى الاصطلاحى ،وأخرته فى الدرس لتأخر ظهوره فى الواقع ،وذكرت تعريفات العلماء له ،وطوفت بالفروق الفاصلة بين التفسير والتأويل ، ووقفت وقفة تكلمت فيها عن التأويل والأخذ بظاهر النصوص،وبينت آراء العلمـــاء من الآخذين بالظواهر والمانعين منها ،ثم تكلمتُ عن شروط صرف الألفاظ عن ظواهرها . ثم تحدثت عن بعض العوامل التى أدت إلى ظهور التأويل ،وعن صلة التأويل بالتحاكـــم إلـــى العقـــل .

وتفطناً إلى واجبٍ فى دحض ضلالات أهل الزيغ فى عصرنا تكلمتُ عن التأويل عند دعـــاة التغريـــب .

ثم جعلتُ مسكَ ختام هذا النجمِ الحديثَ عن بكراهة الاصحاب رضوان اللـه عليهم للتأويل والقول بالرأى .

النجم الثالث: " التأويل وصلته بالمحكم والمتشابه "

وقد تكلمتُ فيه عن المعانى اللغوية للإحكام والتشابه ،وعن استعمالات الكلمتين فى كتاب الله ،وتعرضت بالدرس لآية آل عمران ،والتمس هديها ونورها ، ثم تكلمـــتُ عن تعريفات العلماء للمحكم والمتشابه ،ونقضتُ بعضَ هذه التعريفات ،أو انتقدتهـــا ثم انتقلتُ إلى الإجابةِ عن سؤال طرح عند المفسرين وعلماء الكلام وهو: هـــــل المتشابه مما أستأثر الله بعلمه . ؟

وعرضت وجهات النظر المتقابلة فى الموضوع ،ورجحت ما رأيته راجحا ،وناقشـــتُ ماذهب إليه فريق من العلماء من قصرِ المحكم على أمثلة بعينها ، أو تحديد المتشابه بآيات أو موضوعات خاصة به ، وبينت منهجَ السلف حيالَ المتشابه ،وبينت أن المتشابه منه مايُعلم ومنه مالايُعلم ،وكما ناقشتُ آراء بعض العلماء القدامى فى القضيـــة ناقشت أراء بعض العلماء المعاصرين فى المسألة ليكون الدرس العلمى موصـــولا دائما بين التالد والطارف ،ثم تحدثت عن علة وجود المتشابه فى القرآن الكريم ،وذكرت آراء بعض العلماء،ثم ذكرت الرأى الذى اصطفيته فى علة وجود المتشابه .

وانتقلت إلى الحديث عن مواقف نفر من العلماء من قضية المتشابه ، وكان تقسيمي لمواقف العلماء مخالفا بعض المخالفة للرأي السائد ، وكان شبيها بضروب من المشابهة من موقف الشيخين ابن تيمية وابن القيم فاقتضت الأمانة العلمية أن أشير إلى رأيهما وإلى نقل بعض أقوالهما من مصادرها (١) .

وللفقيه الأندلسي الثبت ابن حزم رأي في المتشابه ، رأيت أن أثبته لأن ابن حزم في نظري ليس سبقة في ميدان البحث ، وليس بصاحب الرأي المكرور في باحات الدرس .

وغني عن القول أن الفخر الرازي متح من بئر التأويلات طويلا ، وكما متح كان رافداً ، فمرّجنا عليه ننظر ماءه ، وليس حتما على الوارد أن يرتوي ، مع تقديرنا لذكائه وسعة علمه ، وتعدد معارفه ، لكن الحق لا يُعرف بالرجال .

وأبو اسحاق الشاطبي فقيه أندلسي وعنده ما يؤخذ وله من القول ما يسمع ، فقطفنا من بستانه زهرة .

والإباضية وهي الفرقة الباقية من الخوارج زرنا حقلها ورأينا شيئا من ثمرها .

وفي خاتمة المطاف نقلنا عن الشيخ محمود شلتوت رحمه الله بعض قوله في موضوع المتشابه : فعرفنا بعضه ، وراق لنا بساطع أدلته ، فاستحسناه ، وأما بعضه الآخر فلم يستو دليله على سوقه فأعرضنا عنه ، وعارضناه ، وهكذا كان الدليل وحده هو الفيصل عندنا بين ما يقبل وما يترك .

وأما النجم الرابع : " التأويل بين منهجين متقابلين "

حاولنا فيه أن نعرض صور التقابل بين مدرسة الاتباع ومدرسة التفلسف ، فبدأنا بالحديث عن موقف الإمام أحمد من قضية التأويل وما نسب إليه من القول بتأويل ثلاثة أحاديث ، وتحدثنا عن مدى صحة انتساب هذا الرأي إليه ، وذكرنا آراء العلماء في

---

(١) نجوم الرسالة يكمل بعضها بعضا ... والنقل عن ابن قيم كان في في فصل التأويل بين منهجين متقابلين .

تأويل هذه الأحاديث ثم بيّنا نفور الإمام أحمد من الأخذ بالتأويل ومن القول بالرأى ،وذكرنا فى ذلك مايدعمه من الدليل ،ثم انتقلنا بعد ذلك إلى بيان موقف ابن القيم وهو من أئمة الحنابلة ومن أكثرهم عناية بقضية التأويل ، والتصدى لفتنتها ،وكيف قسم الناس أقساما حيال موضوع التأويل بعامة ،وتأويل الصفات بخاصة ثم ذكرنا من قصيدته النونية مانراه تأريخا حصيفا واعيا للمصائب التى جرها التأويل على أهل الإسلام ،وإنك لواجدٌ صورةَ الجهد الذى بذل فى شرح هذه الأبيات .

ثم انتقلنا إلى المنهج المقابل وهو موقف أهل الفلسفة من التأويل ،فأومأنا إلى تاريخ التأويل الفلسفى ،ثم ثنينا بإيماءة عن كيفية تسلل الفلسفة إلى المجتمع الإسلامى ،ثم انتقلنا إلى الحديث عن الفترات التى مَرَّتْ بها العلائقُ بين الفلسفة والفكر الإسلامى ثم عرَّجنا على الحديث عن الفرق الإسلامية ومدى تأثرها بالفلسفةِ الإغريقيةِ ،وذكرنا شيئاً من أوزار الفلسفة ،وفَصْلاً من خطيئةِ الفلسفةِ فى إضرامِ نار فتنة القول بخلق القرآن .

وأما السفر الثالث : " صور من التأويلات "

فقد جعلته نجوما ثلاثة :ـ

النجم الأول : " تأويل المعجزات والغيبيات "

وقد بدأته ببيان معنى الغيب لغة ،وشرعا ،وذكرتَ بعضَ الآيات القرآنية التى وردت فيها كلمةُ الغيب ثم تحدثت عن محاولة بعض المفتونين الإغارة على الغيب ثم عرضت فى هذا الفصل لكثيرٍ من غرائب الأفكار وطريفها ، فمن تأويلات حول عقاب المسخ ،إلى تأويلات عن مائدة الحواريين ،إلى تأويلات حول الدابة التى تكلم الناس وكيف أول بعضهم النملَ بأنه ضعاف من الأقوام ،وأصبح الهدهد رجلا فى تأويل آخر إلى غير ذلك من التأويلات التى نراها مبسوطة فى مواضعها .

والمنهج الذى اتبعته فى عرض هذه التأويلات : أن استقصى ـ ماأسطعت ـ تأويلات القدامى والمحدثين حول الموضوع الواحد ،وأن أعرض للآراء المتقابلة ،والمذاهب المتباينة ،ثم أكر على هذه أو تلك بما يسفر عن وجه الحقيقة ،ويقمع عنها أذى الباطل

وقد استوعب هذا الفصل قدرا لابأس به من التأويلات عرضا ونقدا .

والنجم الثانى : " تأويلات وتلبيسات حول حقيقة الجن "

تعرضت فيه لما كتبه الدكتور البهى فى تفسير " سورة الجن " وتفسير " سورة الصافات " وتتبعت أكثر عباراته التى أول فيها حقيقة الجن تأويلا أفضى به إلى الإنكار ، عارضها على القارئ ثم أزنها بميزان الكتاب والسنة ، وبينت أن قول الدكتور البهى يضاهئ قول آخرين ذهبت آراؤهم أدراج الرياح ونقلت عن ثلاثة من كبار علماء المعتزلة ايمانهم بحقيقة الجن كما أوردها القرآن الكريم .

والنجم الثالث : " التأويلات العلمية .... من أشباهها وأمثالها "

وجديد هذا الفصل أنه قد مايز بين الإعجاز العلمى فى القرآن ، وبين التفسير العلمى الذى يجلى بعض آلاء الله فى الأنفس والآفاق من جهة ، وبين التأويلات العلمية التى تُحَمِّل ألفاظ القرآن غير أهدافها ، وتحمل عليها ماليس من غاياتها ، ولكننى جعلت هذه الحقيقة التى هى الهدف من هذا الفصل تتوسط صحائفه كواسطة العقد فيه ، وبدأته بالحديث عن البواعث التى أدت إلى ظهور التأويلات العلمية ، وكان من أهم هذه البواعث التصدى للزاعمين بأن هدايات الوحى تتصادم مع حقائق العلم ، والقاطعين لأرحام العلم أن تتصل بحقائق الوحى .

وانتقلت بعد ذلك إلى التأريخ للقضية منذ عرفت طريقها إلى الفكر الإسلامى : فأيدها علماء ، وأنكرها آخرون ، ولقد انتهجت فى بحثى أن أبسط آراء المثبتين وأن أدون أقاويل المنكرين ممن تباعدت ديارهم واختلفت عصورهم وتنوعت ثقافاتهم وتباينت مناهجهم حتى تكتمل الصورة أمام عين الناظر ليحكم — إن نصب نفسه للحكومة — عن بينة .

ثم ذكرت بعض الآيات القرآنية : التى يتجلى فيها صور من إعجاز القرآن فى أصول الفلك ، ومسائل الطب ، وغير ذلك ، وعرضت لبعض التأويلات حول آيات أخرى ، مبينا وجه الحق فى المسائل المعروضة

■ ■ ■

ولا أزعم أننى قد أوفيتُ على النهاية ، أو جئتُ بالطريقة المثلى ، لكننى أدعى أننى حاولتُ وحاولتُ ، وارتقبت السحبَ لعل رشحَ الجبين يرشحُ لمقعد صدق ، ولعل صبيب العرق يصوب بى إلى معارج الحق ... وإذا كان من المحذور أن أزكى على .... فلعل من المحظورات أن يلتمس الانصاعُ بالتواضع ، وأن يهتضمَ امرؤٌ جهده .. أو أن ينقض غزله ...

أسأل المولى العظيم أن يطهر من العُجب قلوبنا ، وأن ينقى من الإفك ألسنتنا ، وأن يباعد بيننا وبين خطوات الشيطان كما باعد بين المشرق والمغرب وأن يربط على قلوبنا أن تفزع إلا إليه ، وأن يثبتنا بالقول الثابت فى الدارين ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخيرَ أيامنا يوم لقائه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

وصلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته على إمام المرسلين ، وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين .

المؤلف
عبد الفتاح ابراهيم سلامه
المدرس المساعد بكلية الحديث الشريف والدراسات
الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

صـــوى المنهـــج

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم [١] :

"إن للإسلام صـــوى [٢] ومَنَـــاراً كمنـــارِ الطريـــقِ [٣] "

وللبحث كذلك صوى يجـــب عليـــه أَنْ ينتهجَ سبيلها .

وللدرس منـــارات ، ومن عزائم الأمور أن يستنير بنورهـــــا .

ولقد قال أهل الرشـــاد [٤] : " من سلك الجَـــدَدَ أَمِنَ العِثَـــارَ "

وسبيلـــى — وعلى الله قصد السبيل — تمثله الصـــوى الآتيـــةُ :

(١) التحديد الدقيق للألفاظ المستعملة فى الرسالة تحديدا معجميا لغويـــا أو اصطلاحيـــا .

(٢) تحقيق نسبـــة الآراء إلى قائليهـــا .

(٣) النقـــل عن المصـــادر الأصيلة إمعـــانا فى التثبت .

(٤) لاتنقـــل الرســـالة عن المصادر الوسيطة إلا نادرا وبشروط ثلاثة :—

---

(١) رواه الحاكم بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه وصححه مقتصرا على هذا اللفظ الذى ذكرناه ، وأخرجه الطبرانى من رواية أبى الدرداء مطولا وفى إسناده ضعف ، وانظر الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير للسيوطى صـ ٨٥ ط : الكاتب العربى بالقاهرة ، ولفظه عند الطبرانى "إن للإسلام صوى وعلامات كمنار الطريق" .

(٢) قال فى القاموس جـ٤ صـ ٣٥٥ : "الصُّوَّةُ بالضم — جماعة السباع ، وحجرٌ يكون علامة على الطريق ... وماغلُظ وارتفع من الأرض ، والجمع صُوًى "

(٣) قال فى القاموس جـ٢ صـ ١٥٥ : "المنارة والأُطل مَنْوَرَةٌ : موضع النور كالمنـــارِ والمِسرَجَةِ ، والمئذنةِ ."

(٤) هذا من أمثال العرب ويقال : لقد أَجْدَدْتَ فَسِرْ ، ومشى على الجادة ، والمعنى من سلك الطريق الواضح أَمِنَ أن تعثر قدمُه أو تزل وانظر المختـــارَ صـ ٩٥ وأساس البلاغة صـ ١١٠ والعثرة : الزَّلة ، والعِثار بالكسر مصدر عثر يعثُر بالضم .

أ — تعذر الرجوع إلى المصدر الأصلي ، لقيام العقبات الحائلة ومنها مثلا: أن يكون المصدر بغير اللغتين العربية والإنجليزية كما وقع لنا في فصل التأويل عند اليهود والنصارى حين نقلنا عن مصادر بالفرنسية ونحن لا نعرف منها إلا شذرا يسيرا فكان النقل بوسائط أشرنا إليها في مواضعها .

ب — أن يكون المرجع الوسيط مصدرا لمادة في الرسالة من المواد غير الرئيسة كبعض تراجم الأعلام ، ومع ذلك فلم نستمرئ التواني ، فحققنا من أمر أصحاب هذه التراجم ما دعت الضرورة إلى تحقيقه .

جـ — الإفصاح عن المصدر الوسيط بغير تلبيس .

(٥) عزو الأحاديث النبوية الواردة في الرسالة إلى مصادرها من كتب السنة مشيرين إلى هذه المصادر وأجزائها وصفحاتها وطبعاتها ، ومن المسلمات أن علم الإسناد بحر عميق الأغوار يحتاج إلى الربان الماهر ، وتلك منزلة ليست لكاتب هذه السطور ، ومع ذلك فلم ندخر جهدا في الكلام على أسانيد الحديث التي تشكل مادة الرسالة ، ولم نسكت عن هذا التخريج والعزو إلا حين نرى الضرورة غير ماسة ، وأحسب أن الرسالة لم تستشهد بالضعيف من الأسانيد إلا لماما مشيرة إلى هذا الضعف ، وأسأل الله أن تكون الرسالة قد خلت من الموضوعات والمختلقات .

(٦) لم تعمد هذه الرسالة إلى التستر وراء دعوى : " توارد الخواطر " فتنتحل لنفسها آراء الآخرين وقد وقع لكاتب هذه الرسالة من القول السديد ما نسبه إلى نفسه ، ثم هداه البحث الدءوب إلى أنه ليس أول من وفقه الله إليه فبادر بنسبته إلى من سبقه من العلماء الذين قالوا به .

(٧) موقف هذه الرسالة من العلماء الذين ناقشت آراءهم يعبر عنه الامتثال للتوجيه الرباني الكريم : " ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم " ١٠ : الحشر .

(٨) وحين تقف الرسالة هذا الموقف السابق فهى ترفض موقفين : موقف الغلو فى التكفير ، وموقف الإفراط فى التحرير فالأول يخرج من الإسلام أكثر أهله ، والثانى يدخل فى الإسلام من هم أخطر عليه من ألد أعدائه .

(٩) حين تدعى هذه الرسالة لنفسها جديداً فهى لا تدعى لنفسها على غيرها تفضيلاً وتزنم مع محمد بن مالك صاحب الألفية النحوية — رحمه الله — وهو يتحدث عن سابقه ابن معطٍ [1] رحمه الله فقال :

وهو بسبقٍ حائزٌ تفضيلا ... مستوجبٌ ثنائى الجميلا [2]

(١٠) الإشارة إلى رجوع بعض أصحاب الآراء عن آرائهم إن حدث ذلك كما تراه فى فصل التأويلات العلمية وغيره وذلك من الدوران مع الدليل أينما سار .

(١١) محاولة احياء بعض المناهج الأصيلة كمنهج " الأرحام اللغوية " على النحو الذى تراه فى النجم الذى عنونا له بـ " فقه اللغة وفقه التفسير "

(١٢) تبرئة بعض العلماء والمذاهب والفرق من بعض الآراء التى تنسب إليهم ظلما ولم يقولوا بها ، أو قال بها بعض أتباع الطائفة فنسب القول للجميع وهم على خلافه كاتهام المعتزلة بانكار حقيقة الجن ، وليس أمرهم جميعا كذلك ، على النحو الذى ترى تفاصيله فى النجم الخاص بالمعجزات والغيبيات .

والرسالة لا تقصد من هذا الموقف إلا إحقاق الحق وإبطال الباطل .

(١٣) كانت الرسالة تخشى المكرور من القول ، وتحاذر المعاد من الرأى ، ولكن أنّى لها أن تجد عن ذلك مصرفاً وقبيل الإسلام ردد زهير قوله :

ما أرانا نقول إلا معارا ... أو معادا من قولنا مكرورا

وقال عنترة ولم يجد وترا يعزف عليه :

هل غادر الشعراء من متردّم [3]

---

(١) هو الشيخ يحيى زين الدين بن عبد النور الزواوى الجزائرى المتوفى بمصر فى شهر ذى القعدة سنة ٦٢٨ هـ .

(٢) هذا هو البيت السادس من أبيات ألفية ابن مالك وانظر شرح ابن عقيل بتحقيق محيى الدين عبد الحميد جـ١ ص ١١ ط : التجارية .

(٣) من متردم : يعنى من مترنم والمعنى الإجمالى : أن الشعراء لم يتركوا فناً إلا وقالوا فيه .. وما ذكرناه هو شطر البيت الأول من معلقة عنترة .

لكنني قد حاولت في بحثي هذا أن أتجنب الرأي الفاتر، إلا داحضا له ، وتعمدت أن أعرض عن القول اللفيظ[1] زراية به ، إلا أن تقضي الضرورة بذكره لتفنيده .

(١٤) وقد حاولنا أن نلقي الضوء على بعض الآراء التي تحيط بها الغيوم وأن ننقل عن بعض العلماء الذين اهتضم التاريخ حقهم [2]

(١٥) محاولة استقصاء الآراء المختلفة والمتعارضة حول الموضوع الواحد ، إيمانا منا بأن الحقيقة أحيانا لاتسفر عن وجهها إلا بعد العناء في طلبها وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات "[3] وكانت تكتنف هذا الاستقصاء محاذير عدة كالإطالة والحشو والتكرار .

(١٦) التعقيب على الآراء المذكورة في الرسالة مادعت إلى ذلك فريضة البيان[4] ، أو داعية منهجية ، وكنا نتجنب هذا التعقيب إذا سبقت مناقشة مثيله حذرا من التكرار .

(١٧) نشير في هوامش الرسالة إلى الكيفية التي نقلنا بها عن المصدر فإن كان النقل بالمعنى او بإيجاز بينا ذلك ، ووضع النقاط المتتابعة هكذا ... يشير إلى ترك عبارات للإيجاز .

(١٨) عرفنا بكثير من المؤلفين من القدامى والمعاصرين ، وكنا نعرف بالمرجع المنقول عنه تعريفا كاملا عند أول استفادة به ثم نكتفي بعد ذلك بالإشارة الموجزة إليه .

(١٩) قمنا برد كثيرٍ من الآراء المحدثة إلى أصولها وجذورها القديمة على النهج الذي تراه في مباحث فقه اللغة ... وتأويلات حول حقيقة الجن ، والتأويلات العلمية .

(٢٠) تؤمن هذه الرسالة إيمانا لايداخله الريب بما قاله العماد الأصفهاني :

إني رأيت أنه لايكتب إنسانٌ كتاباً في يومه الا قال في غده : لوغير هذا لكان أحسن ، ولوزيد كذا لكان يستحسن ، ولوقدم هذا لكان أفضل ، ولوترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

---

(١) المقصود باللفيظ في هذا السياق : المطروح المنبوذ .

(٢) كابن حزم الظاهري وابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وابن فارس اللغوي ، وأمثال هؤلاء .

(٣) هذا الحديث أخرجه مسلم من رواية أبي هريرة ، وأخرجه أيضا من رواية أنس كما أخرجه الترمذي ، والإمام أحمد في المسند ، وانظر الجامع الصغير للسيوطي ص١٣٦ .

(٤) المقصود بالبيان : هو المشار في قوله تعالى : " وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه ... " ١٨٧ : آل عمران .

وجه من الرأى فى تقسيم هذه الرسالة

أرتأيت فى تقسيم هذه الرسالة أن أنهج نهجا لا أراه عجبا ، بل قد يكون معجبا ولا أظنه ابتداعا ، بل قد يكون تجديدا وهو : أن أسمى الباب " سِفرا " وأن أسمى الفصل "جمعا" .

وكان باعثى على السير فى هذا النهج أن الرسالة يجب أن تقدم فيما ينبغى عليها أن تقدمه — من عطاء للبحث الواثق وللدرس الدءوب — شيئا من التجديد ، أو قبسا من الإبداع .

وإذا كان التجديد والإبداع منزلة لا تنبغى لغير الرواد — وقليل ما هم — فإن على أنضاء[1] البحث وأطلاح السهر[2] : أن يحوموا حول هذه المنزلة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

قد وتى فى هذا التقسيم :—

يظن بعض غير الأثبات[3] من أحلاس[4] الثقافة الغربية وعابديها أننا عالة فى مناهج البحث على الغربيين وهو زعم مداه الكذب ، ولحمته الوهم المأفون ، وندحض هذه الأغلوطة بما يلى :—

▲ قسّم القرآن الكريم إلى سور وقسمت السور إلى آيات وهذا التقسيم توقيفى .

▲ وقُسّمت سور القرآن إلى الطوال والمئين والمفصل ، وهو تقسيم ورد سنده فى بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الأصحاب ولا نشتغل الآن ببحث ما إذا كان هذا التقسيم من التوقيف أو من التوفيق ، فإن النتيجة فى الحالين واحدة وهو أنه من منبع الاتباع .

▲ وقُسّم القرآن تقسيما اصطلاحيا إلى ما عرف بالأجزاء والأحزاب والأرباع .. وما ماثل ذلك .

▲ وكانت المجموعة من آى القرآن ينزل بها السيد الأمين على السيد الأمين عليهما السلام تسمى نجما

▲ وقسّم أئمة الحديث جوامعهم إلى الكتب والأبواب .

واتخذ الإمام أحمد فى كتابه مفهرس المسانيد .

▲ وارتضى كل إمام لفقه نهجا يحذرنا مظام القول من الإطالة فى بسطه

ومن الفقهاء من سمى كتابه إلى فصول واصطنع ابن حزم ومن لف لفه طريقة المسائل وهى ليست من مفرداته ولا مبتكراته .

---

(١) النَّضو : وكسر : الولد ، ونَضِيَ كرضى نضىً فهو نَضِيٌّ ونضِيٌّ كعرِيٍّ وحرٍ : مرض مرضا مخامرا كلما ظُنَّ برؤة : نكس وأضناه المرضُ والمضاناة : المعاناة .. وأنظر القاموس حـ ٤ ص ٣٥٥

(٢) قال ابن فارس فى مقاييسه حـ ٣ ص ٤١٨ : (الطاء واللام والحاء أصلان صحيحان ، أحدهما جنس من الصخر والآخر : باب من الهزال وما أشبهه .. يقال ناقةٌ طَلِيحٌ أسفار إذا جهدها السير وهزلها ، وقد طَلِحَت والطَّلَح : المهزول من القردان ومن الباب : الطَّلاح ضد الصلاح ، وكأنه من سوء الحال والهزال) أو بإيجاز وقد ورد فى خطبة أبى حمزة الشارى وهو رأس طائفة الصراة من الخوارج ، قوله فى وصف أتباعه (أنضاء عبادة وأطلاح سهر)

(٣) نعنى بهم الأدعياء ، والأثبات جمع ثبت ، أى الثقات ، يقال : ثبت ثباتا وثبتا فهو : ثابت وثبيت ، وثبتٌ ، وثبته ، وأثبته ، والثبيت الفارس الشجاع كالثبت ، وقد ثَبُتَ كَكَرُمَ ثباتة وثبوتة وثابت العقل ، ومن الخيل الثقيف فى عدوه كالثبيت ... أنظر القاموس حـ ١ ص ١٥٠

(٤) يقال : جلس هذا الأمر

△ وقسم الجاحظ كتابه عن " الحيوان " إلى أسفار سمى كل سفر منها "صحفا" وهو تقسيم إن صح لغة أو وضعاً فلا نرتضيه تنزيها للقرآن أن يُشَبَّهَ به غيره .

△ ولو أردنا استقصاء القول في المسألة لطال بنا الحديث ونحن لم نقصد إليه قصداً ، وإنما عرض لنا فتعرضنا له ، وكفيك من الزاد ما بلغك المحل .

△ وقد ددت حينما ارتضيت هذا التقسيم النجمي أن أسمي مجموعة النجوم "مجرة" كما هو اسمها في عالم الفلك ، إلا أنني وجدت فيه مزيدَ إغراب ، وقد يسمى سوء استعارة ، فصرفت القلم عنه ، وارتضيت ما صنعت وبالله التوفيق .

تحليل لغوي لكلمتي " السفر " و"النجم" :-

تدل كلمة سَفَرَ في اللغة على كشف وجلاء ، وسمي الانتقال من مكان إلى مكان سَفَرا ، لأن الناس بسفرهم ينكشفون عن أماكنهم ، وتجلى لهم ما كان غائبا عنهم والسَّفْرُ : هم المسافرون ، يقال : رجل سَفْرٌ وقوم سَفْرٌ وسَفَرْتُ البيتَ كنسته لأن الكنس إزالة تقتضي كشف أرض البيت ، وجلاء نظافته وما يسقط من ورق الشجر يسمى السَّفير لأنه يكشف فروع الشجرة إذ تصبح عَرِيَّةً وإسفار الصبح يدون بانكشاف الظلام واجتلاء المرئيات ، والسِّفْر : الكتابة والسِّفر : الكتاب ، والسفرة : الكتبة لأن الكتابة تكشف عما في نفس الكاتب وسَفَرَ بين القوم سِفَارَةً : إذ انتقل بين خصمين لإزالة العداء حتى تنكشف غمة الخصام ، وسُمِّيَ الملائكةُ سَفَرَة لقيام بعضهم بالسفارة بين الله سبحانه وتعالى ، ورسله من البشر صلوات الله وسلامه عليهم .

وأما كلمة النجم(2) فتدل على طلوع وظهور ، فيقال نَجَمَ النجمُ : طلع ، ونجم السِّنُّ والقرنُ : طلعا ، وليس لهذا الحديث نجم أي أصل ومطلع ، وسُمِّيَ ما لا ساق له من النبات نجما : لظهوره وطلوعه على وجه الأرض من غير توقع ، وسمي نجم السماء بذلك لطلوعه .

---

(١) أكثر هذه التحليلات أخذناها من ابن فارس ، انظر المقاييس حـ ٣ ص ٨٢

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة حـ ٥ صـ ٣٩٦ ، ٣٩٧

فواتح

البحث

نوافذ البحث
أضواء على العنوان
النص القرآني بين التفسير والتأويل

تحديد المبتغى من القول : أنة من الوهم والإبهام ، وتحرير المراد : نجاة من مزالق اللبس والتلبيس ، لذلك ارتأينا مستعينين من له الخلق والأمر — أن نفصل القول حول عنوان هذه الدراسة ، ملتمسين لهذا التفصيل مظانه من أمهات المصادر اللغوية ، مفرقين بين حقائق الألفاظ ومجازاتها ، وبين أصلها في الوضع ، وما انتقلت اليه في الاصطلاح ، ثم متنقلين إلى كتب الدراسات القرآنية ، — والمباحث الأصولية والكلامية على هذا النحو الذي سيطالعنا :—

أ — النص في معاجم اللغة :

النص : يقول ابن منظور الأنصاري في لسان العرب[1] : " النصّ رفعك الشيء ، نَصّ الحديث ينصه نصا رفعه ، وكل ما أظهر فقد نُصّ ، وقال عمرو بن دينار : " ما رأيت رجلا أنص للحديث من الزهري " أي أرفع له وأسند ، ... والمنصة ما تظهر عليه العروس ، ... وكل شيء أظهرته فقد نصصته ، ونص المتاع نصا جعل بعضه على بعض ... إلى أن يقول : وأصل النص أقصى الشيء وغايته ... ، والنص : الإسناد إلى الرئيس الأكبر ، والتوقيف والتعيين على شيء ما : نص ... وفي الحديث " يقول الجبار : اخذروني فإني لا أناص عبدا إلا عذبته " ، أي لا أستقصي عليه في السؤال والحساب — وهي مفاعلة منه — إلا عذبته ، وفي حديث هرقل " ينصهم " أي يستخبر رأيهم ويظهره ، ومنه قول الفقهاء : نص القرآن ونص السنة أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام ... " أ هـ .

والتنقيب على المادة عند الفيروزابادي في " القاموس المحيط " والمقري الفيومي في " المصباح المنير " ، ومحمد بن أبي بكر الرازي في " مختار الصحاح "[2] ، كان لسان حالهم جميعا ليس لدينا مزيد إلا ما كان

---

(١) انظر اللسان مادة نصص جـ ٨ ط : الدار المصرية صورة عن بولاق .
(٢) انظر المعاجم المذكورة في مادة " نصص " .

من الزمخشري في " أساس البلاغة " من التفرقة بين الحقيقة والمجاز في قوله : " ومن المجاز نص الحديث إلى صاحبه ، قال شاعر :

ونص الحديث إلى أهله ... فإن الوثيقة في نصه

... ونصصت الرجل إذا أخفيته في المسألة ، ورفعته إلى حد ما عنده من العلم حتى استخرجته ، ولخ الشيء نصه أي منتهاه "(١) أ هـ .

ولابن فارس الرازي في مقاييسه(٢) منهج يحسن أن نقف ، فقد قال عن الكلمة : " نصا : النون والصاد والحرف المعتل — وهذا المعتل أكثره واو — أصل صحيح يدل على تخير وخطر في الشيء وعلو ، ومنه النصية من القوم ومن كل شيء : الخيار ، ويقال انتصيت الشيء اخترته ، وهذه نصيتي : خيرتي . ومنه الناصية : سميت لارتفاع منبتها ، والناصية قصاص الشعر ... " .

ويقول الدكتور السيد خليل عن " النص "(٣) :

" الكلمة في الأصل تدل على الرفع ... ثم أطلق على كل قطعة أدبية أو دينية ، وصلت الينا صحيحة السند ، مبرأة من الانتحال والتزيد ، وذلك لارتفاعها عن أسباب هذا الانتحال ، ثم تطورت دلالة هذه اللفظة ، فأصبحت تدل على كل نص لا يحتمل إلا معنى واحدا أو بعبارة أدق لا يتطرق إليه احتمال أصلا ، — وذلك المعنى هو الذي يعرض له الأصوليون في كتبهم ... " .

ب — النص عند الأصوليين والفقهاء :

النص هو " اللفظ الدال على معناه الذي سيق له دلالة واضحة ، واحتمل التخصيص إن كان عاما ، والتأويل إن كان خاصا "(٤) .

---

(١) أساس البلاغة ص ٩٦١ ، ٩٦٢ ط : الشعب .
(٢) انظر معجم " مقاييس اللغة " لأحمد بن فارس بن زكريا الرازي المتوفى ٣٩٥ هـ جـ ٥ ص ٤٢٣ بتحقيق الأستاذ هارون ط : الحلبي القاهرة .
(٣) دراسات في القرآن د . السيد أحمد خليل ص ١٠٧ ط : المعارف ، وذكر أن مراجعه كلمة Text بمعنى النص في دائرة المعارف البريطانية تدل على أن الكلمة عند العرب والأوربيين تفيد توثق المكتوب أو المروي . هامش ص ١٠٧ .
(٤) أصول الفقه ص ١٥١ للشيخ طه الدسوقي ط : البيان العربي .

ذلك أن اللفظ منقسم باعتبار ظهور معناه — عند الأحناف — إلى أربعة أنواع:

١— نص ٢— ظاهر ٣— محكم ٤— مفسر.

وهذا ما أن بحثنا وإن استشهد بالفقه أو أخذ من الأصول إلا أنه بحث ليس من صميم الفقه ولا خاصة الأصول.

تعريف القرآن الكريم:

وننتقل من الحديث عن الموصوف "النص" إلى الحديث عن الصفة "القرآني" أو من الحديث عن المضاف إلى المضاف إليه لو جعلنا العنوان "نص القرآن".

التعريف اللغوي:

تناقلت المعاجم اللغوية [1] وكتب علوم القرآن والتفسير بضعة أقوال حول الأصل اللغوي لكلمة "القرآن" يجدر بنا أن نلم بها مناقشين إياها، مرجحين منها ما يشهد له الدليل ويدعمه البرهان، ونستطيع تصنيف هذه الآراء الى شعبتين:—

— شعبة القائلين بأن اللفظة غير مهموزة "القرآن".
— شعبة القائلين بهمزها "القرآن".

أ — فأما القائلون بعدم همزها فسبلهم في تخريجها:

(١) أن لفظ "القرآن" غير مشتق ولا مهموز: عَلَمٌ على كلام الله الذي أنزله سبحانه بلفظه ومعناه، على عبده الأكرم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نسب هذا الرأي للإمام الشافعي، وحجته "أنه لم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت لكان كل ماقرئ قرآنا، ولكنه اسم كالتوراة والإنجيل" [2] وقد ذكر هذا الرأي عن الشافعي في كتب لاتعد حجة عليه ولو صحت نسبته إليه لم يكن هذا دافعا على التسليم به.

---

(١) رجعنا إلى لسان العرب مادة قرأ جـ ١، وإلى القاموس المحيط، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم لعلماء مجمع اللغة، وأساس البلاغة والمصباح المنير، ومختار الصحاح وكان التعويل على اللسان أكثر.

(٢) انظر البرهان جـ ١ صـ ٢٧٨ نقلا عن تاريخ بغداد للخطيب في ترجمته للشافعي جـ ١ صـ ٦٢، وكذلك لسان العرب مادة قرأ جـ ١.

(٢) أن القرآن بغير همز مأخوذ من القرائن جمع قرينة ، لأن آياته اذ يصدق بعضها بعضا تقوم مقام القرائن بعضها على بعض ، ويخالف هذا الرأى سابقه فى قوله بأن اللفظة مشتقة ، وإن وافقه فى عدم الهمز ، وقد قال بهذا الرأى الفراء [١] من النحاة ، والقرطبى [٢] من الفقهاء [٣].

(٣) أن القرآن غير مهموز من قرن الشىء بالشىء إذا ضمه إليه وجمع بعضه إلى بعض لأن الآية تضم إلى مثلها ومثيلاتها والسور بالسور تقرن ، وقد عزى هذا القول إلى الأشعرى. [٤]

وقد تعقب العلماء المخالفون لهذه الآراء حجج إخوانهم بالإعتذار لها بمثل تعقيب الزجاج [٥] " وهذا القول سهو والصحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ، ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، وهذا ما أشار إليه الفارسى [٦] فى الحلبيات [٧].

وقد قرأ بتسهيل الهمزة من القراء : أبو بكر بن مجاهد ، وعبد الله ابن كثير ، وأبو عمرو بن العلاء . والبون كبير بين القراءة بتسهيل الهمزة وبين حذفها .

ونحن نأخذ على القائلين بالشعبة الأولى أمورا هى :—

(١) أن الأمر فى تسمية القرآن وفى قراءاته أمر نقل متواتر ، وسماع —

---

(١) هو يحيى بن زياد الديلمى وكنيته : أبو زكريا الفراء من علماء اللغة ، ومشاهير النحاة بالكوفة له مؤلف فى معانى القرآن نشر بالقاهرة منذ سنوات وتوفى سنة ٢٠٧ هجرية وانظر ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج٢ ص ٢٢٨ .

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى الأندلسى توفى ٦٧١ هـ — انظر ترجمته فى الديباج المذهب لابن فرحون ونفح الطيب للمقرى .

(٣) وانظر البرهان ج ١ صـ ٢٧٨ والإتقان ج ١ صـ ٨٧ .

(٤) هو أبو الحسن على بن إسماعيل رأس مدرسة فى علم الكلام تنسب إليه توفى عام ٣٢٤ هـ وانظر وفيات الأعيان جـ ١ صـ ٣٢٦ .

(٥) هو أبو إسحق : إبراهيم بن السرى العالم اللغوى توفى سنة ٣١١ هـ راجع إنباه الرواة للقفطى ج ١ صـ ١٦٣ .

(٦) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار وكنيته أبو على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧هـ — ببغداد : عالم نحوى شهير وله كتاب " المسائل الحلبيات " وانظر فى ترجمته (إنباه الرواة ج ١ صـ ٢٧٣) .

(٧) نقلا عن البرهان للزركشى ج ١ صـ ٢٧٨ .

مستيقن . وليس لهذا الرأى مستند من نقل ، ولا حجة من سماع .

(٢) القول بأن " القرآن " علم غير مشتق دال على ذات معينة خلاف لقاعدة القرآن الكريم فى أن أسماءه الأخرى وصفاته مشتقة من ألفاظ دالة على غايات القرآن الكريم .

(٣) القول بأن القرآن مشتق من القرائن أو من قرن الشىء بالشىء ، لا ينصاع بيسر لقواعد الإشتقاق ، ثم إن توجيه معناه لا يخلو من تكلف . وقد سلك هذا الوجه من الإعتراض قدامى ومحدثون من العلماء [1] .

ب — ثم نفصل وجهات نظر القائلين بأن لفظ " قرآن " مهموز ومشتق وهى :—

(١) أن لفظ " قرآن " مهموز على زنة فُعلان . مشتق من القرء أو القرى وهو الجمع ، ومنه تريت الماء فى الحوض إذا جمعته ، وقول عمرو بن كلثوم فى وصف ناقة :—

..... هجان اللون لم تقرأ جنينا

أى لم تجن جنينا ، ولم يضطم رحمها عليه . وقد قال بهذا الرأى الجوهرى [2] وغيره من العلماء .

وتوجيه هذا الرأى لأنه " جمع السور بعضها إلى بعض " [3] كما قاله أبو عبيد ، " ولكونه جمع ثمرات الكتب المنزلة السابقة [4] " كما قاله الراغب صاحب مفردات القرآن .

(٢) إن لفظ قرآن بالهمز مصدر بوزن الغفران مشتق من قرأ بمعنى تلا سمى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر [4] وقد رجحه اللحيانى [5] وكثير من العلماء . وقريب منه " قرأ بمعنى أظهر وبين " لأن القراءة إظهار للألفاظ . وقد نسب

---

(١) انظر مثلا مناهل العرفان فى علوم القرآن جـ ١ صـ ٧ .
(٢) انظر لسان العرب جـ ١ مادة قرأ ، واضطم بمعنى ضم .
(٣) ذكرهما الزركشى فى البرهان جـ ١ صـ ٢٧٧ .
(٤) انظر الإتقان جـ ١ صـ ٨٧ .
(٥) هو العالم اللغوى الشهير أبو الحسن على بن حازم المتوفى سنة ٢١٥ هـ

الزركشي [1] هذا القول الى "بعض المتأخرين" بنص عبارته .

. . .

الرأى الأثير: والرأى الذى نؤثره بدليله على غيره من الرأى هو أن لفظة القرآن مصدر من قرأ تقول قرأ قراءة وقرآنا استعمل بمعنى المقروء إطلاقا للمصدر على مفعوله ، وجعل علما عند إطلاقه على الكلام المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلفظه ومعناه ، ولا نجد كبير خلاف بين هذا الرأى وبين الرأى القائل : إنه من قرأ بمعنى ضم وجمع ، فالأصل اللغوى واحد ، إذ التلاوة ضم أحرف وجمع كلمات بعضها إلى بعض . وقد استعملت اللفظة فى القرآن بمعنى القراءة فى قوله تعالى "إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه" ١٧ ـ ١٩ : القيامة . أى أن الله جلت قدرته يمتن على نبيه بأنه ضمن له أن يجمع له القرآن فى صدره محفوظا بعد نزوله ، وملفوظا ميسرا على لسانه ، ويذهب بعض المفسرين الى أن القرآن ورد بمعنى القراءة فى قوله عز من قائل "... وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا" ٧٨ : الاسراء ، أى وأقسم قرآن الفجر ، أو نصب على الإغراء ، أو بمعنى الصلاة [2] ، وقيل أنها كذلك بمعنى القراءة فى قوله تعالى "الرحمن . علم القرآن" ١، ٢ : الرحمن ، وهو قول فيه نظر والجمهور على خلافه .

القرآن الكريم

وتعريفاته الاصطلاحية عند العلماء

تنوعت نظرات العلماء إلى كتاب الله تعالى بتنوع تخصصاتهم فالمتكلم يبحث فيه عن أسس العقيدة وأدلة الصفات ـ أو هذا ماكان ينبغى أن يكون [3] ـ والأصولى يستنبط منه قواعد الأحكام ، والفقيه يستخرج منه أدلة الفروع ، والنحوى يتخذه حجة يستشهد بها لتأصيل قاعدة ، والبلاغى يستلهم منه أسرار البلاغة ، وروائع الإعجاز ، واللغوى يفهم منه بعض دلالات الألفاظ ، والمقرئ يتحرى وجوه القراءات

---

(١) انظر البرهان جـ ١ صـ ٢٧٧ .

(٢) انظر البيضاوى صـ ٢٨٣ والقرطبى جـ ١٠ صـ ٣٠٥ ، ٣٠٦ بتصرف .

(٣) نشير بذلك الى سيء آثار الفلسفة وسيطرتها على آراء بعض المتكلمين .

وعالم الأخلاق يجد فيه أسس الأخلاق الرفيعة ، وقواعد السلوك المحققة ، وعالم الطبيعة يرى فى كتاب الله أسرار الكون المؤكدة لقدرة الله سبحانه ، الناطقة بوحدانيته ، والمؤرخ يتعلم منه عبر الغابرين وأسرار الماضين ، وهكذا وهكذا ، فإن القرآن علم العلوم وأصل الأصول .

وتعريفات العلماء الإصطلاحية للقرآن الكريم كانت تعبيرا عما يشغلهم من العلوم التى حبسوا أنفسهم عليها .

تعريف القرآن عند المتكلمين : يبحث علم الكلام فى موضوعات العقيدة الإسلامية ، والمنهج الذى انتهجه علم الكلام فى دراسة العقيدة لم يسلم قديما وحديثا من كثير النقد — الذى لسنا بصدده .

والقرآن الكريم هو بيقين — لا يعرف المراء طريقا إليه — كلام الله تعالى ، وكلام الله صفة من صفاته العلية سبحانه . والكلام يطلق بالمعنى المصدرى وهو التكلم ويطلق على المعنى الحاصل بالمصدر وهو الكلمات المتكلم بها ، فعرّفوه بالمعنى المصدرى بأنه الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الحكمية . من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس " وعرّفوه بالمعنى الحاصل بالمصدر بأنه :

" الكلمات الحكمية الأزلية المترقبة فى غير تعاقب المجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية " (١) .

وتهمنا هذه التعريفات على أصحابها ، لذلك نكف عن بسط القول فيها شرحا ومناقشة وأخذا وردا — لأن ذلك ليس من موضوع بحثنا ، وإن كنا لا نرتضى هذا التعريف الذى بلغ فى التجريد حد تعطيل الصفة .

تعريف القرآن عند الفقهاء والمفسرين : الفقه والتفسير علمان يعنيان بالبحث فى القرآن كألفاظ متلوة منزلة يلتمس منها معانيها الهادية المبصرة . لذلك فالتعريف المرتضى عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية للقرآن ، هو الملائم لعلم التفسير ، وذلك هو " القرآن الكريم هو كلام الله المعجز المنزّل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ، المدون فى المصاحف من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس " .

---

(١) انظر أصول الفقه للشيخ الدسوقى ص ٧٠ ط ٣ .

وأهم ضوابط هذا التعريف أنه كلام الله ، المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المعجز ، بدليل أن القرآن وقت تنزله على رسول الله قد كان بغير الضوابط الأخرى . وشرح هذا التعريف :

كلام الله : فصل بين كلامه سبحانه وبين كل كلام سواه . أو اللفظ : وهو جنس في التعريف يشمل المركب والمفرد لأن الاستدلال على الأحكام يكون بالمركب ، ويكون بالمفرد كالمطلق والمقيد ، والعام والخاص .

المعجز : قيد خرج به ما دونه من أنواع الوحي فالكتب السماوية الأخرى غير معجزة بنظمها وكذلك وحي السنة غير معجز وإن كان من عند الله .

المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم : فصل خرج به ما نزل على غيره صلى الله عليه وسلم كصحف إبراهيم عليه السلام ، والتوراة والزبور والإنجيل ، وخرج به ما لم ينزل أيضا من كلام ما سوى الله سبحانه وتعالى .

والمتواتر : قيد خرجت به القراءات الشاذة ، وغير المتواترة وما نسخت تلاوته .

والمتعبد بتلاوته : قيد خرجت به الأحاديث القدسية المتواترة لأنه لا يتعبد بتلاوتها .

التفسير : بين اللغة والاصطلاح

تتردد على ألسنة الدارسين لكتاب الله ، وعلى أسلات أقلامهم هذه الكلمات : معنى الآية .. أو تفسيرها .. أو القول في تأويلها .. فهل هذه الكلمات تؤدي مفهوما واحدا ؟ أما القول بالترادف .. فربما نجحد وجوده أصلا في اللغة !! ومن جعل واحدة من هذه الكلمات تقوم مقام أختيها ، فله وجهته .. ولنا نهجنا ..

ارتضى الزركشي قول ابن فارس " معاني الأشياء التي يعبر بها عن الأشياء ، ترجع إلى ثلاثة : المعنى ، والتفسير ، والتأويل ، وهي وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة " (١) .

---

(١) البرهان في علوم القرآن جـ ٢ صـ ١٤٦ نقلا عن الصاحبي في فقه اللغة ، ـ وسنن العرب في كلامها لابن فارس صـ ١٦٢ .

ونحن نتفق مع ابن فارس فى اختلاف دلالة هذه الكلمات ، وأما تقاربها فى مقاصدها فقضية تحكم فيها بعض صفحات هذا البحث .

فلفظ المعنى يفيد : "القصد والمراد ، وعنيت بالكلام كذا أى قصدت وهو مشتق من الإظهار ، وعنت القربة أظهرت ماءها ... وعنوان الكتاب من هذا لأنه يظهر فحواه ، وعنت الأرض بنباتها أظهرته من خبئها "[1] ويمكن أن نرد كثيرا من استعمالات الكلمة إلى معنى الإظهار كما فصل ابن فارس فلكم اللغوى الخطير .

وتحوى المكتبة العربية عديدا من الكتب تحت عنوان " معانى القرآن " — لبعض العلماء القدامى : كالفراء والزجاج وابن الانبارى وغيرهم ممن ذكرهم صاحب كشف الظنون[2] ... وبعض هذه الكتب أخذ سبيله إلى النشر فى الأعوام الأخيرة ... ومن المحدثين من ألف تحت هذا العنوان .

. . . .

التفسير فى اللغة :

كلمة الفسر : تدل على الإبانة والكشف .. والتفسرة : (كتمرة) نظر الطبيب إلى بول المريض ليكتشف منه حقيقة المرض ، ثم أطلقت على هذا البول المتفحص ، وفسر الشىء وفسره (بالتشديد) وضحه وكشف عنه ، وكل شىء يعرف به تفسير شىء ومعناه فهو تفسرته[3] وقال ابن منظور "التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل[4] وقيل : التفسير : شرح ما جاء مجملا فى الكتاب الكريم ، وتعريف ما تدل عليه ألفاظه العربية ، وتبيين الأمور التى أنزلت بسببها الآى ... والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر ، أو تبيين معنى المتشابه .[5]

---

(١) المرجع السابق مع زيادة شارحة وحذف .

(٢) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفه المجلد الأول صـ ٤٣٠ وما بعدها ط: المثنى بغداد ، والبرهان ج ٢ صـ ١٤٧ .

(٣) انظر القاموس المحيط ج ٢ صـ ١١٤ ، وتاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدى المتوفى ١٢٠٥ هـ ج ٣ صـ ٤٧٠ ببعض حذف وزيادة .

(٤) انظر لسان العرب ج ٦ صـ ٣٦١ .

(٥) انظر تاج العروس ج ٣ صـ ٤٧٠ .

وقال الزركشي : " التفسير : كشف المغلق من المراد بلفظه[1] وإطلاق للمحتهس عن الفهم .. ولقد سمى أبو الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ كتابه الشارحة " الفسر " ومنها : الفسر [2] لديوان أبي الطيب المتنبي ، وقال آخرون : هو مقلوب من " سفر " ومعناها الكشف ، يقال سفرت : المرأة : إذا كشفت وجهها ، وأسفر الصبح أضاء ... [3] وقال الراغب : الفسر والسفر : يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما ، لكن جعل الفسر لأظهار المعنى المعقول ، ومنه قيل لما ينبيء عنه البول تفسرة ... وجعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار : فقيل سفرت المرأة وأسفر الصبح ... " [4] وهذا الذي ذكره الراغب أعاد صياغته الشيخ أمين الخولي في قوله : [5] "السفر الكشف المادي والظاهر ، والفسر كشف المعنى والباطن ، والتفعيل منه التفسير : كشف المعنى وإبانته " ولم يشر إلى انتفاعه بعلم الراغب . ويقول الجرجاني "التفسير : لغة يستعمل في الكشف الحسي ، وفي الكشف عن المعاني المعقولة " [6]

والسر في بناء كلمة التفسير على صيغة التفعيل هو التكثير لأن المفسر يتتبع القرآن سورة سورة ، وآية آية لتفسيرها كما استعملت هذه الصيغة للتكثير في قوله تعالى " .. يذبحون أبناءكم .. " (٤٩ : البقرة) ، "وغلقت الأبواب" (٢٣ : يوسف) . [7]

التفسير في الاصطلاح الشرعي :

يرى نفر قليل من العلماء القدامى ومن سار على دربهم من المعاصرين أن التفسير لا يعرف بالحد ، وبيان موضوعه ومسائله ، لأنه ليس كغيره من العلوم العقلية ويكتفي في تعريفه بأنه العلم المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها [8]

---

(١) ظهر مطبوعا في بغداد عام ١٩٧٠م .
(٢) الإتقان جـ ٢ صـ ١٧٣ ط: التجارية .
(٣) الراغب في مفرداته ، ونقلها الزركشي في البرهان جـ ٢ صـ ١٤٨ وعزاها إلى مصدرها .
(٤) انظر التفسير معالم حياته ، منهجه اليوم وهو فصل من كتابه " مناهج تجديد " صـ ٢٧٢ ط: المعرفة سبتمبر ١٩٦١م .
(٥) انظر " التعريفات صـ ٥٥ ط: البابي الحلبي " .
(٦) البرهان جـ ٢ صـ ١٤٧ بتصرف يسير .
(٧) المبادىء النصرية لنصر الحويحي صـ ٢٥ ـ ٢٦ ط: الخيرية ١٣٢٠ هـ نقلا عن "مناهج تجديد " للخولي بإيجاز .

وأن الإشتغال بتعريفه إطالة بما ليس وراءه كبير جدوى [1] . وإذا كان بعض العلماء قد أدخل فى تعريف التفسير علوما استقلت بذاتها ، فإن هذا مدعاة إلى تحرير تعريف للتفسير ، بعد استعراض بعض الآراء ومناقشتها :

نقل حاجى خليفة [2] عن بعض العلماء [3] تعريفا للتفسير بأنه :

" علم باحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية ، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية ، ومبادئه : العلوم العربية ، وأصول الكلام ، وأصول الفقه ، والجدل ، وغير ذلك من العلوم الخمسة " ويؤخذ على هذا التعريف أن أصحاب رسول الله (ص) وتابعيهم تكلموا فى التفسير ، وتدبروا القرآن آية آية .. ولم يسمعوا بالجدل ، ولم تكن أصول الفقه ، قد استنبطت وقعدت .

ثم أخذ صاحب كشف الظنون فى سرد بعض التعريفات التى قال بها أصحابها وأخذ العلماء الآخرين عليها حتى انتهى إلى ذكر تعريف التفتازانى وهو :

" التفسير : هو العلم الباحث عن أحوال ألفاظ كلام الله تعالى ، من حيث الدلالة على مراد الله تعالى " . لكن الشيخ الفنارى (فى فصل عقده بين يدى تفسيره لسورة الفاتحة) يطلعنا على مأخذين أخذهما على هذا التعريف وهما :

الأول : أن البحث فى أحوال الألفاظ ربما لا يكون من جهة الدلالة والبيان .. بل يكون عن أحوالهما من جهة القراءة وطرق الأداء من إمالة وتفخيم .. وما ماثل ذلك .. فإن علم القراءة جزء من علم التفسير أفرز عنه .

الثانى : المراد (من الألفاظ) إن أراد مطلق الكلام ، دخلت فيه العلوم الأدبية .

وإن أراد مراده (تعالى) فى نفس الأمر ، فلا يفيده مبحث التفسير ، لأن طريقه : إما رواية الآحاد ، أو الدراية بطريق العربية ، وكلاهما ظنى ، ولأن فهم كل واحد بقدر استعداده .

ثم ذكر الفنارى التعريف المرتضى لديه وهو :

" علم التفسير هو : معرفة أحوال كلام الله تعالى من حيث القرآنية ، ومن حيث دلالته على ما يُعلم أو يُظن أنه مراد الله سبحانه ، بقدر الطاقة الإنسانية .. " أهـ [4] .

---

(١) مناهج تجديد فى البلاغة والتفسير لأمين الخولى صـ ٢٧١ .
(٢) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون المجلد الأول صـ ٤٢٧ .
(٣) ذكر حاجى خليفة أن التعريف لأبى الخير بن صدر الدين .
(٤) كشف الظنون كما سبق بإيجاز يسير و بعض الحذف .

والتعريف الذى ذكره الفنارى هو فى نظرنا : تعريف " محرر " ، إلا أن السيوطى نقل عن بعض العلماء تعريفات زاخرة بتفصيلات ، ولا يخلو ذكرنا لها من منفعة وعائدة وهى : (١)

" التفسير فى الإصطلاح : علم نزول الآيات ، وشئونها ، وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ، ومدنيها ، ومحكمها ، ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها ، وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفصلها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها " .

ثم نقل عن أبى حيان (٢) قوله : "التفسير : علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية ، والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك "، ثم شرح هذا التعريف فقال :

قولنا : علم : جنس يشمل سائر العلوم .

وقولنا : يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن : هو علم القراءة ، — ومدلولاتها : مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا متن علم اللغة الذى يحتاج إليه فى (التفسير) .

وأحكامها الإفرادية والتركيبية : يشمل : التصريف والإعراب ، والبيان ، والبديع . ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب ، يشمل مادلالته بالحقيقة ،

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ١٧٤ ، والبرهان جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٢) فى مقدمة تفسيره المسمى بالبحر المحيط .

وما دلالته بالمجاز ، فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد ، فيحمل على غير الظاهر وهو المجاز . وتتمات لذلك: — كالنسخ ، وسبب النزول ، و " قصة "[1] توضح ما أبهم فى القرآن .

هذا هو " المنتخل " من التعريفات وشرحها ، وفى المزيد تزيد لا يفيد[2] الا أن الجرجانى[3] يفرق بين علم التفسير ، وعلم أصول التفسير — وله أنداد فى القديم ومتابعون فى الحديث[4] — فيقول :—

" التفسير فى الشرع: هو توضيح معنى الآية ، وشأنها وقصتها ، والسبب الذى نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة . والأصول : جمع أصل ، وهى — فى اللغة — عبارة عما يفتقر اليه ، ولا يفتقر هو إلى غيره ، والأصل ما يثبت حكمه بنفسه ، ويبنى عليه غيره ، وذلك لأن علم أصول التفسير عند الأصوليين هو ما يبنى عليه التفسير "

وإذاً فإن الأصول : هى الضوابط أو الموازين التى تحدد للمفسر المنهج الذى يجب انتهاجه فى تفسير الآية ليسلم من الأخطاء والمثرات .

وموضوع علم التفسير : هو كلام الله تعالى ، وغايته : العلم بمعانى الآيات القرآنية علما يؤدى إلى سلوك الصراط المستقيم وإلى الفوز فى الأولى والنجاة فى الآخرة . ويجب أن يقر فى يقيننا : أن تفسير أى مفسر ليس إلا محاولة فقط لفهم كتاب الله ، وأن عبارات المفسرين لا توضح فى الميزان مع الكلمات القرآنية على نحو المعادلة والمساواة ، لذا فأنت تجد المفسر يعرض فى تفسيره غرضا من الفهم للآية ، ويطيل الشرح ويتكثر فى سرد وجوه التفسير ، ومناحى التأويل ، ولا يكاد يصل إلى بغيته من التعبير عن مراد الله سبحانه إلا على نحو من الحذر والوجل .

---

(١) ذكر القصص لتوضيح مبهمات القرآن كثيرا ما كانت مدخلا للإسرائيليات والأساطير والتخيلات ، فيجب الحذر والتحوط .

(٢) انظر ما قاله الزركشى فى البرهان ج ٢ صـ ١٤٨

(٣) التعريفات صـ ٥٥ .

(٤) فى القديم : الإكسير فى قواعد علم التفسير وهو مخطوط
مقدمة فى أصول التفسير للإمام أحمد بن تيمية .
وفى الحديث قواعد التفسير الجزء الأول من تفسير القاسمى المسمى بـ " محاسن التأويل " وطبعته دار احياء الكتب بالقاهرة .

وكلما أخلص المفسر لله رب العالمين ، وتجرد عن الأهواء واستكمل آلاته العلمية ، وأفرغ الجهد ، واستفرغ الطاقة ، كان أدنى إلى التوفيق ومشاكلة الصواب.

كلمة التفسير في القرآن :

وردت كلمة التفسير في قول الله جل ذكره : " وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملةً واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا " (٣٢ ، ٣٣ الفرقان) . فاللفظة واردة في سياق مقترح من مقترحات الكفار وهو أن ينزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن جملة واحدة ، وبعد أن بينت الآية الحكمة من تفريق القرآن وتنجيم نزوله ، قال سبحانه : " ولا يأتونك بمثل " ولا يجيئونك بمثل من جنس هذا المقترح ، أو بسؤال عجب كهذا السؤال ، وربما سماه مثلا لأنه مثل في افتضاح بطلانه ، إلا جئناك بالجواب الحق الذي يزهق باطلهم ، ويدمغ قدحهم في رسالتك ، ويكون أحسن بيانا لرسالتك ، وكشفا لما ابتعثك الله له من الهداية [1]، ونقل عن ابن عباس : " تفسيرا " أي تفصيلا [2] .

التفسير عند البديعيين :[3]

وهو نوع من المحسنات المعنوية ، وقد استخرجه قدامة بن جعفر وسمى عند بعض البديعيين " التبيين " وهو أن يتكلم الشاعر أو المتكلم بكلام ، لا يدرك السامع له مضمونه جليا ، مالم يأت بعده مايجليه ويفسره ، ويأتي التفسير بعد الشرط وما هو بمعناه ، وبعد الجار والمجرور ، وبعد المبتدأ الذي يفسر بخبره ، شريطة أن يكون المفسَّر مجملا ، والمفسِّر مفصلا ، فالفرق بينه وبين الإيضاح : أن التفسير: تفصيل الإجمال ، والإيضاح : رفع الاشكال . ومن أمثلته : صالوا ، وجادوا ، وأضاءوا ، واحتبوا ، فهم

∴ أسد ، ومزن ، وأقمار ، وأجبال [4]

---

(١) رجعنا الى تفسير الفخر الرازي ج ٢٤ صـ ٧٩ ، ٨٠ ، ومحاسن التأويل للقاسمي جـ ١٢ صـ ٤٥٧٦ ، والبيضاوي صـ ٣٥٤ .

(٢) البرهان جـ ٢ صـ ١٤٨ ، والصاحبي لابن فارس صـ ١٦٢ .

(٣) انظر دائرة معارف البستاني المجلد السادس مادة تفسير صـ ١٧١ .

(٤) شبههم في الصيال بالأسد ، وفي الكرم والجود بالسحب ، وفي الإضاءة بالقمر ، وأما احتبوا فإما من قولهم : " فلان يحبو ماحوله أي يحميه " ذكره صاحب المقاييس جـ ٢ صـ ١٣٢ ، وكذلك الجبل ، أو من الإرتفاع من قولهم : "الحَبِيُّ" : كغَنِيٍّ " ـ السحاب يشرف من الأفق على الأرض .. والحابي : المرتفع المتكبر انظر القاموس جـ ٤ صـ ٣١٦ .

ومما ورد بعد حرف الجر قول شرف الدين القيروانى :

لمختلف الحاجات جمع بهابه ∴ فهذا له فن ، وهذا له فن
فللخامل الكليا ، وللمعدم الغنى ∴ وللمذنب المعتبى[1] ، وللخائف الأمن

ومما جاء بعد المبتدأ قول ابن الرومى :

آراؤهم ، ووجوههم ، وسيوفهم ∴ فى الحادثات إذا دجَوْنَ نجوم
منها معالم للهدى ومصابيح ∴ تجلو الدجى والأخريات نجوم

ومنه قول الشاعر :

ثِنْتَانِ لو كنت الدماء عليهما ∴ عيناى حتى نوذنا بذهاب
لم توفيا المعشار من جفنيهما ∴ شرخ الشباب ، وفرقة الأحباب

وقول ابن شمس الخلافة :

شيئان حدّث بالقساوة عنهما ∴ قلب الذى يهواه قلبى والحجر
وثلاثة بالجود حدث عنهم ∴ البحر والملك المعظم والمطر

بين التفسير والتأويل
هل من فروق ؟

كثيرا ماوردت كلمة التأويل فى أمهات كتب التفسير ، ولا يراد منها المعنى الإصطلاحى بل ترد بمعنى التفسير[2] ، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن التأويل والتفسير بمعنى واحد[3] ، بينما ارتأى آخرون أن الفروق بينهما من الوضوح بحيث لا يجهلها من له قدم راسخة فى العلوم ، حتى قال أبو القاسم محمد بن حبيب النيسابورى مشنعا على بعض أدعياء العلم " نبغ فى زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما أهتدوا إليه ... "[4]

لذا نورد بعض آراء العلماء :

(١) قال الراغب: التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعماله فى الألفاظ وأكثر استعمال التأويل فى المعانى ، كتأويل الرؤيا ، وأكثره يستعمل فى الكتب الإلهية ، والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها ... ويكون التفسير فى غريب الألفاظ ... أو فى وجيز مبين بشرح ... أو فى كلام مضمن لقصة لا يمكن

---

(١) المقصود : للمذنب الصفح والرضى ، فالمعتبى الرضا واستعتب طلب المعتبى .
(٢) فى الباب الثانى من هذه الرسالة عن " التأويل " بيان مفصل لهذا .
(٣) انظر البرهان جـ ٢ صـ ١٤٩ ، الاتقان جـ ٢ صـ ١٧٣ .
(٤) البرهان جـ ٢ صـ ١٥٢ .

تصوره إلا بمعرفتها كقوله سبحانه "إنما النسيء زيادة في الكفر.." (٣٧: التوبة)، وقوله "وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها .." (١٨٩: البقرة) ويكون التأويل في الجمل .. أو في لفظ يستعمل عاما وخاصا نحو "الكفر" في مطلق الجحود، أو جحود الباريء سبحانه وك "الإيمان" في مطلق التصديق، وفي التصديق بالله عز وجل، وفي لفظ مشترك بين معاني مختلفة .." (١)

(٢) وقال أبو طالب الثعلبي: التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازا، كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر. والتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد (ما يدل على المراد) لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى: "إن ربك لبالمرصاد" (١٤: الفجر)، تفسيره أنه من الرصد، يقال رصدته: رقبته، والمرصاد مفعال منه، وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله .. والاستعداد للمرصد عليه .. (٢)

(٣) وذهب ابن حبيب النيسابوري والبغوي والكواشي وغيرهم إلى أن التأويل: هو صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها ومابعدها، تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الإستنباط (٣)، ونقل السيوطي آراء لم ينسبها إلى قائليها منها (٤):

(٤) التفسير بيان لفظ لايحتمل إلا وجها واحدا، والتأويل توجيه لفظ متوجّه إلى معان مختلفة إلى واحد منها، بما ظهر من الأدلة.

(٥) التفسير: ماورد بينا في كتاب الله، ومعينا في صحيح السنة، وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره بل يحمله على المعنى الذي ورد لايتعداه. والتأويل: ما استنبطه العلماء بمعاني الخطاب الماهرون في آلات العلوم.

رأينا: هذا التعريف الأخير أكثر وضوحا من سواه مع سيره في وادي القصد والإعتدال. ويستفاد من مجموع ماتقدم أن التفسير علم سماع ولا رواية، وأن ميدانه هو الآيات الكريمة البينة بنفسها، أو بغيرها من القرآن، أو بظواهر ألفاظها، أو ببيان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، أو بتفسير اتفقت عليه كلمة أصحاب رسول الله وتلقته الأمة عنهم بالقبول بغير خلاف من يقام وزن لخلافه.

وأن التأويل هو علم دراية واستنباط، وأنه لايقدم عليه إلا الراسخون، وأن موضوعه هو الآيات المشكلات المتشابهات. وللتفسير قواعد، وللتأويل شروط.. وتفصيل ذلك آت بعون الله سبحانه.

---

(١) البرهان ج ٢ صـ ١٤٩، ١٥٠ الاتقان ج ٢ صـ ١٧٣ ببعض التصرف.
(٢) الاتقان نفسه. (٣) البرهان ج ٢ صـ ١٥٠. (٤) الاتقان ج ٢ صـ ١٧٣.

التفسير

أهميته .. وشرف منزلته

التفسير والتدبر:

تعهد الله بحفظ كتابه ما دامت السموات والأرض ، فقال سبحانه : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " (٩ : الحجر) ، وجعله الإمام الهادي ، والداعي إلى الرشد ، والمهيمن بالحق ، كما قال سبحانه : " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ... " (٤٨ : المائدة) ولما كانت هذه مهمته فقد فصله كما قال عز من قائل : "كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون " (٣٢ : الأعراف) ، وبين أن تفصيل الآيات قد يرجع بالفائدة إلى صراط الله : " وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون " (١٧٤ : الأعراف) ، لكن هذا التفصيل لا ينفع إلا أصحاب العقول الراجحة : " كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون " (٢٨ : الروم) ، ولقوم " يتذكرون " (٢٤ : يونس) ، وفصله على علم : " ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم " (٥٢ : الأعراف) وجعله الفاصل في كل أمر " انه لقول فصل " (١٣ : الطارق) وجعله بيانا وتبيانا وبينات[1] .

"هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين " (١٣٨ : آل عمران) " ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء " (٨٩ : النحل) ، " .. هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان " (١٨٥ : البقرة) ، " فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم " (٢٠٩ : البقرة)[2] . " لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة " (١ : البينة) ، والبينة هي القرآن أو رسالة الرسول عليه السلام ولما كان هذا شأن القرآن فقد دعا الله عباده إلى تدبره ، بل جعل التدبر غاية من غايات إنزال القرآن فقال سبحانه : " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب " (٢٩ : ص) ،

---

(١) البيان : مايتبين به الشيء من الدلالة لأن القرآن يبين الرشد والغي ، والتبيان : مصدر بمعنى الإيضاح فهو القيام بالبيان . والبينة : الحجة الواضحة الناهضة ، والبينات : ما في القرآن من الأدلة ، وهو متصف بهذه الصفات جميعا .

(٢) كذلك سمى الله رسالاته جميعا بالبينات " .. جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر والكتاب المنير " (٢٥ : فاطر) ، " وآتينا عيسى بن مريم البينات .. " (٢٥٣ : البقرة) ، " ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض .. " (٣٩ : العنكبوت) " .

" أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (٨٢ : النساء) ، " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (٢٤ : محمد) يسره للذكر والفهم وذلك قوله سبحانه : " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر " (١٧ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٤٠ : القمر) ، وامتدح أهل الاستنباط وذلك في قوله جل جلاله : " وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم " (٨٣ : النساء) وتنوعت سبل القرآن لبيان مقاصده ، وإيضاح أهدافه .. فسبيل - هو ضرب الأمثال :

" ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل .. " (٥٨ : الروم ، ٢٧ : الزمر) ،

" ويضرب الله للناس الأمثال والله بكل شيء عليم " (٣٥ : الروم) ،

- وسبيل هو ذكر قصص الغابرين :

" لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " (١١١ : يوسف) ،

- وسبيل هو استلفات الأنظار ، واسترعاء الإنتباه إلى آيات الله في الأنفس والآفاق :

" وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون " (٢٠ ، ٢١ : الذاريات) ،

" بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب " (٥ - ٨ : ق) ، واشتد نكير القرآن على الذين يحملون وحي الله ، ثم لا يتدبرونه ، ولا به يعملون :

" مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ..... " (٥ : الجمعة) ، وفي القرآن من الآيات الحاضة على الحمل الأمين ، والتدبر الفاقه والاستنباط البصير ، والإهتداء العامل ، فيض كثير .

درجة المتدبرين والمفسرين كما بينها الرسول صلى الله عليه وسلم :

المفسر متدبر للقرآن ومعلم له ، والرسول صلى الله عليه وسلم :

(١) يخبرنا عن خيرنا بقوله : (فيما أخرجه البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه) :

" خيركم من تعلم القرآن وعلمه " .

(٢) ويبين لنا مثوبة قراء القرآن ودارسيه والناهلين من ينابيعه العذاب في قوله فيما رواه مسلم وأبو داود :

" ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم

الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه" وهذه العبارة المعقبة " ومن أبطأ به عمله .." بعد الدعوة والترغيب فى تدابر القرآن " هى بيان قاطع من المعصوم بأن القرآن هو السبيل ، وأنه قائد العمل لله وهاديه .

(٣) ويبين الصادق المصدوق أن من غنم فهم القرآن وعلمه فقد فاز ، وذلك - فيما رواه مسلم - عن عقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفة فقال : " أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق ، فيأتى منه بناقتين كوماوين [1] - فى غير إثم ولا قطيعة رحم " فقلنا :يارسول الله ، كلنا نحب ذلك ، قال : " أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم [2] ، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين ،وثلاث خير له من ثلاث ، وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل " .

(٤) والقرآن كله كالمأدبة فيها النفع والغذاء ، والله جل جلاله هو الداعى إليه ، كما ورد عن ابن مسعود عن رسول الله صلوات الله عليه أنه قال : " إن هذا القرآن مأدبة الله ، تعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لايعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، فاتلوه ، فإن الله يأجر على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول : ألم حرف ، ولكن ألف : عشر ، ولام : عشر ، وميم : عشر " أى عشر حسنات ..

أما إسناده فقال ابن كثير [3] : وهذا غريب من هذا الوجه ،ورواه محمد بن فضيل عن أبى إسحاق الهجرى ، واسمه إبراهيم بن مسلم وهو أحد التابعين ، ولكن تكلموا فيه كثيرا ، وقال أبو حاتم الرازى : لين ليس بالقوى ... ويحتمل - والله أعلم - أن يكون وهم فى رفع الحديث ،وإنما هو من كلام ابن مسعود ! .

وقال القرطبى : قال أبو عبيد فى غريبه : وتأويل الحديث أنه مثل ، شبه القرآن

---

(١) كوماوان : مثنى كوماء ، والناقة الكوماء : العالية السنام ، وهى من خيار الإبل .

(٢) بضم الياء وتشديد اللام : من التعليم ،أو بفتح الياء واللام دون تشديد من العلم وانظر كذلك تفسير القرطبى جـ ١ صـ ٦ .

(٣) انظر فضائل القرآن لابن كثير ملحق بتفسيره جـ ٧ صـ ٤٣٤ ، ٤٣٥ ط: الفكر بيروت واستشهد به أبو عبيد القاسم بن سلام فى فضائل القرآن .

بصنيع صنعه الله عز وجل للناس عليهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليه .. والمأدبة بضم الدال وفتحها من قال بالضم أراد الطعام ، ومن قال بالفتح يجعله مفعلة من الأدب .. وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنى واحد ، ولم أسمع غيره يقول هذا .. والتفسير الأول أعجب إلى .. " أهـ ، ودعوى انفراد الأحمر .. غير صحيحة ، فإن أمهات المعاجم تدعمه ، وقاله الجوهري والفيروزابادي وغيرهما وعبارة القاموس " المأدبة بفتح الدال وضمها : طعام صنع لدعوة أو عرس .. " والآدب الداعي إلى طعام .. "(١)

(٥) وأهل القرآن هم خاصة رب العالمين ، وذلك خبر المعصوم حين قال : " إن لله أهلين من الناس ، قالوا : يارسول الله ، من هم؟ قال : " هم أهل القرآن ، أهل الله وخاصته " . أخرجه ابن ماجه في سننه ، والبزار في مسنده .

أهمية التفسير:

أهمية التفسير مردها إلى أهمية موضوعه ، وهو كتاب الله تعالى أصل الأصول في الإسلام ، وشمس الهداية للخلق أجمعين ، وهناك عبارات واعية رائدة لبعض الأصحاب والتابعين رضوان الله عليهم ، تعبر عن خطر علم التفسير ، ومدى إكبارهم له ، ومنها :

(١) روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أنه ذكر جابر بن عبدالله ، ووصفه بالعلم ، فقال له رجل : جعلت فداك ! تصف جابراً بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قول الله تعالى : " إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد (٨٥ : القصص)(٢).

(٢) أخرج ابن جرير عن مسروق قال : قال عبدالله بن مسعود : " والذي لا إله إلا هو ما نزلت آية في كتاب الله ، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته " ... وقال أيضا : كان الرجل منا

---

(١) قال طرفة بن العبد : نحن في المشتاة ندعو الجفلى .. لاترى الآدب فينا ينتقر والآدب " أن تجمع الناس على طعامك ، وسمي الأدب ـ بفتح الدال أدبا " لأنه مجمع على استحسانه " كما قال ابن فارس وانظر معجم مقاييس اللغة ج ١ صـ ٧٤ ، وكذلك الصحاح ج ١ صـ ٨٦ بط : المطار ، والقاموس المحيط ج ١ صـ ٣٧ ، وكذلك المصباح المنير مادة أدب .

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ١ صـ ٢٦ ، والسبئية يؤولون هذه الآية تأويلا فاسدا يعطيهم مستندا للقول بالرجعة فتأمل !!

إذا تعلم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعلم معانيهن ، والعمل بهن "(١)

(٣) وقال أبو عبد الرحمن السلمي التابعي :

" حدثنا الذين كانوا يُقْرِئُون القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما — رضى الله عنهم — أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات ، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا . "(٢) .

(٤) وقال سعيد بن جبير قال ابن عباس:

" ومن قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابى بهذا الشعر " وقصد سعيد بالأعرابى : البدوى الذى لم يتهذب ، ولا علم له .

(٥) ويقول الحسن البصرى :

" ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما أنزلت ، وماذا عنى به ، وما استثنى من ذلك لا متشابها ولا غيره "(٣) .

(٦) وقال مجاهد بن جبر:

" أحب الخلق إلى الله تعالى ما علمهم بما أنزل "(٤)

(٧) ويقول إياس بن معاوية :

" مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره ، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا ، وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم روعة ، ولا يدرون ما فى الكتاب ، ومثل الذى يحرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب "(٥)

(٨) وقال رجل لابن مسعود رضى الله عنه : أوصنى ..

فقال ابن مسعود : إذا سمعت الله يقول " يأيها الذين آمنوا .. " فأعرها سمعك ، فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه "

---

(١) وكذلك انظر الإتقان جـ ٢ صـ ١٥٧ .

(٢) هذه النقول الآتية أكثرها من مقدمة تفسير الطبرى وما سواه سنشير إليه .

(٣) ، (٤) ، (٥) انظر تفسير القرطبى جـ ١ صـ ٣٦ .

(٩) وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن مرة : " ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني لأني سمعت الله يقول : " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " (٤٣ : العنكبوت) (١)

(١٠) وقال القاضي شمس الدين الخُوَيِّي (٢) : " علم التفسير : عسر يسير ، أما عسره فظاهر من وجوه : أظهرها أنه كلام متكلم لم تصل الناس إلى مراده بالسماع منه ، ولا إمكان للوصول إليه ، بخلاف غيره من الأمثال والأشعار . أما القرآن فتفسيره على وجه القطع ، لا يعلم إلا بأن يسمع من الرسول صلوات الله عليه ، وذلك متعذر إلا في آيات قلائل ، فالعلم بالمراد يستنبط بأمارات ودلائل ، والحكمة منه أن الله تعالى أراد أن يتفكر عباده في كتابه ، فلم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد في جميع آياته .. " (٣) .

حرص السلف على طلب التفسير :

كان السلف عليهم الرضوان لا يستكبرون عن طلب العلم ، ولا يستنكفون من تحصيله ، ولا يدخرون أي جهد في الوقوف على دقائق تفسير آية ، وقد ذكرنا آنفا قول ابن مسعود رضي الله عنه " .. ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته .. " ومن اقتفاء هذا النهج ما روي من أن مسروقا رحمه الله رحل إلى البصرة في تفسير آية ، فقيل له : إن الذي يفسرها رحل إلى الشام ، فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها " (٤) ومنه ما ورد عن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه : " ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله " (١٠٠ : النساء) ، من أنه ظل يتحرى اسم هذا المهاجر أربع عشرة سنة حتى علمه .. (٥) ولم تكن منهم هذه الجهود المباركة في طلب التفسير إلا لأنه قد راعهم من القرآن وعلومه ما راع سهل بن عبد الله ، فجاشت نفسه بعبارات بلغت من عمق النظر ما شاء الله لها أن تبلغ ، وهذه هي : " لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه ، لأنه كلام الله ، وكلامه صفته ، وكما أنه ليس لله نهاية ، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كلٌ بقدر ما يفتح الله عليه ، وكلام الله غير مخلوق ولا تبلغ إلى نهاية فهوم فهوم محدثة مخلوقة " (٦) .

---

(١) انظر الاتقان جـ ٢ صـ ١٧٥

(٢) هو شمس الدين أحمد بن خليل بن سعادة الخوي (بضم الخاء وفتح الواو وتشديد الياء) نسبه الى خُوَى مدينة بأذربيجان (تاج العروس مادة خوى) كان مشتغلا بالطب والفقه والحكمة ، وصاحب المفخر الرازي المفسر المعروف توفي سنة ٦٣٧ هـ (شذرات الذهب ٥ : ١٨٣ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٣١٦) .

(٣) البرهان جـ ١ صـ ١٦ ، والاتقان جـ ٢ صـ ١٧٤

(٤ ، ٥) نقلا عن مقدمة تفسير القرطبي جـ ١ صـ ٢٦ بتصرف يسير .

(٦) نقلا عن البرهان جـ ١ صـ ٩ .

خاتمة المطاف:

ونختتم طوافنا مع هذه الفواتح بهذا القول الجامع:
قال أبو عيسى الترمذي ... باسناده عن الحارث الأعور قال: " مررت بالمسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على عليّ فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم، قال أما إني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "إنها ستكون فتنة" فقلت فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ماقبلكم، وخبر مابعدكم، وحكم مابينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم هو الذي لاتزيغ به الأهواء، ولاتلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولايخلق على كثرة الرد، ولاتنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا " إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به..." من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم" وأما إسناده فقال الترمذي: حديث غريب لانعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال.

قال ابن كثير [1] لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد ابن اسحاق عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور فبرئ حمزة من عهدته على أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام في القراءة ... وقضارى الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال القرظي [2]: الحارث: رماه الشعبي بالكذب وليس بشيء، ولم يبن من الحارث كذب، وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره ... إلخ.

ونرى أن المعاني التي وردت في الحديث صحيحة رفيعة، فهو وإن كان من كلام أمير المؤمنين كما يرجح إلا أنه قد ارتشف سلسبيله من ينابيع النبوة الطاهرة.

---

(١) انظر فضائل القرآن لابن كثير صـ ٤٣٤ ملحق بـ ج ٧ من تفسيره ط: الفكر بيروت.
(٢) انظر تفسيره ج ١ صـ ٥.

السِّفْرُ الأَوَّل

النص القرآني
و
التفسير

النَّجم الأول

فِقْهُ اللُّغَةِ

و

فِقْهُ التَّفْسِيرِ

حـــذق اللغـــــه ونقـــــه التفسيـــــــر

" لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا " مالك بن أنس فيما رواه البيهقى فى شعب الإيمـــان
(البرهان جـ ٢ صـ ١٦٠)

" .. وليس لغير العالم بحقائق اللغه ومفهوماتها ، تفسير شئ مـــن الكتاب العزيز ، ولا يكفى فى حقه تعلم اليسير منها ، فقد يكون اللفـــظ مشتركا ، وهو يعلم أحد المعنيين "
الزركشـى (البرهان جـ ٢ صـ ١٦٥)

منهجنـــا
فى فهـم لغـة القـرآن

يقـوم منهجنا فى فهم لغة القرآن على القواعد الآتية :

(١) تحديد أصل الوضع اللغوى للكلمة والتفرقة بينه وبين الإستعمالات الحادثة والإصطلاحات المذهبية :

فمـا من شك أن اللغة كائن حـى ، يطرأ عليه مايعترى الكائن الحى من أعـراض وأنت ترى لكل عصـر من عصور الأدب العربى سمات خاصة به كما أن لكل أديب مـن الأدباء طريقته المميزة له ، وكم كان للقدماء من أبحاث حول العربى والمعرب ، — والأصيل والدخيل والمولد ، حتى صرنا إلى عصر أصبحنا نرى فيه أكبر هيئة لغويـة وهى مجمع اللغـة العربيـة بالقاهرة يقـر ويتوسـع فى الإشتقاق من الكلمات — الأعجمية : حتى أقـر استعمال الفعل " بصتر " مشتقا له من اسم العالم " باستيـر " كما أقر استعمال (فبرك) من (الفابريكة) (١) ولا طيل بذكر الأمثلة وإنما نقول إذا كان للزمن تأثير على اللغة فإن القرآن ولغته لايخضعان للمؤثرات ، فمثلا وردت كلمة — (السيارة) فى قوله تعالى : " وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه .... " (١٩ : يوسف) ، وليست كلمة السيارة هذه هى التى نعرفها اليوم اسما لمركبة تسير على عجلات وتتحرك بآلات وتندفع بطاقة احتراق الوقود ، وكلمة (الطَوْر) فى قولـه تعالى : " وقد خلقكم أطوارا " (١٣ ، ١٤ : نوح) يجب ألا تستغل لتأييـد نظرية أصل الأنواع التى قال بها (دارون) وتأسيسا على هذه القاعدة ، فإنـه ينهـى ألا تحمل ألفاظ القرآن الكريم دلالات لم تكن لها فى عصر الوحى ، فالقـرآن الكريم وإن كان مصدر العقيدة الإسلامية الصحيحة ، إلا أن ذلك يجب ألا يكون ذريعة للفرق الكلامية ، لحمل بعض ألفاظ القرآن الكريم على تأييـد أصولها المذهبية ، أو تحميلها دلالات خاصة . فمثلا كلمة التأويل فى مواضع ورودها فى القرآن الكريم لهـا معنى يختلف عن معناها الإصطلاحى عند المتكلمين والفقهاء) وكذلك نسبة الهـدى والإضلال إلى رب العزة جل جلاله كما فى قوله تعالى : " .. كذلك يضل من يشـاء ويهدى من يشاء .. " (٢) (٣١ : المدثر) ، وقوله : " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها " (١٣ : السجدة) ، فإن المعتزلة بناء على أصلهم الفاسد فى خلق العبـــاد

---

(١) انظر كتاب فى أصول اللغة جـ ١ صـ ٢٥١ ، ٢٥٢ أخرجه الأستاذ / محمد خلف الله أحمد وانظر قرارات الجلسة الثالثة من مجتمع الدورة الثلاثين القاهرة سنة ١٩٦٤ .

(٢) فسر الزمخشرى هذه الآية فى كشافه جـ ٣ صـ ٢٨٩ بقوله : " كذلك : أى مثل ذلك المذكور من الضلال والهدى يضل الكافرين ويهدى المهتدين يعنى يفعل فعلا حسنا مبنيا على الحكمة فيراه المهتدون حكمة فيذعنون له لاعتقادهم أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة فيزيدهم إيمانا وينكره الكافرون ويشكون فيه فيزيدهم كفرا وضلالا " أ هـ .

لأفعالهم[1] فسروا الهدى من الله بأنه بيان طريق الصواب ، وفسروا الإضلال بأنه حكم الله تعالى على العبد بالضلال ، عند خلق العبد الضلال فى نفسه . كذلك فإن القرآن هو مدد الفقهاء ومصدر الأصوليين ولكن المنهج الراشد ألا نتعسف تأويل ألفاظه انتصارا لقاعدة مذهبية أو ترويجا لفكرة خاصة .

(٢) التفرقة بين أصل الوضع اللغوى وبين الحقائق الشرعية للألفاظ:

فكلمة (الصلاة) لها معنى فى أصل الوضع اللغوى ، ثم استعملت للدلالة على حقيقة شرعية لكننا نرى أن الكثير من أصحاب المعاجم يخلطون بين الدلالة اللغوية والحقيقة الشرعية ، من ذلك ما فعله الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط اذ قال[2] : " الصلاة : الدعاء ، والرحمة ، والاستغفار ، ومن الله : الثناء منه عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعبادة فيها ركوع وسجود ، واسم يوضع موضع المصدر .. والصلوات : كنائس اليهود ، وأصله بالعبرانية "صلوتا" " أ هـ . فهو هنا جمع العديد من المعانى التى يستعمل لها لفظ " الصلاة " ، ولم يبين الفرق بين الحقائق اللغوية والحقائق الشرعية ، وكذلك لم نجد عند الزمخشرى فى أساس البلاغة فى مادة " صلى " ما يغنى فى هذا الموضوع[3] وهذا يذكرنى بما قاله أحد الباحثين[4] وهو "وكثيرا ما يقف الباحث أمام بعض الألفاظ موقف الحيرة والتردد ، إذا أراد أن يعتمد فى فهم معناها على أصل وضعها ، ثم يستنجد المعجمات ويستهديها فلا تنجده ولا تهديه ، ويستعرضها ويستوحيها ، فلا يجد فيها من الألفاظ والمعانى إلا ضلّ بن ضل ، وقُل بن قل" ولكننا وجدنا عند الأستاذ أمين الخولى فى جزئه الذى قسم له من " معجم ألفاظ القرآن الكريم " من المنهجية حول هذه الكلمة ما تقتضينا الأمانة العلمية أن نذكره وهو قوله[5] : " ترددت أقوال " متعددة فى بيان الأصل اللغوى لمعنى الصلاة منها :

---

(١) انظر شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية لعلى بن على بن محمد بن أبى العز المتوفى ٩٢ هـ صـ ٨٧ من الطبعة التى حققها الشيخ أحمد محمد شاكر .

(٢) انظر القاموس المحيط جـ ٤ صـ ٣٥٥ .

(٣) انظر أساس البلاغة صـ ٥٣٩ .

(٤) محمد عبد الجواد فى مقدمة كتابه " البحاثة اللغوية " .

(٥) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم الجزء الرابع اعداد الاستاذ أمين الخولى طبعة ١٣٨٧ هـ صـ ٨٧ ، ٨٨ .

١ ـ أنها من اللزوم ، يقال صَلِيَ ـ كعَلِمَ ـ واصطلى ـ إذا لزم الصلاة لزوم مافرض الله ، أو :

٢ ـ إنها من الصَّلا ، وهو النار بمعنى صلَّى ـ بالتضعيف ـ : أزال عن نفسه بهذه العبادة الصَّلا ، أى النار ، مثل قولهم : مرَّض ـ بالتضعيف ـ أى أزال المرض وهو من مأخذ الأول باختلاف فى التخريج ... أو :

٣ ـ إنها من الدعاء ، من قول شاعرهم : " صليت مثل الذى صليت " ، أى دعوت ، وفى الصلاة المفروضة دعاء ، فسميت ببعض أجزائها ، وهو قول كثير من أهل اللغة .. أو :ـ

٤ ـ إنها من التعظيم كقولهم فى التشهد " الصلوات لله " ، أى الأدعية التى يراد بها التعظيم فسميت الصلاة بذلك لما فيها من تعظيم الله وتقديسه وهو قريب من الثالث[1] معنى عليه ... أو :

٥ ـ أنها من الصلا ، وهو ما عن يمين الذنب وشماله فى الحيوان ، وأول موصل الفخذين من الإنسان ، وهما يتحركان عند الإنحناء والقيام .. أو :

٦ ـ أنها من الصلا ، وهو وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع ، لأن الإنسان يبسط صلاه عند الصلاة ، وهو من وادى سابقه فى التخريج " اهـ .

ثم ذكر الأستاذ الخولى الرأى القائل : بأن لفظ الصلاة ليس عربيا أصيلا وإنما هو آرامى الأصل وهو رأى لانرتضيه وإن صح فهو مما اتفقت عليه اللغات لتقارب اللغات السامية بعضها من بعض .

وما يقال عن الصلاة يقال عن غيرها من الكلمات التى لها دلالة معينة فى أصل الوضع اللغوى ، ثم نقلت بعد ذلك إلى استعمالات شرعية فكلمة الزكاة تأتى لغة وتستعمل لغة بمعنى النماء والزيادة وبمعنى الطهر والصلاح والصلة بينهما قوية لأن الصلاح نماء للحسنات والطهر المعنوى زيادة فى الخيرات وبهذا الإستعمال اللغوى جاءت فى القرآن فى قوله تعالى : " ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكا منكم من أحد أبدا " (٢١ : النور) أى ماطهر من الذنوب ، وفى قوله تعالى : " ذلكم أزكى لكم وأطهر " (٢٣٢ : البقرة) أى أكثر نماء لفضائلكم ، ومن هذا الباب قوله تعالى : " فلينظر أيها أزكى طعاما " (١٩ : الكهف) ، ـ

---

(١) فى الأصل الثلاث : وهو خطأ مطبعى .

وليس المقصود بالأزكى الأصلح والأجود فحسب ، وإنما الذى أراه والله أعلم أن سر استعمال أزكى هنا لتجمع الكلمة بين الصلاح المعنوى ببعد الطعام عن المحرمات والصلاح المادى ببعد الطعام عن العفن والنتن وما شابه ذلك من صور فساد الأطعمة ، وقوله تعالى : " فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما " (٨١ : الكهف) ، أى خيرا منه صلاحا وطهر نفس .

وجاءت الكلمة بالمعنى الشرعى وهو إخراج قدر معلوم إلى المحتاجين من مال بلغ النصاب ، وحال عليه الحول وبهذا المعنى جاءت فى قوله تعالى : " وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون " (٣٩ : الروم) ، وفى قوله تعالى : " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " (٤٣ : البقرة) ، وقوله تعالى : "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (٢٧٧ : البقرة) ، وجاءت بمثل هذا الإستعمال فى كثير من سور القرآن ، وغالبا ما تأتى الزكاة بالمعنى الشرعى مقترنة بكلمة الإيتاء .

وقد تأتى الكلمة محتملة للمعنيين معا : اللغوى والشرعى ، كما فى قوله تعالى : " ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير " (١٨ : فاطر) ، ومثلها قوله تعالى : " وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى " (١٨ : الليل) ، فالمعنى يخرج ماله ليتطهر هو من الشح والكنزانة أو ليطهر ماله أو يكون المعنى يؤتى ماله للزكاة ، ومثلها قوله تعالى : ((قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى)) (١٤ ، ١٥ : الأعلى) .

وكلمة الجنة وردت فى القرآن بالمعنى اللغوى وهو البستان أو الحديقة لأن لها من الأشجار ما يجن (أى يستر ما خلفها) ، وذلك كما فى قوله تعالى : " .. كمثل جنة بربوة .. " (٢٦٥ : البقرة) وقوله سبحانه : " واضرب لهما مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا " (٣٢ ، ٣٣ : الكهف) .

ووردت الجنة بمعنى دار الخلد التى وعد الله بها عباده فى الحياة الآخرة فى مواضع كثيرة من القرآن كما فى قوله تعالى : " والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون " (٨٢ : البقرة) ، وقوله تعالى : "فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى " (٢٩ ، ٣٠ : الفجر) .

٣ ـ تتبع استعمالات اللفظة فى مواضع ورودها فى القرآن الكريم :

مما يعين على تحديد دقيق لمعانى ألفاظ القرآن الكريم ، أن نتتبع اللفظة القرآنية فى كل مواضع ورودها فى كتاب الله فهذا قد يكون عونا لإزالة اللبس عن كلمة من كلمات القرآن الكريم ، وقد يكون ظهيرا لفهم المدلول الصحيح لهذه الكلمة ، وترجيحه على غيره ، فمثلا نحن نعرف شغب الغاغيين حول الإسراء ، هل كان بروح رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بروحه وجسده معا ، وبالإضافة إلى الأدلة الوافرة المتظاهرة التى تقطع بأن الإسراء كان بجسد الرسول صلى الله عليه وسلم وروحه ، فإن تتبع استعمالات الفعل (أسرى) فى القرآن ، يضيف دليلا آخر لهذه القضية ، وتفصيل ذلك يكون بذكرنا للآيات التى وردت فيها الكلمة وهى : " سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. " (١ : الاسراء) ، " قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم .. " (٨١ : هود) ، وفى شأن لوط أيضا جاء قوله تعالى : " فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون " (٦٥ : الحجر) ، فأنت ترى فعل " الإسراء " ورد مقترنا بظرف وقوع الفعل وهو الليل فى كل الآيات السابقة ، مع أن كلمة " الإسراء " معناها السير ليلا ، ومثل هذا الإستعمال وردت أيضا فى قوله تعالى : " ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى " (٧٧ : طه) ، " وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون " (٥٢ : الشعراء) مع أن هاتين الآيتين خلتا من ذكر الليل ، إلا أن آية الدخان ذكرت لفظة الليل فى إسراء الكليم بقومه وهى قوله تعالى : " فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون " (٢٣ : الدخان) ، ومثل هذا الإستعمال تجده فى قوله تعالى : " والليل إذا يسر " (٤ : الفجر) ، بل أستطيع أن أزعم أن لفظة (سريا) فى قوله تعالى : " قد جعل ربك تحتك سريا " (٢٤ : مريم) ، هى من هذه الأسرة فما سمى النهر " بالسرى " إلا لأن ماءه يسرى فى الأرض ، وكذلك استعمال كلمة (السرى) للرجل الذى يسود قومه .

ونضرب مثالا آخر لمزايا تتبع استعمالات اللفظة فى القرآن بكلمة " الضحك " فإن أصل معنى الكلمة فى الوضع اللغوى دال على (١) البروز والإنكشاف ، ومنه يجئ ضحك الإنسان لانبساط وجهه وظهور الضواحك من أسنانه " ثم إن الضحك مختلف باختلاف بواعثه : فهناك ضحك السخرية كما فى قوله تعالى عن سخرية الكافرين بالمؤمنين : " فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون " (١١٠ : المؤمنون) ، وهناك ضحك السرور والفرح

---

(١) هذه عبارة معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

كما فى قوله تعالى : " وجوه يومئذ مسفره ، ضاحكة مستبشرة " (٣٨ ، ٣٩ : عبس) وهناك ضحك التعجب ومنه قوله تعالى عن زوج إبراهيم عليه السلام : " وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " (٧١ : هود) ، فالراجح فى تفسير الضحك هنا أنه لشدة التعجب ، ويؤيد هذا التفسير أن كل استعمالات الكلمة فى القرآن جاءت بهذا المعنى وأن الإستثناء دليله لايخلو من نظر ، ثم إن السياق دال على ذلك وهو قوله تعالى : " قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشئ عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله .." (٧٢ : ٧٣ : هود) ، وأنت ترى أن كلمة " العجب " وردت على لسانها ، ووردت فى وصف الملائكة لها ، ويؤيد ذلك أيضا قوله تعالى : " فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم " (٢٩ : الذاريات) ، وكل هذا يفهم منه التعجب كما يفهم من قولها " ياويلتا " [1] وكذلك يظهر التعجب فى قولها " أألد وأنا عجوز " وفى قولها " وهذا بعلى شيخا " .

وقد فسر بعض المفسرين الضحك بالحيض وهو تفسير لا يعين عليه السياق كما سبق بيانه وأما من جهة اللغة فإن القرطبى يقول [2] : " وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت " .

وقد نسب تفسير الضحك بالحيض إلى مجاهد وعكرمة ، واستشهد لهذا الإستعمال من حسّنه من المفسرين بقول الشاعر :

" وأنى لآتى الحرس عند طهورها ∴ وأهجرها يوما إذا أنت ضاحكا "

ولكننا نطمئن إلى ما اطمئن إليه الجمهور من تفسير الضحك بالضحك المعروف وهو ما ارتضاه بعض المفسرين وقد بسط القرطبى القول فى ذلك حين قال [3] : " وقال مقاتل : ضحكت من خوف إبراهيم ... وليس الضحك (الحيض) فى اللغة بمستقيم ، وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك ، وقال الفراء : لم أسمعه من ثقة ، وإنما هو كناية . وقيل : ضحكت سرورا بالأمن لقولهم لإبراهيم عليه السلام لاتخف . وقال الفراء فيه تقديم وتأخير والمعنى فبشرناها بإسحاق فضحكت أى ضحكت سرورا بالولد وقد هرمت ..." اهـ

---

(١) قال القرطبى : " لم ترد الدعاء على نفسها بالويل ولكنها كلمة تخف على أفواه النساء إذا طرأ عليهن مايعجبن منه " انظر جـ ٩ صـ ٦٩ .

(٢) انظر تفسير القرطبى جـ ٩ صـ ٦٦ .

(٣) انظر تفسير القرطبى جـ ٩ صـ ٦٦ ، ٦٧ بإيجاز وتصرف .

٤ ـ مراعاة معنى اللفظة من خلال السياقات الواردة فيها :

ومع وجوب الانتباه لما سبق من الخطوات المنهجية فى فهم اللفظة القرآنية ، فإن قرينة السياق أيضا تحدد المراد ، فإن الكلمة قد يختلف مدلولها من سياق إلى آخر ، ومثال ذلك كلمة ((الإحصان)) فى القرآن الكريم فقد وردت بمعان متغايرة وإن جمعتها رحم واحدة ، وبرهان ماقلنا أن آية فى سورة النساء هى آية المحرمات قد ورد فيها النص على حرمة نكاح المحصنات من النساء ووردت الآية التالية لها بإباحته ، ولا نسخ ولا تناقض لأن المقصود "بالمحصنات" فى الآية الأولى "المتزوجات" من النساء والمقصود " بالمحصنات فى الآية التالية الحرائر ولنقرأ معا قوله تعالى :

" حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف إن الله كان غفورا رحيما . والمحصنات من النساء [1] إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين [2] غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما . ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات [3] المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات [4] غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن [5] فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف [6] ماعلى المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وإن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم " (٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ : النساء) .

(١) أى حرمت عليكم المحصنات وهن المتزوجات إلا من كانت متزوجة وصارت من ملك اليمين بأن وقعت فى السبى فانها مستثناة من التحريم .

(٢) أن تطلبوا بأموالكم الإحصان وهو الزواج لا السفاح .

(٣) المحصنات هن الحرائر ، فمن لم يجد مالا لزواج الحرة ، جاز له أن يتزوج الأمة المؤمنة .

(٤) حال كونهن عفيفات .

(٥) أحصن أى تزوجن .

(٦) نصف ماعلى الحرائر غير المتزوجات من عقاب الجلد .

ووردت كلمة " المحصنات " بمعنى العفيفات غير المسافحات فى قوله تعالى : " اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين " — (٥ : المائدة) [1] وذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالمحصنات هنا : الحرائر ، ويمكن الجمع بأن يقال الحرائر العفيفات ومن هذا المثال يتضح لنا أهمية تحديد دلالة الكلمة من خلال سياقها وترك هذا التحديد يوقع فى اللبس بل قد يدفع إلى الزيغ ، ونسوق مثالا واقعيا يوضح ما نعنيه وهو :

ذهب المنكرون للرجم [2] إلى إنكار الأحاديث الصحيحة الواردة فيه ، ثم لم يقفوا عند هذا الحد وعمدوا إلى بعض نصوص القرآن يتعسفون تأويلها لاستخراج أدلة تؤيد دعواهم وكان من هذا استدلالهم بقوله تعالى فى شأن حد الإماء اذا زنين وهو " فاذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب " (٢٥ : النساء) ، فقالوا : إن — المقصود بالمحصنات : المتزوجات ، وبما أن حد الرجم لا ينصف فإن حد المحصنة وهى المتزوجة إذا زنت هو الجلد ، إذاً فإن نصوص القرآن وردت بحد "الجلد " دون " الرجم " وتلك هى دعواهم ونقض استدلالهم هين يسير ، إذا تبينا أن كلمة المحصنات استعملت فى القرآن فى معنى الحرائر العفيفات أكثر مما استعملت فى معنى المتزوجات كما سبق أن — بينا ، وبالتالى فإن معنى الآية الكريمة : فاذا أحصن أى : فإذا زوجت الاماء ، ثم أتين بفاحشة وهى الزنا ، فإن حد " الأمة " هو نصف حد " الحرة " وهو معنى قوله سبحانه : " فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب " فتصبح المائة جلدة المذكورة فى قوله تعالى : "الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة .. " (٢ : النور) ، تصبح خمسين جلدة للأمة .

٥ — معرفة الفروق بين الألفاظ المتقاربة :

هناك ألفاظ فى القرآن الكريم ذات دلالات متقاربة وينبغى للمفسر لكتاب الله أن يدرك بوعى دقيق هذه الفروق ، فإن أدركها عاصم من الزلل ، معين على حسن

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ٦ صـ ٧٩ ، البيضاوى صـ ١١٩ ، ومحاسن التأويل للقاسمى جـ ٦ صـ ١٨٦٧ ، صـ ١٨٦٨ .

(٢) وجدت نزعة انكار الرجم قديما عند المعتزلة ومن ماثلهم ممن يتلقون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقلوب المعرضة ، والأهواء المتحكمة ، ووجدت عند بعض "المصريين " ممن يقتفون درب القدامى .

الفهم لكتاب الله . من ذلك مثلا قول الله جل ذكره " وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا " (٥٤ : الفرقان) ، فقد ورد فى الآية لفظتا (النسب) ، (الصهر) والفرق بينهما هو كما يلى :

(١) " النسب " هى صلة القرابة بين الولد ووالده ، فاذا قيل نسبه إليه أى وصله به وعزاه اليه [1] ، وغالبا مايكون النسب إلى الآباء قال تعالى : " وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا " (١٥٨ : الصافات) ، وذلك حين زعم المشركون أن الملائكة بنات الله وأما "الصهر" فقد قال ابن فارس (الصاد والهاء والراء أصلان : أحدهما يدل على قربى والآخر على إذابة شىء ، فالأول الصهر ، وهو الختن . قال الخليل : لا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان ، ولا لأهل بيت المرأة إلا أصهار . ومن العرب من يجعلهم أصهارا كلهم ... [illegible] أ هـ وزعم بعضهم أن كلمة صهر [2] معربة عن الكلمة الفارسية (شوهر) وزعم أن ذلك يغنى عن التأول ، والذى يراه كاتب هذه السطور أن هذا هو التأول بعينه وأن كلمة الصهر عربية أصيلة وإذا كان ابن فارس قد ذهب إلى أن الكلمة دالة على معنيين ، فإننى أرى الصلة القوية بين المصاهرة وبين إذابة الشىء لأن الذى يصهر إلى قوم يختلط بهم ، — ويختلطون به ، ويختلط بزوجته اختلاط ملابسة ، واختلاط ذوبان ، ولعلك تلمح هذه المعانى فى قوله تعالى : " هن لباس لكم وأنتم لباس لهن " (١٨٧ : البقرة) ، وقوله تعالى : " .. وقد أفضى بعضكم إلى بعض .. " (٢١ : النساء) ،

٦ـ قضية الترادف :

ومما يتصل بمعرفة الفروق قضية الترادف ، وهى قضية امتدت فيها حبال القول قديما وحديثا [3] ، والرأى المرتضى لنا هو نفى الترادف موافقين فى ذلك لبعض ثقات اللغويين ومنهم أبو هلال العسكرى الذى اختار من بين أبواب كتابه بابا جعل عنوانه " الإبانة عن كون

---

(١) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم المجلد الثانى صـ ٥١٥ .
(٢) انظر ماذكره الأستاذ الخولى فى معجم ألفاظ القرآن الكريم ج ٤ صـ ٩٦ .
(٣) انظر فى موضوع الترادف كتاب أبى هلال العسكرى وهو " الفروق اللغوية " ، وكتاب "مااتفق لفظه واختلف معناه للمبرد" ، وكتاب " الصاحبى " لابن فارس ، وغيرها من الكتب . وانظر من كتابات المحدثين من " بلاغة القرآن " للدكتور أحمد بدوى ، و " الإعجاز البيانى للقرآن " الدكتوره عائشة عبد الرحمن .

اختلاف الألفاظ في لغة واحدة يوجب اختلاف المعاني " . وإذا كان النطاق يحول بيننا وبين التوسع في الجزئيات فإننا نجتزئ بضرب مثال عن الفرق بين كلمتي : (الخوف والخشية) في قوله تعالى خطابا لكليمه موسى : " فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى " (٧٧ : طه) ، فإن كلمة " الخوف " ليست مرادفة لكلمة "الخشية" كما يتوهم البعض ، وإنما الذي يترجح في التفرقة بينهما من استقراء المعاجم اللغوية ، واستقصاء استعمالات الكلمتين في القرآن الكريم ، هو مايلي :

أن (الخوف) لما كان ناشئا عن الطبيعة الإنسانية والفطرة الآدمية ، قال ابن فارس [1] : "الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع يقال خفت الشيء خوفا وخيفة " أهـ ومما يقوي هذا الإستنتاج أن الله سبحانه وتعالى نسب هذا الخوف إلى أنبيائه وأصفيائه فقال عن الكليم موسى عليه السلام : " فأوجس في نفسه خيفة موسى " (٦٧ : طه) ، وقال عنه وعن أخيه هارون عليهما السلام : " قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى " (٤٥ : طه) ، وغالبا مايكون الخوف فزعا وقلقا وحذرا من توقع أمر مكروه فنستطيع أن نقول أنه حالة عارضة .

وأما (الخشية) فهي على حد قول أبي البقاء [2] : " أمر تقتضيه المعرفة ، ويبعثه شعور الخاشي بعظمة مايخشاه ، وإحساسه بضعفه هو " ومثل هذا القول قال كثيرون من العلماء [3] ، واستعمالات الكلمة في القرآن تعين على هذا ، اقرأ قوله تعالى : " الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله " (٣٩ : الاحزاب) ، و "فلا تخشوهم واخشوني " (١٥٠ : البقرة) ، "أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين " (١٣ : التوبة) "إلا تذكرة لمن يخشى " (٣ : طه) ، فكل هذه الاستعمالات تبين أن خشية المؤمن يجب ألا تكون إلا لله وحده . فإذا عدنا إلى آية البدء فهمنا منها أن الله سبحانه وتعالى يثبت قلب موسى عليه السلام فأمره أن يسلك طريقا يبسا في البحر وأن هذا الطريق الذي شقته قدرة الله بين الأمواج المتلاطمة لن يستطيع فرعون أن يسلكه ، فأنت في مأمن منه لا تخاف أن يدركك وقد تجرد قلبك الا من خشية الله ، فأنت لا تخشاه لأنه عبد ذليل هين على الله وانما خشيتك هي لله وحده .

---

(١) انظر معجم المقاييس ج ٢ صـ ٢٢٠ .
(٢) انظر مادة الخوف في كليات أبي البقاء .
(٣) انظر مادة خشي في معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي أخرجه مجمع اللغة العربية .

" اللفظة القرآنية "
بين الأصول والأرحام اللغوية

من الركائز الرئيسية لفهم النص القرآني ، أن نفهم اللغة التي نزل بها القرآن ، واللغة تراكيب جامعة لمفردات ، وبحثنا هذا يدور حول المنهج الأمثل لفهم مفردات القرآن .

والمنهج المأثور عند كثير من المفسرين واللغويين أن يذكروا اللفظة الواحدة العديد من المعاني ، دون ذكر للأصل الذي تفرعت عنه هذه المعاني ولا بحث عن الرابطة الجامعة لأشتات الدلالات للفظ الواحد ، ولنضرب الأمثال لهذا الصنيع :-

ذهب الدامغاني : في كتابه " الوجوه والنظائر "[1] إلى أن كلمة " الحجاب " لها أربعة أوجه في القرآن الكريم :

١) الحجاب : بمعنى الجبل ، كما في قوله تعالى : " ... حتى توارت بالحجاب " "٣٢ : ص"

ونحن نذهب مع المعلق على أن الضمير قد يكون للشمس أي حتى غربت ، أو للخيل أي استترت عن العين وتوارت بحجاب الأفق ، والقول بأن الجبل هو الحجاب احتمال مرجوح في هذا السياق .

٢) الحجاب : الساتر ، كما في قوله تعالى : " ... وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ... " "٥٣ الأحزاب"

بمعنى الساتر ، وكما في قوله تعالى " فاتخذت من دونهم حجابا .. " "١٧ مريم"

بمعنى ساترا .

٣) الحجاب : الآفة المانعة : كما في قوله تعالى : " ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب " (٥١ : الشورى) وقوله : " كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " ١٥ : المطففين ، بآفة مانعة لهم من الرؤية .

ونرى أن المؤلف قد جانب الصواب في هذا التعبير ، خاصة عندما مثل ذلك بالآية ٥١ : الشورى ، وفي ذلك مساس بأقدار الأنبياء وإنما الأمر كما قال مالك بن أنس " لما حجب

---

(١) انظر ص ١١٧ من كتاب إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للحسين بن محمد الدامغاني (نسبة إلى الدامغان - بفتح الميم - بلد كبير بين الري ونيسابور) ولعله من علماء القرن الخامس الهجري ، وقد حقق كتابه وأكمله : عبد العزيز سيد الأهل ، وطبعته دار العلم للملايين ببيروت في ١٩٧٠ م .

أعداءه فلم يروه ، تجلى لأوليائه حتى رأوه "(١)

٤) الحجاب : السور كما فى قوله تعالى : " وبينهما حجاب " ٤٦ : الأعراف " .

ونترك الدامغانى وننتقل الى السيوطى الذى يرى أن من الكلم القرآنى ما ينصرف "إلى عشرين وجها وأكثر وأقل "(٢) وضرب المثل لذلك بكلمة " الهدى " التى قال أنها جاءت على سبعة عشر وجها وهى :

١) الثبات : " اهدنا الصراط المستقيم " ٦ : الفاتحة .

٢) البيان : " أولئك على هدى من ربهم " ٥ : البقرة .

٣) الدين : " قل إن الهدى هدى الله .. " ٧٣ : آل عمران .

٤) الإيمان : " ويزيد الله الذين اهتدوا هدى " ٧٦ : مريم .

٥) الدعاء : " من الدعوة " (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد " ٧ : الرعد ، " وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا .. " ٢٤ : السجدة .

٦) الرسل والكتب : " فإما يأتينكم منكم هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " ٣٨/ البقرة .

٧) المعرفة : " وعلامات وبالنجم هم يهتدون " ١٦ : النحل .

٨) النهى : " " إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى .. " ١٥٩ : البقرة .

٩) القرآن : " " ولقد جاءهم من ربهم الهدى " ٢٣ : النجم .

١٠) التوراة : " ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب ، هدى وذكرى لأولى الألباب " ٥٣ ، ٥٤ : غافر .(٣)

١١) الاسترجاع : " الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون " ١٥٦ ، ١٥٧ البقرة .

١٢) الحجة : " .. والله لا يهدى القوم الظالمين " .. بعد قوله تعالى " ألم ترى إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك .. " ٢٥٨ : البقرة ، أى لا يهديهم حجة .

١٣) التوحيد : " قالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا .. " ٥٧ : القصص .

١٤) السنة : " .. فبهداهم اقتده " ٩٠ : الأنعام ، " .. وإنا على آثارهم مهتدون " ٢٢ : الزخرف .

١٥) الإصلاح : " وأن الله لا يهدى كيد الخائنين " ٥٢ : يوسف .

---

(١) نقلا عن القرطبى جـ ١٩ ص ٢٦١ .

(٢) انظر الإتقان جـ ١ ص ١٤٢ : النوع التاسع والثلاثين فى معرفة الوجوه والنظائر .

(٣) تفسير الهدى بالتوراة يسمو عنه بالنظم المعجز ، والراجح ان الهدى فى هذا السياق ما يهتدى به مما آتاه الله لكليمه من الوحى قبل أن يتلقى التوراة ، وفسرها البيضاوى بقوله " ما يهتدى به فى الدين من المعجزات والصحف والشرائع " .

١٦) الإلهام : " قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى " ٥٠ : طـــــه ،
أى ألهمه المعاش .

١٧) التوجيه : " ..إنا هدنا اليك .." ١٥٦ : الأعراف[1] " قال عسى ربـــى
أن يهدينى سواء السبيل " ٢٢ : القصص[2] .

هذا ماذكره السيوطى ، والناظر المدقق إلى صنيعه يراه قد تكلف وتوسع فى الأمر ، ويرى أننا فى حاجة الى منهج آخر فى فهم الفاظ القرآن وتحديد دلالاتها ، وسنعـــرض لمنهجنا فى كلمة " الهدى " وغيرها بعد قليل .

طموح بعض الباحثين المعاصرين إلى هذا المنهج .

ولدقة هذا المنهج الذى نحن بصدده ، تطلع غير واحد من الباحثين المحدثيـــن فى الحقل الإسلامى الى وجود هذا المنهج والى تطبيقه ، مؤملين من وراء ذلك الـــى دقة الفهم للغة القرآن ، وعمق الفهم لما جاء به هذا الكتاب المحكم ، وكان من هـــؤلاء الآملين :

١) الدكتور محمد حسين هيكل[3] ، فقد كتب الى الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقـــى[4]

---

(١) هدنا : مادتها " هود " وهدنا : رجعنا ، بينما السيوطى يتحدث عن كلمـــة " هدى " ومشتقاتها .

(٢) من الاتقان حـ ١ ص ١٤٣ ط : التجارية وقد رقمنا الآيات ونسبناها الى سورها ، — وأتممنا مالا يتضح الاستشهاد الا به .

(٣) كاتب مصرى من أبناء القرن العشرين الميلادى ، كان رئيسا لحزب سياسى وولى وزارة المعارف فترة ، وله اشتغال بالبحوث الاسلامية ومن مؤلفاته " حياة محمد " و " — و " الصديق أبو بكر " و " الفاروق عمر " " وفى منزل الوحى " .

(٤) كان رحمه الله من خيار خدام كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فى القـــرن الرابع عشر الهجرى ، ومن صالحات مؤلفاته : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، " اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان " وله مجهود — باذن الله — مبرورة فى خدمة بعض دواوين السنه .

حين استخرج من صحيح البخارى " معجم غريب القرآن " — شارحا فكرته[1] فقال : " .. فالفكرة التى قصدت أنا إليها — يوم اقترحت وضع هذا المعجم[2] — هى أن يقف من يدرس القرآن على معانى ألفاظه — عند العرب — حين أوحاه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكثيرا ما تتغير قيم الألفاظ ، وإن لم تتغير معانيها تغيرا أساسيا ، ونحن أحوج ما نكون إلى معرفة القيم التى كانت لكل لفظ من ألفاظ القرآن حين نزوله " .

صحيح أن المفسرين شرعوا لنا مرامى هذه الألفاظ ومعانيها ، ولكن هؤلاء المفسرين جاءوا بعد قرون من نزول الكتاب الكريم ، وبعد أن كانت قيم الألفاظ قد ازدادت قوتها أو نقصت ، فلابد للباحث فى كتاب الله — ليكون بحثه علميا دقيقا — من أن يقف على القيم الدقيقة لهذه الألفاظ — حين نزولها — حتى يبلغ الغاية من الدقة المرجوة . ومضى فى حديثه فاقترح " مقارنة كل لفظ[3] ورد فى القرآن بمثله مما ورد فى الشعر[4] الذى سبق القرآن ، والذى عاصره ، لتحديد القيمة لهذا اللفظ فى ذلك العصر ، تحديدا ييسر لنا الدراسة العلمية الدقيقة التى نقصد إليها . " .

٢) <u>الشيخ أمين الخولى</u>[5] : حاول الشيخ أن يكون أكثر تحديدا للمنهج الذى يريده فقال شارحا خطته : " وهى تبدأ بالنظر فى المفردات ، والمتأدب يجب أن يقدر عند ذلك : تدرج دلالة الألفاظ ، وتأثرها فى هذا التدرج ، بتفاوت ما بين الأجيال ، وبفعل الظواهر النفسية والإجتماعية ، وعوامل حضارة الأمة ، وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية ، فى تلك الحركة الجياشة المتوثبة ، التى نمت بها الدولة الإسلامية ، والنهضة الدينية ، والسياسية ، والثقافية التى خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة .

---

(١) طبعته دار احياء الكتب العربيه ، وقد استخرجه الأستاذ عبد الباقى ، وانظر مقدمة الدكتور هيكل ص : د ، هـ .

(٢) المعجم الذى أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعد هذا المقترح ، وكان الدكتور هيكل من أعضاء المجمع وقتها .

(٣) هذه المقارنة : هى احدى وسائل فهم القرآن ، مع ضرورة التحفظ لقرينة السياق ، ومراعاة الألفاظ التى خرج بها القرآن عن أصلها اللغوى إلى استعمالات شرعية ، أو دلالة مجازية .

(٤) قضية الإحتجاج بالشعر لفهم القرآن : سيأتينا عن أنبائها .

(٥) انظر كتابه " مناهج تجديد : فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب " فصل " التفسير : معالم حياته ، منهجه اليوم ص ٣١٢ — ٣١٤ ونقلنا عنه يكاد يكون نصا مع تصرف يسير وحذف قليل .

وقد تداولت هذه اللغة العربية — في تلك النهضات — أفواه أمم مختلفة : الألوان ، والدماء ، والماضي ، والحاضر ، فتهيأت من كل ذلك : خطوات تدريجية فسيحة متباعدة في حياة ألفاظ اللغة العربية . حتى أصبح من الخطأ المبين : أن يحمد متأدب إلى فهم ألفاظ هذا النص القرآني الأدبي الجليل ، فهما لا يقوم على التقدير التام ، لهذا التدرج والتغير ، الذي مس حياة الألفاظ ودلالتها ، وعلى التنبيه إلى أنه إنما يريد ليفهم هذه الألفاظ ، في الوقت الذي ظهرت فيه ، وتليت أول ما تليت على من حول تاليها الأول عليه السلام (١) . . " .

وإذا كان هذا هو الأصل الأول : في فهم دلالة ألفاظ القرآن ، فمن لنا به ؟ مع أن معاجمنا لا تسعف عليه ولا تعين . فأكبر ما نملكه منها : وهو " لسان العرب " قد كتب على " طريقة المقص والإلصاق " كما يقول المصريون ، فتجاورت فيه نصوص : تباعدت عصور أصحابها : فابن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري (٣٢١ هـ) ، يجاور ابن الاثير في أوائل القرن السابع الهجري (٦٠٦ هـ) ، ونماذج لغويات الأول : دينيات الثاني . . . " والقاموس المحيط " : كما تعرفه عبارات غير متزجة لثقافات متغايرة متباينة ، من فلسفية عقلية ، إلى طبية عملية ، فأدبية لغوية ، فدينية اعتقادية ، أو غيرها . . . ثم ينتقل إلى بيان حاجتنا إلى " قاموس اشتقاقي " تتدرج فيه دلالات الألفاظ ، وتتمايز فيه المعاني اللغوية على ترتيبها عن المعاني الإصطلاحية على ظهورها . . . فلا معدى للمفسر من النظر في المادة اللغوية للفظ الذي يريد تفسيره ، لينحي فيها المعاني اللغوية عن غيرها ، ثم ينظر — في تدرج المعاني اللغوية للمادة نظرة : ترتبها على الظن الغالب ، فتقدم الأسبق على السابق حتى ينتهي إلى ترجيح معنى كان هو المعروف للعرب حين سمعتها .

والمفسر في هذا التحيز والنظر ملم — ما أمكن — بمحدث الدراسة في أنساب اللغات : ليطمئن إلى أن الكلمة عربية أصيلة (٢) ، أو هي دخيلة . . وما معناها الأول ؟ ثم هو

---

(١) قال معلقا بهامش كتابه : لا ينكر أن خلود هذا الكتاب ، ورياضته الدائمة للحياة ، مع صلته الوثقى بها : كل ذلك يهيء لفهم معان متجددة أو نامية . لكنا مع عدم إنكار هذا القدر نرى أنه لا ينبغي أن ننسب إلى القرآن من هذه المعاني ، إلا ما كان طريق فهمه الحس اللغوي للعربية ، وسبيل الإنتقال إليه : هو دلالة اللفظية الأولى ، في عصر نزول القرآن " انظر هامش ص ٣١٢ من مناهج تجديد .

(٢) تبين لك من فصول هذه الرسالة حقيقة الدعوى القائلة بوجود الأعجمي من الألفاظ في كتاب الله .

محاذر من اندفاع معاجمنا فى رد الكلمات إلى أصل عربى : يشابهها فى اللفظ ، مع التكلف فى الاشتقاق والربط .

وإذا ما فرغ معنى اللفظة اللغوى ، انتقل بعده إلى معناها فى الإستعمال القرآنى ، يتتبع ورودها فيه كله ، لينتهى إلى استعمال القرآن لها بمعنى واحد مطرد ، أو بعديد من المعانى ... "(١)

ثم وصف محاولة الراغب الأصفهانى التى قام بها منذ ألف عام بأنه : عانى فيها شبيها بما وصفنا .. ولكنه لم يتم التعقب اللغوى ، ولم يستوف التتبع القرآنى ، وفاته مع ذلك كله فرق ما بين عصره وعصرنا فى دراسة اللغات وصلاتها ، إلا أنه فى كل حال نواة تخجل من بعده ، وبخاصة أهل هذا العصر الطموح .

والتزام هذا المنهج الأدبى : يرجى كمال هذا المعجم ، ومعاجم أخرى ، تتطلبها حياة (٢) القرآن ، كتاب العربية الأعظم .

٣) د . عائشة عبد الرحمن : وتصور تلميذة الشيخ وزوجته هذا المنهج الذى حاولت تطبيقه على بعض ما كتبت ، فتقول :(٣) " وإذ نضع معاجم العربية وكتب التفسير فى خدمة هذا المنهج ، فإننا نحاول أن ندرك حس العربية للألفاظ التى نتدبرها من النص القرآنى ، من طريق لمح الدلالة المشتركة فى شتى وجوه استعمالها لكل لفظ ، ويواضح أنه لا سبيل إلى دراسة أى نص فى لغة ما ، دون فقه لألفاظه فى لغته ثم يكون للنص بعد ذلك أن يحدد لكل لفظ دلالته الخاصة من شتى الدلالات المعجمية ، أو يضيف إليها ملحظا ينفرد به . والقول بدلالة خاصة للكلمة القرآنية ، لا يعنى تخطئة سائر الدلالات المعجمية ، كما أن إيثار القرآن لصيغة بعينها ، لا يعنى تخطئة سواها من الصيغ فى فصحى العربية ، بل يعنى أننا نقدر أن لهذا القرآن معجمه الخاص ، وبيانه المعجز ، فنقول إن هذه الصيغة أو الدلالة قرآنية ، ثم لا يعترض علينا بأن العربية تعرف صيغا ودلالات أخرى للكلمة " .

محاولة تطبيق هذا المنهج حديثا : كان ما سبق هو سنن أمنيات بعض الباحثين المعاصرين : لإيجاد هذا المنهج ، وقد قام الأستاذ الخولى ببعض المحاولات لتطبيقه فكتب عدة

---

(١) انظر مناهج تجديد ص ٣١٤ ببعض اختصار وتصرف .

(٢) كان الأليق أن يقول : يتطلبها فهم القرآن .

(٣) انظر التفسير البيانى للقرآن الكريم حـ ٢ ص ٨ ط : المعارف .

أحاديث تحت عنوان " من هدى القرآن : القادة ... الرسل " (١) ، " من هدى القرآن : في أموالهم " .

ثم وكل إليه أن يضطلع بنصيب في إعداد معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي عهد مجمع اللغة العربية إلى ثلة من نوابغ المختصين في الدراسات اللغوية والقرآنية (٢) وكان هو من بينهم وقد راعى تطبيق المنهج المشار إليه على المادة التي نيط به أعدادها من بين الكتاب، وقد صدرت في جزء مفرد من أجزاء الكتاب وقد أشار في مقدمته لهذا الجزء الى اقتراح الدكتور هيكل آنف الذكر ، والى الخطة التي يلتزمها ، وقد تابعته زوجته حين انتهضت لكتابة جزئين من : " التفسير البياني : للقرآن الكريم " وهو تفسير لبعض قصار السور (٣) ، ثم جلت قواعد أخرى حول هذا المنهج في كتابها (٤) " الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، ومسائل نافع بن الأزرق " .

بذور هذه الفكرة :

حينما هداني الله منذ سنوات ليست بالقلائل إلى هذه النظرية التي سميتها بنظرية " الأصول والأرحام اللغوية " سولت لي نفسي — لحداثة السن وقتها وقلة التجارب — أنني أول من تفطن إليها ، ومضيت أبحث وأنقب حتى أستقر في خلدي أنها ليست لي ولا لغيري من المعاصرين ، وإنما قد سبق إليها علماء أعلام وطمت أن أقصى ما أصبو إليه إن أعان الله بمنه وكرمه على بلوغ الآمال هو أن أضيف شيئا إلى هذه الفكرة ، وفكرة (الأصول والأرحام اللغوية " هي الفكرة التي سماها اللغوي الاصيل (٥) (أحمد بن فارس الرازي) بالمقاييس اللغوية ، وأقام عليها كتابه الرائد " معجم مقاييس اللغة " وهو الكتاب الذي وصفه محققه الأستاذ عبد السلام هارون بأنه (٦) " مجد لغوي عبقري

---

(١) أشار في كتابه هذا ص ١٢ ، ١٣ إلى أنه مجموعة أحاديث ألقاها في الإذاعة المصرية بين سنتي ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، وقد صدر عن دار المعرفة ، ونشر بعده الكتاب الآخر " ... في أموالهم " .

(٢) انظر أسماءهم في الجزء الأول من هذا المعجم ط : دار الكتاب العربي " القومية سابقا " وقد صدرت هذه الطبعة الاخيرة في جزئين كبيرين ثم أعيدت في أجزاء صغيرة سهلة التداول .

(٣) طبعت هذا التفسير دار المعارف بالقاهرة . (٤) طبعته كذلك دار المعارف .

(٥) هو أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي المتوفى سنة ٣٩٥ من الهجرة وكتابه معجم مقاييس اللغة طبعته دار الحلبي بالقاهرة في ستة مجلدات يقع المجلد في نيف وخمسمائة صفحة وقد بذل الأستاذ عبد السلام محمد هارون في تحقيقه وإخراجه جهدا مشكورا وكتب له مقدمة عرف فيها بابن فارس ومؤلفاته ، وذكر اختلاف العلماء في تاريخ وفاته ، وتحدث عن قيمة كتابه " معجم المقاييس " بين المعاجم الأخرى وتقع المقدمة في ثمان وأربعين صفحة وتاريخ مقدمة الطبعة الاولى ١٣٦٦ هـ وأما الطبعة الثانية فتاريخها ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

(٦) انظر المقدمة المشار إليها ص ٤٥ ببعض تصرف .

لا ينبغي أن يضاع ، ولا يختلف اثنان بعد النظر فيه ، أنه فذ في بابه ، وأنه مفخرة من مفاخر التأليف العربي ، ولا أخال لغة في العالم ظفرت بمثل هذا الضرب من التأليف" والمطلع على الكتاب يعرف أن الاستاذ هارون لم يسلك الغلواء سبيلا إلى مدح الكتاب ، إلا ما كان من قوله أنه لا يعرف لغة في العالم ظفرت بمثل هذا الضرب من التأليف ، فإن هذه دعوى ينقصها الدليل ، لأننا ما أحطنا بكل المؤلفات في لغات أهل الأرض .

ونظرية مقاييس اللغة هي التي نصرها ابن فارس في كتابه الصاحبي بقوله[1] : " أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم أن للغة العرب قياسا ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض " ، وضرب المثل لذلك باشتقاق كلمة الجن من الإجتنان .

وابن فارس كما يقول الأستاذ هارون[2] (لا يعتمد اضطراد القياس في جميع مواد اللغة بل هو ينبه على كثير من المواد التي لا يطرد فيها القياس) .

أصول اللغة عند غير ابن فارس :

على أن ابن فارس وإن كان الفارس السباق في نظرية المقاييس إلا أنه ليس فارسها الأول ولا الأوحد فنظرية المقاييس هي نظرية " الاشتقاق الكبير "[3] عند بعض اللغويين ومن أوائل من عرفوا بالتأليف فيه جماعة من العلماء يذكرهم السيوطي بقوله[4] : " أفرد

---

(١) انظر ص ٣٣ من كتاب ابن فارس الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها وسر تسميته بالصاحبي انه لما ألفه أودعه خزانة الصاحب بن عباد كما نص على ذلك ابن فارس نفسه في مقدمة كتابه ص ٢ ولقد وجدنا نص هذه العبارة المنقولة عن الصاحبي عند السيوطي في كتابة المزهر جـ ١ ص ٢٠٠ طبعة المكتبة الأزهرية سنة ١٣٢٥ هـ وقد ولد السيوطي في مستهل شهر رجب عام ٨٤٩ هـ .

(٢) انظر نقد متن للمقاييس حـ ١ ص ٣٩ . (٣) انظر مقدمة المقاييس حـ ١ ص ٣٩ .

(٤) انظر " المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي حـ ١ ص ٢٠٤ ط : المكتبة الأزهرية سنة ١٣٢٥ هـ ، وهذه تراجم الأعلام الواردة في النص نقلا عن الاشتقاق للاستاذ عبد الله أمين ص ـ ز وكتاب " العلامة اللغوي : ابن فارس الرازي "ص ٢٥٧ تأليف د/ محمد مصطفى رضوان (الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة حاليا) ط : دار المعارف بالقاهرة :

١) أبو العباس : المفضل بن محمد بن عامر الضبي صاحب المفضليات المتوفى ١٧٠ هـ على الأرجح .

٢) أبو علي : محمد بن المستنير النحوي المعروف بقطرب المتوفى ٢٠٦ هـ .

٣) ابو سعيد : عبد الملك بن قريب بن عبد الملك المعروف بالأصمعي المتوفى ٢١٥ هـ على الأرجح . ٤) أبو الحسن : سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط المتوفى ٢١٦ هـ على الأرجح . ٥) أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي بن أخت الأصمعي المتوفى ٢٣١ هـ . ٦) أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد المتوفى ٢٨٥ هـ . ٧) أبو اسحاق ابراهيم بن السري بن سهل الزجاج المتوفى ٣١٦ هـ .

٨) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد صاحب الجمهرة المتوفى سنة ٣٢١ هـ .

الاشتقاق بالتأليف جماعة من المتقدمين منهم الأصمعي ، وقطرب ، وأبو الحسن الأخفش وأبو نصر الباهلي ، والمفضل ابن سلمة ، والمبرد ، وابن دريد ، والزجاج ، وابن السراج ، والرماني ، والنحاس ، وابن خالويه " .

ويتابع الأستاذ هارون[1] التأريخ لفكرة الإشتقاق فيرى أن ابن فارس قد استلهم فكرة المقاييس من كتاب "الإشتقاق" للإمام أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد[2] الأسدي الذي حاول في كتابه الإشتقاق أن يرد أسماء القبائل العربية ، وأسماء الشعراء ، والفرسان ، والحكام من العرب إلى أصول اشتقت منها هذه الأسماء .

وقد حاول عالمان معاصران لابن فارس هما " ابو علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وتلميذ أبي علي : أبو الفتح عثمان بن جني المتوفى ٣٩٢ هـ أن يذيعا قاعدة الإشتقاق الأكبر التي تجعل للمادة الواحدة وجميع تقاليبها أصلا أو أصولا ترجع إليها فأخفقا في ذلك ولم يستطيعا أن يشيعا هذا المذهب في سائر مواد اللغة[3] " .

ويعترف ابن فارس للخليل بدور في هذه الفكرة حيث يقول " والخليل عندنا إمام في هذا المعنى "[4] .

هذه بعض إشارات نؤرخ بها لنظرية " الأرحام اللغوية " وهي ليست إلا شذرات ، وفي البسط ما يخرج بنا عن القصد .

مثال تطبيقي من عند ابن فارس :

وحتى تزداد فكرة ابن فارس اتضاحا نكتفي بمثال واحد نسوقه كتطبيق بين لنظريته فقد قال حول كلمة (بغى)[5] : الباء والغين والياء أصلان : أحدهما طلب الشيء ، والثاني جنس من الفساد . فمن الأول بغيت الشيء ، أبغيه إذا طلبته . ويقال بغيتك الشيء إذا طلبته لك ، وأبغيتك الشيء إذا أعنتك على طلبه . والبغية والبُغية الحاجة وتقول : ما يبغى لك أن تفعل كذا . وهذا من أفعال المطاوعة ، تقول بغيته فانبغى ،

---

(١) انظر مقدمته للمقاييس حـ ١ ص ٢٣ .
(٢) ابن دريد ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ هـ وتوفي بعمان ٣٢١ هـ وقد نشر كتاب الإشتقاق لابن دريد بالقاهرة بتحقيق الباحثة عبد السلام محمد هارون .
(٣) انظر تقديم الأستاذ هارون للمقاييس حـ ١ ص ٢٤ بتصرف .
(٤) انظر كتاب " العلامة اللغوي ابن فارس الرازي " ص ١٣٧ .
(٥) انظر معجم مقاييس اللغة حـ ١ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ الطبعة الثانية ، وآثرنا أن يكون المثال المستشهد به للفظة مستعملة في القرآن الكريم .

كما تقول كسوته فانكسر . والأصل الثانى : قولهم بغى الجرح ، إذا ترامى إلى فساد ، ثم يشتق من هذا ما بعده . فالبَغِىّ الفاجرة ، تقول بغت تبغى بغاء ، وهى بغى . ومنه أن يبغى الإنسان على آخر . ومنه بغى المطر ، وهو شدته ومعظمه ، وإذا كان ذا بغى فلابد أن يقع منه فساد . قال الأصمعى : دفعنا بغى السماء خلفنا ، أى معظم مطرها . والبغى : الظلم . قال :

ولكن الفتى حَمَلَ بن بدر ∴ بغى والبغى مرتعه وخيم

وربما قالوا لاختيال الفرس وعرضه بغى .

قال الخليل : ولا يقال فرس باغ .

ومثال من عند الراغب :

ونسوق مثالا آخر من " مفردات القرآن الكريم " للراغب الأصفهانى الذى لم يلتزم بفكرة المقاييس التزام ابن فارس بها ، ولكنه كان يحوم حولها ، فقد قال[1] فى مادة "حلف" :

الحلف : العهد بين القوم والمحالفة المعاهدة ، وجعلتا للملازمة التى تكون بمعاهدة ، وفلان حليف كرم ، وحلف كرم . والأحلاف جمع حليف ، قال الشاعر :

تداركتما الاحلاف قد ثل عرشها ....

والحلف : أصله اليمين الذى يأخذ بعضهم من بعض فيها العهد ، ثم سمى به كل يمين ، قال الله تعالى : " ولا تطع كل حلاف مهين " ١٠ : القلم ، أى مكثار للحلف ، وقال تعالى : " يحلفون بالله ما قالوا " ٧٤ : التوبة ، " يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم .. " ٥٦ : التوبة ، " يحلفون بالله لكم ليرضوكم " ٦٢ : التوبة ، وهى حلف يحمل الإنسان على الحلف ، والمحالفة أن يحلف كل للآخر ، ثم جعلت عبارة عن الملازمة مجردا ، فقيل حِلْفُ فلان وحليفه ، وقال صلى الله عليه وسلم : " لا حلف فى الإسلام " وفلان حليف اللسان أى حديده كأنه يحالف الكلام فلا يتباطأ عنه ، وحليف الفصاحة .

ثم ننتقل إلى الأمثلة التطبيقية لمنهجنا :-

---

(١) انظر مفردات القرآن الكريم ص ١٢٩ للراغب الأصفهانى ، وقد آثرنا أيضا أن يكون المثال من ألفاظ القرآن الكريم .

" تطبيق نظرية الأرحام اللغوية "
على بعض الكلمات القرآنية
(كلمة الأب)

أصلها واستعمالها :

وردت كلمة (الأب) في القرآن الكريم بمعنى الوالد في عدة مواضع من كتاب الله كما في قوله تعالى : " قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا " ٧٨ : يوسف .

وأما إطلاق الأبوين على الأب والأم للتغليب ، فمنظور فيه أيضا إلى الإشتراك في وظيفة التناسل التي منها كان الولد ، فكل منهما أصل لفرعه ، وجاء هذا الإستعمال في قوله تعالى : " .. ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن ولد وورثه أبواه .. " ١١ : النساء ، وقوله : " وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين " ٨٠ : الكهف ، وقوله : " فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا .. " ٩٩ ، ١٠٠ : يوسف .

وتطلق كلمة الأب على الجد الأعلى لوجود معنى الأبوة فيه ، باعتباره أصل الآباء والأحفاد ، كما في قوله تعالى : " ... ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل .. " ٧٨ : الحج ، ومن هذا القبيل إطلاق كلمة الآباء على الأجداد والأصول ، كما في قوله تعالى حكاية عن المكذبين للرسل : " ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين " ٢٤ : المؤمنون ، وقوله سبحانه على لسان يوسف : " واتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحق ويعقوب " ٣٨ : يوسف .

وتطلق كلمة الآباء على الأعمام والأجداد ، كما في قوله تعالى : " أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلاهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق إلاها واحدا ونحن له مسلمون " ١٣٣ : البقرة ، فابراهيم عليه السلام جد يعقوب وإسماعيل عمه وإسحاق أبوه ، وإنما أطلقت على هذا النحو لأن المذكورين جميعا من أصول يعقوب .

والذي نستشعره من استعمال كلمة الأب أنها دالة على أصل تتفرع عنه فروع ولهذا وردت لها الإطلاقات السابقة ومما يقوي استنتاجنا هذا قوله تعالى خطابا لجميع البشر : " يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة .. " ٢٧ : الأعراف .

أرحام لكلمة الاب :

ونستطيع أن نستشعر رحما من المودة بين كلمة الأب وأصلها (أبو) وكلمة الأب الذى ترعاه الأنعام فالأب أصل يرجع إليه النسب والثانى طعام تعتاد الأنعام الرجوع إليه أو قل هذا أصل وجود وهذا أصل بقاء ، وكذلك نجد هذه الرحم بين الأب والإباء بمعنى الأنفة لأن الإنسان كثيرا ما يأنف أمرا اعتزازا وتفاخرا بآبائه ، وقد نجد هذه الصلة بين الأب والأوب والمآب ، فالمآب مكان منه الانطلاق وإليه المرجع ، لأن الإنسان لا يؤوب إلى شىء إلا إذا كان قد انطلق أو سافر عنه ، وكذلك الأب صدر عنه الولد ، ونسب الأبناء وحاجاتهم يرجع إليه ، ومن أرحام كلمة (الأب) ، جاءت كلمة : (الأوب) بمعنى الرجوع يقال : "آب يؤوب أوبا ، وإيابا ، ومآبا بمعنى رجع ، وتأتى كلمة المآب مصدرا واسم زمان واسم مكان [1] ، وقد وردت فى قوله تعالى : " الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب" ٢٩ : الرعد ، وقوله : " ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب " ١٤ : آل عمران ، وفى الموضعين أفادت معنى الرجوع أو المرجع ، أو أفادتهما معا ، فعلى المصدر : رجوعهم إلى الله خير رجوع ، وعلى اسم المكان : فإن الجنة مرجعهم ، وكذلك وردت فى قوله تعالى : " إليه أدعو وإليه مآب" ٣٦ : الرعد أى رجوعى ، وكذلك قوله تعالى : "إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم" ٢٥ ، ٢٦ : الغاشية أى رجوعهم إلينا ومن الأوب - وهو مصدر - جاء الفعل المضعف أَوَّبَ : كما فى قوله تعالى : (يا جبال أوبى معه والطير " ١٠ : سبأ ، ومن المفسرين واللغويين من ذكر أن معنى (أوبى) هو (سبحى) لكن الحاذقون منهم على أن معنى (أوبى) هو (رجعى معه التسبيح) [2].

ووردت منها صيغة المبالغة (أوّاب) بالأوّاب هو التائب ، وكثير الرجوع إلى الله وأدق ما قيل فى معناها (الرجّاع عن كل ما خطر الله إلى كل محابه) [3] وقد وردت لفظة (الأواب) فى عدة مواضع من كتاب الله نختار ومنها قوله تعالى : " واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب" ١٧ : ص ، ١٩ ، ٣٠ ، ٤٤ / ص ، ٣٢ : ق ، وورد جمعها فى قوله تعالى : "إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا " ٢٥ : الإسراء ، أى للمنيبين الرجاعين إليه ، ومن هذا الوجه جاء قول الشاعر :

ومن يتّقِ فان الله معه ... ورزق الله (موّتاب) وغادى [4]

---

(١) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم حـ ١ ص ٦٧ . (٢) نفسه .
(٣) التعبير لكاتب السطور والمعنى متداول بين أهل الشأن .
(٤) البيت من شواهد صاحب مختار الصحاح ص ٤٤ .

الأم

نستطيع أن نعتبر الألف والميم أصلا لكلمة أم ، أمة ، إمام وأمى وآمين وما ماثل ذلك ،

والأم القصد وأممت الشيء قصدته والكلمة فى نظرى دالفظى أصل يقصد ويؤوى إليه أو يؤتم به .

١) فأم الانسان أصله ، وكل شيء يكون مرجعا أو أصلا لغيره يسمى أما لذا سمى الله اللوح المحفوظ بأم الكتاب فى قوله تعالى : " يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب " ٣٩ : الرعد ، وقوله : " وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم " ٤ : الزخرف ، وقال عن الآيات المحكمات : " .. هن أم الكتاب .. " ٧ : آل عمران ، وبهذا الإعتبار سمى الله مكة أم القرى كما فى قوله تعالى : " .. ولتنذر أم القرى ومن حولها .. " ٩٢ : الأنعام ، ومثلها ٧ : الشورى " وقيل سميت بذلك لأنها توسطت الارض أو لأنها قبلة الناس يؤمونها "(١).

٢) وسمى الله تعالى النار أما فى قوله تعالى : " فأمه هاوية . وما أدراك ما هى . نار حامية " ٩ : ١١ القارعة ، وكثير من المفسرين على تفسير الأم هنا بالمأوى والمستقر لأن الكافر يأوى إليها كما يأوى الولد إلى أمه ، وشتان بين الصدر الرحيب والنفس الحانية والقلب الرءوف تجتمع كلها فى الأم كمأوى ، وبين جهنم بزقومها وضريعها وغسلينها حين تكون هى المأوى وكأنى ألمح من سر الإستعمال الإشارة إلى هذا التقابل ليجتمع على المجرم مع عذاب الحريق عذابٌ نفسى من التهكيت والتقريع والخزى .

٣) وقوله تعالى : " .. ولا آمين البيت الحرام .. " ٢ : المائدة أى قاصدين فهى على أصل الإستعمال .

٤) وقوله تعالى : " إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين " ١٢ : يس ، والمفسرون من نقلة الآثار على أن الإمام المبين هو اللوح المحفوظ ، قاله مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد ، وكذا فسروا الإمام فى قوله تعالى : " يوم ندعوا كل أناس بإمامهم " ٧١ : الإسراء أى بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم واستشهد ابن كثير(٢) معضدا هذا الرأى فى الآيتين بقوله سبحانه " ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء " ٦٩ : الزمر وقوله : " ووضع الكتاب

---

(١) انظر القاموس المحيط حـ٤ ص ٧٧ .

(٢) انظر تفسيره حـ ٣ ص ٥٦٦ .

فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا " ٤٩ : الكهف ، ولم يخالف أصحاب الرأى من المفسرين عن[1] هذا ، إلا من شذ من أصحاب التأويلات الشاذة .

وتسمية اللوح المحفوظ بالإمام كتسميته بأم الكتاب لأنه الأصل الجامع لكل مقادير الله كما قال تعالى : " وكل شيء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر " ٥٢ ، ٥٣ : القمر .

٥) وقوله تعالى : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم)[2] ٧١ : الإسراء ، قيل بكتاب أعمالهم كما سبق أن بينا ، وقيل بنبيهم فينادون يا أتباع محمد ويا أتباع إبراهيم ، أو بكتابهم الذى أنزل عليهم فيقال يا أهل القرآن ويا أهل التوراة وقيل بأئمتهم الذين كانوا يأتمون[3] بهم ، وهى بكل هذه الأوجه غير مقطوعة الأرحام بأصلها .

٦) والصلة غير منقطعة بين كلمة الأمام بمعنى القدام ، وبين الإمام الذى يؤتم به ، لأن الإمام يكون فى الأمام ولأنك حين السير تكون جهة الأمام هى المقصد ، وقد وردت كلمة الأمام فى مواضع من القرآن منها قوله تعالى : " بل يريد الانسان ليفجر أمامه " ٥ : القيامة .

٧) وسمى الطريق إماما لأن من أراد بلدة أو غاية أم الطريق اليها وقصده وقد وردت اللفظة فى قوله تعالى : " فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين " ٧٩ : الحجر ، والحديث عن مدينتى قوم لوط وأصحاب الأيكة ، وقيل إن المقصود أن خبر هلاكهما فى اللوح المحفوظ وهو الإمام المبين والأول أقوى .

٨) وذهب كثير من المفسرين إلى تفسير الأمة بـ " بالملة " فى قوله تعالى : " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون " ٩٢ : الأنبياء ، وقوله تعالى : " وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون " ٥٢ : المؤمنون والصلة واضحة فالملة أصل جامع يرجع إليه من آمن ، وكذلك الأمة أصل يرجع إليه أفرادها .

٩) وسميت الفترة الزمنية بالأمة كما فى قوله تعالى عن صاحب يوسف عليه السلام : " وقال الذى نجا منهما واذكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون " ٤٥ : يوسف ، والفترة

---

(١) انظر منهم الكشاف للزمخشرى جـ٢ ص ٥٨٣ ، والبيضاوى ص ٤٢٢ .
(٢) تكرار النص لملحظ غير سابقه .
(٣) انظر معجم الفاظ القرآن الكريم جـ١ ص ٥٣ .

من الزمن سواء كانت عاما أو شهرا تجمع آحادها : فالسنة جامعة الشهور ، والشهر جامع الأيام ، واليوم جامع الساعات ... وهكذا .

١٠)وفي قوله تعالى / "إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين" ١٢٠ : النحل ، فهي بمعنى القدوة المعلم للخير ، ويسمى أمة لأن قوام الأتباع ، والكلمة في هذا الإستعمال تلمح فيه أيضا معنى الأصل الذي يقصد للإقتداء والإهتداء .

١١)وقوله تعالى : "وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون" ٥٩ : القصص ، فالقرية الأم هي القرية الرئيسة ، والأصل لما عداها من القرى ومن هذا الأستعمال سميت مكة بأم القرى كما في قوله تعالى : "... ولتنذر أم القرى ومن حولها ..." ٩٢ : الانعام ومثلها ٧ : الشورى قيل سميت بذلك لانها توسطت الارض ، أو لانها قبلة الناس التي يؤمونها .

الأول

وردت لفظة الأول في كتاب الله في عدة مواضع كما ورد مجردها ومشتقاته على النحو التالي : (آل - أول - الأول - لأولنا - الأولون - الأولين - الأولى - أولاهم - أولو - أولى - أولات - تأويل - تأويلا - تأويله) . ونستطيع أن نرد هذه الكلمات جميعا طبقا لمنهجنا في الأرحام اللغوية إلى الفعل (آل) بمعنى رجع ، أو الى المصدر (الأَوْل) بمعنى الرجوع ولنأخذ في رد الكلمات المشتقة إلى هذا الأصل : (فالأوّل) اسم من اسمائه تعالى لأن مرجع كل شيء إليه سبحانه ، و(آل) الرجل : أهله ، لأنه يأوي ويرجع اليهم بعد عناء النهار ، ولأنهم أيضا يؤولون اليه بالنسب والإنتماء ، والعدد الأول لأنه أصل الأعداد ومرجعها ، والتأويل مشتق من الأَوْل (بسكون الواو لأن التأويل هو بيان ما يؤول إليه الأمر من الكلام بل يمكن أن ترد كلمة (أولى) بمعنى أحرى وأجدر إلى هذا الأصل ، لأنك إذا قلت أولى بفلان أن يفعل كذا فإنك تريد أن يحتذي بعمله مثالا أولا سابقا عليه يقتدي به أو ينسج على منواله فيكون إليه المرجع وله الأولية .

الضلال

تدل كلمة الضلال في أصل وضعها على الضياع والغيبة والخفاء ، فالماء الذي يجري تحت الصخرة أو بين الشجر بمعزل عن الشمس يطلق عليه الضلل (بفتحتين) ، والغلام الذي لا يعرف أبوه ، يقال عنه ضل بن ضل ، وذهب دمه ضلة أي ضاع بلا ثأر ولا قود ،

ويقال هو تيه ضلة (بالإضافة) إذا غاب عن الخير أو غاب به الخير ، وأضل فلانا : دفنه وغيبه فى التراب[1]. وننتقل من هذا العرض اللغوى لأصل استعمالها إلى استعمالاتها فى القرآن .

١) جاءت على أصل استعمالها من الغياب والفقدان كما فى قوله تعالى " وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون " ١٠ : السجدة ، أى أئذا غابت جسومنا فى التراب واختلطت به نبعث من جديد ؟

وكذلك قوله تعالى : " انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " ٢٤ : الأنعام ، أى غاب عنهم ما كانوا يختلقونه ، ومثل هذا المعنى فى قوله تعالى : " وضل عنكم ما كنتم تزعمون " ٩٤ : الأنعام ، وكذلك فى قوله سبحانه : " .. قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " ٥٣ : الأعراف ، وكذلك فى قوله : " .. حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين " ٣٧ : الأعراف .

٢) يأتى الضلال بمعنى البطلان ، والصلة بين البطلان والضياع وثيقة ، وجاءت الكلمة بهذا الإستعمال فى قوله تعالى : " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " ١٠٣ ، ١٠٤ : الكهف .

٣) ويأتى الضلال بمعنى ترك الإعتدال أو الإنحراف عن القصد فى أمر من الأمور الدنيوية كما فى قوله تعالى على لسان أبناء يعقوب : " قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم " ٩٥ : يوسف ، فهم لا يقصدون بالضلال هنا المعصية وانما يقصدون به أنه يتوهم فى شأن يوسف ما ليس بالحق من وجهة نظرهم .

٤) ويجىء الضلال بمعنى الحيرة كما فى قوله تعالى : " ووجدك ضالا فهدى " ٧ : الضحى .

٥) وقد يأتى الضلال بمعنى الجهل بعواقب الامور كما فى قوله تعالى : " وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها اذا وأنا من الضالين " ١٩ ، ٢٠ : الشعراء .

٦) ويجىء الضلال بمعنى النسيان كما فى قوله تعالى : " ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى " ٢٨٢ : البقرة .

---

(١) راجع القاموس المحيط حـ ٤ ص ٥ بتصرف .

٧) ويجيء بمعنى الخطأ وقد نفى عن ربنا العزة جل جلاله فى قوله سبحانه على لسان كليمه : " قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى " ٥٢ : طه .

٨) وتأتى كلمة الضلال بمعنى البعد عن الهداية والإعراض عن طريق الحق كما فى قوله سبحانه : " ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل " ١٠٨ : البقرة .

التفسير

الفسر الكشف والبيان ، والسفر الكتاب سمى بذلك لأنه يكشف لك الحقائق ويبين لك المعارف .

السافر : الكاتب أو الرسول لقيامهما بمهمة مشتركة وهى البيان ومعنى الكلمة فسر قوله تعالى : " بأيدى سفرة كرام بررة " ١٥ ، ١٦ : عبس ، وأسفر الشيء : اتضح وكشف وبان .

والسفر : هو قطع المسافات ، ويتضمن معنى الكشف ، لما فيه من اكتشاف الأمصار والقفار ، ومعرفة الهطار والأنهار ، والرفس دفع فى قوة ، والصلة بين الكلمة ومقلوبها : أن الكشف دفع اشكال ، والرفس دفع جسم .

ولم ترد كلمة التفسير إلا مرة واحدة فى القرآن فى قوله تعالى : " ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا " ٣٣ : الفرقان .

الفصل

وردت كلمة " فصل " ومشتقاتها فى عديد من المواضع القرآن ، وأصل معنى "الفصل" تمييز شيء من شيء ، وإبانته عنه ، فالحاجز بين الشيئين فصل أو فاصل ، والمفصل ملتقى ما بين عظمين من عظام الجسد ، والحكم الذى يفرق بين الحق والباطل ، يقال عنه أنه حكم " فيصل " ، والفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، وأواخر آيات التنزيل فواصل ، لأنها تنفصل الآية عن سابقتها ، والقطعة من أعضاء الجسد تسمى فصيلة ، وفطام الصبى يسمى فصالا ، لأن به يفترق الصبى عن ثدى أمه .. وحاكم بعض استحالاتها فى القرآن الكريم سمى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يوم الفصل فقال سبحانه : " هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون " ٢١ : الصافات ، وقال : " إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين " ٤٠ : الدخان ، وقال : " لأى يوم أجلت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل " ١٣ ، ١٤ : المرسلات ، وقال : " هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين " ٣٨ : المرسلات ، وقال سبحانه : " إن يوم الفصل كان ميقاتا " ١٧ : النبأ ، وسر

الإطلاق واضح ، إذ هو اليوم : الذى يكون فيه الحكم القطع فى كل أمر ، والذى يكون فيه الفصل بين الخلائق أجمعين ، كما يكون فيه الفصل بين المؤمنين والكافرين ، كما قال سبحانه : " إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون " ٢٥ : السجدة ، ولهذا قال سبحانه عن نفسه : " إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين " ٥٧ : الأنعام ، وسمى البيان تفصيلا ، لأن توضيح الشىء قد يكون أحيانا ببيان فواصله وأبعاضه ، وكذلك يفهم من قوله تعالى : " قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون " ٩٧ : الأنعام ، وقوله : " .. قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون " ٩٨ : الأنعام ، أفهم منها تتابع البيان لا إجماله ومثل هذا أفهمه من قوله تعالى : " وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه " ١١٩ : الأنعام ، لأن المحرمات فرقت أحكامها ، ولم تنزل دفعة واحدة ، وقل مثل ذلك فى قوله تعالى فى وصف القرآن الكريم : " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " ١ : هود ، فقوله تعالى : " فصلت " بعد قوله " أحكمت " يفيد تفريق البيان وتتابعه ، ومن أدلة رأينا هذا قوله تعالى : " ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى[1] وعربى .. " ٤٤ : فصلت ، ونفصل استدلالنا بقوله تعالى : " فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين " ١٣٣ : الأعراف ، فهذه النذر تفرقت وتتابعت لتكون آيات منذرة ناهية محذرة داعية لهم إلى الإيمان ، ومن عظيم حكمته وعدله أن تتفرق وتتابع لتقوم عليهم الحجج الواحدة تلو الأخرى .

الفلق

وردت كلمة "الفلق" فى كتاب الله تعالى فى قوله : " قل أعوذ برب الفلق " ١ : الفلق ، وورد من مادتها (فالق) كما فى قوله تعالى : " إن الله فالق الحب والنوى .. " ٩٥ : الانعام ، " فالق الإصباح وجعل الليل سكنا .. " ٩٦ / الأنعام ، وورد كذلك من مادتها (انفلق) كما فى قوله تعالى : " فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم " ٦٣ : الشعراء ، والفلق لغة معناه الشق يقال فلق الصبح أى شقه والله سبحانه فلق الحب بإخراجه من ورقه كما يقول صاحب القاموس[2] أو لأن الأرض تنفلق عن الزرع والحب كما يرى كاتب هذه السطور واستعمالات الكلمة فى القرآن عرضة إلى معنى الشق : فالفلق هو الصبح لأن نوره يشق ظلمة الليل ، وانفلاق البحر فى آية الشعراء انشقاقه إلى قسمين ، كما هو مبين فى الآية ، واللفظة فى موضعيها من سورة الأنعام بهذا المعنى .

---

(١) أى لولا بينت آياته فكيف يكون الكلام أعجميا والمخاطب عربى !! أو هلا فصلت آياته فكان بعضها أعجميا لإفهام العجم ، وبعضها عربيا لإفهام العرب وهذا من مقترحاتهم للتعنت انظر البيضاوى ص ٤٦١ .

(٢) انظر القاموس المحيط حـ ٣ ص ٢٨٦ .

ونستطرد فنقول إن تسمية الداهية بالفلق [1] على وزن (الرزق) لأن الداهية تترك فلوقا ماديا ومعنوية وهو قريب من إطلاق لفظة الفاقرة التي تحطم فقرات الظهر على الداهية لأن الداهية بما تجلبه من سيئ الآثار فكأنها تحمل بالمبتلى فعل الفاقرة التي تقصم الظهر ، ويقال للشيء العجب الفلق وشاعر مفلق ، لأنه يشق بإبداعه الشعري نهجه وسط الخاملين .

نهـــذ

النهذ [2] : " طرحك الشيء أمامك أو ورائك ، أو مطلق الطرح ، وجلس نهذة أي ناحية ، والنبيذ المطروح الملقى ، والنبيذة الشاة التي لا تؤكل لهزالها .. والانتباذ التنحي ... وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبر منبوذ أي لقيط ، وهي قبر منبوذ — بالتنوين — أي قبر بعيد من القبور " اهـ .

وقد وردت الكلمة في كتاب الله في قوله تعالى : " ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقا لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون " ١٠١ : البقرة ، والمعنى أنهم أصبحوا في نبذة (ناحية) بعيدين عن الحق فهم جعلوا الحق وراء ظهورهم وأصبحوا بواقعهم وسلوكهم المجافي لوحي الله يحيون في جاهلية عمياء .

وقوله تعالى حكاية عن السامري : " فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي " ٩٦ : طه ، أي طرحتها وقوله تعالى عن يونس عليه السلام : " فنبذناه بالعراء وهو سقيم " ١٤٥ : الصافات ، تدل على أنه طرح بمكان منبوذ أي بعيد عن الناس .

وقوله سبحانه عن إهلاك فرعون : " فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم " ٤٠ : القصص ، ظاهر فيها هوان أولئك المنبوذين ، وأما قوله تعالى : " وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء " ٥٨ : الأنفال ، ففيها إشعار بطرح عهدهم إليهم مع الخروج لحربهم وفي الحرب يكون كل فريق في نبذة من الآخر ، وقال تعالى عن عذاب الهمزة اللمزة " كلا لينبذن في الحطمة " ٤ : الهمزة ، ففي هذا التعبير إشعار بإبعاده من الرحمة ، وطرحه في النار .

وورد من الكلمة فعلها المطاوع (انتبذ) في قوله تعالى : " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا " ١٦ : مريم ، وقوله : " فحملته فانتبذت به مكانا

---

(١) انظر نفسه ومختار الصحاح ص ٥٣٠ .
(٢) انظر القاموس المحيط حـ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ بتصرف .

قصيا " ٢٢ : مريم ، وإنما كانت تريد أن تبتعد عن قومها هربا من تخرصاتهم ، وباطل أقوالهم ، ومرض ظنونهم ، وهنا نذكر رأيا لصاحبة التفسير البياني وهو : (وكل ما في القرآن من النبذ ، غير آيتي مريم والأنفال هو من الطرح والنفي عن هوان بالمنبوذ على[1] النابذ) وهذا الإستنباط غير دقيق فالقبضة من أثر الرسول كان يريد السامري أن يرى أثرها فلم تكن هيئة عليه إلا أن يكون المقصود بنبذ القبضة التعبير عن المعنويات بالحسيات ، والقبضة هي بعض الوحي ، ونبذها هو الاعراض عنها ، وخداع قومه والتلبيس عليهم بعبادة العجل ، كذلك لا نرى هذا الهوان المدعى في قوله تعالى : " فنبذناه بالعراء " ، لكن قولها ليس مردودا على اطلاقه فنبذ يونس كان وهو ملوم ، مع الفرق بين اللوم والهوان ، ومريم انتبذت ملومة من قومها وقد ضاق صدرها حتى قالت " ياليتني مت قبل هذا " ٢٣ : مريم ، فالنبذ اذن طرح شيء وغالبا ما يكون هذا الطرح من غضب أو ضيق أو ألم .

الهدى

كثر ورود هذه الكلمة ومشتقاتها في القرآن الكريم وبينها وبين مشتقاتها رحم متواصلة : فالهدى الرشاد ، والدلالة على الخير ، وتطلق كلمة الهدى على النهار لأنك تهتدي فيه الى ما تريد من أشخاص وأماكن ، وأما الليل فهو كافر (ساتر) ، وتأمل المقابلة بين النهار وصفته ووظيفته ، وبين الليل وصفته ووظيفته ، والهدى (بفتح الهاء وسكون الدال) الطريق البين الواضح وكذلك الهَدْيَة : الطريقة والسيرة ، ومنها جاء الحديث " خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم " ، ويسمى المتقدم بالهادي ، لانه يتقدم ليستطلع ويرشد كالرائد ، وأوائل الابل هواديها ، لان بقية الابل تتبعها فهن بها مهتدية ، وفي الهدية معنى الدلالة على المودة والمحبة لذا قال صلى الله عليه وسلم : " تهادوا تحابوا " ولنضرب بعض الامثلة من القرآن لورود كلمة " الهدى " بمعنى الارشاد والبيان منها قوله تعالى : " يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم " ٢٦ : النساء ، الهداية هنا هي الإرشاد والدلالة على المطلوب ، ومثلها قوله تعالى : " إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا " ٣ : الإنسان ، وقوله : " وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى " ١٧ : فصلت ، وقوله : " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " ١٥٩ : الاعراف ، وقوله : " أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر .. " ٦٣ : النمل " .

---

(١) انظر التفسير البياني للدكتورة عائشة عبد الرحمن جـ ٢ ص ١٧٦ ، ص ١٧٧ ط : المعارف .

٢) وترد الهداية بمعنى الدلالة على الشر كقوله تعالى عن الشيطان : " كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير " ٤ : الحج ، وكقوله تعالى : " احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم " ٢٢ ، ٢٣ : الصافات ، واكثر المفسرين على أن استعمال الهداية هنا من قبيل التهكم الا اذا قلنا ان الهداية هى مطلق الدلالة والسياق هو المخصص ، وانظر كيف تحولت الكلمة هنا الى تقريع أليم ، والى وخزات العذاب ، ان الهداية كانت الى النور والحق والجنة ، فأعرضوا وزين لهم سوء أعمالهم فكانت " فاهدوهم الى صراط الجحيم " ولم يقل الجحيم وانما قال صراط الجحيم "

٣) وقد تتضمن الهداية معنى التعرف على المحسوسات واستبانتها ، وهذا المعنى لا ينفك عن المعنى الاول لان التعرف والاستبانة لا يكون الا بدلالة أو دلالات ، كما فى قوله تعالى : " " وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون " ١٥ : النحل ، وقوله : " وجعل فيها سبلا لعلكم تهتدون " ١٠ : الزخرف ، وقوله : " وعلامات وبالنجم هم يهتدون " ١٦ : النحل ، وقوله : " تكروا لها عرشها تنظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون " ٤١ : النمل .

٤) وتأتى الهداية بمعنى الدلالة الموصلة الى المطلوب وهى من شأن الله تعالى وحده ، كما فى قوله تعالى : " وان الله لهادى الذين آمنوا الى صراط مستقيم " ٥٤ : الحج ، وقوله : (ومن يضلل الله فما له من هاد " ٣٣ : الرعد ، وقوله : " وكفى بربك هاديا ونصيرا " ٣١ : الفرقان ، وقوله : " من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون " ١٨٦ : الاعراف ، وقوله : " ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا " ٥٢ : الشورى ، وقوله : " انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين " ٥٦ : القصص ، وقوله : " ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم " ١٠١ : آل عمران ، وقوله : " وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم " ٨١ : النمل ، .

٥) وكلمة الهدى فى قوله تعالى : " ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله " ١٩٦ : البقرة ، وما ماثلها من الايات مستشعر فيها معنى الهدية ، ومستشعر فيها كذلك معنى الدلالة فالهدية دلالة على الحب والمودة ، والهدى دلالة على التقوى والطاعة ، ومصداق ذلك قوله تعالى : " ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب " ٣٢ : الحج .

٦) وكلمة الهدية فى قول الله سبحانه حكاية عن ملكة سبأ : " وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون " ٣٥ : النمل ، فإنما أرسلت بهديتها لتكون دليلا (على رغبة ملكية فى إقامة علاقات بينها وبين مملكة سليمان عليه السلام تقوم على المودة وتبادل المنافع) وقدمت هديتها كدليل معبر عن هذا ، ولذلك قالت : " مرسلة إليهم " ولم تقل (مرسلة إليه) لانه إن حاربها فسيحاربها بأهل مملكته ، وإن سالمها فالسلام بين مملكتين ، لكن سليمان عليه السلام ما كان يريد منها إلا أن تدخل فى طاعة الله .

الأرحام اللغويه وإيحاءات الحرف(١)

ما أختار الله العربيه لغة لكتابه إلا لحكم جُلّى لسنا بصدد بسطها ، ولكننا نشير هنا إلى علاقة جرس بعض الأحرف بمعناها ، فمثلا :-

حرف القاف ، من حروف القلقلة فخم ضخم عند نقطه لأنه من حروف الإستعلاء ، فلننظر إلى دلالة هذا الحرف على معنى القطع فى الكلمات: قتل (القتل قطع رقبة) ، قَدّ ، قَطّ ، ومنها جاء قوله تعالى : " وقالوا ربنا عجل لنا قِطّنا قبل يوم الحساب" ١٦ : ص ، وكذلك قطع ، قص ، قصم ، قفر ، قضم ، قطف ، قصف ، قصى .

وتأمل ما يدل عليه هذا الحرف أيضا باجتماعه مع حرف الضاد من شدة وعنف فى الكلمات: انقض ، قبض ، انقبض ، تقوض ، قضيض ، قضم ، قضى ، انقضى (أنتهى) ، نقض .

حرف الغين ، وتجد فى هذا الحرف معنى الغياب والغموض كما فى الكلمات : غاب ، غار ، غاص ، غاض ، غام ، غم ، غض ، غوى ، غص ، غط ، غطى ، غفا ، غبر ، غفر ، غمر ، غرق ، غبن ، غبق ، غمص ، وما ماثل ذلك من الكلمات .

حرف النون تجد فى اجتماعه مع الباء ما يدل على معنى الظهور كما فى الكلمات : نبت ، نبر ، نبز ، نبح ، نبخ ، نبه ، نبا . وفى اجتماع حرف النون مع الفاء ما يدل على معنى الخروج كما ترى فى الكلمات: نفث ، نفخ ، نفح ، نفد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفش ، نفض ، نفط (النفط يخرج من الأرض) ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى .

وفى اجتماع حرف النون مع الكاف ما يدل على معنى الخبيه والألم كما فى الكلمات : نكب ، نكث ، نكد ، نكر ، نكس ، نكص ، نكل .

---

(١) هذه الفكره يمكن أن يستقل بها بحث كامل لا يخلو من جدة وطرافة ، وقد أومأ إليها على عجل الأستاذ محمد المبارك فى كتيب له بعنوان " عبقرية اللغة العربية " طبعة دار الفكر .

القرآن مصدر للنحاة ، والنحو آلة للمفسرين

هما قضيتان :

فأما أولاهما : فإن القرآن مركز للنحاة منه ينطلقون ، ومثابة لهم إليها يرجعون ، وحجة لهم بها يستشهدون ، بمنطقه يقوم النحو ، وعلى شواهده قعدت القواعد ، وهذه كلها مسلمات ، لكن بعض النحاة أحيانا يقعد القاعدة ثم يؤول لموافقتها نص القرآن ، وما هذا بالقول السديد ، ولا بالمنهج الرشيد ، وتلك قضية لو أطلنا فيها القول لخرجنا عن مقصودنا ، فليكن حديثنا قصداً مكتفين ببعض الأمثلة من ذلك ما ذهب إليه النحاة من منع اتصال علامة التثنية أو الجمع بالفعل إذا كان فاعله أو نائب فاعله اسما ظاهراً مثنى أو مجموعا (١) ، وقاعدة المنع هذه مخالفة لما ورد في بعض آي القرآن الكريم كقول الله تبارك وتعالى : " . . . وأسروا النجوى الذين ظلموا . . " (٣ : الأنبياء) ، وقوله تعالى : " ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون " (٧١ : المائدة) ، ووردت كذلك شواهد لصحة هذا الاستعمال ، في الحديث النبوي منها :-

(١) قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " .

(٢) ورد في حديث وائل بن حجر واصفا سجود النبي صلى الله عليه وسلم قوله " فوقعتا ركبتاه قبل أن تقعا كفاه " .

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن خروج النساء لصلاة العيدين : " يخرجن العواتق وذات الخدور " .

---

(١) قدم الاستاذ عباس حسن إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الخامسة والثلاثين بحثا بعنوان " بعض الشوائب في النحو " ومثل لهذه الشوائب بما عده النحاة من اتصال علامة التثنية أو الجمع بالفعل إذا كان فاعله اسما ظاهرا ، ويؤولون ما ورد في القرآن مخالفا لذلك ، لأن قاعدتهم هي الأصل عندهم ، ولما أحيل البحث إلى لجنة الأصول عاضده الشيخ المحقق محمد محيي الدين عبد الحميد ، وانتصر له مؤيدا رأيه ورأى زميله بمواطن الأدلة ، إلا أن المؤتمر العام للمجمع في الدورة — المذكورة لم يرتض رأي الشيخين ، انظر في هذه التفاصيل كتاب في أصول اللغة ج٢ الذي أخرجه مجمع اللغة العربية في القاهرة بتعليق محمد شوقي أمين ومصطفى حجازي الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م من صـ ٢٠٩ الى صـ ٢١٣ .

وقد سمى ابن مالك هذه اللغة لغة "يتعاقبون فيكم" ، ولقد وصف الأستاذ عباس حسن العدول عن قاعدة تؤيدها شواهد القرآن بأنه من "شوائب النحو" ولقد صدر عن لجنة أصول اللغة بمجمع اللغة قرار ورد فيه (١) " والتأويل في الآيتين الكريمتين ، وفي الحديث الشريف خلاف الأصل ، ولا مقتضى له ، وقد ثبت أن هذه لغة جمع من قبائل العرب ، منهم طيء وأزد شنوءة ، وقد ورد هذا كثيرا في الشعر العربي المحتج به ، كما ورد في شعر فحول الشعراء في العصر العباسي ، كأبي تمام ، وأبي نواس ، والبحتري ، والشريف الرضي ، والمتنبي ، وأبي العلاء ، وأبي فراس ، وقد احتج بكلامهم الرضي في شرح الكافية ، وكذلك احتج به غيره من علماء العربية ، وأما التأويل بجعل الاسم الظاهر بدلا أو مبتدأ مؤخرا ، فإنه يخرج الأسلوب عن كونه لغة قوم بأعيانهم ، لأن بدل الاسم الظاهر من الضمير ، وتأخير المبتدأ عن خبره لا يختص لغة قوم معينين ، وقد نص العلماء على أن ذلك الأسلوب لغة قوم بأعيانهم . أما تأويل الحديث بأنه قطعة مختصرة من حديث مطول رواها مالك في "الموطأ" ، والمطول هو: "إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار" فتأويل غير مستساغ ، لأن العلماء أجازوا للمتمكن من اللغة أن يروى الحديث بالمعنى .

لذلك تقرر اللجنة ما يأتي :—

" يجوز إذا كان الفاعل اسما ظاهرا مثنى أو مجموعا جمعا لمذكر أو مؤنث ، أو ما يدل على أحدهما ، أن تلحق الفعل المسند إلى أحدهما علامة التثنية أو علامة الجمع ، كما ألحق جميع العرب علامة التأنيث بالفعل المسند إلى المؤنث " اهـ .

ومع هذا فإن مؤتمر المجمع ، لم يوافق على هذا القرار كما سبقت الإشارة في الهامش السابق .

(٢) إذا كان المثال السابق حول تكلف النحاة تأويل بعض آى القرآن ، لتوافق قواعدهم التي قعدوها ، فإن المثال الذي نحن بصدده يبين تكلفهم التأويل إظهارا لتمكنهم من الصنعة الإعرابية فـ" " في قوله تعالى " ووالد وما ولد " (٣ : البلد) ، اسم موصول والمقصود تعظيم شأن الوالد وذريته ، سواء أكان المقصود والدا بعينه أو أي والد كما قال البيضاوي (٢) : " ووالد " عطف على هذا البلد ، والوالد

(١) انظر كتاب في أصول اللغة صـ ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، جـ٢

(٢) انظر تفسير البيضاوي صـ ٥٦٩ .

آدم أو إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، " وماولد " ذريته ، أو محمد عليه الصلاة والسلام ، والتنكير للتعظيم وإيثار " ما " على "من" لأن التعجب كما في قوله " .. والله أعلم بما وضعت " (٣٦ آل عمران) .

ومع هذا الوضوح فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن " ما " نافية لإيجاد تقابل بين " الذى ولد " ، " والذى ماولد " وهو العاقر ، ولم يكن أمرهم إلا كما قالت صاحبة[1] التفسير البياني : " وإنما هي الصنعة الإعرابية بعيدا عن جو الآية وسياقها وقد تكلفوا شططا في توجيه الآية على القول بأن "ما" نافية فتأويلها عندهم " والد والذى ماولد " أى العاقر على تقدير موصول ضمير يصح به هذا المعنى ، مع أن إضمار الموصول لايجوز عند البصريين كما بين ذلك أبو حيان في تفسيره البحر المحيط .

* * *

ونحب أن نقول في خاتمة هذه الشذرة أن نص القرآن لايحاكم إلى قاعدة نحوية أو شاهد شعرى أو قول لأعرابى ، إذ القرآن حجة على هؤلاء أجمعين ، وأقوال الخلائق مأخوذ منها ومردود عليها حتى لقد عقد ابن جنى في خصائصه بابا عنون له بقوله : " في أغلاط العرب "[2] ذكر فيه رأى أبى على الفارسى وهو " إنما دخل هذا اللحن في كلامهم ، لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يعتصمون بها وإنما تهجم بهم طباعهم على ماينطقون به ، فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد "[3] ثم أطال ابن جنى مناقشة رأى أبى على حتى انتهى إلى غايته وهى : [4] " وإنما مكنت القول في هذا الموضع ، ليقوى في نفسك قوة حس هؤلاء القوم ، وأنهم قد يلاحظون بالمنة والطباع ما لا نلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع " أهـ . وتقودنا هذه القضية إلى قضية الإحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر[5] ورأينا فيها أن يكون الإحتجاج "له" لا "عليه" ، وكفى بالإيجاز بيانا .

---

(١) انظر التفسير البياني للدكتورة عائشة عبد الرحمن جـ ٢ سورة البلد .
(٢) انظر الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جني جـ ٣ من ص ٢٧١ : ٢٨٢ .
(٣) عزا ابن جني في خصائصه جـ ٣ صـ ٢٧٣ هذا الرأى الى أبى على قائلا هذا معنى قوله وان لم يكن صريح لفظه .
(٤) انظر جـ ٣ صـ ٢٧٦ .
(٥) انظر بعض تفاصيلهما في تفسير القرطبي جـ ١ صـ ٢٤ .

وأما القضية الأخرى: وهي حاجة المفسر إلى النحو فهي كحاجة العين إلى الضوء تبصر به طريقها وتهتدي به إلى ماتريد ، وإذا كان الإعراب فرع المعنى فإن المعنى لايحرز إلا بقواعد الإعراب ، ولقد لحن رجل في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قوموا أخاكم فقد ضل " وقال أبو بكر بن الأنباري [1]: " جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم ، من تفصيل إعراب القرآن والحض على تعليمه ، وذم اللحن وكراهيته ماوجب به على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالإجتهاد في تعلمه " وروى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه " ، وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد قال: قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: " لبعض إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ حروفه " وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: " جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه فإنه عربي ، والله يحب أن يُعرب " ، وقيل للحسن إن لنا إماما يلحن قال أخروه .

وقال حماد بن سلمة: " من طلب الحديث ولم يتعلم النحو فهو كمثل الحمار تعلق عليه مخلاة ليس فيها شعير " ، وقال فضيل بن عياض: " لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومحكمه من متشابهه وناسخه من منسوخه ، وقال ابن عطية: " إعراب القرآن أصل في الشريعة لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع " [2] .

وقال يحي بن حمزه العلوي [3]: " لولا الإعراب لما عرف الفاعل من المفعول ، فإذا قلنا (ما أحسن زيد) ، لايمكن التفرقة بين النفي والتعجب والاستفهام إلا بالاعراب ، لأن الصيغة فيها واحدة ، ولهذا يحكى أن رجلا دخل على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فقال له: قتل الناس عثمان من غير إعراب ، فقال له علي: بين الفاعل من المفعول ، فض الله فاك " أهـ .

ولذلك فإن من المخططات الأثيمة لأعداء القرآن ، الدعوة إلى إلغاء الإعراب ، ليكون ذلك سبيلا إلى القضاء على القرآن وعلى العربية ، بل وعلى العرب أنفسهم ، ولذلك يقول الأستاذ العقاد في نقض هذه الضلالة [4]: " .. إن لغتنا لاتبقى بغير الإعراب ، ولاتصح المشابهة بينها وبين اللغات التي لا إعراب فيها ولا اشتقاق ،

---

(١) إنظر تفسير القرطبي جـ ١ صـ ٢٣ .

(٢) أكثر النصوص السابقة نقلا عن القرطبي جـ ١ ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) انظر كتابه الطراز جـ ١ صـ ٢٨ ، وهو كتاب في علوم البلاغة ومباحث الإعجاز مطبوع في ثلاثة أجزاء .

(٤) انظر صـ ٥ ، ٦ من المقدمة التي كتبها الأستاذ عامر محمود العقاد لكتاب مقدمة الصحاح تأليف أحمد المطار طبع الكتاب العربي بالقاهرة .

لأن قوام اللغات القائمة على النحت ولصق المفردات ، غير قوام اللغة التي تختلف في كل موقع من مواقع الحروف ، ولا سيما الحروف التي يقع عليها الإعراب ، فليست أواخر الكلمات وحدها هي التي تتغير معانيها بالحركة ، بل يتغير معنى الكلمة بالحركة في أول الكلمة ووسطها حتى تتبدل من المعلوم إلى المجهول ، ومن الفاعلية إلى المفعولية ومن التكلم إلى الخطاب ..... فمسألة القواعد في عربنا مفروغ منها لا تحتمل التغيير إلا على نية واحدة ، وهي نية القضاء على الفصحى والاستغناء عنها باللهجات العامية .

ولا يقول بذلك أحد يفقه ما يقول ، ولو كان من دعاة التسهيل بغير مبالاة منه بالعاقبة ، فإن كتابة العلوم والقواعد باللغة العامية أصعب جدا من كتابتها بلغة القواعد والإعراب " .

وننتقل من هذا البيان عن أهمية النحو إلى ضرب بعض الأمثلة التي تؤيد ما ذكرنا :

(١) قول الله تعالى : " وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله .. " (٣ : التوبة) .

قبل أن نخوض في إعراب هذه الآية نذكر حادثة طريفة رواها عبد الله بن أبي مليكة [1] وهي : " قدم اعرابي للمدينة في عهد عمر رضي الله فقال : من يقرئني مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : " فأقرأه رجل "براءة" ، فقال : " أن الله بريء من المشركين ورسوله " بالجر ، فقال الأعرابي : أوقد برئ الله من رسوله ؟ فإن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه وأقرأه الآية على وجهها : " أن الله بريء من المشركين ورسوله " فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود فوضع النحو [2] " ونعود إلى ما قيل في إعرابها فقد روى القرطبي في إعراب (ورسوله) بالرفع ثلاثة أوجه : [3]

(أ) عطف على الموضع .

(ب) عطف على الضمير المرفوع في " بريء " وعلل للوجهين مستحسنا لهما بأن الكلام قد طال .

(جـ) أنها مرفوعة على الابتداء والخبر محذوف ، والتقدير : ورسوله بريء منهم .

---

(١) انظر تفسير القرطبي جـ ١ ص ٢٤ بتصرف .

(٢) يمكن التوفيق بين الرواية التي تنسب إلى عمر الأمر بوضع النحو والأخرى التي تنسب ذلك إلى علي رضي الله عنهما بأن عمل أبي الأسود امتد الى عهد علي رضي الله عنه فأعاد الأمر .

(٣) انظر تفسيره جـ ٨ ص ٧٠ ، ٧١ .

ثم ذكر القرطبي قراءة الحسن وهي " ورسوله " بالنصب عطفا على اللفظ في اسم الله عز وجل .

ثم روى القرطبي قراءة بالخفض (ورسولِ) ووصفها بأنها من الشواذ وقال إن الخفض على القسم أي وحق رسولِه ، وقال إنها روت عن الحسن " . أ هـ .

وعندي أن هذه الرواية فوق أنها شاذة مناقضة للرواية السالفة عن عمرو لقراءة النصب المنسوبة للحسن ، وهي بعد ذلك ليست إلا تأويلا بعيدا مستكرها . وأما الطبري فرغم كثرة الروايات والصحائف لم يتعرض للناحية الإعرابية في الآية إلا من طرف خفي حيث قال [1] : " ومعنى الكلام : .. أن الله ورسوله من عهد المشركين بريئان " .

(٢) قول الله تبارك وتعالى : " لكنَّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا " (٣٨ : الكهف) . ونقض إشكالها النحوي هو كما قال القرطبي [2] : " أصله لكن أنا " فحذفت الهمزة من (أنا) طلبا للخفة لكثرة الاستعمال ، وأدغمت إحدى النونين في الأخرى وحذفت ألف (أنا) في الوصل ، وأثبتت في الوقف ، وقال أبو عبيد : — " الأصل لكن أنا " فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء التشديد لذلك ، واستشهد القرطبي بقول الشاعر :

وتريمني بالطرف أي أنت مذنب .. وتقلينني لكن إياكِ لا أقلي

والمعنى : لكن أنا لا أكرهك ، وروى عن الكسائي : " لكن هو الله " بمعنى لكنَّ الأمرَ هو الله ربي ، فأضمر اسمَها فيها " أ هـ .

(٣) قول الله تبارك وتعالى : " إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور " — (٢٨ : فاطر) ، وأمر إعرابها : أن المفعول مقدم على الفاعل والسر كما يقول البيضاوي : [3] " لأن المقصود حضر الفاعل ليتلوه آخر لعكس الأمر " أ هـ .

---

(١) انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري جـ ١٤ صـ ١٣٠ ط : المعارف .

(٢) انظر تفسير القرطبي جـ ١٠ صـ ٤٠٤ ، ٤٠٥ مع بعض الجمع لعبارة البيضاوي صـ ٢٩١ .

(٣) انظر تفسير البيضاوي صـ ٤١٩ .

النجم الثاني

التكامل الموضوعي
في
القرآن الكريم

التكامل الموضوعي
في القرآن الكريم

" القرآن يفسر بعضه بعضا "

قاعدة رئيسية ، وركيزة وطيدة من ركائز المنهج الأرشد لفهم كتاب الله .

وهي قاعدة تداولتها أقلام المفسرين كلهم أو جلهم ، لكن الراسخون منهم هم الذين توطنوا رحابها ... وتفسير القرآن بعضه لبعض يقفنا على تكاملية واعية للموضوع القرآني الذي نريد أن نسترشده ، ونستوعب هداياته .

ولا نريد هنا أن نستعرض الذين طبقوا هذه القاعدة موفقين ، ولا أن ننحى باللائمة على الذين لم يلتزموا سدادها قاصرين أو مقصرين .

وما نعنيه بالتكامل الموضوعي لا يستتبع - ضرورة - فصل الآية عن سياقها ، وقطع أرحامها بسوابقها ولواحقها ، ولا يقتضي العدول عن تفسير القرآن سورة سورة ..

وإنما يقتضينا التكامل الموضوعي ، ألا نخوض في تفسير آية من كتاب الله ، إلا بعد الاستقراء الواعي لما ورد في موضوعها بين دفتي المصحف .

وهذا الإلتزام الموضوعي ينأى بنا أن نجعل القرآن عضين ، وأن نضرب كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما تتعاون الآيات في التبيان ، كما تتآزر الأعضاء في الجسمان ، وتتضافر اللبنات في البنيان .

ويعني التكامل الموضوعي - فيما يعنى - أن ما أجمل في آية كريمة ، فصل في آية أخرى ، وأن ما جاء مطلقا في آية ، جاء مقيدا في آية أخرى ، وأن ما جاء عاما في آية ، ورد ما يخصصه في غيرها ، وأن ما ورد مبهما في موضع ، ورد بيانه في موضع آخر .

ويعني التكامل الموضوعي - فيما يعنى - العناية بالتدرج أو التطور التشريعي فيبين مثلا المراحل التي مر بها تحريم الخمر ، والمراحل التي مر بها تحريم الربا ، وما ماثل ذلك من التشريعات ، ولنأخذ في ضرب الأمثلة لما سبق (١) : -

---

(١) انتفعنا في هذا الفصل بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله ، وبكتاب " أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن " وقد أصدر منه مؤلفه الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي سبعة أجزاء كبيرة حتى وفاته بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم عام ١٣٩٣ هـ ، وقد صدر الجزء الأول منه عام ١٣٧٩ هـ = ١٩٥٩ م عن مطبعة المدني بالقاهرة ، ثم كان لي بعد ذلك نهجي ، ولله الفضل والمنة .

١ - ما هو يوم الديـــــــن : -

وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه : " مالك يوم الديـــن " ٤ : الفاتحـــة ، وتطلـــق لفظة الدين على العديد من المعانى (١) فما هو المعنى المراد منها فى آيـة الفاتحة ؟ .

هذا المعنى المراد فى هذا السياق ، بينته آيات من القـرآن هى قوله تعالـــى : -

" يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين . وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئـا والأمر يومئـذ للـــه " ١٥ ـــ ١٩ الإنفطـار .

وبينها أيضا قوله تعالى متوعدا إبليس : " قال فاخرج منها فإنك رجـيم . وإن عليك اللعنة الى يـوم الديـــن " ٣٤ ، ٣٥ الحجـــر ، وقريب منها ما ورد فى ٧٧ ، ٧٨ : ص .

وقوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم : " والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين " ٨٢ : الشعراء

وفصلها أيضـــا قوله سبحانه الذى ذكره على لسان المشركين المكذبين وهو : " وقالوا يا ويلنا هذا يـوم الدين . هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبـون " ٢٠ ، ٢١ الصـافات .

وورد اللفظ بنفس المعنى فى سياقيـن من سـورة الذاريـات هما : "إنما توعدون لصادق . وإن الديـن لواقـع " ٥ ، ٦ : الذاريـات . " قتـل الخراصـون . الذين هم فى غمرة ساهـون . يسألون أيان يوم الدين . يوم هم على النـار يفتنـون " ١٠ ـ ١٣ : الذاريـــات . ووردت كذلك فى قولـــه تعالى : " هذا نزلهم يوم الدين " ٥٦ : الواقعـة ، " والذين يصدقون بيوم الدين " ٢٦ : المعارج ، " وكنا نكذب بيوم الدين " ٤٦ : المدثـر ، " ويـل يومئذ للمكذبين . الذيـــن يكذبون بيوم الدين " ١٠ ، ١١ : المطففيـن .

والذى ننتهى اليه أن كلمة الديـن فى كل الآيات السابقة بمعنى الجزاء واليوم الذى يحاسب ويدان فيـه كل بما قدم .

٢ - إخلاص العبـادة للواحد الأحد ، والكفـر بالطواغيـــت : -

---

(١) أنظـر فى هذه المعانى المعاجم اللغوية المعروفة وخاصة معجم " مقاييس اللغة " لأحمد بن فارس بتحقيق الاستاذ هارون جـ ٢ صـ ٣١٩ ، ٣٢٠ والقاموس المحيط جـ ٤ صـــ ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، والمدخل الى دراسة الأديان والمذاهب للدكتور بدران صـ ٤٤ ـ ٤٨ ، صـــ ٥٥ ـــ ٥٨ .

و في قوله تعالى : " إياك نعبد .. " ٥ : الفاتحة ، إجمال فصله العديد من الآيات القرآنية ، إذ ما هو السر وراء تقديم " إياك " ؟ والجواب : إن من مقررات البلاغة : أن تقديم المعمول يفيد الحصر أو القصر ، فهذا التقديم يشعر بمفهوم المخالفة نفي الأنداد والشركاء ، و قصر العبادة على الله الواحد الأحد ، فكأنها تقارب ما تفيد " لا إله إلا الله " من النفي و الإثبات ، و مثلها في القرآن الكريم من الآيات قوله تعالى : " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون " ٢١ ، ٢٢ : البقرة . فتأمل الاثبات في " اعبدوا " والنفي في " فلا تجعلوا لله أندادا " وقارن ذلك بآية الفاتحة سالفة الذكر ، ثم افعل ذلك مع الآيات التاليات وهي : " .. فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى .. " ٢٥٦ : البقرة ، " ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " ٣٦ : النحل " والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب " ١٧ ، ١٨ : الزمر .

٣ - لمن تكون هداية القرآن : -

قول الله تبارك و تعالى " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين " ٢ : البقرة ، فالمقصود بالهداية في هذه الآية ، هداية التوفيق الموصلة إلى المطلوب ، وليس هداية الدلالة و الإرشاد المثبتة للقرآن إذا كانه الخلق في قوله تعالى " شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس .. " ١٨٥ : البقرة ، فما تضمنته الآية الثانية من البقرة هو ما فصلته هذه الآيات التاليات : " قل هو للذين آمنوا هدى و شفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد " ٤٤ : فصلت " وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا " ٨٢ : الإسراء . " وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون " ١٢٤ ، ١٢٥ : التوبة .

٤ - ما هية حجارة النار : -

قول الله تبارك و تعالى في وصف النار محذرا منها " فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ... " ٢٤ : البقرة ، يؤكدها قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة .. " ٦ : التحريم . وقد قال بعض المفسرين في تفسير الحجارة بأنها حجارة الكبريت ، ويتعقب البيضاوي هذا الرأي بقوله (١) " وهو تخصيص بغير دليل وابطال للمقصود ، اذ الغرض : تهويل شأنها ، وتفاقم أمرها ، بحيث تتقد بما لا يتقد به غيرها ، والكبريت تتقد به كل نار وإن ضعفت ، فإن صح هذا عن

(١) انظر تفسير البيضاوي صـ ١٤ طبعة المهيمنة .

ابن عباس رضى الله عنه فلعله عنى به أن الأحجار كلها لتلك النار ، كحجارة الكبريت لسائر النيران ؛ أى أن دور الحجارة لهذه النار هو نفس دور حجارة الكبريت لغيرها ، و ذهب بعض المفسرين إلى أن الحجارة هى حجارة الأصنام التى عبدوها من دون الله مستشهدا بقوله تعالى : " انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم " ٩٨ : الأنبياء ، و مما يدخل فى هذا المعنى قوله سبحانه و تعالى : " إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة (١) صفر " ٣٢ ، ٣٣ : المرسلات .

٥ - عبادة العجل فى بنى إسرائيل : -

و ننتقل من الأمثلة السابقة إلى ضرب المثل لتكرار الموضوع فى القرآن كطريق من طرق التكامل الموضوعى بقصة العجل الذى عبده بنو إسرائيل ، فقد كان أوضح تفصيل لهذه القصة ماورد فى سورة الأعراف المكية ، حيث بينت السورة كيف لم تبرأ قلوبهم من الوثنية بعد خروجهم من مصر و ذلك فى قوله تعالى : " و جاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه و باطل ما كانوا يعملون " ١٣٨ ، ١٣٩ : الأعراف ، ثم بينت السورة كيف ذكرهم الكليم بفضل التوحيد : " قال أغير الله أبغيكم إلها و هو فضلكم على العالمين " ١٤٠ : الأعراف ، ثم بينت السورة كيف أن قلوبهم لم تبرأ من عفن الوثنية حين وجدوا الفرصة سانحة لإظهار خبيئات الصدور ، و ذلك ما تجده مبسوطا فى قوله تعالى : " واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه و كانوا ظالمين . و لما سقط فى أيديهم و رأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين . و لما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم و ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى و كادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى و لأخى و أدخلنا فى رحمتك و أنت أرحم الراحمين " . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم و ذلة فى الحياة الدنيا و كذلك نجزى المفترين . و الذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها و آمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم " ١٤٨ - ١٥٣ : الأعراف ، ثم جاء تفصيل لهذه الحادثة فى سورة طه و ذلك فى قوله تعالى : خطابا لموسى عليه السلام : " قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك و أضلهم السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقال هذا إلهكم و إله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا

---

(١) القصر هو البنيان المعروف أى كالقصر فى عظمها أو جمع قصرة و هى الشجرة الغليظة و هذا أنسب فى تفسيرها بدليل " كأنه جمالة " فهناك تناسب فى الحجم بين الشجرة و الجمل و الجمالة جمع جمل شبهه ضخامتها بالقصر و لونها بالجمال الصفر . أنظر البيضاوى بتصرف .

ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى • قال يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفعصيت أمري قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي • قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي • قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شئ علما • كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا " ٨٥ — ٩٩ : طه في هذين الموضعين من سورتي الاعراف وطه جاء تفصيل قصة العجل فاذا جاء الحديث بعد ذلك عن العجل — للتبكيت • أو للتقريع — فهو الحديث الوجيز كما تجد ذلك في قوله تعالى : " واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم أتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون " ٥١ : البقرة ، " واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم " ٥٤ : البقرة ، : " واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا واشربوا (١) في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين " ٩٣ : البقرة ، " ٠٠ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا " ١٥٣ : النساء

فمن أراد أن يعلم شيئا عن عبادة العجل عند بني اسرائيل وكيف انكر عليهم نبيهم موسى عليه السلام وكيف بكت الله الشاردين عن الحق من الابناء بجرائم آبائهم ليبين لهم أنهم يتوارثون الجرائم خلفا عن سلف فليتدبر ما سبق من الآيات •

٦ — كل شئ خلق بقدر واحكام : —

ومن أراد أن يعرف معنى " بقدر " في قوله تعالى : " انا كل شئ خلقناه بقدر " ٤٩ : القمر أي بتقدير ونظام مقترن وقائم على الحكمة البالغة فليقرأ قوله تعالى : " الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار " ٨ : الرعد ، " والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شئ موزون " ١٩ : الحجر ، " وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم " ٢١ : الحجر •

٧ — مضاعفة أوزار المضلين والفاتنين : —

من قرأ قوله تعالى : " وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون "

(١) سر التعبير في قوله تعالى : " واشربوا في قلوبهم العجل " مما يدل على تغلغل عبادة العجل في قلوبهم تتغلغل الشرايين في جسم يمتصه •

١٣ : العنكبوت ، فليقرأ معها قوله تعالى : " ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة و من أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون " ٢٥ : النحل ، " وقالوا : ربنا انا أطعنا سادتنا و كبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب و العنهم لعنا كبيرا " ٦٧ ، ٦٨ : الأحزاب ، " اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب . و قال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم و ما هم بخارجين من النار " ١٦٦ ، ١٦٧ : البقرة

٨ - المسئولية الشخصية : -

وردت العديد من الآيات القرآنية تبين مسئولية كل انسان عن عمله و أن غيره لا يغني عنه شيئا يوم القيامة ، و يقتضي منهج التكامل الموضوعي أنك اذا أردت أن تتدبر معنى قوله تعالى : " و ابراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى و أن ليس للانسان الا ما سعى و أن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى " ٣٧ - ٤١ : النجم ، فأضم الى هذه الآيات قوله تعالى : " بل الانسان على نفسه بصيرة و لو ألقى معاذيره " ١٤ ، ١٥ : القيامة ، " كل نفس بما كسبت رهينة " ٣٨ : المدثر ، " كل امرئ بما كسب رهين " ٢١ : الطور ، " .. لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت .. " ٢٨٦ : البقرة ، " ولا تكسب كل نفس الا عليها " ١٦٤ : الانعام ، " ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . و صاحبته و أخيه و فصيلته التي تؤويه و من في الأرض جميعا ثم ينجيه " ١٠ - ١٤ : المعارج ، " وان تدع مثقلة (١) الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى " ١٨ : فاطر .

٩ - تفاوت مراتب الناس تبعا لتفاوت أعمالهم : -

فهذه قاعدة يقررها القرآن و يبين لنا أنها من سنن الله الماضية مع كل الأمم و في كل العصور ، و أن من حكمته البالغة أن يعامل الناس طبقا لهذه القاعدة القرآنية المبينة في قوله تعالى : ((.. و لكل درجات مما عملوا ..)) ١٣٢ : الأنعام ، و مثلها قوله تعالى : " هم درجات عند الله و الله بصير بما يعملون " ١٦٣ : آل عمران ، و قوله : " و هو الذي جعلكم خلائف الأرض و رفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب و انه لغفور رحيم " ١٦٥ : الأنعام ، و قوله : " أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون " ١٨ : السجدة ، و يضرب الله الامثال لهذه القاعدة فيقول : " قل هل يستوي الاعمى و البصير أم هل تستوي الظلمات و النور " ١٦ : الرعد ، و يقول سبحانه : " مثل الفريقين كالأعمى و الأصم و البصير و السميع هل يستويان مثلا " ٢٤ : هود ، و يقول : " ولا تستوي الحسنة ولا السيئة .. " ٣٤ : فصلت ، و يقول سبحانه : " أجعلتم سقاية الحاج و عمارة

(١) أي اذا طلبت نفس مثقلة بالذنوب محملة بالأوزار أحدا أن يحمل عنها من ذنوبها أعرض و أدبر و لو كان أقرب الناس اليها .

المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله " ١٩ : التوبة ، بل أن درجات المؤمنين أيضا متفاوتة .. : " لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله .. " ٩٥ : النساء ، " انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا " ٢١ : الاسراء .

١٠ : تاريخ بناء المسجد الحرام : —

اختلف المفسرون في تعيين من بنى المسجد الحرام هل هو آدم أم نوح أم ابراهيم صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، فاذا أردت أن تستشهد بقول الله تبارك وتعالى : (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم " ١٢٧ : البقرة ، على أن ابراهيم عليه السلام هو أول من بنى المسجد الحرام ان هذا الاستشهاد لا يتم لك ولكن اتباع منهج التكامل الموضوعي يقضي أن تقرأ مع هذه الآية قول الله تعالى : " ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم .. " ٩٦ ، ٩٧ : آل عمران ، وقوله سبحانه : " ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون " ٣٧ : ابراهيم ، فقوله سبحانه " ان أول بيت .. " وقوله " ... عند بيتك المحرم " ، كل هذا مما يتعلق به دال على أن البيت كان موجودا قبل الخليل عليه السلام ، وانما جدد الخليل واسماعيل بناءه و .. وهذا ما يفهم من قوله تعالى " واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت " ، ومشاركة اسماعيل عليه السلام في البناء ، انما وقعت حينما بلغ من الفتوة والشباب ما جعله قادرا على النهوض بهذا العبء .....

١١ — مضاعفة ثواب المنفق في سبيل الله : —

يقول الله جل ذكره : " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط واليه ترجعون " ٢٤٥ : البقرة ، فالاضعاف الكثيرة المذكورة في هذه الآية مبهمة غير مبينة ، لكنها بينت ووضحت في قوله تعالى : " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم " ٢٦١ : البقرة .

١٢ — تعليم الله سبحانه لداوود بعض الصناعات : —

وقوله تعالى في شأن نبيه داود عليه السلام ، " وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء (١) .. " ٢٥١ : البقرة ، ففي قوله تعالى " وعلمه مما يشاء "

(١) ذكر الله سبحانه " الحكمة " ، وهي علم النبوة فيكون قوله " وعلمه مما يشاء " من العلوم الدنيوية .

المثال قد فصله قوله سبحانه : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم ... ﴾ ٨٠ : الأنبياء ، وقوله : ﴿ وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد ﴾ (١) ... ﴿ ١١ : سبأ

١٣ ـ درجات الأنبياء :

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ... ﴾ ٢٥٣ : البقرة ، فهذه الآية الكريمة لم يبين فيها من الذين كلمهم الله ، وقد بين في قوله تعالى : خطابا لكليمه موسى ، ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ... ﴾ ١٤٤ : الأعراف ، وقوله سبحانه ، ﴿ ... وكلم الله موسى تكليما ﴾ ١٦٤ : النساء ، وفي قوله تعالى ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ... ﴾ ١٤٣ : الأعراف ويقول ابن كثير (٢) ﴿ في معنى قوله تعالى : ﴿ منهم من كلم الله ... ﴾ يعني موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم ، كذلك آدم كما ورد به الحديث في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه ﴾ أ هـ .

وقال القرطبي (٣) : ﴿ المكلم موسى عليه السلام ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبي مرسل هو ؟ فقال : نعم نبي مكلم ﴾ قال ابن عطية : ﴿ وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة فعلى هذا تبقى خاصية موسى ﴾ . أ هـ . ، ومما يؤكد حقيقة هذا التفضيل قوله تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ﴾ ٥٥ : الإسراء .

---

(١) معنى قوله سبحانه ﴿ وقدر في السرد ﴾ مراعاة الحكمة وأصول الصنعة في عمل الدروع حتى لا ينفصم منها شيئا أو يتخلجل منها مسمارا أو حلقة .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٣٠٣ ، ٣٠٤ ط : الحلبي .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ٣ صـ ٢٦٤ ، وفي الآية دليل التفاضل بين الأنبياء ، ولا تعارض بينها ، وبين ما ورد من النهي عن التفضيل وفي ذلك يقول القرطبي جـ ٣ صـ ٢٦٦ : ﴿ ان المنع من التفضيل انما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها وانما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات ، أما النبوة في نفسها فلا تتفاضل وانما تتفاضل بأمور آخر زائدة عليها ولذلك منهم رسل ، وأولو عزم ، ومنهم من اتخذ خليلا ومنهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات .

التكامل الموضوعي والتطور التشريعي

بيّنّا فيما سبق أن مانعنيه بالتكامل الموضوعي : هو ألا نقول في آية من القرآن حتى نحيط بما ورد في موضوعها من آي القرآن الكريم ، فذلك أدعى للفهم ، وسداد القول ، والاستقامة على الطريق ، ومانعنيه بالتطور التشريعي هو تدرج التشريع في مسألة من المسائل من طور إلى طور ، وقد سماه الدكتور دراز رحمه الله بـ " المنهج التدريجي " [1] وبحث التطور التشريعي وثيق الصلة ببحث النسخ والتخصيص ، كذلك فإن له آصرة ودودة ببحث التكامل الموضوعي ، ولنأخذ في ضرب الأمثلة الشارحة :

أولا - مراحل تحريم الربا :

مر تحريم الربا بمرحلة مكية وثلاث مدنيات :

١ - فأما المرحلة المكية فلم تكن نصا قاطعا في التحريم ، وإنما كانت إرهاصا بما هو آت ، وإشارة إلى أمر يستروح منه أولو النهى نسائم من الهدى القرآني وهذه المرحلة يمثلها قوله تعالى : " وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون " (٣٩ : الروم) ، ومع الكاتب هذه الأسطر من تلمذة على كتب الدكتور دراز إلا أنه لا يضي معه فيما فهمه من هذه الآية وهو : " هذه كما ترون موعظة سلبية : إن الربا لا ثواب له عند الله " فقوله "سلبية" [2] ليس على بابه أو على الأقل ليس على إطلاقه ، ونقف قليلا مع أسلوبها : تأمل " من ربا " وما أفادته النكرة من تعميم ، وتأمل كيف سمى المال الذي يدفعه المرابي ليربو " ربا " فإنه مال متصف بالربا ، لكن اسم المال قد زال عنه وبقيت له صفة مذمومة لم تلبث أن أصبحت هي هو ، لقد كان الربا بعض المال ، لكن التعبير القرآني جعله هو المال ، وهكذا الجزء الدنيء يمدو على الكل ، ثم قال " في أموال الناس " فسماها أموالا بينما لم يسم مال المرابي مالا ، ومع أن دافع الربا مشارك في الإثم ، إلا أن قسطاس العدل القرآني لم يجعل الذئب والضحية في مرتبة سوية من المسئولية ، وتأمل ملحظا آخر إنه يربو في أموال الناس ، المال مضاف هنا إلى

---

(١) انظر صـ ١٠ ، ١١ من محاضرة عنوانها " الربا في نظر القانون الاسلامي " وقد ألقاها بالفرنسية الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في مؤتمر القانون الاسلامي المنعقد في باريس في ٧ من يوليو ١٩٥١ ثم طبعت معربة بمطبعة الأزهر ١٩٥١م ، - وفي المحاضرة أسطر وجيزة فتح الله بها لكاتب هذه السطور أبوابا في فهم (كتاب الله) .

(٢) أنظر المحاضرة السابقة صـ ١٠ .

الناس مع أنه مضاف فى مواضع أخرى إلى الله ، والناس مستخلفون فيه ، ثم هو إن كان يربو من ابتزاز أموالهم إلا أنه لا يربو فى أعينهم ، ولا يكبر فى صدورهم ، ولقد روى كتاب السير أن قريشا فى جاهليتها حينما أرادت إعادة بناء البيت الحرام تواصت ألا يدخل فى بنائه مال جمع من ربا ، وتأمل هذه المقابلة بين " يربو فى أموال الناس " وبين " فلا يربو عند الله " ، تأمل ما أفادته الفاء من ترتيب النتيجة على المقدمة ، وقارن بين إثبات الفعل ونفيه " يربو " و " لا يربو " ، ثم قارن بين " فى أموال الناس " وبين " عند الله " ، كانت المقابلة تقضى بأن يقول " ليربو عند الناس " لكنه عدل عنها إلى " فى أموال الناس " لأن الربا ليس معروفا ليقابل بالشكر ، وليس إيثارا يقابل بالثناء ، أو جميلا يقابل بالعرفان ، إنه فى أقل حالاته سواء معاملة مادية بحتة ، ومع أنه لو قال عند الناس لظلت المقارنة مشعرة بسوء المقايضة وغباء المبادلة ، فمن الذى يؤثر ما يربو عند الناس على ما يربو عند الله ، وتأمل مقابلة الربا بالزكاة ، وما تشعر به كلمة الزكاة من نماء مال المزكى ، ومن تطهر نفسه من الشح ، وتنقية قلب الفقير من الحقد ، وتأمل المقارنة بين غاية المرابى وهى مادية صماء وتتمثل فى زيادة ماله ، وتأمل سمو غاية المؤمن كما يعبر عنها قوله سبحانه " تريدون وجه الله " ، ثم انظر ما تدل عليه الجملة الاسمية " فأولئك هم المضعفون " وإن المضاعفة هنا لعلى إطلاقها تدل على مضاعفة الخيرات للمؤمن فى الدنيا والآخرة .

هذه مرحلة نفسية تربوية فى تحريم الربا ، أحسبها قاعدة من قواعد القرآن فى النهى والتحريم ، وهى تقوم على تهيئة الأذهان وشحذ العقول وتنمية عوامل السمو فى النفس الإنسانية ، وتنفيرها من الأمر الذى سيحرم ، وتقبيحه وإظهار بشاعته وشناعته ، ثم تتلو هذه المرحلة مرحلة التحريم والحكم بتحريم الأمر المنهى عنه أو سن العقوبة لفاعله .

٢ - وفى المرحلة الثانية من مراحل التحريم جاء قوله تعالى : " فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما " (١٦٠ ، ١٦١ النساء) فهذه الآية تمثل " الخلفية التاريخية " لقانون تحريم الربا وتذكر سنة من سنن الله مع الأمم الماضية ، وتبين كيف تكون العقوبة على قدر الجريمة وكيف يكون الجزاء من جنس العمل ، وكيف لم يقنعوا بالطيبات واستحلوا الخبائث المحرمات ، فكان جزاؤهم أن يحرم عليهم بعض الذى كان حلالا وأن يحرمهم الله من طيبات

كانوا فيها رافلين ، وتأمل قوله تعالى : " وأخذهم الربا وقد نهوا عنه " فقوله " وقد نهو عنه " يبين أنه " لاجريمة إلا بقانون " ولا عقاب إلا بعد التحذير والإنذار .

ولسائل أن يسأل قائلا : لماذا جُعلت آية النساء فى شأن بنى اسرائيل هى المرحلة الثانية ؟ .. والجواب بشىء من الإيجاز : لاخلاف فى أن آية الروم تمثل المرحلة الأولى لأنها مكية ، والمكى هو كل مانزل قبل الهجرة على الرأى الذى نختاره فيه ، ولا خلاف كذلك فى أن آيات البقرة هى آخر مانزل [1] فى شأن الربا ، يبقى الترجيح بين آيتى آل عمران والنساء أيتهما أسبق نزولا ، وهو خلاف لايترتب عليه كبير خطر فى المسألة ، فإن آية النساء حتى لو كانت آية آل عمران سابقة عليها ستبقى ممثلة " للخلفية التاريخية " لتحريم الربا وقد دندن [2] الفقيه المالك أبو بكر محمد بن العربى المعافرى الأندلسى حول المسألة ولم يقطع ، إذ قال حول آية الربا فى النساء " وقد بين الله تعالى فى هذه الآية أنهم نهوا عن الربا وأكل المال بالباطل فإن كان ذلك خبرا عما نزل على محمد فى القرآن ، وأنهم دخلوا فى الخطاب فيها ونعمت ، وإن كان ذلك خبرا عما أنزل الله عز وجل على موسى عليه السلام فى التوراة وأنهم بدلوا وحرفوا وعصوا وخالفوا فهل يجوز لنا معاملتهم ؟ ... " وموضع الاستشهاد تردده فى كون النهى المشار إليه فى قوله تعالى : " وقد نهوا عنه " هل هو نهى القرآن على اعتبار أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، أم هو نهى التوراة ؟ وبسط القول فى هذه المسائل يخرج بنا عن مرادنا .

٣ ـ المرحلة الثالثة قوله تعالى : "يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون " (١٣٠ : آل عمران) ، وقد وقع حول قوله تعالى " أضعافا مضاعفة " شبه عند قلة من الأقدمين وبعض المحدثين من الباحثين غير الراسخين . [3] ومختار الرأى أن " الأضعاف " ليست قيدا فى التحريم كما ظن بعضهم ، ـ

---

(١) راجع بعض التفصيلات فى بحثنا للماجستير وعنوانه (القرآن الكريم من قضايا الوحى والتنزيل) ومن الأدلة : الحديث الذى أخرجه البخارى جـ ٦ صـ ٤٠ عن ابن عباس والذى أخرجه البيهقى عن عمرو كلاهما يفيد أنها آخر مانزل فى موضوعها وانظر البحث المخطوط صـ ٥٣ .

(٢) انظر كتابه أحكام القرآن جـ ١ صـ ٥١٤ طبعة الحلبى القاهرة .

(٣) كان من هؤلاء المحدثين القاضى الأديب حفنى ناصف ، والزعيم السياسى عبد العزيز جاويش وقد أثير موضوع الربا مرات ومرات ولازال مثارا ، ومثيرا للقول ، ولقد استمعت إلى بعض المسئولين فى بعض البلدان العربية يتخذون من هذا النص متكئا لاستحلال الربا اليسير . ومن العلماء الذين لهم قدم صدق فى نقض أبطولة استحلال يسير الربا الاقتصادى المسلم : الدكتور عيسى عبده ابراهيم والفقيه المعاصر : الشيخ محمد أبو

وتوهموا أن أكل اليسير منه مباح ، وإنما هي وصف للحالة المستبشعة التي كان عليها أكلة الربا ، ومع هذا كله فقد كانت المرحلة الرابعة فصل الخطاب ونهاية المطاف وبلوغ المرام. وما ينبغي التنبه له أن آية آل عمران ختمت النهي عن أكل الربا بالأمر بتقوى الله وجعلت ذلك دليل الفلاح ، ثم أعقبت ذلك بالتحذير من النار ، ثم وصفت النار بأنها قد أعدت للكافرين فبان أن الربا ليس من أخلاق المسلمين ثم أردفت ذلك كله بالأمر بوجوب طاعة الله ورسوله في أكل الحلال والإنتهاء عن السحت والحرام ، وبينت أن ذلك هو سبيل الرحمة الربانية في الدنيا والآخرة .

٤ — ثم كانت المراحلة الرابعة التي يعبر عنها قوله تبارك وتعالى :

" الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون" (٢٧٥ : ٢٧٩ — البقرة) فكانت هذه الآيات آخر ما نزل في شأن الربا ، عرضت لبيان أن أكلته متخبطون في كل أمر وأنهم صرعى الشياطين، وأنهم لا يميزون بين الخبيث والطيب ، ونعتهم في التوبة ورسمت لهم سبيلها ، ووعدتهم إن استمرءوا السحت بالخلود في النار ، وبينت أن الله يمحق الربا أصوله وفروعه ، وقابلته في عفنة ورضاعته بالصدقات في ظهرها وسموها وبينت كراهية الله لكل كفار أثيم ، وفي الصيغة من المبالغة ما ينفر ويحذر ، وانتهت الآيات إلى فصل الخطاب، بأمر المؤمنين بالإدبار عن كل صور الربا ومهاجرتها ، وجعلت ذلك شرطا من شروط الإيمان : " إن كنتم مؤمنين " ، ثم عادت الآيات إلى الوعيد المنزل بحرب من الله ورسوله إن لم ينتهوا عن أكل الربا ، ومن ذا الذي يستطيع أن يتصدى لحرب من الله ، ثم علوت الآيات منهجها التربوي الرائد في تحبيب التوبة إلى القلوب ، ورسمت لهم طريق النصفة في إباحة أصول أموالهم لهم ، وبينت لهم أن شريعة الإسلام قائمة على العدل الظليل، وتخللت الآيات آية تنفي الخوف والحزن في الأولى والآخرة عن المؤمنين الذين قرنوا بين صدق العقيدة وإخلاص الطاعة وسلامة العمل ، وفي الآيات مزيد ومزيد لمن أراد أن يستزيد .

ثانيا - مراحل تحريم الخمر:

١- ومر تحريم الخمر بالمراحل التي مر بها تحريم الربا: مرحلة مكية ، وثلاث مدنيات، فأما المرحلة المكية : فيعبر عنها قول الحق تبارك وتعالى: " ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن لفي ذلك لآية لقوم يعقلون " (٦٧ : النحل) ، فالواو هنا في قوله ز" ورزقا " للمغايرة فاذا كان من هذه الثمرات رزق حسن ، فمنها سكر مسكر ، نفى الله عنه أن يكون رزقا ، وأن يكون حسنا ، فأشعرت الآية بمفهوم المخالفة أن السكر شراب مرذول، وأن واجب الشكر لأنعم الله يقتضيهم أن يطلبوا الرزق الحسن ، وأن يعرضوا عن خبيث المطاعم والمشارب فكانت هذه المرحلة بمثابتها للمرحلة المكية في تحريم الربا إرهاصا بما سيكون من حكم الله بتحريم الخمر.

٢ - المرحلة الثانية ويعبر عنها قول الحق جل ذكره: " يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما .. " (٢١٩ : البقرة) ، هكذا أشارت الآية إلى أضرار الخمر ، وأوزارها وبينت أن إثمها كبير ، وإذا فعلى أولى النهى أن يقارنوا وأن يوازنوا ، وأن أصحاب الفطر السليمة والأحاسيس الرهيفة لمنتهون.

٣ - المرحلة الثالثة ومثلها قول الحق جل ذكره " يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون.. " (٤٣ : النساء) ، مضت مرحلتان من مراحل التربية والتوجيه وترقية الأذواق الإيمانية وتنفيرها من الإثم البين وها هي مرحلة تواجه السكارى بحقيقة صادعة وهي أنهم يدفعون للخمر أثمانا منها العقل ، وهو النعمة الفارقة بين بني آدم وفصائل الحيوان ، ثم تدعو المؤمن إلى الموازنة بين الصلاة وهي - لحظة وصال بين العبد وبين ملك الملوك ورب العالمين - وبين الخمر وهي لحظة مهاجرة للحق وعبادة للإثم وعقر للعقل وذبح للكرامة وإهلاك للمال ... هنا تتطلع أنفس كنفسية الفاروق عمر رضي الله عنه قائلة " اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا " وهنا ينزل الحكم يأخذ بالمجامع ويملك النواصي ويسد منافذ الشيطان ومسارب الهوى وتأتي المرحلة الأخيرة.

٤- المرحلة الرابعة والأخيرة ويعبر عنها قول العلي الأعلى " يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم

عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" (٩٠، ٩١ : المائدة) .

هكذا ناداهم القرآن بنداء الإيمان داعيا لهم إلى الانتهاء عن أربع من الموبقات، واصفا لها بأنها رجس، وأنها من عمل الشيطان، مبينا لهم خطرين اجتماعيين من أخطار الخمر والميسر، وهما: العداوة والبغضاء، وخطرين دينيين وهما: الصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وقد سلك القرآن إلى النهي عن هذه الموبقات أربع طرائق وهي:

١ ـ الطريقة الإعتقادية: حين ناداهم بوصف الإيمان، وحين قرن الخمر والميسر وهما من الرذائل السلوكية والموبقات الإجتماعية، بالأنصاب والأزلام وهما من الموبقات الإعتقادية، وحين جعل ذلك من عمل الشيطان، ثم بين أنه من إرادة الشيطان ومكره، وحين بين أن الإنتهاء عن هذه المنكرات طاعة لله وطاعة لرسوله، وحين حذر من العصيان ووخيم عواقبه الدنيوية والأخروية، وذلك ما تجده في قوله تعالى: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين" (٩٢: المائدة).

٢ ـ الطريقة التربوية النفسية: وتنقسم إلى شعبتين:

أ ـ الشعبة السلبية: وكانت ببيان أن هذه المنهيات رجس، والنفوس الفاضلة تستقذره وتعافه وتأنف منه، ومما يزيد في قبح هذا الرجس[1] أنه من عمل الشيطان.

ب ـ الشعبة الإيجابية: ومثلها قوله تعالى "لعلكم تفلحون" فترك هذه الموبقات فلاح، بكل ما تحتمله كلمة الفلاح من معاني ودلالات.

٣ ـ الطريقة الاجتماعية: حين بين أن للخمر والميسر مضار كثيرة منها العداوة والبغضاء التي تفرق الشمل وتفتت الجمع والتي إن نزلت بساحة قوم ذهب ريحهم وتبدد حولهم وضاع طولهم.

٤ ـ الطريقة التشريعية: وتمثلت في أمر قاطع بالإجتناب "فاجتنبوه" ومن عظيم تشريع القرآن وعجيب أسراره أن هذا الأمر بالإجتناب سبقته علته في قوله "رجس من عمل الشيطان" وتلته غايته في قوله "لعلكم تفلحون" ثم جاءت الآية التالية تسوق مزيدا من علل النهي منتهية إلى قوله تعالى: "فهل أنتم منتهون" ففي السؤال "هل" تحضيض وفي الخطاب "أنتم" إلتفات، وفي الإلتفات تكريم، وفي قوله "منتهون" اشعار بأن الإنتهاء

(١) قال ابن فارس في معجم المقاييس ج ٢ ص ٤٩٠ الرجس: القذر لأنه لطخ وخلط.

سيقع منهم وسيقيمون عليه ثابتين عامدين ، ولو استعمل الفعل المضارع " تنتهون " لأشعر بدلالته على التجدد نوعا من التردد ، لماذا ؟ لأن التجدد فى الائتمار بالأمر ، غير التجدد فى الإنتهاء بالنهى ، فإن تجدد النهى والإنتهاء مشعر بعدم استئصال الداء ، وهذا بعض ما من الله به علينا مستيقنين أن فى ذخائر التشريع وروائع التعبير زيادة لمن أراد أن يستزيد .

النجم الثالث

العلم

بأسباب النزول

العلم
بأسباب النزول

" معرفة سبب المنزول ، سبيل مقوم من سبل الفهم لكتاب الله ، وخاصة فى كثير من آيات الأحكام ، وإن كانت العبرة عند جذاق التفسير بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب " .

سبب النزول وأهميتـــه :

آيات القرآن : منها ما نزل ابتداء ، ومنها ما نزل عقيب حادثة أو سؤال ، وتعرف بالآيـات التي نزلت على سبب ، وقد اتفقت كلمة الدارسين لكتاب الله على أهمية العلم بسبب النزول للآيات التي نزلت فيصلا في مشكلة ، أو إجابات هادئة لأسئلة حيرى ، أو حسما لأمر كثر حوله الجدال ، وتشابهت عبارات العلماء بيانا لهذه الحقيقة :

فأما عبارة الواحدي فكانت[1] وصفه لأسباب النزول بأنها :

" ... أولى ما يجب الوقوف عليها ، وأولى ما تصرف العناية إليها ، لامتناع معرفة تفسـير الآية وقصد سبيلها ، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها ، ولا يحل القول في أسباب نـزول الكتاب ، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب ، وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي المتاجرة في هذا العلم بالنار "

وأما ابن تيمية فجاءنا قولـــه : [2]

" ... معرفة سبب النزول تعين على فهم الآيـة ، فإن العلم بالسبب يورث العلـــم بالمسبب " .

وأما أبو الفتح القشـيري فقد قال : [3]

" بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز ، وهو أمر تحصل للصحابـة بقرائن تحتف بالقضايا " ... ويرد مثل هذا القول مَعْزِيّاً لابن دقيق العيد [4] ، وكان الزركشي[5] صديقا للحقيقة العلمية ، حين خطّأ دعوى الزاعمين بأن سبب النزول " لا طائل تحته ، لجريانه مجرى التاريخ ، ومثل هذا قال السيوطي [6]

ثمرات هذا العلـم : [7]

١) الوقوف على معنى آيـة نازلـة على سبب ولا يتضح هذا المعنى إلا بمعرفة السبب .

٢) معرفة الحكمة الباعثة على تشريع الحكم الذي تضمنته الآية التي تكون بصدد فهمها .

---

(١) انظر كتاب " أسباب النزول " ص٤ طبعة الحلبي لأبي الحسن علي ابن أحمد الواحـدي النيسابوري المتوفى سنة ٤٦٨ هـ .

(٢) انظر رسالته " مقدمة في أصول التفسير " ط : السلفية .

(٣) نقلا عن برهان الزركشي جـ١ ص٢٢ (٤) انظر الإتقان جـ١ ص٢٩

(٥) نفس المرجع والصحيفة .

(٦) انظر الاتقان جـ ١ ص١٠٧ من الطبعة التي حققها الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٧) انظر مدى استفادتنا من برهان الزركشي جـ ١ ص٢٣ ، ٢٤ ومن الإتقان جـ ١ ص١٠٧

٣) تخصيص الحكم إن قام دليل على التخصيص .
٤) دفع توهم الحصر ، حين يكون ظاهر الآية موهما للحصر ، ومعرفة السبب يبين أن الحصر غير مراد ، كخلاف الفقهاء في فهم قوله عز من قائل " قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما .. " ١٤٥ : الأنعام ، وسيأتي بإذن الله تفصيل القول فيها .

بين عموم اللفظ وخصوص السبب :

احتج القائلون بأن العبرة بعموم اللفظ بما يلي :-

الحجة الأولى : هناك آيات نزلت على أسباب خاصة ، واتفق المسلمون منذ نزولها على تعديتها إلى غير أسبابها . فمثلا : الآيات التي نزلت في سورة النور تؤكد براءة أم المؤمنين عائشة مما لاكته ألسنة الإفك حولها هذه الآيات لم تذكر لنا تاريخا يروى ثم يطوى ولا تهدف إلى أن تجعل من الحوادث الفردية قرآنا يتلى فحسب ، وإنما نزلت لنقتبس من هديها ونيرها :

١) في صحة العقيدة : أن إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ، لا يعلم الغيب في شأن من أخص شئونه وأدقها .. إذ لو كان يعلم الغيب في الأرض على الأقل دون السماء ، لسارع إلى تبرئة أحب زوجاته إلى قلبه ، ولما أخذ في هذه المحنة الأليمة يستشير عليا ، رضي الله عنه ، ويسمع لرأي أسامة رضي الله عنه ، ويسأل جارية عائشة رضي الله عنها ، ولما ظل شهرا يصاحب الأمل والألم .

٢) وفي سير الأنبياء : نتعلم من الآيات أن الله قد صان أعراض أنبيائه عن الخنا ، ونحمل ما ورد في قوله تعالى " ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ... " ١٠ : التحريم ، نفهم أن هذه الخيانة كانت بالشرك في الإعتقاد [1] ، وليست بما يلوث الأعراض ، ... وأن الطيبات للطيبين .

٣) وفي تاريخ الدعوة إلى الله : نتعلم منها أن الباطل في صراعه مع الحق ، لا يتورع عن استخدام أقذر الأسلحة ، فلقد نسج المنافقون أكذوبتهم حول عائشة رضي الله عنها ، ولم تكن هي غرضهم ، وإنما كانوا يهدفون إلى المساس بطهارة البيت النبوي ، الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرا ، ويهدفون إلى تنفيس حياة الرسول الخاصة ، بالنيل من أعز ما يعتز به الإنسان وهو عرضه المصون .

٤) وفي الأحكام التشريعية : علمنا من الآيات حد القذف ، ورد شهادة القاذفين ، وأحكام الملاعنة .

---

(١) روى عن ابن عباس رضي الله عنه : " ما بغت امرأة نبي قط " وروى القرطبي جـ١٨ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ اجماع المفسرين على أن خيانتهما كانت في الدين إذ كانتا مشركتين أو منافقتين .

لفتـــة : ومن عجيب الأمر أنك لاتجد فى السورة تنافر بين السياق والسبب .

فالآيـة الأولى : تبين أن الأحكام الواردة فى السورة فريضة أنزلت لتطبق ، وشريعة أنزلت لتتبع .

والآيـة الثانية : بينت عقوبة الزنا ، ونهت عن التهاون فى إقامة الحدود ، وأمـــرت بعلانيـة تنفيذها .

والآيـة الثالثة : تحدثت عن الحكم الأخلاقـى لهذه الجريمة الشنعاء ، وقرنتهـــا بالشرك .

والآيـة الرابعة : ذكرت الجلد عقوبة مادية للقاذفين ، وورد الشهادة عقوبة أدبيـــة ، وجاءت الإشارة إلى العقوبـة الأخرويـة فى قوله سبحانه " وأولئك هم الفاسقون " وبينت الآيـــة نصاب الشهداء الذى به يرفع الحد عن القاذف ، ويقام به عذابا الدنيا على المقذوف .

والآية الخامسة : بينت أن عقاب الآخـرة يرفع بصدق التوبة وعمل الإصلاح ، وأطمعت التائبين فى مغفرة الغفور الرحيم ، وبينت الآيات من السادسة إلى التاسعة أحكام الملاعنة ثم جاءت الآيـة العاشرة حديثا عن فضل الله على المؤمنين ورحمته بهم ، وختمت بالوصف الكريم " وأن الله تواب حكيم " ثم جاءت الآيات بعد ذلك ملأى بالأحكام والعظات والعبر التى تطهر المجتمع الإسلامى من الإفـك والأفاكين ، وتغسل أرضهم من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى المؤمنين .

وننتقل إلى مثال آخر :

الآيـات التى نزلـت فى سورة المجادلة فى خولـة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامـــت سببها خاص وحكمها عام (١)

قال السيوطى (٢) : (ومن الأدلـة على اعتبار عموم اللفظ ، احتجاج الصحابة وغيرهم فـــى وقائع بعموم آيات نزلـت على أسباب خاصـة "

وينقل السيوطى المعنى عن ابن تيميـة حين قال (٣) : " لم يقل أحد إن عمومات الكتـــاب والسنة تختص بشخص معين وإنما غايـة مايقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم مايشبهـــه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ والآيـة التى لها سبب معين إن كان أمرا أو نهيا فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته "

الحجة الثانيـة : (٤)

القول بخصوص السبب يؤدى إلى إنزال العام منزلـة الخاص ، وفى هذا صرف عن أصـــل وضعه وهو العموم بغير دليل صارف أو قرينة مانعة من العموم .

---

(١) انظر فى هذه القصة تفسير ابن كثير جـ٤ ص٣١٨ ط: الحلبى ، وانظر القرطبى جـ١٧ ص٢٦٩ وما بعدها .

(٢) انـــظر الإتقان جـ١ ص١١١ الطبعة : المحققة .

(٣) انظر مقدمة فى أصول التفسير ص١٢ بتصرف يسير ، وانظر الإتقان جـ١ ص١١٢

(٤) انظر إرشاد الفحول للشوكانى ص١١٧ ، والمستصفى فى علم الأصول للغزالى جـ٢ ص٦٠ بشىء من التصرف .

والقول بأن خصوص السبب هو القرينة ، يرد عليه بأن السبب لا يصلح أن يكون مانعا من استعمال العام فى معناه الموضوع له ، ومعناه الموضوع له هو أفراد ذلك العام ، والسبب الخاص واحد من هذه الأفراد .

خلاف فى آية بين عموم اللفظ وخصوص السبب :

أثار الشيخ السيوطى إشكالا حول إنزال قول الله جل ذكره : " وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتذكى " ١٧ ، ١٨ : الليل ، منزلة الخاص وهاك مقالته [1] : " قد علمت مما ذكر أن فرض المسألة فى لفظ له عموم ، أما آية نزلت فى معين ولا عموم للفظها ، فإنها تقصر عليه قطعا ، كقوله تعالى : " وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى " فإنها نزلت فى أبى بكر الصديق بالإجماع ، وقد استدل بها الإمام فخر الدين الرازى مع قوله : " ... إن أكرمكم عند الله أتقاكم ... " ١٣ : الحجرات على أنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووهم من ظن أن الآية عامة فى كل من عمل عمله ، إجراء له على القاعدة ، وهذا غلط ، فإن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم إذ الألف واللام إنما تفيد العموم ، وإذا كانت موصولة أو معرفة فى جمع ، زاد قوم : أو مفرد ، بشرط ألا يكون هناك عهد ، واللام فى " الأتقى " ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل إجماعا ، و" الأتقى " ليس جمعا بل هو مفرد والعهد موجود خصوصا مع ما تفيده صيغة " أفعل " من التمييز وقطع المشاركة ، فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص ، والقصر على من نزلت فيه ، رضى الله عنه "

وهذا الذى قاله السيوطى من قصر الآية على خصوص سببها لم يوافقه عليه أكثر المفسرين :

فابن كثير : وهو المفسر السلفى المتمسك بالآثار يقول [2] : " أى وسيزحزح عن النار التقى النقى الأتقى ثم فسره بقوله " الذى يؤتى ماله يتزكى " أى يصرف ماله فى طاعة ربه ليزكى نفسه ، وماله وما وهبه الله من دين ودنيا وما لأحد عنده من نعمة تجزى) أى ليس بذله ماله فى مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطى فى مقابله ذلك ، وإنما دفعه ذلك " ابتغاء وجه ربه الأعلى " أى طمعا فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى " ولسوف يرضى " أى ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم " .

وأما القرطبى : فقال [3] : " الأتقى " أى المتقى الخائف . قال ابن عباس : هو أبو بكر رضى الله عنه ، يزحزح عن دخول النار . ثم وصف الأتقى فقال : " الذى يؤتى ماله يتزكى " أى يطلب أن يكون عند الله زاكيا ، ولا يطلب بذلك رياء ولا سمعة ، بل يتصدق به مبتغيا به

---

(١) انظر الإتقان جـ١ ص١١٢ ، ١١٣ الطبعة المحققة .
(٢) انظر تفسيره جـ٤ ص٥٢١ ط : الحلبى .
(٣) انظر تفسير القرطبى جـ٢٠ ص٨٨

وجه الله تعالى : وقال بعض أهل المعانى : أراد بقوله " الأتقى " " الأشقى " أى التقى الشقى، كقولة طرفة : تمنى رجال أن أموت وإن أمت ٠٠ فتلك سبيل ليست فيها بأوحد

أى واحد ووحيد ، وتوضع " أفعل " موضع فعيل ، نحو قولهم : الله أكبر بمعنى كبير، " وهو أهون عليه " بمعنى هين " ٠

وأما الزمخشرى : فقال [1] : " الآية واردة فى الموازنة بين حالتى : عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين ، فقيل : " الأشقى " وجعل مختصا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له ، وقيل " الأتقى " وجعل مختصا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل هما أبو جهل أو أمية بن خلف وأبو بكر رضى الله عنه " يتزكى "من الزكاء أى يطلب أن يكون عند الله زاكيا لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة " ٠

وقال المحلى [2] : إلى تفسير الأشقى بالشقى، والأتقى بالتقى، وذكر أنها نزلت فى الصديق رضى الله عنه ٠٠ ثم قال : والآية تشمل من فعل مثل فعله " وانتهج هذا النهج آخرون غير من ذكرنا من المفسرين فاستبان لنا بجلاء أن قول السيوطى بأن " ال " للعهد لا للجنس قول لا بينة له به والأولى أن تحمل (ال) على أنها للجنس لأنها لا تصرف عن الجنس إلى العهد إلا بقرينة دالة أو داعية إلى ذلك ٠

سبب النزول : معاصرة ورواية :

والعلم بسبب النزول ، لا يقوم على إعمال الرأى، وتقليب وجوه الفكر، وإنما يقوم على السماع من المعصوم صلوات الله عليه ، أو أن يحدثنا الصحابى الذى عاصر الحادثة التى من أجلها نزلت الآية أو الآيات ، وقد يكون الصحابى الراوى هو الذى نزلت الآية فى شأن ظهاره ، أو ملاعنته، أو لكونه يورث كلالة ، أو سأل سؤالا نزلت الآية إجابة له ، كالذى سأل عن الأهلة، وجاء الجواب له ولغيره " يسألونك عن الأهلة ٠٠٠٠ " ١٨٩ : البقرة ٠

فهو إذاً علم مشاهدة ، ومعاصرة، وسماع بالنسبة لجيل الصحابة وكما قال السيوطى [3] " والذى يتحرر فى سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه " ٠

هل تتعدد أسباب النزول :

وقد يذكر للآية أسباب متعددة فى كتب التفسير ، والقول المحرر أن لها سببا واحدا ، هو الذى نزلت فيه أو لأجله ، وإنما يجىء التعدد لأن بعض الصحابة أو التابعين عرف من عادتهم أن يقول أحدهم نزلت هذه الآية فى كذا ، يريد أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا الأمر كان سببا فى نزولها ، فهو كما يقول الزركشى [4] من جنس الإستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع " ٠

---

(١) انظر الكشاف جـ٣ ص٣٤٣ ـ ٣٤٤

(٢) انظر تفسير الجلالين للشيخ جلال الدين محمد بن أحمد المحلى، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى ص٥٦١ ط: الشعب ٠

(٣) انظر الاتقان الطبعة المحققة جـ١ ص١١٦ (٤) انظر البرهان ص٣١ ٢ ٣ الطبعة المحققة

نتيجة الخلاف بين القائلين بعموم اللفظ والقائلين بخصوص السبب :

إن الخلاف بين القائلين بعموم اللفظ والقائلين بخصوص السبب خلاف لا ثمرة له ، ذلك أن الفريقين يلتقيان في النهاية عند غاية واحدة ، لأنه خلاف في طريقة الإستدلال ، فالقائلون بعموم اللفظ يرون الآية حكما فيمن أنزلت له ثم يرونها حكما شاملا لكل ما وافق حاله وشابهت هيئته واتفقت علته مع صورة السبب الأولى ، فهم في نظرى أوسع أفقا وأعمق فهما وأبعد نظرا بغايات القرآن .

والفريق الثاني القائل بخصوص السبب لا يمنع ثبوت الحكم لغير من أنزل له أو فيه الحكم ، ولكنهم يرون ثبوت الحكم لغير ما أنزل له ، بدلالة القياس لا بدلالة النص ، ولست بالذى يهون المسألة فيقول إن الخلاف خلاف لفظى ، ولكنه خلاف بين القائلين بأن النص شامل للأزمنة والأمكنة ، مستوعب لكل الأبعاد ، وبين فريق آخر من المتأثرين بالقياس . والتوسع في القول بالقياس كان تأثرا بمنطق وفلسفة وما ماثل من الوافدات على المجتمع الإسلامى .

فإذا كانت الغاية بين الفريقين واحدة فإن المنطلق لم يكن واحدا .

سبب النزول : بين الرواية والاستنباط والهوى :

وليظهر الفرق جليا بين هذه الأمور الثلاثة ، نضرب مثالين شارحين أولهما : قول الحق تبارك وتعالى :

أ) " نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ... " ٢٢٣ : البقرة .

سبب نزول هذه الآية الكريمة هو [1] ما رواه محمد بن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : كانت اليهود تقول للذى يأتى امرأته من دبرها في قبلها : إن الولد يكون أحول ، فنزلت : " نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم "

ب) وروى عن مجاهد أنه سأل ابن عباس عن هذه الآية ... فقال ابن عباس : إن هذا الحى من قريش : كانوا يتزوجون النساء ، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ، فلما قدموا المدينة تزوجوا من نسائها ، فذهبوا ليفعلوا بهن كما كانوا يفعلون بمكة ، فأنكرن ذلك ، وقلن هذا شئ لم نكن نؤتى عليه ، فانتشر الحديث ، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : نساؤكم حرث لكم ... الآية ، فقال : إن شئت مقبلة وإن شئت مدبرة ، وإنما يعنى بذلك موضع الولد للحرث"

(١) انظر البخارى جـ٦ ص٣٦ : ط: التراث بيروت ، ورواه مسلم وأسباب النزول للواحدى ص٤٧ ، وتفسير القرطبى جـ٣ ص١٩١

ج) وعن سعيد بن جبير [١] عن ابن عباس قال : " جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هلكت ، فقال : وما الذى أهلكك قال حولت رحلى الليلة ، قال : فلم يرد عليه شيئا ، فأوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : نساؤكم حرث لكم ... فقال : أقبل وأدبر ، واتق الدبر والحيضة " [٢]

هذه الروايات الثلاث السابقة تدور حول موضوع واحد ، وهو حكم اتيان المرأة مدبرة فى قبلها ، ولكن هل سبب نزولها مقالة اليهود ؟ أو انكار نساء المدينة على أزواجهن من المهاجرين هذا الفعل ؟

والجواب أنه لاتعارض بين الرواية الأولى والثانية ، فعرب المدينة قبل الإسلام — كانوا مخالطين لليهود ، ويرون لهم فضلا عليهم فى العلم ، ويقتدون ببعض فعالهم [٣] وكان اليهود يرون فى إتيان النساء باركات ماذكرنا ، وكذلك كان الأنصار مع نسائهم ، وإنما أصبح السؤال مطروحا بالتزاوج بين المهاجرين ونساء الإنصار ونذكر رواية لابن عباس تفسر الروايتين السابقتين وتجمع بينهما فى يسر يسير ، وقد ذكرها الواحدى فى سبب نزول الآية السابقة فقال :

" نزلت فى المهاجرين لما قدموا المدينة ، ذكروا إتيان النساء فيما بينهم وبين الأنصار واليهود ، من بين أيديهن وخلفهن — إذا كان المأتى واحد فى الفرج — فعابت اليهود ذلك إلا من بين أيديهن خاصة .... " [٤] فالآية الكريمة نزلت ردا على اليهود ، وإجابة للمهاجرين وبيانا للأنصار .

وأما حادثة عمر [٥] رضى الله عنه ، فقد ذكرها للرسول صلى الله عليه وسلم فى الظروف السابقة على نزول الآية ، ثم نزلت الآية بيانا وهداية للجميع ، وحسما لما شجر من أمر النساء ، هذه هى الروايات فى سبب نزول هذه الآية وكلها فى معنى واحد .

<u>وأما الاستنباط فقد يظهر فى الحادثة التالية</u> : ما رواه البخارى [٦] .. عن أيوب عن نافع عن ابن عمر : انه لما انتهى إلى هذه الآية .. [٧] قال : يأتيها فى موضع كذا وكذا ، أو قال يأتيها فى ... [٨] ولم يذكر بعدها شيئا .

---

(١) رواه الحاكم ابو عبد الله فى صحيحه ، وأسباب النزول ص٤٧ .
(٢) انظر أسباب النزول ص٤٧ ، والقرطبى جـ٣ ص٩٢ ، ورواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب ولكن ناسخ القرطبى نقلها حسن صحيح ، وعلق محققه بما ذكرناه أنفا مستدركا على الطبع وانظر كذلك أحكام القرآن لابى بكر بن العربى ق : ١ ص١٧٣
(٣) انظر القرطبى جـ٣ ص٩٢ (٤) انظر أسباب النزول ص٤٨
(٥) أخرج ابن كثير جـ١ ص٤٦٢ رواية عن أبى سعيد الخدرى عن رجل آخر أتى امرأته فى دبرها مشابهة تماما لحادثة عمر فى سبب نزول هذه الآية .
(٦) انظر البخارى جـ٦ ص٣٥ (٧) اختصرنا خشية التكرار
(٨) [illegible]

فهذا الحديث يستدل به من أباح إتيان النساء فى أدبارهن [1] ونحن نذهب إلى ما ذهب إليه السيوطى من أن هذا القول :استنباط [2] وليس سبب نزول ، وبهذا يجلى لنا الفرق بين رواية سبب النزول ، والرأى فى تفسير آية من الآيات .

ومع هذا فنسبة هذا الرأى إلى ابن عمر غير مسلمة ، قال ابن شهاب الزهرى : وَهِلَ العبد ، فيما روى عن ابن عمر فى ذلك [3] . بل ونسبته إلى نافع أيضا تعتورها الشكوك : روى النسائى : عن أبى النضر أنه قال — لنافع مولى ابن عمر — قد أكثر الناس عليك القول أنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى بأن يؤتى النساء فى أدبارهن ، قال نافع : لقد كذبوا على ... " ثم ذكر أن الذى رواه عن ابن عمر هو حديث إباحة إتيان المرأة من دبرها فى قبلها [4]

والذى يمعن النظر فى المسألة وأدلتها ينتهى إلى مثل قول القرطبى [5] : " هذه الأحاديث نص فى إباحة الحال والهيئات كلها ، إذا كان الوطء فى موضع الحرث ... وذكر الحرث يدل على أن الإتيان فى غير المأتى محرم " . وإذا قد انتهينا إلى براءة نافع وابن عمر من إباحة نافع وابن عمر لإتيان النساء فى أدبارهن ، ويرأ بعض المحققين من أتباع مالك إمامهم من أن يكون قال بهذا الرأى ، ومن هؤلاء المحققين ابن العربى والقرطبى .

وإذا كان القرآن وهو أعظم حكم وأصدق دليل قد عبر عن إتيان المرأة بالحرث " نساؤكم حرث لكم " فإن أى عجمى أو أعجمى لا يصل به الوهم ليرى أن الدبر موضع حرث ، وجاء بيان الرسول صلى الله عليه للآية عضدا وظهيرا ، وجاءت أحاديث مختلفة الإسناد [6] فى النهى عن مواقعة المرأة فى دبرها إذا كان هذا كله ، فإن القول بإتيان النساء فى أدبارهن لا يكون رواية ولا رأيا بل يكون من قبيل الظن والهوى .

وننتقل إلى المثال الثانى وهو حول قول الله سبحانه : " قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم " ١٤٥ : الأنعام .

هذه الآية الكريمة لم نقف فيما أمكننا الاطلاع عليه من كتب التفسير وأسباب النزول على رواية مسندة — فى سبب نزولها — إلى أحد من الصحابة والتابعين ، ولكن نسب الزركشى فى

---

(١) أطال ابن كثير القول فى تفسير هذه الآية والروايات حول سبب نزولها انظر تفسيره جـ١ ص٤٦١ وما بعدها وأحكام القرآن لابن العربى جـ١ ص١٣٢ وما بعدها ، والقرطبى جـ٣ ص٩٢ وما بعدها .

(٢) انظر الاتقان جـ١ ص٣٢

(٣) انظر أحكام القرآن لابن العربى ق١ ص١٧٤ وقوله : وَهِلَ : أى وهم ، والعبد : هو نافع مولى ابن عمر رضى الله عنهما .

(٤) لم نذكر النص لتقدم أمثاله ، خيفة التكرار ، وانظر من ذلك القرطبى جـ٣ ص٩٢ ، ٩٣

(٥) فى تفسيره جـ٣ ص٩٣ باختصار .

(٦) هذه الأحاديث خرجها ابن كثير عند تفسيره للآية ، وذكرها يخرج بنا عن موضوع "سبب النزول"

البرهان رواية إلى الشافعي رضي الله قال فيها ما معناه[1] : " إن الكفار لما حرموا ما أحل الله ، وأحلوا ما حرم الله ، وكانوا على المضادة والمحادة ، جاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال : لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحللتموه ، نازلا منزلة من يقول : لا تأكل اليوم حلاوة فتقول لا آكل إلا الحلاوة ، والغرض : المضادة ، لا النفي ولا الإثبات على الحقيقة ، فكأنه قال : لا حرام إلا ما حللتموه من : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، ولم يقصد حل ما وراءه ، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل .

قال إمام الحرمين[2] : " وهذا في غاية الحسن ، ولولا سبق[3] الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية .

وهذا قد يكون من "الشافعي" أجراه مجرى التأويل ، ومن قال بمراعاة اللفظ دون سببه لا يمنع من التأويل " أ هـ وهذا الذي ذكره الإمام الشافعي في سبب النزول ، ليس رواية مسندة أو مرفوعة ، وإنما هو : رأي واستنباط كما فهم أبو المعالي الجويني ، أو " تأويل " كما نصت على ذلك عبارة الزركشي السابقة .

وسبب النزول رواية إن صحت : لا يصح الإعراض عنها ، وإنما تتلقى بالقبول والتسليم ، مع أننا لا نقول بخصوص السبب ولما كان القول في سبب نزولها بالرأي لا بالرواية ، فقد جر ذلك إلى خلاف كثير حول الآية نجده مبسوطا في مطولات التفسير ، وكتب أحكام القرآن " وموسوعات الفقه .

فالشيخ المالكي ابن العربي يقول[4] : " هذه الآية : مدنية ، مكية إلا في قول الأكثر ، نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم نزول عليه قوله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم ... " من ٣ : المائدة ، ولم ينزل بعدها ناسخ فهي محكمة ثم يسرد خلاف العلماء حولها في ثلاثة آراء[5] :

الأول : إنها منسوخة بالسنة ، فقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الأهلية ، وحرم كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير .

---

(١) انظر البرهان جـ١ ص٢٣ ، ٢٤ ط: الحلبي المحققة ، ومؤلفه هو الامام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ولد بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ وتوفي بها سنة ٧٩٤هـ ، اجتمع له في عمره القصير من المؤلفات ما لم يسعف لغيره من العلماء ولم يصح لنا بالمصدر الذي نقل منه عن الامام الشافعي الذي ولد بغزة ١٥٠ هـ وتوفي بالقاهرة ٢٠٤ هـ ولذلك قال " ما معناه " والجدير بالذكر أنه شافعي المذهب .

(٢) أبو المعالي عبد الملك بن أبي عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني " العراقي " من متأخري أصحاب الشافعي ومن الأشاعرة .

(٣) سبق فهم لا سبق زمن .

(٤) انظر أحكام القرآن : ق: ٢ ص٧٥٥

(٥) نفسه ص٧٥٦

الثاني : إنها محكمة لاحرام إلا مافيها ، ومن القائلين به أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

الثالث : إنها محكمة . ويضم إليه ماحرم بالسنة ، ومن القائلين به : الزهرى ، ومالك فى أحد قوليه ... وينتهى ابن العربى إلى رأيه [1] " ... لو ثبت بالسنة محرم غير هذه لما كان ذلك نسخا ، لأن زيادة محرم على المحرمات أو فرض على المفروضات لايكون نسخا بإجماع المسلمين " .

وأنا أذهب إلى ماذهب إليه الإمام ابن العربى المعافرى ، ونرى أن التوسع فى القول بالنسخ مزلقة فى منهج بعض المفسرين ونعود إلى رأى الإمام الشافعى الذى استحسنه أبو المعالى الجوينى ، وارتضاه الزركشى وجعله مثالا لدفع توهم الحصر ، حين يكون ظاهر الآية موهما للحصر ، فيما ذكر من فوائد العلم بأسباب النزول ، نعود لنعلن أننا نسير مع من استحسن هذا القول فى سبب النزول ، وليست هذه التابعة عن تقليد أعمى ، وإنما عن بصر بموضع الآية الكريمة فى سياقها من السورة ، فالآيات السابقة عليها تتحدث عن ماأحله المشركون مما حرم الله ، او ماحرموه مما أحل الله واقرأ مثلا قوله تعالى " وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ... " ١٣٥ : الأنعام " وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم .... إلى قوله تعالى : " ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم مااشتملت عليه أرحام الأنثيين .... " ١٤٤ : الأنعام ، وتأمل صلة الآية موضوع بحثنا : " قل لاأجد فيما أوحى إلى ... " بما قبلها من الإنكار على المشركين فى فرضى الحل والتحريم وذلك فى قوله سبحانه : " أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لايهدى القوم الظالمين " ١٤٤ : الأنعام .

فالسياق والسباق ويؤديان بنا إلى تأييد رأى الشافعى فى سبب النزول . وبهذين المثالين نكون قد جلينا الفروق بين الرواية ، والاستنباط ، والهوى : فى سبب النزول .

دلالة اللفظ مقدمة على دلالة سبب النزول :

دلالة سبب النزول دلالة ظنية ، إذ هى لم ترد بطريق التواتر والقطع ، بل أحيانا تنزل درجة رواية سبب النزول عن رتبة الصحيح والحسن ، ودلالة اللفظ على ماوضع له قد تكون قطعية ، وقد تكون محتملة لأوجه طبقا لقرائن صادقة عن أصل الوضع .

والسؤال الذى نطرحه هنا : ماهو المنهج الذى نقتفيه إذا تعارضت دلالة اللفظ مع دلالة سبب النزول ؟

---

(١) أحكام القرآن ق : ٢ ص ٧٥٦

والمنهج عند المحققين : أنه إذا تعاضدت دلالة اللفظ مع دلالة السياق على معنى ، فإنه يكون قطعيا أو راجحا على أدنى الفروض ، فإذا خالفت هذا القطعى أو الراجح دلالة على سبب النزول مظنون بها ، فإن القطعى مقدم على الظنى ، والراجح سابق للمرجوح ، وإليك المثال ، من تفسير قول الله عز ذكره :

" ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا " ٧٧ ، ٧٨ النساء .

ماذا قال المفسرون حول سبب النزول ؟

ذكر الواحدى رواية [1] عن عكرمة عن ابن عباس : أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه : أتوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقالوا : يا نبى الله كنا فى عز ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، فقال : إنى أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوله الله الى المدينة ، أمره بالقتال ، فكفوا ، فأنزل الله تعالى : ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ..... " هذه الرواية التى ذكرها الواحدى ، ذكرها ابن كثير أيضا فى تفسيره [2] عن ابن أبى حاتم بسنده عن عكرمة ، ورواها أيضا النسائى ، والحاكم وابن مردويه [3] ، ورواها أيضا كثرة من المفسرين مؤيدين أو معارضين من القدامى والمحدثين [4]

وذكر الواحدى [5] عن الكلبى رواية أخرى ، يحسن ذكرها ، وهى : " نزلت هذه الآية فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم : عبد الرحمن بن عوف ، والمقداد ابن الأسود ، وقدامة بن مظعون ، وسعد بن أبى وقاص ، كانوا يلقون من المشركين أذى كثيرا ، ويقولون : يا رسول الله ائذن لنا فى قتال هؤلاء ، فيقول لهم : كفوا أيديكم عنهم ، فإنى لم أومر بقتالهم ، فلما هاجر رسول الله (ص) إلى المدينة ، وأمرهم الله تعالى بقتال المشركين ، كرهه بعضهم ، وشق عليهم ، فأنزل الله تعالى هذه الاية "

---

(١) انظر أسباب النزول ص ١١١

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٩ ط : الفكر .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) انظر ما كتبه الفخر الرازى فى تفسيره جـ ١٠ ص ١٨٤ ، ١٨٥ والسيوطى فى لباب النقول ، وتفسير المنار جـ ٥ ص ٢٦٢

(٥) انظر أسباب النزول ص ١١١ ، ١١٢

فظاهر الرأى من هاتين الروايتين أن الآية نزلت فى نفر من المؤمنين ، وهو أول الآراء التى ذكرها ابن كثير فى تفسير الآية حيث قال[1] " ... وكانوا (يعنى المؤمنين) يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبا لأسباب كثيرة ... ثم لما أمروا بما كانوا يودونه ، جبن بعضهم ، وخافوا من مواجهة الناس خوفا شديدا ، " وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب " أى لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى ، وهذه الآية كقوله تعالى : " ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم " ٢٠ : محمد ، ثم استشهد ابن كثير بسبب النزول سالف الذكر " .

والرأى الثانى : عند ابن كثير[2] هو ما رواه ابن جرير الطبرى[3] فى تفسيره : عن أبى نجيح عن مجاهد أنها نزلت هى وآيات بعدها فى اليهود ، وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال : قوله تعالى : " وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ... " نهى الله تبارك وتعالى : " هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم " (أى صنيع اليهود) .

ويعقب الشيخ رشيد[4] على رواية مجاهد بقوله : " وإذا صح فالمراد به والله أعلم الإعتبار بما جاء فى قوله تعالى " ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين " ٢٤٦ : البقرة .

والرأى الثالث : فى سبب نزول الآية أنها نزلت فى وصف المنافقين ، وهو ما ارتأى الفخر[5] الرازى ترجيحه بعد استعراض الآراء السابقة وذكر الأدلة المرجحة لهذا الرأى ، هى : وما رجحه الفخر رجحه غيره من المفسرين كما سنتبين .

والرأى الرابع : هو ما ذكره الشيخ محمد عبده فيما نقله عنه تلميذه فى المنار إذ قال[6] " إننى أجزم ببطلان هذه الرواية[7] مهما كان سندها[8] ، لأننى أبرئ السابقين الأولين

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص٣٣٩ ط : الفكر .
(٢) انظر ابن كثير جـ٢ ص٣٤٠
(٣) انظر تفسير الطبرى جـ٥ ط : الحلبى
(٤) انظر تفسير المنار جـ٥ ص٢٦٥
(٥) انظر تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٨٥ ... ببعض التصرف .
(٦) انظر تفسير المنار جـ ٥ ص٢٦٣ بتصرف يسير جدا .
(٧) التى ذكرناها سابقا فى سبب النزول .
(٨) هذه العبارة تمثل قاعدة من قواعد الشيخ محمد عبده فى التفسير وهى مما يعاب عليه حين يجعل العقل حكما فى غير مواضع حكومته .

كسعد ، وعبد الرحمن ، ما رموا به ، وهذه الآية متصلة بما قبلها ، فإن الله تعالى أمر بالحذر والإستعداد .... وذكر حال المبطئين بضعف قلوبهم ، وأمرهم بما أمرهم من القتال في سبيله ... ثم ذكر شأنا آخر من شئونهم ، وذلك أن المسلمين كانوا قبل الإسلام في تخاصم وتلاحم .... ولاسيما الأوس والخزرج ، فإن الحروب بينهم لم تنقطع إلا بالإسلام بعد هجرة الرسول (ص) إليهم ، أمرهم الإسلام بتهذيب النفوس بالعبادة والكف عن الإعتداء والقتال إلى أن اشتدت الحاجة إليه ففرضه عليهم ، فكرهه الضعفاء منهم ... وكان عليهم أن يفهموا أن الله لا يحب سفك الدماء ، وأنه ما كتب القتال إلا لضرورة دفع قمع المبطلين المغيرين على الحق وأهله .

والفرق بين صنيع الشيخ محمد عبده ، وبين صنيع الفخر الرازي أن الفخر ذكر احتمال أن تكون في المؤمنين مع تبريرات هذا الرأي ، وذكر احتمال أن تكون في المنافقين واستظهر لهذا الرأي بأدلة ناهضة ، وأما الشيخ عبده فقد اعرض عن الإحتمال الأول ، وقطع بالثاني مستدلاً له .

والرأي الخامس : هو ما انتهجه الشيخ رشيد حين أراد الجمع : بين الروايات المتعارضة في سبب النزول ، وبين سياق الآية ولحاقها ودلالة ألفاظها ، فقال(١) " ... والظاهر أن الآية في جماعة المسلمين ، وفيهم المنافقون والضعفاء ، ولا شك أن الإسلام كلفهم مخالفة عاداتهم في الغزو والقتال لأجل الثأر ... ولا يبعد أن يكون عبد الرحمن بن عوف وبعض السابقين رأوا ترك القتال ذلا وطلبوا الإذن به ، ولا يلزم من ذلك أن يكونوا هم الذين أنكروه بعد ذلك خشية من الناس ، بل ذلك فريق آخر من غير الصادقين ... على أنه لما فرض عليهم القتال لما تقدم ذكره ، من الحكم والأسباب كان كرها لجمهور المسلمين كما سبق بيان ذلك في تفسير قوله تعالى : " كتب عليكم القتال وهو كره لكم .. " ٢١٦ : البقرة ، ولكن أهل العزم واليقين أطاعوا وباعوا أنفسهم لله ، فكان الفرق بين قتالهم في الجاهلية وقتالهم في الإسلام عظيما ، وأما المنافقون ومرضى القلوب ، فكانوا قد أنسوا ، وسكنوا إلى ما جاء به الإسلام من ترك القتال وكف الأيدي فلما فرض القتال ... ظهر عليهم أثر الخوف والخشية من الأعداء حتى رجحوه على الخشية من الله عز وجل " .

محصلة القول : بعد وقوفنا على ما سبق عرضه من الآراء نستطيع الإطمئنان إلى أن سبب النزول مفتاح من مفاتيح فهم الآية ، وأنه ليس مفتاح الوحيد أو المفتاح الوحيد ، وأن دلالة ألفاظ الآية وسياقها تتقدمان عليه إذا اعترضتاه ، فإذا أمكن التوفيق بينهما على النحو الذي انتهجه الشيخ رضا كان ذلك أولى .

ومن خلال الآراء السابقة نعلم أن سبب النزول ظني غالبا ، وأن القائلين بأن الآية في بيان بعض صفات المنافقين لم يعتمدوا في هذا القول على رواية ما ، وإنما اعتمدوا على فحصهم والاستنباط .

---

(١) انظر تفسير المنار جـ ٥ ص ٢٦٤ ببعض التصرف .

ودلالة الألفاظ والسياق تبين أن الآية فى المنافقين ، فأما دلالة الألفاظ فعلى النحو التالى :

١) افتتحت الآية بالتعجيب والحديث عن الغائب " ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم "

٢) لا مانع أن يكون الأمر بكف الأيدى وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة موجها إلى الجماعة الإسلامية ككل ، وفيهم الأخيار الثقات الأثبات السابقون إلى الخيرات ، وفيهم المقتصد ، وفيهم المقصر ، وضعيف الايمان ، وفيهم المنافق الذى يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول حين أشير عليه بقتل عبد الله بن أبى بن سلول " أخشى أن يقول الناس أن محمدا يقتل أصحابه " وبهذا الإعتبار ، قال الله سبحانه : " إذا فريق منهم " فتأمل " فريق " ، " منهم " ولم يقل " إذا هم "

٣) قوله سبحانه وتعالى " يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية " هذه الصفة تتناقض مع الإيمان وإنما هى من صفات المنافقين فلو قال : " يخشون الناس " فقط لجاز ذلك لأن مطلق الخوف ليس منفيا عن المؤمن فقد قال الله سبحانه خطابا لنبيه (ص) (وتخشى الناس) : الأحزاب.

٤) " وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال " هذا القول بعد وصف خشيتهم من الناس يبين أنهم يعترضون على افتراض الله القتال عليهم .

٥) قوله سبحانه : " لولا أخرتنا إلى أجل قريب " أى يريدون تأخير وتأجيل فرض القتال وذلك من صفات المبطئين من المنافقين .

٦) قوله سبحانه " قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى " فيه تعريض أنه من عبيد الدنيا وطلاب المتاع .

٧) قوله سبحانه : " أينما تكونوا يدركم الموت " هذه الحقيقة مستقرة فى نفوس أهل اليقين من المؤمنين ولكن المنافقين منها فى شك .

٨) قوله جل ذكره : " إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا " هذه الآية بيقين هى فى حق المنافقين ولا يمكن البتة أن يكون ما جاء فيها من نسبة السيئة إلى رسول الله صادر عن نفس مؤمنة تعرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم حقه وقد قال ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية : " لما استشهد من المسلمين من استشهد يوم أحد ، قال المنافقون الذين تخلفوا عن الجهاد لو كان أخواننا الذين قتلوا عندنا ، ما ماتوا ولا قتلوا فأنزل الله تعالى هذه الاية " [1] فهذه الدلائل كلها ناطقة على أنها فى صفة المنافقين .

---

(١) انظر " أسباب النزول " للواحدى ص١١٢

فإذا انتقلنا إلى دلالة السياق وجدنا الآية : " ألم ترى إلى الذين قيل لهم " مرتبطة بما قبلها من الآيات التي تحدثت عن المنافقين كقوله تعالى : " وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما " ٧٢، ٧٣ النساء وهى مرتبطة بالآيات اللاحقة لها وهى كلها فى الحديث عن المنافقين إقرأ إن شئت الآيات من ٧٨ إلى ٨٣ من سورة النساء من هذا يتأكد لنا بعد هذه الجولة يتأكد لنا ماقلناه سابقا من أن دلالة الألفاظ والسياق واللحاق مقدمات على دلالة سبب النزول .

هذا بعض القول فى أسباب النزول وبالله التوفيق .....

النجم الرابع

أصحاب رضي الله عنهم

ونهجهم

في التفسير

الأصحاب ونهجهم فى التفسير

" سوء ال يراود : هذا الجيل الذى حصر القرآن وبه آمن "

" كيف تلقاه ووعاه ؟ وكيف نقله لمن خلفه وتلاه ؟ "

" لقد كانت قلوبهم حرز الايمان الحريز ، وكانت عقولهم أوعيه "

" العلم الواعية ، وكما كان هذا الدين فيضا غدقا أحيا "

" قلوبهم من بعد موتها ، كذلك كانت حياتهم عطاء "

" موصولا لدعوة ، وأن عقد التفسير لا ينتظم بغير أن تنتظم "

" هذه الدرة فى سمطه ..."

كان نزول القرآن الكريم ركيزة "تحولات جذرية" في تاريخ البشرية كلهـــا .

وكان أتباع القرآن ، وانتهاج صراطه المستقيم "ميلادا جديدا" للذيـــن آمنوا به ، وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى : "يأيها الذين آمنوا استجيبوا للـــه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .." ٢٤ : الأنفال ، وقوله : "أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها .." ١٢٢ : الأنعام .

ولقد استجاب الرعيل الأول من المؤمنين للقرآن استجابة من وقر في قلبه أن هذا الكتاب هو : ـ

"الحياة" ، و"النور" ، و"الصراط المستقيم" ، و"الإمام" وكـــان الوحي ينزل بآيات القرآن : هداية لهم من حيرة ، واستنقاذا لهم من شقوة ، وفصلا في مشكلة من الأمر اعترضت سبيلهم ، وقضاء فيما شجر بينهم ، وإجابة لسؤال أضناهم أمره وحيرهم الجهل به .

نزلت آيات القرآن في الكافرين ، فأرغمت معاطسهم ، وبددت غرورهـــم ، وفندت استكبارهم ، واختصت بوعيدها المزلزل ، ورهبوتها الذي لا غالب له ، ولا عاصم منه أناسا من المشركين بأعيانهم ، فكان نزولها ختما من الله على قلوبهم ، نالـــوه بمضيهم ، وإذلالا لهم في الحياة الدنيا ، ولعنة عليهم إلى يوم القيامة .

ونزلت آيات القرآن في طوائف المنافقين ، فكتبت على أكابرهم أن يكونـــوا في الأذلين ، وفضحت من خبيئات صدورهم ما ستره النفاق ، وعرّت من دخائـــل نفوسهم وخبيث أحقادهم ، ما واروه بالحجب الصفاق .. وأطلعت المؤمنين مـــن أمرهم على ما لم يكن لهم إلى معرفته من سبيل وكادت أن تسميهم في سورة "براءة" أو "الفاضحة" بأسمائهم كما روي عن ابن عباس .

واستقصاء القول في هذه المسائل ، وبسط تفاصيل هذه الوقائع ، يحتاج إلى بحث محرر قائم بذاته عن أسباب النزول (١) بيد أننا قد سقنا هذه المقدمـــات لنصل منها إلى نتيجة لها مدلولها في الخطورة والدرس وهي : ـ

(١) ومادة هذا البحث من خير مراجعها "كتاب التفسير" من صحيح البخاري ، و"جامع البيان" لإمام المفسرين الطبري ، وتخريج روايات الطبري في تفسير ابن كثير ، و"الدر المنثور في التفسير بالمأثور" ، و"لباب النقول في أسباب النزول" كلاهما للسيوطي ، وأسباب النزول للواحدي .

إن هذا الجيل هو جيل : الأمانة ، والتبليغ ، والطليعة ، والقدوة ...

لقد أدرك مرحلة لم يدركها غيره ، ولن يدركها سواه ، لذلك فقد تفرد بخصائص ليست لغيره .

إنه الجيل الذى عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدرك تنزل الآيات ، واقترنت أحداث الدعوة بحياته اقترانا وثيقا .

فهذا الجيل هو الذى حفظ القرآن ودوّنه ، وهو الذى آمن بالرسالة ووعاها .

وهو الذى اضطلع بمسئولية التبليغ لمن بعده من الأجيال .

هذا الجيل نقل لنا أحكام الإسلام العملية ، وفرائضه التعبدية بأمانة بالغة الدقة ، قال لهم الرسول صلوات الله عليه " صلوا كما رأيتمونى أصلى " فاحتذوا حذوه ، واتبعوا فعله ، ونقلوا لنا عمليا صورة صلاة الرسول ، وصنعة أدائه ، وهم الذين قال لهم الرسول " خذوا عنى مناسككم " (١) فأخذوها وعملوا بها وتناقلوها (٢)

لقد كان هذا الجيل هو " الوريث الرشيد " وبيان هذه الوراثة " أن العلماء هم ورثة الأنبياء " ، وأن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر " (٣)

بل إن هذه الوراثة تضرب جذورها حتى تتصل أسبابها بالخليل ابراهيم عليه السلام ، كما قال رسولنا الأكرم لأصحابه : " كونوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث ابراهيم " (٤)

فكل دعوة للتشكيك فى نقاء هذا الجيل وصفائه ، وإخلاصه وعدالته ، إنما هى دعوة خبيثة منكرة .

---

١) رواه مسلم وابو داود والنسائى عن جابر بن عبدالله ، وانظر كشف الخفا حـ ١ ص ٣٧٩

٢) وكانوا أحرص الناس على الإتباع فى كل صغيرة وكبيرة من أمر الدين ، بل وحذروا أشد التحذير من التغيير والإبتداع كما قال ابن مسعود " اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم عليكم بالأمر العتيق " أو كما قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه " كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاتعبدوها " حـ ٤ ص ٦٢ الألبانى ، ومن هذا الحرص على الإتباع ماورد عن جابر بن عبدالله فى صفة حجة النبى صلى الله عليه وسلم " .. فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم أو يعمل بمثل عمله .. "

٣) رواه أصحاب السنن الأربعة وأحمد وآخرون ، وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما ، وضعفه غيرهم لاضطراب سنده ، لكن له شواهد أخرى .. لذا قال الحافظ (ابن حجر) له طرق يعرف بها أن للحديث أصلا ، وانظر كشف الخفا ومزيل الإلباس حـ ١ ص ٦٤

٤) رواه الترمذى وقال : حديث حسن

واذا كنا نقرر ما سبق عن يقين ، فلسنا نذهب فى الغلو إلى نسبة الصحة لواحد منهم ، أو لهم جميعا ، فذلك تعلق بالأباطيل لا يخدم حقائق الإسلام . ولقد زكى الله هذا الجيل ورضى عنه ، وأثنى عليه ، وجاء هذا الثناء فى غير موضع من كتاب الله كما فى قوله جل جلاله :

" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما " ٢٩ : الفتح

" والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم " ١٠٠ : التوبة

" لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا " ١٨ : الفتح . ومثل ذلك فى كتاب الله كثير .

وعلمنا رسول الله منزلتهم ، وحذرنا من هضيمة أقدارهم فقال (١) : "لا تسبوا أصحابى فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ (٢) مد أحدهم ولا نصيفه "

وقال موصيا باتباع الراشدين من خلفائه :

" .. عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا .. " (٣)

ولقد كانت فضائلهم عليهم الرضوان ، وحياتهم الباذلة ، وسيرهم الطاهرة مضمارا رحبا للتأليف ، استبق فيه قديما وحديثا أعلام العلماء (٤)

ولقد كان حرصهم على التأسى برسول الله صلوات الله عليه ، بالغا

---

١) الحديث أخرجه البخارى حـ٥ ص١٠ ، ومسلم حـ٧ ص١٨٨ ط : صبيح القاهرة وأبو داود بسند صحيح حـ٢ ص٥١٨ ط : الحلبى

٢) المد : مكيال : وهو رطل وثلث عند الحجازيين ، ورطلان عند العراقيين وانظر مختار الصحاح ص٦٣٦

٣) رواه أبو داود عن العرباض بن سارية

٤) ومن أمثلة هذه الكتب " الإصابة فى تمييز الصحابة لأبى الفضل " أحمد بن على بن محمد العسقلانى المعروف بابن حجر العسقلانى المولود فى ٧٧٣ هـ وكان من أهل مصر ، " والإستيعاب فى أسماء الأصحاب " لأبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عمر بن عاصم النمرى القرطبى ولد ٣٦٣ هـ وتوفى بشاطبة فى ٤٦٣ م والطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد كاتب الواقدى طبعت فى ثمانية أجزاء

حد الروعة .. وكان من غاب عنه شيء " يسأل ويتحرى .. وكانوا يترقبون نزول الوحى ترقب الأرض الميتة للغيث ، ولنأخذ فى تفصيل هذه المسائل وتمضيدها بالأمثلة التى تجسدت فى حياتهم على النحو الآتى : —

الإستقصاء العلمى عند الأصحاب :

عن مسروق قال : قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : " والله الذى لاإله غيره ، ماأنزلت سورة من كتاب الله ، إلا وأنا أعلم أين أنزلت ، ولاأنزلت آية من كتاب الله ، إلا وأنا أعلم فيم نزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله ، تبلغه الإبلُ لركبت إليه " (١)

فهذه الرواية صورة جلية واقعية لحرص بعض أصحاب النبى على العلم بآيات الله كلها ، علما لايفادر آية إلا علمها وحفظها ودونها ، وعلم تاريخ نزولها وسبب هذا النزول ، وما شاء الله له من علوم القرآن الذاخرة الوافرة العطاء ..

وتلك خصيصة لم ينفرد بها ابن مسعود وحده ، بل شاركه فيها أبى بن كعب ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، أبو زيد (٢) وهذا يقودنا الى ذكر شيء عن التخصصات العلمية والمواهب النفسية لأصحاب الرسول صلوات الله عليه :

عن أبى سعيد الخدرى قال (٣) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" أرحم أمتى بها : أبوبكر ، وأقواهم فى دين الله : عمر ، وأصدقهم حياء : عثمان ، وأقضاهم : على ، وأفرضهم : زيد ، وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل : أبى بن كعب ، وأعلمهم بالحلال والحرام : معاذ بن جبل ، وأمين هذه الأمة : أبوعبيدة بن الجراح ، وأبو هريرة : وعاء من العلم ، وسلمان بحر من علم لايدرك ، ماأظلت الخضراء ، ولاأقلت الغبراء — أو قال المبطحاء — من ذى لهجة أصدق من أبى ذر "

فهذا الحديث من إمام البشرية الأعظم ، وأستاذ الإنسانية ، يحدثنا فيه حديث عليم بمواهب تلاميذه ، وملكات أتباعه التى أفاءها الله عليهم ، فكل واحد منهم قد مازه الله بالدرجة العليا فى موهبة من المواهب ، وبالحظ الأوفر فى علم من العلوم ، ولايجولن بخاطر قارىء لهذا الحديث أن وصف علم بالقضاء والتفرد فى

---

١) انظر البخارى حـ ٦ ص ٢٣٠ ٢) انظر فى جمع هؤلاء للقرآن ، البخارى حـ ٦ ص ٢٣٠

٣) انظر القرطبى حـ ١ ص ٣٦ ، وفى البرهان للزركشى حـ ١ ص ٨ بعض معالجة لهذا الموضوع

موهبة الفصل بين الخصوم ، يسلب هذه الصفة عن عبقرى ملهم كعمر ، أو أن وصف أبى بن كعب بأنه أتقن الأصحاب لقراءة القرآن ، يخلع هذه الصفة عن أبى بكر الذى كان ترتيله لكتاب الله داعية للقلوب أن تخشع ، وللكافرين أن يهتدوا ... أو يسلب صفة المكوف على الترتيل عن رجل كعثمان استشهد ممانقا للمصحف ... وإنما يفيد الحديث أن الصفة لمن نعته رسول الله صلوات الله عليه بها هى أبرز فيه من غيره ، وهى أكثر فضائله سطوعا .

ولكى نزيد هذه القضية وضوحا نقول : إن حسان بن ثابت شاعر الرسول صلوات الله عليه وقد امتدح الرسولُ شعرَه وشاعريته وأمره بأن ينفح عن دين الله وبَشَّره بتوفيق الله وتأييده ، وفى الصحابة شعراء آخرون ككعب بن مالك .. ولكن من الصحابة من لا يحسن الشعر ، ومع أن حسان شاعر مبدع إلا أنه ليست له فروسية على بن أبى طالب مثلا ..

وخالد بن الوليد ليس شاعرا وليس مفسرا كعبد الله بن عباس وليس راويةً حافظا كأبى هريرة ، وليس قارئا كأُبَىّ بن كعب ولكنه " سيف الله وسيف رسوله " ثم هو حتى يومنا هذا أعظم عبقرية حربية فى التاريخ باعتراف أعداء الإسلام قبل أوليائه .

لقد دعا الرسول صلوات الله عليه لابن عباس بالفقه والتأويل ، ودعا لأبى هريرة بالحفظ ، فما نسى شيئا منذ دعا له ، وقال الرسول لمن سأله دعوة مستجابة كدعوته لأبى هريرة " سبقك بها الغلام الدوسى " .. وكان الرسول يؤثر كل إنسان بدعوة يراه حقيقا بها ، وأهلا لفضل الله عليه فيها . فكان أبو هريرة راوية متفردا بالحفظ ، وقال لمن عاب عليه كثرة التحديث عن رسول الله " لقد شغلهم خفق منالهم بالأسواق أما أنا فلزمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعت مالم يسمعوا وحفظت مالم يحفظوا (١)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه " إن الناس كانوا يقولون : أكثر أبوهريرة وإنى كنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنى حتى لآكل الخمير (٢) ولألبس الحبير (٣) ، ولا يخدُمنى فلان ولا فلانة ، وكنت ألصق بطنى بالحصباء من الجوع ،

١) تستطيع أن تستوفى مزيد علم بأبى هريرة من كتب طبقات الصحابة السابق ذكرها ومن كتاب حديث ككتاب " أبوهريرة راوية الإسلام ، للدكتور محمد حجاج الخطيب .. سلسلة أعلام العرب : دار الثقافة ، القاهرة ، وكتاب " دفاع عن أبى هريرة " وهو سفر جامع للأستاذ عبد المنعم صالح العلى المرسى

٢) الخمير والخميرة مايوضع فى العجين وهى هنا بمعنى الخبز المختمر : أى الذى اختمر عجينه

٣) الحبير : الحبرة كعنبة : برد يمان والجمع حبر كعنب ، والحبير من الثياب الناعم الجيد

وان كنت لأستقرئ الرجل الآية هى معى ، كى ينقلب بى فيطعمنى) (١)

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يتميز بتدوين كل مايسمعه من الرسول فلما قيل له : إنك تكتب عن رسول الله كل ماتسمع وإن رسول الله بشر يتكلم فى الرضا والغضب ذُكر ذلك لرسول الله .. فقال له اكتب عنى " فوالله ماخرج من بين هاتين (مشيرا إلى شفتيه) إلا الحق "

وحفظ بن عمرو رضى الله عنه كان موضع مدحة أبى هريرة الذى شهد له بقوله " ماكان أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحفظ لما يقول منى إلا ماكان من عبد الله بن عمرو ، كان يكتب ولا أكتب " .. والأمثلة على ذلك كثيرة .

تفاوت الأصحاب فى حفظ القرآن فى صدورهم :

كذلك لا نستطيع أن نقول أن أصحاب رسول الله كانوا على درجة سواء فى جمع القرآن فى صدورهم ، وإنما تفاوتوا فى ذلك تبعا لاختلاف قوة الذاكرة ، والسبق إلى الإسلام ، والظروف المواتية للتفرغ للحفظ والتلقى . وقد روى البخارى فى صحيحه (٢) عن قتادة قال : سألت أنس بن مالك : من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أربعة كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبوزيد .

وفى رواية أخرى : مات النبى (ص) ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبوالدرداء ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبوزيد . لكن هذه الرواية الثانية قال عنها الحافظ البيهقى فى كتابه " المدخل " ، الرواية الأولى أصح (٣).

لكن هذه الروايات وإن خرجت فى الصحاح يجب ألا تُفهم على عمومها وإطلاقها لأنها لا تعطينا صورة دقيقة ، ولا إحصاء مستقصيا عن الحفاظ فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد أوسع القاضى الباقلانى (٤) فى كتابه " الإنتصار " القول فى المسألة ، وأقام الأدلة على أن القراء كانوا أضعاف هذا العدد .. وتعرض للأحاديث الواردة

---

١) انظر البخارى حـ ٥ ص ٢٤

٢) انظر البخارى حـ ٦ ص ٢٣٠

٣) نقلا عن البرهان حـ ١ ص ٢٤٦ " فصل : فى بيان من جمع القرآن حفظا من الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم "

٤) هو القاضى ابوبكر محمد بن الطيب الشهير بالباقلانى من أعلام الأشعرية .

مُعَرِّضا باضطرابها .. مع أنه ليس منها ما هو مرفوع إلى المعصوم " ص" وتأولها على فرض صحتها بوجوه من التأويل (١) . وقد نقل السيوطى ثمانية تأويلات للحديث السابق فى روايتيه ، أمسكنا عن ذكرها تجنبا للإطالة ، ولأنها كما قال الحافظ بن حجر (٢) " .. وفى غالب هذه الاحتمالات تكلف " وقد لاحظ ابن حجر أن هؤلاء القراء الأربعة من الخزرج دون الأوس ، وفهم الحصر أنه بالنسبة للخزرج ، فلا ينفى ذلك وجود حفاظ عن غير القبيلتين من المهاجرين . وهذه الرواية الحاصرة للحفظ — على عهد الرسول فى أربعة لم يتعرض لها بالنقد والتأويل الباقلانى وابن حجر فحسب مع إمامتهما فى العلم .. بل سلك هذا المسلك كثيرون من الائمة ، " فالماوردى (٣) " يقول : " وكيف يمكن الإحاطة بأنه لم يكمله سوى أربعة ... وإن لم يكمله سوى أربعة فقد حفظ جميع أجزائه مئون لا يحصون (٤) " وأبوعبيد القاسم بن سلام يذكر عددا كبيرا من قراء الصحابة بأسمائهم فى أول كتابه عن " القراءات" (٥) وصنع ما يقرب من صنيعه الحافظ محمد بن أحمد الذهبى فى كتابه " طبقات القراء " (٦) . والقارئ لما كتبه الزركشى فى البرهان والسيوطى فى الإتقان يرى أنهما يرجحان كثرة قراء الصحابة ، وكما قال السيوطى " وقد استنكر جماعة الائمة الحصر فى الأربعة " (٧)

ورأينا : هو أن الأدلة قاطعة بأن الذين حفظوا القرآن كله على عهد الرسول (ص) هم أكثر بكثير من العدد المذكور ، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إنهم قد بلغوا المئات فى نهاية الفترة المدنية والأدلة على ذلك كثيرة ومنها : —

١) ما أخرجه البخارى (٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه :

" إن رِعْلاً ، وذَكْوان ، وعُصَيَّة ، وبنى لحيان ، استمدوا رسول الله على عدوهم ، فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء فى زمانهم ، وكانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقنت شهرا : يدعو فى الصبح على أحياء من العرب .. "

---

١) هذه النقول بتصرف عن البرهان حـ ١ ص ٢٤٢

٢) نقلا عن الإتقان حـ ١ ص ٧٢ من النوع العشرين " معرفة حفاظه ورواته "

٣) فى البرهان " الماوردى " ونسبها فى الإتقان إلى " المازرى "

٤) ، ٥) ، ٦) انظر البرهان حـ ١ ص ٢٤٢

٧) انظر الإتقان حـ ١ ص ٧٢

٨) البخارى حـ ٥ ص ١٣٤

والذى يستلفت أنظارنا فى هذا الحديث أن راويه هو أنس بن مالك رضى الله عنه وهو نفسه الذى روى حديث جمع القرآن السابق وأنه ذكر فى ذاك الحديث الفائت أن الحفاظ الأربعة كانوا من الأنصار ، وهو يذكر فى هذا الحديث أن هؤلاء الشهداء السبعين كانوا من القراء وكانوا من الأنصار ، وإذاً فإن الحديث السابق لا يفيد حصر القراءة فى أربعة كما يوهم ظاهره ، وأنه قد تطرقت إليه إحتمالات فسقط به الإستدلال .

ومع هذا فلسنا نقتنع أن الرسول صلوات الله عليه اصطفى قراء الصحابة جميعا وأرسل بهم مع هذه القبائل ، بل الذى تسيغه طبيعة الأمور وحكمة الرسول أن هؤلاء المبعوثين كانوا بعض القراء لا غير .

ولعل أنس بن مالك فى حديثه الأول ذكر من الأسماء ما حضره ، أو ما ذكره .. ولعل .. ولعل ..

٢) وقد استشهد فى معركة اليمامة جمع من القراء ناهزوا السبعمئة (١) وكانت فى أول خلافة أبى بكر والعهد بزمن الرسول قريب ، وكانت مصيبة الإسلام فى قرائه مدعاة لأن يقترح عمر على الصديق رضى الله عنهما جمع القرآن ، وهذا الإقتراح فى حد ذاته من عمر شهادة قاطعة بالتعويل على القراء فى حفظ كتاب الله ، وبيان لأن الخطر الذى يتهددهم يجب ألا يصل شرره إلى حفظ القرآن ، ولهذا ارتأى الفاروق بنظرته الواعية ما أشار به على خليفة رسول الله .

٣) لذلك فنحن من شك مريب مما أخرجه ابن أشته فى كتابه " المصاحف " عن محمد بن سيرين من قوله " مات أبوبكر ولم يجمع القرآن ، ومات عمر ولم يجمع القرآن " (٢) .

ونسوق عليها تفنيد الحافظ ابن حجر فى قوله " .. والذى يظهر من كثير من الأحاديث الصحيحة ، أن أبابكر كان من القراء بدليل اتخاذه مسجدا بفناء داره يقرأ فيه ، واستخلاف الرسول له فى مرض وفاته ، وهو القائل يؤمكم أقرؤكم لكتاب الله " .. " (٣)

وكان أبوبكر أول الناس إسلاما ، وأعظم الناس صحبة لرسول الله فى مكة والمدينة ، بل وكان يزور الرسول بكرة وعشيا كما روت ابنته عائشة .. هذا مع حافظة قوية ،

---

١) انظر القرطبى حـ ١ ص ٥٠

٢) نقلا عن الإتقان حـ ١ ص ٧٤ ٢) نفسه ص ٧٢

وبديهة حاضرة ، وحرص على الخير ، وبيع للنفس في سبيل الله ... وكل هذه أسباب قوية للحفظ اجتمعت لأبي بكر ولم تجتمع لغيره .

٤) ومن أصحاب الرسول صلوات الله عليه من جمع القرآن على عهده واتصلت بنا أسانيدهم ، ومنهم كثير جمعوه ولم تتصل بنا أسانيدهم ، ولم يشتهر في القراءة أمرهم ، كمعاذ بن جبل ، وأبي زيد ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وعبد الله بن عمر ، وعقبة بن عامر (١) .

٥) وكان من الصحابة قراء مقرئون علموا اخوانهم وهم أخذوا تطبيقا لأمر الرسول الكريم " بلغوا عني ولو آية " ، فذاك أبي بن كعب الذي أقعده الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة لا تسامى ، يقرأ عليه جمع من خيار أصحاب الرسول منهم أبو هريرة ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن السائب (٢)

٦) على أن من الصحابة رضوان الله عليهم من حفظ بعض القرآن في حياة الرسول وأتم حفظه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وتلك بديهية لاختلاف قدرهم على الحفظ ، ولأن حفظ القرآن يتطلب من الوقت ما يقدر بالسنين مع توفر العزم ، ثم أن مدد صحبتهم قد تباينت تبعا لسبقهم إلى الإسلام أو إسلامهم بآخره ، ويحدثنا أبو بكر الأنباري عن تفاوت حفظ الصحابة للقرآن أثناء حديثه عن دواعي اختيار زيد بن ثابت مع غيره لجمع القرآن فيقول (٣) " ... ولم يكن الإختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن وعبد الله أفضل من زيد ، وأقدم في الإسلام ، وأكثر سوابق ، وأعظم فضائل ، إلا أن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله ، إذ وعاه كله ورسول الله حي ، والذي حفظ منه عبد الله في حياة الرسول هو نيف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقي بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه ... ولا ينبغي أن يظن جاهل أن في هذا طعنا على عبد الله بن مسعود ، لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن ، وليس هو خيرا منهما ولا مساويا لهما في الفضائل والمناقب ... "

إذا علمنا هذا ، علمنا أن الأستاذ أحمد أمين خالفته الدقة حين قال (٤) " ولم يكن شائعا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد ،

---

١ ، ٢) هذه النقول مستقاة بتصرف عن البرهان حـ ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ وقد نقلها الزركشي عن الحافظ الذهبي من كتابه " معرفة القراء " وقد بين محققه أنه هو نفسه " طبقات القراء " وقال " منه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .

٣) نقلا عن القرطبي حـ ١ ص ٥٣ ٤) انظر فجر الاسلام ص ١٩٧ ط : بيروت

إنما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها ، فإذا حذقوا ذلك انتقلوا إلى غيرها ، فكان حفظ القرآن موزعا على الصحابة "

فهذه العبارة لاتمضى على إجمالها الموهم ، إلا بردها إلى ماسبق بسطه وبيناه

وإنما بسطنا قضية تفاوت منازلهم فى حفظ القرآن لنخلص منه إلى قضية هى أوثق رُحْماً بموضوعنا وهى : درجات الصحابة فى فهم القرآن متفاوتة :

وهذا التفاوت مردود إلى عوامل : جبلية تتعلق بتباين القدرات العقلية للبشر ، وأخرى كسبية تتعلق بملازمة الدرس والعكوف على التحصيل أو التقصير فى ذلك وهاك بيان هذه الأسباب : ـ

١) تفاوت الأفهام :

وتفاوت حلوم الناس وفهومهم : طبيعة بشرية شاءتها حكمة العليم الخبير ، وصفوة البشر أيضا ليسوا بمنجاة من هذا التفاوت ، والقرآن حكم فصل فى هذه المسألة ، وقد جاء هذا الفصل الفاصل فى مواضع من سورة منها :

أ) حكم داود وسليمان عليهما السلام فى الحرث .. وقد جاءت فى قول العليم الخبير : " وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما .. " ٧٨ ، ٧٩ : الأنبياء (١)

فالله سبحانه قد امتدح النبيين الكريمين بما أفاء عليهما من الحكم والعلم ، لكنه ماز سليمان بمزيد فضل نطق به قوله جل جلاله : " ففهمناها سليمان .. "

وفى الآيتين دليل على أن المجتهد مأجورٌ إن خالفه الصواب أو خالفه .

ب) بيان نبى الله داود عليه السلام لبنى اسرائيل أن من أسباب اجتباء جالوت ملكا : " .. قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم .. " ٢٤٧ : البقرة

---

١) ذكر المفسرون أن الزرع كان لقوم ، نفشته وعاثت فيه غنم قوم آخرين ليلا ، فاحتكم الخصمان إلى داود عليه السلام فقضى بالغنم لأصحاب الحرث ، وارتأى سليمان عليه السلام ماهو أرفق وذلك : أن تدفع الأغنام لأصحاب الحرث للانتفاع بها ، وأن تسلم الأرض لأصحاب الغنم لإصلاحها والقيام عليها ثم يترادان ...

فكما نجد في الآية السابقة دليلا على أن العلم من أعظم المؤهلات لتولي مهمات الأمور وجسام العظائم ، نجد فيها مستدلا لموضوعنا من أن الله يزيد أناسا في العلم ، وتقعد بالآخرين هممهم وهذا دليل التفاوت .

ج) وقد سأل أبوجحيفة [1] عليا رضوان الله عليهما : هل آثركم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء من الوحي غير كتاب الله ؟

فقال علي : لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ، ما أعلمه ، إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ، وما في هذه الصحيفة ؟ قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر " [2]

فقول علي رضي الله عنه : إلا فهما ... يفيد تفاوت الناس في فهم القرآن ، وأن الله يمتن على بعض عباده بنعمة الفهم ... وتأمل قوله : ... يعطيه الله رجلا ... ولم يقل : أعطانيه تأدبا ... ونجاة من تزكية النفس ....

د) دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس بقوله : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " .

فهذا الدعاء خصيصة لابن عباس ومكرمة له ، ولو كان الصحابة جميعا في مرتبة واحدة من فقه الدين وعلم التأويل ، لما كان لهذا الدعاء من معنى يسوغه ، أو داعية تدعو إليه .

ولقد استجاب الله دعوة نبيه لابن عباس ، فبلغ ابن عباس مرتبة في العلم والتفسير شهد له بهذا خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى سبيل المثال :ـ

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري في باب الجهاد .

(٢) آثركم : ما زكم بقبس من الوحي دون غيركم ، ما أعلمه : أي أن ما يُدعى له لا يعلمه ، وهذا ردٌ على الفئة التي هلكت في حبه رضوان الله عليه ، إلا فهما : فقد كان رضوان الله عليه خير فاهم لكتاب الله ، والعقل : الدية ، وعاقلة الرجل قرابته من قبل أبيه الذين يدفعون له دية من قتله خطأ .

١ـ قال فيه عبد الله بن مسعود رضى الله عنـــه :
" نعم ترجمان القرآن ابن عباس " .
٢ـ وقال على رضوان الله عليه مثنيا على تفسيراتـــه :
" .... كأنما ينظر إلى الغيـــب من ستر رقيـــق " .
٣ـ وأثنى على علمه عبد الله بن عمر رضى الله عنه بقوله :
" ابن عباس أعلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما نزل على محمد " (١)

هـ) قول الرسول صلوات الله وسلامه عليـــه :
" رحم الله امرأً ، سمع مقالتى هذه فوعاها ، ثم بلغها كما سمعها ، فـــرب مبلغ أوعى من سامع " فقوله : " أوعى من سامع " دليل على تفاوت الوعى والفهـــم فهذه الشواهد السابقة أدلة صدق على تفاوت ملكات الفهم ... وإنهـــا قبل هذه الأدلة المسلمة .

٢ـ <u>لا يستـــوون بالعربية علمـــا</u> :

وأعلم أن اللغة العربية بحرٌ ماله من ساحل ، وأن الله سبحانـــه اختارها ـ على علم ـ لغةً لكتابه الكريم لخصائص ما زها بها على غيرها من اللغات ، وأنه سبحانه اختار من العربيـــة ـ مدلولها وصفوتها ـ ألفاظا ، وأودعها معانى الهدايـــة القرآنيـــة .

والعربيـــة وهذا شأنها ما أحاط أحدٌ بكل مفرداتها علما ، لذلك فنحن نرى فى قولة ابن خلدون (٢) : " واعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه ... " نرى فيها ضربا من التجوز ونوعا من التوسع فإذا التفتنا إلى قوله بعدها (٣) : " وكان النبى صلى اللـــه عليه وسلم يبين المجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ ، ويعرفه أصحابه فعرفوه ، وعرفوا سبب نزول الآيـــات ، ومقتضى الحال منها علمنا مراده ... " (٤)

ولكن إذا كان العلم بالعربيـــة ليس الأداة الوحيدة لفهم القرآن ، لأن العربية أداة من أدوات أخرى ، وحتى هذه الأداة لم يكن العرب سواء فى امتلاكها ، بل هـــم

---

(١) انظر ترجمة ابن عباس فى أسد الغابة جـ٦ ص١٩٢ وما بعدها .
(٢) ، (٣) انظر مقدمة ابن خلدون ص٤٢٨ مصورة المثنى ببغداد .
(٤) من الذين ناقشوا رأى ابن خلدون بايجاز الدكتور أحمد أمين فى فجر الإسلام ص١٩٥ ، ١٩٦ ، ط : الكتاب العربى بيروت الشيخ أمين الخولى فى مناهج تجديد ص٢٧٢ ، ٢٧٣ دار المعرفة ـ القاهرة ـ والدكتور محمد الذهبى فى التفسير والمفسرون ص٣٦

كما قال ابن قتيبة [1] : "إن العرب لاتستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضهم يفضل فى ذلك على بعض" .

وكما قال [2] : "إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ، ومذاهبها فى الإيجاز والإختصار ، والإطالة والتوكيد ، والإشارة إلى الشئ ، وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه إلا اللَّقِنُ [3] ، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفى".

ولو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوى فى معرفته العالم والجاهل ، لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وبانت الخواطر " .

ومالنا نذهب فى الإستدلال بقول ابن قتيبة أو غيره من العلماء وهذه الوقائع تشهد بصدق قولنا :

١) سمع علىٌ رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب وفد بنى نهد ، فقال يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم العرب بما لانفهم أكثره " فبيّن له الرسول صلوات الله وسلامه عليه معنى ما قال " [4]

٢) روى سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [5] " لاتزال الأمة على شريعة مالم يظهر فيها ثلاث :
مالم يقبض العلم ، ويكثر فيهم الخبث ، وتظهر فيهم السقارة [6] قالوا وما السقارة يا رسول الله ؟ قال : يشرٌ يكونون فى آخر الزمان تحيتهم بينهم إذا تلاقوا التلاعن " .

٣) أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه فضائل القرآن [7] : لإبراهيم التيمى أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله وفاكهة وأبا فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إن أنا قلت فى كتاب الله مالا أعلم " .

٤) وأخرج أبو عبيد عن أنس بأن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر" وفاكهة وأبا " فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه ، فقال : إن هذا لهو التكلف ياعمر " [8]

---

(١) هذه العبارة ورد معناها فى تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ونصها فى كتاب المسائل والأجوبة له ص٨ نقلا عن ص٢ ٢٧ من "مناهج تجديد " لأمين الخولى فصل التفسير .
(٢) انظر تاويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٨٦ ط: التراث بتحقيق الأستاذ السيد صقر .
(٣) اللَّقِن : السريع الفهم نقلا عن لسان العرب جـ ١٧ ص٢٧٥
(٤) انظر مقدمة صحاح الجوهرى ص١٤ للأستاذ أحمد العطار ط: الكتاب العربى القاهرة .
(٥) نفس المرجع والصفحة .
(٦) السقار : الكافر واللاعن لغير المستحقين أنظر القاموس جـ ٢ ص٥١
(٧) نقلا عن الإتقان للسيوطى جـ٢ ص١١٥ ، وقال ابن كثير فى تفسيره جـ ٤ ص٢١٦ : وهذا الحديث منقطع بين إبراهيم التيمى والصديق رضى الله عنه .
(٨) الإتقان جـ١ ص١١٥

وحديث عمر قد رواه ابن جرير ، وصححه ابن كثير [١] وعقب على دلالته قائلا : "وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله ، وجنسه ، وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية ، يعلم أنه من نبات الأرض لقوله تعالى : " فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا [٢] متاعا لكم ولأنعامكم " ٢٧ ـ ٣٢ : عبس ، أى : عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة " [٣]

وحتى لا يساء فهم هذه الرواية يحسن بنا أن نسرد تعليقا للشيخ محمد عبده يزيد المسألة بيانا .. قال فيه : [٤] " ... إذا سمعت هذه الروايات فلا تظن أن سيدنا عمر ابن الخطاب ينهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ، ولكنه يريد أن يعلمك أن الذى عليك من حيث أنت مؤمن إنما هو فهم جملة المعنى ، فالمطلوب منك فى هذه الآيات هو أن تعلم أن الله يمن عليك بنعم أسداها إليك فى نفسك وتقويم حياتك ، وجعلها متاعا لك ولأنعامك . فإذا جاء فى سردها لفظ لم تفهمه ، لم يكن من جد المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره ... "

٥) وروى أن عمر رضى الله عنه كان على المنبر ، فقرأ قول الله تعالى : " ... أو يأخذهم على تَخَوُّفٍ " ٤٧ : النحل ، ثم قال : أتدرون ما التخوف ؟ فقام إليه رجل من هذيل ، فقال : التخوف فى لغتنا هو التنقص ، قال عمر : فهل تعرف العرب ذلك ، فقال الرجل : نعم قال شاعرنا أبو كبير الهذلى يصف ناقته :

تخوف الرَحْل منها تامكًا قردا ... كما تخوف عودَ النبعة السَّفَنُ

فقال عمر : عليكم بديوانكم . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر العرب ، فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم " [٥]

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٧ ص٢١٧

(٢) قضب الشىء قطعه ، والمصدر قَضْبا ، وسمى الرطب قضبا ، لأنها تقضب مرة بعد أخرى ، والغُلْب : جمع غلباء بوزن حمراء وصف للحديقة ذات الأشجار الكثيفة الغلاظ ، والفاكهة : ما يتفكه به من الثمار ، والأب : ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ، سمى بذلك لأنه يؤب أى يؤم وينتجع .. وقد رجعنا للقاموس وتفسيرى ابن كثير والكشاف والرازى والبيضاوى فى تفسير عبس .

(٣) وانظر كذلك مقدمة تفسير ابن كثير جـ١ ص٥ التجارية .

(٤) انظر تفسير جزء عم يتساءلون ص١٩ ط : الشعب .

(٥) معنى مفردات البيت : تَخَوَّفَ : أى تَنَقَّصَ ، والرحل : رحل ناقته يقال تخوف فلان أخاه حقه ، وتخونه " بالفاء أو بالنون " بمعنى واحد : أى تنقصه ، وقال الليث بن سعد : " على تخوف " على عجل ، وقيل على تقريع بما قدموه من ذنوبهم وهذا منسوب لابن عباس " انظر القرطبى جـ١٠ ص١١٠ ، ١١١ " ، والتامك : السنام العظيم ، والقِرد بكسر الراء : المتراكم بعضه فوق بعض من السمن مأخوذ من قَرَدَ يَقْرُدُ " كضرب يضرب " بمعنى جمع ، وقيل القَرِد كثير القِردان جمع قُرد : وهى دويبة كالقمل ، والمعنى الأول أرجح ، وعليه الجمهرة ، والنبعة : الواحدة من شجر النبع وهو من أشجار الجبال يتخذ منه السهام لصلابته ، والسفَن والمسفن ما ينجر به الخشب .

هذه هي الرواية الواردة عن عمر رضي الله عنه ، والآية تحتمل تفسيرا لهذلي للتخوف بالتنقص ، وتحتمل المعنى الأصلي للتخوف وقد ذكره ابن كثير دون غيره بقوله [1] : " ... أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم فإنه يكون أبلغ وأشد ... " وفصل الخطيب الشربيني حين قال [2] : " في تفسير التخوف قولان :

الأول : تفعل منه الخوف ، يقال : خفت الشيء وتخوفته والمعنى أنه تعالى : لا يأخذهم بالعذاب أولا ، بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعد ، وتلك الإخافة : هو أنه تعالى يهلك قرية فتخاف التي تليها فيأتيها العذاب .... " وأوجزه الشيخ عبد الجليل عيسى [3] فقال : " ... أي مع خوف وهو ظهور الخوف قبل وقوع المخوف منه وهذا أشد إيلاما " .

ونستطيع أن نجمع بين الرأيين بقولنا : إن التنقص هو بعض التخوف الذي يأخذ به الله به المكذبين من نقص في الثمرات ، وجوائح تجتاح بعض الأهل والولدان ، وطمس على الأموال .... وما ماثل ذلك من صور العذاب الأدنى قبل أن يأتيهم العذاب الأكبر ، وفيما ذكره القرآن من سلوك المكذبين ، ومعاملة الله لهم ، ومما يوضح هذه المسألة ،

٦) وعن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت لا أدري ما " فاطر السموات " حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها : أي " ابتدأتها " [4] ولذلك روي عنه أن معنى " فاطر السموات والأرض " أي : بديع السموات والأرض " [5]

٧) وروي أيضا عن ابن عباس قوله : " كل القرآن أعلمه إلا أربعا : غسلين ، وحنانا ، وأواه ، والرميم " [6]

.....

هذه الأدلة السابقة وغيرها — مما لا نطيل بذكره — تفصح بجلاء عن أن الأصحاب رضوان الله عليهم ، وهم عرب خلص أقحاح ، كانوا يجهلون من لغتهم بعض ألفاظها ، ولقد استشهدنا لهذه المسألة برجال من أمثال عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وعروبة لسانهم ، لا يقدح فيها مرتاب ، وذكاء عقولهم لا يتطاول إليه مغمز ، وسعة

(=) والمعنى إجمالا : أن رحل ناقته يتنقص من سنامها المكتنز شحما كما تأخذ حديدة صانع السهام من خشب النبع لصناعة السهم . وانظر كذلك القاموس جـ١ ص٣٢٨ ، ٣٢٩ وتفسير الخطيب الشربيني جـ٢ ص٢٣٣ ، ٢٣٤ والبيضاوي ص٢٦٧

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٤ ص١٩٨ ط: الفكر بيروت .

(٢) انظر تفسير الخطيب الشربيني جـ٢ ص٢٣٣

(٣) هامش المصحف الميسر في تفسير الآية .

(٤) انظر تفسير ابن كثير جـ٥ ص٥٦٧ ط بيروت ، الإتقان جـ١ ص١١٥

(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ٥ ص٥٦٧

(٦) انظر الإتقان جـ١ ص١١٥

علومهم يضرب بها الأمثال ، وإذا كان الإيجاز يغني عن الإسهاب ، فعمر : هو العبقري الذي لا يفري أحد فريه [1] " وابن عباس: " حَبر الأمة " وترجمان القرآن " .

الإختلاف في معرفة المعنى المركب :

وكما يختلفون في الإحاطة بمفردات اللغة ، فإن بعضهم قد يعلم معاني الألفاظ مفردة ولا يعلمها مركبة ، وإليك الأمثلة :

أ) ما روي عن عدي بن حاتم من قوله : لما نزلت هذه الآية : " وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود " . : البقرة

عمدت إلى عقالين : أحدهما أسود والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتي ، قال : فجعلت أنظر إليهما ، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بالذي صنعت ، فقال : " إن وسادك لعريض ، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل "[2] ومعنى إن وسادك لعريض : أي إن كان ليسع الخيطين : الخيط الأبيض والأسود فيقتضي أن يكون بعرض المشرق ... وعلى هذا المعنى تفسر الرواية الأخرى " إنك لعريض القفا " فإذا كان الوساد عريضا كان قفاه كذلك "[3]

فمع وضوح ألفاظ الآية الكريمة ، فإن عدي بن حاتم قد ذهب في فهمهما هذا المذهب الطريف .

ب) ولم يكن عدي في هذا الفهم فريدا وحده ، بل له فيه أنداد ، جاءنا خبرهم في رواية البخاري[4] " ... وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعده من الفجر فعلموا أنما يعني الليل والنهار "

ج) وهذه حادثة الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة [5] ، حين مشى ليلة إلى أمة له فنالها فرأته زوجته فجحدها ، فقالت له إن كنت صادقا فاقرأ القرآن ، فإن الجنب لا يقرأ القرآن ، فقال :

---

(١) اقتباس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكره البخاري .
(٢) الحديث رواه البخاري جـ٦ ص٢١ ورواه مسلم وأحمد .
(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٩١ (٤) انظر البخاري جـ ٢٦ ص٣٢ ط : الشعب
(٥) انظر العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها للحافظ شمس الدين محمد ابن أحمد الذهبي ص٢٥ ، ٢٦ ط : السنة المحمدية سنة ١٣٥٧ هـ ، وقد ذكر الذهبي أن أبا عمر بن عبد البر ذكره في "الإستيعاب" من وجوه صحاح .

شهدت بأن وعد الله حـــق ∴ وأن النار مثوى الكافرينـــا
وأن العرش فوق الماء طـــافٍ ∴ وفوق العرش رب العالمينـــا

فقالت له امرأته : صدق الله ، وكذبت عيني ، وكانت لا تحفظ القرآن .

وهذه الحادثة تدل على ما نقول به من وجود أغمار وأوساط في المسلمين إلى جانب القمم الشواهق من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحادثة زوجة عبد الله بن رواحة — هي حالة فردية ، ولا يخلو مجتمع ما من أنـــاس قُدِرَ عليهم في الفهم .

وتذكرنا الحادثة السابقة بطرفة وقعت من شاعر عربي نقمت منه أنه لا يمتدح جمالها ، ولا يسمع الناس شعره في حسنها ، فقال يداعبها في تخابث :

تمت عبيدة إلا من محاسنهـــا ∴ فالحسن منها بحيث الشمس والقمـــر
قل للذي عابها من عائب حنـــق ∴ رأس الذي قد عبت والحجـــــر

ويدهش أن جهل هذه المرأة ليس دليلا على جهل سواها ولكنه دليل فقط علـــى أن العرب لم يكونوا جميعا قبل الإسلام كشعراء المعلقات منزلة في البيان ، وهكذا يتفاوتون في كل زمان (١)

٠٠ وقد يتأول صحابي آية على غير وجهها :

فهذا قدامة بن مظعون الجمحي رضي الله عنه ، وهو من أهل السابقة ، ومن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه عثمان وعبد الله ، ثم هاجر إلى المدينة ، وشهد بدرا ، والمشاهد كلها ، وأصهر إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو خال عبد الله وحفصة ، وولاه عمر إمارة البحرين ، ثم قدم الجارود — سيد عبد القيس — على عمر ، فقال : إن قدامة شرب فسكـــر ، فقال عمر من يشهد على ما تقول قال الجارود : أبو هريرة يشهد على ما أقول ٠٠ وشهـــد ، فقال عمر : يا قدامة ، إني جالدك ، قال قدامة : والله لو شربت كما تقول ، ما كان لـــك أن تجلدني ، قال عمر : ولم ؟

قال قدامة لأن الله يقول : " ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين " ٩٣ : المائدة .

---

(١) وانظر أيضا ما كتبه العقاد في مقدمة صحاح الجوهري للعطار ص١ ، ٢ وما كتبه العطار كذلـــك .

فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً وأحداً والخندق والمشاهد .

فقال له عمر : أخطأت فى التأويل ياقدامة .

إذا اتقيت الله ، اجتنبت ماحرم الله ، ثم أقبل عمر على الناس ، فقال : ألاتردون عليه ؟

فقال ابن عباس : إن هذه الآيات أنزلن عذراً للماضين ، وحجة على الباقين ، لأن الله يقول : " يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون " ٩٠ :المائدة (١)

قال القرطبى (٢) : " هذه الآية نظير سؤالهم عمن مات إلى القبلة الأولى ، فنزلت " وماكان الله ليضيع إيمانكم ... " ١٤٣ :البقرة . فمن مات وفعل ماأبيح له حتى مات على فعله لم يكن له ولا عليه شئ " .

ويقول ابن كثير (٣) : " لما نزلت آية المائدة ، قال أناس من المتكلفين هى رجس ، وهى فى بطن فلان ، وقد قتل يوم أحد فأنزل الله الآية "

وماذكره ابن كثير فى سبب نزول الآية هو ماذكره البخارى (٤) وغيره (٥)

<u>وقد يختلف الأصحاب فى الفتيا :</u>

للفقهاء خلاف معروف حول أى أنواع النسك أفضل فى الحج : الإفراد أم القران أم التمتع .. وهذا الخلاف لم ينشأ مع نشأة المذاهب الفقهية ... وإنما للمسألة جذور منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم ، يحدثنا عنها عمران بن حصين رضى الله عنه ، قال :(٦)

" أنزلت آية المتعة فى كتاب الله ، ففعلناها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينزل قرآن يحرمه ،ولم ينه عنها حتى مات . قال رجل برأية ما شاء " . فهذه المتعة هى متعة الحج المذكورة فى قوله جل ذكره : " .. فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى " ١٩٦ : البقرة .

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ٦ ص٢٩٧ ـ ٢٩٩ والموافقات جـ٣ ص٢١٠ وأحكام القرآن لأبى بكر بن العربى جـ٢ ص٦٥٢ ـ ٦٥٥ بإيجاز .

(٢) انظر القرطبى جـ٦ ص٢٩٣ ط: دار الكتب .

(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص٦٤١ ط: بيروت .

(٤) انظر صحيح البخارى جـ٦ ص٦٨

(٥) ومع قلة عناية البيضاوى بالرواية ، فقد ذكر سبب النزول لأهميته فى تفسير الآية انظره ص١٣٢

(٦) انظر البخارى حـ٦ ص٣٣ كتاب التفسير ط: الشعب ١٣٧٨ هـ .

وقول عمران بن حصين ولم ينزل قرآن يحرمه : أى يحرم التمتع (١) .

والرجل الذى قال برأيه .. قيل هو عثمان رضى الله عنه . وقيل هو عمر رضى الله عنه وهو القول الأشهر (٢) ، وقد ذكر القرطبى (٣) أن هذا " التمتع هو الذى توعد عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال : " متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة النساء ومتعة الحج .. " .

ومع ذلك فإن الشيعة جعلوا من هذا الحديث مستندا لهم فى القول بصحة زواج المتعة وقال بعضهم ان المقصود بآية المتعة هو قوله تعالى : " فما أستمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة .. " ٢٤ : النساء ، وشغبوا على أهل السنة بوجوده فى مصادرهم مع أنهم لا يعترفون بهذه المصادر .

وقد يختلف أستنباطهم من الآية الواحدة :-

نقد ورد فى التيمم قول الله تبارك وتعالى :

" .. وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا " . ٤٣ : النساء ، وقوله عز من قائل : " .. وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون " ٦ : المائدة .

ثم اختلفت أنظار بعض الصحابة فى استنباط الحكم ، أو فى تعميمه ، وخشى بعضهم أن يتوسع بعض الناس فى هذه الرخصة ، وهذه الخشية نوع من الإحتياط المبرور ولنستمع إلى ما ورد من شتى وجهات النظر حول هذا الموضوع (٤) .

عن شقيق بن سلمة قال كنت عند عبد الله وأبى موسى (٥) ، فقال له أبو موسى : أرأيت يا أبا عبد الرحمن (٦) : إذا أجنب فلم يجد ماء ، كيف يصنع ؟ فقال عبد الله :

---

(١) انظر أيضا اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان للأستاذ : محمد فؤاد عبد الباقى حـ٢ ص ٤٩ باب جواز التمتع ط : الحلبى القاهرة ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م .
(٢) هذا رأى صاحب اللؤلؤ ولعله تابع فيه القسطلانى حـ٣ ص ٢١٤ .
(٣) انظر تفسير القرطبى حـ٢ ص ٣٩٢ وقد بسط القرطبى القول فى المسألة وذكر آراء بعض الصحابة والعلماء فى المسألة . (٤) انظر البخارى حـ١ ص ٩٥ ، ٩٦ ط : الشعب .
(٥) هما عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعرى .
(٦) أبو عبد الرحمن : كنية ابن مسعود .

لا يصلى حتى يجد الماء ، فقال أبو موسى : فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبى صلى الله عليه وسلم : كان يكفيك[1] قال : ألم تر عمر لم يقنع بذلك ، فقال أبو موسى فدعنا من قول عمار . كيف تصنع بهذه الآية ؟ فما درى عبد الله ما يقول ، فقال إنا لو رخصنا لهم فى هذا لأوشك إذا برد على أحدهم الماء أن يدعه ، ويتيمم ، فقلت لشقيق : إنما كره عبد الله لهذا ، فقال : نعم " .

هذه رواية ، وهناك روايات أخرى فى البخارى تدور حول هذا الموضوع .

سؤال الأصحاب بعضهم بعضا حول بعض مبهمات القرآن :

لم يصرح القرآن الكريم باسم الزوجتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء الحديث عنهما فى قول الله تبارك وتعالى : " إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير " ٤ : التحريم .

ولهذا أراد صاحب جليل أن يقف على اليقين فى هذه المسألة كما تبين لنا ذلك الرواية التالية : [2]

" عن ابن عباس : أردت أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمكثت سنة ، فلم أجد له[3] موضعا ، حتى خرجت معه حاجا ، فلما كنا بظهران ذهب عمر لحاجته ، فقال : أدركنى بالوضوء ، فأدركته بالإداوة ، فجعلت أسكب عليه ، ورأيت موضعا ، فقلت : يا أمير المؤمنين : من المرأتان اللتان تظاهرتا ، قال ابن عباس : فما أتممت كلامى ، حتى قال : عائشة وحفصة " .

ويتفاضلون فى التفسير :

عن عبيد بن عمير[4] قال : قال : عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوما لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت : " أيود أحدكم أن تكون له جنة .. "[5] قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر ، وقال : قولوا : نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين ، قال يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك ، قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل . قال عمر : أى عملٍ ؟ قال ابن عباس : لعمل . قال عمر : لرجل غنى يعمل بطاعة الله عز وجل

---

(١) كان يكفيك هكذا وعلمه كيفية التيمم ، لأن عمارا كان قد تمعك فى الصعيد ، كما هو مصرح به فى رواية أخرى بالبخارى جـ١ ص ٩٦ .

(٢) انظر البخارى حـ٦ ص ١٩٧ ط : الشعب .

(٣) أى موضعا مناسبا للسؤال .

(٤) انظر البخارى حـ٦ ص ٣٩ بكتاب التفسير ، ط : الشعب .

(٥) الآية بتمامها هى قوله تعالى : "أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون " ٢٦٦ : البقرة .

لا يصلى حتى يجد الماء ، فقال أبو موسى : فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبى صلى الله عليه وسلم : كان يكفيك(١) قال : ألم تر عمر لم يقنع بذلك ، فقال أبو موسى فدعنا من قول عمار . كيف تصنع بهذه الآية ؟ فما درى عبد الله ما يقول ، فقال إنا لو رخصنا لهم فى هذا لأوشك إذا برد على أحدهم الماء أن يدعه ، ويتيمم ، فقلت لشقيق : إنما كره عبد الله لهذا ، فقال : نعم " .

هذه رواية ، وهناك روايات أخرى فى البخارى تدور حول هذا الموضوع .

سؤال الأصحاب بعضهم بعضا حول بعض مبهمات القرآن :

لم يصرح القرآن الكريم باسم الزوجتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء الحديث عنهما فى قول الله تبارك وتعالى : " إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير " ٤ : التحريم .

ولهذا أراد صاحب جليل أن يقف على اليقين فى هذه المسألة كما تبين لنا ذلك الرواية التالية : (٢)

" عن ابن عباس : أردت أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمكثت سنة ، فلم أجد له(٣) موضعا ، حتى خرجت معه حاجا ، فلما كنا بظهران ذهب عمر لحاجته ، فقال : أدركنى بالوضوء ، فأدركته بالإداوة ، فجعلت أسكب عليه ، ورأيت موضعا ، فقلت : يا أمير المؤمنين : من المرأتان اللتان تظاهرتا ، قال ابن عباس : فما أتممت كلامى ، حتى قال : عائشة وحفصة " .

ويتفاضلون فى التفسير :

عن عبيد بن عمير(٤) قال : قال : عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوما لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت : " أيود أحدكم أن تكون له جنة .. "(٥) قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر ، وقال : قولوا : نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين ، قال يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك ، قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل . قال عمر : أى عملٍ ؟ قال ابن عباس : لعمل . قال عمر : لرجل غنى يعمل بطاعة الله عز وجل

---

(١) كان يكفيك هكذا وعلمه كيفية التيمم ، لأن عمارا كان قد تمعك فى الصعيد ، كما هو مصرح به فى رواية أخرى بالبخارى جـ١ ص ٩٦ .
(٢) انظر البخارى حـ٦ ص ١٩٧ ط : الشعب .
(٣) أى موضعا مناسبا للسؤال .
(٤) انظر البخارى حـ٦ ص ٣٩ بكتاب التفسير ، ط : الشعب .
(٥) الآية بتمامها هى قوله تعالى : " أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون " ٢٦٦ : البقرة .

ثم بعثنى الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصى ، حتى أغرق أعماله " .

فهذا الفهم من عمر رضى الله عنه صادر عن عمق النظرة ، وعن استنباط دقيق ، ووعى بصير ... وتلك مرتبة تفضل الله بها — كرماً — على قلةٍ من الخلق ، وهو سبحانه يؤتى فضله من يشاء "

وكانوا فى العلم أوعية ، وعلى قدر سعتها كان العطاء :

يعطينا الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدة عامة فى تفاوت الناس فى طلب العلم ، والإستعداد لقبول الهدى فيقول :(١)

" إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة طيبة : قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب : أمسكت الماء ، ففع الله بها الناس فشربوا وسقوا ورعوا . وأصاب طائفة منها أخرى : إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ، ولا تنبت كلأً . فذلك مثل : من فقه فى دين الله عز وجل ، ونفعه بما بعثنى الله به فعَلِمَ وعَلَّمَ ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به " .

فهذا الحديث الشريف يحدثنا عن تفاوت الناس فى الإنتفاع بالهداية ، ونفع غيرهم بها ، وكيف انقسموا فى هذا التفاوت إلى طوائف .

ويدهى كذلك أنّ أهل الفضل من الناس متفاوتون فى مراتبهم وعطائهم العلمى .

وهذا عمر رضى الله عنه يقول على الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود : "كنيف مُلِئَ علما آثرت به أهل القادسية " (٢)

ولمسروق رضى الله عنه كلمات واضحات يعبر بها عن تفاوت عطاء علماء الصحابة لتلاميذهم وهذه الكلمات هى :— " جالست أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدتهم كالإخاذ(٣) ،

(١) هذا الحديث أخرجه البخارى فى باب " فضل من عَلِمَ وعَلَّمَ " من رواية يزيد بن أبى بردة عن أبى موسى حـ١ ص ٣٠ ط: الشعب ، وانظر أيضا صحيح مسلم : كتاب الفضائل وباب ما بعث به النبى صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم " .

(٢) انظر الطبقات الكبرى حـ٢ ق ٢ ص ٣٠٥ .

(٣) قال محمد بن أبى بكر الرازى صاحب مختار الصحاح ص٩١ : " التأخاذ : كالتذكار : تفعال من الأخذ ، والإخاذة : بالكسر : هى كالغدير ، والجمع إخاذ : بالكسر أيضا ، وجمع الإخاذ : أُخُذٌ ، مثل كتاب وكُتُبٌ ، وقد يخفف فيقال أُخْذٌ وفى حديث مسروق بن الأجدع : " ما شبهت بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا الإخاذة ، تكفى الإخاذةُ الراكبَ ، وتكفى الإخاذةُ الراكبَيْن ، وتكفى الاخاذة الراكبين ، وتكفى الإخاذة الفئام من الناس" أ هـ والرواية التى ذكرناها فى الطبقات حـ٢ ق٢ ص ١٠٤ .

فالإخاذ : يروى العشرة ، والإخاذ : يروى المئة ، والإخاذ : لو نزل به أهل الأرض جميعا لأصورهم ، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ " هذه شهادة مسروق لعبد الله بن مسعود .

فاسمع إلى شهادة ابن مسعود رضى الله عنه لعمر عليه الرضوان ، قال عبد الله بن مسعود [1] : " لو وضع علم أحياء العرب فى كفة ، وعلم عمر فى كفة ، لرجح بهم علم عمر " .

" إن كنا لنحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم " وقال حذيفة رضى الله عنه : " لكأن علم الناس كان مدسوسا فى جحر مع عمر " .

وعن هارون البربرى عن رجل من أهل المدينة قال [2] : " دفعت إلى عمر بن الخطاب فإذا الفقهاء عنده مثل الصبيان قد استملى عليهم فى فقهه وعلمه " .

وهذه الروايات كما نستدل بها على فضل عمر السابق ، وغزارة علمه ، وعمق فقهه ، نستدل بها كذلك على تفاوت المراتب العلمية للصحابة وهو أمر من الوضوح فى سويدائه .

وهذا هو ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه مع علمه وورعه وفضله وسابقته يعرف للشيخين فضلهما وعلمهما فيقول [3] : "لا يحل لأحد يروى حديثا لم يسمع به فى عهد أبى بكر ولا عهد عمر ، فإنه لم يمنعنى أن أحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أكون أوعى أصحابه عنه ، ألا إنى سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار" [4] .

ونسوق لك رواية عن درجة ابن عباس وتفانيه فى تحصيل العلم :
عن عكرمه [5] عن ابن عباس قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم اليوم كثير ، قال : واعجبا لك يا ابن عباس ! أترى الناس يفتقرون إليك وفى الناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيهم ؟ قال : فتركت ذاك ، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد كاتب الواقدى جـ٢ ق٢ ص ١٠٠ ط: كتاب التحرير ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ ق٢ ص ٩٩ . (٣) نفسه ص ١٠٠ .
(٤) حديث : " من كذب علىّ متعمدا " أخرجه البخارى : كتاب العلم : باب إثم من كذب على النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه مسلم ، وغيرهما .
(٥) انظر الطبقات جـ٢ ق٢ ص ١٢١ .

عن الحديث ، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح على التراب ، فيخرج فيراني فيقول لي : يا ابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلي فآتيك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك ! فأسأله عن الحديث ، فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني فيقول : هذا الفتى كان أعقل مني " وعن عبيد الله بن عتبة[1] قال : كان ابن عباس قد فاق الناس بخصال : بحلم ماسبقه ، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه ، وحلم وسيب[2] ونائل[3] ، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفقه في رأي منه ، ولا أعلم بشعر ولا عربية ، ولا بتفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه ، ولا أعلم بما مضى ولا أثقف رأيا فيما احتيج إليه منه ، ولقد كان يجلس يوما ما يذكر فيه إلا الفقه ، ويوما التأويل ، ويوما المغازي ، ويوما الشعر ، ويوما أيام العرب ، وما رأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له ، وما رأيت سائلا قط سأله إلا وجد عنده علما " .

روايات الصحابة وحملات التشكيك :

برز نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في علم الرواية ، وتناقلت الأمة أقوالهم في علم التفسير كما أسلفنا وعُرفوا برسوخ القدم في فهم كتاب الله ، والوعي بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهؤلاء الأصحاب قَلَّ أن تجدَ واحدا منهم إلا وقد وقعت الرواية عنه بين طرفين متناقضين ، ففريق يتلقى هذه الأقوال بالقبول والتسليم سواء صحَّ رفعُها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يصح ، وسواء صح إسنادها إلى هؤلاء الأصحاب أو لم يصح فهي عنده أقوال لا يصح أن تكون عرضة للجدل ولا ينبغي أن ينظر إليها نظرة فحص أو أن تعرض على مسهار النقد .

وهذا الفريق كاد بعض أفراده أن يكونوا حجابا صفيقا ، يحول بين الناس وبين فهم حقيقة الإسلام ، بما ردده من روايات موضوعة في تفسير آيات الذكر الحكيم ، وبما نشره من أقوال لا تصح إسنادا إلى الرسول ولا إلى أصحابه .

ومع ذلك فإن ضرر هذا الفريق أمكنت الإحاطة به بما قام به الأثبات من المفسرين من تحقيق الروايات ، والجهود التي بلغت حدا لا يُسامى في الدقة والبحث العلمي ، وهي جهود صيارفة الحديث وخبراء الجرح والتعديل .

---

(١) أنظر الطبقات حـ٢ ق٢ ص ١٢٢ .
(٢) السيب العطاء كأنه أجرى للمعطى له أنظر معجم المقاييس حـ٣ ص ١٢٠ .
(٣) النوال والنائل بمعنى واحد وهو العطاء انظر مختار الصحاح ص ٧٠٣ .

نقول : إن هذا الفريق أصبح خطره هينا ، بعد أن قام بعض الغيورين من علماء المسلمين بجهودهم البصيره المبروره - في أعصر مختلفة لتنقية التراث الإسلامي من الشوائب الدخيلة ، والموضوعات المختلقة ولم تعد الروايات الباطله تشكل الخطر الذى كانت تشكله في عصور الجهل والأمية والتى عاشها بعض المسلمين خاصة بعد انهيار الدولة العباسية في المشرق وغروب شمس الدولة الإسلامية في المغرب (الأندلس) .

ولم يبق عاكفا على استغلال هذه الروايات الموضوعة للإساءة إلى الإسلام ، إلا بعض ذوى العصبيات الضالة التى بنت غرسها في عصور الفتن كفرق الشيعة ، ويشاكلهم في اتباع هذا الهوى : المتصوفة وهم بحكمة نشأة فكرتهم قوم مولعون بالأعاجيب والخوارق والشعوذات وتأليه بعض البشر من دون الله .

وموقف هذه الفرق أصبح مفضوحا مكشوفا لا يخفى على المبصرين من علماء المسلمين بل لم يعد يخفى على أواسط المثقفين . بل إن نفرا من " المعصريين " التابعين لهذه الفرق أصبح يمارس دفاعا عنها ، مع تسليمه بقليل أو كثير من أخطائها ، بل إن بعضهم أضحى يبذل جهودا لتقريبها من حقيقة الإسلام .

وننتقل إلى الفريق الثانى : وهو فريق المشككين والمرجفين ، وهؤلاء لم يتركوا واحدا من علماء الصحابة إلا وتناولوه بالتجريح ، ولسنا بصدد عرض أقوالهم المرجفة ، وتفسيرها قولا قولا ، ولكننا نكتفى بالإشارات التى تعين على فهم حقيقة الأمر وهاك الأمثلة :

١) أبو هريرة رضى الله عنه صحابى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحفظ واستجاب الله لدعاء نبيه صلى الله عليه وسلم فلم يسمع أبو هريرة حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ووعاه وكان أبو هريرة من الأعمدة الراسخة والأركان الثابتة لعلم الرواية في الإسلام ومع ذلك فإن أبا هريرة هذا لم يسلم من كيد الكائدين وطعن الطاعنين وتشكيكات المرجفين [1] وقد قيض الله لصفحته من ينفض عنها الغبار ولوجه سيرته من يذب عنه الذباب .

---

(١) من الكتب التى صدرت حديثا تجمع إفك الطاعنين على أبى هريرة : ماكتبه محمود أبو ريه في كتابه (أبو هريرة أول راوية أتهم في الإسلام) وفى كتابه (أضواء على السنة المحمدية) والذى أصدرت دار المعارف طبعته الثانية تحت عنوان (دفاع عن الحديث النبوى) وقد تصدى لتجلية المواقف البارة لأبى هريرة ولبيان صدقه ولتفنيد أكاذيب أبى ريه علماء كثيرون نذكر منهم الأساتذة : عبد الرحمن المعلمى اليمانى في كتابه : [الأنوار الكاشفة " لبيان ما في كتاب " أضواء على السنة " من الزيغ والزلل والتضليل والمجازفة] والدكتور محمد عجاج الخطيب في كتابه (أبو هريرة راوية الإسلام) نشر بسلسلة أعلام العرب بالقاهرة ، وعبد المنعم صالح العزى في كتابه " دفاع عن أبى هريرة) نشرته دار الشروق بالقاهرة وبيروت . ولم يكن أبو رية فيما كتب إلا مرددا لآراء الشيعى الحاقد : عبد الحسين شرف الدين ، وأما عقيدة أبى رية فأنت تعلمها إذا قرأت كتابه " دين الله واحد " الذى ذهب فيه إلى أن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ليس شرطا لدخول الجنة ، وأن الصليبيين والصهاينة رغم تبديلهم وتحريفهم وشركهم وتثليث أولى الفرقتين ، هم جميعا من الفرقة الناجية ، ولم ينشر له كتابه إلا ناشر من غير المسلمين ، فتأمل .

٢٤

٢) وأما السيدة عائشة فموقف الشيعة من رواياتها ليس هو الرفض فقط بل الرد مع الطعن والتجريح بل لقد بلغ الغُلُوُّ بهم أن نفوا عنها أن تكون أما من أمهات المؤمنين[١] .
مع أن الدارس لآراء السيدة عائشة التى ذكرتها لنا بعض كتب التفسير ، يجد نفسه أمام شخصية واسعة العلم ، عميقة الفهم ، بعيدة النظر ، وقد خالفت من الأصحاب فى الرأى من خالفت ، وقد خولفت كذلك[٢] .

٣) ومع أن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشتهر بالرواية ، ولم يدع له رسول الله صلى الله عليه وسلم بما دعا به لولده عبد الله ، إلا أنه أيضا لم يسلم من هذا الطعن بدوافع سياسية قديمة فالأقاويل كثيرة حول تقدم إسلامه أو تأخره مما لا نشتغل به الآن ، ولكننا نشير إلى امتداد رواسب هذه النزعات السياسية الى عصرنا هذا فها هو الدكتور طه حسين فى كتابه (الشيخان) يعرض لحديث استسقاء عمر رضى الله عنه بالعباس وهذا الحديث فى البخارى[٣] أحد الذين أخرجوه إلا أن الدكتور يراه مجرد زعم ويقول معلقا على الحديث ما نصه : " وواضح أن هذا تكلف مصدره التملق لبنى العباس أثناء حكمهم ، الشىء الذى ليس فيه شك هو أن عمر استسقى كما استسقى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن الله أرسل الغيث بعد استسقاء عمر بوقت قصير "[٤] .

والواضح من تعقب " طه حسين " لحديث الإستسقاء أنه يهدف إلى القول : " إن مناقب العباس أو بعضها على الأقل صيغت تملقا للخلفاء العباسيين ، وهو هدف سنعلم حقيقته من الأسطر التاليـة .

٤) وأما عبد الله بن العباس فقد أكثر الناس عليه القول فى تراخيصه ، حتى زعموا أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى طلب إلى مالك بن أنس رحمه الله أن يضع للأمة المسلمة كتابا : تتبعه فى أمور الفقه ، وأن يتجنب فيه تراخيص ابن عباس ، وتشديدات ابن عمر وشواذ ابن مسعود وأمره بأن يقصد أواسط الأمور وما اجتمع عليه الصحابه[٥] رضى الله عنهم أجمعين ، وأكثروا كذلك من الوضع عليه واختلاق

---

(١) أنظر آراء الشيعة فى السيدة عائشة فى كتاب (عائشة والسياسه) للأستاذ سعيد الأفغانى رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة دمشق (كان) ومع أن الكتاب دراسة محايدة إلا أنه عقد فصلا فيه حول موقف الشيعة من السيدة عائشة .
(٢) أنظر كتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابه) للإمام بدر الدين الزركشى وقد نشرته مطبعة الإمام بالقاهرة ونشر بدمشق سنة ١٩٣٩ بتحقيق وتقديم للأستاذ : سعيد الأفغانى ، ونشرته مطبعة الإمام بالقاهرة بغير تحقيق بعد طبعة الأفغانى بعقدين من الزمان .
(٣) انظر صحيح البخارى .
(٤) انظر (الشيخان) ص ١٣٩ الطبعة الرابعة لدار المعارف بالقاهرة .
(٥) ويقال إن هذا المنهج المذكور هو الذى أقام عليه الإمام مالك كتابه الشهير فى الحديث النبوى وهو " الموطأ " فهو كتاب حديث وفقه .

الأقوال ، ونسبتها إليه ، ونسبوا إليه تفسيرا كاملا للقرآن الكريم جمعه مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط وأسماه (تنوير المقياس من تفسير ابن عباس) بل زعم بعضهم قديما وحديثا أنه يحدث بالإسرائيليات[1] ، وقلب بعض الباحثين ظهر المجن لابن عباس حين أراد أن يشكك فى معظم المنسوب إليه بغير ضابط منهجى ، أو حدود موضوعية ، وقد تمثل هذا النهج فيما كتبه الدكتور أحمد أمين فى كتابه " ظهر الإسلام " حيث قال[2] : " وقد لاحظ بعض النقاد أن ابن عباس يروى أحداثا حدثت وهو طفل وأحيانا يروى أحداثا عن عهد لم يكن وُلِدَ فيه بعد ، فقد كان اتصاله بالنبى (ص) وهو دون سن البلوغ ، ومع ذلك عُظِّمَ تعظيما جليلا ، وربما كان من أسباب ذلك وجود الخلفاء العباسيين من ولده وتملق الناس لهم . وكان فى العصور الأولى ، من تثقف ثقافة يهودية واسعة ، تسرب منها الكثير إلى المفسرين ... ورأى الناس فى اليهود علما بمسائل كثيرة تتصل بالقرآن " ... والحق أنه ما كان ينبغى لكاتب فى علم أحمد أمين أن يلقى القول على عواهنه بهذه الصورة ... وهو هنا ليس إلا حاطبا فى حبال المستشرقين ليس غير .

٥) وأما عبد الله بن عمرو بن العاص فهو موسوعة علمية بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معان ، عرف من اللغات غير العربية ، ما قدر الله له أن يعرف ، وتفرد بكتابة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال أبو هريرة " ما كان أحد أوعى لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب " ومع هذا العلم الواسع الغزير الذى حصله عبد الله بن عمرو ، فإنه لم يسلم من أراجيف المشككين حيث زعموا أنه قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب يوم اليرموك — فكان يحدث بما فيهما .

---

(١) من الذين ردوا هذا الزعم حديثا عن الصحابة الأجلاء الشيخ أحمد حسن الباقورى فى تقديمه لبحثين " ذى القرنين " كتبه العالم المسلم الهندى الراحل : أبو الكلام آزاد ونشرته دار الشعب بالقاهرة وجاء فى التقدمة على قلم الشيخ الباقورى هذه العبارة : " أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستعينون بأحبار اليهود على تفصيل مجمل ، أو توضيح مبهم فى القرآن الكريم " وقد بين الشيخ — غفر الله له — ثباته على هذا الرأى فى مقال ثان نشرته جريدة الأخبار القاهرية فى عدد الجمعة الموافق ١٩٧٥/٥/٣٠ وعنوانه : " عند تفسير القرآن الكريم : هل تستعين باليهود " وفى مقال ثالث بعنوان " حول آية من كتاب الله " نشر بمجلة جوهر الإسلام " التونسية " فى إضامة حَوْلَ العددين : السادس والسابع معا من سنة المجلة السابعة الموافقة (١٣٩٥ هـ) وقد رد عليه الكاتب الإسلامى توفيق على وهبه فى مقالين : الأول : بعنوان " الإسلام فى مواجهة التحديات " والثانى وعنوانه : " هل يجوز تفسير القرآن بالتوراة " نشر بنفس العدد آنف الذكر .

(٢) ظهر الإسلام حـ٢ ص ٣٨ ط: الكتاب العربى ببيروت .

وهذه كلها مزاعم ضالة يتوارثها الذين فى قلوبهم مرض ، وقد فندها العلماء وأبطلوها قديما وحديثا فى صحائف ألفت ، وفى كتب أفردت ، وهاك أسطرا منها من هذا الحق الذى يدمغ الباطل .

توقير علماء الأمة لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم : (١)

صحبة الرسول صلوات الله وسلامه ، شرف عظيم ، ومرتبة رفيعة ، ولعظم شأنها ، وما يترتب عليها من مسئولية الأمانة والبلاغ التى نيطت بهذا " الجيل الطليعى " بحث علماء الأمة فيمن هو الصحابى ، وتنوعت نظراتهم على النحو التالى (٢) :

١) كان سعيد بن المسيب التابعى الجليل : لا يعد الصحابى إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنتا أو أكثر وغزا معه .

٢) وقال بعض العلماء : لا يكون صحابيا إلا من تخصص به الرسول صلى الله عليه وسلم ووثق بسريرته ، وتخصص هو بالرسول صلوات الله عليه ولازمه فى السفر والحضر .

٣) وارتأى بعضهم : أن الصحابى هو كل من أدرك الحلم وأسلم ، ورأى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولو رأى النبى ساعة واحدة وذكر أبو الفداء أن أكثر العلماء على هذا الرأى الأخير .(٣)

وإن كنت أرى أن الجدير بالصحبة هو من صاحب ولازم وعاشر ووثق به ... ولذلك تفصيل ليس هذا موضعه .

وقال الحافظ عبد الرحمن أبن أبى حاتم الرازى : (٤)

" فأما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم الذين شهدوا الوحى والتنزيل ، وعرفوا التفسير والتأويل ، وهم الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم .... ونصرته وإقامة دينه ، وإظهار حقه ، فرضيهم له صحابة ، وجعلهم لنا أعلاما وقدوة ، فحفظوا

---

(١) وضعنا هذا الموضوع تاليا لسابقه كرد على أكاذيب المرجفين .

(٢) انظر فى هذه الآراء المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء عماد الدين إسماعيل حـ ١ ص ١٥٤ ط : الحسينية المصرية .

(٣) وذكر أبو الفداء أن عددهم على هذا الرأى أربعة وعشرون ألفا ومائة ألف عند وفاته صلى الله عليه وسلم وأن الذى شهدوا معه حجة الوداع بلغوا أربعين ألفا ، وقسموا مراتب الصحابة إلى ثلاث عشرة مرتبة .

(٤) انظر كتاب الجرح والتعديل ط : حيدر آباد الركن بالهند بتحقيق عبد الرحمن المعلمى اليمانى حـ ٩ ص ٧

عنه ما بلغهم عن الله عز وجل ، وما سن وشرع ، وحكم وقضى وندب وأمر ، ونهى وحظر ، وأدّب ، ووعوه ، فأتقنوه ، ففقهوا فـــي الدين ، وعلموا أمر الله ونهيه ومراده بما نبيـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله ..."

وقال أبو زرعـــة الرازى : (١)

"إذا رأيت الرجل ينقص أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول عندنا حق ، والقرآن حق " ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسـنن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ، ليبطلـوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم (٢) أولى وهم زنادقـة " .

وقال ابن قتيبة (٣) يرد على لمزات النظام المعتزلى لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ... ولو كان ما ذكرهم به حقا ، لا مخرج منه ولا عذر فيه ، ولا تأويل له إلّا ما ذهـب إليه ، لكان حقيقا بترك ذكره ، والإعراض عنه ، إذ كان قليلا يسيرا مغمورا ، فى جنـب محاسنهم ، وكثير مناقبهم ، وصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلهم مهجهـم وأرواحهم فى ذات الله تعالى " .

وقال القاضى عيـاض اليحصبى عن بعض مآثرهم (٤) :

" .. وتبينوا معجزته ، فآمنوا به وازدادوا إيمانا ، ورفضوا الدنيا كلها فى صحبته ، وهجروا الديار والأموال ، وقتلوا الآباء والأبناء فى نصرتـه " .

ونختم هذه الفاصلة من البحث بكلمة للدكتور أحمد أمين لعلها تكون كفارة له عن زلـة سبقت وهى (٥) :

" ... ترى قوما صبغهم الإسلام صبغة جديدة ، حتى انقطعت الصلة بينهـم جاهليين وبينهم مسلمين ، كالذى ترى فى سيرة أبى بكر وعمر وغيرهما ... ورع وزهـد وتواضع ، والتزام شديد بأوامر الدين ، وحياة لا تستطيع أن ترى فيها مأخذا .. حتى كأنهم خلقوا فى الإسلام خلقا جديدا ... إن الإسلام لم يصبغ العرب صبغة واحدة على السـواء ،

---

(١) انظر الكفاية فى علم الرواية لأبى بكر أحمد بن على بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادى ط : حيدر آباد الركن ١٣٥٧ هـ ص ٤٩ .

(٢) أى أن الطاعنين هم المجروحون .

(٣) انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٣ ط : الجيل : لبنان .

(٤) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى لأبى الفضل عياض اليحصبى المتوفى ٥٤١ هـ ص ٣٧٤ ط : التجارية بالقاهـــرة .

(٥) انظر " فجر الإسلام " ص ٨١ ، ٨٢ ط : ١٩٦٩ ، ١٠ م بيروت (الكتاب العربى) .

بل إن خيرَ من تأثر به هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، أما بقية الفتح فكان دينٌ كثيرٍ منهم رقيقا : " لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى " ١٠ : الحديد .

من الأصحاب أساتذة وعمداء مدارس :

والشيء الذى أن استرعى له الأنظار والأذهان : هو أننا شغلنا كثيرا بمناهج المفسرين ، وغاب عن أكثرنا أن نتحدث عن دور " الرواد والكبار " و" المعلمين العظام " لمن اهتدى من المفسرين .

فأنا أدعى مثلا " أن عمر بن الخطاب " رأس مدرسة فى الفقه ، وعنده منهج رائد ورائع فى التفسير ... ولم يلق ما يجب له من الدرس النافع والإقتداء الرشيد .

وابن عباس رضى الله عنه رأس مدرسة ، وتلاميذه أنفسهم أصبحوا أسسا لمدارس من بعده .

وعائشة رضى الله عنها لها نظرات فى الفقه ، واجتهادات فى الرأى ، واستنباطات فى التفسير . ومثل هذا يقال عن :

عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

وعن أُبَىّ بن كعب .

وهذه كلماتٌ ولفتاتٌ يمكن أن تصبح مجلدات .

والأمر كذلك بالنسبة للتابعين ، فمنهج مجاهد بن جبر المكى فى التفسير ، يختلف عن منهج عكرمة مولى بن عباس فى الرواية والتفسير . مع أن الرجلين من تلاميذ ابن عباس .

إن عناية دائبة موصولة ينبغى أن توجه للعصر الذى سمى بعصر ما قبل " التدوين " ... ولهذه الدراسة ثمرات ، وثمرات نافعات مباركات بإذن الله .

السِّفْرُ الثَّانِي

النَّصُّ القُرآنِيُّ

بَيْنَ

أَطْوَارِ التَّأْوِيلِ

وَقَضَايَاهُ

النجم الأول

قضية التأويل

عند

اليهود والنصارى

قضيـــة التأويـــــل
عند أصحاب المـــلل وأهـــل النحـــل

((إلمـامة تاريخيـة))

قضية التأويل من أعمق القضايا ، وأخطرها وأبعدها أثرا فى تاريخ الفكر الإنســانى ، وفى تاريخ الدين كله منذ تدين الإنسان : متبعا لهدى الله ووحيه ، أو محرفا للوحـــى متنكبا عن صراط الواحد الحى القيوم ، أو مخترعا لدين ما أنزل الله به من سلطان ، أو زائغا عن الدين كله ملحدا كافرا بكـل ملة ونحلة ، وهاك بسط القـول :ـ

التأويـــل عنـد اليهـــود

يرد بعض الباحثين نشأة التأويل عنـد اليهود إلى عصر احتكاكهم بغيرهم من البابليين والإغريق ولكننا نرى أن نشأة التأويل عندهم تمتد فى الماضى إلى أبعد من هذا التاريـــخ بكثير ، ذلك أن أصحاب الأهواء يتخذون من التأويل مركبا لتبرير نزغاتهم ، وإذا كان التأويل منه ما هو نظرى ومنه ما هو عملى ، فقد عرفوا النوعين ممارسة وتطبيقا منذ عهد الكليم موســى عليه السلام ، وأنكر عليهم نبيهم ذلك ، وكانت بعض عقوبات الله لهم بسبب ما اقترفـوه مـــن تبديل ، وتحريف ، وتأويل ، ومن الأمثلة على ذلك :ـ

١ ـ قول الله جل ذكره " وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلـوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلمـــوا قولا غير الذين قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقـــون " ٥٨ ، ٥٩ : البقـرة

فهاتان الآيتان تذكران موقفا لبنى اسرائيل يجمعون فيه بين نوعى التأويل النظـــرى والعملى ، فأما النظرى فحين أمروا أن يقولوا حطة لم يقولوها ، وإنما قالوا غيرها فكانوا كما قال القرآن :ـ " فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم .... " وظهـــر تأويلهم العملى حين أمروا أن يدخلوا الباب سجدا فدخلوه على أستاههـــم (١)

٢ ـ وقول الله جل ذكره عنهم : " وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عنـــد الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون " ٨٠ : البقـــرة ،

---

١) انظر تفسير الطبرى جـ ٢ ص ١١٢ ط : المعارف المحققة وكان ابن عباس يتأول سجدا بمعنى ركعا وهو تأويل وجيه مناسب للسياق وقد نسب الطبرى هـــذا التأويل إلى ابن عباس انظر جـ ٢ ص ١٠٤

فهذه الآية تعبر عن تأويلهم المستمد من أوهامهم ، ذلك أنهم زعموا أن الله لن يدخلهم النار الا بعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل ، وهي أربعون يوما تحلة للقسم ، فإن انقضت تلك الأيام انقطع عنهم العذاب (١) ، فهذا يمكن عده من التأويل النظري .

٣ - وأما قول الله جل ذكره : " واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون " ١٦٣ : الأعراف ، فهو يفضح صورة من صور تأويلاتهم العملية ، حين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت ، فاحتالوا لاستحلال ما حرم الله عليهم بضروب الحيل ، ومنها حفر الحفر بجوار البحر ليدخلها السمك فإذا اجتمع فيها جعلوا بينه وبين البحر سدا ليقوموا بجمعه يوم الأحد فكان أمرهم كما قال عنهم الإمام ابن كثير(٢) " هؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام " ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا ما حرم الله بأدنى الحيل " (٣).

٤ - ومن صور تأويلاتهم العملية ما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها ثم أذابوها " ذلك أنهم ظنوا أن احتيالهم على تحريم الشحوم بإذابتها يخرجها من الحرمة إلى الحل .

هذه بعض تأويلات اليهود النظرية والعملية في تاريخهم الأول وهي قليل من كثير ، وظل ذلك ديدنهم حتى اختلطوا بغيرهم من الأمم وأصبح التأويل عندهم قاعدة من قواعد فهمهم لدينهم .

---

١) انظر تفسير الطبري جـ ٢ ص ٢٧٤ ، ص ٢٧٥

٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٧

٣) قال ابن كثير عن إسناد هذا الحديث أنه اسناد جيد انظر تفسيره جـ ٢ ص ٢٥٧

التحريف والتأويل : ـ

هناك علاقة أو علائق بين التحريف والتأويل ، فكما يكون زيغ القلوب باعثا على التحريف ، كذلك يحاول أن يستر هذا الزيغُ نفسه بأستار التأويل . لقد بلغ زيغ اليهود المدى الذى سجله عليهم قول الله عز من قائل : " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون " ٧٩ : البقرة

بل لقد بلغ بهم العناد والتهجم أن أنكروا قضية الوحى كله ، وسجل القرآن الكريم عليهم جريمتهم هذه ، وأقام عليهم الحجة البالغة وهتك أستارهم عن جريمة أخرى هى : كتمان وإخفاء أكثر التوراة وإظهار الأقل منها وفق أهوائهم ، كل ذلك تجده فى قول العزيز الحكيم : " وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تخفونها وتبدون كثيرا وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون " ٩١ : الأنعام

لقد ألف اليهود أسفارا بلغت عدتها تسعة وثلاثين سفرا وسموها بالعهد القديم وزعموا أنها هى التوراة ثم كان لهم إلى جانب ذلك المشناة (١) وكان لهم التلمود (٢) البابلى وهو الذى كتبوه بعد أن دمر بختنصر ملكهم واقتادهم أسرى إلى بابل ، وكذلك ألفوا التلمود الأورشليمى (٣) .

---

١) المشناة كلمة عبرية بمعنى الثانية أو الكتاب الثانى

٢) التلمود كلمة مشتقة من كلمة لامود بمعنى التعليم .

٣) أورشليم هو الإسم العبرى لمدينة القدس وانظر عن التلمود كتاب فتح التلمود بقلم القس اى . بى . براناتيس ترجمه . ى الفاتح سلسلة اليهود والعالم .

التأويل عند فيلون اليهودى ومدرسة الإسكندرية :

تمهيد : عاش فيلون الحبر اليهودى بالإسكندرية وتوفى بها عام أربعين من الميلاد (١) ، ودرس الفلسفة منذ صغره ، وعشق فلسفة أفلاطون بنوع خاص ، وإن كان قد درس غيرها من الفلسفات كفلسفة المشائين والرواقيين ، وقد بذل فيلون جهده كيهودى للتوفيق بين الفلسفة كما درسها ، وبين كتابه المقدس الذى يعتقد بصحته على الصورة التى وصلت إليه (٢) ، فكان موقفه هو (التوفيق بين الايمان والفلسفة الأفلاطونية والتعبير بلغة الفلسفة الأفلاطونية عن الإيمان الدينى) (٣) .

ويقرر فيلون أنه (مع الأفلاطونيين ، عندما يرون أن للعالم نشأة وميلادا وأنه ليس بذاته معرضا للفساد والإنحلال ، ثم يضيف أن هذا كان أيضا رأى موسى النبى . إنه يحس إذن إتفاقا ضمنيا بين الأفلاطونيين ودين التوراة) (٤) .

ويذهب الدكتور بلدى فى كتابه عن " تاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها " إلى استنتاج قيام تقاليد معلومة ومقبولة للتوفيق بين اليهودية والفلسفة فى المجتمع الإسرائيلى السكندرى الذى عاش وتربى فيه فيلون (٥) ، ويزيد الدكتور بلدى رأيه تفصيلا بقوله ((يمكننا إذن أن نخمن على الأقل بصدد أصل الأفلاطونية التى نادى بها فيلون ، ورأى فيها اتفاقا مع معتقدات العهد القديم للكتاب المقدس ، أنها أفلاطونية بعض المترجمين الإثنين والسبعين لكتب العهد القديم ، أوهى بتعبير أدق ، أفلاطونية بعض الأحبار اليهود الذين ألفوا باللغة اليونانية وبمدينة الإسكندرية بعض أسفار العهد القديم وخاصة بعض الأسفار المنسوبة إلى سليمان الحكيم وبوجه أخص سفر " الحكمة " ذاته)) (٦)

ويتخذ الدكتور بلدى من موضوع سفر الحكمة دليلا آخر على تأثير الفلسفة اليونانية فى العقيدة اليهودية فيقول (٧) : ((وتدلنا مطالعة هذا السفر الأخير على احتكاك الوسط اليهودى السكندرى بوسط الثقافة اليونانية ، واطلاع بعض الأفراد على الآثار الفلسفية لتلك الثقافة ، وخاصة على آثار الفلسفتين الأفلاطونية والرواقية ، أظهر استخدام مؤلف كتاب (الحكمة) للغة فلاسفة اليونان فى المسائل المتعلقة بالنفس وخلودها ، وبالعالم وأصله الإلهى ، كما تظهر تأثيره على تلك الفلسفات ، وربما وجب القول أن مطالعة أفلاطون (٨) ، أو

---

١) انظر كتاب " تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها " للدكتور نجيب بلدى المدرس بجامعة الإسكندرية ط : دار المعارف ١٩٦٢ م ص ٨٧

٢) الكتاب المقدس عند اليهود هو مجموعة أسفار بلغت ٣٩ سفرا تسمى بالعهد القديم وهو غير توراة الكليم التى يدعيها اليهود : ٣) انظر ص ٨٨ من مدرسة الإسكندرية

٤) ص ٩٠ مدرسة الإسكندرية : ٥) انظر ص ٩٠ من مدرسة الإسكندرية .

٦) انظر ص ٩٠ من " تاريخ مدرسة الاسكندرية " : ٧) انظر نفسه ص ٩٠ ، ٩١

٨) يقصد الإطلاع على كتب أفلاطون ، وأسلوب الكتاب يحاكى عصره من افتقاد رونق البلاغة ، والتجاوز عن أصالة الحس اللغوى .

الإطلاع على الأقل على آرائه بصدد النفس ، كما كانت مسجلة فى مختارات ومختصرات معاصرة لمؤلف " الحكمة " ، قد أيدت عند هذا المؤلف أمله فى خلود النفس ، إن لم يكن هذا الخلود من معتقدات اليهود القديمة)) أهـ وينسب سفر الحكمة إلى سليمان عليه السلام ، ولهذا يسمى بسفر الأمثال وهو من أسفار العهد القديم ، وفى نسبته إلى " الحكيم " مقال لسنا بصدده الآن

العوامل الحافزة لفيلون على التأويل :

١) العامل البيئى :

نشأ فيلون كما أسلفنا فى الإسكندرية ، (١) ((وكانت الإسكندرية نقطة الإتصال لمختلف حضارات العهد القديم : حضارة مصر ، وحضارة الشرق بعامة ، وحضارة اليونان ، فقد تواعدت هذه الحضارات على اللقاء على ضفاف البحر المتوسط .... وكان المطالعة أذكياء وطموحين ، فحين رأوا عاصمتهم غدت أغنى المدائن فى العالم ، عملوا على أن تكون أيضا اكثرها وأغناها من العلماء والمثقفين))

وكانت فى الإسكندرية جالية يهودية عايشت هذه التيارات الثقافية والفلسفية ، وابتدأت تقارن بين ما لديها من العقائد والقيم التى يحتويها العهد القديم ، وبين الفلسفة الإغريقية التى وصلتها فى الإسكندرية ، وبدأ إعجاب اليهود بهذه الفلسفة ، ثم المزج بينها وبين تعاليم العهد القديم .

٢) العامل الثقافى :

((وكان التأويل الدينى الفلسفى معروفا لدى اليونان ، وقد اصطنعه كل مذهب من المذاهب الفلسفية فيها (٢) ، ولكن الفيثاغوريين منذ أول عهدهم كانوا أول من اصطنع هذه الطريقة وتوسعوا فيها . وهكذا ، كان الأمر — كما يقول الأستاذ " برهييه " :—
((.. سمار التأويل المجازى هذا ، كان معروفا له قدره فى كل مركز فلسفى عالمى ، إلا أن الإسكندرية كانت هى المركز الأهم لهذه الطريقة فى نحو عصر فيلون ، وكانت كتاباته هى المعين الأهم لها (٣))) .

---

١) انظر تاريخ الأدب الإغريقى لـ: كروازيه جـ ٥ ص ١١ بالفرنسيه ونقلنا عن كتاب " بين الدين والفلسفة " للدكتور محمد يوسف موسى ص ١١٢
٢) ، ٣) انظر الآراء الدينية والفلسفية تأليف برهييه صـ ٣٦ ، ٣٧ نقلا عن ص ١١٤ من كتاب " بين الدين والفلسفة "

وكما عرف اليونان التأويل لأساطيرهم المقدسة ، عرف اليهود التأويل كذلك فقد كانوا قبل فيلون يجعلون تفسير التوراة على ضربين أحدهما حرفي والآخر يقوم على المعاني المجازية ، ويختص بالوقوف عليه أهل التأويل، لذلك أقدم فيلون على تأويلاته والبيئة مساعدة ، والظروف مواتية ولأن أمره كما قال عنه القمارتان ((كان فيلون في تأويله لقصة الخلق مطمئنا إلى أن اليهود سبق أن عرفوا لها تأويلا كتأويله ، إذ كانوا لا يرون أخذ قصة بدء الخلق حرفيا (١))) .

٣) عامل طبيعة النص :

كانت نشأة فيلون في الإسكندرية عاملا باعثا له على التأويل ، وكانت ثقافته الإغريقية حافزا رافدا له إلى هذا المتجه على النحو الذي سبق بيانه ، كذلك كانت طبيعة أسفار التوراة من بين هذه العوامل ، ذلك أن هذه الأسفار ملأى بالكثير من التشبيهات المادية والتعبيرات التجسيمية ، وهذا قد باعد بينها وبين تقبل اليونان لها (٢)

صور من تأويلات فيلون :-

وصف فيلون في تاريخ الفكر اليهودي بأنه كان من أكثر علماء اليهود ولعا بالتأويل ، ونزوعا إليه ، ومن أمثلة تأويلاته :-

١ - الله : كان يؤول الذات الإلهية بأنها " شمس الشموس " أي أن الله هو الشمس المعقولة للشمس المحسوسة ، والله مجرد كما هو مثال ، وهنا يبدو تأثر فيلون بنظرية المثل الأفلاطونية .

٢ - والله في تصوره يعمل من خلال وسطاء هم :

الوسيط الأول : الكلمة : والكلمة هي ابن الله وهو نموذج العالم

الوسيط الثاني : الحكمة .

الوسيط الثالث : رجل الله أو آدم الأول

الوسيط الرابع : القوات أو جنود الله وهم الملائكة ، والجن الناريون والجن الهوائيون (٣) .

٣ - وأما الأنبياء : إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام فهم في تأويله :

إبراهيم هو العلم ، وإسحاق هو الطبيعة ، ويعقوب هو الزهد ، فهذه الأسماء الثلاثة هي مصادر معرفتنا بالله (٤) .

---

١) انظر كتاب فيلون تأليف القس : مارتان ص ٣٤

٢) انظر أيضا نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور علي سامي النشار ص ٦٤ ط ٤ الخامسة

٣) ، ٤) انظر في هذه التأويلات نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور علي النشار ج ١ الطبعة السابعة دار المعارف ص ٧٥ .

وأما السيدة سارة عليها السلام فهي تعني الفضيلة .

وعيد الفصح : عند اليهود هو اليوم الخامس عشر من شهر نيسان وهو من أكبر أعيادهم وهو بداية أيام سبعة يحرم عليهم فيها أكل الخمير ((وهو كل ما تخمر من خبز وغيره)) ومع ذلك فقد أول فيلون هذا العيد بأنه عيد تطهير الروح أو أنه عيد خلق العالم ، مع ما بين المناسبتين من اختلاف .

والجنة في تأويله هي ملكوت الروح .

وشجرة الروح هي الخوف من الله ، وشجرة المعرفة هي الحكمة ، وأنهار الجنة الأربعة هي الفضائل الأربعة الأصيلة .

وهابيل عنده هو التقوى الخالصة من الثقافة العقلية .

وقابيل هو الأنانية .

وشيث بن آدم هو الفضيلة ، مزودة بالحكمة ،

ويوسف عليه السلام مثال الرجل السياسي .

قواعد التأويل عند فيلون :-

اعتمد فيلون في تأويلاته على ما سماه بقانون التأويل المجازي ومن قواعد هذا القانون :-

١ - النص أو المعنى الحرفي وهما بمثابة الجسد ، والتأويل أو المعنى الخفي وهو بمثابة الروح .

٢ - كان يرى وجوب مراعاة المعنى الظاهر ، والمعنى الخفي أو التوافق بين الروح والجسد .

وللدكتور محمد يوسف موسى تعقيب على هذا القانون أصاب به الحق ووافق فيه جمهرة الباحثين ونصه هو (٢) :

((على أن فيلون مهما يشدد في عدم إهمال الحرف ، فإن تشبيهه له بالجسم بجانب المعنى الآخر الخفي الذي يشبه الروح ، ويضاف إلى هذا بعض ما سنذكره له قريبا من المثل لتأويله التي تنزل بالمعنى الحرفي إلى العدم أحيانا ، وكذلك ما يضيفه في بعض الحالات من تأويل تعارض تأويل أخرى مأثورة ،

إن كل هذا يجعلنا نرى بحق مع الأستاذ " برهييه " أن عبارة " قوانين التأويل المجازي " التي يكررها فيلون نفسه لا تعني أكثر من مبادئ عامة لا تنال من حرية من يأخذ في التأويل (٣) .

---

١) انظر كذلك مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي حـ ٢ ص ١٢ طبعة : دار العلم للملايين ببيروت عام ١٩٧٣ م وقد نقل الدكتور بعض معلوماته عن التأويل عن دائرة معارف الدين والأخلاق ليهان جيفكن وهو مؤلف يهودي ، ط : نيويورك ١٩٥٥ .

٢) انظر كتاب بين الدين والفلسفة ص ١١٥ ، ١١٦

٣) انظر الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الاسكندري تأليف " برهييه " .

تعصب فيلون للتأويل وتبرير موقفه :-

أصحاب التأويل يزين لهم هواهم الباطل فيرونه حقا وتتسرب الوساوس إلى أنفسهم فيرونها فلسفة ومن الأمثلة على ذلك أن ورد نص في سفر الخروج من التوراة يقول (١) : ((ان ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده له ، لأنه وحده غطاؤه هو ثوبه لجلده فيما إذا ينام . فيكون إذا صرخ إلي إني اسمع لأني رؤوف)) لكن فيلون بحكم عقله المحدود في هذا النص فيكون تعقيبه عليه : ((هل يعنى الله بمثل هذه التفاصيل التافهة ؟ ثم يقول (٢) : ((إن أبطأ الأذهان إدراكا وفهما ليرى أن وراء الحرف معنى آخر يبين بالتأويل الحقيقي المجازي)) وكذلك يعقب فيلون بمثل التعقيب السابق على قصة خلق العالم في ستة أيام فيقول : ((إلى أرى من السذاجة أن نعتقد أن العالم خلق في ستة أيام أو بصفة عامة . فترة من الزمن (٣) ولكن موسى عليه السلام يخاطبنا باللغة التي نفهمها نحن البشر ويصل التعصب للتأويل غايته عند فيلون إذ يقول (٤) : ((هؤلاء الذين لا يريدون قبول طريقة التأويل المجازي ليسوا أغبياء فحسب بل هم أيضا ملحدون))

أقسام التأويل عند فيلون :-

قسم فيلون التأويل إلى ثلاثة أقسام :-

١ - التأويل الحرفي البسيط .

٢ - التأويل الحرفي المغرض .

٣ - التأويل المجازي .

وكان فيلون متعصبا للنوع الثالث ، بينما كان معاديا مناوئا للنوعين الأولين .

ابن ميمون اليهودي وقضية التأويل

في القرن الثاني عشر الميلادي ظهر حبر يهودي يقال له " ابن ميمون " وكان معنيا بقضية التأويل ، شغوفا بها ، وألف فيها كتابا كبيرا أسماه دلالة الحائرين ، وكان يرى كغيره من دعاة التأويل أن للدين ظاهرا وباطنا ، وكان يعيب أخذ النصوص على ظواهرها ((لأن الكثير منها من المجاز ولكن الجاهل والناقص يأخذها بمعناها الحرفي دون أن يرى فيها معاني خفية (٥))) .

---

١) انظر سفر الخروج وهو السفر الثاني من الأسفار الخمسة التي تنسب إلى الكليم عليه السلام الإصحاح الثاني والعشرين الفقرتين ٢٦ ، ٢٧

٢) انظر كتاب فيلون للقس : مارتان ص ٢٩ ، ٣٠

٣) نفس المرجع ص ٣٢ ، ٣٣

٤) انظر الأفكار الدينية والفلسفية عند فيلون ص ٤١ . ٥) انظر دلالة الحائرين حـ١ ص ١٠

قواعد التأويل عند ابن ميمون (١) :-

١ - أن يكون في الظاهر ما يدل المستنبطَ والمتأمِلَ على المعنى الخفي .
٢ - أن يكون المعنى الخفي أليق من المعنى الظاهري .
٣ - إذا كان ظاهر النص يدل على التجسيم ، أو مشابهة صفات الله لصفات المخلوقين وجب تأويله وأن يعرف العامة والخاصة بهذا التأويل .
٤ - يجب الأخذ بالتأويل إذا قام الدليل العقلي على أن المعنى الظاهري غير صحيح أو غير مراد .
٥ - ألا يهدم التأويل أساسا من أسس الشريعة .
٦ - أن يكون التأويل لأهله والقادرين على فهمه ، وحسب استعداد المتلقي له .

التأويل ومذهب القَبَلَة : (٢)

ظهر عند اليهود في تفسير كتابهم المقدس: مذهب عرف بمذهب القبلة ، وهو يقوم على قاعدة مفترضة وهي : أن لكل كلمة ولكل حرف في الكتاب معنى خفيا ، فهي شبيهة بفكرة " الظاهر والباطن " وقد نشأ هذا المذهب في القرن السابع من الميلاد ، واستمر حتى القرن الثامن عشر ، ويرى هذا المذهب إلى إدخال أفكار مستحدثة ، وروح جديدة في اليهودية ويعتقد أنصاره أن لاسماء الله قوة خفية ، ويتبعون طريقة عددية في التفسير والتأويل ، وقد استمد الميرزا حسين على واضع النحلة البهائية بعض أفكاره من هذا المذهب (٣)

معارضو التأويل :

وكما ظهر في اليهودية دعاة إلى التأويل نجم معارضون له ، فكانت طائفة (اليهود الفريسيين) تتمسك بظواهر النصوص ، إلا أنها أيضا كانت تحتكر لنفسها حق تفسيرها .

وأما طائفة (اليهود القرائين) فقد رفضت تعاليم الحاخامات وانكرت التلمود واستمسكت بنصوص التوراة دون تأويل .

---

١) انظر دلالة الحائرين حـ ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩ وانظر بين الدين والفلسفة ص ١٢١ ، ١٢٢
٢) كلمة القبلة بفتح القاف والباء ، وانظر دائرة المعارف العربية الميسرة ص ١٣٦٩ ط : الدار القومية بالإشتراك مع فرانكلين .

((التأويـــل فى المسيحية))

الكتاب الذى يسمى عند اليهود والصليبيين بالكتاب المقدس ، يضم بين دفتيه العهدين القديم والجديد ، فإذا كان اليهود لا يؤمنون إلا بالعهد القديم فقط ، فإن أهل الصليب يؤمنون بالعهدين جميعا ، وبالتالى فإن التأويلات اليهودية ليست بمعزل عن عقائد أهـــل الصليب وأفكارهم ، ومن ثم فقد خضع الكثيرون من المسيحيين لتأويلات اليهود للعهد القديم كما قام بعض النصارى بتأويل بعض نصوص العهدين ووجد هى أن التأويلات كانت متضاربـــة وأن الخلافات كانت متشعبة ليس بين اليهود والنصارى فحسب بل بين مذاهب الصليبيـــين أنفسهم وهو أمر سجله القرآن الكريم عليهم ، وشهد به واقعهم وتاريخهم ، ومن أمثلـــة ما جاء فى القرآن الكريم قول الله جل ذكره : " ... ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون " ١٤ : المائدة ، وهناك مشابهة بين هذه الآية الكريمة وبين الآيـــة السابقة عليها من سورة المائدة التى دمغت أسلافهم من اليهود بما ذمغ به الأخلاف ، وهـــى قوله جل ذكره : " فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم ... " ١٣ : المائدة وأما شهادة التاريخ وما وقع من خلافات بسبب تنازع التأويلات ، وكيف أدت هذه الخلافـات إلى صدوع لا ترأب ، وكيف انقسمت المسيحية إلى : ثلاثة مذاهب كبرى ، وكيف انشعب كـــل مذهب[1] من هذه المذاهب إلى فرق يجمعها أمر ويفرقها أمور .

ومن الإستطراد الذى لا تدعو إليه الحاجة فى مقامنا هذا . أن نتحدث عن الخلافـات بين (الأورثوذكس) ، (الكاثوليك) ، و(البروتستانت) وفى هذا المعنى يقول بطـرس البستانى فى دائرة معارفه " وليس من ينكر ما وقع من الإختلاف بين مفسرى فرقهم ، وبيـــن مفسرى الفرقة الواحـــدة[2] .... "

مصادر اختلاف النصـــارى :-

يقول البستانى ان مصادر الاختلاف كثيرة متفننة ، لا سبيل الى حصرها ، ومع ذلـــك فقد رأى أن منشأ الخلاف مردود إلـــى :-

١) وعلى سبيل المثال فان مذهب البروتستانت يتشعب الان الى مائتى طائفة ، كما علمت وقد امضى وقتا كانتسبهذه الأسطر دراسته الإعدادية والثانوية فى مدارس الأقباط وكانت لـــه مع القوم مدارسات ومناظرات وقراءات زادته اقتناعا بدينه والفضل لله وحده

٢) انظر دائرة معارف البستانى حـ ٦ صـ ١٧٣

١ - الغموض في آية من الآيات أو كلمة من الكلمات .
٢ - آراب نفسية ناشئة من تعصب سابق .
٣ - ميل تحتي إلى تعليم من التعاليم ، وقضية من القضايا ، يريد المفسر أن يستعين بالكتب المنزلة أو بالأحرى يكلفها تضييد رأيه فيها .

ثم قال البستاني : هذا الإختلاف قد كان ولم يزل له تأثيرات عظيمة ، ومتصعبة الدائرة في العالم المسيحي .

قواعد التأويل عند النصارى :-

حاول الكثيرون من أحبار النصارى وضع قواعد لتفسير أسفارهم وضوابط لتأويلها ، ولكن هذه القواعد والضوابط كانت كما وصفها البستاني :-
غير وافية بالمطلوب ، وغير رادعة للأهواء ، وغير موصلة إلى حقيقة المراد .

قوانين اكليمانس :

وفي القرن الثاني للميلاد ظهر في الإسكندرية " اكليمانس " الإسكندري ، وأداة تفكيره إلى هذه التصورات في تفسير أسفار المهدين وهي :-

١ - وجوب فهم المعاني الباطنية لكل " الكتاب المقدس "
٢ - لكل من الشرائع الموسوية أربعة معان .
٣ - لكل من شرائع الكليم عليه السلام نموة عن المستقبل .
٤ - للكتاب المقدس معان غامضة عمدا لكي نطالعه باجتهاد اكثر ، لنتوصل الى هذه المعاني
٥ - المعنى الحقيقي او الحرفي للكتاب المقدس يقودنا الى " الايمان البسيط " وأما المعنى المجازي فيقودنا إلى "أسمى درجات المعرفة " .
٦ - إن التقليد نور لا يستغني عنه في تفسير معنى الكتاب !!!

ولا شك أن القارئ المنصف لهذه القواعد يستيقن بادني تأمل ، أن هذه القواعد التي وضعها هذا القس لا تعصم من خطأ ولا زلل ، وإنما تفتح الباب لمزيد من الشطحات المسرفة ، والأهواء الجامحة ، والتأويلات المتعسفة ، وحسبك أن تركز النظر على هذه الكلمات " المعنى المجازي " ، " أربعة معان " ، " المعاني الغامضة " ، " نموة المستقبل " " التقليد نور "

محاولات ايرناوس وترتليانوس :

حاول هذان القسان وضع قانون واحد لكل التفاسير سماه (بقانون الإيمان) وأراد به " إعتقادات الكنيسة " فما وافق هذه الإعتقادات من التفاسير كان صحيحا ، وما خالفها عد باطلا .

التأويل عند اوريجانوس :

وفي القرن الثالث الميلادي ظهر هذا القس وكانت له نظرية تقول [١] : ان الانسان مؤلف من ثلاثة جواهر : روح ، ونفس ، وجسد ، وعليه فلابد أن تكون هناك ثلاثة معان للكتاب المقدس ، ولهذا أكثر " أوريجانوس " من الإشارات الرمزية والمعاني التمثيلية وقسم دارس الكتاب طبقا لهذه النظرية إلى ثلاثة أنواع [٢] :-

١ - الرجل البسيط : يكتفي بـ " جسد " الكتاب المقدس وهو المعنى الظاهري .

٢ - الرجل الذي أوتي فهما وعلما : يدرك " روح " الكتاب .

٣ - الكامل من الرجال : هو الذي يفهم الكتاب بـ " الناموس النفساني " وهو الذي يطلعه الله على الغيب . [٣]

وقد اعترف القس " أوريجانس " بأن في التوراة استحالات فلا يمكن التصديق بأن يكون الله " يتزوج بستانا ، ويتنزه فيه " ، وأقر بأن كثيرا من قصص التوراة يستحيل تصديقها بغير تأويلها [٤] . وقال : إن من النصوص ما يجب أن يفهم على ظاهره ومنها ما يجب تأويله .

قواعد التأويل عند اوغسطينوس :

وعلى درب السابقين من المؤولين جاء هذا " القس " وكانت أفكاره لا تختلف عنهم كثيرا ، وهي :-

١ - وجوب معرفة المجازات ، وضرورة تمييز المعنى الحقيقي للآية من المعنى المجازي .

٢ - تفسير القضايا المبهمة بالواضحة .

٣ - يجوز أن يكون للآية الواحدة أكثر من معنى .

٤ - عدم الركون إلى العقل البشري . [٥]

ونسرع الخطا لنصل إلى القرن الرابع عشر الميلادي لنلتقي فيه بحركة مارتن لوثر .

" مارتن لوثر " أو " لوثيروس " وقضية التأويل في المسيحية :

لم تكن حركة مارتن لوثر التي أدت الى قيام مذهب البروتستانت غير رد فعل لشطحات الكنيسة ، واحتكارها لحق تفسير الكتاب المقدس ، وتأويلاتها التي جاوزت بها حد الصواب

١) انظر دائرة معارف بطرس البستاني المجلد السادس ص ١٧٣ مطبوعاتي اسماعيليان : طهران

٢) انظر دائرة معارف الدين والأخلاق لهوهان جيفكن حـ ١ ص ٣٢٩ ، ونقلناه ملخصا عن كتاب " مذاهب الإسلاميين " للدكتور عبد الرحمن بدوي حـ ٢ المقدمة .

٣) قارن هذا بنظرية " المكاشفات الصوفية " واطلاع " أقطاب التصوف " على الغيب ... لتعلم أن هذه الأفكار ضلالات أدخلها في الإسلام الماكرون من أعدائه والمغرضون من المندسين بين صفوفه ومناهجه .

٤) انظر دائرة معارف الدين حـ ١ ص ٣٢٩

وذلك كان من آراء " مارتن لوثر " فى قضية التأويل ما يلى :-

١ - رفض آراء وتفسيرات القساوسة .

٢ - إنكار انفراد الكنيسة بحق تفسير " الكتاب المقدس " .

٣ - لكل إنسان الحق فى تفسير الكتاب المقدس حسب اجتهاده [1] ، ومع ما قام به " مارتن لوثر " من حركة احتجاج ضد الكنيسة حتى لقب اتباعه " بالبروتستانت " أى المحتجين [2] ورغم دعوتهم إلى التمسك الحرفى بالإنجيل حتى لقبوا بالإنجيليين ومع هذا وذاك لم يستطع " مارتن " وأتباعه إلا الاذعان لسطوة التأويل فى سفر " كنشيد الإنشاد " وتقتضينا الحقيقة العلمية أن نذكر أمثله لما ورد فى هذا السفر الذى يتكون من ثمانية إصحاحات ونعتذر إلى القارئ عن تقديم عبارات تخله بالحياء فى " رسالة : دينية ، علمية جامعية " ولكن ماذا نفعل وهذا الذى نراه خادشا للحياء هو من مقدسات الصهاينة والصليبيين وها هى الأمثلة :-

١ - الإصحاح الاول :

الفقرة الأولى : نشيد الإنشاد الذى لسليمان .

الفقرة الثانية : ليقبلنى بقبلات فمه ، لأن حبك أطيب من الخمر .

الفقرة العاشرة : ما أجمل خديك بسموط ، وعنقك بقلائد .

الفقرة الثالثة عشر : صرة المر حبيبى لى ، بين ثدى يبيت .

٢ - الإصحاح الثانى :

الفقرة الثالثة : كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبى بين البنين ، تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقى .

الفقرتان السادسة والسابعة : شماله تحت رأسى ، ويمينه تعانقنى ، احلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول ألا تهقظن ولا تنهضن الحبيب حتى يشاء .

---

١) الحديث عن مارتن لوثر نقله بطرس البستانى ملخصا له عن دائرة المعارف الفرنسية فى القرن التاسع عشر ، وأورده فى دائرته حـ ٦ ص ١٧٤

٢) مأخوذة من الكلمة الانجليزية ومعناها يحتج .

٣ ـ الإصحاح الثالث :ـ

الفقرات من الأولى حتى الرابعة : في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي طلبته فما وجدته . إني أقوم وأطوف في المدينة ، في الأسواق وفي الشوارع ، أطلب من تحبه نفسي ، طلبته فما وجدته . وجدني الحرس الطائف في المدينة ، فقلت أرأيتم من تحبه نفسي ، فما جاوزتهم إلا قليلا حتى وجدت من تحبه نفسي ، فأمسكته ولم أرخه ، حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حملت بي .

٤ ـ الإصحاح الرابع :

الفقرة الثالثة : شفتاك كسلكة من القرمز ، وفمك حلو ، خدك كفلقة رمانة تحت نقابك

الفقرة الخامسة: ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن .

٥ ـ الإصحاح الخامس :

الفقرة الأولى : قد دخلت جنتي يا أختي العروس : قطفت مري مع طيبي أكلت شهدي مع عسلي ، شربت خمري مع لبني ، كلوا أيها الأصحاب اشربوا واسكروا أيها الأحباء .

الفقرات من العاشرة إلى السادسة عشرة[1] : حبيبي أبيض وأحمر . معلم بين ربوة رأسه ذهب إبريز . قصصه مسترسلة حالكة كالغراب . عيناه كالحمام على مجاري المياه مغسولتان باللبن جالستان في وقبيهما[2] . خداه كخميلة الطيب وأقلام[3] رياح ذكية شفتاه سوسن تقطران مرا ماثعا ، يداه حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد . بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق ساقاه عمودا رخام موسستان على قاعدتين

---

١) يضطر الطبيب احيانا الى النظر في بول المريض ، وفحص برازه ونفاياته ، ليتمكن من معرفة حقيقة الداء وتلجأ اجهزة الأمن إلى الإحتفاظ بصور المجرمين والخاطئات لا حبا وتكرمة ولكن للخدر والمقاومة ، ونقلنا لهذه العبارات من " كتاب "مقدس "عند آلاف الملايين هو للأسف من هذا الصنيع ، وإذا كان القوم يزيفون حقنا ويزورون تاريخنا فعلام السكوت عن فضح باطلهم ولعلي أحتج لصنيعي بأن الإسلام لا يقيم حد الزنا إلا برؤية عين لشهود أربعة متصفين ويجهل العلانية من شروط إقامة الحد .

٢) الوقب : بفتح الواو وسكون القاف ، نقرة في الصخرة ـ يجتمع فيها الماء ، وكل نقرة في الجسد كنقرة العين والكتف ، انظر القاموس المحيط حـ ١ صـ ١٤٢

٣) الأثلام : الأخاديد ، قاله في القاموس وقال ابن فارس في المقاييس حـ ١ صـ ٣٥٣ : الثاء والراء واللام والميم : ليس بأصل ولا فيه كلام صحيح ولا فصيح .

من ابريز ، طلعته كلبنان ، فتى كالأرز ، حلقه حلاوة وكله مشتهيات ، هذا حبيبي وهذا خليلي يا بنات اورشليم .

الإصحاح السادس :

الفقرات من الثامنه إلى العاشرة : هن ستون ملكة وثمانون سُرِّية وعذارى بلا عدد ، واحدة هي حمامتي كاملتي ، الوحيدة لامها هي ، مختارة والدتها هي ، رأتها البنات فطوَّبنها ، الملكات والسراري فمدحنها من هي المشرقة مثل الصباح جميلة كالقمر طاهرة كالشمس ، مرهبة كجيش بألوية .

الإصحاح السابع :

الفقرتان الأولى والثانية : ما أجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكريم ، دوائر فخذيك مثل الحلى صنعة يدى صناع ، سرتك كأس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج ، بطنك صُبْرة حنطة مسيجة بالسوسن .

الاصحاح الثامن :

الفقرتان الاولى والثانية : ليتك كأخ لى الراضع ثَدْيَ أمى ، فأجدك فى الخارج وأقبلك ولا يخزونني ، وأقودك وأدخل بك بيت أمى وهى تعلمنى فأسقيك من الخمر الممزوجه من سلاف رمانى .

بواعثنا لنقل هذه الفقرات :-

لسائل أن يسأل وما صلة هذه الفقرات بقضية التأويل ؟ والجواب :-

إنه لا يمكن لما قل أن يصدق أن هذا الغزل الجنسى الفاحش يمكن أن يكون وحيا من عند الله ولا يمكن أن يكون صادرا عن نبى كريم كسليمان الحكيم عليه السلام ، وأن المعانى التى جاءت فى السفر بما تثيره من غريزة الحيوان فى الإنسان ، ليست من أهداف رسالة الله إلى خلقه ، وإنما هى من أهداف الشيطان وإذاً فقد أصبح أتباع الكتاب المقدس أمام ثلاثة أمور :-

الأمر الأول : إما أن يقولوا : هذا كتابنا يأمر بالفحش ، ويهدى إلى الشر ، ويجعل الكفر إيمانا ، ويسمى الرذيلة فضيلة . وإما

الصُبْرَة : (بضم الصاد وسكون الباء وفتح الراء) ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن والطعام المنخول ... انظر القاموس ج ٢ صـ ٦٩

الأمر الثاني : وهو أن ينكروا الكفر والفحش المبثوثين خلال أسفار العهد القديم بل والجديد وهذا الموقف معناه أن هذه الكتب ليست من عند الله ، وإنما طرأ عليها الوضع ودخل عليها التحريف والتبديل وهذا الموقف : إما أن يؤدي إلى إنكار الدين من أساسه إذا كان هذا الهراء هو الدين ، وإما أن يميزوا بين الأصيل والدخيل ، وبين التوحيد والشرك ، وأن يفرقوا بين الطهر والدعر ، ولو فعلوا ذلك عن إخلاص وبصيرة لأدّاهم ذلك إلى الإيمان الحق ، ولقادهم إلى الصراط المستقيم ، ولآمنوا بخاتم النبيين ولقد صدرت في الغرب كتب تعرضت لنقض التوراة ونقدها ، ونصبت الكنيسة محاكم التفتيش لمن صرح وطعن بما في التوراة من أباطيل ، ولقد سمعت بنفسي من بعض القساوسة نقدا لبعض أسفار العهد القديم . وأما :-

الأمر الثالث : وهو التأويل وقد سلكه القوم ، لأنه كان في نظرهم أيسر الطرق بل كان أحيانا هو الطريق الذي لا مندوحة عنه ، وخاصة أن في التوراة ما يشهد الواقع ببطلانه ، ويقطع العقل بكذبه ، وتأنف منه الفطر السليمة .

ولكن ليس الحق كالباطل :-

فقد كان التأويل عند القوم سترا لأبطولة ، أو كتمانا لعورة أو تمويها بالخداع والكذب لمواراة ما يجب أن يوارى .

وأما التأويل في الإسلام فكان في غالب أحيانه الهوى الذي يحاول أن يتحكم في الحق والكذب الذي يحاول أن يواري الصدق ، بل كان السفح الذي يحاول أن يشرئب إلى القمة ، وهذا القول منا ليس حكما مطلقا مستغرقا لكل صور التأويل ، بل هناك من التأويلات ما يتنكب هذه القاعدة السوءى ، ويستمسك بسواء السبيل .

أمثلة أخرى من التأويلات في الكتاب المقدس :

١ - ذهب المؤولون للكتاب المقدس إلى تحميل نصوص العهدين ما لا تحتمله ألفاظها ولكن كل يحزف على وتره ، فمع زعمهم بأن نشيد الإنشاد من وضع سليمان عليه السلام ، وبراه الله مما يقولون ، إلا أن إلف التأويل يجعل فاحش الغزل فيه إنما هو الغزل الذي يجب على كل مسيحي أن يتغزله في كنيسته !!! وكأن التاريخ قد قلب رأسا على عقب ، وصار مبحث سليمان عليه السلام بعد زمان عيسى وكأن الكنيسة لها هذه الأعضاء الأنثويه التي سبق ذكرها .

٢ - وسفر التكوين من الأسفار الخمسة التي تنسب للكليم موسى عليه السلام ومع ذلك أصبحت نصوصه بفعل الهوى في خدمة عقائد " الخطيئة " ، "الصلب " ، "الفداء " وهي

عقائد اخترعت بعد قرون من تأليف هذا السفر ، وبيان ذلك أن تسمع لتأويل بعض عباراته وهي : " لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب . رابطا بالكرمة جحشه ، بالجفنة ابن أتانه ، غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه " الفقرتان ١١ ، ١٢ من الإصحاح (٤٩) من التكوين جاء " يوستينوس " وفسر عبارة " غسل بالخمر لباسه إلخ " بأن المؤمن الذي تسكن فيه (الكلمة) سيطهره المسيح بدمه الذي يأتي من أمه مثل عصير العنب فكلمة (سيطهر) إشارة إلى عقيدة الصليبيين في (الخطيئة) المتوارثة عن آدم عليه السلام وقولهم بدمه إشارة إلى (الصلب والفداء) و " الكلمة " إشارة إلى حلول اللاهوت في الناسوت وهذا " الحلول " هو الذي قامت عليه عقيدة التثليث التي يعبرون عنها بقولهم " باسم الآب والإبن والروح القدس " ونعوذ بالله الواحد الأحد من التثليث وأهله .

٣ — وسفر أشعياء من أسفار العهد القديم ، وقد وردت فيه هذه العبارة : " لأنه يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه (وفي بعض الترجمات (١) وتكون الحكومة على عاتقه) ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلاها قديرا أبا أبد يا رئيس السلام " أشعياء : الإصحاح التاسع : الفقرة السادسة

فجاء تأويل عبارة : " الحكومة على عاتقه " أو " الرياسة على كتفه " بأن " المسيح سيقتل على الصليب " .

وهذا التأويل يكذبه التاريخ ، ويفنده سياق العبارات في الإصحاح وتدحضه دلالة الألفاظ اللغوية ، فالنص حالك الكفر ، والتأويل غارق في الضلال .

٤ — ومن عجائب هذه التأويلات أن قسا يدعى " هيرونيموس " قرأ ما ورد في سفر التكوين من أن يعقوب عليه السلام ، جمع في الزواج بين أختين هما " ليا " و " راحيل " (٢)

---

١) الطبعة التي نرجع إليها هي الصادرة عن دار الكتاب المقدس بالقاهرة عام ١٩٦٩ م ، والترجمات المشار إليها هي ترجمات الطبعات القديمة ، نقلا عن دائرة معارف الدين والأخلاق حـ ١ صـ ٣٣٠

٢) انظر سفر التكوين الإصحاح التاسع والعشرين وقصة زواج يعقوب عليه السلام ذكرت في هذا الإصحاح بدءا من الفقرة التاسعة حتى الخامسة والثلاثين موجزها أن الفتاتين كانتا ابنتي خاله " لابان " وكانت الكبرى " ليئة " ضعيفة العينين محدودة الجمال .. وأن يعقوب عليه السلام ارتضى خدمة خاله سبع حجج لقاء أن يزوجه من ابنته الصغرى الجميلة " راحيل " وبعد أن وفى يعقوب لخاله ، غر به خاله ، وزف إليه الكبرى " ليئه " ولما أصبح الصباح واكتشف يعقوب خديعة خاله له ... عاتبه في ذلك ورد عليه خاله " لابان " بأن عُرْفهم يمنع زواج الصغيرة قبل الكبيرة .. فخدمه سبع سنوات أخرى كصداق للصغيرة " راحيل " وانتهت سنوات الخدمة بالزواج .... "

وقيل كانت شريعته تبيح ذلك - فتأول هذه الواقعة التاريخية بأن " ليا " هى الدين اليهودى و " راحيل " هى الدين المسيحى ... وهذا ضرب من التأويل هو كهذيان السكارى وخرف المحمومين .

٥ - وننتقل على سبيل المثال إلى إنجيل يوحنا من العهد الجديد :

فى الإصحاح الاول تجد هذا التناقض الذى جعلوا منه مستندا لعقيدة التثليث وذلك فى قول مؤلف الإنجيل : "فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله هكذا كان فى البدء عند الله . كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان " انظر الفقرات ١ إلى ٣ .

ولا معنى لهذا الكلام إلا أن المسيح هو الله وهذا الإله كان " كلمة " ثم تجسد فى إنسان فهو إله بشرى من لحم ودم ولد من أم ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ومع ذلك فإن الخيال الأسطورى يصور لعابديه أن هذا الإله الذى " كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان " مع كل هذه العظمة فهو يقتل ويصلب ولا يستطيع ان يدفع عن نفسه الضر " كبرت كلمة تخرج من افواههم إن يقولون إلا كذبا " ٥ : الكهف .

ومع ذلك تقرأ فى الفقرة العاشرة : هذا القول " كان فى العالم وكون العالم به ولم يعرف العالم " ثم تفاجىء فى الفقرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة بأن المسيح ليس هو وحده " ابن الله " بل لله أبناء آخرون غير المسيح وتعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا ، ونص عبارة يوحنا هى " وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنين باسمه . الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة رجل بل من الله " ولا يكاد التناقض يذهلك عن أمرك ويفقدك لبك حتى يصدمك تناقض يتكرر ويتمثل فى أن يوحنا عاد عن قوله فى أن لله العديد من الأولاد إلى قوله بالولد الواحد لله مرة أخرى وهذا ما تجده فى الفقرة الرابعة عشرة من الإصحاح "والكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده مجدا كما لوحيد من الآب مملوء نعمة وحقا ."

وفى نفس الإصحاح ينقل مؤلفه "يوحنا "أن نبى الله " يوحنا " (يحيى بن زكريا " أطلق على المسيح " حمل الله " فى الفقرة ٢٩ وهى " وفى الغد نظر يوحنا يسوع مقبلا إليه فقال هوذا حمل الله ... " وكرر هذه التسمية فى الفقرة " ٣٦ " وغيرها

٦ - وتقرأ فى الإصحاح الثانى من إنجيل يوحنا " فأجاب اليهود وقالوا له أية آية ترينا حتى تفعل هذا . أجاب يسوع وقال لهم انقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام اقيمه فقال اليهود فى ست واربعين سنة بنى هذا الهيكل أفأنت فى ثلاثة أيام تقيمه . وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده . فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا فآمنوا بالكتاب

والكلام الذى قاله يسوع[1] " الفقرات من ٨ الى ٢٢

لا نتعرض هنا لسرد الأدلة وهى كثيرة على أن هذا القول تاريخ مفترى ، وليس وحيا من عند الله نزل ولا نتعرض لما فيه من عقيدة تخالف عقيدة الحق ، وإنما إلى ما فيه من (توريـــة) او بالاحرى من "تلبيس" وكيف كان يحس مؤلفو الأناجيل ما فيها من مصادمة للحقائـــق فيلتجئون أمام المؤولين الأبواب .... والتأويل على مضاره أهون من التكذيب ....

انقضوا هذا الهيكل مشيرا إلى هيكل سليمان ... ثم يقول يوحنا إنما كان يعنى هيكـــل جسده ... وهكذا نصوص اخترعت من إفك وتأويلات من سراب ووهم ... وإذا كان المألـوف أن كاتب النص يترك لغيره الإجتهاد فى الفهم ، فإن يوحنا هنا هو الذى قام بالتأويـــل .

٧ — وننتقل إلى سفر الرؤيا أو رؤيا يوحنا اللاهوتى ، وهو سفر تكتنفه الخيالات ونسيـــج مادته من الأحلام الشاطحة والأوهام السرابية ويمكن أن يعد صورة مجسدة للرمزية والغمـــوض أو نوعا من أدب اللامعقول ويتكون هذا السفر من اثنين وعشرين إصحاحا ونكتفى بضرب المثال بالإصحاح السابع عشر وهاك نصه " ثم جاء واحد من السبعة الملائكة الذين معهم السبعـــة الجامات[2] وتكلم معى قائلا لى هلم فأريك دينونة الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثـــيرة التى زنى معها ملوك الأرض وسكر سكان الأرض من خمر زناها . فمضى بى بالروح إلى برية فرأيت امرأة جالسة على وحش قرمزى مملوء أسماء تجديف له سبعة رؤوس وعشرة قرون . والمرأة كانـــت متسربلة بأرجوان وقرمز ، ومتحلية بذهب وحجارة كريمة ولؤلؤ ومعها كأس من ذهب فى يدها مملوءة رجاسات ونجاسات زناها . وعلى جبهتها اسم مكتوب . " سر " بابل العظيمة أم الزوانى ورجاسات الأرض . ورأيت المرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع . فتعجبـــت لما رأيتها تعجبا عظيما .

ثم قال لى الملاك لماذا تعجبت . أنا أقول لك سر المرأة والوحش الحامل لها الذى لـــه السبعة رؤوس والعشرة قرون . الوحش الذى رأيت كان وليس الآن وهو عتيد أن يصعـــد من الهاوية ويمضى إلى الهلاك . وسيتعجب الساكنون على الأرض الذين ليست أسماؤهـــم مكتوبة فى سفر الحياة منذ تأسيس العالم حينما يرون الوحش ، أنه كان وليس الآن مع أنـــه كائن . هنا الذهن الذى له حكمة " السبعة رؤوس هى سبعة جبال عليها المرأة جالســـة

---

١) الأيام الثلاثة المشار إليها هى بزعمهم أن المسيح — برأه الله من إفكهم وكيدهـــم قتل وصلب يوم جمعة سمى بالجمعة الحزينة ، وقام يوم الأحد من بين الأمـــوات وصعد إلى السماوات !! وجلس عن يمين أبيه !!! تعالى الله علوا كبيرا عن ذلك

٢) الجامات جمع جام وهو الكأس .

وسبعة ملوك : خمسة سقطوا وواحد موجود والآخر لم يأت بعد ، ومتى أتى ينبغي أن يبقى قليلا . والوحش الذى كان ، وليس الآن فهو ثامن وهو من السبعة ويمضى إلى الهلاك. والعشرة القرون التى رأيت هى عشرة ملوك لم يأخذوا ملكا بعد، لكنهم يأخذون سلطانهم كملوك ساعة واحدة مع الوحش . هؤلاء لهم رأى واحد ويعطون الوحش قدرتهم وسلطانهم . هؤلاء سيحاربون الخروف ، والخروف يغلبهم لأنه رب الأرباب (١) وملك الملوك والذين معه مدعوون ومختارون ومؤمنون . ثم قال لى المياة التى رأيت حيث الزانية جالسة هى شعوب وجموع وأمم وألسنة . وأما العشرة القرون التى رأيت على الوحش فهؤلاء سيبغضون الزانية وسيحطمونها خربة وعريانة ، ويأكلون لحمها ويحرقونها بالنار . لأن الله وضع فى قلوبهم أن يصنعوا رأيه وأن يصنعوا رأيا واحدا ويعطوا الوحش مُلْكَهم حتى تكمل أقوال الله . والمرأة التى رأيت هى المدينة العظيمة التى لها مُلْكٌ على ملوك الأرض " أ هـ

وإن القارئ لهذا الإصحاح بأقل تمعن لا يستطيع أن يحكم عليه إلا بما حكمنا به من الرمزية الأسطورية والتأويلات الخيالية .

التأويلات العملية :

التأويلات العملية عند اليهود والصليبيين كثيرة ولا نطيل بذكرها وإنما نكتفى منها بما يعرف عند النصارى بأسرار الكنيسة السبعة وكل سر منها يرمز لأمر ويؤول بشئ غيره وهذه الاسرار السبعة هى :

١) سر المعمودية ٢ — سر التثبيت أو سر " الميرون " (٢)

٣) سر التناول ويسمى أيضا بسر " الافخارستيا "

٤) سر الاعتراف أو سر التوبة .

٥) سر المسحة ٦) سر الزيجة ٧) سر الكهنوت

ونقف عند سر واحد من هذه الاسرار ، وهو سر " التناول " والصورة التى يمارس بها هذا السر هى تناول " الخبز والخمر " فالخبز يرمز لجسد المسيح ، والخمر يرمز لدمه ويزعمون أن هذه الممارسة هى التى ورد بها الأمر فى الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا فى الفقرات من ٥٠ إلى ٥٦ : " وهذا هو الخبز النازل من السماء لكى يأكل

١) ألا ما أحقر الكفر وأوقحه وأذله حين يكون الخروف رمزاً لرب الأرباب

٢) الميرون : نوع من العطور . يحضر بطريقة كهنوتية .

منه الإنسان ولا يموت أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد . والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم فخاصم اليهود بعضهم بعضا قائلين كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير . لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فىّ وأنا فيه " أ هـ

وكفى بهذا الهزل اللاعب أن يكون عقيدة .....

محصلة التطواف : لم تكن بغيتنا من ذكر هذه الإلماحة التاريخية ، عن مشكلة التأويل عند اليهود والنصارى إلا أن نصل إلى استخلاص النتائج الآتية :-

١) بدعة التأويلات ، هى من البدع التى دخلت على الدينين من أختلاط القوم بثقافات "الاغريق" ، و "البابليين" وغيرهم ، ورغبة هؤلاء فى تقليدهم .

٢) إن التأويل تطويعا للنص الأصلى لأفكار واقعة - غالبا ما تكون أفكار الغالبين والمتسلطين يكون نتيجة روح انهزامية داخلية يريد المغلوب تنفيسا عنه أن يثبت لنفسه وللمتسلط عليه أن عنده من الفكر ما يشابه ما يحمله سيده فى رأسه ، ولو كان فكر السيد أقل من فكر العبد ، وهذا يذكرنا بعبيد المستشرقين ، وضلالات المستغربين عندنا .

٣) التمانق بين التحريف والتأويل فى هذين الدينين ، والتحريف فى هذين الدينين " كان تحريفا لوحى الله سبحانه ، وتبديله " .. ولم يقع فى الإسلام من أصحاب الأهواء إلا تحريف المعانى ، وقيض الله لهذه التحريفات المعنوية من عدول الأمة الإسلامية ، فى كل عصر من كان يأتى بنيانها المهيل من قواعده .

٤) هذه الأسفار المحرفة : وقع فيها الكثير والكثير مما يجزم العقل باستحالته ، ويشهد التاريخ بكذبه ، ويناقضه الواقع ، وينبو عنه الذوق السليم ، وتعافه الفطر المستقيمة . .. وهذا كله وجد فى التأويل والرمز : مناصا وملجأ .

النجم الثاني

التأويل

معانيه وأطواره

" كلمة التأويل "
دلالاتها وأطوارها

التأويل في اللغة :

يقول ابن منظور في لسان العرب(١) :

" الأول (بفتح الألف وسكون الواو) : الرجوع .

آل الشيء يؤول أولاً ومآلا : رجع ، وأوّل إليه الشيء : رجعه ، وآلوا الجمال : ردّوها ... ، والأَيْل (كسيّد) : الوعل لمآله إلى الجبل يتحصن فيه .

* * *

وأوّل الكلامَ وتأوله : دبّره وقدّره ، ... وفسّره .

... والتأويل تفعيل من أوّل يؤول تأويلا .

وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن التأويل فقال : " التأويل والمعنى والتفسير : واحد .

قال أبو منصور : أوّلتُ الشيءَ أُؤوّله اذا جمعتُه وأصلحتُه ، فكان التأويلُ جمع معاني ألفاظ أشكلت بلفظ واحد لا إشكال فيه ، ومنه أوّل الله عليك أمرك أي جمعه(٢) ، وأول الله عليك ضالتك : ردها عليك وجمعها لك . وتأولت في فلان الأجر : تحريته وطلبته .

وقال الليث : التأول والتأويل : تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ، ولا يصح إلا ببيان غير لفظه .

والتأويل : المرجع والمصير قاله أبو عبيد ، وقال الجوهري : التأويل : تفسير ما يؤول إليه الشيء .

والتأويل : عبارة الرؤيا .

وآله يؤوله إياله : إذا أصلحه وساسه ، والائتيال الإصلاح والسياسة " أ هـ بإيجاز .

* * *

وندهب إلى ابن فارس(٣) نقتطف منه ما يزيد الكلمة جلاء ووضوحا ، قال : " الهمزة ، والواو ، واللام : أصلان : ابتداء الأمر ، وانتهاؤه(٤) ، أما الأول(٥) : فالأول : مبتدأ

---

(١) في مادة " أول " ، وبالرجوع إلى عدد من المعاجم الأخرى : كالقاموس المحيط وشرحه تاج العروس ، وأساس البلاغة ، والمصباح المنير ، ومختار الصحاح وغيرها وجدنا صاحب اللسان قد جمع فأوعى . (٢) الأولى أن يقال : ما وى وا الله عليك أمرك .. ليصار إلى الأصل اللغوي للكلمة وهو الرجوع . (٣) انظر معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس حـ١ ص ١٥٨ ــ ١٦٢ بتصرف . (٤) ونعقب على قول ابن فارس بقولنا بل مرد الكلمة إلى رحم واحدة ، لأن ابتداء الشيء أصل يرجع إليه ، وأما الإنتهاء ، فهو غاية ينتهي إليها ايضا ، فالرحم الواحدة للكلمة هي الرجوع ، تأمل قوله تعالى : " إن إلى ربك الرجعى " ٨ : العلق ، " وأن إلى ربك المنتهى " ٤٢ : النجم . (٥) أي الأصل الأول .

الشيء ... وتأسيس بناء أول من همزة ، وواو ، ولام ، وهو القول . ومنهم من يقول تأسيس بنائه من واوين بعدهما لام ...

والأصل الثاني : قال الخليل : الأيِّل : من الذكر من الوعول سمي بذلك لأنه يؤول إلى الجبل يتحصن ، والجمع أيائل ، وآل البن إذا خثر لأنه لا يخثر إلا آخر أمره .
والإيال : وعاء يجمع فيه الشراب .
وآل يؤول : رجع ، و" أوّل الحكم إلى أهله " أي أرجعه .
والإيالة : السياسة : لأن مرجع الرعية إلى راعيها ، قال الأصمعي : آل الرجل رعيته يؤولها : إذا أحسن سياستها ... وتقول العرب في أمثالها " ألْنا وإيلَ علينا " أي سِسْنا وساسنا غيرنا .

وقال الأصمعي : رددته إلى آيِلَتِه : أي إلى طبعه .
وآل الرجل : أهل بيته ، لأنه إليه مآلهم ، وإليهم مآله .

وآل الخيمة : العُمُد .

ومن هذا الباب تأويل الكلام ، وهو عاقبته وما يؤول إليه ، وذلك قوله : " هل ينظرون إلا تأويله " : ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم .. " .

ويقول الزمخشري (١) : " ... ومن المجاز : فلان يؤول إلى كرم ، أي : يرجع .. لا تعول على الحسب تعويلا ، نقتوى الله أحسن تأويلا أي عاقبة " .

تعقيب :

بعد أن نقلنا ما سبق عن معاجم اللغة ، نذكر رأينا وهو : إن اللفظة العربية مهما تعددت دلالاتها ، لابد وأن تئوب هذه الدلالات إلى أصل أول .. وقد رد ابن فارس هذه الكلمة إلى أصلين كما سبق ، ونستطيع ردها إلى أصل واحد وهو "المرجع أو الرجوع " فالأول : وهو ابتداء الشيء ، فالله سبحانه هو الأول منه بدأ الخلق وإليه يرجع ... وفي دنيا الناس تسمع : الوزير الأول ، الكاتب الأول ، الكتاب الأول ، المعلم الأول والطبيب الأول وكل هؤلاء في موضع رئاسي أو رئيسي يجعلهم مراجع لمن دونهم ، وفي الأعداد الصفر هو العدم فمن لا يملك مالا يقال عنه صفر اليدين ، والوادي الجديب يقال عنه : صفر من الثمار والأشجار .

---

(١) أنظر أساس البلاغة للزمخشري مادة أول ص ٢٥ ط : صادر بيروت .

والأصل الثانى الذى قال عنه ابن فارس إنه انتهاء الشىء ، دال على "الرجعى" كما بَيَّن هو بَيِّناً ، فتأويل الكلام رده إلى حقيقته وأصله ، وتأويل الرؤيا : رد رموزها إلى تعبير يرجع إلى واقع ، والتفسير : إرجاع غامض إلى واضح ، والإيالة بمعنى السياسة : لأن السياسة الشرعية تُرجع المسوسين إلى الصلاح والرشاد .. وهكذا

استعمال كلمة التأويل فى الشعر العربى :

وردت كلمة التأويل ومشتقاتها على ألسنة بعض الشعراء ، ومن ذلك قول الأعشى :

على أنها كانت تَأَوَّلُ حبها ∴ تأول رِبْعِىِّ السِّقابِ فأصحبا (١)

وقال الأعشى كذلك :

أَوَّل الحكمَ إلى أهلـه ∴ ليس قضائى بالهوى الجائـر (٢)

وقال لبيد بن ربيعة :

بصبوح صافية وضرب كرينة ∴ بموتر تأتاله إبهامُهـا (٣)

وروى عجز البيت ∴ بموتّر تأتى له إبهامُهـا (٤)

بين التنزيل والتأويل :

يذكر بعض العلماء فى مؤلفاتهم كلمة التأويل مقابلة لكلمة التنزيل ، ويعنون بالتنزيل ألفاظ النص وبالتأويل ، ما صدقات هذه الألفاظ (بتعبير المناطقة) أى حقيقة اللفظ ومضمونه .

من هذا الإستعمال ما ذكره أبو الحسين محمد بن أحمد الملطى فى كتابه " التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع " (٥) بصدد حديثه عن " المرجئة : فرقها ومذاهبها " قال :

---

(١) السَّقْب بفتح السين : ولد الناقة أو ساعة يولد ، وجمعه أسقب ، وسِقاب وسُقوب وسُقبان انظر القاموس حـ١ ص ٨٥ والربعى بكسر الراء : نسبة إلى الربيع وارتبع البعير وتربع أكل الربيع والمعنى كما ذكره ابن منظور فى اللسان عن أبى عبيد : " .. تأول حبها : تفسيره ومرجعه ، كان حبها صغيرا فى قلبه فظل يشب حتى أصبح كالسقب الصغير لم يزل يشب حتى صار كبيرا مثل أمه وصار لها بن يصحبه ، وانظر باللسان مواد : أول ، صحب ، ربع .

(٢) أوَّل الحكم : أرجعه وأرده إلى أهله .

(٣) الكرينة : الجارية الضاربة بالعود أو الصنج ، والصبوح : شراب الصباح وتأتاله : تصلحه وتسوسه ، وآلت الأمر اصلحته .

(٤) انظر معجم المقاييس حـ١ ص ٥١ .

(٥) انظر ص ١٥١ من الكتاب المذكور ط: المعارف بيروت ، والملطى : نسبة إلى ملطية وتوفى بسمقلان ٣٧٧ هـ ، وأول نشرة للكتاب بتحقيق محمد زاهد الكوثرى بالقاهرة فى ١٣٦٨ هـ .

" ومنهم (أى المرجئة) صنف زعموا : أنه لابد من الإقرار بالتنزيل وإن جحدوا من التأويل ما شاءوا . وقالوا نشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قالوا : لا ندرى محمد هو الذى بمكة والمدينة ، أو نبى بخراسان (فمن قال ذلك)(١) فهو مؤمن ، وقالوا : نقر بالحج ولا ندرى هو الذى بمكة ، أو بيت بخراسان فهو مؤمن ، وأقروا بالخنزير أنه حرام ، ولا ندرى هو هذا الخنزير أو الحمار فهو مؤمن ، فقيل لبعضهم" ان ابليس قد أقر بلسانه ... " .

فالملطى يبين أن هؤلاء النفر من المرجئة يجعلون الإيمان قولا بغير عمل ، واللفظ صوتا بغير معنى أو مضمون ، ويبيّن مراده من التأويل بما مثّل له من الأمثلة .

استعمالات لفظ التأويل
" فى القرآن الكريم "

رأينا أن نسرد كل استعمالات الكلمة فى كتاب الله ، بادئين بوجودها فى السور المكية ثم فى السور المدنية ، محاولين فهم الكلمة من خلال الآية ، والآية من سياق السورة ، مستأنسين فى هذا الفهم أو مسترشدين بآراء ذوى الرأى :-

١) وردت الكلمة فى سورة الأعراف فى قوله تعالى :-

" ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " ٥٢ ، ٥٣ : الأعراف .

ومجمل المعنى : أن الله سبحانه قد أقام الحجة على المكذبين ، بكتاب فصل فيه ما ينفع العباد فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، وأنه هدى ورحمة لكل من ألقى إليه سمعه وتدبره ببصيرة غير مفتونة فآمن . فكانت رحمته لهم فى الدنيا بما يسبغه الله على أتباع القرآن ، وفى الأخرة بنجاتهم من " العذاب " لما فيه من الدلائل ورفع المشبه "(٢) .. هل ينتظرون " إلا تأويله " أى " ما وُعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار ... وقال الربيع : لا يزال يجىء من تأويله أمر حتى يأتى يوم الحساب

---

(١) ليست بالأصل ولكن لبيان خبث قصدهم .

(٢) انظر محاسن التأويل للقاسمى جـ ٧ ص ٢٦٩٨ والضمير فى قوله " لما فيه " أى لما فى الكتاب المفصل .

حتى يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهل النارِ النارَ ... [1] .. " يوم يأتى تأويلـــه " وهو يوم الجزاء لأن " ما يؤول إليه أمرهم " [2] يتحقق فيـه .

وواضح أن التأويل فى الآية الكريمة فى موضعيه فى معنى تحقيق ما وُعدوا بـــه وصدق ما يؤول إليه خبر الوحى أو بتعبير ابن قيم الجوزيه " مجىء نفس ما أخبرت بـه الرسل من اليوم الآخر .. والجنة والنار " [3] أو " أن الله جعل التأويل للكتاب كلـه مع إخباره أنه مفصـل " [4] .

٢) ووردت الكلمة فى قوله سـبحانه :

" أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون اللـه إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كـذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين " ٣٨ ، ٣٩ : يونس . أى كذبـوا بالقرآن - جهلا منهم وصدودا - وما تدبروه ولا عقلوه " ولما يأتهم تأويلـه " أى " بيان ما يؤول إليه مما توعدهم فيه [5] ونستطيع أن نقول : إن معنى الآيـة أن المشركين كذبوا بالقرآن ويكونه من عند الله ، والقرآن شاهد على نفسه أنـه من عند الله ولو طلبوا براهين ذلك لوجدوها فى صدق ما أخبر به من أنواع الغيب ، وأحوال الآخرة ، وسير الماضين ، لكنهم قبل أن يأتيهم تحقيق ذلك كله وتأويلـه ، سارعوا بالتكذيب كما فعل أسلافهم من قبل ، أو كما يقول ابن كثير [6] " ولما يأتهم تأويله " أى ولم يحصلوا ما فيه الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهـلا وسـفها " .

٣ ، ٤) ووردت الكلمة فى مواضع من سـورة يوسف هى قوله عز من قائـل :-

" وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك ....." ٦ : يوسف ، وفى معناها " وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث" ٢١ : يوسف .

---

(١) انظر تفسـير القرآن العظيـم لابن كثير الدمشقى حـ٣ ص ١٧٧ ط : الفكر ببيروت .
(٢) انظر محاسن التأويل كما سـبق .
(٣) انظر مختصر الصواعق المرسلة حـ١ ص ١١ ط : الرياض .
(٤) انظر الإكليـل لابن تيميـه ص ١٢ .
(٥) محاسن التأويل للقاسـمى حـ٩ ص ٣٣٥٢ .
(٦) تفسير القرآن العظيم حـ٣ ص ٤٠٥ ط : الفكر ببيـروت .

يقول القاسمي[١] "ويعلمك من تأويل الأحاديث" أي تعبير المنامات، وإنما سمي التعبير تأويلا، لأنه جعل المرئي آيلا إلى ما يذكره المعبر بصدد التأويل، وراجعا إليه، والأحاديث: أسم وجمع للحديث، سميت به الرؤيا لأنها إما حديث ملك أو نفس أو شيطان" أ هـ. وأكثر المفسرين على أن الآية في تعبير الرؤيا[٢] إلا أن الطبرسي[٣] المفسر المتشيع يضيف إلى هذا الرأي السابق "... وقيل: معناه: ويعلمك عواقب الأمر، بالنبوة والوحي إليك، فتعلم الأشياء قبل كونها (يعني قبل وقوعها) معجزة لك، لأنه أضاف التعليم إلى الله وذلك لا يكون إلا بوحي ... قاله أبو مسلم، وقيل: تأويل أحاديث الأنبياء والأمم يعني كتب الله ودلائله على توحيده، والمشروع من شرائعه وأمور دينه.. روى عن الحسن والجبائي ... والتأويل في الأصل: هو المنتهى الذي يؤول إليه المعنى، وتأويل الحديث فقهه الذي هو حكمه، لأنه إظهار ما يؤول إليه أمره مما يعتمد عليه وفائدته .." أ هـ. وما ذكره الطبرسي مما تحتمله ألفاظ الآية وسياقها ولا تعارض له مع غيره.

٦٥) ووردت في نفس السورة في موضعين متتابعين في قوله تعالى :-

"ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين. قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون" ٣٦، ٣٧ : يوسف.

قال المفسر أبو السعود العمادي[٤] عند قوله تعالى "إلا نبأتكما بتأويله" "... استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي لا يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما به، بأن بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله "قبل أن يأتيكما" وإطلاق التأويل عليه: إما بطريق الإستعارة: فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رئي في المنام وشبيه له. وإما بطريق المشاكلة: حسبما وقع في عبارتهما من قولهما "نبئنا بتأويله".

---

(١) محاسن التأويل ص٣٥٠٦ وقد أطال التاسمي القول والنقل في الآية الكريمة وأجاد .. ولكن لا تعلق له بموضوعنا.

(٢) انظر ما ذكره الطبري وابن كثير وغيرهما.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي حـ١٣ ص ١٢ ط: الحياة: بيروت.

(٤) انظر "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم" لأبي السعود العمادي المتوفى ٩٥١ هـ حـ٣ ص ٧٠، ٧١ ط: صبيح.

ولا يبعد أن يراد بالتأويل : الشيء الآيل لا المآل . فإنه فى الأصل جعل الشيء آيلا إلى شيء آخر ، فكما يجوز أن يراد به الثانى ، يجوز أن يراد به الأول ، فالمعنى إلا نبأتكما بما يؤول إليه من الكلام والخبر المطابق للواقع ، وكان عليه السلام يقول لهما : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كذلك ، ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها ، وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا فى ذلك بحسب الحال ، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استخبراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام ، وقد جعل الضمير لما قصّا من الرؤيين على معنى : لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما إلا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما على قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت ، مرادا به الإخبار بالإستعجال فى التنبئة ، وأنت خبير بأن النظم الكريم ظاهر فى تعدد إتيان الطعام والإخبار بالتأويل وتجددهما ، وأن المقام مقام إظهار فضله فى فنون العلوم ، بحيث يدخل فى ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا ، وإنما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله ، لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالإنتظام فى سمط المحسنين ، وإنهما قد علما ذلك حيث قالا : ان نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجّها إلى قبول الحق ، فأراد أن يخرج أثر ذى أثير(١) عما فى عهدته من دعوة الخلق إلى الحق ، فمهد قبل الخوض فى ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شأنه ، وثقة بأمره ، ووقوفا على علو طبقته فى بدائع العلوم ، توسلا بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه . وقد تخلص إليها من كلامهما ، فكأنه قال : تأويل ما قصصتماه علىّ فى طرف التمام حيث رأيتما مثاله فى المنام ، وإنى أبين لكما كلّ جليل ودقيق من الأمور المستقبلة ، وإن لم يكن هناك مقدمة المنام حتى إن الطعام الموظف الذى يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل إتيانه ، ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والمرافين ، بل هو فضل إلهى يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال " ذلكما " أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ، ومعنى البعد فى ذلك للإشارة إلى علو درجته وبعد منزلته " مما علمنى ربى " بالوحى والإلهام ، أى بعض منه أو من ذلك الجنس الذى لا تحوم حول إدراكه العقول ، ولقد دلهما بذلك على أن له علوما جمة وما سمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها .. " اهـ .

٧) ووردت كذلك فى قوله جلا جلاله :

" قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين " ٤٤ : يوسف .

وواضح أن التأويل هنا هو حقيقة ما يصير اليه الحلم وعبارة أخرى تعبير الرؤيا .

---

(١) أثر : بوزن فاعل ، وافعل هذا أثر ذى أثير ، معناه : افعله أول كل شيء ، قاله ابن الأعرابى ، وتقول أثر أن يفعل كذا أى فضل واختار وانظر معجم المقاييس حـ ١ ص ٥٣ .

٨) وقولـــه عز من قائـــــل :

" وقال الذى نجا منهما وادكـــر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلـــــون "

٤٥ : يوســـف .

أى بتعبير هذه الرؤيا ، وحقيقة ما يصير إليه هذا الحلم .

٩) وقوله تبارك وتعالـــى :

" ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى مـــن قبل قد جعلها ربى حقا ... " ١٠٠ : يوسف ، أى ما آل إليه أمر الرؤيا الـــتى رأيتها فى يقاعتى ، أو هذا الذى نحن فيه من نعمة هو تصديق وتحقيق الرؤيـــا السابقة ، وعبارة ابن قيم الجوزية[1] " حقيقتها ومصيرها " .

١٠) وقوله لا اله إلا هو على لسان يوسف عليه الســـلام :

" رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث .. " ١٠١ : يوسف .

تعبير الرؤى ، والإخبار بالمغيبات .. والآية فى معنى الآية السادسة والآيـــة الحادية والعشرين من السورة " ومن للتبعيض لأنه لم يُؤْتَ كُلَّ التأويل "[2]

١١) وقوله له الأســـماء الحســـنى :

" وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويـــلا "

٣٥ : الإســـراء .

خير فى الدنيا وأحسن عاقبة فى الآخرة ، فيكون التأويل بمعنى المرجع أو العاقبة ، لأنه إذا آل أمر العباد إلى الله وجد الموفون للكيل والميزان العاقبة الحسنى ولهـــم مثل ذلك فى الدنيا من البركة ، ونماء المال ، والذكر الحســـن ....

١٢) وقوله سبحانه فى حوار النبيّين الكريمَيْن موسى والخضر عليهما الســـلام :ـ

" قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا " ٧٨ : الكهف ، وأخذ فى تبيان ما فعل ثم قال ماذكره المولى سبحانه " .. وما فعلته عن أمـــرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا " ٨٢ : الكهـف .

والمعنى سأخبرك بتفسير هذه الأمور التى أنكرتها ، أو سأرد لك هذه الأفعال ، " المنكرة " فى ظاهرها إلى دواعيها الحقيقية المشروعة ... ثم لما بين له الأمـــور ، وجلى له الحقائق المستترة ، عقب الخضر بقوله " وما فعلته عن أمرى " وإنما فعلـــه

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة حـ ١ ص ١١ .

(٢) انظر مثلا أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبى سعيد البيضاوى ص ٢٤٣ ط: البهية بالقاهرة .

بإطلاع العلام الخبير سبحانه لهذا العبد الكريم ، وأمره لهذا النبى المعلم أن يمتثل لما أمر .

وهنا نستطيع أن نقول : إن سر استعمال كلمة " التأويل " فى آيتى الكهف — فيما نرى — هو التعبير عن تفسير أمر مشكل ، وأى أشكال أكثر من هذه الأحداث التى راعت وروعت نبيا مرسلا مكلما وأنطقته بعبارات الإستنكار والدهش غير مرة ، وأخرجته عن الصبر الذى واعد به صاحبه ، لذلك كانت بداية حديث الخضر لموسى عليهما السلام " قال إنك لمن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما تُحط به خبرا " ٦٧ ، ٦٨ : الكهف ، وظل يردد على مسامع الكليم " قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا " ٧٢ ، ٧٥ : الكهف ، حتى كانت خاتمة جولاته مع الكليم أن فسر له المشكلات قائلا بعدها " ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا " ٨٢ : الكهف .

* * *

ووردت الكلمة " التأويل " فى سورتين مدنيتين فى قوله عز وجل :—

١٣) " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا " ٥٩ : النساء .

أى أحسن " عاقبة ومآلا " كما روى عن السدى وغيره ، أو أحسن جزاء كما قاله مجاهد "(١) وقال البيضاوى (٢) " .. عاقبة أو أحسن تأويلا من تأويلكم بلا رد "(٣) وكأن البيضاوى بهذا الرأى الأخير أراد أن يَحْمِلَ كلمة التأويل على المعنى الإصطلاحى الذى أقتره بها على ألسنة المتكلمين والفقهاء ، وهو تفسير بعيد عن سياق الآية فالتعبير فى معناها أن رد المتنازع فيه إلى الله ورسوله — ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر — خير لكم فى دنياكم وأحسن عاقبة وجزاء لكم فى أخراكم .

١٤) أما الآية التى آثرنا أن نجعلها محك الختام فهى قول الله جل جلاله :

" هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب " ٧ : آل عمران .

---

(١) انظر محاسن التأويل للقاسمى جـ٥ ص ١٣٤٧ .
(٢) فى أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ١٠٠ .
(٣) أى : بلا رد إلى الله ورسوله .

يقول ابن كثير[١] : " ... وابتغاء تأويله " أى تحريفه .. وعن مقاتل والسدى : يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن ... " وعند قوله سبحانه " وما يعلم تأويله إلا الله " يقول :[٢] " .. ومن العلماء من فصل فى هذا المقام وقال : التأويل يطلق ويراد به فى القرآن معنيان أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشىء وما يؤول أمره إليه ... والمعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشىء ... " .

وهذا الرأى الأخير قول ناقد ، ونقل حاذق .. ويقول البيضاوى[٣] " وابتغاء تأويله " طلب أن يؤولوه على ما يشتهونه ... " وما يعلم تأويله " الذى يجب أن يحمل عليه .. " ولنا مع هذه الآية الكريمة إن شاء الله عود قريب فى سعة .

ثمرة هذه الجولة :

وبعد هذا التتبع لكلمة التأويل تنتهى إلى أن المعانى التى وردت عليها الكلمة فى القرآن الكريم هى :-

١) المرجع والمآل والعاقبة ، وقريب منه من فسر التأويل بأنه : تحقيق الشىء وما يؤول أمره إليه .

٢) التفسير والبيان لأمر مشكل .

وكلها يمكننا إرجاعها إلى المعنى اللغوى الأم الذى سبق بيانه وهو " رد أو إرجاع شىء إلى أصل " .

كلمة التأويل
فى أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه

وردت كلمة التأويل فى عدد من أحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، نذكر منها ما يلى :-

١) ابن عباس رضى الله عنهما وعلم التأويل :

دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس بقوله : " اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل "[٤] . والذى أفهمه من معنى كلمة التأويل فى هذا الحديث هو : العلم بحقائق الأمور ، والفقه لسرائر الألفاظ ، ودقائق المعانى " فالتأويل

---

(١) تفسير القرآن العظيم حـ١ ص ٣٤٥ ط: الحلبى .
(٢) نفسه ص ٣٤٧ وهذا الذى ذكره ابن كثير بقوله " ومن العلماء " وجدناه فى غير موضع من كتب ابن تيميه وتلميذه ابن قيم الجوزيه . (٣) انظر تفسير آية آل عمران ص ٦٣ من البيضاوى . (٤) انظر تفسير ابن كثير حـ١ ص ٣٤٧ ط : الحلبى .

هنا ليس هو الفهم السطحي الإجمالي الظاهري ، لحرفية الألفاظ .

وليس هو كذلك صرف اللفظ عن ظاهره ، والعبث بدلالته عبثا يفقد اللغة مقوماتها التعبيرية ، ويجعل اللفظ رمزا لعديد من المعاني — يخترعها الهوى ويبتكرها الهوس.

وهذا الدعاء يتفق مع ما لقب به ابن عباس من أنه " ترجمان القرآن " لأن الترجمة نقل المعنى وبيانه ، ويتفق كذلك مع ما قاله ابن عباس عن نفسه [1] : " أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله " .

٢) تأويل القرآن على غير تأويله :

عن جندب بن عبد الله أنه بلغه عن حذيفة أو سمعه منه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر " أن في أمتي قوما يقرؤون القرآن ينثرونه نثر الدقل [2] يتأولونه على غير تأويله " أخرجه الحافظ أبو يعلى [3] . والمعنى يفسرونه على غير تفسيره .

٣) التحذير من تأويل الجاهلين :

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" يحمل هذا العلم من خلف عدوله : ينفون عنه : تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين " [4]

٤) التأويل في واقعة بئر أريس :

روى البخاري [5] بسنده : عن شريك بن أبي نمر عن سعيد بن المسيب قال : أخبرني أبو موسى الأشعري : أنه توضأ في بيته ثم خرج ، فقال : لألزمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأكونن معه يومي هذا ، قال : فجاء المسجد ، فسأل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا خرج ووجهه ههنا ، فخرجت على إثره ، أسأل عنه حتى دخل بئر أريس [6] ، فجلست عند الباب ، وبابها من جريد ، حتى قضى رسول

---

(١) انظر نفس المرجع والصفحة السطر الخامس .
(٢) الدقل : أردأ التمر والمعنى لا يرتلونه ترتيل المتدبرين الخاشعين .
(٣) انظر تفسير ابن كثير حـ١ ص ٣٤٧ ط : الحلبي ، وروى ابن كثير أحاديث أخرى أمسكنا عنها لضعف أسانيدها .
(٤) أخرجه ابن عدي من طرق ، وحسنه الحافظ العلائي ... ولم يسلم اسناده من مغامز عند بعض المحدثين .
(٥) انظر البخاري بحاشيه السندي جـ٤ ص ١٩٩ ط : الحلبي .
(٦) أريس : بفتح الهمزة وكسر الراء بستان ، والمعنى بئر بستان بقرب قباء . (انظر هامش المرجع السابق) .

الله حاجته ، فتوضأ ، فقمت إليه ، فإذا هو جالس على بئر أريس ، وتوسط قُفَّها [1] ، وكشف عن ساقيه ، ودلاهما فى البئر ، فسلمت عليه ثم انصرفت ، فجلست عند الباب ، فقلت لأكونن بواب رسول الله اليوم ، فجاء أبو بكر فدفع الباب ، فقلت من هذا ؟ فقال : أبو بكر ، فقلت على رسلك ، ثم ذهبت فقلت : يا رسول الله ، هذا أبو بكر يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فأقبلت حتى قلت لأبى بكر : ادخل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبشره بالجنة ، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله معه فى القُفّ ، ودلى رجليه فى البئر ، كما صنع النبى ، وكشف عن ساقيه ، ثم رجعت فجلست ، وقد تركت أخى يتوضأ ويلحقنى ، فقلت : إن يرد الله بفلان خيرا - يريد أخاه - يأت به ، فإذا إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عمر بن الخطاب ، فقلت : على رسلك ، ثم جئت إلى رسول الله فسلمت عليه ، فقلت : هذا عمر بن الخطاب يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فجئت فقلت : ادخل وبشرك رسول الله بالجنة ، فدخل فجلس مع رسول الله فى القُفّ عن يساره ، ودلى رجليه فى البئر ، ثم رجعت فجلست ، فقلت : إن يرد الله بفلان خيرا يأت به ، فجاء انسان يحرك الباب ، فقلت من هذا ؟ فقال : عثمان بن عفان ، فقلت : على رسلك ، فجئت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة - على بلوى تصيبه [2] - ، فجئته ، وقلت له : ادخل وبشرك رسول الله بالجنة على بلوى تصيبك ، فدخل ، فوجد القُفّ قد ملئ ، فجلس وجاهه [3] من الشق الآخر ، قال شريك : قال سعيد بن المسيب : فأولتها قبورهم "

قال الشيخ الأنصارى فى تعقيبه على عبارة ابن المسيب " فأولتها قبورهم " أى من جهة أن الشيخين مصاحبان له فى الحضرة المباركة ، وأما عثمان ففى البقيع مقابلا لهم " . (٤)

فالتأويل هنا فى عبارة سعيد بن المسيب شبيه بتأويل الرؤيا وهى حقيقتها التى تصير إليها ، وهو يرى أن هذا المشهد الواقعى كان إرهاصا أو إخبارا بما وقع بعد ذلك فى مكان قبور الأصحاب الثلاثة : رضوان الله عليهم من قبر النبى صلى الله عليه وسلم .

انطلاق المقريزى من تأويل حديث البئر إلى تأويلات أخرى :

أتخذ المقريزى من حديث البئر المشار إليه آنفا ، مستندا له فى عدد من التأويلات

---

(١) قُفَّها بالقُفّ - بضم القاف وتشديد الفاء - الحافة - وقد ذكر بئر أريس هذا فى عديد من المراجع وأورده الشيخ جمال الدين محمد بن أحمد المطرى فى كتابه "التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة" والكتاب تم تأليفه ٦٩٠ هـ ص ٥٦ ، ٥٧ وهو البئر الذى سقط فيه خاتم الرسول (ص) حين كان فى يد عثمان

(٢) هذه العبارة : فيها إخبار لعثمان رضى الله عنه بالمحنة التى انتهت باستشهاده ، وهى من دلائل نبوة الصادق المصدوق صلوات الله عليه .

(٣) وجاهه بكسر الواو - أى مقابله .

(٤) انظر هامش البخارى حـ٣ ص ١٩٩ .

مبينا أنه ليس إلا متبعا ، وذلك في قوله[1] : " ولي بحمد الله في هذا النحو خير سلف ، وأجل قدوة ، منهم : سعيد بن المسيب رحمه الله ثم ذكر حديثه الثابت في الصحيحين ، إلى قوله : فتأولت ذلك قبورهم " .

وهاك بعض تأويلاته :

أ - عُمُر رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] :

ثبت في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه حول حجة الوداع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر في حجته هذه ثلاثا وستين بدنة ، فتأول المقريزي ذلك بقوله :-

" فكان في نحره هذا العدد من البدن إشارة إلى أن مدة حياته صلى الله عليه وسلم ، : " ثلاث وستون سنة " . وهذا الصنيع من المقريزي في الربط بين الحادثتين لا يخلو من تكلف والتأويل على هذا النحو ليس إلا نوعا من التعسف .

ب - خلافة الصديق أبي بكر رضي الله عنه :

وثبت من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أمَنّ الناس عليّ في صحبته وماله : أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا إلا خلة الإسلام ، لاتبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر " .

فأوّل المقريزي هذا العمل بقوله[3] : " فكان أمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بابقاء خوخة أبي بكر في المسجد ، مع منع الناس من ذلك اشارة ودليلا على خلافته من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه للناس بأن أبا بكر رضي الله عنه يصير إمامَ المسلمين ، ويخرج من بيته إلى المسجد كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج " وقد أستأنس المقريزي بتأويله هذا بأن ابن بطال قد ذكره ، ولو كان هذا التأويل صحيحا[4] لما غاب عن فقهاء الصحابة الذين بايعوا الصديق بالخلافة ، وأقوى منه في الإستدلال ما ذكره هو وغيره بقوله : " وقد جعل جمهور الصحابة رضي الله عنهم استخلاف أبا بكر رضي الله عنه في الصلاة وهو مريض دليلا وإشارة إلى أنه الخليفة من بعده ، وقالوا قد رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٢٦١) انظر كتاب " النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم " لأبي العباس: أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي بتصحيح محمود عرنوس : القاضي بالمحاكم الشرعية ط : القاهرة ص ٦٤ .

(٣) انظر النزاع والتخاصم ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٤) هذا الإعتراض من كاتب هذه الرسالة .

لدينا أفلا نرضاه لدنيانا " أ هـ .

والأدلة على صحة خلافة الصديق كثيرة لكنها لا تتعلق ببحثنا هذا ، وخلاف الرافضة لا وزن لـــه .

حـ ـ ملـــك بـــنى أميـــة :

وتأول المقريزى لقيام ملك بنى أمية بقوله[1] : " وقد ظهر لى أن ولاية بنى أميـة الأعمال كانت اشارة منه صلى الله عليه وسلم أن الأمر سيصير إليهم " أ هـ . وهـــذا التأويل من المقريزى غير صحيح فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعـــمال لرجال خير من بنى أمية ، وما كان لهم من بعده من ملك ولا إمارة ، ومنهم مـــن استشهد فى حياته صلى الله عليه وسلم ، وإنما حذر رسول الله صلى الله عليه وســـلم من الملك المضوضـــى وكذلك كان ملك بنى أميـــة .

٥) تأويل اللبـــن بالعلـــم :

روى البخارى بسنده[2] : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أنـــا نائم شربت ـ يعنى اللبن ـ حتى أنظر إلى الـرى يجرى فى أظفارى ، ثم ناولتـــه عمر ، قالوا : فما أولته يا رسول الله ؟ قال : العلـــم " .

٦) تأويل القميص بالديـــــن :

روى البخارى بسنده[3] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعـــت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينا أنا نائم رأيت الناس عُرضوا علىّ ، وعليهـــم قمص ، فمنها ما يبلغ الثدى ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ، وعرض على عمر ، وعليـــه قميص يجره ، قيل : فما أولته يا رسول الله ؟ قال : الدين " .

٧) تأويل " أو يلبســـكم شيعا " :

عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية : " قل هـــو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعـــا ويذيق بعضكم بأس بعض أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون " ٦٥ : الأنعام .

---

(١) انظر النزاع والتخاصـــم ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) انظرها هامش البخارى حـ ٤ ص ٢٠٠ .
(٣) نفســـه ص ٢٠١ .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد "[1].

والمعنى - والله أعلم - أن أنواع العذاب المتوعد بها في هذه الآية كائنة في قدر الله الأعلى ، ولم يأت أوان تأويلها أي : وقت وقوعها وتحقيقها على النحو الذي أخبرت به الآية .

٨) تأويل الدار بالجنة والداعي بالرسول صلى الله عليه وسلم :

روى البخاري بسنده[2] عن جابر بن عبد الله أنه قال : " جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة ، وبعث داعيا ، فمن أجاب الداعي دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا : أولوها له يفقهها ، فقال بعضهم : انه نائم ، وقال بعضهم : ان العين نائمه والقلب يقظان ، فقالوا : فالدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن أطاع محمدا صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله ومن عصى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله ... " .

---

(١) هذا الحديث أخرجه أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وانظر تفسير ابن كثير في هذه الآية ، وتفسير الشوكاني حـ٢ ص١٢٧ ، وقد أورد المحدثون والمفسرون حول هذه الآية أحاديث أخرى لوست محلا لموضوعنا هذا ، أنظر مثلا البخاري حـ٣ ص ٩٢ .

(٢) البخاري وحاشية السندي حـ٤ ص ١٨١ ط : الحلبي .

التأويل
في عهد الصحابة والتابعين

١) تسبيح الرسول صلوات الله عليه متأولا للقرآن :

عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت :
" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يكثير أن يقول في ركوعه وسجوده " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلي " يتأول القرآن " رواه البخاري . وقال ابن كثير[1] أخرجه بقية الجماعة إلا الترمذي .

فالتأويل هنا تحقيق أو تطبيق أمر القرآن في قوله تعالى : " .. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا " ٣ : النصر .

فالمقصود بقولها رضي الله عنها يتأول القرآن أي يفعل ما أمره به ربه جل ذكره من التسبيح في سورة النصر فصيغة هذا الدعاء هي معنى آية النصر وعمل بمقتضاها[2] .

٢) تأول أم المؤمنين عائشة وأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنهما في قصر الصلاة :

روى عروة بن الزبير بن العوام حديث السيدة عائشة رضي الله عنها[3] : " فرضت الصلاة مثنى مثنى أو (ركعتين ركعتين) فأقرت في السفر وزيدت في الحضر " فقيل له : فما بال عائشة أتمت في السفر؟ قال : تأولت كما تأول عثمان " يقول ابن قيم[4] " وليس مراده أن عائشة وعثمان تأولا آية القصر على خلاف ظاهرها ، وإنما مراده أنهما تأولا دليلا قام عندهما اقتضى جواز الإتمام فعملا به ، فكان عملهما به هو تأويله ، فإن العمل بدليل الأمر هو تأويله ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول قوله تعالى " فسبح بحمد ربك واستغفره " .

وتشبيه تأويل أم المؤمنين وذي النورين في إتمام الصلاة بتأويل رسول الله صلى الله عليه وسلم في التسبيح مسألة لا تتفق عليها وجهات النظر وإلا لما وجد من يخالفهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر تفسيره ص ٥٦٣ ط: الحلبي ، وانظر كذلك سنن النسائي بشرح السيوطي حـ١ ص ٢٢١ ط: التراث ببيروت .
(٢) انظر شرح السيوطي على النسائي جـ١ ص ٢٢٠ وانظر كذلك تفسير القرطبي حـ٢٠ ص ٢٣١ .
(٣) حديث السيدة عائشة رضي الله عنها رواه البخاري حـ٢ ص ٥٥ ط: الشعب من رواية ابن شهاب الزهري ، عن عروة بن الزبير وهو ابن السيدة أسماء وأخت السيدة عائشة رضي الله عنهم جميعا . (٤) انظر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة حـ١ ص ١٣ - ١٤ .

وتفسير رضيعهما كما قال ابن القيم نفسه :(١)

" تأولت عائشة أنها أم المؤمنين وأن أمهم حيث كانت فكأنها مقيمة بينهم ، وأن عثمان كان إمام المسلمين فحيث كان فهو منزله ، أو أنه كان قد عزم على الإستيطان بمنى ، أو أنه كان قد تأهل بها ، ومن تأهل ببلد لم يثبت له حكم المسافر ، أو أن الأعراب كانوا قد كثروا في ذلك الموسم فأحب أن يعلمهم فرض الصلاة وأنها أربع ، أو غير ذلك من التأويلات التي ظنّاها أدلة مقيدة لمطلق القصر ، أو مخصصة لعمومه .

ثم يحكم ابن القيم على هذه التأويلات التي ذكرها بقوله : " وإن كانت كلها ضعيفة . والصواب هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان إمام المسلمين ، وعائشة أم المؤمنين في حياته ومماته وقد قصرت معه(٢) ، ولم يكن عثمان ليقيم بمكة وقد بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما رخص في الإقامة بها للمهاجرين بعد قضاء نسكهم ثلاثا ، وللمسافر إذا تزوج في طريقه لم يثبت له حكم الإقامة بمجرد التزوج ما لم يزمع الإقامة .

وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة هو التأويل الصحيح وغيره هو الفاسد " أ هـ .

تعقيب :

وهذا الإتمام من أم المؤمنين ، وأمير المؤمنين عثمان ، هو اجتهاد في فهم بعض نصوص " قصر الصلاة " .. وأحسب أن هذا الاجتهاد المرجوح هو خطوة على طريق " التأويل " الذي عرف فيما بعد عن الفقهاء ، وقد يكون نوعا من " التأويلات العملية " وهو تأويل في الفروع الذي يتسع فيها مجال الخلاف ... لأنها قائمة على الظن الراجح لا على اليقين والقطع ... والله أعلم بالصواب ، والكمال لله وحده ، والعصمة لأنبيائه ورسله .

رأي عبد الله بن مسعود في تأويل عثمان رضي الله عنهما :

وقد أخرج البخاري(٣) من رواية عبد الرحمن بن يزيد قال : صلى بنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بمنى أربع ركعات ، فقيل ذلك لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فاسترجع

---

(١) انظر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة حـ١ ص ١٤ .

(٢) هذا رد من ابن القيم على تأولها رضي الله عنها لإتمامها الصلاة لأنها أم المؤمنين ، نبين أن هذه الأمومة الكريمة ثابتة لها في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومماته ، وكانت تقصر الصلاة خلفه إذا صلى في السفر وهذا الرأي ليس من عنده ابن القيم وإنما هو من احتجاج الأصحاب رضوان الله عليهم الذين خالفوها في الإتمام .

(٣) انظر البخاري حـ٢ ص ٥٣ ط : الشعب .

ثم قال صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ركعتين ، وصليت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمنى ركعتين ، فليت حظى من أربع ركعات ركعتان متقبلتان " أ هـ

واسترجاع ابن مسعود رضى الله عنه دال على إنكاره ، ومع ذلك فقد أتم كما أتم الناس خلف عثمان ، ولما قيل له فى ذلك قال : " الخلاف شر كله " .

وهذا عبد الله بن عمر وهو من أشد تأسيا بهدى الرسول صلى الله عليه وسلم يتم خلف عثمان ، فقد روى البخارى [1] بسنده .. عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : " صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم بمنى ركعتين وأبى بكر وعمر ومع عثمان صدرا من إمارته ثم أتمها " .

فعثمان رضى الله عنه قصر ، وأما إتمامه فتنزه الرجل الكريم أن يكون هوى أو إبتداعا وإنما هو الإجتهاد ... لا يريد إلا وجه الله سبحانه ... وسواء أصاب أو أخطأ فهو مأجور إن شاء الله .

مناقشة القرطبى للمسألة :

ولسنا نرى من الإطالة على القارىء أن ننقل ما قاله القرطبى [2] جامعا لكثير من الروايات والآراء بادئا مناقشته لقول عروة " تأولت كما تأول عثمان " بقوله " وهذا جواب ليس بموعب " ثم قال : " وقد اختلف الناس فى تأويل إتمام عثمان وعائشة رضى الله عنهما على أقوال : فقال معمر عن الزهرى : إن عثمان رضى الله عنه : إنما صلى بمنى أربعا لأنه أجمع على الإقامة بعد الحج ، وروى مغيرة عن إبراهيم أن عثمان صلى أربعا لأنه اتخذها وطنا . وقال يونس عن الزهرى قال : لما اتخذ عثمان الأموال بالطائف وأراد أن يقيم بها صلى أربعا ، قال : ثم أخذ به الأئمة بعده . وقال أيوب عن الزهرى : إن عثمان بن عفان : أتم الصلاة بمنى من أجل الأعراب ، لأنهم كثروا عامئذ فصلى بالناس أربعا ليعلمهم أن الصلاة أربع . ذكر هذه الأقوال كلها أبو داود فى مصنفه فى كتاب " المناسك " فى باب الصلاة بمنى . وذكر أبو عمر فى (التمهيد) قال : ابن جريج : وبلغنى إنما أوفاها عثمان أربعا بمنى من أجل أن أعرابيا ناداه فى مسجد الخيف بمنى فقال : يا أمير المؤمنين ، ما زلت أصليها ركعتين منذ رأيتك عام الأول ، فخشى عثمان أن يظن جهال الناس أنما الصلاة ركعتان . قال ابن جريج : وإنما أوفاها بمنى فقط . قال أبو عمر : [3] وأما التأويلات فى إتمام عائشة : ليس منها شىء يعرى

(١) انظر البخارى جـ٢ ص ٥٣ " باب ما جاء فى التقصير " .
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ٥ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .
(٣) هو ابن عبد البر صاحب "الإستيعاب" و " التمهيد " وقد سبق ذكره .

عنها ، وإنما هي ظنون وتأويلات لا يصححها دليل . وأضعف ما قيل في ذلك : أنها أم المؤمنين ، وأن الناس حيث كانوا هم بنوها ، وكانت منازلهم منازلها ، وهل كانت أم المؤمنين إلا أنها زوج النبي أبي المؤمنين صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي سن القصر في أسفاره وفي غزواته وحجه وعمره . وفي قراءة أبي بن كعب ومصحفه " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم [1] " . وقال مجاهد في قوله تعالى : " وهؤلاء بناتي هن أطهر لكم " قال : لم يكن بناته ولكن كن نساء أمته ، وكل نبي فهو أبو أمته .

قلت : وقد اعترض على هذا بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان مُشَرِّعاً ، وليست هي كذلك فانفصلا [2] . وأضعف من هذا قول من قال : إنها حيث أتمت لم تكن في سفر جائز ، وهذا باطل قطعا ، فإنها كانت أخوف لله وأتقى من أن تخرج في سفر لا يرضاه . وهذا التأويل عليها من أكاذيب الشيعة المبتدعة وتشنيعاتهم ، سبحانك هذا بهتان عظيم ! وإنما خرجت رضي الله عنها مجتهدة محتسبة تريد أن تطفئ نار الفتنة ، إذ هي أحق أن يُستحيا منها فخرجت الأمور عن الضبط . وسيأتي بيان هذا المعنى إن شاء الله تعالى . وقيل : إنها أتمت لأنها لم تكن ترى القصر إلا في الحج والعمرة والغزوة . وهذا باطل ؛ لأن ذلك لم يُنقل عنها ولا عُرف عن مذهبها ، ثم هي قد أتمت في سفرها إلى علي . وأحسن ما (قيل) في قصرها وإتمامها أنها أخذت برخصة الله ، لترى الناس أن الإتمام ليس فيه حرج وإن كان غيره أفضل . وقد قال علماء : القصر سنة ورخصة ، وهو الراوي عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صام وأفطر وأتم الصلاة وقصر في السفر ، رواه طلحة بن عمر . وعنه قال : كل ذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صام وأفطر وقصر الصلاة وأتم . وروى النسائي بإسناد صحيح أن عائشة اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة (حتى إذا قدمت مكة) قالت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي اقصرت وأتممت وأفطرت وصمت ؟ فقال : " أحسنت يا عائشة " وما عابني . كذا هو مقيد بفتح التاء الأولى وضم الثانية في الكلمتين . وروى الدارقطني عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقصر في السفر ويتم ويفطر ويصوم ، قال إسناده صحيح " اهـ . وفيما ذكره القرطبي ما يكفي ويشفي .

٣) تأويل خاطئ لقوله تعالى : " لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " :

قول الله جل ذكره : " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون " ١٠٥ : المائدة .

(١) هذا تفسير من أُبَيّ بن كعب وليس قراءة قرآنية . (٢) أي في أحكام القصر .

فهم بعض المسلمين أن هذه الآية الكريمة ترفع عنهم مسئولية الأمر بالمعروف وتبعات النهى عن المنكر ، وأراد الصديق رضى الله عنه أن يبين لهم خطأ هذا الفهم كما تبين لنا ذلك الرواية الآتية :

روى أبو داود والترمذى[1] وغيرهما عن قيس قال : خطبنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : إنكم تقرءون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها " يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح "[2].

تفسير ابن مسعود لهذه الآية :

روى عن ابن مسعود فى تفسير هذه الآية أنه قال[3] : " ليس هذا زمان هذه الآية ، قولوا الحق ما قبل منكم ، فإذا رد عليكم فعليكم أنفسكم . وقيل لابن عمر فى بعض أوقات الفتن : لو تركت القول فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا : " ليبلغ الشاهد الغائب " ونحن شهدنا فيلزمنا أن نبلغكم وسيأتى زمان إذا قيل فيه الحق لم يقبل " .

وروى ابن كثير[4] فى تفسيرها : " كان بين رجلين بعضهما يكون بين الناس[5] ، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه ، فقال رجل من جلساء عبد الله بن مسعود ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ، فقال آخر إلى جانبه عليك بنفسك فإن الله يقول : عليكم أنفسكم " الآية فسمع مقالته عبد الله بن مسعود فقال[6] :

" مَهْ ، لم يجىء تأويل هذه بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ، ومنه آى قد مضى تأويلهن[7] قبل أن ينزلن ، ومنه آى قد وقع تأويلهن[8] على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، بيسير ، ومنه

---

(١) وانظر كذلك تفسير القرطبى حـ٦ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .
(٢) قال القرطبى مدافعا عن رفع هذا الحديث : " قال اسحاق بن ابراهيم سمعت عمرو بن على يقول سمعت وكيعا يقول : لا يصح عن أبى بكر عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا حديث واحد ، قلت : ولا اسماعيل عن قيس ، قال : إن اسماعيل روى عن قيس مرفوعا " ... وأبو عيسى هو الترمذى . (٣) انظر القرطبى حـ٣ ص ٣٤٣ .
(٤) انظر تفسير ابن كثير حـ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ ط ؛ الحلبى .
(٥) من التنازع والملاحاة . (٦) نقل هذه الرواية ابن كثير — كما سبق — عن ابن جرير الطبرى .
(٧) كأخبار الأمم الماضية .
(٨) كقوله تعالى : " غلبت الروم ... " الآية وما هو على شابهها .

أى يقع تأويلهم بعد اليوم ، ومنه أى تأويلهن عند الساعة : ما ذكر من الساعة ، ومنه أى يقع تأويلهن يوم الحساب : ما ذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم واحدة ، وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعا ، ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمروا وانهوا ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء ، وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض ، فأمروا ونفسه ، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية " أ هـ .

والذى نفهمه : من قول أبى بكر رضى الله عنه : " تتأولونها على غير تأويلها " أن تفسرونها على غير تفسيرها " أو كما ورد فى رواية " الإمام أحمد عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس قال : " قام أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال أيها الناس إنكم تقرؤن هذه الآية ... وإنكم تضعونها على غير موضعها ... "[1] ومعنى تضعونها على غير موضعها : أى تفهمونها على غير وجهها من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وأما كلمة " التأويل " التى تكررت فى حديث ابن مسعود سالف الذكر فجلىٌّ أن مراده من التأويل : وقوع حقيقة الشىء المخبر به ، ومما يؤكد هذا حديثه عن الآيات التى أخبرت عن الغيب الماضى كأخبار الأمم الماضية ، والغيب المستقبلى بأنواعه ، ومنها ما وقع بعد نزول القرآن ، وما سيقع عند قيام الساعة وفى الآخرة .

ومما يؤكد هذا المعنى الذى ذهبنا إليه من معانى التأويل ما رواه ابن كثير[2] من طريق قتادة عن أبى ماذن قال : " انطلقت على عهد عثمان رضى الله عنه إلى المدينة ، فإذا قوم من المسلمين جلوس نقرأ أحدهم هذه الآية ... فقال أكثرهم لم يجىء تأويل هذه الآية اليوم " أ هـ .

والمعنى لم يجىء الزمن الذى تستعر فيه الفتن ، ويرى فيه المسلم : الشح مطاعا ، والهوى متبعا ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه[3] ، فحينئذ على المسلم أن يكون كما قال رسول صلى الله عليه وسلم : "كن جليس بيتك وعليك بخاصة نفسك"[4] .

---

(١) وانظر كذلك ابن كثير جـ٢ ص ١٠٩ .
(٢) انظر تفسيره جـ٢ ص ١١٠ ط: الحلبى .
(٣) اقتباس من الحديث النبوى بمقارب ألفاظه .
(٤) ذكره القرطبى فى تفسيره جـ٦ ص ٣٤٤ ولم يذكر أوله ولا إسناده .

٤) التأويل في حديث جابر بن عبد الله عن حجة النبي صلى الله عليه وسلم :

ورد في هذه الرواية التي [1] رواها جابر عن صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله وما عمل من شيء عملنا به ... " .

والذي يسترعي النظر من ألفاظ هذه الفقرة الوجيزة كثير ، فهو يقول :

أولا : " ورسول الله بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن " : فهي تفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم : لا يفصل إلا ما يأمره به ربه ، وهذا مقام عظيم من العلم لا نفصل فيه القول .

ثانيا : قوله : " وهو يعرف تأويله " : يعني يعرف تفسيره ، ويعرف حقيقة المراد من أوامره فكلمة (التأويل) في هذا الموضع من مواضع التطبيق العملي لأوامر القرآن لا تغني عنها كلمة التفسير التي قد تفيد البيان العلمي ، وتأمل مرة أخرى قولة جابر وهو يعرف تأويله فجابر وهو عربي قح لا تشوب عروبته عجمة يبين أنه لا يستطيع بفهمه للسان العربي أن يستقل بفهم القرآن دون بيان نبي الرحمن مع أن جابر بن عبد الله من علماء الصحابة ، وهذا يبين ضلال الفرق المارقة التي تطرح السنة وراءها ظهريا ، وتتخذ بيان الرسول صلى الله عليه وسلم مهجورا .

ثالثا : قوله : " وما عمل به من شيء عملنا به " أفادت : أن الإسلام ليس معرفة نظرية ، وإنما هو علم وعمل ، والعمل قائم على " التأسي والاقتداء " .

٥) تأويل خاطئ حول السعي بين الصفا والمروة :

لقول الله جل ذكره " إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم " ١٥٨ : البقرة ، دلالة فهمت على غير وجهها ، وبينت وجه الحق في تأويلها أم المؤمنين : عائشة رضي الله عنها ، فهذا عروة يقول لخالته السيدة عائشة [2] " .. فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما " فقالت رضي الله عنها له " بئس ما قلت يا ابن أختي : إن هذه لو كانت

---

(١) حديث جابر عن حجة النبي حديث طويل أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد والبيهقي والدارمي وانظر في رواياته ص ٤١ : ٤٥ من كتاب حجة النبي للشيخ محمد ناصر الدين الألباني الطبعة الثالثة وقد أفرد بعض العلماء قديما وحديثا لهذه الحديث تآليف مستقلة . (٢) انظر البخاري حـ٢ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ط : الشعب .

كما أوّلتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما ، ولكنها أنزلت فى الأنصار : كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المشلل ، فكان من أهلّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة . فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، قالوا يا رسول الله : إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى : " إن الصفا والمروة من شعائر الله " الآية قالت عائشة رضى الله عنها : وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما . ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال : إن هذا لعلم ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس — إلا من ذكرت عائشة : ممن كان يهل بمناة ، كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة ، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة فى القرآن ، قالوا يا رسول الله : كنا نطوف بالصفا والمروة ، وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا ، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى : " إن الصفا والمروة من شعائر الله " الآية ، قال أبو بكر[1] : فأسمع هذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما : فى الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا فى الجاهلية بالصفا والمروة ، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت " أ هـ .

* * *

كانت هذه الروايات السابقة عن التأويل ، وبعضها لا يحمل من التأويل إلا ورود كلمة التأويل ، وبعضها تأويلات فقهية تختلف فيها وجهات النظر كتأويل عائشة وعثمان رضى الله عنهما ، وبعض آخر تأويلات خاطئة لا يظهر فيها تعمد الخطأ ، أو الميل مع الهوى ، وقام خيار الأصحاب فبينوا وجه الحق فى المسألة ، ولكن هناك نوعا آخر من التأويلات سنعرض له فيما يلى :—

انحراف التأويل مع قطعية الدليل : [2]

كان آخر ما نزل فى شأن الخمر هو قوله تعالى :

" يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون " ٩٠ ، ٩١ : المائدة .

---

(١) هو أبو بكر بن عبد الرحمن الذى سلف ذكره فى أول هذا الحديث رضى الله عنه .

(٢) هذا العنوان قريب من عبارة للشاطبى فى الموافقات حـ١ ص ٩٦ وهى " المخالفة بالتأويل مع المعرفة بالدليل " .

وكان هذا النص بألفاظه ، وترتيب نزوله ، وتطبيق الأصحاب له بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، قاطعا[1] بالحرمة الأبدية للخمر ... ولكن بعض النفوس عاودها الحنين للخمر ، فشربته ، وكشف أمرها ورفع إلى أمير المؤمنين عمر ، وكان من هذه القلة القليلة صحابي مجاهد هو قدامة بن مظعون استزله الشيطان إلى احتساء الخمر ، فتأول قوله تعالى : " ليس على الذين آمنوا جناح فيما طعموا ... " ٩٣ : المائدة ، تأويلا يقطع الدليل والإجماع ببطلانه ... وبين له عمر وجه الحق في المسألة وأقام عليه الحد ، على النحو الذي بيناه في فصل سابق[2] وحكى القرطبي[3] تأويلا فاسدا آخر لهذه الآية الكريمة ، فقال : " وروى عن علي رضي الله عنه أنهم شربوا بالشام ، وقالوا : هي لنا حلال فأجمع علي وعمر على أن يستتابوا[4] ، فإن تابوا وإلا قتلوا ، ذكره الكيا الطبري " أهـ .

ووردت رواية أخرى في بعض المراجع التاريخية[5] حول هذا الموضوع وموجزها : أن نفرا من المسلمين بالشام — على عهد عمر رضي الله عنه — شربوا الخمر ، وتأولوا قول الله جل ذكره : " إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون " ٩١ : المائدة ، وقالوا : إن الله خيرنا فاخترنا ، ولم يحرم علينا ... فكتب أبو عبيدة بن الجراح — وكان واليهم بالشام — إلى أمير المؤمنين عمر بذلك ، فأجابه عمر : " فذلك بيننا وبينهم " فهل أنتم منتهون " يعني : انتهوا وأمرهم بدعوتهم " فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم ، وإن أقروا أنها حرام فاجلدهم ثمانين جلدة " .. فأقروا بحرمتها ، وجلدوا ...

ويعقب القرطبي[6] على هذه التأويلات بقوله : " هذا من أفسد تأويل " .

---

(١) انظر فصل التكامل الموضوعي من هذه الرسالة ، وانظر القرطبي حـ٦ ص ٢٨٥ ومابعدها وابن كثير حـ٢ ص ٩١ ومابعدها ط : الحلبي .

(٢) انظر فصل الأصحاب ومنهجهم في التفسير في هذه الرسالة ، وانظر القرطبي حـ٦ ص ٢٩٧ .

(٣) انظر القرطبي حـ٦ ص ٢٩٩ .

(٤) سر الإستتابة : هو أنهم استحلوا محرما ، واستحلال الحرام كفر يبيح للإمام المسلم دم هذا المستحل .

(٥) انظر تاريخ الطبري حـ٤ ص ٩٦ ، ٩٧ بتصرف .

(٦) انظر القرطبي حـ٦ ص ٢٩٩ .

معركة التأويل بين المسلمين فى صفين :—

كان الصحابى الجليل عمار بن ياسر وهو من هو سابقة وإخلاصا وبلاءً فى سبيل الله يتقدم جيش أمير المؤمنين : على رضى الله عنه فى موقعة (صفين) وقد جاوز الرابعة والتسعين من عمره المبارك وكان يترنم أثناء القتال بقوله :

" نحن ضربناكم على تنزيله .. فاليوم نضربكم على تأويله

ضربا يزيل الهام عن مقيله .. ويذهل الخليل عن خليله [1] "

وكان عمار — رضى الله عنه — وهو من السابقين الصادين — يشير إلى أنه قاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين لأنهم كانوا يجحدون التنزيل ويكفرون بالقرآن زاعمين أنه ليس من عند الله ، وكان عمرو ومعاوية وقتها على شركهما — لم يدخلا فى دين الله بعد .

وها هو عمار يعيد الكرة لتكون المعركة معهم اليوم معركة على التأويل ولم يكن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وإنما صرفا عمليا لأحكام الإسلام فى الشورى والخلافة والبيعة حتى تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضود قائم على السيف .

ولقد استشهد عمار رضى الله عنه فى هذه الوقعة الأسيفة وكان استشهاده هذا يجب أن يكون حكما فيصلا فى الخلاف ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال (فيما رويته عنه أم سلمة) : " تقتل عمارا الفئة الباغية " قال عوف [2] : " ولا أحسبه إلا قال : وقاتله فى النار [3] " ومع ذلك فلم يستطع أحد من الشاميين أن يكذب هذا الحديث ، وإنما أعملوا فيه سلاح التأويل المغالط ، فقد أخرج ابن سعد [4] من رواية عبد الله بن الحارث قال : " إنى لأسير مع معاوية فى منصرفه عن صفين بينه وبين عمرو ابن العاص فقال : فقال عبد الله بن عمرو : يا بت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار : ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية ، قال : فقال عمرو لمعاوية : ألا تسمع ما يقول هذا ؟ قال .

فقال معاوية : ما تزال تأتينا بهنة تدحض بها فى بولك ، فأنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به " .

---

(١) انظر المختصر فى أخبار البشر تأليف عماد الدين إسماعيل أبى الفداء المتوفى ٧٣٢ جـ ١ ص ٧٦ ط الحسينية بالقاهرة ، وعنها صورة مصورة بيروتية . وقد وهم الزمخشرى فى أساس البلاغة ص ٢٥ حين نسب هذين البيتين إلى الصحابى الجليل عبد الله بن رواحه شهيد مؤته .. ومعارك التأويل كانت فى نهاية عصر الراشدين

(٢) عوف هو عوف الأعرابى راوى الحديث عن الحسن عن أمه عن أم سلمة وقوله ولا أحسبه يعنى الحسن رضى الله عنه .

(٣) انظر الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد جـ ٣ ق ١ ص ١٨٠ ط : التحرير .

(٤) نفسه ص ١٨٠ ، ١

وهناك روايات كثيرة تؤكد هذا المعنى ، ويتكرر فيها هذا التأويل ، فمن هُنَيٍّ[1] مولى عمر بن الخطاب قال : " كنت أول شيء مع معاوية على فكان أصحاب معاوية يقولون "لا والله لانقتل عمارا أبدا ، إن تقتلناه فنحن كما يقولون ، فلما كان يوم صفين ذهبت أنظر في القتلى ، فإذا عمار بن ياسر مقتول ، فقال هُنَيٌّ : فجئت إلى عمرو بن العاص وهو على سريره فقلت : أبا عبد الله ، قال ، ماشأنك ، قلت : انظر أكلمك ، فقام إليّ فقلت : عمار بن ياسر ماسمعت فيه ؟ فقال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تقتله الفئة الباغية ، فقلت : هو ذا والله مقتول ، فقال : هذا باطل ، فقلت : بَصُرَ عيني به مقتول قال : فانطلق فأرنيه . فذهبت به فأوقفته عليه فساعة رآه انتفخ لونه ، ثم أعرض في شق وقال : إنما قتله الذي جاء به " .

ويصف ابن القيم [2] هذا التأويل بأنه هو التأويل الباطل " وهو مخالف لحقيقة اللفظ وظاهره ، فإن الذي قتله هو الذي باشر قتله لا من استنصر به ، ولهذا رد عليهم من هو أولى بالحق والحقيقة منهم فقال : أفيكون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه هم الذين قتلوا حمزة والشهداء معه !! ... "

. . .

هذه بعض روايات التأويل وصوره وحادثاته التي وقعت في عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سقنا لنا تاريخا للتأويل وبيانا واهتداءً واعتبارا .

التـــأويـــل
في عهد التابعين رضوان الله عليهـــم

بدأت التأويلات المستكرهة ، وتحميل النصوص مالا تحتمله من المعاني ، تعرف طريقها إلى المجتمع الإسلامي في نهاية عهد الراشدين ، على النحو الذي أسلفنا من قبل ، ولم يكن عصر التابعين بمنأى عن هذه التيارات ... ، كذلك فقد كان للتابعين علمهم واجتهاداتهم ، بل وتأويلاتهم ، وإذا استعطنا تصوير عصرنا هذا قلنا كان ابن عباس رضي الله عنه كما سبق أن بينا رأسا لمدرسة فقهية في الإسلام ، وكان له تلاميذ قد رجوا حتى أصبحت لهم الأستاذية من بعده ، وليس ابن عباس رضي الله عنه فردا في هذا المضمار بل له أمثال ونظائر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ...

موقف بعض التابعين من قضية التأويل :

يمـــدو الإشتغـــال بقضية التأويـــل كأ وضـــح مـــا يكـــون عنـــد

(١) نفســـه ص ١٨١ .

(٢) انظر " الصواعق المرسلة " ج١ ص ١٢ .

التابعي الجليل : مجاهد بن جبر (١) فقد نقل عنه في تفسير الطبري وغيره من كتب التفسير عديد من الآراء تعبر عن اعتداده برأيه، وعن استعماله للعقل في أمور يحسن فيها النقل بل وجدنا عبارات تنسب إليه في التفسير وجد الباحثون أمثالها ونظائرها عند مفسري المعتزلة بخاصة ، وعند غيرهم من المفسرين بالرأي عامة ، ولنأخذ في ضرب بعض الأمثلة :

١ - تفسيره للعتيق في قول الله جل ذكره : " ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق " ٢٩ : الحج .

قال مجاهد في تفسيره (٢) : " اعتقه الله من الجبابرة أن يرعيه أحد" منهم " وهذا الرأي الذي ذكره مجاهد في معنى العتيق هو أحد الآراء التي ذكرت في معنى الكلمة فقد قال الراغب في مفرداته (٣) : " العتيق المتقدم في الزمان أو المكان أو الرتبة ولذلك قيل للقديم عتيق ، وللكريم عتيق ، ولمن خلا عن الرق عتيق، قال تعالى: (وليطوفوا بالبيت العتيق) قيل وصفه بذلك لأنه لم يزل معتقا أن تسومه الجبابرة صغارا " .

٢ - تأويله للمسخ في قوله تعالى : (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) ٦٥ : البقرة .

قال مجاهد (٤) : " لم يمسخوا قردة ولكنه كقوله تعالى : " كمثل الحمار يحمل أسفارا) ٥ - الجمعة .

وقد عزا الطبري في تفسيره إلى مجاهد أنه قال عند هذه الآية : " مسخت قلوبهم ولم يمسخوا ... الخ وقد رد عليه الطبري رأيه هذا قائلا(٥) : " وهذا القول الذي قاله مجاهد لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف " ثم أورد الطبري بعض ما ورد في القرآن من عبر الله لبني إسرائيل ثم قال " ومن أنكر شيئا من ذلك وأقر بآخر منه

---

(١) هو أبو حجاج : مجاهد بن جبر المكي المخزومي ، من خيرة أصحاب ابن عباس وأوثقهم وكان أقلهم رواية عنه، نقل عنه البخاري وفي الجامع الصحيح كثيرا من روايات التفسير ، وقد ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة في خلافة الفاروق عمر ، وتوفي سنة أربع ومائة ، على أشهر الروايات عن عمر يناهز ثلاثا وثمانين سنة. راجع في ترجمته ميزان الإعتدال للذهبي جـ٣ ص٤٣٩ وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني جـ١٠ ص٤٢ .

(٢) انظر ص٤٢٣ من تفسير مجاهد ، وقد نشر هذا التفسير في عام ١٣٩٦هـ الموافق ١٩٧٦م على نفقة أمير دولة قطر عن مخطوطة كانت محفوظة بدار الكتب المصرية ، ثم صورت لمعهد إحياء المخطوطات العربية ، ثم لمجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد بباكستان ، وقام بتحقيقه الشيخ عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي ، وطبع في مجلد واحد ، ولم يستوعب تفسير كل الآيات ، وأما نسبة هذا التفسير إلى مجاهد ، فلسنا بصدد التصدي لها الآن !! ومن الذين تحدثوا عن " التوسع العقلي في تفسير مجاهد " في عصرنا هذا المستشرق المجري جولد زيهر في كتابه " مذاهب التفسير الإسلامي " ولم نشأ أن ننقل عنه لخبثه والتواء قصده ، وكتب بعده عن هذه النزعة عند مجاهد الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله في كتابه التفسير والمفسرون جـ١ ص١٠٤ - ١٠٧ ، ثم الشيخ عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي آنف الذكر في مقدمته لتفسير مجاهد المشار إليه ، وغيرهم من العلماء .

(٣) انظر مفردات القرآن للراغب ص ٣٢١

(٤) انظر تفسيره المطبوع ص ٧٧ ، ٧٨

(٥) انظر تفسير الطبري ط : الحلبي جـ١ ص ٣٣٢

سُئل البرهان على قوله ، وهو غير فيما أنكر من ذلك بما أتربه ، ثم يسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح ..." ثم اعتبر الطبري مخالفة رأي مجاهد للإجماع من أقوى الأدلة على فساده (١) .

٣ ـ تأويله لرؤية الله تعالى الواردة في قوله سبحانه : (وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة) ٢٢ـ٢٣ : القيامة . قال مجاهد : فيما أخرجه عنه الطبري (٢) : "تنتظر الثواب من ربها ، لا يراه من خلقه شيء" وفي رواية ثانية عنه : "وتنتظر رزقه وفضله" ثم روى أن مجاهدا سئل ، أن ناسا يقولون إنه سبحانه يرى ، فقال "يرى ولا يراه شيء")

ثم قال الطبري معقبا : "وأولى القولين عندنا بالصواب القول الذي ذكرناه عن الحسن وعكرمة من أن معنى ذلك : تنظر إلى خالقها ، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"

ولكن الذي وجدناه في التفسير المنسوب إلى مجاهد والذي طبع مؤخرا (٣) هو قوله عند هذه الآية : "... تنتظر إلى ربها ، حسّنها الله بالنظر إليه ."

٤ ـ تأويله للفاحشة المذكورة في قوله تعالى (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما) ١٥، ١٦ : النساء .

وقد نسب غير واحد من المفسرين إلى مجاهد القول بأن المقصود بفاحشة النساء : السحاق وبفاحشة الرجال : اللواط . وقد ذكر أبو السعود (٤) الآراء في تفسير الآيتين ، ثم انتقل إلى رأي مجاهد بقوله : "وقال أبو مسلم وقد عزاه إلى مجاهد إن الآية الأولى في السحاقات ، وهذه في اللواطين ، وما في سورة النور في الزناة والزواني ، متمسكا بأن المذكور في الأولى صيغة الإناث خاصة ، وفي الثانية صيغة الذكور ، ولا ضرورة إلى المصير إلى التغليب ..." ويعني أبو السعود بالتغليب ما ذكر من أن الآية الأولى في المتزوجات والمحصنين وذكرت النساء تغليبا ، واللاتي في البكرين وذكر الرجال تغليبا .

وقال أبو حيان (٥) : "الفاحشة هنا : الزنا بإجماع المفسرين إلا ما نقل عن مجاهد وتبعه أبو مسلم في أن المراد المساحقة" ثم قال أبو حيان منتصرا ومفضلا لرأي مجاهد "والذي يقتضيه ظاهر اللفظ هو قول مجاهد وغيره : إن اللاتي مختص بالنساء ، وهو عام : أحصنت أم لم تحصن ، وإن اللذان مختص بالذكور وهو عام من المحصن وغير المحصن

---

(١) انظر مبحث النسخ في هذه الرسالة .
(٢) انظر تفسير الطبري جـ ٢٩ صـ ١٩٢، ١٩٣
(٣) انظر صـ ٧٠٦
(٤) انظر تفسير أبو السعود جـ ١ صـ ٤٩٦ طبعة المصور .
(٥) انظر تفسيره المسمى بالبحر المحيط جـ ٣ صـ ١٩٤، ١٩٥

فعقوبة النساء الحبس ، وعقوبة الرجال الأذى ، وتكون هاتان الآيتان وآية النور قد استوفت أصناف الزناة ، ويؤيد هذا الظاهر قوله : "من نسائكم" وقوله "منكن" "اهـ

ولكن الذي وجدناه في تفسيره المنقول(١) هو أن الفاحشة هي الزنا ، والسبيل هو الحد .

. . .

هذه بعض التأويلات التي نسبتها كتب التفسير إلى مجاهد بن جبر رضي الله عنه ، وبعضها ورد في تفسيره المنسوب إليه ، والذي طبع مؤخرا ، ولم يمن محققه بتوثيق نسبته إليه ، وهناك عوامل تدفع إلى الإرتياب في نسبة بعض هذا التفسير إلى مجاهد ، وهذه التأويلات التي قال بها مجاهد تشبه التأويلات التي عرفت بعد ذلك عند الفرق الكلامية ، وعند بعض الفقهاء في تاريخ لاحق ، ويمثل بعض هذه التأويلات توسعا في التعويل على العقل في وجود النقل .

التـــأويـــل
في المعنى الإصطلاحـــي

انتقلت كلمة التأويل من معانيها اللغوية الى معنى اصطلاحي ذائع على ألسنة وأقلام المتكلمين ، والفقهاء ، والأصوليين ، والمتفلسفة ، وانتقل هذا المعنى الإصطلاحي إلى المعاجم اللغوية فذكرته من بين معاني الكلمة ودلولاتها ... فما هو هذا المعنى ؟

١ ـ يقول ابن الاثير اللغوي(٢) فيما نقله عنه صاحب اللسان (٣)

" ... والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ "

٢ ـ ويقول ابن منظور عن الليث (٤)

" التأويل و التأويل : تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه "

٣ ـ ويقول الزبيدي (٥) :

" ... والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر ... وتبيين معنى المتشابه ... " .

---

(١) انظر تفسير مجاهد صـ ١٤٨

(٢) ثلاثة من العلماء اخوة يحملون هذا اللقب وهم : مجد الدين أبو السعادات وهو أكبرهم توفي ٦٠٦ هـ وقد توفر على دراسة القرآن الكريم والحديث والنحو والأوسط هو عز الدين أبو الحسن المعروف بابن الأثير الجزري توفي ٦٣٠ هـ وهو صاحب "الكامل في التاريخ" "أسد الغابة في تاريخ الصحابة" والثالث هو ضياء أبو الفتح نصر الله توفي ٦٣٧ هـ وهو صاحب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (أول) (٤) نفسه .

(٥) انظر تاج العروس من جواهر القاموس ج٣ صـ ٤٧٠ لمحمد مرتضى الزبيدي .

٤ ـ ويقول ابن رشد الفيلسوف والفقيه المالكي الاندلسي [١] :

" التأويل : إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية ، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز : من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه ، أو لاحقه ، أو مقارنته ... أو غير ذلك من الأشياء التي تعورفت في أصناف الكلام المجازي "

٥ ـ وقال المفسر النيسابوري [٢] :

" التأويل اشتقاقه من آل يؤول أي : رجع .
وفي الإصطلاح : حمل الظاهر على المحتمل المرجوح ، فيشمل : التأويل الفاسد والتأويل الصحيح ، فإن أريد التأويل الصحيح فقط ، فقد زيد في التعريف : بدليل يصيره راجحا . أي بحسب ذلك الدليل ، والإيمان مرجوحا بحسب مفهوم اللفظ وضعا أو عرفا ، كما قلنا : في اليد بمعنى القدرة [٣] .. "

٦ ـ وقال الراغب [٤] في مفرداته :

"التأويل من الأول أي : الرجوع إلى الأصل ، ومنه : الموئل للموضع الذي يرجع إليه ، وذلك هو : رد الشيء إلى الغاية المرادة منه : علما كان أو فعلا ففي العلم نحو : "وما يعلم تأويله إلا الله .." من ٧ : آل عمران
وفي الفعل نحو : " هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله "
أي بيانه (العمل [٥]) : الذي هو غايته المقصودة منه ونحو : " ... ذلك خير وأحسن تأويلا " ٥٩ : النساء قيل : أحسن معنى وترجمة ، وقيل : أحسن ثوابا في الآخرة ....) [٦]

٧ ـ وعرفه أبو حامد [٧] الغزالي بقوله :

" التأويل : عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ... ويشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة

---

(١) انظر كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال ص٣٢ ط: المعارف المحققه او ص ١٤ ط : بيروت .
(٢) انظر تفسير " غرائب القرآن ورغائب الفرقان " لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمر النيسابوري جـ١ ص ٤٧ ط: الشعب ، ولم تتم .
(٣) قال النيسابوري في تفسيره جـ١ ص ٤٧ : "إن اليد : تحتمل الجارحة والقدرة ولكنها بالنسبة إلى القدرة مرجوحة" .
(٤) انظر " المفردات في غريب القرآن " ص٢١ لأبي القاسم : الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفى ٥٠٢ هـ ط : الحلبي
(٥) زيادة : اقتضاها المقام . (٦) لم يذكر الراغب المعنى الإصطلاحي عند الفقهاء والأصوليين ، ربما لأنه يبين معنى الكلمة في القرآن الكريم لا في غيره .
(٧) انظر المستصفى في علم الأصول جـ١ ص ١٥٧ .

إلـــى المجـــاز "

٨ــ وقال الماتريـــدى [1] :ــ

"٠٠ التأويل ترجيح أحد المحتملات ، بدون القطع والشهادة على الله ٠ [2] "

٩ ــ وقال أبو القاسم بن حبيب النيـــابورى والبغوى والكواشى [3] :ــ

" التأويل : صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها ومابعدها ، تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الإستنباط ٠

قالوا : وهذا غير محظور على العلماء بالتفسير ، وقد رخص فيه أهل العلم مثـــل قوله : " ٠٠ ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكه ٠٠" ١٩٥ : البقرة قيـــل : هو الرجل يحمل فى الحرب على مئة رجل ، وقيل : هو الذى يقنط من رحمـــة الله ، وقيل : الذى يمسك عن النفقة ، وقيل : الذى ينفق الخبيث من ماله ، وقيل : الذى يتصدق بماله كله ، ثم يتكفف الناس ، ولكل منه مخرج ومعنى ٠٠٠ ومثل قوله تعالى : " ويمنعون الماعون " ٧ : الماعون ، قيل : الزكاة المفروضة وقيل : العارية ، أو الماء ، أو النار ، أو الكلأ ، أو الرفد ٠٠٠ وكلها صحيح لأن مانع الكل آثـــم ٠٠٠"

ومفاد هذا التعريف : الذى ذكره الزركشى عن هؤلاء العلماء ومثل له : إن التأويل ترجيح معنى اللفظ أو الآية من بين معانى عدة تحتملها الآية ٠

ولمزيد من المبالغة والتكثير مانقله الزركشى : " وقيل : فى القرآن ثلاث آيات فـــى كل منها مئة قول ، وهى : " فاذكرونى أذكركم " ١٥٢ : البقرة " ، " وإن عدتـــم عدنا " ٨ : الإسراء ، " هل جزاء الإحسان إلا الأحسان " ٦٠ : الرحمن ٠

١٠ــ حديث ابن تيمية [4] عن معانى التأويل :

ذهب الشيخ ابن تيمية رحمه الله إلى أن لفظ التأويل يراد به معانى [5] ثلاثة ٠

١ ــ المعنى الأول هو الذى ورد فى القرآن الكريم وهو : " الحقيقه التى يؤول

---

(١) انظر الإتقان فى علوم القرآن جـ٤ صـ١٩٢ الطبعة المحققة

(٢) هذا القول من أوجه التعريفات وأحسنها ٠

(٣) نقلا عن البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ٢ صـ ١٥٠، ١٥١

(٤) كانت عنايه الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن قيم بموضوع التأويل عناية فائقة وقد عالجه بتوسع وتعمق واستيعاب فى كثير من كتبه ورسائله ، لتعلقه بموضوع الصفات الإلهية ولاتخاذ الفرق الضالة من الفلاسفة والقرامطة والباطنية من التأويل سلاحا لهـــدم شرائع الإسلام ، وتكذيب أخبار القرآن ٠

(٥) ننقل هنا عن صـ٢٨ و ٢٩ من رسالة " الفتوى الحموية الكبرى " ط : ٦ بتعليـــق الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المدرس بالمسجد الحرام بمكة المكرمة ، وقد خالفنـــا ترتيبه فى الحموية ، وأخذنا بالترتيب الذى اتبعه هو نفسه فى كتابه " درء تعارض العقل والنقل " انظر ج : ١ ق : ١ صـ ١٤ بتحقيق د / محمد رشاد سالم ٠

الكلام إليها وإن وافقت ظاهره ، فتأويل ما أخبر الله به عن الجنة من الأكل والشرب واللباس ، وغير ذلك هو الحقائق الموجودة أنفسها لا ما يتصور من معانيها في الأذهان ويعبر عنه باللسان ، وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله ، وتأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله تعالى بعلمها ، وهو الكيف المجهول كما قال مالك وغيره ، فالإستواء معناه : معلوم وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم .

وأما كيفيه الإستواء : فذلك من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى .

المعنى الثاني : إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه ، وإن كان موافقا لمدلول اللفظ ومفهومه في الظاهر ، أو غير موافق [1] وهذا معنى التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم ، وهذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم وهو موافق للوقف على " والراسخون في العلم "

ثم قال ابن تيميه : والصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم يريدون بالتأويل المعنى الأول والثاني [2] .

والمعنى الثالث : هو صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح إلى الإحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهرة تأويلا على اصطلاح هؤلاء ، وظنوا أن مراد الله تعالى بلفظ التأويل ذلك ... "

١١ـ تعريف ابن القيم :ـ

ولم يخالف ابن قيم شيخه ابن تيمية إلا في بعض العبارات والأمثلة ومضمون رأي التلميذ هو حقيقة رأي الشيخ ، فقال [3] : " التأويل في كتاب الله تعالى المراد منه : حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ إليه ، وهي الحقيقة الموجودة في الخارج فإن الكلام نوعان : خبر وطلب : فتأويل الخبر : هو الحقيقة ، وتأويل الوعد والوعيد : هو نفس الموعود والمتوعد به ، وتأويل ما أخبر الله به من صفاته العلا وأفعاله : نفس ما هو عليه سبحانه وما هو موصوف به من الصفات العلا ... وتأويل الأمر : هو فعل نفس المأمور به فهذا هو التأويل في كلام الله ورسوله .

والتأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث فمرادهم به معنى التفسير والبيان ...

وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه ، ولهذا يقولون : التأويل على خلاف الأصل والتأويل يحتاج إلى دليل . وهذا التأويل

(١) قوله : أو غير موافق تجعل التفسير أعم من " التأويل بالمعنى الإصطلاحي "
(٢) نقلا عن درء التعارض صـ ١٤
(٣) انظر كتابة الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة جـ١ صـ ١٢ ، ١٣ .

هو الذى صنف فى تسويقه وإبطاله من الجانبين "

• • •

ولعلنا من كل ماتقدم قد عرفنا المعنى الإصطلاحى للتأويل ، ووقفنا على وجهات النظر المختلفة فى الموضوع .

الفـــــروق
بيـــن التفـــسير والتأويـــــل

بعد أن ذكرنا المعانى اللغوية والإصطلاحية لكل من التفسير والتأويل ، وسردنا العديد من آراء العلماء حول المسألة ، يحسن أن نذكر العلاقة بينهما على وجه الإجمال . :

رأى الشيخ الألوسى :

نقل الشيخ الألوسى[1] فى مقدمه تفسيره عددا من آراء العلماء السابقين ثم قال :
" ... إن التأويل إشارة قدسية ، ومعارف سبحانية ، تنكشف من سجف العبارات للسالكين وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين . والتفسير غير ذلك "
وتعليقنا على هذه العبارة : إذا كان التأويل مسألة شائكة اختلفت فيها آراء العلماء وتباينت مذاهبهم حول تسويغها وإبطالها فكيف يصدق هذا التعريف إلا فى مثل من دعا له رسول الله صلوات وسلامه عليه كابن عباس ومن حذا حذوه — وقليل ماهم — وما أكثر ما نسب لابن عباس من تفسير وتأويل يقشعر له بدنه لوسمعه ... ثم نتابع الفرق بين التفسير والتأويل مع الألوسى فى قوله " وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب مايدل عليه اللفظ مطابقة ... فلا أراك ترضى إلا أن فى كل كشف إرجاعا ، وفى كل إرجاع كشفا " أهـ وهو يعنى بالكشف : التفسير ، وبالإرجاع : التأويل ، فهو يقول باحتواء كل منهما على الآخر ، فالعلاقة بينهما تواصل وتقارب وقال أبو طالب الثعلبى[2] " التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجاز : كتفسير الصراط بالطريق ، والصيب بالمطر . والتأويل تفسير باطن اللفظ ، مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع لعاقبة الأمر . فالتأويل : إخبار عن حقيقة المراد ، والتفسير إخبار عن دليل المراد ، لأن اللفظ يكشف عن المراد ، والدليل كاشف دليل ، مثاله قوله تعالى : "إن ربك لبالمرصاد " ١٤ : الفجر ، تفسيره إنه من الرصد يقال رصدته ، : راقبته ، والمرصاد : مفعال منه . وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله ، وعن الغفلة عن الأهبة والإستعداد للعرض عليه " سبحانه " وقواطع الأدلة

---

(١) انظر كتاب "روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى "لمفسر العراق ، محمود شكرى الألوسى جـ١ صـ ٥
(٢) انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٢ صـ ١٧٣ ط : الثقافيه بيروت " النوع السابع والسبعون : فى معرفة تفسيره وتأويله ... "

تقتضى بيان المراد فيه على خلاف وضع اللفظ فى اللغة أهـ والحق أننا نوافق الثعلبى فيما قاله غير أننا نرى أن المثل الذى ضربه للتأويل يجعل لكثير من الآيات تفسيرا وتأويلا .. وإذا كان التفسير صرف اللفظ عن ظاهره فإن ما ذكره ليس صرفا عن الظاهر ولعله تفسير بالمقتضى ، وقال الماتريدى(١) : " التفسير : القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله(٢) انه غير باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فتفسير بالرأى وهو المنهى عنه والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله " أهـ

ويكاد يتفق كثير من العلماء على أن التفسير يتعلق بالمبين فى كتاب الله بنفسه ، او ببيان صحيح السنة له وإنه ينهض على الإتباع التوقيفى ، وصحة الرواية ، ولا مدخل فيه للإجتهاد . وأن التأويل : يقوم على الدراية والإجتهاد ، لحمل الآية على المعنى الذى رجحته دلالة السياق فى السورة ، وانتمى بأواصر قوية إلى أمهات المقاصد القرآنية ، ولم يخالف محكم القرآن ، ولا صحيح السنة ولا اجماع الأمة (٣) وعلى هذا فالعلاقة بين التفسير والتأويل علاقة عموم وخصوص .

ويقول الراغب " التفسير أعم من التأويل وأكثر استعماله فى الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر استعمال التأويل فى المعانى والجمل ، وأكثر ما يستعمل فى الكتب الإلهية ، والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها .. " وقال أحد العلماء " التأويل كشف ما انغلق من المعنى " (٤) وليس فى القرآن معنى مغلق ، وإنما الإنغلاق فى الأذهان ، ففتح الله علينا ببيان القرآن وقلوبنا بهدايته .

ولقد شنع أبو القاسم محمد بن حبيب النيسابورى على نفر من أدعياء التفسير فى زمنه فقال "وقد نبغ فى زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا اليه ، لا يحسنون القرآن تلاوة ولا يعرفون معنى السورة والآية ، ما عندهم إلا التشنيع عند العوام والتكثر عند الطعام .. (٥) "

---

(١) نقلا عن الإتقان جـ٢ صـ ١٧٣

(٢) يعنى أن المفسر فى مقام من يشهد بأن سبحانه عنى بقوله كذا وكذا (٣) صفحة ، هذا التعريف جمعا بين عديد من الآراء حتى لا نستكثر من النقول وانظر كذلك الاتقان جـ٢ صـ ١٧٣ ، والبرهان للزركشى جـ٢ صـ ١٤٩ ، معالم التنزيل : تفسير البغوى جـ١ صـ١٢ وشرحه : لباب التأويل للخازن جـ١ صـ١٢ .

(٤) انظر البرهان جـ٢ صـ ١٥٠ وعبارة الأصل انغلق بدون (ما) وهو خطأ .

(٥) البرهان صـ٢ صـ١٥٢ وقد أطال الزركشى النقل عنه مما يخرج عن موضوعنا إلى غيره

التأويل والظاهر

أصبح التأويل في عرف المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين صرفا عن الظاهر وحملا على المجاز ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل صدرت من بعض العلماء كلمات مجازفة تهاجم القول بالحقيقة وتنكر التمسك بظواهر النصوص ، ومن ذلك ما يلي :-

١- أبو بكر بن العربي والأخذ بالظاهر :

ذهب الفقيه المالكي الأندلسي (١) إلى الطعن في حمل النصوص على ظاهرها مع أنه ليس باطنيا وأوجز رأيه هذا في بيتين من الشعر هما :-

قالوا الظواهر أصل لا يجوز لنا ∴ عنها العدول الى رأي ولا نظر

بينوا عن الخلق لستم منهم أبدا ∴ ما للأنام ومعلوف من البقر

ونحسب أن هذا الاسلوب ليس أسلوبا علميا في النقاش ولكن ابن العربي على غزارة علمه وفضله يسلك هذا الاسلوب المرذول (٢) في النقاش .

---

١) هو الفقيه المالكي الأندلسي محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن العربي المعافري الإشبيلي المتوفى ٥٤٣ هـ له عدد من المؤلفات منها " احكام القرآن " والعواصم من القواصم " عارضة الاحوذي على شرح الترمذي وغيرها كثير .

٢) مما يؤخذ على هذا الفقيه الجليل تعصب أموى قاده الى عبارات مستهجنة في حق الإمامين علي والحسين وتجد في كتابه " أحكام القرآن " تعصبا واضحا للمذهب المالكي دفعه إلى تجريح الأئمة كأبي حنيفة والشافعي والبخاري وشعره السابق من ثمرة عدائه للمذهب الظاهري الذي ترعرع في الأندلس وإن كان قد نهت في بغداد .

٢ـ الصاوي شارح الجلالين والأخذ بالظاهر :

كتب هذا الشيخ (١) حاشية معروفة على تفسير الجلالين المحلي والسيوطي وعند قول الحق جل ذكره " ولا تقولن لشئ إني فاعل ذلك غدا • إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت " ٢٣ ، ٢٤ : الكهف •

قال الشيخ : " ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة ونوافق (٢) قول الصحابة والحديث الصحيح والآية فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل وربما أداه ذلك للكفر لأن الأخذ بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر " اهـ حرفيا

وفي رأيي ان هذه العبارات التي قالها الشيخ كان فيها خصيما للحق مخالفا للصدق فهو قد قدّم قول المذاهب على قول الصحابة ، ثم قدم قول الصحابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قدم قول الرسول على قول الله والقارئ يستطيع ان يحكم على مبلغ الرجل من العلم والادب والذوق من خلال قوله هذا •

ثم إن الرجل قد قال كلمة لو مزجت بماء البحر لكدرته وهي دعواه أن الأخذ بظاهر الكتاب والسنة كفر مما يدل على أن هذه العبارة ليست كهوة من الرجل أداه إليها قلمه وليست غفلة صحا بعدها قلبه أنه كررها في تفسير قوله سبحانه " فأما الذين في قلوبهم زيغ ••• " من ٧ آل عمران ، وقال : " أي كنصارى نجران

ومن هذا حذروهم من أخذ بظاهر القرآن ، فإن العلماء ذكروا أن من أصول الكفر الأخذ بظواهر الكتاب والسنة " اهـ •

وهذا الرأي من الرجل عجيب وغريب ، لا برهان له به من الكتاب ، ولا دليل يدعمه من السنة بل قول على الله بغير علم وافتراء على هذا القرآن سبحانه وتعالى علوا كبيرا : إنه ما أراد بإنزال القرآن إلا التعمية على الخلق إذ جعل ظاهر القرآن يدل على أمر ، وجعل له بواطن لا يفهمها إلا حفنة من الخلق ، فإذا أراد غيرهم أن يفهم وأن يعمل بما تدل عليه ألفاظ القرآن فهذا في زعم الشيخ من نواقض الإيمان ومن أصول الكفران

---

١) توفي الشيخ الصاوي عام ١٢٢١ هـ وكان مالكيا أشعريا خلوتيا وقد ظهر في تفسيره أثر هذا التعصب الجامح •

٢) يعني لو أن القول خالف المذاهب ووافق القرآن والسنة فهو في نظره باطل •

والله سبحانه وتعالى قد أنزل كتابه بيانا وبلاغا للخلق أجمعين ، فقال سبحانه " هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب " ٥٢ : إبراهيم ، وقال سبحانه " هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين " ١٣٨ : آل عمران ، وقال جل ذكره : " ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ " ٨٩ : النحل ، ودعا سبحانه وتعالى عباده إلى تدبر القرآن فقال : " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " ١٧ : القمر ، وقال سبحانه : " أفلا يتدبرون القرآن : أم على قلوب أقفالها " ٢٤ : محمد .

ومما يؤسف له أن هذا الرأى القائل بوجوب الإعراض عن الظاهر رددده الكثيرون ولا يزال يُرَدَّد ، واستغلته الفرق الباطنية أسوأ استغلال فقالت بالبهتان ، وهدمت الأركان بل إن بعضهم تمادى في الغواية حتى قال قولا إدًا ومؤداه أن تكون آراء الرجال حكما على كتاب الله ، وأن تؤول النصوص لتخضع لما قاله الشيخ وهذا القول المنكر هو :

٣ـ رأى الكرخى :

قال الكرخى (١) : " الأصل أن كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها محمولة على النسخ أو على الترجيح ، والأولى أن تُحمل على التأويل من جهة التوفيق

فأنت ترى أن الكرخى هنا يلجأ إلى التأويل لأن نص القرآن يجب ألا يفهم إلا كما فهمه شيوخه بل يجب إن خالف قول شيوخه أن يرد إلى أقوالهم ، فهو يشهد لهم بالعصمة ، ويقطع لهم بالصواب ويناقض قول الله تبارك وتعالى : " وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا " ٣٦ : الاحزاب ، ويناقض قوله تعالى " يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا " ٥٩ النساء .

---

١) هو عبد الله بن الحسين الكرخى المتوفى ٣٤٠ هـ وانظر كتابه " الأصول التى عليها مدار فروع الحنفية " وهو مطبوع بهامش كتاب " تأسيس النظر " لعبد الله بن عمر الدبوسى المتوفى ٣٤٠ هـ .

ولننتقل إلى رأى فريق من العلماء يرى بوجوب التمسك بالظواهر ، وإن العدول عنها - إن جاز - لا يكون إلا بقيود وضوابط ، وهاك بعض آرائهم .

١- رأى أبى محمد على بن حزم : (١)

قال ابن حزم (٢) وحمل الكلام على ظاهره الذى وضع له فى اللغة فرض ، لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع لأن من فعل غير ذلك أسقط الحقائق كلها ، والشرائع كلها ، والمعقول كله وهذه المقالة من ابن حزم كان فيها صديقا ودودا للحق وإبنا بارا لحرمة البحث وقاضيا عدلا حين قضى على أهل العدوان على دلالات النصوص وعلى قدسية الشريعة ، بأنهم مفسدون للحقائق والشرائع عابثون بالعقول .

ثم يتحدث ابن حزم عن نقل مقتضى اللفظ عن موضعه فيقول (٣) ولا سبيل إلى نقل مقتضى اللفظ عن موضعه الذى رتب للعبارة عنه ، وإلا تركت الباطل وتركت الحق ، وجميع الدلائل تبطل نقل اللفظ عن موضعه فى اللغة ، ولا دليل يصححه أصلا

٢- رأى ابن تيمية :

وللشيخ تقى الدين بن تيمية كلام دقيق فى موضوع " الحمل على الظاهر " يدل على عمق نظر ، وأصالة فهم وغزارة علم ، وتمكن استيعاب

---

١) هو أبو محمد على بن حزم من كبار فقهاء الاندلس ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ وتوفى ٤٥٦ هـ - نشأ مالكيا كعادة أهل الأندلس ثم درس المذهب الشافعى ثم انتقل إلى المذهب الظاهرى الذى أسسه داود بن على تلميذ الإمام الشافعى ، ثم صار ابن حزم أشهر ذكراً من داود ، ومؤلفاته مشتهرة لدى الخاصة فى الفقه والأصول ومقارنة الأديان والمذاهب والمنطق وعلم الكلام - ثم هو بعد ذلك أديب.

٢) انظر كتابه "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" ج ٣ ص ٣

٣) انظر كتابه "التقريب لحد المنطق" ص ١٥٥ .

وهـــذه عبـــارتـــه (١) :

" إذا قال القائل : ظاهر النصوص مراد أو ظاهرها ليس بمراد ؟

فإنه يقال : لفظ الظاهر فيه إجمال واشتراك ، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم فلا ريب إن هذا غير مراد ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفرا - وباطلا - واللهسبحانه وتعالى أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذى وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر أو ضلال والذين يجعلون ظاهرها ذلك يغلطون فى وجهين :

تارة يجعلون المعنى الفاسد ظاهر اللفظ حتى يجعلوه محتاجا الى تأويـــل يخالف الظاهر ولا يكون كذلك وتارة يردون المعنى الحق الذى هو ظاهر اللفـــظ لاعتقادهم أنه باطل .

(فالأول) كما قالوا فى قوله : " عبدى جعت فلم تطعمنى " الحديث وفـــى الأثر الآخر " الحجر الأسود يمين الله فى الأرض ، فمن صافحه أو قبّله فكأنمـــا صافح الله وقبّل يمينه " وقوله قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمـــن فقالوا : قد عُلِمَ أن ليس فى قلوبنا أصابع الحق .

فيقال لهم : لو أعطيتم النصوص حقها من الدلالة لعلمتم أنها لم تدل إلا علـــى حق أما (الواحد) فقوله : " الحجر الأسود يمين الله فى الأرض فمن صافحه وقبله فكأنمـــا صافح الله وقبل يمينه " صريح فى أن الحجر الأسود ليس هو صفة الله ولا هو نفس يمينه ، لأنه قال " يمين الله فى الأرض وقال : " فمن قبله وصافحه فكأنمـــا صافح الله وقبل يمينه ومعلوم أن المشبه ليس هو المشبه بـــه .

ففى نفس الحديث بيان أن مستلمه ليس مصافحا لله ، وأنه ليس هو نفس يمينه ، فكيف يجعل ظاهره كفرا لأنه محتاج إلى التأويل مع أن هذا الحديث إنما يعرف (٢) عن ابـــن عباس ؟

---

١) انظر رسالته : " التدمرية " وهى فى موضوع الصفات الالهية انظـــر القاعدة الثالثة ص ٤٥ ط : الإمام بالقاهرة ، ص ٤٧ - ٥١ .
ط المكتب الإسلامى بدمشـــق .

٢) ذكرنا سند هذا الحديث فى موضع آخر من هذه الرسالة وابن تيمية يشير هنـــا إلى أنه موقـــوف .

وأما الحديث الآخر : فهو في الصحيح مُفسَّراً : " يقول الله عبدي جعت فلم تطعمني فيقول : رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو اطعمته لوجدت ذلك عندي ، عبدي مرضت فلم تعدني فيقول : رب : كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده " .

وهذا صريح في أن الله سبحانه لم يمرض ولم يجع ، ولكن مرض عبده وجاع عبده فجعل جوعه جوعه ، ومرضه مرضه ، مفسرا ذلك بأنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، ولو عدته لوجدتني عنده فلم يبق في الحديث لفظ يحتاج إلى تأويل .

وأما قوله قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن فإنه ليس في ظاهره أن القلب متصل بالأصابع ولا مماس لها ولا أنها في جوفه ، ولا في قول القائل هذا بين يدي ما يقتضي مباشرته ليديه ؟ وإذا قيل : السحاب المسخر بين السماء والأرض لم يقتض أن يكون مماسا للسماء والأرض ونظائر هذا كثيرة .

ومما يشبه هذا القول أن يجعل اللفظ نظيراً لما ليس مثله كما قيل في قوله : " ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي " ٧٥ : ص .

فقيل هو مثل قوله : " أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما) ٧١ : يس فهذا ليس مثل هذا ، لأنه هنا أضاف الفعل إلى الأيدي ، فصار شبيها بقوله : " بما كسبت أيديهم " (١) وهنا أضاف الفعل إليه فقال : " لما خلقت " ثم قال (بيدي) .

وأيضا : فإنه هنا ذكر نفسه المقدسة بصيغة المفرد ، وفي اليدين ذكر لفظ التثنية كما في قوله : بل يداه مبسوطتان " وهناك أضاف الأيدي إلى صيغة الجمع ، فصار كقوله " تجري بأعيننا " ١٤ : القمر .

---

(١) ومثلها قوله تعالى : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ٣٠ : الشورى .

وهذا فى (الجمع) نظير قوله : (بيده الملك) ١ : الملك "وبيده الخير" فى (المفرد) فالله سبحانه وتعالى يذكر نفسه تارة بصيغة المفرد مظهرا أو مضمرا ، وتارة بصيغة الجمع ، كقوله : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) ١ : الفتح، وأمثال ذلك ولا يذكر نفسه بصيغة التثنية قط ، لأن صيغة الجمع تقتضى التعظيم الذى يستحقه ، وربما تدل على معانى أسمائه .

وأما صيغة التثنية فتدل على العدد المحصور وهو مقدس عن ذلك ، فلو قال : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) لما كان كقوله : مما عملت أيدينا) وهو نظير قوله : (بيده الملك وبيده الخير) ولو قال : (خلقت) بصيغة الإفراد لكان مفارقا له ، فكيف إذا قال خلقت بيدى ؟ بصيغة التثنية .

هذا مع دلالات الأحاديث المستفيضة بل المتواترة وإجماع السلف على مثل ما دل عليه القرآن كما هو مبسوط فى موضعه ، مثل قوله "المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا" وأمثال ذلك .

وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع فى معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها-والظاهر هو المراد فى الجميع - فان الله لما أخبر أنه بكل شىء عليم ، وأنه على كل شىء قدير ، واتفق أهل السنة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره وأن ظاهر ذلك مراد : كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا وقدرته كقدرتنا .

وكذلك لما اتفقوا على أنه حىّ حقيقة ، عالمٌ حقيقة ، قادرٌ حقيقة ، لم يكن مرادهم أنه مثل الخلوق الذى هو حى عليم قدير ، فكذلك إذا قالوا فى قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) ٥٤ : المائدة ، "(رضى الله عنهم ورضوا عنه) ٨ : البينة، وقوله (ثم استوى على العرش) ٥٤ : الأعراف أنه على ظاهره لم يقتض ذلك أن يكون ظاهره استواء كاستواء المخلوق ولا حبا كحبه ، ولا رضا كرضاه .

فإن كان المستمع يظن أن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين لزمه أن لا يكون

شيء من ظاهر ذلك مرادا وإن كان يعتقد أن ظاهر ما يليق بالخالق ويختص به لم يكن له نفي هذا الظاهر ونفي أن يكون مرادا إلا بدليل يدل على النفي ، وليس في العقل ولا السمع ما ينفي هذا إلا من جنس ما ينفي به سائر الصفات ، فيكون الكلام في الجميع واحدا .

وبيان هذا أن صفاتنا منها ما هي أعيان وأجسام وهي أبعاض لنا كالوجه ، واليد ، ومنها ما هو معان وأعراض ، وهي قائمة بنا : كالسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة .

ثم أن من المعلوم : أن الرب لما وصف نفسه بأنه حي عليم قدير : لم يقل المسلمون ان ظاهر هذا غير مراد لان مفهوم ذلك في حقه مثل مفهومه في حقنا ، فكذلك لما وصف نفسه بأنه خلق آدم بيده ، لم يوجب ذلك أن يكون ظاهره غير مراد ، لأن مفهوم ذلك في حقه كمفهومه في حقنا بل صفة الموصوف تناسبه .

فاذا كانت نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين فصفاته كذاته ليست كصفات المخلوقين ، ونسبة صفة المخلوق إليه ، كنسبة صفة الخالق إليه (١) وليس المنسوب كالمنسوب ، ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه (٢) كما قال صلى الله عليه وسلم " ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر " فشبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي (٣) " .

رأي ابن القيم :

يقول ابن القيم (٤) : مدعى صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه يتضمن دعواه الإخبار عن مراد المتكلم ، ومراد الواضع (٥) أما المتكلم فكونه أراد ذلك المعنى الذي عينه الصارف (٦) وأما الواضع فكونه وضع اللفظ

---

١) فهي صفة ليست كمثلها صفة لخالق ليس كمثله شيء

٢) تأمل هذه العبارة مليا .

٣) أي أن الله جل ذكره ليس شبيها بالقمر تعالى عن ذلك علوا كبيرا وإنما الرؤية واضحة جلية كرؤية القمر كما ورد في الحديث الآخر " لا تضامون في رؤيته "

٤) انظر كتابه " بدائع الفوائد " ج ٤ ص ٢٠٦

٥) يقصد أن اللفظ له دلالة معينة في أصل الوضع اللغوي .

٦) أي الذي يصرف الكلام عن ظاهره .

المذكور دالا على هذا المعنى فإن لم تكن دعواه مطابقة كان كاذبا على المتكلم والواضع، بخلاف مدعى الحقيقة فإنه اذا تضمنت دعواه إرادة المتكلم للحقيقة وإرادة الواضع كان صادقا أما صدقه على الواضع فظاهر، وأما صدقه على المتكلم فمعرفة مراد المتكلم إنما هي بعادته من كلامه وأنه إنما يخاطب غيره للتفهيم والبيان فمتى عرف ذلك من عادته وخاطبنا لما هو المفهوم من ذلك الخطاب، علمنا أنه مراده منه وهذا بحمد الله بين لا خفاء فيه " .

شروط صرف الألفاظ عن ظواهرها عند ابن القيم :—

أراد ابن القيم رسم المنهج ووضع الضوابط لمن أراد صرف الألفاظ عن ظواهرها حتى لا تصبح المسألة وفق الأهواء والرغائب والنزعات، فقال (١) .

" من ادعى صرف لفظ عن ظاهره إلى مجازه لم يتم له ذلك إلا بعد أربع مقامات

أحدها : بيان امتناع الحقيقة .

الثاني : بيان صلاحية اللفظ لذلك المعنى الذي عينه وإلا كان مفتريا على اللغة .

الثالث : بيان تعيين ذلك المحمل، إن كان له عدة مجازات . .

الرابع : الجواز عن الدليل الموجب الإرادة الحقيقية .

فما لم يقم بهذه الأمور الأربعة كانت دعواه صرف اللفظ عن ظاهره دعوى باطله

وإن ادعى مجرد صرف اللفظ عن ظاهره ولم يعين له محملا، لزمه أمران :

أحدهما : بيان الدليل الدال على امتناع إرادة الظاهر .

والثاني : جوابه عن المعارض " .

---

(١) انظر بدائع الفوائد " ج ٤ ص ٢٠٥

عوامل ظهور " التأويلات "

فى تاريخ المجتمعات نجد عوامل أدت إلى ظهور " تيارات فكرية " أو " حركات سياسية " ... كما نجد عوامل أخرى تؤدى إلى " كمون " فكر معين بعد ظهورها وذيوعها أو تؤدى إلى " انحسار " حركة بعد علوها وانتشارها ، وهذا يصدق على " ظاهرة التأويلات " التى نتصدى لبحثها ، ونرى أن العوامل التى مهدت لقيامها وانتشارها هى :-

١ - وجود بعض النصوص القرآنية المحتملة الأوجه وكان هذا الاحتمال ذريعة للذين فى قلوبهم زيغ " .

٢ - وجود بعض الكلمات فى اللغة تتسع لدلالات شتى فكانت اللغة أداة طيعة حينا ومستكرهة أحيانا فى يد بعض الفرق - .

٣ - وقوع الفتن [1] فى المجتمع الإسلامى ابتداء من استشهاد عمر [2] رضى الله عنه على يد المجوسى : فيروز الذى عرف "بأبى لؤلؤة عليه لعائن الله ، والراجح فى نظر كاتب هذه الأسطر أن هذا المجوسى كان منفذا لمؤامرة خاجية تستهدف شق الصف الإسلامى وضرب الدولة الإسلامية ، وقتل هذا الإمام الراشد ، الذى كان قتله رزءا فادحا ، ثم لعبت أصابع الفتنة ، وانتهت باستشهاد ذى النورين عثمان رضى الله عنه ، ثم كانت " فتنة الجمل " وكارثة " صفين " حتى اغتالت الفتنة الظالمة أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه .. ثم كان ماكان من استشهاد الحسين رضى الله عنه وما استتبع ذلك من فتن مازال المسلمون يعانون لهيبها حتى يوم الناس هذا .

٤ - نجم عن الفتنة قيام أحزاب سياسية كان لبعضها جذور فى التربة الإسلامية : كحركة التشيع التى كان الولاء لآل البيت بذرة لها ، وكانت المظالم التى وقعت عليهم بعد ذلك من أكبر العوامل التى أثرت حركة التشيع وكفلت لها البقاء بدعوى الثأر وبعض هذه الأحزاب قامت عُدَدُهُ مع الفتنة كحركة الخوارج التى كانت خروجا على " الإمام " وعلى " الفئة الباغية [3] " ثم أصبح الخوارج بدورهم بغاة

---

(١) أشار الصادق المصدوق صلى الله عليه إلى هذه الفتن فيما رواه لنا أسامة بن زيد رضى الله عنهما إذ قال : " أشرف النبى صلى الله عليه وسلم على أطم من آطام المدينة ، فقال : هل ترون ماأرى ؟ قالوا : لا ، قال : فإنى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر " أخرجه البخارى جـ٩ ص٦٠ ط : الشعب .

(٢) أخرج البخارى فى باب : " الفتنة التى تموج كموج البحر " جـ٩ ص ٦٨ ط : الشعب عن حذيفة بن اليمان قال : بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال : أيكم يحفظ قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الفتنة ، قال فتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال ليس عن هذا أسألك ، ولكن التى تموج كموج البحر قال ليس عليك منها بأس " ياأمير المؤمنين إن بينك وبينها بابا مغلقا قال عمر : أيكسر الباب أم يفتح ؟ قال : بل يكسر ، قال عمر : إذاً لايغلق أبدا ، قلت : أجل ، قلنا لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم كما أعلم أن دون غد ليلة ، وذلك أنى حدثته حديثا ليس بالأغاليط ، فهبنا أن نسأله : من الباب ؟ فأمرنا مسروقا فسأله فقال : من الباب ؟ قال : عمر " اهـ

(٣) سبق ان ذكرنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر : " تقتلك الفئة الباغية ياعمار "

مارقين ، وأصبح للأمويين مع الفتنة حزبهم ثم قامت لهم دولة[1] وكان منهم " الناصبة " الذين ناصبوا عليا رضى الله عنه العداء ، وكان يسبونه وآله ، برأهم الله - حتى بعد موتهم وكان لكل حزب من هذه الأحزاب أهدافه ومطامعه وحاول كل فريق أن يمرر موقفه وأن يثبت شرعية أعماله وإنكاره ، ولم يكن أمامهم غير " سلاح التأويل " .

٥ - ظهور النزعات " الشعوبية " أو " القومية " فى البيئة الإسلامية ، ورغبتها فى أن تتسربل بالإسلام .

٦ - ترجمة الفلسفة الإغريقية ، وقام به بعض الخلفاء كالمأمون وغيره مع الحفاوة بهذه الترجمة ، مع ما فى الأفكار المترجمة مما يناقض الإسلام ، وناهيك به العداء .

٧ - دخول بعض الأعاجم [2] فى الإسلام ، وبعضهم لم يتجرد [3] تجردا كاملا " من موروثه العقائدية وتركته الثقافية " ... وإن كان بعضهم استوعب الحقائق الإسلامية وأخلص للإسلام أيما أخلص .. كما أن بعض كبار علماء الإسلام من أصول غير عربية ولا غرابة ولا غضاضة فى ذلك ... وإنما الفريق غير المتجرد أدخل فى أفكار بعض المسلمين ما ليس من الإسلام ، واستعمل سلاح " التلبيس " و " التأويل " .

٨ - ظهور الفرق كالمعتزلة والجبرية ، وتأييد الدولة لفرقة دون الأخرى كالذى كان من تأييد المأمون بن هارون الرشيد للمعتزله ، واعتناقه لأفكارهم .

شروط التاويل الجائز

ونقصد بالتأويل هنا التأويل بمعناه الإصطلاحى ، ولا شك أن ما لا يحتاج إلى التأويل أولى مما يحتاج الى التأويل ، ولذلك لا يصار الى التأويل الا بالشروط الا تيه :-

١ - قيام الدليل على امتناع إرادة المعنى المتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى .

٢ - أن يكون هناك من أدلة القرآن والسنه ما يؤيد المعنى المؤول إليه .

٣ - أن يكون المعنى الذي صرفت الآية إليه مما تحتمله دلالات الفاظها بوجه لغوى صحيح .

٤ - أن يبتغى بتأويله وجه الله متجردا من الرغبة فى الإنتصار للنفس أو التعصب للمذهب أو الولاء لفرقه بعينها ، أو التملق لذى جاه او سلطان .

٥ - الإجابة الصحيحة عن الدليل المعارض للتأويل أين وجد .

---

(١) كانت لدولة بنى أمية حسنات لا تنكر ، وكانت لها سيئات تذكر فلا تشكر منها حصار مكة وضرب الكعبة ، ومنها حصار المدينة ثلاث مرات .. وعن عمرو بن سعيد قال أخبرنى جدى قال : كنت جالسا مع أبى هريرة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومعنا مروان ، قال أبو هريرة : سمعت الصادق المصدوق يقول : هلكة أمتى على يد غلمة من قريش ، فقال مروان : لعنة الله عليهم غلمة ، فقال ابو هريرة فلو شئت أن أقول بنى فلان وبنى فلان لفعلت فكنت أخرج معى جدى إلى بنى مروان حين ملكوا بالشام ، فاذا رآهم غلمانا أحداثا قال لنا : عسى هؤلاء أن يكونوا منهم ؟ قلنا : أنت أعلم " انظر البخارى جـ ٩ ص ٦٠ من كتاب الفتن ط: الشعب .

(٢) نؤكد إيماننا بقوله تعالى : " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " : الحجرات وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى " .

(٣) لا زالت بعض الرواسب الجاهلية الفكرية والعملية فى بعض المجتمعات الإسلامية حتى يومنا هذا فمثلا المزارات فى النجف وكربلاء .. والأحجار التى يصلى عليها بعض الشيعة .. وعيد النيروز وتعمد الإحتفال به فى الأماكن المقدسة وهى عيد مجوسى ، وعيد " شم النسيم " وعيد رجب ، ووضع الأطعمه داخل المقابر للموتى .. وما استتبعه ذلك كله وغيره كثير من التأويلات العلمية والعملية .

يقول الدكتور سليمان دنيا [1] :ـ

" وتمشيا مع قاعدة أن العقل أساس الدين أيضا قرر علماء الإسلام : أن ما يرد من النصوص الدينية مخالفا لصريح العقل ، يعفى المكلفون من الأمر باعتقاد ظاهره ، لأن التكليف بما يخالف صريح العقل إرغام وجبر ، ولا جبر في الإسلام ولا إرغام ، وإذا لم يقع تكليف بما يخالف ظاهره صريح العقل ، فللمسلم الحق ـ بعد أن رفع عنه إصر الإيمان بهذا الظاهر الذي ينافي صريح العقل ـ في أن : يفوض الأمر في تحديد المراد بهذا النص إلى الله ، كأن يقول :

١ ـ آمنت بما أراد الله من هذا النص ، ولا حاجه إلى التقصي عن المراد منه [2] .

٢ ـ أو يميل بالنص إلى معنى يقبله العقل ويحتمله النص . [3] "

مناقشة هذا الرأى :

١ ـ قاعدة أن العقل أساس الدين ، لا أساس لها من الدين ، وأما أساس الدين فهو قول الله في كتابه أو ما أوحاه إلى رسوله ، فالوحي هو أساس الدين .

٢ ـ العقل شيء غير محدد ، فالعقول متفاوتة ، والأفهام متباينة ، ولو سلمنا بتحديد ماهية العقل ، لكن معنى ذلك أن الإنسان يهدي نفسه ، ويشرع بعقله .

٣ قوله : قرر علماء الإسلام .. من هم ؟

ثم إن دين الله ليس من عند بشر يقرر في أمره بما يشاء ، ولا يستحق وصف " علماء الإسلام " إلا الذين يتحاكمون إلى ما أنزل الله .

٤ ـ التكليف بما يخالف ظاهره صريح العقل : أمر لا وجود له إذا كان هذا العقل صحيحا مؤمنا واعيا متيقنا .

.....

وقد افترى أناس أحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل العقل أثبت العلماء أنها زيوف ، ثم ألفت كتب في فضل العقل ليُضِلَّ بها أصحابها ويُضِلُّوا ، وقد ضل المعتزلة بتحاكمهم إلى عقولهم . نعوذ بالله من الخذلان .

التأويل عند دعاة التغريب :ـ

عرف أحد دعاة التغريب [4] : فكرة التأويل فقال : " وتعني (أي الفكرة) في اشتقاقها

(١) انظر كتابه " التفكير الفلسفي في الإسلام " . الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧ م الخانجي . القاهرة ص٢٢٢

(٢) يقصد التفويض (٣) يعني التأويل .

(٤) هو علي أحمد سعيد الكاتب اللبناني الذي تبرأ من اسمه الإسلامي العربي وتسمى بـ " أدونيس " والنص المنقول من أطروحته المقدمة لنيل الدكتوراه من الجامعة الأميركية ببيروت ص٢٧٤ ج١ وعنوانها " الثابت والمتحول : رسالة في الإتباع والإبداع عند العرب " وقد طبعتها دار العودة ببيروت ١٩٧٤ م وقد جعل إهداء الرسالة إلى أستاذه القس " بولس نويا " لأنه كان بالنسبة له " رمزا للخروج من حد المملوكية إلى حد الحرية " فتأمل .

الظاهر العودة إلى الأول ، لكنها تعنى على المستوى التاريخى : تفسير الأول بما يلائم التالى ، إنها تعنى بتعبير آخر ، تفسير القديم بما يلائم الحديث " أ هـ

لقد عرّف الكاتبُ فكرةَ التأويلِ بأنها العودة إلى الأول ، والعودة إلى الأول : هى رد الشىء إلى أصله الأول فتبدو حقيقته جلية واضحة لا يرتاب فيها مرتاب ، ولا يترخص قيمتها مترخص أو يتعسف فيها متعسف .

لكن المستغرب " أدونيس " يخلع على الفكرة تفسيرا عجبا ، هو : " تفسير الأول بما يلائم التالى " وعبارة أخرى أن يصبح التابع متبوعا والمتبوع تابعا .

وانتقال المتبوع إلى مرتبة التابع معناه : أن نفسر نصوص القرآن بما يوافق الزيوف الوافدة من الغرب والتى يسمونها " حضارة " معناه أن الهوى المريض هو الأصل والقاعدة وأن الوحى ما نزل لنهج جماح الغرائز وتهذيب السلوك ، والأخذ بقلوب البشر ونواصيهم إلى طريق الله وإنما نزل تبريرا لأهوائهم وتسويغا لضلالهم .

وانتقال المتبوع إلى درجة التابع ليس غايه مطلقة ، وإنما هو مرحلة فقط ريثما تتمكن منه عوامل الفناء وهذا الذى ذكرناه ليس سوء ظن بهذا المستغرب ، وليس تشويها لفكرته أو إفتياتا على عباراته ، وإنما هو غايته ، وتلك هى هجيراه .

ولقد كان أستاذه القس معبراً عن غايته ، منتبطا بتلميذه الذى انسلخ حتى من اسمه حين قال هذا الكاهن فى تقديمه لرسالة تلميذه مخاطبا إياه :

" ذكرت فى الأطروحة أن التراث هو بمثابه الأب . ونحن نعلم منذ فرويد أن الإبن لا يستطيع أن يكتسب حريته ، ويحقق شخصيته إلا إذا قتل أباه : فعلى الإنسان العربى أن يميت تراث الماضى فى صورة الأب لكى يستعيده فى صورة الإبن . حينئذ دون أن يخرج على دينه ، سيخلق تراثا جديدا وحضارة جديدة يكونان تراث الحرية وحضارتها " .

بهذه الكلمات أسفرت المؤامرة عن وجهها الكالح : فالمعلم هو اليهودى : " سيجموند فرويد " الجنس " والمتعلم هو الصليبى : " بولس نويا " ساكن جامعة "الأمريكان ببيروت والتلميذ هو الفينيقى : " أدونيس " : مستغرب فى دنيا العرب . وغاية المؤامرة قتل الأب حتى يحقق الإبن شخصيته ، أو بعباره أخرى : الإرتداد عن الدين هو السبيل الأوحد لكى يحقق العرب حريتهم وحضارتهم .

ولكن ما هو الأب الذى على العرب أن يقتلوه ، أو ما هو التراث الذى عليهم أن ينسلخوا عنه ، أو ما هو الدين الذى عليهم أن يرتدوا عن سبيله .

إنه طبعا ليس يهوديه " فرويد " ولا " صليبيه " بولس ولا الفينيقية التى ارتد إليها "أدونيس " بعد أن كان يحمل أسماء المسلمين وكان يسمى " بعلى أحمد سعيد " .

والعجب الذى يناقض كل عجب ، والتناقض الذى يذهل الحكيم عن صوابه ، والأمم عن وجودها أن هؤلاء الدعاة إلى إنهاك التراث بباطل التأويلات ، وحمى التجديدات ، هم أشد الناس ضراوة فى الاستمساك بتراثهم[1] ، وهو تراث خرافى فارغ المحتوى من " الوحى الربانى "

نظرة الأصحاب والسلف رضوان الله عليهم
إلى التأويل والقـــــول بالرأى

أكثر ما يكون التأويل الإصطلاحى قولا بالرأى ، ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان أشد حرصا على التحاكم إلى قول الله ورسوله ، كما أمرهم بذلك سبحانه وتعالى بقوله :

" يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله " " ١ : الحجرات " فلاوربك لايؤمنـــون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " ٦٥ : النساء " إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون " ٥١ : النساء " وما كان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا " ٣٦ : الأحزاب .

كل هذا وغيره كثير دفع الأصحاب عليهم الرضوان إذا عرض لهم أمر من أمور دينهم أو دنياهم أن يبحثوا عن حكم الله فيه ، وقضاء رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقدموا قول أحد من الرجال على قول الله ورسوله .

والروايات التالية تعطيك صورة من هذا الحرص الحريص على التمسك بهذا النهج القويم :

١ ــ قال عروة لابن عباس[2] : " ألاتتقى الله تترخص فى المتعة ؟ فقال ابن عباس : سل أمك[3] ياعريه ، فقال عروة : أما أبو بكر وعمر فلم يفعلا ، فقال ابن عباس : والله ماأراكم منتهين حتى يعذبكم الله ، أحدثكم عن النبى صلى الله عليه وسلم وتحدثونا عن ابى بكر وعمـــــر "

قال أبو عمر[4] : يعنى متعة الحج : فمع ما للشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما من منزلة فى الإسلام لاتسامى بها منزلة ، ومع أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإقتداء " بالخلفاء الراشدين

---

(١) رغم كل ماتسمع عن دعاوى " التقدم " و" التحرر " و " التحضر " فمازال الغرب ينظر إلى الفكر " الإغريقى " نظرة إكبار وإجلال ... ولاتزال الدول الغربية تدعم الحركات التبشيرية فى إفريقيا وآسيا .. ورغم مافى " التراث الروحى للقوم " من " وثنية " و " خرافة " و تأليه للبشر فلا تزال أمريكا تحمل لواء الصليبية حتى يوم الناس هذا .

(٢) انظر " جامع بيان العلم " لابن عبد البر ج٢ صـ ٢٣٩

(٣) يعنى أم المؤمنين عائشه رضى الله عنها .

(٤) هو يوسف بن عبد البر وقد سبق التعريف عنه

المهديين " ... إلا أن ابن عباس يتوعد من يقدم قول الرجال مهما تسامت أقدارهم على قول الرسول صلى الله عليه .. مع أننا نرى أن مسألة المتعة ورأى الصاحبين مسألة خلافية غير مقطوع فيها .

٢ — وهذا أبو الدرداء صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ على معاوية القول بالرأى فيقول : " من يعذرنى من معاوية أحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخبرنى برأيه ، لا أساكنك بأرض أنت بها [1] " .

٣ — وهذا موقف السيدة عائشة رضى الله عنها من إتمام الصلاة فى السفر ، وهى مسألة لها فيها رأى ومع ذلك يقول القاسم بن محمد ، وهى دون السيدة عائشة بمراحل علما وفضلا يقول وهو محق فى قوله لرجل سأله عن ذلك [2] :

يا ابن أخى : عليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن رسول الله لم يستخلف ، وأن الله سيحفظ دينه " .

٤ — وهذا عمار بن ياسر رضى الله عنه يقول [3] عن مسير السيدة الفاضلة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها إلى البصرة : " ... والله إنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله تبارك وتعالى : ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هى "

وتلك آثار ووصايا أخر راشدات تبين هذا الحرص وتؤكد هذا النهج وتأمر بالإتباع والتزام الصراط وتحذر من الإبتداع والتحاكم إلى الأهواء وهاهى :

١ — عن عمرو بن دينار قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه [4] " إنما أخاف عليكم رجلين : رجل يتأول القرآن على غير تأويله ، ورجل ينافس أخاه على الملك ، وعن رجاء بن حيوه قال : كنا جلوسا عند معاوية فقال : إن أغرى الضلالة لرجل يقرأ القرآن ، فلا يفقه فيه فيعلمه الصبى والعبد والمرأة والأمة فيجادلون به أهل العلم "

٢ — عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه أن عمر بن الخطاب قال [5] : " ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ولا من فاسق بين فسقه ، ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أزلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله " .

٤ — وعن ابى الزعراء قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه [6] : " إن هذا القرآن كلام الله ، فلا يغرنكم ما عطفتموه على أهوائكم " .

---

(١) انظر جامع بيان العلم جـ٢ ص ٢٤٠ .
(٢) انظر جامع بيان العلم جـ٢ ص ٢٣٩ .
(٣) انظر البخارى جـ٩ ص ٧٠ ط : الشعب .
(٤) انظر كتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله لأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى المتوفى ٤٦٣هـ جـ٢ ص ٢٣٧
(٥) نفسه ص ٢٣٨
(٦) انظر سنن الدارمى جـ٢ ص ٣١٧ الحديث رقم : ٣٣٥٨ .

٤ — وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه [1]

" عليكم بالعلم قبل أن يقبض ، وقبضه أن يذهب أصحابه ، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدرى متى يفتقر إليه ، أو يفتقر إلى ما عنده ، إنكم ستجدون أقواما يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم ، فعليكم بالعلم ، وإياكم والتبدع ، وإياكم والتنطع وإياكم والتعمق ، وعليكم بالعتيق " .

٥ — ويحذرنا الفاروق من الشبهات وأهلها فيقول رضى الله عنه [2] : " سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن ، فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله عز وجل " .

. . . . . .

كل هذه النصوص والآثار تحذرنا من الهوى وشطط التأويلات واتباع الآراء ، وكما قال ابن عبد البر [3] : " أهل البدع أجمع : أضربوا عن السنن ، وتأولوا الكتاب على غير ما بينت السنة فضلوا وأضلوا ، ونعوذ بالله من الخذلان " .. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . :

---

(١) انظر سنن الدارمى جـ١ صـ٥٠ الحديث : ١٤٥

(٢) انظر الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم المجلد الأول صـ٢٥٠ ط : الإمام .

(٣) انظر جامع بيان العلم جـ٢ صـ ٢٣٦

النجم الثالث

التأويل وصلته بالمحكم والمتشابه

التأويل وصلته
"بالمحكم والمتشابه"

نعود إلى الوفاء بما وعدنا به من وقفة تدبر مع قول الله تبارك وتعالى "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب " ٧ : آل عمران .

ولا يتم البحث في الآية الكريمة إلا ببحث المحكم والمتشابه ، فما هو المحكم ، وما هو المتشابه .

لفظة المحكم ، اشتقاقا ثم في القرآن الكريم :

وصف الله آيات القرآن جميعها بأنها محكمة كما في قوله تعالى " الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " ١ : هود ، وكما في قوله جل ذكره " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم " ٥٢ ، الحج .

وكل سور القرآن محكمة كما قال عز من قائل " ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم " ٢٠ : محمد ، وإذا علمنا العلاقة بين الأحكام والحكمة — كما سنبين إن شاء الله تعالى — نجد القرآن موصوفا بالحكمة في عديد من آياته : "يس والقرآن الحكيم"

"الر تلك آيات الكتاب الحكيم " ١ : يونس ، ومثلها ٢ : لقمان ، يس ، ٢ ص

"ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم" ٥٨ ، آل عمران ، ونزل القرآن جل جلاله وصف ذاته (١) العلية بالحكمة : "تنزيل الكتاب من الله العزيز

---

(١) لاصلة لهذا التعبير بمباحث المتكلمين : هل الصفات هي عين الذات — أم غيرها ؟ .

الحكيم " ١ : الزمر ، وتكرر هذا الوصف لربنا سبحانه " بالعـــزة والحكمة " في عديد من آي القرآن الكريم كما في ١٢٩ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٦٠ : البقرة ، ٦ ، ١٨ ، ٦٢ ، ١٢٦ : آل عمران ، وغير ذلك من الآيات الكريمة ، واقترن اتصافه جل جلاله — "بالعلم والحكمة " " ... والله عليم حكيم " ٧١ : الأنفال ، ١٥ ، ٥٠ : التوبة ، ١٨ ، ٥٨ ، ٥٩ : النور ، إنَّ الله كان عليمـــا حكيما " ، " وكان الله عليما حكيما " تكررت غير مرة في سوره النســـاء ، والأحزاب ، والفتح ، والإنسان . تكـررت كلمة الحكمة والحكم في القرآن كثيرا ، فما معنى الإحكام في اللغة : ذلك .

أصل الكلمة لغةً [1] دال على معنى " المنع " يقال : حَكَمَهُ : أي منعـــه عما يريد أو منعه من الفساد ، والحَكَمَة (بفتحتين) ما أحاط بحنكي الفـــرس من لجامه وفيها العذاران [2] لأنها تمنعه من الجماح ، وحكمة الإنســـان مقدم وجهه لأنها تمنعه أن يشتبه بغيره ، والحاكم : الذي يمنع الظلـــم والفساد ، والحَكَم : مثله ، والمُحَكَّم : الشيخ المجرب تمنعه تجربتـــه من الطيش والسفه ، وأحكم الشيءُ : أتقنه ومنع الخلل عنه ، وأحكم السفيـــه منعه من السفه وأخذ على يده .

والحكمة : وضع الشيءِ موضعه ، والصواب في الأمر بالعلم والحق ، — والفصل بين الخير والشر ، والعلم والحلم ، وكل ذلك يتضح فيه معـــنى "المنع" [3] ، والعدل : حكمة لأنه منع للظلم ، والنبوة : مانعة من الشـــرك

---

(١) انظر متن اللغة للشيخ أحمد رضا عضو المجمع العلمي العربي بدمشق — المجلد ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٠ ط : الحياة بيروت ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م والنقل بإيجاز وتصرف وانتفاع بمعاجم أخرى .

٢) العذار من اللجام ما سال على خد الفرس .

٣) لأن العلم يمنع الجهل والحق يقمع الباطل .

والقرآن حكمة يمنع من الغواية : " والمحكم الذى لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى ، وهو خلاف المتشابه ، وسوره محكمة غير منسوخة . "

لفظة " التشابه " فى القرآن :

وردت الكلمة فى القرآن الكريم فى عدة مواضع يحسن بنا ذكرها ، والتهدى بها فى فهم المعنى وهذه هى : فى نجاة المسيح عليه السلام " وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .. " ١٥٧ : النساء ، ألقى الله شبه المسيح على غيره ، فشبه لهم ، فأشكل عليهم ، لذا قال تعالى بعدها : " إن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا " ١٥٧ : النساء ، وفى تنطع اليهود فى شأن البقرة قال تعالى : " قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا " ٧٠ : البقرة ، أشبه بعضه بعضا فأشكل علينا الأمر ، وفى شرك المشركين جاء قوله تعالى : " أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم " ١٦ : الرعد ، فاشتبه واختلط عليهم خلق الله بخلق غيره وقوله تعالى فى تعنت الكافرين : " وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم .. " ١١٨ : البقرة ، أى أن قلوبهم ماثل بعضها بعضا فى الكفر والمكابرة ، وقوله تعالى فى نعيم أهل الجنة " كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها .. " ٢٥ : البقرة ، تتماثل أشكاله وتختلف طعومه ، وقال ممتنا ببعض أنعمه على خلقه " والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه " ومثلها " والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه " يشبه بعضه بعضه ، وغير متماثل .

وآية آل عمران التى نحن بصددها ، والآية التى لها علقة ماسة بموضوعنا هى قول الحق جل ذكره : " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .. " ٢٣ : الزمر ، أى تتماثل أحكامه ، ويصدق بعضها بعضا فى الهداية والبيان .

التشابه في اللغـــة :

شبّه بكذا مثّله به ، وأمور مُشَبَّهَة (١) : أي مشتبه ، وشَبَّهه فلانٌ .. أي : ساوى بين شيءٍ وآخر ....

شُبِّه عليه الأمر : أشكل والتبس ، وأشبه الشيءُ الشيءَ : صار شبيها به ومائله

اشتبه الأمر : اختلط والتبس ، واشتبه الشيئان : أشبه كلٌ منهما الآخر فأشكلا (٢) الشَّبه ، والشَّبَه ، والشَّبَهان : النحاس الأصفر لأنه أشبه الذهب قاله ابن سيده ، والشُّبهة : الإلتباس جمعها شُبَه ، والمتشابهات : المتماثلات ، والمشبهات والمشبَّهات : المشكلات .

والمتشابه في القرآن ما يشبه بعضه بعضا في الجودة والحسن أو في الصورة أو ما لم يتعلق معناه من لفظه .

الإحكام العام في القرآن :

فإن الإحكام الذي وصف الله به كتابه " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " ١ : هود ، إحكامٌ تنتظم فيه كل آيات الكتاب الكريم فتظمه قمة الاعجاز ، والفاظه هي المنتقى من الجزل ، والمجتنى من السهل والوسل ومعانيه جلت عن الوصف ، وشرائعه تُثبت الأزمان مكنون أسرارها وأحكامه هي الغاية في صلاح الإنسان وإصلاحه ، وبراهينه قاصمة ودلائله ساطعه (٣) ، وصدق فيه قول منزله " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان

(١) انظر متن اللغة جـ ٣ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ببعض تصرف ومختار القاموس ص ٣٢١ .

(٢) ويقال : أشكل الأمر : التبس ، وأمور أشكال : ملتبسة وانظر القاموس المحيط جـ ٣ ص ٤١٢ .

(٣) يذهب بعض المفسرون كالبيضاوي وغيره إلى أنه قد يكون المراد بإحكام الآيات أي إحكام آيات سورة هود بعدم وقوع النسخ في آياتها وهو بعيد بعيد ص ٢١٩ .

من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " ٨٢ : النساء ، أي لو أن القرآن قول أحد من البشر لما فيه عجز البشر وقصور أفهامهم ، فمظهر الإختلاف في آياته متناقض معانيه ، وتفاوت أساليبه بين الفصاحة ، والركاكة ولكن بعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ولطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع (١) دون بعض ، ولموافقة العقل بعض أحكامه دون بعض ومن معاني أحكمت "جعلت حكمة مقول حكم بالضم إذا صار حكيما لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية (٢) وقد ذكرنا من الآيات القرآنية منذ قليل ما يشهد هذا المعنى من الفهم الذي نتفق فيه مع البيضاوي ورحمه الله ، ورشيد رضا (٣) (٤) — وغيرهما من المفسرين .

المتشابه العام :

وهو المذكور في قول الله جل ذكره " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد " — ٢٣ : الزمر، فهذا المتشابه العام قريب من معنى الإحكام العام ، وليسا متقابلين كما في آية آل عمران ، فآياته أحكمت لأنها من العليم الحكيم ، (٥) وتشابهت لأنها منه كذلك ، وتشابه القرآن هو تماثل آياته في الإعجاز ووحدة نظمه ، وسمو أغراضه وتضافرها على الغاية الواحدة " وتصديق بعضها

---

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل : تفسير البيضاوي ص ١٠٤ بتصرف

(٢) المصدر السابق ص ٢١٩

(٣) انظر المنار جـ ٣ ص ١٦٣ طبعة مصورة عن الطبعة بيروت : المعرفة

(٤) تذكرنا قبلا عن صلة الحكمة بالإحكام .

(٥) قارن بالبيضاوي ص ٤٤٤

لبعض " بعبارة مجاهد (١) تلميذ ابن عباس ، وبعبارة ابن كثير " الكلام يكون في سياق واحد " (٢)

ولعل من أجمل ماقيل في معنى المثاني في هذه الآية (٣) "الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة ، وصفة النار ، وذكر حال الأبرار ، وحال الفجار ونحو ذلك " وقد يكون المقصود "بالمثاني" في سورة الحجر في قوله تعالى : " ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم " ٨٧ : الحجر ، فهذه قد يكون مقصودا بها الفاتحة لأن آياتها تثنى في كل صلاة ، أو السور السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة كسورة واحدة (٤) . الصلة بين قوله سبحانه " متشابها " وبين " مثاني " :

وكأن وصف القرآن بالمثاني زيادة إيضاح لمعنى التشابه ، فالتشابه تماثل في المعاني والغايات ، والمثاني تقابل المعاني وصولا إلى غايات القرآن المجتمعات فالوعد يقابله الوعيد ، والترغيب يقابله الترهيب ، وتراحم أهل الجنة يقابلها تخاصم أهل النار ، وسمو المؤمنين يقابله حطة الكافرين وتذبذب المنافقين وهذا وغيره من صنوف التوجيه والتربية في القرآن يعاضد بعضه بعضا ، ويتمم بعضه بعضا ، وهذا من تفصيل معنى التشابه والمثاني . ومما يحملنا على هذا الرأي وجود التقابل في نفس الآية : " تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم " تقشعر من وعيده ونواجره ونُذره ، وفي مقابلة ذلك " ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله " تلين بوعده وبشاراته وترغيباته ، ثم تبين الآية تضافر الخوف والسكينة على ترسيخ الهداية " ذلك هدى الله يهدي به من يشاء " وأما المعرضون الذين لا تخشع قلوبهم ولا تلين جلودهم فهم "ومن يضلل الله فماله من هاد " .

---

(١) انظر ابن كثير جـ ١ ص ٣٤٥

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) نفسه

(٤) ومن أدلة القائلين بهذا أنهما في معاني متكاملة ولم يفصل بينهما بالبسملة ووجوه التشابه بينهما كثيرة .

المحكمات هن أم الكتـــاب :

وصف الله الآيات المحكمات بـأنهن "أم الكتاب" أي أصله (١) والعرب تسمى كل جامع يكون مرجعا لشئ أما " " ولما كانت المحكمات مفهومة بذواتها والمتشابهات إنما تصير مفهومة بإعانة المحكمات لا جرم صارت المحكمات كالأم للمتشابهات (٢) " ولم يقل أمهات الكتاب ، لأن الآيات كلها في كلها (٣) واجتماعها كالآية الواحدة (٤) " وقيل كل آية منهن أم الكتاب " وهـو في نظري قول لا تعترض له حجة .

وأضيف إلى ما ذكر : لعل القرآن لم يقل "أمهات" لأن التعدد مشعر بالتباين والإختلاف ، وليس كذلك "التوحد" فالحكمة بالغة قال "أم" إشعارا بـــأن أصل واحد لا يتعدد ، وجمع لا يختلف ولا يتفرق ، والرد إلى الأصل هـــذه صفته ، ليس كالرد إلى المتعدد .

وأخر : نعت لمحذوف هو آيات ، ومتشابهات : نعت لأخر .

معنى الزيغ :

قال الراغب : " الزيغ : الميل عن الإستقامة إلى أحد الجانبين ، يقال زاغت الشمس عن كبد السماء ، وزاغ البصر ... والقلب .... "

وقال غيره : "الزيغ أخص من مطلق الميل ، فإن الزيغ لا يقال إلا لما كـان (٥) مملا عن حق إلى باطل وانفراد أهل البدع "

معنى الفتنة في الآية الكريمة :

يقول ابن كثير (٦) " الفتنة الإضـلال وإيهام الإتباع أنهم يحتجون بالقرآن " .

---

(١) ذكره الطيبي ونقله عنه أبو العباس القسطلاني في "إرشاد الساري شـرح صحيح البخاري جـ ٧ ص ٥٢ صورة ط : بولاق وانظر كذلك ابن كثير والبيضاوي في تفسير آية آل عمران .

(٢) انظر "مفاتيح الغيب" للرازي جـ ٧ ص ١٧٠

(٣) انظر "تفسير الخطيب الشربيني" جـ ١ ص ١٩٦ وتفسير البيضاوي ص ٦٣

(٤) انظر أيضا تفسير الخطيب الشربيني جـ ١ ص ١٩٦

(٥) انظر "إرشاد الساري" جـ ٧ ص ٥٢

(٦) انظر (تفسير ابن كثير) جـ ١ ص ٣٤٥

ويذكر الفخر الرازى ثلاثة آراء فى تفسير "الفتنة" نوجزها فيما يلى: (١)

١ - إيقاع المتشابهات يفضى إلى الخلاف فى الدين ، والخلاف يفضى إلى التنازع والتقاتل وتلك هى الفتنة .

٢ - إن التمسك بالمتشابه تقرير للبدعة والباطل فى قلب المبطل فيصير مفتونا بباطله .

٣ - الفتنة هى الضلال فى الدين ، ولا فساد أعظم من الفتنة فى الدين.

وهذا المرأى مكمل لسابقه ، وثالثتها متقاربة وتحتملها عبارة ابتغاء الفتنة.

وفتنة التأويلات المستكرهة ، والضالة ، وهى شر فتنة يبتلى بها الإسلام ، هى فتنة الخوارج حين قالوا "إن الحكم إلا لله ..." ٤٠ : يوسف، ولقد حكم "علىٌّ" الرجال ، فقال رضى الله عنه : "كلمةُ حقٍ أُريدَ بها باطل"، وهى فتنة أصحاب "صفين" وفتنة كل فرقة ظهرت فى الإسلام إلى يوم الناس هذا . وسنفصل هذه المسألة ببعض تفصيل فى غير هذا الموضع .

وابتغاء تأويله : يقول ابن كثير "وابتغاء تحريفه" ، ونقول أو طلب تفسيره على ما يوافق أهواءهم ونزغاتهم ، ومما تحتمله الآية عند بعض المفسرين (٢) أن ابتغاء الفتنة يتناسب المعاند ، وابتغاء التأويل يناسب الجاهل ، والذى نراه أن تاريخ التأويلات شاهدٌ صدق على أن الذين قاموا بالتأويلات الفاتنة هم رؤوس العناد ، وأن الجاهلين كانوا دائما صرعى فتنة الكبراء المزعومين وهلكى تأويلاتهم .

وقبل أن نتم الآية نقف لمناقشة آراء العلماء فى المحكم والمتشابه .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ١٧٦ .

(٢) كالبيضاوى ص ٦٣

المحكم والمتشابه في آراء العلماء :-

بينا فيما سبق أنه لا تناقض في وصف القرآن الكريم بالإحكام والتشابه معا بالمعنى العام للكلمتين ، كما سبق تفصيل ذلك ، لكن سلمتي " المحكمات " و" المتشابهات " وردت على معنى خاص في سورة آل عمران فصار الإحكام فيها مقابلا للمتشابه بحيث لا يجتمع الوصفان معا على آية أو آيات بعينها ، وحتى صارت الكلمتان ذات وضع اصطلاحي اختلفت أنظار العلماء في ضوابطه ، ولبعض علمائنا القدامى - غفر الله لنا ولهم - ولع بتعديد الآراء ، وتضييق الألفاظ والمعاني ، وهو أمر أثرى العلوم الإسلامية ، بقدر ما أتعب الباحثين فيها ، وطمر كثيرا من الآراء الرائدة بين المقولات ، والمقولات .

أورد الزركشي في البرهان[1] والسيوطي في الإتقان[2]، والطبري[3] وابن كثير[4] ، والقرطبي[5]، والرازي[6]، ورشيد رضا[7]، وغيرهم العديد من الآراء، يمكن إجمالها ومناقشتها فيما يلي :-

أ) إن المحكم ما كان دليله واضحا لائحا بالدلائل على وحدانية الله ، وقدرته وحكمته ، وان المتشابه ما يحتاج إلى التدبر والتأمل .

ب - إن المحكم ما لا يحتاج إلى بيان ، والمتشابه ما يحتاج إلى بيان .. وقد روي ذلك عن الإمام أحمد[8]

---

١) انظر البرهان في علوم القرآن جـ٢ صـ٦٨ ، ط: الحلبي

٢) " الإتقان في علوم القرآن جـ٢ صـ٢، ط: بيروت مصورة

٣) تفسير الطبري جـ٦ صـ١٧٠، ٢٠٢ : وما بعدها المعارف

٤) انظر ابن كثير جـ١ صـ ٣٤٥ ، ٣٤٦ ٥) جـ٤ صـ ١١ وما بعدها

٦) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ ١٢٠ ٧) المنار جـ٣ صـ ١٦٣ مصورة ببيروت

٨) نقلا عن المنار كما سبق . مصورة بيروت

جـ المحكم ما لا يحتمل من التفسير إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهاً ، أو بعبارة محمد اسحق بن يسار التي ذكرها ابن كثير [1] " آيات محكمات من حجة الرب ، وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ، وأخرى متشابهة في الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام لا يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرفن عن الحق" .

ويعقب صاحب المنار على هذا الرأي بقوله " إن المحكم عنده بمعنى النص عند الأصوليين ، والمتشابه ما يقابله "

د ـ وقريب منه : إن المحكم هو ما استقل بنفسه ، أو ما تأويله تنزيله ، أو ما كان واضح المعنى ، وان المتشابه هو ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره ، أو هو ما لا يدرك إلا بالتأويل أو كل ما كان فيه إبهام أو إطلاق أو عموم .

٢ ـ إن المحكم ما كان في مقدور العقل العادي إدراكه [2] وان المتشابه ما كان خفي المعنى كأعداد الصلوات وكون الركوع مرة ، والسجود مرتين وأشواط الطواف سبعة ، اختصاص الصيام برمضان دون شعبان .. وهو قريب مما ذكره الماوردي .

٣ ـ إن المحكمات : ناسخة وحلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه والمتشابهات : هي الآيات المنسوخة والأمثال وقد روي عن ابن عباس وابن مسعود

---

(١) نسب هذا القول ابن كثير إلى محمد بن اسحق ، ونسبه ابن جرير إلى محمد ابن جعفر بن الزبير بنقل أدق من ابن كثير ونقله صاحب المنار عن ابن جرير انظر المنار جـ٣ ص ١٦٣ ونسبه القرطبي جـ٤ ص١٠ ، ١١ إلى محمد بن جعفر بن الزبير ثم قال معقبا : قاله ، مجاهد وابن اسحاق ولعله يقصد المعنى نفسه العبارة أثرناها عن عبارة بعض الكتب " ماكان معقول المعنى " : في الأخيرة من إبهام .

٤) إن المحكم من آى القرآن ، ماعرف تأويله وفهم معناه وتفسيره. والمتشابه مالم يكن لأحد إلى علمه سبيل ، مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه ، كوقت الساعة ونزول عيسى ، والحروف المقطعة فى أوائل السور.

ومؤدى هذا الرأى أن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه ولم يعلمه أحداً من خلقه ، كما روى عن الربيع بن خيثم "إن الله تعالى أنزل القرآن ناستأثر فيه بعلم ما شاء" وقد قال عن هذا الرأى القرطبى (١) "إنه أحسن ما قيل فى المتشابه"

٥) المتشابه ماكان إثبات المعنى فيه اللفظ الدال عليه ونفيه عنه ، متساويين .. أو مادل فيه اللفظ على شئ والعقل على خلافه ، فتشابهت الدلالة ولم يمكن الترجيح (٢).

تعريفات تقوم على تخصيص العام :-

فتجعل سورة من سور المحكم أو المتشابه ، هى كل المحكم والمتشابه ومنها :-

١) إن المحكم هو آيات أو سور بعينها ، وإن المتشابه هو آيات بعينها كما روى عن ابن عباس : المحكمات هى قوله تعالى فى سورة الأنعام " قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم " ١٥١ :الأنعام إلى ثلاث آيات، وقوله فى بنى إسرائيل : " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا " ٢٣ : الإسراء . ومن نقد ابن عطية أن يقول : وهذا عدى مثال أعطاه

١) القرطبى فى تفسيره جـ٤ صـ١ ط: الكاتب المصورة عن دار الكتب
٢) نقله صاحب المنار عن الشيخ محمد عبده جـ٣ صـ ١٦٥

فى المحكمات (١) ومثله : إن المحكم هو فاتحة الكتاب التى لاتجزئ الصلاة إلابها ، أو هو سورة الإخلاص ،لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط ،ولما ورد فى فضائلها وخصائصها قاله محمد بن الفضل (٢) .

ومن الآيات المتشابهة (إن الله يغفر الذنوب جميعا) ترد إلى محكم قوله تعالى " إن الله لا يغفر أن يشرك به .. " ١١٦ : النساء وإلى قوله سبحانه " وإنى لغفار لمن تاب "

٢) المحكم : ما أحكم الله فيه بيان الحلال والحرام والوعد والوعيد .

والمتشابه : ما أشبه بعضه بعضا فى المعانى ،وإن اختلفت ألفاظه فإنه يصدق بعضه بعضا كقول الله تعالى :-

" وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين " ٢٦ : البقرة ،يشبه فى المعنى "(كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون)

وبعضهم يذكر هذا التعريف بعبارة " إن المحكم مالم تكرر ألفاظه ، وإن المتشابه ماتكررت ألفاظه "

تعقيب :- هذا التعريف يجعل المتشابه بمعنى ماتماثلت ألفاظه (٣) وهو بعيد عن المتشابه فى آية آل عمران وقريب من معنى التشابه العام الذى لا يكون مقابلا للمحكم بالمعنى الخاص ،بل يكون مقاربا منه .

٣) المحكم : مفصل قصص الأنبياء ،والمتشابه ماتكرر منها وهذا تعريف غير مستوعب أو (غير جامع)

٤) المحكم : مانؤمن به ونعمل به أى الأوامر العملية أو (قسم الإنشاء) بعبارة المنار ،والمتشابه : الأخبار أو " السمعيات " وجعلوا من هذا القسم آيات الصفات . وستأتى مناقشة هذا الرأى .

---

١ ، ٢) انظر القرطبى : ص ٤ ص ١٠

٣) ولذلك يسميه بعض العلماء بالمتشابه اللفظى .

٥) المحكمات : من المكتوبات في جميع الكتب ، روي عن سعيد بن جبير وعن مقاتل بن حيان : ليس من أهل دين إلا يعرفون بهن (١) .
المتشابهات : تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد . قاله ابن كثير (٢)

وقول ابن كثير من حيث المراد " هي تفسير بغايات القرآن الكريم فلا يختلف مراد آية مع أخرى في كتاب الله تعالى .

٦) وقريب من هذا قول الفخر الرازي (٣) التكاليف الواردة من الله تعالى تنقسم قسمين منها ما لا يجوز أن يتغير بشرع وشرع ، وذلك كالأمر بطاعة الله تعالى ، والاحتراز عن الظلم والكذب ، والجهل ، والقتل بغير حق ومنها ما يختلف بين شرع وشرع ، كأعداد الصلوات ، ومقادير الزكوات ، وشرائط البيع والنكاح وغير ذلك فالقسم الأول هو المسمى بالمحكم عند ابن عباس (٤) .
والمتشابه : هو ما يسمى بالمجمل : وهو ما تكون دلالة اللفظ بالنسبة إليه وإلى غيره على السوية إلا بدليل منفصل " أ هـ
ويعقب رشيد رضا على قول الرازي بقوله : " هذا رأي مستقل يجعل المعنى الخاص عاما (٥)

٧) وقال الخطابي : المتشابه على ضربين أحدهما إذا ورد إلى المحكم واعتبر به عرف معناه . والآخر مالا سبيل إلى الوقوف على حقيقته ، وهو الذي يتبعه أهل الزيغ ، فيطلبون تأويله ولا يبلغون كنهه فيرتابون فيه ، فيفتنون (٦)

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ١ صـ ٣٤٥
(٢) انظر تفسيره مفاتيح الغيب جـ٧ صـ١٧٠
(٣) كان الأولى أن يقول : إنه هكذا فهم ما ورد منسوبا لابن عباس
(٤) انظر تفسير المنار جـ٣ صـ١٦٤
(٥) انظر الإتقان جـ٢ صـ٣

هل المتشابه مما استأثر الله بعلمه :-

اختلف العلماء والمفسرون حول الوقف في الآية هل هو تام عند إلا الله والواو استئنافية أم أن الآية متصلة والواو للعطف ... وهو خلاف لتثائبه آثارها في فهم الآية وفي موضوع التأويل والمتشابه ، ونحاول هنا عرض آراء الفريقين :-

أ - القائلون بأن الراسخين يعلمون المتشابه يحتجون بما يلي :-

١- إن الخطاب بالمتشابه مع عدم معرفته يكون " كالخطاب بالمهملات "(١) ، ولم يكلف الله خلقه بما لا علم لهم به ، ولم ينزل شيئا من القرآن إلا " ليبتغوا به عباده وليدل به على معنى أرادهُ "(٢)

٢- لا يسوغ لأحد أن يقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم المتشابه فإذا علمه فهو مأمور بالبلاغ منهي عن الكتمان ، وإذا جازت معرفة الرسول للمتشابه مع قوله تعالى " وما يعلم تأويله إلا الله " جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته والمفسرون من أمته (٣)

٣- كان ابن عباس رضي الله عنه يقول " أنا ممن يعلمون تأويله ، أنا من الراسخين " ويقول عند قوله تعالى في عدد أصحاب الكهف :

" ما يعلمهم إلا قليل " ٢٢ : الكهف ، أنا من أولئك القليل (٤) وما كان يقوله ابن عباس ليس ادعاءً ولا مباهاة منه ، بل هو استجابة لدعاء رسول الله صلوات الله وسلامه عليه له " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " ... وما روي عن ابن عباس قال به مجاهد تلميذه وهو مفسر ثبت ثقة .

---

١) عبارة الخطيب الشربيني في تفسير الآية وهو يرد آراء الفريقين
٢) انظر البرهان في علوم القرآن ج٢ ص ٧٢ ٣) نفسه ص ٧٣
٤) ذكر القرآن الكريم الأقوال في عدد أصحاب الكهف " سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل "٢٢ : الكهف يقول ابن كثير في مقدمة تفسيره " فإن الله ذكر عنهم ثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث فدل على صحته .

٤ـ لا مزية للراسخين فى العلم إذا كان موقفهم من المتشابه أن يقولوا " آمنا " فإنّ غير الراسخون أيضا يقولون ذلك ولماذا مدحهم جل وعلا بالرسوخ[1] فى العلم ؟ وهى عبارة لها دلالتها فى القرآن ولغة القرآن "إلا لأن رسوخهم يقتضى أنهم يعلمون أشد من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب". [2]

٥ـ لم يتوقف المفسرون من السلف والخلف أمام آية معينة وتركوا تفسيرها بدعوى أنها من المتشابه ، بل " أمروا القرآن كله على التفسير ، متى فسروا الحروف المقطعة "[3] فى أوائل السور.

٦ ـ وأجابوا على استدلال المخالفين " بأن الله تعالى ذم الذين يبتغون التأويل " ابتغاء الفتنة " والراسخون فى العلم هم أهل اليقين الثابت .[4]

٧ ـ فان اعتراض بأنه كيف يجوز أن تكون الواو للعطف لانها ان كانت كذلك ، وأشرك الراسخون فى العلم انقطعوا عن " يقولون آمنا " لان المعنى لو كان كذلك كان ينبغى أن يكون لفظ الآية " وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم " ويقولون آمنا به ..."

وأجيب بأن يقولون هنا فى معنى المال بأنه قال " والراسخون فى العلم " قائلين آمنا أى يعلمونه مال كونهم قائلين آمنا أى يعلمونه مال كونهم قائلين آمنا كما قال الشاعر بن مفرغ الحميرى :ـ

---

١) الرسوخ الثبات وهو للاجرام : كرسخ الجبلُ والشجرُ والمعانى كرسخ الإيمان فى القلب ، وقال ابن فارس هو من الأضداد

٢) انظر القرطبى جـ٤ صـ ١٨ ٣) البرهان جـ٢ ص ٧١

٥) من تحبير اقوال الشيخ محمد عبده انظر تفسير المنار جـ٣ صـ ١٦٧

٥) نقلا عن البرهان للزرمشى جـ٢ صـ٧٣

الريحُ تبكي شجوها ... والبرق يلمع في الغمامة (١)

يقول القرطبي (٢) : " والبيت يحتمل المعنيين و:

١) الواو : استئنافية ، البرق مبتدأ ، يلمع الخبر ، على التأويل الأول .

٢) البرق : معطوفٌ على الريح ، يلمع في موضع الحال إي لامعا ، على التأويل الثاني .

يقول الزركشي : " والمعنى : يقولون علمنا وآمنا لأن الإيمان قبل العلم محال ، إذ لا يتصور الايمان مع الجهل ، ولو لم يعلموها لم يكونوا من الراسخين ، ولم يقع الفرق بينهم وبين الجهال " (٣)

٨ـ أما دلالة قولهم " آمنا به كل من عند ربنا " على التسليم المطلق ، فإن ذلك لا يتناقى مع العلم ، لأنهم يعلمون المتشابه برده إلى ما نصبه الله من الدلائل في المحكم والمتشابه قد يكون متشابها في ظاهره أو بالنسبة للبعض دون البعض الآخر ، فإذا علموا تأويل بعضه ولم يعلموا الآخر قالوا آمنا بالجميع كل من عند ربنا ، وما لم يحط به علمنا من خفايا شرعه الصالح فعلمه عنده جل جلاله (٤) لأن من اطلع على ينبوع الحقيقة لا تشتبه عليه المجاري .

---

١) انظر الأغاني جـ١٧ صـ٥٥

٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ٤ صـ ١٧

٣) البرهان جـ٢ صـ ٧٤

٤) انظر المنار جـ٣ ، ١٦٧ والقرطبي جـ٤ صـ ١٨ .

٩ـ فإن قيل[1] أشكل على الراسخين بعض تفسيره ، قال ابن عباس: لا أدرى ما " الأواه " وما " غسلين" قيل : علم بعد ، فسر ما وقف عليه ، وأقطع من هذا أنه تعالى لم يقل كل راسخ فيجب هذا الإحتجاج ، فإذا لم يعلمه أحد علمه الآخر.

١٠ ـ والقول بعلم الراسخين للمتشابه قال ابن عباس ، ومجاهد والربيع بن سليمان ، ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد ، وأكثر المتكلمين ومنهم ابن فورك.

وروى ابن ابى حاتم عن الضحاك[2] قال : الراسخون يعلمون تأويله : لو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ، ولا محكمه من متشابهه ، واختاره النووى فى شرحه لحديث " .. أولئك الذين سمى الله[3]." فى صحيح مسلم ، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته ، وقال ابن الحاجب : إنه هو الظاهر.

ب ـ القول بأن الراسخين لا يعلمون المتشابه :ـ

هذا القول الذى يجعل المتشابه لا يعلمه إلا الله ، وتكون الواو للإستئناف : مروى عن ابن عمر ، وعائشة ، وعروة بن الزبير[4] وابن مسعود وأبى بن كعب وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو مذهب الكسائى والأخفش ، والفراء ، وأبى عبيد ، قال أبو نهيك الأسدى[5] إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة ، وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم " آمنا به كل من عند ربنا "

---

١) انظر القرطبى جـ٤ صـ ١٨.
٢) انظر الإتقان وعلوم القرآن جـ٢ صـ٣ ، جـ٣ صـ ٦ من الطبقة المحققة
٣) وهو الحديث الذى أخرجه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها " فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم وانظر كذلك الإستشهاد بالحديث عند السيوطى جـ٣ صـ ٧
٤) الإتقان جـ٢ صـ٣ وقوله بإسناد صحيح غير مسلم به كما سيأتى بعد
٥) انظر تفسير القرطبى جـ٤ صـ ١٦.

واستدلوا بما يلي :-

١) لا يجوز أن يثبت الله لنفسه شيئا دون الخلق ، ويكون له فيه شريك " قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله " ٦٥ : النمل وقوله سبحانه " لا يجليها لوقتها إلا هو" ١٨٧ : الاعراف.

٢) لو كانت الواو للنسق لم يكن لقوله " كل من عند ربنا " فائدة.

٣) احتجوا بما رواه عبد الرازق في تفسيره والحاكم في مستدركه عن ابن عباس : " .. ويقول الراسخون آمنا به " على أنها قراءة يقول السيوطي : وهذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة فهي خبر بإسناد صحيح (١) إلى ترجمان القرآن ، فيقدم كلامه في ذلك على من دونه .

٤) دلت الآية " فأما الذين في قلوبهم زيغ.." على ذم متبعي المتشابه ، ويقول الرازي (٢) " وتخصيص الذم بطلب بعض المتشابه دون بعض ترك للظاهر وهو غير جائز" .

٥) " إن الله مدح الراسخين بأنهم يقولون " آمنا " وقال في البقرة "فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم " فلو كانوا عالمين بتأويل المتشابه على التفصيل ، لما كان لهم في الإيمان به مدح لأن كل من علم شيئا على سبيل التفصيل لابد وأن يؤمن به "

٦) " إذا كان اللفظ له معنى راجح ، وقام دليل أقوى على أن ذلك الظاهر غير مراد . خرج الأمر إلى المجاز ، والقول بالمجاز يقوم على الترجيحات اللغوية الظنية ، والقول بالظن في ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بإجماع المسلمين "(٣)

٧) واستشكلوا لغة أن تكون الواو للعطف في الآية كما نقل ذلك القرطبي عن الخطابي(٤) "... وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه . لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا .

---

١) الإتقان جـ٢ ص ٧٦ الطبعة المحققة.
٢) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ٧ ص ١٧٦ نفس المصدر والصفحة
٣ نفس المصدر والصفحة ج ٢
٤) أنظر الجامع لأحكام القرآن جـ٤ ص٩

(يعني بالفعل المضمر يعلمونه على تقدير والراسخون في العلم يعلمونه قائلين آمنا ..) ولا تذكر حالا الا مع ظهور الفعل فاذا لم يظهر فلا يكون حالا. ولو جاز لجاز عبد الله راكبا أي أقبل عبد الله راكبا وانما يجوز مع ذكر الفعل كقوله: عبد الله يتكلم يصلح بين الناس"

وهذا الذي ذكره الخطابي، وشغب به الرازي، وتابعهما البيضاوي والشربيني، وغيرهما بين جلية القول فيه وهوازه نحويا القرطبي كما أسلفنا في بيان حجج الفريق الأول.

٨- روى عن ابن عباس رضي الله عنهما: "تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير لايسع أحدا جهله، وتفسير تعرفه العرب بألسنتها، وتفسير تعلمه العلماء، وتفسير لايعلمه الا الله" (١)

٩- احتجوا بما رواه عبد الله بن أبي مليكه عن عائشة رضي الله عنها في الصحيحين (٢) وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "اذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم وفي رواية فاذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فهم الذين سمى الله فاحذروهم.

١٠- واحتجوا بما روى من أن رجلا قدم المدينة على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويسمى بصبيغ بن عسل وأخذ يسأل عن المتشابهات. فلما أكثر أخذ عمر عرجونا من النخل فضربه حتى دمى رأسه. وحتى قال. حسبك ياأمير المؤمنين فقد والله ذهب ماكنت أجد في رأسي، وهذه الرواية أخرجها الدرامي (٣) في مسنده عن سليمان بن يسار. وفي رواية أخرى "أن عمر رضي الله عنه أذن له الى أرضه" ويذكر القرطبي (٤) "ان الله ألهمه التوبة فتاب وحسنت توبته".

---

١) أكثر الذين كتبوا في الاية الكريمة ذكروا هذا النقل عن ابن عباس قديما وحديثا وانظر تفسير ابن كثير جـ١ صـ٣ والاتقان جـ٢ صـ٣ والرازي، وغيرهم كثير. ٢) البخاري كتاب التفسير جـ٦ ومسلم وأحمد وابو داود، والترمذي وابن جرير ٣) انظر سنن الدارمي لابي محمد عبد الله ابن عبد الرحمن الوارقي جـ١ وابن كثير وغيرهم صـ١٥ الحديث ١٤٦، والحديث ١٥٠. ٤) انظر الجامع لاحكام القرآن جـ٤ صـ١ وانظر الدارمي والاتقان كما سبق ويقول محقق القرطبي "صبيغ وزان امير بن شريك بن الحنظر وينسب لجده الاعلى عسل بكسر العين" وانظر كذلك القاموس المحيط في مادتي صبغ وعسل.

١١- احتجوا بما أخرجه ابن مردويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا . فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به"

١٢- واحتجوا بما رواه الامام أحمد عن أبي غالب قال سمعت أبا أمامه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى " فأما الذين في قلوبهم زيغ" قال هم (١) الخوارج . وقد رواه ابن مردويه من غير وجه عن أبي أمامه يقول ابن كثير " وأقل أقسامه أن يكون موقوفا من كلام الصحابي ومعناه صحيح ، فأول بدعة وقعت في الاسلام هي فتنة الخوارج وكان مبدؤهم بسبب الدنيا ، عند قسمة غنائم حنين واعتراض أحدهم على عدالة الرسول في القسمة ..." .

١٣- واحتجوا بما ذكره ابن أبي داود في كتاب المصاحف من قراءة مسندة الى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هي "ان تأويله الا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به" وهي مروية من طريق الاعمش (٢)

تعقيب

وهذه القراءة وان ذكرتها بعض كتب التفسير الا انها في الحق ليست الا تفسيرا للآية الكريمة من قول ابن مسعود رضي الله عنه ورأيه.
وليست قرآنا ألبتة وما كان ينبغي للكرام الكاتبين من المفسرين والعلماء أن يتسامحوا في العبارات الى هذا الحد فيذكر التفسير على أنه قرآن وشتان.

* وقد بلغ من تعصب بعض العلماء لهذا الرأي وأن جعلوا الرأي المقابل له من قبيل الزلات حتى ليذكر لنا السيوطي عن ابن السمعاني قوله : " لم يذهب الى القول الأول الا شرذمة قليلة واختاره العتبي ،

---

١) ابن كثير جـ١ ص ٢٤٧ ببعض تصرف.
٢) انظر الاتقان جـ٣ ص ٧ المحققة.

وكان العتبي يعتقد مذهب أهل السنة ، ولكنه سها في هذه المسألة وقال عرو فأن لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة ...»(١)

وهكذا يصبح الرأي العلمي عند مخالفيه من قبيل الهنات والكبوات. والفخر الرازي رحمه الله وهو المولع بذكر الآراء والشبهات أفرط في الاستدلال لهذا الرأي ولايكاد يذكر شيئا من أدلة الرأي الأول.

بيد أن المسألة وقد أشكلت فيها الأوجه وتناطحت فيها الآراء ، أصبحت تنشد من الباحث فصل الخطاب

المتشابه فيه مايعلم ومنه مالا يعلم

ان الناظر بحيدة في آراء الفريقين يقع في حيرة ، فلكل من القولين حجة ناهضة ، واستدلال ظاهر... لكن الممعن في استدلالات الفريقين يستطيع بعون الله الوصول الى نقطة التقاء بينهما وهي :

ان الاثبات والنفي لم يقعا على شيء واحد ، وان آراء السلف في المسألة تكاد تجتمع وتأرز الى أم واحدة ، وان العصبيات المذهبية هي التي تشقق رحم العلم وتنافر بين أهله...

فالمتشابه يتنوع فمنه مالا يعلم البتة كأمر الروح والساعة ، مما استأثر الله بغيبه وهذا لايعلمه ابن عباس ولا غيره ، فالراسخون لايعلمون هذا النوع من المتشابه ...(٢)

وأما مايمكن حمله على وجوه في اللغة ، ومتاح في كلام العرب فيتأول ويعلم تأويله السقيم ، ويزال مافيه مما عسى أن يتعلق به تأويل غير مستقيم ، كقوله تعالى في عيسى عليه السلام «وروح منه» ١٧١: النساء الى غير ذلك، فلا يكون راسخا الا بأن يعلم من هذا النوع كثيرا مما قدر له...»

---

١) الاتقان جـ٢ صـ٣ ، جـ٣ صـ٦ من المحققة.

٢) انظر الجامع للاحكام القرآن للقرطبي جـ٤ صـ١٨.

وعلى هذا القول بتنوع المتشابه ، وانقسامه الى :

١- ماستأثر الله بعلمه من شئون غيبه ، التى لاتتوقف مصالح الخلق على العلم بها ، ولا تتصل هدايته بحجبه عنهم .

٢- والى مايجب على الراسخين علمه من دقائق معانى الآيات ورد متشابهها الى محكمها ، لتزول الشبه عن العقول وتنقشع الوساوس والخطاوات عن الصدور .

* بهذا التقسيم لانجد تعارضا بين روايتين عن ابن عباس يصح فى احداهما بانه ممن يعلمون التأويل ، وفى الأخرى بأن المتشابه قد استأثر الله بعلمه . فهو يعلم من التأويل مايجب على الراسخين علمه ، ويؤمن بالمتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، ولا حاجة للخلق الى علمه .

- يؤيد ذلك أيضا قول ابن عباس الذى سبق ذكره " تفسير القرآن على أربعة أوجه ... (١) وتفسير تفسره العلماء ، وتفسير لايعلمه الا الله " فلعله بذلك - والله أعلم - يقصد نوعى المتشابه السابق ذكرهما

- كذلك فلسنا نعتقل أن عمر رضى الله عنه ضرب صبيغ بن عسل لأنه قدم المدينة مهاجرا فى سبيل العلم ، ليأخذ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من علم القرآن وهداياته ، ما ينفعه وينفع غيره فى الدين والدنيا ، ما نظن أنه ضربه لأنه أراد أن يتدبل من يتابيع القرآن كيف تكون عقيدة المسلم فى خالقه ، وماهى شريعة الخالق / رحمة الخلق وهدايته التى انزلها !

فصدر عمر أوسع ، وعقله أذكى وأكبر من أن يؤاخذ طالب علم حتى ولو كان طالبا غمرا أوقد ! لكن بصيرة عمر أحد من أن تترك عابثا يعبث بحرمة كتاب الله ويلبس على الناس دينهم فالبصيرة

---

١) سبق بتمامه وأوله تفسير لايسع أحدا جهله ، وتفسير تعرفه العرب بألسنتها .

العصرية تفرق بين السائل الذى لاينتصر ، وبين المشكك الخبيث الذى يجب أن يردع ويزجر .

— ومما سبق أيضا نستطيع أن نصرف أى صنف من الناس قال فيهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه "...أولئك الذين عنى الله فاحذروهم"

سبب نزول الآية :—

ومع أن العبرة بعموم لفظ الآية ، الا أن ماذكره المفسرون من أسباب نزولها يعين كذلك على فهمها وهاك ماذكروه :—

١) قيل انها نزلت فى وفد نجران (١) ، لما حاجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسيح ، وقالوا : أليس هو كلمة الله وروح منه ؟ قال : بلى ، فقالوا : حسبنا .

٢) وذكروا أنها فى اليهود حين حاولوا أن يستخرجوا من أوائل السور — بحساب الجمل — مدة بقاء الأمة الاسلامية ، وقال حيى بن أخطب (٢) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلغنا أنه أنزل عليك " ألم " فان كنت صادقا فان ملك أمتك سيكون احدى وسبعين سنة .

٣) وروى عن قتادة قال : هم الكفار الذين ينكرون البعث والذى نراه أن الآية الكريمة نزلت لسبب واحد من الأسباب السابقة وهو على الراجح شبهات نصارى نجران ، ثم هى تشمل بعموم لفظها الظوائف الأخرى ، لذلك حملها بعض السلف على الخوارج كما روى عن أبى أمامة وغيره ولذلك يقول القرطبى (٣) هذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وباطل وصاحب بدعة وان كانت الاشارة بها فى ذلك الوقت الى نصارى نجران ".

---

١) ، ٢) أنظر تفسير القرطبى جـ٤ ص ١٥ وأكثر المفسرين على نزولها فى نصارى نجران

٣) انظر الجامع لاحكام القرآن جـ٤ ص ١٣ .

* ومما تقدم نستطيع أن نفهم أن المحذور هو اتباع المتشابه ، أما تفسير الآيات المشكلة في القرآن ، ومحاولة فهمها بردها الى محكم الكتاب فهذا عمل يثاب عليه المسلم مادام يبتغي بذلك طمأنينة اليقين ، ولا يسلك سبيل المرتابين ولهذا قال عز من قائل " فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .. " ٧: آل عمران

رأي للشيخ محمد عبده في المتشابه :
**********(١)

قال في تفسير المنار " عن المحكمات من الآيات " .. واليها يرجع فان اشتبه علينا شيء نرده اليها وليس المراد بالرد أن نؤوله بل أن نؤمن بأنه من عند الله ، وأنه لاينافي الأصل المحكم .... الذي أمرنا أن نأخذ به على ظاهره الذي لايحتمل غيره الا احتمالا مرجوحا ، مثال هذه المتشابهات : " الرحمن على العرش استوى " ٥: طه ، " يد الله فوق ايديهم " ١٠: الفتح ، (وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) ١٧١: النساء ، هذا رأي جمهور المفسرين .

وذهب جمهور عظيم الى أنه لامتشابه في القرآن الا أخبار الغيب : كصفة الآخرة - وأحوالها من نعيم وعذاب " (٢)

يشير

فالشيخ هنا الى رأيين في المتشابه : رأى بأن المتشابه : بعض ماورد في صفات الله سبحانه : الاستواء ، يد الله ... ماورد في السلام

خلق الله ليس عليه خلقا متمايزا - من غير أب - ، والرأي الآخر هو المتشابه في القرآن الا أحوال الآخرة . لان نسبة الشيخ الرأي الأول الى جمهور المفسرين لايستقيم مع نسبته القول الثاني الى " جمهور عظيم " وعبارة جمهور تفيد غلبية المفسرين وتشعر بأقلية المخالفين أو شذوذهم

---

١) انظر تفسير المنار ج ٣ ص ١٦٥ ط: بيروت المصورة عن الأولى
٢) انظر تفسير المنار ج ٣ ص ١٦٦

ومع هذا فالجمع بين الرأيين ممكن لأنهما غير متضادين [١] ثم يفصل الشيخ القول في نوعي المتشابه فيقول [٢] " بينا أن المتشابه : ما استأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة ، أو ما خالف ظاهر لفظه المراد منه ، وورود المتشابه بالمعنى الأول في القرآن ضروري ، لأن من أركان الدين ومقاصد الوحي الاخبار بأحوال الآخرة ، فيجب الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك على أنه من الغيب ، كالايمان بالملائكة والجن ... فيعرف الراسخون ما يقع تحت حكم الحس والعقل ، ولا يتطاولون الى معرفة الغيب ، فسبيله التسليم ، وعلى هذا يكون الوقف لازما على لفظ الجلالة ، وانما خص الراسخين لأنهم يفرقون بين المرتبتين ما يجول فيه علمهم وما لا يجول ، ومن الشواهد على أن التأويل ما يؤول اليه الشيء لا ما يفسر به قوله تعالى " يوم يأتي تأويله " ٧ : ٥٣ الاعراف ، فالمتشابه بهذا المعنى من مقاصد الدين لأنه جاء على أصله [٣]

وأما التفسير الثاني للمتشابه : وهو كونه ليس قاصرا على أحوال الآخرة ، بل يتناول غيرها من صفات الله التي لا يجوز في العقل [٤] أخذها على ظاهرها ، وصفات الانبياء " وكلمته ألقاها الى مريم .. " ٤ : ١٧١ النساء ، فان هذا مما يمنع الدليل العقلي والسمعي من حمله على ظاهره فهذا هو الذي يأتي الخلاف في علم الراسخين بتأويله فالذين قالوا بالنفي جعلوا حكمة تخصيص الراسخين . بالتسليم والتفويض هي تمييزهم بين الأمرين واعطاء كل حكمه .

وأما القائلون بالاثبات الذين يردون ما تشابه ظاهره من صفات الله أو أنبيائه الى أم الكتاب الذي هو المحكم ويأخذون من مجموع المحكم ما يمكنهم من فهم المتشابه ، فهؤلاء يقولون انه ما خص الراسخين بهذا العلم الا لبيان منع غيرهم من الخوض فيه ، فهذا خاص بالراسخين لا يجوز تقليدهم فيه وليس لغيرهم التهجم عليه ، وهذا خاص بما لا يتعلق بعالم الغيب " اهـ

لا تعارض بين ايمان الراسخين وعلمهم :-

جعلت بعض الآراء التقابل بين ايمان الراسخين بالمتشابه وبين علمهم به ، وكأن ايمانهم بأن المتشابه كالمحكم كلاهما من عند الله ينافي علمهم به .

بينما نجد القرآن الكريم قد جمع بين العلم والايمان في عدة مواضع كما في قوله جل ذكره

---

١) وهذا ما تبينه الشيخ بعد قليل
٢) المنار جـ٣ ص ١٦٧ ، ١٦٨
٣) يعني بهذه العبارة أن الايمان بالغيب من مقاصد الدين وكذلك المتشابه
٤) ونقول : العقل ليس حكما على النص .

"وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم" ٥٤ :الحج، وقوله جل ذكره " لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك " ١٦٢ : النساء — مع بيان أن الآية السابقة هى فى صفة أهل الكتاب الذين آمنوا ، والواو فيها لاتفيد المغايرة وإنما هى من قبيل عطف البيان لاجتماع صفتى العلم والإيمان فيهما .

وقال عز من قائل: " وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث" ٥٦ : الروم — فجمع كذلك بين علمهم وإيمانهم وإذاً فأن الذين أوتوا العلم هم الذين يدفعهم إيمانهم إلى أن يعلموا بأن ماتشابه هو من عند الله وكما يقول ابن تيميه (١) (فأهل العلم لم يرتفعوا عن درجة الإيمان كما يتوهمه طائفة من المتكلمة) .

ونضيف بأن المتصوفة يتوهمون العكس أى بأرتفاع درجة الإيمان عن العلم . والمنهج السديد أنه لا إيمان إلا بالعلم كما قال سبحانه خطابا لإيمان الأنبياء صلى الله عليه وسلم " فاعلم أنه لا الله إلا الله .. " ١٩ محمد .

ولقد حث ربنا سبحانه على تدبر القرآن فى عديد من آيات القرآن كما فى قوله جل ذكره: " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " ٢٤ : محمد وقال سبحانه : " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب " ٢٩ : ص وما ماثل ذلك من الحث على فقه القرآن وتدبره من المسلمات فى الإسلام ، ولعله من المسلم به كذلك أنك لاتكون متدبرا للقرآن إلا بالوقوف على معانى آياته كلها بالقدر الذى يفتح الله به على سالك الطريق إليه وفى ذلك تتفاوت القدر والمراتب لكن الأمة كلها لايحجب الله عنها هداية القرآن وأنواره .

كذلك فإن الله تبارك وتعالى قد نفى الإختلاف عن آيات القرآن كما فى قوله جل ذكره: " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " ٨٢ :النساء، فالآية الكريمة ربطت بين الدعوة إلى التدبر وبين نفى الإختلاف عن القرآن ، لأنك لاتعلم سلامة القرآن من الإختلاف إلا بتدبره وكما يقول ابن تيمية (٢) " فنفى الإختلاف عنه لايكون إلا بتدبره كله وإلا فتدبر بعضه لايوجب الحكم بنفى مخالفة مالم يتدبر لماتدبر "

---

(١) الإكليل فى المتشابه والتأويل لابن تيمية صـ ٦ طـ: التراث ببيروت مصورة .
(٢) الإكليل صـ ٣١ .

وقد ذم الله تبارك وتعالى فريقا من أهل الكتاب بقوله " ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون " ٧٨ : البقرة - فالجهل بكتاب الله أو ببعض أحكامه أو معانى آياته مذمة ، ولقد سئل على رضى الله عنه . هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء فقال : لا . والذى خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه وما فى هذه الصحيفة " وكان فيها العقل ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر " (١) ويعقب ابن تيمية على هذا الحديث بقوله . فأخبر (يعنى عليا) أن الفهم فيه (٢) مختلف فى الأمة والفهم أخفى من العلم والحكم قال تعالى " ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما " ٧٩ : الأنبياء .

ولتفاوت الأمة فى فهم القرآن والعلم به قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم : ((... فرحم الله امرأ سمع مقالتى هذه فوعاها ثم أداها فرب مبلغ أوعى من سامع)) لذلك نجد أن القرآن الكريم قد لام الكافرين بقوله " وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا " ٢٥ : الأنعام " فلو كان أهل العلم والأيمان على قلوبهم أكنه أن يفقهوا بعضه لشاركوهم فى ذلك ، وقوله تعالى " أن يفقهوه " يعود إلى القرآن كله " بنص عبارة ابن تيمية فى الإكليل .

ويقول مجاهد : تلميذ ابن عباس والمفسر التابعى الجليل " عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره ثلاث مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها " .

ولم يستثن مجاهد المتشابه من القرآن بل طلب العلم بكل آيات القرآن وتلقى ذلك عن ترجمان القرآن وحبر التفسير ابن عباس .

ويدور حول هذا المعنى قول الحسن البصرى " ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما أنزلت ، وماذا عنى بها ، وما استثنى من ذلك متشابها ولا غيره "

علم التأويل غير علم المعنى :

والمحققون من العلماء يفرقون بين علم تأويل الآية وعلم معناها ويستشهدون لذلك بفهم سديد لقوله تعالى " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله " ٣٩ يونس ففرقت الآية بين العلم وبين مجىء التأويل . ومثال ذلك أن القرآن أخبر بكثير من الغيب عن أحوال المعاد والجنة ونعيمها وأحوال أهلها الطيبين . وعن النار ولظاها وأهوالها . وحدثنا القرآن . عن صحف الأبرار وصحائف الأشرار وعن موازين الحساب كل ذلك وردت به آيات كريمات نعلم علمها ولا نعلم تأويلها أى أن الآيات واضحة الدلالة بينه الهداية فهذا علم الآيات . أما تأويل هذه الآيات أى حقيقة هذه

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الديات (٢) أى فى القرآن .

الآيات أى حقيقة هذه الأخبار وماهية صحف الجزاء والمداد الذى كتبت به الصحف وصفة الميزان وكنه النار التى يعذب الله بها عباده فإننا نقف من كل ذلك عند ماجاء به الخبر فى كتاب الله وماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال عز من قائل: "فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون" ١٧، السجدة ، وكما ورد فى الحديث القدسى الذى حدثنا به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم " أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر " وحول هذه المعانى الكريمة جاء قول ابن عباس رضى الله عنه " ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء " .

فخمر الآخرة مخالفة لخمر الدنيا ، وثمرات أشجار الجنة تخالف فاكهة الدنيا ، وإنما وجه المشابهة فى الإسم أكثر من كونها فى المسمى . بل إن التشابه فى رزق أهل الجنة هو كما أخبرنا العلم الخبير .. " كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها .." ٢٥، البقرة .

فالتأويل إذاً هو مايؤول إليه الشىء وحقيقة المخبر به ، فالمؤمنون يؤمنون بكل ماجاء به القرآن من خبر ، وأما " الذين فى قلوبهم زيغ " فإنهم يثيرون التساؤلات - المريضة والشبهات المغرضه حول خبر القرآن . فيسألون عن الميزان وماهيته وعن الأعمال وكيف توزن وهى معنوية ؟ أم هل تجسد وكيف تجسد ؟

ويسألون عن النار وعن وقودها وكيف تشتعل الحجارة فيها وكيف وكيف ؟ يسألون سؤال العابثين والمتعنتين . وبالجملة فهم يثيرون مالا يعد ولا يستقصى من الشكوك والريب حول أخبار القرآن ، وتلك صورة من بين صور كثيرة من اتباع المتشابه . كما قال جل ذكره: " فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله " ونلاحظ هنا ، أن القرآن الكريم قال: "يتبعون ماتشابه " ولم يقل يطلبون العلم الحق ، أو يبتغون اليقين المطمئن فى أمر المتشابه ، وأن القرآن الكريم قال: "ابتغاء الفتنة " ولم يقل ابتغاء الهداية . وأنه قال كذلك " ابتغاء تأويله " أى معرفة حقيقته التى يصير إليها ولم يقل ابتغاء علم معناه وطلب فهمه وتدبره . وهنا يكون جواب القرآن القاطع " ومايعلم تأويله إلا الله " أى : ومايعلم حقيقة هذه الأخبار والمغيبات إلا الذى تفرد بخلق كل شىء ، ووسع علمه كل شىء . وهذا هو الفرق بين علم التأويل ، وعلم المعنى ولعلنا بهذه المحاولة تكون قد جمعنا على وفاق بين ماظهر تعارضه من الأقوال حول هذا الموضوع . ونختتم هذه الفاصلة بعبارة

فاقهة لابن تيمية قال [1] في تفسير قوله تعالى " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله " ٣٩ يونس . فرّق بين الأحاطه بعلمه ، وبين إتيان تأويله ، فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والأيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله ، وأن الأحاطه بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فأن الأحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به . وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به : فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة المخبر به هي : معرفة تأويله ... وأنما أنزل الله القرآن ليُعلم ويُفهم ، ويُفقه ويُتدبر ويُتفكر فيه محكمه ومتشابهه وإن لم يُعلم تأويله "

منزلة التأويل العملي من الشريعة:

يستطرد ابن تيمية في إحدى فتاويه لبيان منزلة التأويل من الشريعة فيقول [2] "ثم هي أي الشريعة مستعملة في كلام الناس على ثلاثة أنحاء:-

١- شرع منزل : وهو ما شرعه الله ورسوله .

٢- شرع متأول : وهو ما ساغ فيه الإجتهاد [3]

٣- شرع مبدل : وهو ماكان من الكذب والفجور ، الذي يفعله المبطلون بظاهر من الشرع أو البدع أو الضلال الذي يضيفه الضالون إلى الشرع.

ثم يتحدث ابن تيمية عن محاولات بعض المارقين الإنسلاخ من النص، والفكاك من الشرع بدعوى أن هذا العمل من قبيل السياسة فيقولون هذا يعمل بالشرع "وهذا يعمله سياسة فيقال لهم: هذه السياسة إن قلتم هي مشروعة لنا فهي حق ، وهي سياسة شرعية ، وإن قلتم : ليست مشروعة لنا فهذه مخالفة للسنة، ثم قول القائل بعد هذا : سياسة ، إما أن يريد : أن الناس يسايسون بشريعة الإسلام ، أم أن هذه السياسة من غير شريعة الإسلام ؟

فإن قيل بالأول فذلك من الدين ، وإن قيل بالثاني فهو الخطأ .. "

لماذا ذكر الله المتشابه في القرآن:

يحسن بنا قبل أن نذكر الرأي المختار في علة ذكر المتشابه في القرآن ، أن نذكر بعض آراء العلماء في هذه المسألة ، مع تمحيصها .

---

(١) انظر الأكليل ص ١٣ ، ١٤

(٢) الفتاوى جـ ١٩ من مجموعة أعمال ابن تيمية ص ٣٠٨ ط الرياض

(٣) الإجتهاد هو في فروع الشريعة لا في أصول العقيدة ، والواضح أنه يعني هنا التأويلات التي تتعلق بفهم الأوامر والنواهي ، وهي التأويلات العملية .

ذكر الفخر الرازى فى تفسيره الكبير "مفاتح الغيب"(١) عدة آراء فى فوائد ذكر المتشابه نذكر منها :-

١- لو كان القرآن محكما بالكلية ، لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد ، وكان تصريحه مبطلا لكل ما سوى ذلك المذهب ، وذلك مما ينفر أصحاب المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه ، فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملا على المحكم والمتشابه ، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يقوى به مذهبه ويؤثر مقالته ، فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب ويجتهد فى التأمل فيه صاحب كل مذهب ، فإذا بالغوا فى ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات ، فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق .

٢- لوجود المتشابه افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات والعلوم الكثيرة من لغته ونحو ، وأصول الفقه .

٣- إن القرآن إذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الإستعانة بدليل العقل وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد ..

أما لو كان كله محكما لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ يبقى فى الجهل والتقليد .

٤- الوجه الرابع (٢). وهو السبب الأقوى إن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية ، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمر عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام فى أول الأمر : إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ، ظن أن هذا عدم ونفى ، فوقع فى التعطيل ، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه ، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح ، فالقسم الأول وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر يكون من باب المتشابهات ، والقسم الثانى : وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر - هو المحكمات .

مناقشة صاحب المنار للشيخ الرازى فى آرائه :

يقول الشيخ رشيد رضا (٣) فى تفسير المنار معقبا على آراء الرازى هذه بقوله "إنه رحمة الله تعالى لم يأت بشئ نير ، ولم يحسن بيان ما قاله العلماء ، وأسخف هذه الوجوه وأشدها تشوها "الثانى" وهو الأول فى ترتيبنا" .

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى حـ ٧ صـ ١٧٢

(٢) فى الأصل : الخامس لأنه ذكر خمسة وجوه ذكرنا منها حتى الآن أربعة .

(٣) أنظر تفسير المنار حـ ٣ صـ ١٧٠

ولا أدرى كيف أجاز له عقله إن القرآن جاء بالمتشابهات ليستحيل أهلَ المذاهب إلى النظر ، وأن هذا طريقٌ إلى الحق !!

"أين كانت هذه المذاهب عند نزوله ؟ ومن اهتدى بأحدها بهذه الطريقة ؟ ويقرب من هذا مقاله فى بيان السبب الأقوى من دعوة العوام إلى المتشابهة أولا !!!" أ هـ

موقفنا من المسألة:

قد يرى بعض من تهولهم الأسماء أن رشيد رضا قد قسا وتجنى فى حكمه على الرازى ومانراه " بغير تعصب إلا قد أوجز وترفق وإلا فأن ماقاله الرازى مازال محتاجا إلى بسط القول فى تفنيده ودحضه على النحو التالى:

١- يشتم من آراء الرازى أنه يخمز المحكم و يرى أن المتشابه أعون على الدعوة وأدعى إلى الإيمان . وذلك بنص قوله " وذلك مما ينفر أربابَ المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه . ولعل من نافلة القول أن المذاهب التى كان المتشابه سببا فى إيمانها وعليه أقامت قواعدها هى المذاهب التى قال الله فيها "فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيبتغون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله" وهى المذاهب التى برأ الله قرآنه منها فى قوله جل ذكره: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " ٨٢ النساء ، ولعلهم أيضا الذى عناهم القرآن بقوله " الذين جعلوا القرآن عضين" ٩١ الحجر ، فهذه المذاهب قد جعلت القرآن يخالف بعضه بعضا ويضرب بعضه بعضا وهى المذاهب التى برَّأ اللهُ رسولَه منها بقوله سبحانه : " إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء " .

والشيخ الرازى يعلم حق العلم أن الله ماأنزل قرآنه إلا هداية للناس كافة، ماأنزله ليحتج به القائلون بالحلول ووحدة الوجود من الصوفية على مذاهبهم المفارقة للإسلام ، وماأنزله ليكون دليلا للقائلين بالإمام المعصوم "لامعصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم " والقائلين برجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كرجعة عيسى عليه السلام والذين يتخذون من آيات القرآن إشارات لسب أصحاب رسول الله وزوجاته وغير ذلك من عقائد الشيعة . ولم ينزل القرآن ليتخذ منه المُشَبِّهَةُ أدلةً على التجسيم فكأنهم يعبدون صنما ، ولاليتخذ منه النفاة أدلةً على التعطيل فيعبدون عدما .

لم ينزل القرآن ليكون مطاوعا لأغراض هذه الفرق جميعا . ثم إن هذه الفرق ماذ قرن فتنتها فى الإسلام إلا بعد أن أنزل الله كتابه واستأثر برسوله صلى الله عليه وسلم . وإلا بعد أن ذاعت الأهواء وتحكمت النزغات .

٢- قوله: أما لو كان كله محكما . لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية ، فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد " وإنما لنعجب من أمر الرازي كيف يكون المحكم داعية إلى " البقاء في الجهل والتقليد " أو ليس المحكم من القرآن هو كما قال الله سبحانه وتعالى: " منه آيات محكمات هن أم الكتاب" ثم إننا نقول للشيخ الرازي غفر الله لنا وله إن هداية القرآن هي الهداية ، وإن دلائله هي البصائر وإن حديثه عن " الدلائل العقلية" هو من لغو المتكلمين الذي شغبوا به على نصوص القرآن فصرفوها عن هداياتها وأغراضها .

٣- قوله: لوجود المتشابه افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات: إلخ .. نقول: إن القرآن نزل أول ما نزل لعرب أفحاح كان منهم من سبق لعظمته ، وكان منهم من استكبر عن هدايته ، سالكا كل طريق لحربه . لكن عتاة المشركين هؤلاء لم يسلكوا طرق التأويلات التي سلكتها الفرق الخارجة ، والمذاهب الباطنة والتي كانت أنكى على الإسلام من أعدائه ، وإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أعلمَ الناس بكتاب الله ولم يسلكوا طرق التأويلات . ولم يعرفوا قياس أرسطو وغيره .

٤- قوله: إن السبب الأقوى . هو أن طبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام: إثبات موجود ليس بجسم ولا متميز .. إلخ هذا القول اختلاط فكيف يوهم القرآن الناس بالتجسيم حتى يؤمنوا بإله مجسم وحتى لا يقعوا في التعطيل ثم بعد ذلك يتدرج بهم إلى معرفة الحقيقة .

ومن شطط القول أن يقول الرازي: فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح .. إلخ .

معاذ الله وهل القرآن كله إلا الحق الصريح وهل من الأدب مع القرآن أن نقول أنصي خاطب العامة بما يناسب أوهامهم وخيالاتهم ؟ وهل جاء القرآن إلا لإبطال الأوهام كلها والقضاء على الخيالات الباطلة . وإنما عنينا بمناقشة آراء الرازي، لأننا وجدنا بعض العلماء من السالفين والمعاصرين تناقل عنه هذه الآراء اغترارا بها ، وقد كان من العلم ما ينأى بهم عن المتابعة والتقليد (١)

١- نقل الشيخ الفاضل محمد الخضر حسين رحمه الله هذه الآراء في محاضرة عن المحكم والمتشابه ألقاها على طلاب تخصص المادة "بكلية أصول الدين" ونشرت بالهداية الإسلامية بعدد ي جمادى الأولى والآخرة ١٣٦٥ هـ ، وأعيد نشرها بعد وفاته رحمه الله في ١٣٩١هـ في كتاب عنوانه " بلاغة القرآن ".

غفر الله لنا وللرازى وتجاوز عن سيئاتنا وسيئاته . ولا نريد أن نطيل بمناقشة بعض الآراء الأخرى عن علة وجود المتشابه حتى لا تبدو الرسالة وكأنها تتبع لعثرات العلماء فإن الكمال لله وحده والعصمة لأنبيائه ورسله .

الرأى المختار فى علة وجود المتشابه:

١ـ سجود العقل البشرى: من الركائز الأساسية فى دين الله ، أن يتبين المسلم أن العقل وحده ، لا يستطيع الإنفراد بهداية صاحبه ، ولا يقدر أن يستقل بالتشريع الهادى الخير الإنسان ، فأنزل الله كتابه ، فجعل منه المحكم الذى لا تلتبس دلالته على أحد من الخلق ولا يعذر بجهله أحد ، وجعل المتشابه فى كتابه محنة لعقول العلماء ، وبيانا لقصور أفهام الخلائق .

٢ـ المعنى التعبدى: من ركائز إيمان المؤمن (الإيمان بالغيب) ، وفى الايمان بما لا يعلم من " المتشابه " إيمان بالغيب ، فكما تعبد الله عباده بالعبادات العملية ، تعبد عقولهم بالأخبار الغيبية ، ولذلك امتدح المتقين بصفتى الإيمان والعمل ، وبيّن أن القرآن مصدر هدايتهم إلى ذلك فى قوله سبحانه " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون " ٢، ٣ : البقرة .

٣ـ الغرض الإعجازى: المتشابه فى القرآن ، سر من أسراره الربانيه ، ووجه من وجوه إعجازه ، وخصيصة من خصائصه ، فالقرآن كلام الله ووحيه ، والله سبحانه قد جعل للقرآن من فرائد الخصائص ما ليس لسواه من الكتب السماوية .

٤ـ الاجتهاد فى التدبر: وجود المتشابه داعية إلى تدبر القرآن وفهمه ومعرفة طرائق هدايته ، وذلك برد المتشابه إلى المحكم ، وهذا داعية إلى تدبر القرآن كله ، لا تدبر بعضه دون بعض ، وهذا بدوره يظهر منازل العلماء ، ويرد القائلين على القرآن بغير علم عن غيهم ، ويعلّم طالبَ العلم أدبَ العلم فى قوله سبحانه " .. فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون " ٧: الأنبياء ، وقوله جل جلاله : " .. ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم " ٨٣: النساء .

طوائف الناس
حيال المتشابه (١)

انقسم الناس في قضية المتشابه إلى أربع فرق :

١ ـ أهل الإثبات والتنزيه :

وهؤلاء لا يرون في القرآن الكريم آيه عاطلة عن المعنى ، فهم يثبتون لله من الصفات والكمالات ما أثبته لنفسه ، وينزهونه عن مشابهة الخلق ، فهم يؤمنون بألفاظ الآيات المتشابهة ، ويؤمنون بمعانيها ، ويفوضون في كيفية هذا المعنى ، ولا يجعلون صفه للخالق هي بعينها صفة للمخلوق فهو إثبات بغير تأويل ولا تعطيل ، وبغير تشبيه ولا تمثيل .

٢ ـ المفوضة :

وهؤلاء يؤمنون بألفاظ الآيات المتشابهة ، ولا يريدون التعرض لمعانيها ، فألفاظها ذكرت للتلاوة والتعبير ، ويفوضون في المعنى والكيف معا ، لأن الله سبحانه أعلم بمراده ولذلك تروى هذه الطائفة قولة الإمام مالك عن الإستواء بصيغة تتفق مع منهجها وهي : " الإستواء مذكور .. " أي أن ألفاظه مذكورة في القرآن ، وهذا تحصيل حاصل وأما الرواية الصحيحة فهي " معلوم " أي معناه في لغة القرآن معلوم ، وأما كيف هذا المعنى فهو المجهول والسؤال عن الكيف هو البدعة والإيمان به واجب . (٢)

٣ ـ المجسمة :ـ

وهؤلاء يثبتون اللفظ ، ويجعلونه معناه مماثلا لما ينسب ويضاف إلى البشر ، ويجعلون الكيف كالكيف وعنهم يقول ابن تيمية : " المجسمه يعبدون صنما .. "

٤ ـ المؤولة :

وهم يصرفون ألفاظ الآيات المتشابهة عن ظواهرها إلى المجازات بدعوى الخوف من التشبيه ، وهذا التأويل كثيرا ما كان سلما إلى التعطيل .

وعن هاتين الطائفتين (٣) يقول ابن قيم الجوزية (٤) :

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا ... إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه عن أوصافه ... إن المعطل عابد البهتان
من شبه الله العظيم بخلقه ... فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن عن أوصافه ... فهو الكفور وليس ذا إيمان

(١) تمضي هذه التصريفات على قصر المتشابه على " الصفات " ومن العلماء من يخرجها من المتشابه أصلا ، وهذا منهج ابن حزم وابن تيمية .
(٢) سيأتيك حديث عن فهم ابن حزم للمتشابه وحرمة تتبعه والكلام فيه .
(٣) أعني الجسمة والمعطله .
(٤) الأبيات من نونيته وهي المسماة بالقصيدة الكافية الشافية .

أنواع المتشابه
عند بعض العلماء

١ - المتشابه والمشتبه في رأى ابن حزم :

يفرق ابن حزم بين المتشابه والمشتبه فيقول [1] : " حض الله تعالى على تدبر القرآن ، وأوجب التفقه فيه ، والضرب في البلاد لذلك . ووجدناه تعالى قد نهى عن اتباع المتشابه منه ووجدناه عليه السلام قد أخبر بأن المتشابهات هي التي بين الحرام البين والحلال البين [2] - لا يعلمها كثير من الناس ، فكان ذلك فضلا لمن علمها . فأيقنا أن الذي نهى عز وجل عن تتبعه هو غير الذي أمر بتتبعه وتدبره والتفقه فيه ، وأيقنا بلا شك أن المشتبه الذي غبط عليه السلام عالمه هو غير المتشابه الذي حذر من تتبعه . هذا الذي لا يقوم في المعقول سواه : إذ لا يجوز أن يكلفنا تعالى طلب شيء ، وينهانا عن طلبه في وقت واحد : فلما علمنا ذلك وجب علينا لطلب المتشابه [3] الذي أمرنا بطلبه ، لنتفقه فيه . وأن نعرف أيّ الأشياء هو المتشابه الذي نهينا عن تتبعه فنمسك عن طلبه .

مسائل ليست من المتشابه عند ابن حزم :

ويلحق بعض العلماء بالمتشابه ما ليس منه فيصل ابن حزم المسألة قائلا :-

فنظرنا في القرآن وتدبرناه كما أمرنا تعالى فوجدناه جاء بأشياء منها :

١ - التوحيد وإلزامه ، فكان ذلك مما أمرنا باعتقاده والفكرة فيه ، فعلمنا أنه ليس من المتشابه الذي نهينا عن تتبعه .

٢ - ومنها صحة النبوة وإلزامنا الإيمان بها ، فعلمنا أن ذلك ليس من المتشابه الذي نهينا عن تتبعه .

٣ - ومنها الشرائع المفترضة والمحرمة والمندوب إليها والمكروهة والمباحة ، وذلك كله مفترض علينا تتبعه وطلبه ، فأيقنا أن ذلك ليس من المتشابه الذي نهينا عن تتبعه .

٤ - ومنها تنبيه على قدرة الله تعالى وذلك مما أمرنا بالتفكير فيه بقوله تعالى " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت " ١٧ الغاشية ، وبقوله تعالى : " ويتفكرون في خلق السماوات والأرض " ١٩١ آل عمران ، مثنيا عليهم ، فأيقنا أن ذلك ليس من المتشابه .

٥ - ومنها أخبار سالفة جاءت على سبيل الوعظ لنا ، وهي مما أمرنا بالإعتبار به بقوله تعالى " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب " ١١١ يوسف: فأيقنا أن ذلك ليس من المتشابه الذي نهينا عن تتبعه .

٦ - ومنها وعد أمرنا وحضضنا على العمل لاستحقاقه ووعيد حذرنا منه وكل ذلك مما أمرنا بالفكرة فيه لنجتهد في طلب الجنة ونفر عن النار ، فأيقنا أن ذلك ليس من المتشابه الذي نهينا عن تتبعه .

---

(١) انظر " الإحكام في أصول الأحكام " مجلد ١ ص ٤٩٠ ط : الإمام .
(٢) كان الأولى تقديم الحلال لأنه الأعلى ، ولأنه الأصل .
(٣) كذلك بالأصل ، والسياق أن تكون " المشتبه " .

التشابه فى رأى ابن حزم :

والمتشابه فى القرآن عند ابن حزم هو : الأحرف المقطعة ، والأقسام التى فى أوائل السور، يقول ابن حزم [1] : " وإنما طلبناه — أى المتشابه — لنعلم ماهيته ، لا كيفيته ولا معناه ، فلم نجد فى القرآن شيئا من المتشابه حاشا الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض السور ، وحاشا الأقسام التى فى أوائل بعض السور أيضا ، فعلمنا يقينا أن هذين النوعين هما المتشابه الذى نهينا عن اتباعه وحذرنا النبى صلى الله عليه وسلم من المتبعين له ، وكذلك وجدنا عمر رضى الله عنه ، قد أوجع صبيغا [2] ضربا على سؤاله عن تفسير والذاريات ، فصح ضرورة [3] أن هذين القسمين هما المتشابه الذى نهينا عن ابتغاء تأويله ... فحرام على كل مسلم أن يطلب معانى هذه الأحرف: كهيعص حم عسق ، ألم .. ومعانى هذه الأقسام : والنجم ، والطور ، والمرسلات ، والعاديات وما أشبه ذلك [4]

القول بأن المتشابه هو ما اختلف فيه من أحكام القرآن :

يصف ابن حزم هذا الرأى بأنه خطأ فاحش ، مستدلا بأن الآراء المختلفة لابد وأن الحق فى بعضها واضح لمن طلبه طلبا صحيحا ، والله سبحانه قد ضمن لعباده بيان أحكامه فقال : " لتبين للناس ما نزل إليهم " .

والاحكام المختلف فيها فرض علينا علمها والعمل بها وأما المتشابه فقد نهينا عن تتبعه [5]

القول بأن المتشابه هو ما تقابلت فيه الأدلة : [6]

يصف ابن حزم هذا الرأى بالفساد ، لأن تقابل الأدلة باطل ولا يمكن وجوده أبدا فى الشريعة والحق لا يتعارض أبدا ، وإنما أتى من أتى فى ذلك لجهله ببيان الحق ، ولإشكال تمييز البرهان عليه مما ليس ببرهان ... ولا سبيل إلى أن يأمرنا الله تعالى بطلب أدلة قد ساوى فيها بين الحق والباطل ..... " اهـ

هذه بعض آراء ابن حزم عن المتشابه وأنواعه ، عرضناها بإيجاز لما لابن حزم من منهج خاص ، ونظرة مستقلة .. وهى أقوال يؤخذ منها ويطرح ... لكن الرجل دائما يحاول بأن يستدل لرأيه بما يراه هو دليلا وقد يخالفه فيه غيره

٢ — الفخر الرازى ونظرته إلى المتشابه وتقسيمه له :

يقول الفخر الرازى رحمه الله : [7] " المتشابه : هو أن يكون أحد الشيئين مشابها للآخر ،

---

(١) انظر " الإحكام " المجلد الأول صـ ٤٩١ ط : الإمام .

(٢) قصه صبيغ قد وردت فى هذه الرسالة وقيل عنه كان يحنث الناس بالسوامض والسؤالات المشكلة، وفى القرطبى جـ ١٧ صـ ٢٩ أن عمر رضى الله عنه ضربه لسؤاله عن الذاريات " .. وروى القرطبى أن رجلا سأل عليا رضى الله عنه عن الذاريات فقال له : ويلك سل تفقها ولا تسأل تعنتا .. "

(٣) ما يعاب على الفقيه الجليل ابن حزم استعماله هذه الألفاظ " يقينا " " ضرورة " وما شابهه ذلك فى مسائل ظنية لا يقين فيها ولا قطع .

(٤) انظر الإحكام ج ١ صـ ٤٩١ باختصار (٥) نفسه بإيجاز

(٦) نفسه صـ ٤٩٢ بإيجاز

(٧) انظر تفسيره مفاتح الغيب جـ ٧ صـ ١٦٨

بحيث يعجز الذهن عن التمييز ، كما فى قوله تعالى : " إن البقر تشابه علينا " ٧٠ : البقرة ، " وأتوا به متشابها " ٢٥ : البقرة : مختلف الطعوم ، متفق المنظر ، " تشابهت قلوبهم " ١١٨ : البقرة ، ويقال : اشتبه عليه الأمران إذا لم يفرق بينهما ، أو بينهما أمور متشابهات ، شبهات ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التمييز بينهما صار كل ما لا يهتدى الإنسان إليه بالمتشابه ، اطلاقا لاسم السبب المسبب .

ونظيرا لمتشابه : المشكل : سمى بذلك لأنه أشكل ، أى : دخل فى شكل غيره ، فأشبهه وشابهه ، ثم يقال لما خفى وكان غموضه من هذه الجهة مشكل .

ويحتمل أن يقال : أن الذى لا يعرف أن الحق ثبوته أو عدمه ، كان الحكم بثبوته مساويا للحكم بعدمه فى العقل والذهن ، وشابهها له ، وغير متميزا أحدهما عن الآخر بمزيد رجحان ، فلا جرم سمى غير المعلوم بأنه متشابه .

الاشتباه من جهة دلالة اللفظ .

ثم يقول الرازى :

إذا كان اللفظ موضوعا لمعنى ، لا يحتمل غيره ، فهذا هو النص ، وإذا كان اللفظ محتملا لمعنى راجح على المعنى الآخر كان ظاهرا . وإذا كان اللفظ محتملا لمعنى مرجوح دون المعنى الاخر كان مؤولا . فإن كان الإحتمال على التسوية سمى مشتركا .

وبالنسبه لكل واحد منهما على التعيين يكون مجملا .

والنص والظاهر : مشتركان فى حصول الترجيح .

النص راجح مانع من الغير ، والظاهر راجح غير مانع من الغير .

فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمحكم .

وأما المجمل والمؤول فمشتركان فى أن دلالة اللفظ عليهما غير واضحة .

أنواع المتشابه عند الرازى :-

ثم قال (١) : " ... وقد علمنا فى الجملة أن أقسام الآيات هى :-

١ - ما يتأكد ظاهرها بالدلائل العقلية ، فذاك هو المحكم حقا .

٢ - الذى قامت الدلائل القطعيه على امتناع ظواهرها فذاك هو المتشابه .

٣ - الذى لا يوجد مثل هذه الدلائل على طرفى ثبوته وانتفائه ، بمعنى أن الأمر اشتبه فيه "

٣ - رأى أبى اسحق الشاطبى :-

قسم الشاطبى فى " موافقاته " المتشابه إلى قسمين :

١ - متشابه حقيقى : وهو ما لا سبيل إلى فهم المراد منه .

٢ - متشابه إضافى : وهو ما اشتبه معناه للإحتياج إلى مراعاة دليل آخر ، فإذا تقصى

(١) انظر تفسيره جـ ٧ صـ ١٦٩

المجتهد أدلة الشريعة ، وجد فيها ما يبين معناه

ثم يقول : والتشابه بالمعنى الحقيقى قليل جدا ، وبالمعنى الإضافى كثير .

ثم بين فى كتابه " الإعتصام " صورا من اتباع المتشابه ، فقال [1] : " ومن اتباع المتشابهات الأخذ بالمُطْلَقات قبل النظر فى مقيداتها ، والعمومات قبل لها مخصصات أولا ؟ وكذلك العكس ، بأن يكون النص مقيدا فيطلق ، أو خاصا فيعم بالرأى من غير دليل سواه ، فإن هذا المسلك رمى فى عماية واتباع للهوى فى الدليل .

ومنه دعاوى أهل البدع على الأحاديث الصحيحة مناقضتها للقرآن ، ومناقضة بعضها بعضا وفساد معانيها ، أو مخالفتها للعقول "

٤ — أحمد بن تيميه [2] :—

والذى لا سبيل إلى معرفته من المتشابه عند ابن تيميه هو معرفة حقائق الغيب التى أخبر الله بها معرفة كنهٍ وماهيةٍ ، وما سوى ذلك فكتاب الله كله هو البيان الأكبر .

أما المحكم : فهو — فى نظرة ابن تيمية — جاء فى القرآن مقابلا لثلاثة معان :—

١ — المحكم الذى يقابل المتشابه ، ويكون الإحكام فى التمييز والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة حتى لا تشتبه بغيرها .

٢ — المحكم الذى يقابل المنسوخ ، والمنسوخ : يدخل فيه اصطلاح السلف : كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح ، كتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، فإن هذا متشابه لأنه يحتمل معنيين ، ويدخل فيه المجمل ، فإنه متشابه وأحكامه رفع ما يتوهم فيه من المعنى الذى ليس بمراد ، وكذلك ما رفع حكمه "

فالمنسوخ بالمعنى السابق نوع من المتشابه عند ابن تيمية .

٣ — المحكم الذى ينسخ الله به ما يلقيه الشيطان فى معانى القرآن وإليه العبارة فى قوله تعالى : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد " ٥٢ ، ٥٣ : الحج .

والمعانى الثلاثة المقابلة للمحكم ليست منفصلة بل هى متداخلة ، فقد جعل المنسوخ متداخلا فى المتشابه ثم قال عن أحكام النوعين : " فإن فى ذلك جميعه نسخا لما يلقيه الشيطان فى معانى القرآن [3] " .

٥ — الراغب الاصفهانى :—

قال فى المفردات [4] : " الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب :—

(١) انظر " الإعتصام " للشاطبى جـ١ صـ ٣٢٩ ، ٣٣٠

(٢) سبق أن نقلنا عن ابن تيمية خلال هذه الرسالة فلاحظنا عدم التكرار .

(٣) انظر الإكليل فى المتشابه والتأويل مصورة ببيروت ضمن مجموعة الرسائل الكبرى صـ ٧ وما بعدها ببعض تلخيص وتصرف .

(٤) انظر مفردات القرآن له ، وانظر الإتقان جـ٣ صـ ١١ ط : المحققه .

١ — محكم على الإطلاق . ٢ — متشابه على الإطلاق .

٣ — ومحكم من وجه ومتشابه من وجه . "

وهو بهذا التقسيم يشابه الفخر الرازى تماما ثم يقول : " والمتشابه بالجملة ثلاثة أضرب :—

١ — متشابه من جهة اللفظ فقط . ٢ — من جهة المعنى فقط .

٣ — من جهتيهما .

رأى الإباضية فى المتشابه :—

الإباضية هى الفرقة الباقية من فرق الخوارج [1] ، ويصرف عن الخوارج شدته تمسكهم بأمور ، وخلافهم ومفارقتهم للجماعة فى أمور ونحب أن لا نستبق الحكم قبل أوانه المقدور ، وعرض وجهة نظرهم يقول صاحب كتاب الجامع [2] " اختلف الناس فى المحكم والمتشابه ، فقال قوم : إن المحكم هو الناسخ ، والمتشابه هو المنسوخ ، وقال قوم : إن المحكم هو الفرائض والوعد والوعيد ، وإن المتشابه هو القصص والأمثال . وقال قوم : المتشابه هو قوله : ألم ، وألمص ، وكهيعص ، حم وما يحتمل تأويلين متساويين فى اللغة ، والمحكم هو الذى تأويله تنزيله ، وتجب فى القلب معرفته عند سماعه .. والمحكم عندنا — والله أعلم — ما كان حكمه معلقا بظاهره لا يحتمل وجهين مختلفين كقوله : " لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد " ٤٥٣ : الإخلاص

وقوله : " ليس كمثله شىء وهو السميع البصير " ١١ : الشورى ، وقوله : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " ٥٦ : الذاريات ، وقوله : " حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم .... " ٢٣ : النساء ، ونحو هذا . وأما المتشابه فهو ما لا يعلم المراد به فى ظاهر تنزيله .

وإنما يرجع فى حقيقته ذلك من وجوه التأويل إلى المحكم له ، كقوله جل ذكره : " يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله " ٥٦ : الزمر ، وقوله : تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر " ١٤ : القمر ، وقوله : " خلقت بيدى " ٧٥ : ص ، وقوله " .. مما عملت أيدينا .. " ٧١ : يس ، وقوله : " يضل من يشاء ويهدى من يشاء " ٨ : فاطر ، وقوله : " وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون " ٩٣ : التوبة ، وقوله " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم " ٥ : الصف . ويدل على ما قلنا قول الله تعالى : " فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله " ٧ : آل عمران ، يقول — والله أعلم — إن الذين فى قلوبهم مرض وهم المبطلون إنما يتبعون ما يتعلقون به ، ويرونه حجة إن كانوا متأولين من أهل الملة ، ويظنون أن فيه مطعنا إن كانوا ملحدين فيما يحتمل تأويله فى ظاهره وبالله التوفيق [3] " . أهـ

وعن علة وجود المتشابه يقول [4] : " لو كان القرآن كله محكما لسقطت المحنة وتبلدت العقول وبطل التفاضل والإجتهاد ، ... واستوت منازل العباد .. " .

---

(١) يتمثل وجود أتباع هذه الفرقة الآن فى إمارة عمان وهم من العرب ، وفى ليبيا وتونس والمغرب وهم فى هذه البلاد من بقايا البربر ولا يشكلون فى هذه البلاد جميعا إلا قلة قليلة بالنسبة لعدد السكان .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة البهلوى العمانى الإباضى من فقهاء القرن الرابع الهجرى وكتابه " الجامع " طبع فى عام ١٣٩١ هـ الموافق ١٩٧١ م وقال محققه عيسى يحيى البارونى أنه يخرج لأول مرة من عالم المخطوطات والطبعة مع جودة الورق وحرف الطبع ملأى بالتصحيفات .

(٣) الجامع صـ ٥٠ ، ٥١

(٤) نفسه صـ ٥٦

آراء بعض العلماء المعاصرين فى المتشابه

١ — الشيخ الخضر حسين [1] :

يقسم المتشابه إلى قسمين : أحدهما : يعده البعض من المتشابه وليس منه ، والآخر : هو المتشابه ، وعبارته هى : " وليس من شك فى أن هناك آيات كثيرة وأحاديث قد يعدها بعضهم من قبيل المتشابه ، وينبغى إخراجها من دائرة الإختلاف ، حيث أنه يمكن فهمها على وجه صحيح لاكلفة فيه ، ونضرب المثل لهذا : آيات أو أحاديث تشتمل على ألفاظ عرف فى كلام العرب إستعمالها فى معان على وجه الكناية أو المجاز وصح حملها على هذه المعانى المعروفة فى الإستعمال ، كقوله تعالى " بل يداه مبسوطتان .. " ٦٤ : المائدة ، فإن حمل الآية على معنى الجود واضح لاشبهة فيه " [2]

تعقيب ونحن معه فى أن معنى الآية واضح لاشبهة فيه ، ولكن الخلاف فى الآية وقع بين مثبتة الصفات ونفاتها ، وبين القائلين بالمجاز والجاحدين له وتفصيل ذلك فى مواضع أخر .

ثم يقول الشيخ رحمه الله " ويخرج عن موضع الإختلاف آيات الأحكام إذ ليس لأحد أن يقول فى آية أو حديث يرجع إلى التشريع إن هذا مما استأثر الله بعلمه " .

تعقيب وهذا الرأى الذى نقلنا مثله منذ قليل عن ابى محمد بن حزم وتعقبنا عليه إن الإشتباه يرد على آيات الأحكام من جهة النسخ وعموم اللفظ أو خصوصه وإطلاق الحكم أو تقييده ، وإذا كان بعض العلماء عرف المتشابه بأنه المنسوخ ، والنسخ يتعلق بالأحكام فمن هذا وغيره يأتى الإشتباه .

ويقول الشيخ [3] " والمعروف بين أهل العلم ، إن السلف يعدون فى المتشابه ألفاظا واردة فى الآيات والأحاديث تدل بمقتضى استعمالها العربى على صفات أو أفعال يستحيل إضافتها إليه تعالى ، نحو قوله تعالى " الرحمن على العرش استوى " ٥ : طه .

تعقيب : مع احترامنا للشيخ رحمه الله نقول : القول بأن صفات الله من المتشابه موضع خلاف ليس فى موضعه إن شاء الله ولكن كيف ينسب الله سبحانه إلى نفسه صفة أو فعلا يستحيل نسبتها إليه بمقتضى معناها فى لسان العرب ؟؟؟

هل نزل القرآن الكريم بغير العربية ودلالات ألفاظها عند أهلها ؟

وهل الإستواء وغيره من الصفات التى جاء بها الكتاب الكريم أو صحت عن الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم هل هى إلا صفات الكمال والجلال ، فكيف يستحيل نسبتها إلى الله سبحانه ؟

---

(١) هو محمد الخضر حسين التونسى شيخ الأزهر الأسبق ، ولد بنفطة بتونس عام ١٨٧٤ ورحل إلى مصر وتولى بعض المناصب العلمية وكان يصدر مجلة الهداية الإسلامية وله جهاد بالقلم واللسان يذكر فيشكر وتوفى ١٩٥٨ م .

(٢) من محاضرة للشيخ عن المحكم والمتشابه ، أعيد نشرها بعد وفاته رحمه الله فى كتاب اتخذ له ناشره عنوانا هو " بلاغة القرآن " والعنوان بعيد عن موضوع الكتاب الذى تدور أكثر بحوثه ومقالاته فى الرد على شبهات مرضى القلوب حول كتاب الله ، وانظر ص ٤٣ من الكتاب المذكور .

(٣) انظر نفس المصدر السابق .

رأى الشيخ شلتوت رحمه الله فى معانى المتشابه :ـ

يختار الشيخ من آراء المتكلمين والأصوليين قولين[1] :ـ

١ ـ خلاصة القول إن المتشابه هو ما يوهم ظاهره معنى لا يليق بجلال الله ، ولا يتفق مع دلالة المحكم فى تنزيه الله عن صفات الحوادث ، فإما أن يؤمن به المسلم على وجه لا يتنافى مع التنزيه ، ولا يجنح إلى تعيين المراد منه بالتأويل ، فيبقى له سره محفوظا فى الغيب الذى لا يعلم حقيقته إلا الله ، وإما أن يصرفه عن ظاهره ، ويعين له معنى يدل عليه ويؤمن به على هذا الوجه ، وذلك بأن يقال كما قالوا : الإستواء بمعنى الإستيلاء ... وعلى هذا الوجه لا يكون من المتشابه بمعنى ما استأثر الله بعلمه ، وإنما هو من المتشابه الذى يحتاج فى معرفة معناه إلى الرجوع للمحكم فيعلمه أرباب القدرة على هذا ، وهم الراسخون فى العلم والأمر على هذا الرأى الأخير واضح فى أن القرآن ليس فيه متشابه بمعنى ما استأثر الله بعلمه

١ ـ والثانى أن المتشابه المقابل للمحكم هو ما تعددت جهات دلالته ، وكان موضعاً لخلاف العلماء ، ومحلا لاجتهادهم ، وذلك يرجع إما إلى الإختلاف فى معنى " لفظ " مفرد ورد فى الآية : كالقرء فى الحيض والطهر ، أو فى معنى مركب كما نرى فى قوله تعالى : " للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم " ، وإما إلى تحكيم حديث صح عند الفقيه فى معنى الآية بينما غيره لم يحكمه فى معناها بسبب من الأسباب التى يراها ، وأمثلة ذلك كثيرة مبسوطة فى كتب الخلاف يعرفها أهل العلم بالفقه ، وهى المقصودة " بالأمور المشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس " ، وعلى هذا يكون المتشابه بعيدا عن دائرة ما استأثر الله بعلمه وليس هما نتكلم فيه . "

بين المتشابه والمشتبه مرة أخرى :

تعقيب : والقارئ لما يكتبه الشيخ شلتوت يلمح فيه عمق الإستيعاب وهضم الآراء المختلفة ، فإذا عاد إلى إفرازها وجدت عليها اجتهاده الخاص به وأما رأيه فى المتشابه والمشتبه[2] فإن التفرقة بينهما بهذا العمق العلمى سائغة ومقبولة وهو أن يكون المتشابه ما أوهم ظاهره خلاف مراده ، وذهب فيه العلماء إلى الإثبات مع التنزيه أو التفويض مع الإيمان أو إجراء التأويل ، وكون المشتبهات هى المسائل التى لا يقف على دقائقها إلا الراسخون فى العلم .

أثر من فكرة التقريب :

ولقد كان الشيخ شلتوت من عمر فكرة التقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية : السنية والشيعية وفكرة التقريب إذا تمت برد المذاهب إلى الدليل من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه فذلكم هو قصد السبيل ، وهو الحق الذى يتغيه كل مسلم غيور فاقه ، ثم إن فروع الأحكام

---

(١) انظر تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت الطبعة الخامسة دار الشروق ص ٥٨ ، ٥٩

(٢) من الذين فرقوا بين المتشابه والمشتبه الفقيه الأندلسى أبو محمد على بن حزم ، ورأيه فى المتشابه مختلف عن رأى الشيخ كما سبق أن بينا .

العملية تقوم على الظن الراجح دون اليقين القاطع فالمجتهد فيها متقلب بين الصواب والخطأ وليست المسألة كذلك فى العقائد والأخبار ، فالأمر فيها إما حق أو باطل وتصديق أو جحود ، ومما ينسب للإمام الشافعى رحمه الله قوله : " لما ابتغيت طلب العلم ، وجدت المتكلمين يكفر بعضهم بعضا ، ووجدت الفقهاء يخطئ بعضهم بعضا ، وليست التخطئة كالتكفير ، فسلكت طريق الفقهاء " لكن شلتوتا الفقيه — غفر الله له — يرى أن ما يجوز فى الفقه قد يجوز فى الخبر ، فقد قال [1] : " وكما وجدنا المتشابه بهذا المعنى [2] فى القضايا الفقهية ، نجده أيضا فى قضايا أخرى لا تتعلق بصفات الله وتنزيهه ، ولا بعقيدة ما ، وذلك كما فى المسائل العلمية التى عرض لها المتكلمون ، واختلفت فيها فرقهم مثل خلق الأفعال ، ورؤية البارى وحقيقة الميزان ، والصراط ، وزيادة الصفات على الذات ، وما إلى ذلك من المسائل التى أثر فيها الخلاف بين فريق المعتزلة ، وأهل السنة وكان لكل فريق — من القرآن — على ما رأى حجته ومستنده . " أ هـ

ونحن نقف عند قوله — رحمه الله : — وكان لكل فريق — من القرآن — على ما رأى حجته ومستنده " ونسأله : —

لماذا قال : من القرآن فقط — ولم يقل من القرآن والسنة ؟ أليس لهؤلاء المختلفين من أحاديث الرسول صلوات الله عليه وسلامه الصحيحة والصريحة ما يبين ما أجمل فى القرآن وما يقطع السبيل على التأويلات الشارده ، ودون التستر بالمجاز واحتمالات الألفاظ .

وقوله : على ما رأى .. فهل الدين بالرأى أو الظن ؟ خاصة والأمر : أمر اعتقاد وتصديق بالغيب .

وقوله : حجته ومستنده نقول إنها احتجاجات بغير حجج واستناد إلى غير سند ، لأن كتاب الله لا يفهم بطنون الفرق وقواعد المذاهب وتعصبات الأحزاب كما يجب أن نقف منه كما علمنا الهادى المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وكما امتثل لهذا سادة الرجال أبو بكر وعمر وجيل الخير الرشيد وأجيال الإتباع السديد ، قبل أجيال الخلف والإختلاف .

ثم يقول الشيخ الفاضل : " ولا ريب أن خلاف المتكلمين فى مثل هذه القضايا هو كخلاف الفقهاء فى مذاهبهم وآرائهم ، ففى النوعين لم يرد الله أن يكلف عباده بقضية معينة ، بل فتح باب الإجتهاد للعقل البشرى ليسلكه الإنسان ، ويحقق نعمة الله عليه فى الإدراك وانفسهم ، والكل فى ذلك مؤ من ناج مرضى عند الله أخطأ أم أصاب "

وتعقيبنا : كيف يسمى الشيخ (الريب) بقوله : " ولا ريب " عن مسألة فيها الشك والاختلاف الوسيع .

وكيف — يجعل الشيخ خلاف المتكلمين كخلاف الفقهاء [3]

---

(١) انظر تفسيره صـ ٥٩ ط : ٥

(٢) الذى ذكره ونقلناه آنفا .

(٣) سنطلع بعد قليل إن شاء الله على عبارات للشيخ تكون فصلا ورشدا فى المسألة ولعلها تكون عوضا مرضيا عن هذه الكلمات السابقة .

فهل الخلاف فى مسح الرأس كلها أو بعضها كالخلاف فى خلق الأفعال ؟

وهل خلق الأفعال مسألة لاتعلق لها بالعقيدة كما قال الشيخ آنفا ؟

وهل دلالة آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم على رؤية البارى ليست بالدلالة البينـــــة ؟

وهل الخلاف فى رؤية الله سبحانه كالخلاف فى رفع اليدين أو إرسالهما أوكيفية وضعهما فى الصلاة ؟ ثم من الذى فتح باب القول فى زيادة الصفات على الذات ؟

هل صحابة الرسول صلوات الله عليه أم متكلمو الفرق ؟ !

وإذا كان الله لم يرد أن يكلف عباده بقضية معينة فى الإعتقاديات السابقة فلماذا ورد خبر القرآن الكريم ودليل السنة المطهرة فى هذه المسائل ؟

وأما قول الشيخ رحمه الله :

" بل فتح باب الإجتهاد للعقل البشرى ليسلكه الإنسان "

والسؤال : هل هذه هى دائرة عمل العقل ؟

وهل يستطيع العقل أن يعرف حقيقة الميزان ، وكيفية وزن الأعمال ، وماهية الصراط ، وماماثل ذلك من أخبار الغيب ؟

وقول الشيخ الفاضل :

"وبحق نعمة الله عليه فى الإدراك والفهم " فإن نعمة الله تتحقق لو خاضت العقول فيما خلقت له ، ولو تدبرت آيات الله حق التدبر فى الأنفس والآفاق ، والشيخ يعلم حق العلم أن خـــوض المتكلمين فيما خاضوا فيه ، لم يكن إلا داعية للفرقة والنزاع ومجلبة للتحاسد والقطيعـــة وضياعا للجهد والوقت .. وفى القرآن الغناء والشفاء .

وأما قولـــــه :

" والكل فى ذلك مؤمن ناج ، مرضى عند الله أخطأ أم أصاب !!! "

والجواب : لوكان الأمر خطأ فى الفروع ، لكانت مقالة الشيخ معانقة للحقيقة ، ولكن أخطـــاء المتكلمين تقولات على الغيب ، وتحكيم للفلسفة ، وكثير من آرائهم هى التعنت والتكلف والإبتداع .

قول مستملح للشيخ شلتوت حول آية آل عمران :ـ

وإذا كنا نكره اهتضام أقدار الرجال ، فلقد ذكر الشيخ هذا الذى ناقشناه فيه عند حديثـــه عن علاقة فواتح السور بالمتشابه ، ثم ذكر عند وقفته أمام الآية السابعة من آل عمران قـــولا يجب نقله عن الرجل رحمه الله لتتم أمامنا صورة فكر الرجل بأضوائه وظلاله ، قال [1] : " يجدر بنا فى هذا المقام أن نعلم أن ماتضمنته هذه الآية ليس خاصا بقضية الألوهية وما يتصل بهـــا

---

(١) انظر تفسيره ص ١٠٧ ، ١٠٨ ومما يجدر ذكره ان كتاب الشيخ شلتوت رحمه الله هى وقفات ونظرات عميقه عند بعض آيات من عشر سور من القرآن الكريم مع عرض اجمالى موفق عنانـــى السـور الكريمـــــه .

من أمر عيسى والنصارى وإنما هو قاعدة كلية فى تعرف منشأ الشبهات التى تميل بالناس عن الحق فى أصول الدين فروعه ، تجعلهم شيعا وأحزابا ، يكفر بعضهم بعضا ويضرب بعضهم رقاب بعض فإذا قال الله : " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة " ٦٢ ٦٣ : يونس ، توسع بعضهم فى تحويل لفظ " لهم البشرى فى الحياة الدنيا " ما توحى به حقيقته التى يبينها ويوضحها محكم الكتاب فى كثير من الآيات الصريحة التى تجعل الأمر كله لله ، يتوسعون بذكر أشياء لا محل لذكرها ، ويغفلون أو يعرضون عن مثل قوله تعالى : " ألا له الخلق والامر " ٥٤ : الأعراف ، " يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه " ٣ : يونس ، " والله يحكم لا معقب لحكمه " ٤١ : الرعد ، " إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه " ٥٧ : الأنعام ، " الذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه " ١٤ : الرعد ، " قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا " ٥٦ : الإسراء وغير ذلك من الآيات المحكمات .

وإذا قال الله : " من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا " ١٧ : الكهف ونحوها من الآيات التى يفهم ظاهرها أن أمر الهداية والضلال ليس مبنيا على اختيار العبد وإنما هو منح وفيض من الله يعطى منهما ما شاء لمن شاء ، وجدنا الفرق قد شهرت أسلحتها واشتبكت فى حرب مظلمة من الجدل العقيم ، الذى إن تحرر فى الغاية فليست سوى اخفاء الحق وتشويه معالمه ، ومحاولة كل أن يظهر على خصمه ، ويعرضون عن بداهة القضية التى يبنى عليها التكليف من الحكم العادل ، والآيات التى لا تعد ولا تحصى فى تقرير أن الجزاء بالعمل والكسب ، " إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون " ٤٤ : يونس .

والقارئ مدرك بفطنته الفرق بين مقالة الشيخ هذه وبين سابقتها فلله دره إذ أرضى الحقيقة بهذه الكلمات ، وغفر له سابقتها .

عوامل بقاء الفرقة والفرق :—

وحتى تزداد الحقيقة اتضاحا نسوق كلمات أخرى للشيخ رحمه الله يعلن فيها مقته لضلالات الفرق وكلماته هى[1] : " لما حدثت بدعة الفرق ، والتطاحن المذهبى ، والتشاحن الطائفى ، وأخذ أرباب المذاهب ، وحاملو رايات الفرق المختلفة ، يتنافسون فى العصبيات المذهبية والسياسية ، وامتدت أيديهم إلى القرآن فأخذوا يوجهون العقول فى فهمه وجهات تتفق وما يريدون .. فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان ، وبهذا أصبح القرآن تابعا بعد أن كان متبوعا ، ومحكوما عليه بعد أن كان حاكما [2] إذا كانت هذه ثورة ! ثورة غير منظمة ، عقدت حول القرآن غبارا كثيفا حجب عن العقول ما فيه من نور الإرشاد والهداية ، وصادفت هذه الثورة عهد التدوين ، فحفظ

---

(١) التفسير صـ ١٠٥ ط : الشروق .

(٢) كلا وألف كلا فما أصبح القرآن تابعا ولن يكون كذلك فهو الحاكم والمتبوع ما دامت السماوات والأرض وبعد أن تتبدلا ، وإنما حاول المبطلون أن يكون القرآن كذلك وأنى لهم ؟! . وهذا هو ما يقصده الشيخ الفاضل رحمه الله .

ودُوِّن كثير من الآراء الباطلة فى بطون الكتب ، وأخذت بحكم الأقدمية ومرور الزمن نوعا من القداسة[1] التى يخضع لها الناس ، فتلقاها المسلمون فى عصور الضعف الفكرى ، والإنحلال السياسى كقضايا مسلمة ، وعقائد موروثة لا يسوغ لهم التحلل منها ولا الإعتداء عليها ولا التشكيك فيها .... وصار كثير من المسلمين يعتقد أن الحلال ما أحله فلان فى كتاب كذا ، وأن الحرام ما حرمه فى كتاب كذا ، بل وصل الأمر ببعض أهل العلم إلى أن يقول : إن هذا الشىء ثابت فى القرآن لأن فلانا وفلانا حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم ... "

المتشابه وأنواعه فى رأى الشيخ عبد الوهاب خلاف :ـ

قال[2] : " المراد بالمتشابه فى اصطلاح الأصوليين ، اللفظ الذى لا تدل صيغته بنفسها على المراد منه ، ولا توجد قرائن خارجية تُبَيِّنُه واستأثر الشارع بعلمه فلم يفسره .

والمتشابه بهذا المعنى ليس فى النصوص الشرعية فيه شىء فلا يوجد فى آيات الأحكام أو أحاديث الأحكام ، لفظ متشابه لا سبيل إلى علم المراد منه ، وإنما يوجد فى مواضع أخرى من النصوص مثل الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور : ألم ، ق ، ص ، حم ومثل الآيات ظاهرها : أن الله يشبه خَلْقَهُ وذكر آيات الصفات .... والذى يظهر لى أنه الحق : هو تفسير المتشابهات فى القرآن بالمشتبهات أى : المحتملات : التى يكون احتمالها مجالا للاختلاف فى تأويلها ، وهى تقابل المحكمات : التى أحكمت عباراتها وحفظت من الإشتباه واحتمال التأويل . فعلى هذا ليس فى القرآن ما لا سبيل إلى علم المراد منه ، وإنما فيه ألفاظ تدل على المراد منها بنفسها من غير اشتباه ولا احتمال للتأويل والإختلاف ، وفيه ألفاظ تدل على معنى ويحتمل أن يراد منها غيره ، وهذه هى مجال البحث والاجتهاد لإزالة الإبهام وتعيين المراد منها بنفسها ولكن أحاطها الشارع بقرائن أو بغيره ألفاظ لا تدل على المراد الحقها ببيان يفسر ما أراد منها ، لأن الله أنزل القرآن للتدبر والذكر ، فكيف يكون فى آياته ما لا سبيل إلى فهمه مطلقا . والمقطعات فى أوائل بعض السور ذكرت للدلالة على أن القرآن الذى أعجز الناس هو مكون من حروف ليس من حروف أخرى غريبة عنهم ، ولهذا ترى أن أكثر السور المبدوءة بهذه المقطعات فيها ذكر الكتاب بعد ورود هذه الحروف .

---

(١) بهذه العبارة وضع يده على بيت الداء فأفصح وأحسن .

(٢) انظر كتابه " علم أصول الفقه " ص ١٧٥ ط : العاشرة .

النجم الرابع

التأويل

بين

منهجين متقابلين

التأويل بين منهجين متقابلين

هذا فصل من القول لو استقصيناه لكان كتابا مفردا ، وإذا كان مالا يدرك كله لا يترك كله فإننا نلم إلمامة يسيرة تلقى بعض الضوء على المراد فتكون معلما على طريق البحث ، ونعني بالتقابل هنا : التضاد .

وأما المنهجان فهما : منهج الاتباع ومنهج الابتداع .

ومنهج الاتباع : هو منهج سلف هذه الأمة وطريق خير القرون .

وأما الابتداع فهو منهج الفلاسفة وكثير من المتكلمين ومن شاكلهم من محكمة الأهواء وأحلاس الفرق وعبيد المذهبيات .

وقد اخترنا الإمام ابن حنبل والشيخ ابن القيم : ممثلين لمدرسة الاتباع ، ومع هذا الإختيار الذى آثرناه فإن هذا لا يعني تمذهبا بمذهب ولا تعصبا لفرد ، ولا ادعاء العصمة لغير المعصوم ، وإنما هى اعتباراتٌ دراسيةٌ منهجيةٌ ، ومع هذا فإنى لا أكتم أحدا الحديث بأن هواى مع ماجاء به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، ومن سار على دربه بإحسان ، ونردد ماردده أمير المؤمنين على رضى الله عنه : "إننا نعرف الرجال بالحق ولا نعرف الحق بالرجال) .

وأما المنهج الثانى فهو منهج الفلاسفة .

وإليك بسط القول :-

موقف الإمام أحمد بن حنبل من قضية التأويل

بلاء الإمام أحمد فى الذود عن السنة معروف ، وموقفه الصَّمُود فى فتنة القول بخلق القرآن : نسأل الله أن يجعله فى ميزانه يوم العرض عليه وكان الرجل يكره القول بالرأى والهوس ، ويميل كل الميل إلى السنة والأثر ... ولقد عاصر البدعَ فحاربها ، وشهد تسرب أفكار اليونان إلى المجتمع الإسلامى فتصدى لها قامعا ببيان القرآن وسنة خير الأنام عليه الصلاة والسلام .

ومع موقف الرجل الرافض للتأويل وماجره على المسلمين من أغلوطات وضلالات ، فقد نسب إليه قبول التأويل كما تقصه الرواية التالية :

قال أبو حامد الغزالى (١) وهو يتحدث عن ضرورة التأويل : والحنبلى مضطر إليه

---

١) انظر كتابه " فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة " ص١٨٤ ط: الحلبى الأولى فى ١٣٨١هـ ١٩٦١ م بتحقيق الدكتور سليمان دنيا ، وقد طبع الكتاب مرارا قبل هذه الطبعة منها ط : الترقى بالقاهرة فى ١٣١٩ هـ

( )

وقائل به ، فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة ببغداد ، يقولون : إن أحمد بن حنبل رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط :

أحدها : قوله صلى الله عليه وسلم :

" الحجر الأسود يمين الله في الأرض " .

والثاني : قوله صلى الله عليه وسلم :

" قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن .." .

والثالث : قوله صلى الله عليه وسلم :

" إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن " .

ويبدو أن كل الذين نسبوا التأويل في هذه المواضع إلى الإمام أحمد تناقلوه عن الشيخ أبي حامد الغزالي ، فالرازي (١) يصرح بنقله ذلك عن الغزالي ، ووهم في النقل فقال : وثالثها قوله عليه الصلاة والسلام عن الله عز وجل " أنا جليس من ذكرني " وهو خلاف ما ذكرناه عن " فيصل التفرقة " في طبعات الكتاب التي تيسر لنا الرجوع إليها ، والزركشي في البرهان (٢) ينقل كذلك عن الغزالي أن الإمام أحمد أول في ثلاثة مواضع (ولم يذكرها ، وإن ذكرها محقق الكتاب في هامشه) ثم يقول وأنكر ذلك عليه بعض المتأخرين " (٣) ,, أهـ

الكلام على هذه الأحاديث :

ولكن البحث العلمي يقتضينا أن نتكلم على بعض هذه الأحاديث : ـ

فأما الحديث الأول وهو " الحجر الأسود يمين الله في الأرض " .

١) انظر " أساس التقديس " لفخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي المتوفى ٦٠٦ هـ ص ٨١ ط : الحلبي .

٢) انظر " البرهان في علوم القرآن " جـ ٢ ص ٨٩ .

٣) أي أنكر على الغزالي بعض متأخري الحنابلة نسبة التأويل إلى إمامهم ولم يصرح الزركشي بأسمائهم ، ويلاحظ أن الزركشي تتلمذ فترة على ابن كثير وسافر إليه في دمشق وابن كثير هو كذلك أحد تلاميذ ابن تيمية ، وهو من أئمة الحنابلة المتأخرين ، كذلك لم يصرح الزركشي بتفاصيل رأي المنكرين .

( )

فالكلام عنه من جهة الإسناد (١) هو كما يلي :

رواه الطبراني في معجمه ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأخرجه الأزرقي في تاريخ مكة وفي لفظ : "إن هذا الركن الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح بها عباده مصافحة الرجل أخاه " .

ورواه القضاعي عن ابن عباس موقوفا عليه .... ومثله مما لا مجال للرأي فيه ، وله شواهد فالحديث حسن ، ولو كان ضعيفا بحسب أصله كما قال بعضهم .

ومن شواهده ما رواه الديلمي عن أنس بلفظ :

" الحجر الأسود يمين الله فمن مسحه بيمينه فقد بايع الله " .

ومنها ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن جابر بلفظ :

" الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده " هذا ما قيل في إسناده .

وأما معناه : فقد قال المحب الطبري :

إن كلَّ مَلِكٍ إذا قُدم عليه ، قُبِّلَتْ يمينُه ، ولما كان الحاجُ والمعتمر يُسَنُّ لهما تقبيلُه ، نُزِّل منزلةَ يمينِ الملك على سبيل التمثيل ولله المثل الأعلى (٢) " أ هـ ملخصا .

والحديث الثاني " إني لأجد نَفَس ربكم من قبل اليمن "

قال القرطبي (٣) في تفسير سورة النصر عند هذا الحديث : " وفيه تأويلان :

أحدهما : أنه الفرج لتتابع إسلامهم أفواجا (٤) .

(١ ، ٢) انظر " كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس " لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي المتوفى ١١٦٢ هـ ، الطبعة الثالثة ١٣٥١ هـ ج ١ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ط : التراث بيروت (مصورة) وانظر كذلك " سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة) لمحمد ناصر الدين الألباني المجلد الأول حديث رقم ٢٢٣ ط : دمشق ١٣٨٤ هـ .

٣) انظر " الجامع لأحكام القرآن " ج ٢٠ ص ٢٣١ .

٤) يعني تتابع إسلام أهل اليمن .

( )

والثاني : معناه أن الله نَفَّسَ عن نبيه صلى الله عليه وسلم الكربَ بأهل اليمن : وهم الأنصار . (١)

وقال الزمخشري في الفائق (٢) بعد أن ذكر الحديث :

النَّفَس : مستعار من نَفَسِ الهواء الذي يرده المتنفس إلى جوفه فيبرد ، أو من نفس الريح الذي يتنسمه فيستروح إليه ويُنَفِّس عنه ، أو من نفس الروضة وهو طيب روائحها الذي يتشممه فيتفرج به ، لما أنعم به ربُّ العزة من التنفيس والفرج وإزالة الكربة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : "لاتسبوا الريح فانها من نفس الرحمن" (٣) وقوله "من قبل اليمن" : أراد ما تيسر له من أهل المدينة من النصرة والإيواء ، والمدينة يمانية " .

ويقال : أنت في نفس من أمرك ، وأعمل وأنت في نفس من عمرك ، أي في سعة وفسحة قبل المرض والهرم (٤) هذا بعض القول نذكره ، ونمسك عن باقيه حذر الإطالة (٥)

• وينسب الرازي إلى الإمام أحمد تأويلا آخر هو (٦) :

" حكى أن المعتزلة تمسكوا في خلق القرآن بما روى عنه عليه السلام من أن سورة البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، فأجاب أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وقال يعني : ثوابَ قارئهما ، ثم قال الرازي : وهذا تصريح بالتأويل أهـ .

وأما الزركشي (٧) فيقول : " حكى ابن الجوزي (٨) عن القاضي أبي يَعْلى تأويلَ أحمد في قوله تعالى "أو يأتي ربك .." ١٥٨ : الأنعام ، قال : وهل هو إلاَّ أمره ، بدليل قوله تعالى " أو يأتي أمر ربك " ٣٣ : النحل " .

ومحصلة القول : أن هذه التأويلات المنسوبة للإمام أحمد رحمه الله ، هي إن صحت

---

١) لأن أصل قبيلتي الأنصار (الأوس والخزرج) من اليمن .

٢) انظر الفائق في غريب الحديث للزمخشري جـ ٣ ص ١١٥ الطبعة الأولى بتحقيق الأستاذين البجاوي وأبي الفضل إبراهيم ، ١٣٦٧هـ ١٩٤٨ م الحلبي بالقاهرة وتجد تشابها حرفيا أحيانا بين فائق الزمخشري ونهاية ابن الأثير مما يدل على انتفاع الثاني بالأول .

٣) إن صح الحديث فالمعنى : من فرج الله وتوسعته على عباده .

٤) ببعض تصرف عن النهاية في غريب الحديث والأثر .

٥) فليلاحظ القارئ أن بحثنا حول " التأويل في القرآن الكريم " .

٦) انظر أساس التقديس ص ٨١ .

٧) انظر البرهان في علوم القرآن " جـ ٢ ص ٧٩ .

٨) أبو الفرج بن الجوزي من علماء الحنابلة وهو من القائلين بالتأويل خلافا لمدرسته وله كتاب " دفع شبه التشبيه ونحن نتفق معه في إنكار التجسيم وقد ذهب ابن تيمية في عديد من كتبه ورسائله إلى القطع بتكفير المجسمة وما نخالف فيه ابن الجوزي رحمه الله المبالغة في التأويل حتى التعطيل .

تأويلات لها أدلتها ووجهتها وليست بالتأويلات التي تستهدف تعطيل صفات البارى سبحانه ، أو تكذيب أخبار الغيب ، أو حل عرى الشريعة ، وهو ما قصدته الفرق — المارقة من إشهار سلاح التأويل إلا أن القضية لم تنته بعد فلا زلنا فى مرية من أخذ الإمام بالتأويل فالتأويل قول بالرأى ، والمأثور عن الإمام أحمد أنه كان لا يرتضى القول بالرأى يقول ابنه (١) عبد الله : (سألت أبى عن الرجل يكون ببلد لا يجد فيها إلا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيمه ، وأصحاب رأى فتنزل به النازلة من يسأل ؟ فقال أبى : يسأل صاحبَ الحديثِ ، ولا يسأل صاحبَ الرأى ضعيف الحديث أقوى من رأى أبى حنيفة) .

ويعقب (٢) ابن حزم على هذه الرواية بقوله : " صدق أحمد رحمه الله ، لأن من أخذ بما بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يدرى ضعفه فقد أجر يقينا على قصده إلى طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أمره الله تعالى ، وأما من أخذ برأى أبى حنيفة أو رأى مالك أو غيرهما فقد أخذ بما لم يأمره الله تعالى قط بالأخذ به ، وهذه معصية لا طاعة " .

وهذا التأويل الذى نسب إلى الإمام أحمد لم نجده فى مظانه من كتب الإمام وتلاميذه ولا ندعى فرط الاستقصاء .

لكننا قد رأينا من علماء الحنابلة من يستنكف نسبةَ التأويلِ ، أو القولِ بالمجاز أو الفتوى بالرأى ، إلى إمام الحنابلة ومن الأمثلة على ذلك :—

أن الإمام أحمد قد ذكر فى رده على الضالين فى متشابه القرآن العبارات التالية (٣)

وأما قوله تعالى لموسى " إننى معكما أسمع وأرى " ٤٦ : طه ، وقوله فى موضع آخر : " إنا معكم مستمعون " ١٥ : الشعراء ، وقالوا كيف قال : " إننى معكما " ؟ وقال فى آية أخرى : " إنا معكم مستمعون " ١٥ : الشعراء فشكوا فى القرآن من أجل ذلك .

وأما قوله : " إنا معكم " فهذا فى مجاز اللغة ، يقول الرجل للرجل : إنا سنجرى عليك رزقك ، إنا سنفعل بك كذا ، وأما قوله :

إننى معكما أسمع وأرى " فهو جائز فى اللغة ، يقول الرجل الواحد للرجل : سأجرى عليك رزقك أو سأفعل بك خيرا " أ . هـ .

---

١) نقلا عن الإحكام فى أصول الأحكام المجلد الأول ص ٧٩٢ .

٢) انظر نفس المرجع والصفحة .

٣) انظر ص ٦٤ من كتاب " الرد على الزنادقة " للإمام أحمد مطبوع ضمن مجموعة .

وقد ورد فى هذا الرد السابق عبارة " فهذا فى مجاز اللغة " .
وهى عبارة ربما أفاد ظاهرها أن الإمام أحمد من القائلين بالمجاز لكن ابن القيم الحنبلى الذى يصف المجاز بأنه " طاغوت(١) يرد هذا الفهم بقوله " (٢) مراد أحمد أن هذا الاستعمال مما يجوز فى اللغة ، أى هو من جائز اللغة لا من ممتنعاتها ، ولم يُرد بالمجاز أنه ليس بحقيقة ، وأنه يصح نفيه ، وهذا كما قال أبو عبيدة فى تفسيره " إنه مجاز القرآن " (٣) ، ومراد احمد أنه يجوز فى اللغة ... ولم يرد أن فى القرآن ألفاظا استعملت فى غير ما وضعت له ، وأنه يفهم منها خلاف حقائقها (٤)

موقف ابن القيم من قضية التأويل

يعد موقف " ابن القيم " من التأويل امتداداً لموقف شيخه " ابن تيمية " رحمه الله فى رفض التأويل وبيان جناياته اللاتى اقترفها فى حق العقيدة الإسلامية ووحدة المسلمين .

أقسام التأويل عند ابن القيم :

يقسم ابن القيم الناس فى هذه القضية إلى خمس فرق :- (٥) .

١- أصحاب التأويل : ويصفهم بأنهم أشد الناس اضطرابا ، إذ لم يثبت لهم قدم فى التفريق بين ما يتأول وما لا يتأول ، وأنهم لم يسيروا على ضابط واحد يجب مراعاته وتمتنع مخالفته .

٢- أصحاب التخييل : ويقصد بهم الفلاسفة ، ومن سار على دربهم ، وهم الذين اعتقدوا أن الرسل لم يفصحوا للخلق بالحقائق إذ ليس فى قواهم إدراكها وإنما أبرزوا لهم المقصود فى صورة المحسوس لأن الرسل لو أخبروا قومهم عن المعاد

---

١) انظر الصواعق جـ ٢ ص ٢ . ٢) انظر الصواعق المرسلة " لابن القيم جـ ٢ ص ٤
٣) كتاب أبى عبيدة معمر بن المثنى : ليس كتابا فى المجاز بمعناه البلاغى الاصطلاحى وإنما هو كتاب فى شرح بعض مفردات القرآن ، ووجه تسميته له بالمجاز فيما نرى أنه مجاز أى مِعْبَر" تعبره الكلمة من حالة غموضها إلى بيان اتضاحها ، ويقع فى جزء واحد
٤) ذكر ابن القيم فى الصواعق جـ ٢ ص٤ أسماء بعض علماء الحنابلة القائلين بالمجاز وآخرين من الحنابلة النافين له وذلك بعد ذلك جملة من غير الحنابلة ما بين مثبت ومانع
٥) انظر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة " جـ١ ص ٧٩ : ٨٥

والروحانى " لم يفهموه ، فقربوا لهم الحقائق المعقولة بإبرازها فى الصور المحسوسة وضربوا لهم الأمثال بقيام الأجساد من القبور ، وبتنعم فى جنة فيها طعام " وحسان " وليس الأمر كذلك فالنعيم روحانى ، والعذاب روحانى كذلك ، وقاعدتهم المنصوبة : إنه لا يجب أن يُتأول شىء من ذلك على خلاف ظاهره للجمهور ، لأن ذلك يفسد ما وضعت له الشرائع والكتب الإلهية ، وأما الخاصة فيعلمون أنها أمثال مضروبة لأمور تعجز عن إدراكها عقول الجمهور ، فتأويلها للجمهور جناية على الشريعة والحكمة .

ويرى ابن القيم أن أهل التأويل يتفقون مع أصحاب التخييل على إبطال حقائق النصوص المفهومة منها فى نفس الأمر .

٣ـ أصحاب التجهيل : وهم الذين جعلوا نصوص الصفات الإلهية ألفاظا لا تُعقل معانيها ، ولا يُدرى ما أراد الله ورسوله منها ، فهى عندهم بمنزلة "كهيعص" "حمعسق" و "ألمص" (١) ، فهذه النصوص عندهم من المتشابه ، وظنوا أن هذه هى طريقة السلف . ويصفهم ابن القيم بأنهم ظنوا أن هذه النصوص أنزلت للتعبد بتلاوة ألفاظها دون تعقل معانيها .

٤ـ أصحاب التشبيه والتمثيل : وهؤلاء شبهوا صفات الله بصفات المخلوقين وابن القيم وشيخه صرحان بتكفير المشبهة ويصفهم ابن تيمية بأنهم " يعبدون صنما " .

٥ـ أصحاب سواء السبيل : وهم الذين هداهم الله للطريقة المثلى فأثبتوا حقائق الأسماء والصفات ، ونفوا عنها مماثلة المخلوقات فكان مذهبهم مذهبا بين مذهبين وهدى بين ضلالتين ، يثبتون له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا بحقائقها ولا يكيفون شيئا منها وإن كان لا سبيل إلى معرفة كنهها وكيفيتها ، فإن الله تعالى لم يكلف كل عباده بذلك ولا جعل لهم إليه سبيلا وهذه أرواحهم التى هى أدنى إليهم من كل دان ، قد حجبت عنهم معرفة كنهها وكيفيتها . فالأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاءُ نظيرها ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها ، وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها ، وهذا هو المثل الأعلى الذى أثبته الله تعالى لنفسه فى ثلاثة مواضع من القرآن الكريم ، وهى قوله تعالى :ـ

" للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم " ٦٠ النحل

---

١) هذه أوائل سور : مريم " " والشورى " والأعراف على الترتيب الذى ذكره .

• " وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " ٢٧ : الروم .

• " ليس كمثله شىء وهو السميع البصير " ١١ : الشورى .

ويذكر ابن القيم جنايات التأويل على المسلمين فى أبيات من شعره فى قصيدته النونية (١)

فيقول :-

هذا وأصلُ بلية الإسلام من ... تأويلِ ذى التحريف والبطلان

وهو الذى فرّق السبعين بل ... زادت ثلاثا (٢) قول ذى البرهان

وهو الذى قتل الخليفةَ جامعَ القرآن ذا النورين والإحسان (٣)

وهو الذى قتل الخليفةَ بعده ... أعنى عليا قاتلَ الأقران

وهو الذى قتل الحسين وأهله ... فغدوا عليه ممزقى اللحمان

---

١) سمى ابن القيم هذه القصيدة " الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية " وقد قام بشرحها فى مجلدين كبيرين الدكتور محمد خليل هراس الأستاذ السابق بقسم العقيدة بكلية أصول الدين رحمه الله وطبعتها مطبعة الإمام بالقاهرة وشرحها أيضا الشيخ أحمد ابن إبراهيم بن عيسى الشرقى وسمى شرحه " توضيح المقاصد وتصحيح القواعد . وطبعه المكتب الإسلامى بدمشق فى ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م .

٢) يشير ابن القيم إلى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود من رواية معاوية رحمه الله قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا إنَّ من كان قبلكم أهل الكتاب أفترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين : ثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة وهى الجماعة وروى برواية أخرى عند أبى داود والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، وهى " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة " وروى بزيادة : " ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة " عند أبى داود والحاكم ، وإسناد الحديث تكلم فيه فريق بالتضعيف وفريق بالتصحيح ... وأما أبو حامد الغزالى غفر الله لنا وله فقد رواه بلفظ " ستفترق أمتى بضعا وسبعين فرقة كلهم فى الجنة إلا الزنادقة انظر فيصل التفرقة ص ١٩٣ الطبعة المحققة وأبو حامد هو كما قال عن نفسه بضاعتى فى علم الحديث مزجاة " ص ٢٤٦ من كتابه " قانون التأويل " الملحق بكتابه " معارج القدس " ط : الجندى بالقاهرة .

٣) يعنى عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه الذى قتل شهيدا مظلوما بيد الغوغاء بتحريض من ضلال التأويلات .

وهو الذى فى يوم حرتهم أبا ... ح حمى المدينة معقل الإيمان (١)
حتى جرت تلك الدماءُ كأنها ... فى يوم عيدٍ سنةُ القربان
وغدا له الحجاج يسفكها ويقتـ ... ـل صاحبَ الإيمانِ والقرآن
وجرى بمكة ماجرى من أجله ... من عسكرِ الحجاجِ ذى العدوان
وهو الذى أنشا الخوارج مثلما ... أنشا الروافضَ أخبثَ الحيوان (٢)
ولأجله شتموا اخيارَ الخلـ ... ـق وسبوا عقد الرسل بالعدوان والبهتان
ولأجله سَلَّ (٣) البغاةُ سيوفهم ... ظنا بأنهمُ ذوو إحسان
ولأجله قد قال أهل الإعتزا ... ل مقالةً هدت قوى الإيمان
ولأجله قالوا بأن كلامه ... سبحانه (٤) خلقٌ من الأكوانِ
ولأجله قد كذَّبتْ بقضائه (٥) ... شبهُ المجوس العابدى النيران
ولأجله قد خلدوا (٦) أهلَ الكبائر ... فى الجحيم كعابدى الأوثان
ولأجله قد أنكروا لشفاعة المختـ ... ـار فيهم غايةَ النكران
ولأجله ضُرب الأمامُ (٧) بسوطهم ... صِدِّيقُ أهلِ السُّنةِ الشَّيبانى

---

١) يشير ابن القيم إلى وقعة الحرة وتسمى بـ (حرة واقم) وواقم موضع يبعد ميلا عن مسجد المصطفى صلى الله عليه وسلم وتعرف أيضا بـ (حرة زهرة) وزهرة قوم من اليهود كانوا يسكنون هذه القرية الفاخمة لطيبة (المدينة) وسبب وقعة الحرة أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وأخرجوا عامله مروان بن الحكم فسيرا ليهم يزيدُ بن معاوية مسلمَ بن عقبة المرى فى جيش لجب ففعل ساحة المدينة واستباح حرمها الكريم ثلاثة أيام حسوما ويذكر بعض المؤرخين أن الوقعة أسفرت عن مذبحة أسيفة قتل فيها جم غفير من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين وحملة القرآن وانظر ماكتبه السهيلى فى (الروض الأنف) وغيره من المؤرخين) .

٢) يشير إلى موقف الشيعة الروافض من تفسيق الخلفاء الراشدين الثلاثة وسبهم لأم المؤمنين عائشة وموقفهم اللئيم من بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣) يشير إلى أن الفئة الباغية تخرج على الإمام الشرعى متأولة أنه على الباطل وأنها على الحق المبين وأمثلة ذلك كثيرة منذ عصر الراشدين إلى يومنا هذا .

٤) إشارة إلى ضلالة القول (بخلقِ القرآن عند المعتزله ٥) يشير إلى عبارة المعتزلة الاقضاء والأمر انف " ٦) يكفر الخوارج مرتكب الكبيرة متأولين قوله تعالى " ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته " ١٩٢ : آل عمران فكل من دخل النار انتفى عنه الإيمان جريا وراء هذا التأويل الفاسد (٧) هو الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى وموقفه فى محابهة المأمون والتصدى للمعتزلة فى فتنة القول بخلق القرآن يذكر فيعطر أريجه الدهر ويشنف سمع الزمان وينعى على بعض حملة العلم عجزهم عن النهوض بتبعات الأمانة وقد جلده المعتصم العباسى بوساط من أخيه المأمون قبيل وفاته .

ولأجله قد قال جهم(١) ليس ربُّ العرش خارجَ هذه الأكوان
كلا ولا فوقَ السموات العلا والعرشِ من ربٍ ولا رحمن
ما فوقها ربٌّ يُطاعُ وجهاهنا تهوى (٢) له بسجود ذى خضمان
ولأجله جُحدت صفاتُ كمالِه والعرشُ أخلوه من الرحمن
ولأجله أفنى الجحيمَ وجنةَ المأوى(٣) مقالةُ كاذبٍ فتان
. . . . . .
ولأجله قُتِلَ ابنُ نصرٍ أحمدٌ(٤) ذاك الخزاعىُّ العظيم الشانِ
إذ قال : ذا القرآنُ نفسُ كلامه ماذاك مخلوقٌ من الأكوان
وهو الذى جرَّ ابن (٥) سينا والألى قالوا مقالتَه على الكفران
فتأولوا خلقَ السمواتِ العلا وحدوثَها بحقيقةِ الإمكان
وتأولوا علمَ الإلٰه وقولَه وصفاتِه بالسلبِ والبطلان
وتأولوا البعث الذى جاءت به رُسُلُ الإلٰه لهذه الأبدان
بمفارقها لمناصر قد ركبت حتى تعودَ بسيطةَ الأركان

---

١) هو الجهم بن صفوان السمرقندى مولى بنى راسب ظهر بترمذ فى أواخر العهد الأموى وينسب إليه الإمام أحمد بن حنبل قولا يضاهى قول الصليبيين فى الحلول أنظر ص ٦٦ من رسالة الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ابن حنبل وتنسب إلى الجهمى عبارة أخرى تفيد القول بوحدة الوجود ، أنظر ص ٦٥ من هامش المرجع السابق .

٢) قال الأصمعى هوى يهوى كرمى يرمى هَوِيًّا بفتح الهاء ومعناها سقط من علو إلى سفل ، والمقصود هنا السجود ، انظر القاموس جـ ٤ ص ٤٠٧ ، مختار الصحاح ص ٧٠٢ ـ ٧٠٣ .

٣) يقال إن الجهم بن صفوان كان من إفكه وزيغه يرى فناءَ الجنةِ والنار .

٤) أحمد بن نصر الخزاعى قتله الخليفة العباسى الواثق لأنه كان يعتقد معتقد أهل السنة فى أن القرآن كلام الله تعالى وليس بمخلوق ، وأن المؤمنين سيرون ربهم يومَ القيامة كما دل على ذلك خبر القرآن والسنة وقد قتل ابن نصر وعلقت رأسه ببغداد وصلب جسده بـ " سر من رأى " ست سنين وهذا ماذكره الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ونقله عنه صاحب توضيح المقاصد فى شرح النونية جـ ٢ ص ٧ ، والذى استنبطه أن بعض الخلفاء العباسيين كان يتخلص من خصومه السياسيين باتهامهم كذبا بالزيغ عن الدين .

٥) هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ولد ٣٧٠ هـ على الرأى المعتمد عند ابن خلكان وأما تأويل الفلاسفة ومنهم ابن سينا لخلق العالم فهو كما يقول الدكتور هراس فى شرحه لهذا البيت : " وتأولوا خلقَ الله للعالم وحدوثَه عنه بأنه مفتقر إليه لإمكان افتقار المعلول لعلته وليس معنى الخلق أو الحدوث أن الله أوجده من العدم والقول بقدم العالم كانت إحدى المسائل التى كفّر بها الغزالى الفلاسفة فى كتابه (التهافت) وانظر شرحه للنونية جـ ١ ص ٢٦٥

وهو الذى جر القرامطة (١) الألى ... يتأولون شرائع الإيمان
فتأولوا العملى مثل تأول العلمى ... عندكم بلا فرقان
وهو الذى جر (٢) النصير وحزبه ... حتى أتوا بمساكر الكفران
فجرى على الإسلام أعظم محنة ... وخمارها فينا إلى ذا الآن
وجميع ما فى الكون من بدع وأحداث تخالف موجب القرآن
فأساسها التأويل ذو البطلان ... لا تأويل أهل العلم والإيمان

---

١) القرامطة فرقة من أخبث الفرق الباطنية تنسب إلى رجل يقال له حمدان بن قرمط وتأويلاتهم العملية تقوم على هدم أركان الإسلام بالكلية ، فالصلاة : هى البيعة للإمام ، والصيام : هو الإمساك عن كتمان السر وما شابه ذلك .

٢) نرجح أن النصير الذى يقصده ابن القيم هو محمد بن نُصَيْر النمرى وهو رأس لفرقة من غلاة الشيعة قال عنها النوبختى فى كتابه " فرق الشيعة ص ٧٨ : " وقد شذت فرقة من القائلين بإمامة على بن محمد فى حياته فقالت بنبوة رجل يقال له : محمد بن نصير النمرى وكان يدّعى أنه نبى بعثه أبو الحسن العسكرى وكان يقول بالتناسخ " أ هـ وانظر كذلك الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٨٨ بتحقيق كيلانى ، ولكن الدكتور هراس رحمه الله قد ذهب فى شرحه للنونية إلى أن المقصود بالنصير هو نصير الدين الطوسى شارح إشارات ابن سينا ، انظر شرح النونية جـ ١ ص ٢٦٦ ويروى أن نصير الدين هذا كان يحرض " هولاكو " زعيم التتار على المسلمين .

التأويل والفلسفة

" كانت الفلسفة نبعا ثرا لحركة التأويل لكن ماء النبع كان مدافا إليه السم ، فكانت الفلسفة ترفد التأويل بسبب من أسباب الحياة ، وسبب من أسباب الموت ، ... ثم استطاع التأويل أن يحيا ، لا بفعل الحصانة الواقية من السموم ، ولكن لأن هذه السموم أصبحت عنصرا من أمشاج بنيته ، ورافدا من روافد حياته .

وفي الصحائف التالية نظرة إلى تاريخ العلائق بين التأويل والفلسفة والإمامة بنتائج هذه العلائق " .

التأويل الفلسفى ظاهرة تاريخية :

التأويل ظاهرة تاريخية : مسألة تكاد تكون مسلمة لدى الباحث الدارس لأفكار المتدينين (١) ، سواء كانوا أتباعا لدين سماوى صحيح كالإسلام ، أو دين اعتوره التجريف والتبديل كاليهودية والمسيحية ، أو كانوا أتباعا لعقائد وضعها طواغيت البشر كالهندوكية والبوذية .

كل هؤلاء عرفوا التأويل ومارسوه بالحق وبالباطل ، ولأسباب مختلفة أحيانا ، ومتشابهة ومتقاربة أحيانا أخرى ، ولبواعث وأهواء لا تخلو منها النفوس البشرية - إلا من رحم ربك - فى كل زمان ومكان . وكون التأويل ظاهرة تاريخية عرفت فى التفكير الدينى ، لا يعنى أنها فى كل صورها على الهدى والصراط المستقيم .

لكننا قد وجدنا باحثا معاصرا له علمه وقدره ، قد تناول هذه القضية مجانبا فيها للصواب ، ساكتا عن الزائفين من متهودة الكتاب ، هذا الباحث هو : الدكتور محمد يوسف موسى - عفا الله عنه - الذى تصدى لهذا القضية فقال (٢) :

" إن الذى عنى بدرس التفكير الدين لدى أصحاب الديانات العالمية : اليهودية والمسيحية والإسلام ، وتتبع الموقف الذى كان لأكثر هؤلاء المفكرين إزاء نتائج التفكير الفلسفى العالمى ، ينتهى فيما نعتقد إلى الرأى الذى انتهينا إليه فى هذه الناحية ، وهو أن تأويل النصوص الدينية ، لتتفق وبعض الأفكار الفلسفية الصحيحة ، ظاهرة تاريخية فى التفكير الدينى " تأمل قوله : أصحاب الديانات ... وما فى هذا التعبير من تجاوز ، ولو قال المنتسبين إلى الأديان ، أو المحسوبين أو المتسمين بها لكان أقرب للحق رُحمى ، وأما قوله أصحاب ... مع تبديل اليهود والنصارى لوحى الله ، ومع ضلال تأويلات الفلاسفة المنتسبين للإسلام فليس من تحصيل القول .

وتأمل قوله : فيما نعتقد فالأمر عنده بلغ مبلغ " الاعتقاد " وليس مجرد : ظن أو رأى أو حسبان . وتأمل وصفه للأفكار الفلسفية بأنها صحيحة !! أو وصفها لبعضها . ثم إغراره ضمنا لأن تكون الفلسفة أصلا تحمل عليه النصوص الدينية .... وهذا مستنكر فى حكم الإسلام .

.....

وقد عقدنا فصلا سابقا عن التأويل عند أرباب الأهواء والنحل ، وسنرى فى هذا الفصل مدى جناية الفلسفة على عقائد المسلمين ووحدتهم .

---

(١) نعنى بالمتدينين فى هذا السياق : الذين يدينون بدين .

(٢) انظر كتابه : بين الدين والفلسفة : فى رأى ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط الطبعة الثانية لدار المعارف بالقاهرة صـ ١١١ وما بعدها من فصل عنوانه التأويل عند الأديان العالمية ، والدكتور محمد يوسف موسى درس بالأزهر وجامعات فرنسا ، ثم عاد وشغل وظائف التدريس بالأزهر وكلية الحقوق .

كيف تسللت الفلسفة إلى المجتمع الإسلامى :

اتسعت الرقعة الإسلامية فى عهد الراشدين ، وتوالى اتساعها فى العهدين الأموى والعباسى وأصبحت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تظل فى سمائها أديانا وأجناسا مختلفة ، فهناك مسلمون ليسوا عربا ، وهناك عرب ليسوا مسلمين ، ويحدثنا الدكتور الأهوانى عن الإشتغال بالفلسفة فى عصر الدولة العباسية فيقول[1] : " كان معظم المشتغلين بالعلم والفلسفة .. نصارى وصابئة ، وكان من الطبيعى أن يعنى بالفلسفة أولئك الذين كانوا من المشتغلين بها قبل دخولهم فى الإسلام ، وكان أغلبهم من السريان والصابئة ... ولقد كتب كثير من اليهود والنصارى والصابئة مؤلفات باللسان العربى ، بعد انتشار الإسلام ، واستقرار قواعد الدولة الإسلامية .. " وهكذا بدأ الشر حتى اتخذ[2] أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى الطبيب جورجيس ابن بختيشوع طبيبه الخاص ، .... ودخلت الفلسفة اليونانية والغزو الفكرى فى صورته إلى المجتمع الإسلامى حتى ليروى لنا الجاحظ فى كتابه "البخلاء" حادثة تعبر عن كثير وكثير وهى : أن طبيبا عربيا مسلما "أسد بن جانى" كسدت حالة مرة فقال له قائل : السنة ميتة[3] والامراض فاشية ، وأنت عالم ولك صبر وخدمة ، ولك بهذا ومعرفة فمن أين تؤتى فى هذا الكساد ؟ قال : أما واحدة فانى عندهم مسلم وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لاقبل أن أخلق ، ان المسلمين لا يفلحون فى الطب . واسمى أسد ، وكان ينبغى أن يكون اسمى : صليبا ، ومرسال ، ويوحنا وبيرا ، وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون أبوعيسى ، وأبو زكريا ، وأبو إبراهيم وعلى رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون على رداء حرير أسود . ولفظى عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل " جنديسابور " .

وهذه الرواية إن دلت على تسامح المسلمين ، وبعدهم البعيد عن التعصب الذى يرميهم أعداؤهم به ظلما وبهتانا فهى تدل كذلك على :

١ — تسلل الغزو الفكرى حتى استمكن وتوطن فى عصر كانت الدولة الإسلامية فيه رافعة أعلام عزها باسطة سلطان مجدها .

٢ — مركب النقص أو عقدة " الخواجة " كما تسمى فى هذا العصر .. وتدل .. على كثير مما يؤلم ويحزن ، ولا يجب أن يغيب عن ذهن القارئ الكريم أن تعلم الطب — وغيره مما يحتاج إليه المجتمع الإسلامى فى قوام حياته — فرض كفاية ، تأثم الأمة جميعا بالتخلى عنه .

---

(١) انظر كتابه : " الكندى فيلسوف العرب " ص ٤ للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى سلسلة أعلام العرب العدد ٢٦ : التى كانت تصدر بالقاهرة .

(٢) وكان ذلك فى عام ١٤٨ هـ

(٣) أى كثيرة الأوبئة .

ويشير الدكتور البهى إلى تفاقم هذا الماء بقوله [١] :

وكلما تأخر الزمن واشتد اختلاطهم بغيرهم من أرباب الديانات والثقافات الأخرى ... كلما تعددت المشاكل التى نشأت فى جماعتهم وكلما ضموا إليها جديدا من مشاكـــل أو جديدا من آراء ، كلما زاد تشقق الأمة ــ من أجل التماس الحلول لها ــ إلى شيع وأحزاب .

الفترات التى مرت بها العلائق بين الفلسفة وأفكار المسلمين :

يحدثنا الدكتور محمد البهى عن هذه الفترات حديث خبير فيقول [٢] مقسما هذه الفترات إلى :

أ ــ فترة النقل والترجمة والجمع والشرح ، أو فترة التوفيق بين آراء الإغريق كمـــا وردت ، وبين آراء [٣] الدين فى العقيدة .. ويمثلها : الكندى ، والفارابـــى وإخوان الصفا ، وابن سينا "

ب ــ فترة محاولة النقد والهدم لآراء الإغريق تارة ، والعمل على التوفيق والإستعانـــة بها فى تأييد العقيدة تارة أخرى ويمثلها : " الغزالى "

جـ ــ فترة رد الاعتبار للآراء الإغريقية فى غرب الإمبراطورية [٤] الإسلامية ، وفى الوقت نفسه هدم الإستعانة بها فى تأييد العقيدة ، والتوفيق بينهما وبين الدين على نمـــط آخـــر ويمثلها : ابن رشـــد .

د ــ فترة استمرار مناقشة الآراء الإغريقية وشروح العقليين للعقيدة تحت تأثيـــر " تهافت الفلاسفة " للغزالى ، والميل إلى تضييق نطاق العقل فى فهم العقيدة ويمثلها الإيجى ، والطوسى ، وسعد الدين التفتازانى "

هـ ــ فترة نقد " الجدل العقلى " حول العقيدة ، وبالتالى نقد المذاهب الفلسفية والكلامية فى تأييد العقيدة ، ويمثلها : ابن تيمية وابن القيم .

و ــ متابعة النقد للجدل العقلى حول العقيدة ، واتباع مذهب معين فى فهمها . ويمثلها ، محمد عبده ، وتلميذه : رشيد رضا فى المنار .

الفرق الإسلامية ومدى تأثرها بالفلسفة الإغريقية :

يقول الدكتور محمد البهى [٥] :

" الفلسفة الإسلامية الإلهية ، أو فلسفة مابعد الطبيعة للمسلمين ، ضرب من ضروب العمل

---

(١) انظر كتابه " الجانب الإلهى فى التفكير الإسلامى " ص٣٢ .

(٢) انظر كتابه الجانب الإلهى ص٢٦

(٣) المقابلة هنا عجيبة : فترهات الإغريق كما وردت !! تحسن " وردت " كأنها حق ثابت ... والدين آراء !! وإنما الآراء للرجال .. وأما دين الله فقواعد وأحكام لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

(٤) كلمة الإمبراطورية غير عربية ، والنظام " الإمبراطورى " لا يعرفه الإسلام .. بل هو على النقيض من أحكام الإسلام الهادية فى سياسة الأمة فعبارة " الإمبراطورية الإسلامية " خطأ شائع جدا لو تجنبه الكاتبون عن الإسلام ، خاصة إذا كانوا من بنيه .

(٥) انظر كتابه " الجانب الإلهى فى التفكير الإسلامى " ص٢٣ ، ٢٤ ط : الفكر بيروت .

العقلى عندهم ، ويتميز عن الضروب الأخرى بموضوعها فقط ، فهى تشمل كل تفكير إسلامى فى الله ، سواء فى تحديد ذاته وصفاته أو فى شرح علاقته بالكون ، وبالأخص بالإنسان فيه :- فالكندى[1] والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد من الحكماء . وأبو الهذيل العلاف ، والنظام من المعتزلة . والأشعرى ، وإمام الحرمين ، والغزالى من الأشاعرة . كل واحد منهم استخدم العقل فى بحثه الإلهى فى حدود ما ورد به الإسلام ، مع مظنة تأثره بآراء الإغريق ، لكن درجة التأثر بين هذه الطبقات الثلاث بالفكر الإغريقى متفاوتة ... فمن يُعرفون باسم الفلاسفة والحكماء : تعتبر درجة التأثر عندهم أوضح منها عند من يعرفون بالمتكلمين : معتزلة وأشاعرة على وجه العموم والأشاعرة أقل فى التأثر من المعتزلة . ومن أجل هذا التفاوت يجعل المؤرخون للمذاهب رأى الحكماء ورأى الأشاعرة متقابلين . ويجعلون رأى المعتزلة وسطا بين الرأيين .

من أوزار الفلسفة :-

كان لدخول الفلسفة إلى مباحث العقيدة الإسلامية آثار سيئة منها :-

١ - الجانب الإعتقادى فى الإسلام يقوم على الغيب وواجب المسلم إزاء هذا الغيب هو الإيمان والتسليم ولذلك مدح الله المتقين من عباده بقوله " الذين يؤمنون بالغيب .. " ٣ : البقرة ، وبقوله : " والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... " ٧ : آل عمران فأخرجت الفلسفة هذا الجانب من دائرة الإيمان والتصديق إلى دائرة البحث والجدل والشك والإفتراضات .

٢ - أدى الجدل العقيم إلى صراعات فكرية ، وترسخت هذه الصراعات بقيام فرق مختلفة متناحرة ، تتبنى كل فرقة اتجاها خاصا وأفكارا بعينها ، ويدين بهذه الأفكار أشياع مفروضون[2] أو أتباع مغفلون .

٣ - كانت العقيدة الإسلامية : توضحها آيات بينات من كتاب الله تعالى ، وأحاديث هادية من قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكان فيهما يقين القلب ، وطمأنينة النفس ، ونور العقل ، وسكينة الروح .. ومضى أمر خير القرون على ذلك ، يجدون فى الكتاب والسنة ما يغنى ويكفى ويشفى .. فداخلت مصطلحات المنطق الأرسطى

---

(١) الكندى هو أبو يوسف يعقوب بن اسحق بن الصباح . ينتهى نسبه إلى قبيلة كندة العربية ، اشتغل بالفلسفة والفلك ، والرياضيات ، والطب ، والموسيقا ، والكيمياء ، وله مؤلفات كثيرة أقلها مطبوع وأكثرها مخطوط يرجح أن مولده كان عام ١٨٥ هـ .

(٢) من أمثلة الأغراض أن تغنم فرقة ما عرضا دنيويا أو منصبا زائلا كما كان من تولى أحمد بن دؤاد المعتزلى منصب قاضى القضاه فى عهد المأمون وتوسيد المأمون المناصب للمعتزلة وعزل من سواهم انظر خطاب المأمون إلى عامل على بغداد اسحق بن إبراهيم الذى سيأتيك خبره بعد قليل .

والفلسفة الإغريقية أدلة العقيدة ، فحلت الحيرة محل اليقين ، والجدل الكئيب محل النور الهادى .. وأصبحت عقائد ضعاف الأنفس وذوى العزائم الخوارة عرضه للتبدل والتقلب كلما جاءهم رجل أكثر تمرسا بالجدل من سابقة ، حتى لقد تحول شيخ الأشاعرة عن عقيدة الإعتزال وهو على رأس الأربعين من عمره

٤ ـ دعا الله سبحانه عباده فى عديد من آى القرآن الكريم ، إلى التفكر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ... ولو قدر المسلمون هذا الجانب حق قدره لما فاقتهم أمة من الأمم ، ولصاروا أساتذة العالمين فى كل فنون المادة (١) ..... ومختلف صنوف العلوم الكونية والتجريبية ... لكن اشتغالهم بما أثارته الفلسفة من جدل عقيم ... بدد طاقات لهم كان من حقها أن تدخر لعظائم الأمور .

هذا وسنعرض بإيجاز بالغ لبعض ما جرته فتنة القول بخلق القرآن على الجماعة الإسلامية من فرقة وتشاحن واضطهادات وهى ليست إلا خطيئة من خطايا التفلسف.

فتنة القول بخلق القرآن :

لا نعرض لهذه الفتنة الأسيفة فى هذا المجال إلا لنبين أنها خطيئة من خطيئات غزو الفلسفة الإغريقية لعقول بعض المسلمين ولقد بلغ فى استبداد هذه الفتنة ما رواه الرواة : من أن المأمون العباسى كان فى معركة من معارك الإسلام مع الروم ، وكانت الحدود الفاصلة ميدانها ، ومع ذلك لم تشغله هذه المهمة الجسيمة عن ملاحقة الخارجين على عقيدة الدولة فى خلق القرآن فكتب كتابا إلى عامله على بغداد يصف فيه خيرة العلماء بكل نقيصة وينسبهم إلى المثالب ومن عباراته التى وصف بها العلماء فى خطابه هذا (٢) : " الذين حاولوا بالباطل .. ونسبوا أنفسهم إلى السنة .. وفى كل فصل من كتاب الله قصر من تلاوته مبطل لقولهم مكذب لدعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم (٣) .. ثم أظهروا ـ مع ذلك ـ أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيىء آرائهم تزينا بذلك عندهم ، وتصنعا للعدالة والرياسة فيهم فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم "

---

(١) لا ينكر كاتب هذه الأسطر الدور القيادى الرائد الذى قام به علماء المسلمين فى مختلف علوم الحياة ... ولكنه يشير فقط إلى ما وقع فى عصور الضعف ... وكذلك أن ما اهتضمته المباحث العقيمة من جهودهم لو صرفوه إلى تدبر آيات الله فى الآفاق ، والانتفاع بهذا التدبر.

(٢) انظر كتاب " إعجاز القرآن " لعبد الكريم الخطيب جـ١ ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

(٣) تأمل كيف أصبح مذهب أهل السنة نحلة فى نظر المأمون .

السفر الثالث

النص القرآني

مكتبة الملك فهد الوطنية
رقم الكتاب ١٢٤٩١١
رقم التصنيف ٢٩٨.١٢٤ هـ

وطور

من

التأويلات

النَّجْمُ الأَوَّلُ

تَأْوِيلُ

المُعْجِزَاتِ وَالغَيْبِيَّاتِ

" تأويل المعجزات والغيبيات "

قبل أن نتحدث عن وقائع التأويل فى هذه القضية ، نبدأ فنعرّف بما تدل عليه ألفاظها : فأما التأويل : فقد سبق بسطه وبيانه .. —

والغيب : لغة ، فهو كما قال ابن فارس (١) الغين والياء والباء أصلٌ صحيح يدل على تستر الشىء عن العيون ، ثم يقاس ، من ذلك الغَيْب : ماغَابَ ، مما لا يعلمه إلا الله . ويقال : غابت الشمس تَغِيب غَيْبَةً وغُيُوباً وغَيْباً . وغاب الرَّجل عن بلده . وأغابَتِ المرأة فهى مُغِيبةٌ ، إذا غَابَ بعلُها . ووقعنا فى غَيْبَةٍ وغَيَابة ، أى هبطة من الأرض يغاب فيها . قال الله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : " وألقُوهُ فى غَيَابَةِ الجُبِّ " . والغابة : الأَجَمَة ، والجمع غاباتٌ وغابٌ . وسميت لأنه يُغاب فيها . والغِيبة : الوَقيعة فى الناس من هذا ، لأنها لاتقال إلا فى غَيْبَة .

والغيب : شرعاً : هو ماسوى الشهادة ، والخلق كله منقسم إلى عالمين : عالم غيبى مستور ، وعالم مشهود محسوس .

والغيب منه ماهو مطلق ، ومنه ماهو نسبى ، ومنه ماضى ، ومنه مالم يقع بعد ، ولكنه سيقع فى الدنيا ، ومنه ماهو من أمر الآخرة ، ولهذا وصف الله جل ذكره نفسه بأنه : " عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .. " ٩ : الرعد ، فالإيمان بالله ، إيمان بالغيب ، والإيمان بالملائكة بالنسبة لعامة الناس إيمان بالغيب وبالنسبة للأنبياء والمرسلين الذين شاهدوا جبريل عليه السلام وشاهدوا غيره من الملائكة إيمان بالشهادة ، ويقاس على الأنبياء فى هذا من ورد به النص : كمريم عليها السلام ، حين رأت جبريل ، وتمثل لها بشرا سويا ، والإيمان بالمعجزات بالنسبة لمن شاهدوها إيمان بشىء شاهدوه ، وبالنسبة لغيرهم إيمان بالغيب ، والإيمان بالجن ، والجَنة ، والنار ، والميزان ، والحور العين ، والولدان المخلدين ، وبالخزنة ، والزبانية ، وحملة العرش ، وأنواع النعيم الأخرى ، وصنوف العذاب فى جهنم ، كل هذا من الإيمان بالغيب .

واخبار الرسل مع أقوامهم هى لمن بعدهم من أحاديث الغيب كما قال جل ذكره خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم بعد ماقص عليه من أنباء نوح عليه السلام : " تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة

---

١) انظر " معجم مقاييس اللغة " لأحمد بن فارس حـ ٤ ص ٤٠٣

للمتقين " ٤٩:هود ، وبعد ماقص عليه من أنباء الكليم عليه السلام قال له : " وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وماكنت من الشاهدين " ٤٤ : القصص ، وبعد ماقص عليه من أنباء الطاهرة مريم عليها السلام قال له : " ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون " ٤٤ : آل عمران ، فكل هذه الأحداث سماها القرآن غيبا إذ هى كذلك بعد تصرم الأعوام على وقوعها ، وزوال الأعيان .

والمعجزات لغة (١) : مشتقة من الإعجاز تقول أعجزتُ فلانا وعجَّزْتُهُ وعاجَزْتُه اعجازاً ، أى : جعلته عاجزاً ، والإعجاز : الفوت والسبق .

وقد وردت مشتقات للكلمة فى القرآن الكريم نذكر منها بعض ما يقارب وجهتنا ، فمن ذلك : ـ

قوله تعالى على لسان الجن : " وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا " ١٢ : الجن ، والمعنى أن مؤمنى الجن استيقنوا أنهم لا يستطيعون الافلات من قدرة الله وحسابه .

ومنها قوله تعالى : " وماكان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا " ٤٤ : فاطر ، ومنها قوله عز من قائل : " ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون " ٥٩ : الأنفال .

وقوله سبحانه : " والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم " ٥١ : الحج .

وقوله : " والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون " ٣٨ : سبأ

وقوله سبحانه وتعالى خطابا للمشركين متوعدا لهم : " وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم " ٣ : التوبة .

فهذه الآيات يتضافر معناها لبيان حقيقة القدرة الإلهية ، وعجز المحاولات البشرية .

---

١) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم للأستاذ أمين الخولى حـ ٤ ص١٩٣

فأما لفظة المعجزة بمعنى الأمر الخارق للعادة فلم ترد فى كتاب الله ، وإنما وردت لفظة الآية أو الآيات لتدل على هذا المعنى كما فى قوله جل ذكره : " سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة " ٢١١ : البقرة ، وقوله تعالى : " وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية " ١١٨ : البقرة ، وقوله سبحانه : " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا " ٥٩ : الإسراء ، فالمعجزة إذاً : أمر خارق للعادة ، يؤيد الله بها أنبياءه ورسله ليقيموا بها الحجة الغالبة المعجزة لأقوامهم ، وهى قائمة مقام كما لو قال سبحانه : " صدق عبدى فيما يبلغ عنى "

الاغارة على المعجزات والغيبيات

ولما كانت الغيبيات والمعجزات أمورا لا تقع تحت الحس ، ولا تخضع لمألوف العقل ، ولا تجرى على السنن المعتادة ، أقدم نفر ممن جعلوا عقولهم آلهتهم إلى إنكارها ، وحاول آخرون تأويلها .

الرازى الطبيب وإنكار المعجزات :-

من أقدم المحاولات التى وصلنا منكر أخبارها فى جحد المعجزات هذه المحاولة التى قام بها أبوبكر الرازى حوالى عام ٣٠٠ هـ فألف كتابا سماه " مخاريق الأنبياء " وقد وصفه المطهر (١) المقدسى بأنه " المفسد للقلب ، المذهب للدين ، الهادم للمروءة ، المورث البغض للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم " ويفهم من عبارات المطهر أنه قرأ الكتاب ولكنه لم يبح لنفسه أن ينقل شيئا من كفرياته وأكاذيبه .

صور من تأويلات منكرى المعجزات

قال (٢) المطهر المقدسى وهو يؤرخ لظهور هذه التأويلات : " وأنكر قوم العجائب رأسا وصرفها آخرون إلى تأويل منحول " ومن هذه التأويلات ما يلى :-

تأويلات حول عمر سيدنا نوح وسفينته :-

قال الماديين القدامى - الذين يسمون أنفسهم بالعقليين - خبر القرآن عن عمر سيدنا نوح عليه السلام فى قوله تعالى : " ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم

(١) انظر كتاب البدء والتاريخ حـ٣ ص ١١٠ وكتاب " البدء والتاريخ " يقع فى ستة أجزاء ويحوى الكثير من أخبار الفرق وتاريخ الحياة العقلية فى الإسلام وقد انتفع به الدكتور أحمد أمين فى كتابه " ظهر الإسلام " وكان عمدة المستشرق آدم متز فى كتابه " الحضارة الإسلامية " وينسب بعض الباحثين هذا الكتاب إلى أبى زيد البلخى لكن المحققون ينسبونه إلى المطهر بن طاهر المقدسى .

(٢) انظر البدء حـ ٣ ص ١٧

ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون " ١٤ : العنكبوت فاستبعدوا أن يعيش واحد من خلق الله هذه السنين وأن يعمر قرونا ، فتأولوا (١) ذلك بأن لبثه : ليس مدة حياته ، وإنما هذا العمر : هو عمر شريعته ، ومدة بقائها ، وقالوا (٢) عن السفينة : إنها ليست فلكا ، وإنما هي رمز للدين الذي جاء به ، ولو أنهم قالوا : إن هذه السفينة كانت مركب النجاة للمؤمنين ، لصدقوا ولكن هذا التأويل السابق إهدار للغة ، ومسخ لدلالات الألفاظ ، وتكذيب لآيات أخرى من القرآن ، ورد فيها الحديث الصريح عن هذه السفينة كقوله تعالى : " وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا " ١٣ ، ١٤ : القمر ، ففي هذا النص الكريم ذكر الله المواد التي صنعت منها السفينة ، كما ذكر سبحانه أمره الملوى لنوح عليه السلام بصناعتها فذلك في قوله : " واصنع الفلك بأعيننا و وحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون " ٣٧ ، ٣٨ : هود

تأويل حول غرقى الطوفان : —

وجمحت بأولئك الحسيين عقولهم ، فتساءلوا كيف يهلك الله في الطوفان الأطفال وهم غير مكلفين ؟ وأدى بهم هذا الجموح إلى افتراض لا علم لهم به ولا برهان ، وهذا الإفتراض جعلوه خبرا كأنه قد وقع فقالوا : " إن الله قد أعقم النساء خمسة عشر عاما قبل الطوفان فلم تلد منهن واحدة ، وبذلك لم يهلك في الطوفان إلا بالغ مكلف ، جاوز عمره خمسا بعد عشر ، وغاب عن هؤلاء ما ذكره رب العزة على لسان نوح عليه السلام : " وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا " ٢٦ ، ٢٧ : نوح .

تأويل ناقة صالح عليه السلام : —

وتأولوا ما ورد في القرآن عن ناقة (٣) صالح عليه السلام كقوله سبحانه : " هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم " ٧٣ : الأعراف ، فقالوا : إن الناقة هي رمز لحبة دامغة وسلطان قاهر ، أذعن له القوم ، وتأولوا ما ورد في القرآن عن شربها (٤) في قوله تعالى : " قال هذه ناقة لها شرب

---

١) انظر البدء حـ ٣ ص ٢٢ ٢) نفس المصدر والصفحة

٣) انظر البدء والتاريخ حـ ٣ ص ٤٢

٤) الشرب بكسر الشين : النصيب من الشراب

ولكم شرب يوم معلوم " ١٥٥ : الشعراء ، بأن معنى هذا الشرب هو أن هذه الحجة قد أبطلت جميع ماخالفها .

تأويل الهدهد :-

وقرأوا ماذكره الله فى كتابه عن هدهد سليمان فى قوله سبحانه : " وتفقد الطير فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين " ٢٠ : النمل ، واستبعدوا كيف يتكلم هذا الهدهد ؟ وكيف يقول لسليمان عليه السلام كما ذكر الله سبحانه " أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين " ٢٢ : النمل ؟ ، فقالوا : إن هذا الهدهد رمز لرجل ، أو أنه اسم لجندى من جنود سليمان عليه السلام ، كانت مهمته أن يجمع له المعلومات ولو أن هؤلاء فهموا مايدل عليه قوله تعالى : " وتفقد الطير " وكانت لهم عقول يعلمون بها أن الهدهد طائر من هذا الطير لما قالوا بهذا .

وقد ذكر الفخر الرازى فى تفسيره (١) مطاعن الملاحدة فى قصة الهدهد فأطال فى ذكرها ، وأوجزنى نقضها ، ولست أرى مايدعو إلى ذكرها .

تأويل النمل :-

وحامت فى نفوسهم وساوس الريب حول قول الله جل ذكره : " حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون " ١٨ : النمل ، إذ كيف تتكلم نملة ؟ وكيف يبتسم سليمان عليه السلام ضاحكا من قولها ؟ فعمدوا إلى أوهام التأويل يفهمون النص الكريم من خلالها فقالوا : إن النمل ليس هو الحشرة التى نعرفها وإنما هم قوم ضعاف .

وجاء مؤول (٢) آخر فى القرن العشرين فقال : " إن المراد بوادى النمل : الوادى الكثير الناس ، كأنهم النمل فى كثرتهم "

وقد رد عليه الشيخ النجار (٣) بقوله : " وليس ماقاله بشىء لأنه ينافيه قولها " وهم لايشعرون " إذ كيف لايشعر جند سليمان بالناس خاصة إذا كانوا كثيرين كالنمل .

ونضيف نحن إلى قول الشيخ النجار ، فلنسلم بوجود مكان من الأرض اسمه

١) انظر مفاتح الغيب للفخر الرازى حـ٢٤ ص ١٩٠ ـ ١٩١ ط : دار المصحف .
٢) صاحب هذا التأويل هو الاستاذ أحمد زكى صاحب الخزانة الزكية التى كانت تحوى الكثير من المخطوطات وقد نشر هذا الرأى فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٦ من أغسطس ١٩٣٣
٣) انظر قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص ٣٣٦ ط : ٣

وادى النمل فهذا احتمال عقلى فماذا نفصل فى قوله تعالى : " قالت نملة " وقولها " يأيها النمل " فهل يمكن لغة أن يكون الناس هم النمل وماذا يقول المؤول فى قوله : " فتبسم ضاحكا من قولها " والضمير عائد عليها .

وقد عقد الأديب العربى المعتزلى أبوعثمان : عمرو بن بحر الجاحظ فصلا فى كتابه (الحيوان)(١) عن النمل ذكر فيه من طبائع هذه الحشرة ما يدل على أنها آية من آيات الله ، فكان مما قال : " وقد يملح من تفقدها ، وحسن خبرها ، والنظر فى عواقب أمرها ، أنها تخاف على ما ادخرته من الحبوب فى الصيف للشتاء أن تعفن أو تسوس فتخرجها إلى ظهر الأرض لتيبسها وتعيد إليها جفوفها وليضربها النسيم وينفى عنها الفساد .. وإن خافت أن تنبت ، نقرت موضع القطمير من وسط الحبة ، وتعلم أنها من ذلك الموضع تنبت ... وتغلق حب الكسبرة أربعا لأن أنصافه تنبت ، ثم تحدث عن مالها من بعد الهمة والجراءة على نقل شىء يزيد وزنه أو حجمه على حجمها مائة مرة وتحدث عن التعاون فى مجتمع النمل وكيف تدل النملة صويحباتها على مكان الطعام فيتبعنها كالرائد الذى لا يكذب أهله ، ثم قال ومن العجب أن تفكر أنها توحى إلى أختها بشىء ، والقرآن قد نطق بما أكثر من ذلك أضعافا ... فقد أخبر القرآن بأنها قد عرفت سليمان ، وأثبتت عينه (٢) وأنه عليه السلام علم منطقها وأنها أمرت صويحباتها بما هو أحزم وأسلم ، ثم أخبر أنها تعرف الجنود من غير الجنود وقد قالت " وهم لا يشعرون " ثم بيّن أن كلام النمل قول ومنطق ، وأنها تفصل بين المعانى التى هى بسبيلها إلى أن يقول : " وإن من دخلت عليه الشبه من هذا المكان لناقص الروية رَدى الفكرة ، ونقل الجاحظ عن أبى اسحاق إبراهيم بن سيار النظام المعتزلى قوله عن وادى النمل كان ذلك الوادى معروفا " بوادى النمل " فكأنه كان حمى ، وكيف تنكر أن يكون حمى ، والنمل ربما أجلت قرية (٣) من سكانها "

وهذا الذى ذكره الجاحظ نقلا عن النظام ليس خيالا ولا تاريخا يتسرب الشك إلى رواياته ، وإنما هو واقع رآه بعضنا وسمع به البعض الآخر ، فالصحف فى مصر وغير مصر تنشر بين حين وآخر أخبار غزوات النمل الأبيض ، وكيف تهلك غزواته الحرث والفرش .

---

١) انظر "الحيوان " للجاحظ حـ ٤ ص ٥ ـ ١٤ طبعة الكتاب العربى بيروت
٢) أثبتت عينه : أى عرفت ذاته
٣) النقل عن كتاب (الحيوان) كما سبقت الإشارة بايجاز وتصرف

والقرآن الكريم لم يذكر لنا حجم النملة المتكلمة ولا نوعها ، وإنما نؤمن بأنها نملة من نوع النمل .

وبعد أن ذكرنا ماقاله أحد العلماء المسلمين عن النمل ننقل ماكتبه أحد علماء التاريخ الطبيعى من الغربيين وهو " رويال ديكسون " فى كتابه " شخصية الحشرات " : إذ قال (١) : " ولقد ظللت أدرس مدينة النمل حوالى عشرين عاما ، فى بقاع مختلفة من العالم ، فوجدت أن كل شئ يحدث فى هذه المدينة فى دقة بالغة ، وتعاون عجيب ، ونظام لا يمكن أن نراه فى مدن البشر ، لقد راقبته وهو يرعى أبقاره ، وماهذه الأبقار إلا خنافس صغيرة رباها النمل فى جوف الأرض حتى فقدت فى الظلام بصرها .

لقد زرع النمل ١٥ مترا مربعا من الأرض بالأرز ، وأنه وجد جماعة من النمل تقوم بحرثها على أحسن مايقضى به علم الزراعة ، فبعضها زرع الأرز ، وجماعة أزالت الأعشاب ، وغيرها قامت لحراسة الزراعة من الديدان .

ولما بلغت حبات الأرز تمام نموها ، كان يرى صفا من الشغالة تتسلق الحبات وتنزع الحب ، وتعود به إلى مخازن تحت الأرض .. وبعد الحصاد هطل المطر أياما ، وما أن انقطع حتى قام النمل بإخراج الأرز من المخازن ، وتعريضه للشمس ليجف ثم عادوا به من جديد " .

وكل هذا يدل على أن النمل عالم عجيب غريب ، وهو من بعض آيات الله فى خلقه .

---

١) نقلا عن كتاب (الله والعلم الحديث) ص ١٠٠ ط : ٣

" تأويل عقاب المسخ "

ومن أمثلة التأويلات التى يتحكم فيها جموح العقل ، فيغدو النص القرآنى محكوما بضيق التصور ، ويصبح مقيدا بقيود " الواقعية المادية المحدودة " و " العقلانية " المزعومة ، من هذه الأمثلة تأويل المسخ الذى ضربه الله عقابا على المعتدين من بنى إسرائيل تأويلا لا برهان لهم به .

لقد ورد الحديث عن المسخ فى أربعة مواضع من القرآن الكريم هى قوله عز من قائل :-

١) " ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين " ٦٥ ، ٦٦ البقرة .

٢) " قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل " ٥٩ ، ٦٠ : المائدة .

٣) " فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين " ١٦٦ : الأعراف .

٤) " ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون " ٦٧ : يس .

١ - أقدم محاولة لتأويل المسخ :

وأقدم ما وصلنا من الآراء فى تأويل المسخ ، هذا الرأى الذى قال به المفسر التابعى مجاهد بن جبر [1] وهو : " مسخت قلوبهم ، ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم ، كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى " .. كمثل الحمار يحمل أسفارا " (٢).

٢ - رأى الطبرى :

نقل شيخ المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبرى هذا الرأى فى تفسيره لسورة البقرة معزوا إلى مجاهد ، ووصفه بأنه " قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف "(٣)

ثم أن الطبرى رحمه الله كر على هذا الرأى بما ينقضه وذكر عقوبات الله لهم

---

(١) تقدمت ترجمته .
(٢ ، ٣) انظر تفسير الطبرى " جامع البيان " حـ ٢ ص ١٧٣ ط : المعارف المحققه .

فقال : " وذلك أن الله أخبر فى كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبيهم : " أرنا الله جهرة " ١٥٣ : سورة النساء ـ وأن الله تعالى ذكره أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم ، وأنهم عبدوا العجل فجعل توبتهم قتل أنفسهم ، وأنهم أمروا بدخول الأرض المقدسة فقالوا لنبيهم : " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون " ٢٤ : سورة المائدة ـ فابتلاهم بالتيه . فسواء قائل " قال : هم لم يمسخوا قردة ، وقد أخبر جل ذكره انه جعل منهم قردة وخنازير ـ وآخر قال : لم يكن شىء مما أخبر الله عن بنى اسرائيل أنه كان منهم ـ من الخلاف على أنبيائهم ، والنكال والعقوبات التى أحلها الله بهم . ومن أنكر شيئا من ذلك وأقر بآخر منه . سئل البرهان على قوله ، وعورض ـ فيما أنكر من ذلك ـ بما أقربه . ثم يسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح .

هذا مع خلاف قول مجاهد ، قول جميع الحجة التى لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعة عليه ، وكفى دليلا على فساد قول ، اجماعها على تخطئته " (١) . اهـ .

٣) رأى الزمخشرى :

ومع اعتزاليات الزمخشرى وولعه بالتأويل فإنه لم ينهج هذا النهج مع قضية المسخ فقال (٢) : " قردة خاسئين " : أى كونوا جامعين بين القردية والخسوء وهو الصغار والطرد ، (فجعلناها) يعنى المسخة (نكالا) عبرة تنكل من اعتبر بها أى تمنعه ، ومنه النكل القيد ، (لما بين يديها) لما قبلها (وما خلفها) وما بعدها من الأمم والقرون ، لأن مسختهم ذكرت فى كتب الأولين فاعتبروا بها (٣) ، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين ، أو أريد بما بين يديها ما بحضرتها من القرى والأمم (٤) ، وقيل نكالا عقوبة منكلة لما بين يديها لأجل ما تقدمها من ذنوبهم ، وما تأخر منها ، (وموعظة للمتقين) للذين نهوهم عن الإعتداء من صالحى قومهم أو لكل متق سمعها " اهـ .

٤) رأى الجاحظ :

للجاحظ فى موسوعته " الحيوان " استطرادات كثيرة ، ولقد تعرض لموضوع المسخ ومع نزعته الاعتزالية ، ودراسته الكلامية ، فقد كان من المثبتين للمسخ ، المحتجين لوقوعه بحجج النقل والعقل ، فتكلم عن " بعض أسباب المسخ " ولماذا عاقب

---

(١) انظر " جامع البيان .. " حـ ٢ ص ١٧٣ .
(٢) انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل حـ ١ ص ٢١٩ ط : الحلبى .
(٣) هذا الوجه فى تفسير " لما بين يديها " بعيد ، ولا دليل عليه .
(٤) هذا ما يعضده هو الأولى .

الله المسوخ بأن جعلهم قردة وخنازير نقال عن الخنزير[1] : " فأما قبح وجهه فلو أن القبح والقذر والكذب تجسدت ثم تصورت لما زاد تعطى قبح الخنزير ، وكل ذلك بعض الأسباب التى مسخ لها الإنسان خنزيرا ، وإن القرد لسمج الوجه ، قبيح كل شىء ، وكفاك به أنه للمثل المضروب .. " يعنى أن القرد قد ضرب مثلا للقبح ، ثم عاد[2] إلى ذكر مقابح الخنزير ، فبين أن الخنزير ينزو ذكره على ذكره ، وأن الله سبحانه وتعالى سمى لحمه رجسا وإن كان غير ميتة ولو ذكر الذابح عليه اسم الله ، ولوصفه بهذا الوصف " الرجس " يقول الجاحظ ولا نعلم لهذا الوجه إلا الذى خصه الله به من ذكر المسخ ، فأراد تعظيم شأن العقاب ، ونزول الغضب ، وكان ذلك القول ليس مما يضر الخنزير ، وفيه الزجر عن محارمه ، والتخويف من مواضع عذابه ، ثم ذكر الجاحظ أن المسخ لا يتناسل ولا يبقى إلا بقدر مايكون موعظة وعبرة ، ثم تكلم عن إنكار الدهرية للمسخ فقال[3]: فمنهم من جحد المسخ وأقر بالخسف والريح والطوفان ، وجعل الخسف كالزلازل وزعم أنه يقر من القذف بما كان من البرد الكبار ، فأما الحجارة فإنها لا تجىء من جهة السماء .... إلى آخر أضاليل الدهرية " وهكذا رأينا قطبين من مدرسة الإعتزال هما الزمخشرى والجاحظ يؤمنان بالمسخ على حقيقته ولا يتأولانه على غير وجهه .

٥) رأى الفخر الرازى :

وأما الفخر الرازى فهو وإن لم ينتصر لرأى مجاهد ويجنح إليه إلا أنه لم يجد فى قبوله غضاضة ، ويجد ربنا أن نلم برأيه لما له من منهج خاص ، فقد قال[4] : " ... قوله " كونوا قردة خاسئين " ليس بأمر لهم ، لأنهم ما كانوا قادرين على أن يقلبوا أنفسهم على صورة القردة بل المراد سرعة التكوين ، كقوله تعالى : " إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون " ٤٠ : النحل ، وكقوله

---

(١) انظر كتاب الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ حـ ٤ ص ٥٠ + وكتاب الحيوان موسوعة كبرى ، نشرها الأستاذ عبد السلام محمد هارون محققة فى سبعة أجزاء كبيرة ط : الحلبى بالقاهرة .

(٢) انظر صفحات ٥١ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦١ من الجزء الرابع من الحيوان .

(٣) انظر الحيوان حـ ٤ ص ٧٠ .

(٤) انظر التفسير الكبير " مفاتح الغيب " للفخر الرازى حـ ٣ ص ١١٠ وما بعدها ط : دار الكتب العلمية طهران .

" .. قالتا أتينا طائعين " ١١ : فصلت ، والمعنى أنه تعالى لم يعجزه ما أراد انزاله من العقوبة بهؤلاء ، بل قال لهم كونوا قردة خاسئين " أى لما أراد ذلك بهم صاروا كما أراد .

والمروى عن مجاهد: أنه تعالى مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم ، لا أنه مسخ صورهم فهو مثل قوله تعالى " .. كمثل الحمار يحمل أسفارا " ٥ : الجمعة ، ونظيره أن يقول الأستاذ للمتعلم البليد الذى لا ينجح فيه تعليمه : كن حمارا ، واحتج على امتناعه " أى المسخ " بأمرين :-

الاول : أن الانسان هو هذا الهيكل المشاهد ، والبنية المحسوسة ، فاذا أبطلها ، وخلق فى تلك الأجسام تركيب القرد وشكله كان ذلك إعداما للإنسان ، وإيجادا للقرد . فيرجع حاصل المسخ على هذا القول إلى أنه - تعالى - أعدم الأعراض التى باعتبارها كانت تلك الأجسام إنسانا ، وخلق فيها الأعراض التى باعتبارها كانت قردا [1] . فهذا يكون إعداما وإيجادا لا أنه يكون مسخا .

وأجيب [2] : بأن الإنسان ليس هو تمام هذا الهيكل ، وذلك لأن هذا الإنسان قد يصير سمينا بعد أن كان هزيلا وبالعكس بالمسخ ، ثم أثبت إهكالات عليه ثم نقضها ، ثم لم يجد محظورا البتة من الصيرورة إلى التأويل وقبول رأى مجاهد .

فأما عن الإشكال الأول فإن المسخ لغة هو [3] تحويل صورة إلى ما هو أقبح منها " وهذا التبديل أو التحويل لا دليل على استحالته من نقل أو عقل أو علم ، فأما النقل فدلالته بينة - كما سنوضح بإذن الله ، وأما العقل والعلم فإن دراسة آيات الله فى الأنفس والآفاق ، بتعمق واستيعاب ، تقرب إلى أذهاننا القاصرة وعلمنا المحدود هذا الذى يراه البعض بعيدا ، وخاصة بعد تقدم علم الأحياء " البيولوجيا " فى الكشف عن كثير من أسرار " الخلية " و " الغدد " و " الهرمونات " وما قرأناه فى الصحف منذ سنوات عما سمى بالإنسان القرد وهو طفل نشأ فى غابة بين القرود ، فصار يطعم طعامهم ويسير على أربع ، ونبت على جسمه شعر القردة ... وانقطعت صلته بالإنسانية .

---

(١) هذا بالأصل ولو قال " صارت قرودا " لكان هذا ما يدل عليه السياق .
(٢) ذكرنا الرد هنا لإشكال مخالفين ترتيب الرازى ، لأن هذا - فى نظرنا - هو الأولى .
(٣) انظر المختار مادة مسخ ص ٦٢٤ .

وفصل القـــول :

أن المسألة عقاب أراده الله ببنى إسرائيل لعدوانهم وظلمهم ، وشاءت إرادته أن يكون العقاب خارقا للعادات ومجريات السنن ، ليكون عبرة ونكالا ، وليكون آية على تفرده وحده بالقدرة والقهر والجبروت ، فهل يعجزه سبحانه شيء في الأرض أو السماء ؟ ! تعالى علوا كبيرا .

" فالأجزاء متبدلة ... وعلى جميع التقديرات فلا امتناع في بقاء ذلك الشيء مسخ تطرق التغيير إلى هذا الهيكل ، وهذا هو المسخ . وبهذا التقدير ، يجوز في الملك الذى تكون جثته في غاية العظم أن يدخل حجرة الرسول عليه السلام (١) .

" والإشكال " الثانى : أن جوزنا ذلك " أى المسخ " لما آمنا في كل ما نراه قردا وكلبا ، أنه كان انسانا عاقلا ، وذلك يفضى إلى الشك في المشاهدات .

" والجواب " : أى الامان يحصل باجماع الامة .

ولما ثبت بما قررناه جواز المسخ ، أمكن إجراء الآية على ظاهرها ، ولم يكن بنا حاجة إلى التأويل الذى ذكره مجاهد رحمه الله ، وإن كان ما ذكره غير مستبعد جدا لأن الإنسان إذا أصر على جهالته - بعد ظهور الآيات وجلاء البينات - فقد يقال في العرف الظاهر أنه حمار وقرد ، وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة ليكن في المصير إليه محذور ألبتة " أ هـ .

فأنت ترى أن الرازى - رحمه الله - ارتضى القول ثم عاد الرازى إلى اثارة شبهة أخرى هى " أنه بعد أن يصير (اليهودى المعتدى) قردا ، لا يبقى له فهم ولا عقل ولا علم ، فلا يعلم ما نزل به من العذاب ، ومجرد القردية غير مؤلم ، لأن القرود حال سلامتها غير متألمة ، فمن أين يحصل العذاب بسببه ؟ !

وأجاب بقوله : " لم لا يجوز أن يقال أن الأمر الذى بسببه يكون الانسان عاقلا فاهما ظل باقيا ، إلا أنه لما تغيرت الخلقة والصورة ، لا يجزم أنها

---

(١) يشير الرازي الى ما ورد في وصف جبريل عليه السلام في حديث بدء الوحى في الصحيحين بأنه " سادّ عظم خلقه ما بين السماء والأرض .. " ومع ذلك فقد كان يدخل حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم حال الوحى .. لكن مع التبدل من حالة الى حالة . والتشبيه مع الفارق وانظر في تفصيل أحوال الوحى والملك بحثنا " القرآن الكريم من قضايا الوحى والتنزيل " ص ٤٩ مخطوط .

كانت تعرف ما نالها من تغيير الخلقة بسبب شؤم المعصية ، وكانت في نهاية الخوف والخجالة .... ولا يلزم من عدم تألم القرود الأصلية بتلك الصورة ، عدم تألم الإنسان بتلك الصورة الخزيية العرضية " اهـ .

ونضيف إلى قول الفخر الرازي رحمه الله قولنا : إن العقاب لا يتحقق ولا يتم المقصود منه إلا ببقاء الغرائز والمشاعر والأحاسيس التي بها يعاني هؤلاء الممسوخون آلام عذاب المسخ .

٦) رأي ابن كثير (١) :

ذكر ابن كثير رأي مجاهد ووصف إسناد هذا الرأي إلى مجاهد بأنه إسناد جيد ، ثم وصف رأي مجاهد بأنه قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره واستشهد ببعض الآيات الأخرى الواردة في مسخ بني اسرائيل ثم ذكر رأي الصوفي في تفسيره من أن الشباب صاروا قردة وأن الشيوخ صاروا خنازير ، وذكر رأي قتادة من أن القوم قد صاروا قردة تتعاوى ولها أذناب وروى ابن كثير أن الذين نهوهم كانوا يدخلون عليهم فيقولون يا فلان ألم ننهكم فيقولون برؤوسهم أي بلى ، وذكر رواية الضحاك عن ابن عباس وهو بمسخهم الله قردة بمعصيتهم ... ثم قال ابن عباس " ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم يتناسل " وبعد ذكر العديد من الروايات المؤيدة للمسخ عن أئمة التفسير بين ابن كثير أن الغرض من ذكرها هو بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن المسخ كان معنويا لا صوريا والصحيح أنه معنوي صوري والله أعلم " أ هـ .

٧) رأي القاسمي : (٢)

نقل القاسمي آراء سابقيه من المفسرين ، ثم ارتضى هذا الرأي وهو : " والمسخ بالحقيقة حق غير منكر في الدنيا والآخرة .. وردت به الآيات والأحاديث . وفي أثر : عد المسوخ ثلاثة عشر ، وبين أعمالهم ومعاصيهم وموجبات مسخهم . والحاصل أن من غلب عليه وصف من أوصاف الحيوانات ، ورسخ فيه بحيث زال استعداده وتمكن في طبعه ، وصار صورة ذاتية له . صار طبعه طبع ذلك الحيوان ، ونفسه نفسه ، فصارت صفته صورته . " أ هـ .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير حـ ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٧ .
(٢) انظر " محاسن التأويل " لمحمد جمال الدين القاسمي حـ ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١ .

٨) رأى الشيخ رشيد رضا :

انتهج الشيخ رشيد منهج أستاذه فى انكار مسخ الصورة والخلقة بعد ذكره فى تفسيره لرأى مجاهد قال[1] : " والأمر للتكوين ، أى فكانوا بحسب سنة الله فى طبع الانسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس ... ثم قال : وذهب الجمهور أيضا إلى أن معنى " كونوا قردة " أنّ صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقين ، والآية ليست نصا فيه ، ولم يبق إلا النقل ، ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة ، لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص ، فيخرجه عن نوع الانسان ، إذ ليس ذلك من سننه فى خلقه وإنما العبرة الكبرى فى العلم بأن من سنن الله تعالى فى الذين خلوا من قبل : أن من يفسق عن أمر ربه ، ويتنكب الصراط الذى شرعه له ، ينزل عن مرتبة الإنسان ، ويلتحق بفجرات الحيوان وسنة الله تعالى واحدة فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية ...

ثم يقول : وحديث المسخ والتحويل وأن أولئك قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير ، إنما قصد به التهويل والاغراب ، فاختيار ما قاله مجاهد هو الأوفق بالعبرة ، والأجدر بتحريك الفكرة ... ثم يقول : إنه ليس فى تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم نص فيه على كون ما ذكر مسخا لصورهم وأجسادهم ، وقد ذكر الحافظ ابن كثير فى تفسيره قول مجاهد ان المسخ معنوى ، وقول الآخرين إنه صورى ، ثم قال : والصحيح أنه معنوى صورى ، فما مراده بذلك ؟ إ " أ هـ .

وما كان ينبغى لمثل الشيخ رشيد أن يغيب عنه مراد الحافظ ابن كثير ، فالمسخ المعنوى هو مسخ قلوبهم لزيغهم عن الحق ، والمسخ الصورى هو مسخ صدورهم ، وأبدانهم لتطابق ظاهرهم مع باطنهم .

ولما عاد إلى تناول الموضوع فى سورة الأعراف [2] ذكر الخلاف فى المسخ أهو مسخ خلق وبدن ، أم مسخ خلق ونفس ، ثم قال : فالأول : قول الجمهور ، والثانى : قول مجاهد " .

٩) رأى الشيخ عبد الجليل عيسى [3] :

فى تفسير الآيتين ٦٥ ، ٦٦ من سورة البقرة حول المسخ اكتفى بذكر المعنى اللغوى لكلمة خاسئين نقلا عن لسان العرب فقال الخاسئ من الكلاب والخنازير هو

(١) انظر تفسير المنار ج ١ ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ (٢) انظر تفسير المنار ج ٩ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠
(٣) انظر المرجع السابق فى تفسير آيات البقرة والأعراف حول المسخ .

المبعد المطرود يقال : خسأ فلانٌ الكلب يخسؤه بفتح السين خسئا وخسوءا أيضا أى طرده مهينا ذليلا ، وخسأ الكلبُ ابتعد ذليلا ١ هـ

ولكنه عند قوله تعالى " كونوا قردة خاسئين " (١٦٦ : الأعراف) ، — صرح بالتأويل لهذا المراد أصبحوا كالقردة فى الإحتقار .

تأويل " الوجوه " بالرؤساء والمقاصد

يقول الله جل ذكره : " يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا " (٤٧ : النساء) .

من المفسرين من حمل الطمس فى هذه الآية على ظاهره ، ومنهم من سلك به أودية المجاز وبيان ذلك كما يلى : (١)

(١) تفسير الوجه بمعناه الجسمانى وهو وجه البدن ، وقد استعملت الكلمة فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى أكثر مواضع ورودها كما فى قوله تعالى : ز — " فاغسلوا وجوهكم " (٦ : المائدة) ، " .. فامسحوا بوجوهكم .. " (٦ : المائدة) ، " قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام .." (١٤٤ : البقرة) ، وهو بهذا المعنى المادى فى ١٤٩ ، ١٥٠ : البقرة أيضا ، ومن هذا الإستعمال أيضا : " .. فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم " (٢٩ : الذاريات) ، كل هذه الآيات وغيرها كثير ، استعمل فيها الوجه بمعناه الحقيقى الجسمانى ، ومن هذا المعنى فسر طمس الوجه بما يلى :

أ — محو آثارها من العينين والحاجبين والأنف والفم حتى تصير كالأقفاء ، فيصبح الوجه والقفا سواء فى عدم الحواس والمعالم .

---

(١) رجعنا فى تفسير هذه الآية إلى تفسير الطبرى جـ ٨ صـ ٤٤٠ — ٤٤٨ ط المعارف المحققة ، ابن كثير جـ ١ صـ ٥٠٧ ، ٥٠٨ ط: الحلبى ، والكشاف للزمخشرى جـ ١ صـ ٤٠٦ ط: الحلبى ، ومحاسن التأويل للقاسمى جـ ٥ صـ ١٢٨٢ — ١٢٨٦ ، وتفسير المنار جـ ٥ صـ ١١٧ ، ١١٨ وإلى معاجم ألفاظ القرآن الكريم وبعض المعاجم اللغوية .

ب ـ أن المقصود بطمس الوجوه : تحويلها من جهة الأمام إلى القفا ، فتصبح العينان فى القفا فيمشون على أعقابهم القهقرى .

جـ ـ أن المقصود بطمس الوجوه طمس الأعين فتصير عمياء كما استشهد الطبرى لهذا المعنى بقوله : " ومن ذلك قيل للأعمى الذى تَعَفَّى غَرْمًا بين جفنى عينيه فدثر : (أعمى مطموس ، وطميس) كما قال الله جل ثناؤه " ولو نشاء لطمسنا على أعينهم .. " (٦٦ : يس) ، قال أبو جعفر : الغر (الشق الذى بين الجفنين) أ هـ .

(٢) جاء استعمال الوجه فى القرآن بغير مفهومه الحسى كما فى قوله تعالى : " وللـه المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله .. " (١١٥ : البقرة) ، فقد فسر الوجه هنا بالقبلة أو برضى الله وثوابه ، وجاء الوجه بمعنى : أول الشىء وبدايته كقوله تعالى : " آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره " (٧٢ : آل عمران) ، وفسر الوجه بحقيقة الشىء وكنهه كما فى قوله تعالى : " ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها " (١٠٨ : المائدة) ، ومن هذا الوادى فسر بعضهم طمس الوجه بالتحول عن الصراط الحق ، وقد عزا الطبرى هذا الرأى إلى المفسر التابعى مجاهد بن جبر بعدد من الأسانيد ، وعبارته : " .. أن نطمس وجوها عن صراط الحق فنردها على أدبارها فى الضلالة " ونسب الطبرى هذا الرأى إلى الحسن كذلك ، وأخبرنا أن الضحاك فسرها بقوله :ـ " أن نردهم عن الهدى والبصيرة ، فقد ردهم على أدبارهم ، فكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به " وكان للطبرى رده الوجيز البليغ على هذا الرأى حين قال [1] : " فبيّن فساد قول من قال ذلك ، فما وجه رد من هو فى الضلالة فيها ؟ ! وإنما يرد فى الشىء من كان خارجا منه ، فأما من هو فيه فلا وجه لأن يقال " نرده فيه " .

(٣) وبعضهم فسر طمس وجوههم بقوله : " من قبل أن نطمس وجوههم التى هم فيها ، فنردهم إلى الشام من مساكنهم بالحجاز وقد قال الطبرى [2] عن هذا الرأى أنه : "مما يدل عليه ظاهر التنزيل بعيد " . وذلك أن المعروف من (الوجوه) من كلام العرب التى هى خلاف (الأقفاء) وكتاب الله يوجه تأويله إلى الأغلب فى كلام من نزل بلسانه ، حتى يدل على أنه معنىّ به غير ذلك من الوجوه) .

---

(١) انظر الطبرى جـ ٨ صـ ٤٤٣ . والمقصود بالوجوه على هذا أماكن الإقامة .

(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ٨ صـ ٤٤٤ .

(٤) إن المقصود بطمس الوجوه إبطال مؤامراتهم ، وبهذا التأويل قال الشيخ رشيد رضا ، وعبارته [١] : " فظاهر معنى العبارة هنا : آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم إليها فى كيد الإسلام ونردها خاسئة خاسرة إلى الوراء بإظهار الإسلام ونصره عليكم ، وفضيحتكم فيما تأتونه باسم الدين والعلم الذى جاء به الأنبياء ، وقد كان لهم عند نزول الآية شىء من المكانة والمعرفة والقوة ، فهذا ما نفسرها به على جعل الطمس والرد على الأدبار معنويين وبه قال مجاهد ولكن أوجز .." أ هـ .

(٥) وقيل أن المقصود بطمس الوجوه ما ذكره الزمخشرى بقوله [٢] : " ووجه آخر وهو : أن يراد بالطمس القلب والتغيير ، كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة ، وبالوجوه رؤساؤهم ووجهاؤهم ، أى من قبل أن نغير أحوال وجهائهم فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم ونكسوهم صغارهم وإدبارهم " .

مختار القول : وبعد استعراض الآراء فى تفسير الآية استعراضا وافيا وإن لم نبلغ به حد الإستقصاء ، نرى أن أولى الآراء هو حمل الوجه على حقيقته ، وأن الطمس على أصل معناه من المحو والإزالة والإخفاء ، وهذا الترجيح هو الذى ارتضاه الطبرى [٣] حين قال : " إنما قلنا ذلك أولى بالصواب : لأن الله جل ثناؤه خاطب بهذه الآية اليهود الذين وصف صفتهم بقوله : " ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة " ، ثم حذرهم جل ثناؤه بقوله : " يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها " الآية ، بأسه وسطوته وتعجيل عقابه لهم ، إن هم لم يؤمنوا بما أمرهم بالإيمان به . ولاشك أنهم كانوا لما أمرهم بالإيمان به يومئذ كفارا " أ هـ وآثر التأسى حمل الآية على الحقيقة فقال [٤] : " ولا يخفى أن جميع ما ذكر من التأويلات غير الأول ، لا يساعده مقام تشديد الوعيد ، وتعميم التهديد . فإن المتبادر من اللفظ الحقيقة ، ولا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذر إرادتها ، ورد على القائلين بأن قرينة المجاز

---

(١) انظر تفسير المنار جـ ٥ صـ ١١٨ ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) انظر الكشاف جـ ١ صـ ٤٠١

(٣) الطبرى جـ ٨ صـ ٤٤٣ .

(٤) انظر محاسن التأويل جـ ٥ صـ ١٢٨٤ ـ ١٢٨٦ . بإيجاز .

هى عدم وقوع المتوعد به ، بأنه ليس فى الآية ما يدل على تحتم وقوع الوعيد إن لم يؤمنوا ، ولو فهم منها هذا فهما أوليا ، لكان إيمانهم بعدها إيمان إلجاء واضطرار ، وهو ينافى التكليف الشرعى ، وذهب إلى أن هذه الآية هى كقوله تعالى : " ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون " — (٣٦ : يس) ، ثم قال القاسمى فهذه عندى تفسير لتلك ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وحول تعقيب الآية بقوله تعالى : " وكان أمر الله مفعولا " أى " ما يأمر به ، ويريد وقوعه . وإذا كان الوعيد منوطا بأمره سبحانه ، فله أن يمضيه على حقيقته وله أن يصرفه لما هو أعلم به . إلا أن ورود نظم الآية بهذا الخطاب المتبادر فى الوقوع غير المعلق ، ليكون أدخل فى الترهيب ، ومزجرة عن مخالفة الأمر .. هكذا ظهر لنا الآن ، وهو أقرب مما نحاه المفسرون هنا من أن العقاب منتظر أو ، أنه مشروط بعدم الإيمان إلى غير ذلك " أ هـ

تأويلات شتى حول " مائدة الحواريين "

قال الله تبارك وتعالى : " إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين " (١١٢ : ١١٥ : المائدة) ، اختلف أهل التأويل حول أمر هذه " المائدة " اختلافا عظيما فمنهم من قال بنزولها وأسهب ومنهم من جحد نزولها ومنهم من تأول آيات القرآن ليفسرها بخبر الثابت والأصيل من أسفار الأنجيل ومنهم من فسرها بمائدة المعارف الروحية وهاكم بعض التفاصيل :

١ — الذين جحدوا نزولها :

حدثنا الطبرى[1] من أنهائهم ، وحكى لنا اختلافهم فى مقالة الإنكار ، فذكر عن بعضهم أنهم قالوا " إنما هذا مثل ضربه الله تعالى لخلقه نهاهم به عن مسألة نبى الله الآيات ولم ينزل شئ " ، ونسب هذا الرأى إلى مجاهد ، وقال آخرون

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ١١ صـ ٢٣٠ — ٢٣١ ط : المعارف .

إن القوم لما قيل لهم : " فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين " استعفوا منها فلم تنزل وعزا الطبري هذا الرأي إلى الحسن .

وقد تعرض ابن كثير [1] لرأي المنكرين لنزولها فقال عنه من حيث الإسناد : " وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن " . ثم أرتأى ابن كثير أن يعرض لحجج المنكرين لنزولها والمثبتين فقال محتجا لدعوى الإنكار : " وقد يتقوى ذلك (يعني إنكار نزولها) بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم [2] ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجودا في كتابهم متواترا ، ولا أقل من الآحاد والله أعلم " ثم قال عن رأي المثبتين أنه هو الذي عليه الجمهور وهو الذي اختاره ابن جرير ونقل حجة ابن جرير في الإثبات ثم بين ابن كثير موقفه هو بقوله : " وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب ، وكما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف " أ هـ .

رأي ابن جرير الطبري :

استعرض ابن جرير رأي المثبتين لنزولها والمنكرين ثم انتهى إلى تقرير موقفه [3] وهو ((والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال : أن الله تعالى ذكره أنزل المائدة على الذين سألوا عيسى مسألته ذلك ربه . وإنما قلنا ذلك ، للخبر الذي روينا بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأهل التأويل من بعدهم ، غير من انفرد بما ذكرنا عنه . وبعد ، فإن الله تعالى ذكره لا يخلف وعده ، ولا يقع في خبره الخلف ، وقد قال تعالى ذكره مخبرا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى صلى الله عليه وسلم حين سأله ما سأله من ذلك : " إني منزلها عليكم " ، وغير جائز أن يقول تعالى ذكره : "أني منزلها عليكم " ، ثم لا ينزلها ، لأن ذلك منه تعالى ذكره خبر ، ولا يكون منه خلاف ما يخبر . ولو جاز أن يقول " إني منزلها عليكم " ، ثم لا ينزلها عليهم ، جاز أن يقول " فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين " ، ثم يكفر منهم بعد ذلك ، فلا يعذبه ، فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ، ولا صحة . وغير جائز أن يوصف ربنا تعالى ذكره بذلك " أ هـ .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ١١٩ ط : الحلبي .
(٢) ليس للنصارى الآن كتاب واحد بل هي أسفار شتى .
(٣) انظر تفسير ابن جرير الطبري جـ ١١ صـ ٢٣١ - ٢٣٢ .

محتويات المائدة :

أسهب بعض المفسرين فى ذكر محتويات المائدة من الأرغفة ، ومشوى السمك الدسم ، وما نضد حولها من كل البقول ، وما وضع عليها من الزيتون والرمان والثمرات ومن هذا ما فعله القرطبى حين نقل عن غيره ، وأنصف فذكر أسانيد نقوله ، وكان مما قال عن حديث محتويات المائدة "فى هذا الحديث مقال ولا يصح من قبل إسناده" وبعد مناقشة الأسانيد والكلام فى رفعها أنهى مطافه بهذه العبارة الجامعة : " والمقطوع به أنها نزلت وكان عليها طعام يؤكل والله أعلم بتعيينه [1] ولقد سبقه إلى هذا النهج القويم شيخ المفسرين الطبرى حين قال [2] : " وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال : كان عليها مأكول ، وجائز أن يكون سمكا وخبزا ، وجائز أن يكون ثمرا من ثمر الجنة ، وغير نافع العلم به ، ولا ضار الجهل به ، إذ أقرّ تالى الآية بظاهر ما احتمله التنزيل " أ هـ .

المائدة فى رواية انجيل متى [3] :

ذكرنا منذ قليل رأى الحافظ ابن كثير الذى يقول فيه بأن " خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو فى كتابهم " ، ولقد حاول الشيخ عبد الوهاب النجار [4] أن يأخذ من كلام ابن كثير ما يوافق هواه ، ثم أدعى أن الإشارة إلى المائدة قد وجدت فى كتب النصارى مستندا فى ذلك إلى قصة وردت فى إنجيل متى تتفق بعض الإتفاق مع بعض الروايات الواهية والمدخولة فى كتب التفسير عن المائدة ، ويختلف كل الإختلاف عن ما ذكره العلى الأعلى فى القرآن الكريم عن المائدة فما هى رواية متى فى أنجيله ؟ .

ابتدأ متى الإصحاح الرابع عشر بذكر قصة قتل يوحنا (يحيى عليه السلام) على يد الحاكم الرومانى هيرودس ثم انتقل إلى القصة التى توهم الشيخ النجار أنها هى قصة المائدة ونص عبارات متى هو : " ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين : الموضع خلاء ، والوقت قد مضى اصرف الجموع لكى يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاما فقال لهم يسوع لا حاجة لهم أن يمضوا . اعطوهم أنتم ليأكلوا . فقالوا له ليس عندنا ههنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان . فقال ايتونى بها

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن " للقرطبى جـ ٦ من صـ ٣٦٤ : ٣٧٤

(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ١١ صـ ٢٣٢

(٣) ينقسم العهد الجديد وهو الكتاب المقدس عند المسيحيين إلى سبعة وعشرين سفرا منها الأناجيل الأربعة وهى إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ، ويدعى أنها جميعا ليست هى الإنجيل الذى أنزله الله تعالى على المسيح عيسى عليه السلام .

(٤) انظر كتاب " قصص الأنبياء " للشيخ عبد الوهاب النجار صـ ٤١٢ ط الثالثة .

إلى هنا . فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر ، وأعطى الأرغفة للتلاميذ والتلاميذ للجموع، فأكل الجميع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتى عشرة قفة مملوءة . والآكلون كانوا نحو خمسة آلاف رجل ماعدا النساء والأولاد (١) "

تأويل صاحب قصص الأنبياء لنزول المائدة :

حينما أصدر الشيخ عبد الوهاب النجار كتابه " قصص الأنبياء " قارن المنصفون كتابه بكتاب " قصص الانبياء " للثعلبي المسمى (بعرائس المجالس) وهو كتاب قمّ فيه مؤلفه الكثير من الإسرائيليات والخرافات ، فكانت عقبى المقارنة رجحان كتاب الشيخ النجار لكن كتابه لم يخل من هفوات تعد عليه ، ولا من مآخذ : أمرها لم يكن هونا ، وقد انتقدتها عليه لجنة من كبار العلماء حين صدور الكتاب، ومن هذه المآخذ تأويله لقصة نزول المائدة تأويلا عجيبا ، يخضع فيه القرآن لأقاصيص العهد الجديد ، وللخرافات الإسرائيلية ، ونقل القصة التى نقلناها آنفا عن انجيل متى ثم قال : " إن هذه المسألة هى مسألة المائدة السماوية ومعنى كونها سماوية أن الله تعالى بارك فى الطعام بطريقة غير معروفة ولا مألوفة ، وقد حكيت فى القرآن ، وبعد ذكر الشيخ لآيات سورة المائدة وآراء المفسرين فى نزولها أو عدم نزولها ، عاد ليؤكد رأيه بقوله : (وإنا أكرر القول أن مسألة المائدة هى مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين والمراد بإنزالها عليهم أن يرزقهم الله الطعام الكثير من حيث لا يحتسبون) ثم عاود القول (٢) : " إنه يمكن حمل إنزال المائدة من السماء على تيسير الطعام لهم بدون الأسباب المادية التى يعرفونها ، وقد جرى العرف على تسمية الأشياء التى يعجز الناس عن تعليلها بأنها سماوية ، وذكر ذلك فى كتب الفقهاء كثيرا، وتكثير الطعام القليل إلى أن يعم الآلاف من الناس أمر يعجز البشر بمقتضى بشريتهم عن أن يأتوا بمثله " أ هـ .

المآخذ على تأويله :

(١) تفسير القرآن بالأعراف العامية التى ما أنزل الله بها من سلطان ، وذلك كما ترى فى قوله : " وقد جرى العرف على تسمية الأشياء التى يعجز الناس عن تعليلها بأنها سماوية " .

(٢) صرف القرآن عن الظاهر المتبادر منه بدلالة السياق ، ليوافق رواية فى الإنجيل لو سلمنا جدلا بصحتها فهى مختلفة عن مائدة الحواريين ثم دعواه أنه يتحدى لجنة

---

(١) انظر الإنجيل الأول من العهد الجديد وهو إنجيل متى الإصحاح الرابع عشر الفقرات من ١٥ : ٢١ .

(٢) انظر قصص الأنبياء صـ ٤١٥ .

العلماء أن تأتى من ألفاظه مايبين أنه قال بصحة إنجيل " متى " ونقول له لا دليل عليك أقوى ولا أبلغ مما فعلته .

(٣) زعمه أن معجزة المائدة ليس فيها نص قطعى الثبوت والدلالة وهو زعم ماكان لمثله أن ينزل نفسه هذا المنزل الوعر ، فآيات سورة المائدة قطعية الثبوت إيمانا منا ويقينا ، ودلالتها أيضا كذلك .

(٤) اعترافه صراحةً بأنه اتخذ التأويل سلما للإنكار وذلك حين قال فى خاتمة رده : " هل يزيد ماقلته على أنى انكر نزول المائدة ؟ وهل يعيبنى عند ربى أن انتظم فى صف مجاهد والحسن " .

(٥) مع أننا لا نأخذ برأى مجاهد والحسن رحمهما الله وغفر لهما ، إلا أن تأويل الشيخ النجار يختلف تماما عن تأويلهما .

(٦) لفلة بعض السطور فى كتب التفسير دون الاشارة إلى أن أصحاب هذه التفاسير ينقلون مايوافقهم ومايخالفهم وقد سبق أن نقلنا لقارىء هذه الأسطر عن الطبرى وابن كثير مايبين إيمانهما بنزول المائدة ، ولكن الشيخ كان يوهم القارىء بترجيح المفسرين لما ليس براجح عنده .

(٧) قوله إن كلمة " الإنزال " فى القرآن وردت لعديد من المعانى غير معناها الأول وهو الإنزال من السماء إلى الأرض ليكون هذا التلبيس عونا له على تأويله .

(٨) يظهر للمتمعن لآراء الشيخ أنه ينكر " نزول المائدة " إتباعا لمذهب عقلى جامح يحاول أن يخضع الأخبار الغيبية فى القرآن للمنطق المادى .

نسيج الخيال حول المائدة :

لم يقف خيال الروائيين عند محتويات المائدة كما سبق أن أسلفنا بل امتد ليصور أن واحدا من الحواريين وهو شمعون سأل المسيح عليه السلام عن طعامها أهو من طعام الدنيا أم من طعام الآخرة ؟ وأن المسيح عليه السلام أجاب : بأنه ليس منهما ، وإنما اخترعه الله سبحانه وتعالى بقدرته ، ونحن لا نحاكم هذه الرواية إلى العقل لو صحت وإنما نحاكمها لأنها هجمة على الغيب بالخيال والهوى ، وتصور رواية ثانية أن الحواريين سألوا المسيح عليه السلام أن يحدث لهم من آية المائدة آية أخرى ، فنادى سمكة أن تحيا بإذن الله تعالى فاضطربت ، ثم قال لها عودى كما كنت ، فعادت مشوية وتصور رواية ثالثة أن المائدة كانت تطير وترتفع ، ثم تهبط إليهم وهكذا استمر أمرها

أربعين يوما ، وتصور رواية رابعة : أنه لم يأكل منها فقير إلا ولازمه الغنى طيلة حياته ، ولم يطعم منها مريض إلا فارقه المرض ، وظل مهاجرا له مادام حيا ، وهكذا سطرت الروايات ، وسجلت الأساطير ، ومن عجب أن ننقل ما سبق من الروايات عن تفسير الزمخشري — والبيضاوي [1] وهما تفسير بالرأي لا بالرواية ، ولو جاءنا النقل الصحيح بهذه الأخبار ما ترددنا في قبولها لحظة من نهار .

التأويلات الصوفية للمائدة :

نقل البيضاوي [2] في تفسيره عن بعض الصوفية تفسيرا للمائدة ، وهو بنص عبارته : " المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح ، كما أن الأطعمة غذاء البدن ، وعلى هذا فلعل الحال أنه رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها ، فقال لهم عيسى عليه السلام : إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الإطلاع عليها ، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه ، فسأل لأجل اقتراحهم ، فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة ، فإن السالك إذا — انكشف له ما هو أعلى من مقامه ، لعله لا يحتمله ولا يستقر له ، فيضل به ضلالا بعيدا " اهـ .

وذهب القشيري يحمل آيات سورة المائدة " أفكاره الصوفية " فقال [3] : " طَلَبَ المائدةَ لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة ، فعذروا وأجيبوا إليها ، إذ كان مرادهم حصول اليقين وزيادة البصيرة .

وقال كل يطلب سؤله على حسب ضرورته وحالته ، فمنهم من كان سكونه في مائدة من الطعام يجدها ، ومنهم من يكون سكونه في فائدة من الموارد يردها ، وعزيز منهم من يجد الفناء [4] عن برهان يتأمله ، أو بيان دليل يطلبه .

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري جـ ١ صـ ٤٩١ وعنه نقل البيضاوي في تفسيره " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " صـ ١٣٧ ط : المطبعة المصرية .

(٢) انظر تفسير البيضاوي صـ ١٣٧ .

(٣) انظر لطائف الاشارات جـ ٢ صـ ١٥٠ ـ ١٥١ بتحقيق دكتور إبراهيم بسيوني ط : دار الكاتب العربي بالقاهرة واللطائف تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم .

(٤) الفناء : مصطلح صوفي ، ولعله يعني أن العزيز من فني في الله فكان فناؤه مغنيا له عن طلب الدليل والبرهان ، وتعالى الله علوا كبيرا عن هذه الشطحات .

وشتان بين أمة طلب لهم نبيهم سكونا بإنزال المائدة عليهم ، وبين أمة بدأهم سبحانه بإنزال السكينة عليهم ، من غير سؤال أحد قال الله تعالى : " هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم " (٤ : الفتح) .

وفرق بين من زيادة إيمانه بآياته التي تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تباح لهم . فلما انتهى القشيري إلى قوله جل ذكره قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين " (١١٥ : المائدة) أجابه إلى سؤاله لهم ، ولكن توعدهم بأليم العقاب لو خالفوا بعده ليعلم السالكون أن المراد إذا حصل ، وأن الكرامة إذا تحققت ـ فالخطر أشد والحال من الآفة أقرب ، وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى ، محسن الأكابر إذا حلت جلت[1] " أ هـ .

تعقيب :

تفقد الألفاظ اللغوية دلالتها الحقيقية في " الفكر الصوفي " ويخرج بها إلى "متاهات" لا إلى " مجازات " فالمائدة هي " مائدة المعارف " ، والحقائق الدينية " أسرار محجبة " وعلوم " ضنون بها على غير أهلها " وإذا انكشفت لذوي " الرتب الأدنى " ، ضلوا ضلالا بعيدا ، والمعلوم لكل مسلم أن الحقائق الدينية هي وحي الله إلى رسوله ، وكلما ازداد المسلم علما ، كان العلم سلما إلى اليقين لا إلى " الشك " ، وكلما انكشف له حكم من أحكام الله ، واستمسك به ، كان ذلك معبرا له إلى النجاة لا أن "يضل ضلالا بعيدا " كما يذكر البيضاوي أو تصبح " الآفة أخفى " كما قال القشيري ولو وقف القشيري مع أنوار قوله تعالى " وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون " وقفة متجردة لما قال ماقال .

اختلافات المفسرين حول قوله تعالى : " هل يستطيع ربك " :ـ

كان المتبادر إلى ذهن القارئ أن تكون هذه هي نقطة البدء لكننا بدأنا بالحديث عن المائدة إذ هي محور الموضوع وغايتنا في هذه المباحث هي بذكر التأويلات ثم نكر عليها بما يجلي الحقيقة ، فأما قوله تعالى : " إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء .. " (١١٢ : المائدة) ، فالأقوال في معنى هذه الآية كثيرة نبسط نرى مفسرا كالزمخشري يرى أن هذا القول منهم "دليل" أن إيمانهم كان دعوى لا حقيقة ، وذلك إذ يقول متبعا طريقته في الفلسفة[2] : " فإن قلت : كيف قالوا

---

(١) يعني إذا نزلت بهم المحنة أظهرت حقيقة معدنهم .

(٢) أنظر الكشاف جـ ١ صـ ٤٩٠ ـ ٤٩١ .

"هل يستطيع ربك" بعد إيمانهم وإخلاصهم ، قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى إيطاءهم لهما ، ثم أتبعقوله : "إذ قال الحواريون" فآذن أن دعواهم كانت باطلة ، وأنهم كانوا شاكين ، وقوله : "هل يستطيع ربك" كلام لا يَرِدُ مثله عن مؤمنين معظمين لربهم .. " نقول بينما يقول الزمخشري بهذا نجد مفسرا آخر، بينه وبين الزمخشري اختلافات في العصر والمنهج والمذهب ، يقول بمثله ، وهذا المفسر هو ابن جرير الطبري [1] فقد أفاض في مناقشة المسألة وانتهى إلى رأي [2] هو : " وخبر الله تعالى ذكره عن القوم ينفي بخلاف ذلك (أي بخلاف أنهم كانوا في درجة اليقين) وذلك أنهم قالوا لعيسى إذ قال لهم : " اتقوا الله إن كنتم مؤمنين " = نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا " فقد أنبأ هذا من قِيلِهم أنهم لم يكونوا يعلمون أن عيسى قد صدقهم ، ولا اطمأنت قلوبهم إلى حقيقة نبوته فلا بيان أبين من هذا الكلام ، في أن القوم كانوا قد خالط قلوبهم حرض وشك في دينهم وتصديق رسولهم وأنهم سألوا ما سألوا من ذلك اختبارا " أ هـ .

اختيارنا في المسألة :

والحق أن اختيارنا في المسألة لا يخالف في شيء ما اختاره شيخ المفسرين واستدل له بصريح دلالة ألفاظ القرآن وما برهن عليه السياق [3] . ومع هذا فإن المنهج العلمي يقتضينا أن نذكر الرأي المخالف ليكون القارئ على بينة وقد وجدنا عند القاسمي جلاء وبيانا لهذا الرأي :

رأي القاسمي :

عرض القاسمي للقراءات في الآية ثم للإشكال فيها ، فقال [4] : " وههنا قراءتان : الأولى : (يستطيع ربك) بالياء على أنه فعل وفاعل و (أن ينزل) المفعول . والثانية بالتاء و (ربّك) بالنصب أي سؤال ربك . فحُذِف المضاف . والمعنى : هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه ؟ وهي قراءة : علي ، وعائشة ، وابن عباس ، ومعاذ رضي الله عنهم . وسعيد ابن جبير والكسائي .

---

(١) نعني بالإختلاف أن العصر أن الطبري عاش بين ٢٢٤ و ٣١٠ هـ والزمخشري عاش بين ٤٦٧ هـ ٥٣٨ هـ والأول سني وتفسيره بالأثر ، والثاني معتزلي وتفسيره بالرأي .

(٢) انظر تفسير الطبري جـ ١١ صـ ٢٢١ ط: المعارف .

(٣) لولا خشية الإطالة لنقلنا رأي الطبري كاملا فانظره إن شئت جـ ١١ صـ ٢٢٠ الى ٢٢٢ .

(٤) انظر كتابه (محاسن التأويل) جـ ٦ صـ ٢٢١٢ ، ٢٢١٣ .

قال أكثر المفسرين (١) : الإستفهام على القراءة الأولى محمول على المجاز . إذ لا يسوغ لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكوا فى قدرة الله تعالى . لكنه كما يقول الرجل لصاحبه : هل تستطيع أن تقوم معى ؟ مع علمه بأنه يقدر على القيام ، مبالغة فى التقاضى (٢) وإنما قصد بقوله (هل تستطيع) هل يسهل عليك ، وهل يخف أن تقوم معى ؟ فكذلك معنى الآية . لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل ، ومعترفين بكمال قدرته وسؤالهم ليس لإزاحة شك ، بل ليحصل لهم مزيد الطمأنينة . كما قال إبراهيم عليه السلام : (ولكن ليطمئن قلبى) ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة فى القلب ولهذا السبب قالوا (وتطمئن قلوبنا) وحاصله أن " هل يستطيع " سؤال عن الفعل دون القدرة عليه ، تعبيرا عنه بلازمه . أو عن السبب بسببه . وقيل المعنى : هل يستطيع ربك ؟ أى هل يستجيب دعوتك إذا دعوته ؟ (فيستطيع) بمعنى (يطيع) وهما بمعنى واحد والسين زائدة . كاستجاب وأجاب (٣) واستجب وأجب و (يطيع) بمعنى (يجيب) مجازا ، لأن المجيب مطيع .

وذكر أبو شامة أن النبى صلى الله عليه وسلم عاد أبا طالب فى مرض ، فقال له : يابن أخى ادع ربك أن يعافينى . فقال : اللهم اشف عمى . فقام كأنما نشط من عقال . فقال له يابن أخى إن ربك الذى تعبده ليطيعك . فقال : يا عم ! وأنت لو أطعته لكان يطيعك . أى يجيبك لمقصودك .

وحسنه فى الحديث المشاكلة ، فظهر أن العرب استعملته بهذا المعنى ... " اهـ .

---

(١) قوله " أكثر المفسرين " لا يخلو من مبالغة ، ومجانبة للدقة .

(٢) فى الاستنهاض .

(٣) تتضمن استجاب معنى أجاب ، وفى زيادة المبنى زيادة معنى تأمل " فاستجاب لهم ربهم .. " " ادعونى أستجب لكم " . تجد فيها الإجابة والعطاء ، والنسبة للبشر وما فيه من نفس " نجب دعوتك " .

تأويل الفلاسفة
لكيفية الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عند تفسير قول الله سبحانه وتعالى : " سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ... " (١ : الاسراء) استطرد الفخر الرازى مفندا[1] ، اشبهات منكرى المعراج ، فاستدل على وقوع المعراج بأن من يؤمن بنزول جبريل عليه السلام من الملأ الأعلى بالوحى ، يجب عليه أن يؤمن بصعود الرسول صلوات الله عليه بجسمه وروحه ليلة المعراج لأن معراج الرسول بجسده ، كنزول الملك وهو جسم ، ثم ذكر تأويل الفلاسفة الذين يسميهم بالحكماء ـ لكيفية الوحى وهو :

" زوال الحجب الجسمانية عن روح محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى يظهر فى روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضرا متجليا فى ذات ـ جبريل عليه السلام " ثم عقب الرازى على هذا التهافت الفلسفى بقوله :

" تفسير الوحى بهذا الوجه هو قول الحكماء ، فأما جمهور المسلمين فهم مقرون بأن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم ، وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكة[1] .. "

ونحن نعقب بأن رأى الفلاسفة هذا ، اتباع للظن ومصادم لما جاء به القرآن فى شأن جبريل عليه السلام ، فالله سبحانه قد وصف بأنه :

" ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى " (٦ ، ٧ : النجم) . فاستواؤه بالأفق الأعلى كما رآه رسول الله فى بدء الوحى " سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض " فرآه على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها ، وهذا يؤكد الجسمانية والحركة لجبريل عليه السلام ثم قال تعالى :

" ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى " (٨ ، ٩ : النجم) . فالدنو والتدلى والقرب هى حركات جسمانية .

---

(١) تلخيص لما ذكره الفخر الرازى فى تفسيره الكبير ج ٢٠ صـ ١٤٨ .

والقرآن صريح فى نزول جبريل عليه السلام:
" وما نتنزل إلا بأمر ربك .. " (٦٤ : مريم) " ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى " (١٣ ، ١٤ : النجم) رأى رسول الله جبريل مرة ثانية على صورة الملائكة عند سدرة المنتهى .

ولقد رأى الرسول جبريل متشكلا فى صورة بشرية لرجل من العرب هو دحية الكلبى . ، وفى حديث الصحيحين المروى عن أبى هريرة وعمر رضى الله عنهما ، قال عمر " بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة إذ دخل علينا رجل شديد بياض الوجه شديد بياض الثوب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر .. " إلخ الحديث ، فهذه كلها صفات حسية .

وفى حديث بدء الوحى فى الصحيحين ضم جبريل الرسول إلى صدره " .. فأخذنى فغطنى[1] - بالتاء أو بالطاء - حتى بلغ منى الجهد بلغه ثم أرسلنى ... " [2] كل هذا وغيره كثير يدحض دعاوى الفلاسفة فى كيفية الوحى [3] . على أن تصوير الوحى على أنه مكاشفات ومشاهدات على النحو المذكور ، قول على الله بغير علم ، وغض من قيمة الوحى ، وتشكيك فى كيفية تلقى القرآن .

---

(١) لم نجد فى عدد من المعاجم ما يسد النهمة فى معنى هذه الكلمة ، حتى انتهينا إلى الزمخشرى فى كتابه الفائق فى غريب الحديث والأثر جـ ٢ صـ ٢٠٧ ط: الحلبى فوجدناه يقول: "الغت ، والغط ، والغطر: واحد هو المقل (أى الغمس) فى الماء ، ولما كان - من شأن من يغط صاحبه فى الماء أن يدارك (يتابع) ذلك ، وأن يضغط صاحبه ، ويبلغ منه الجهد .. جاء حديث " .. ففتنى .. " والمعنى : ضغطنى " أهـ بتصرف .

(٢) انظر صحيح البخارى جـ ١ صـ ٣ ط: الشعب ، ورواية البخارى " غطنى " بالطاء ، وقال ابن فارس فى المقاييس جـ ٤ صـ ٣٧٩ : الغين والتاء ليس بشىء ، إنما هو إبدال تاء من طاء تقول : غططته وغتته .

(٣) فصلنا القول فى كيفية الوحى فى مبحث عنوانه " القرآن الكريم من قضايا الوحى والتنزيل " وهو من بين الأعمال التى نال بها المؤلف الإجازة .. التخصصية " الماجستير " .

تأويل الفجر " بتفجر الماء "

حول قول الله تبارك وتعالى : " والفجر وليال عشر " (١ ، ٢ سورة الفجر) ، أورد المفسرون أقوالا حول معنى الفجر ، وكان من أغرب هذه الآراء رأى أورده الفخر الرازى فى تفسيره[1] وهو : " .. أو عنى بالفجر العيون التى تنفجر منها المياه وفيها حياة الخلق " وقد ذكر الرازى هذا التأويل بين جملة أقوال أخرى فى تفسير الآية ، وهذا التأويل يجد له عونا وظهيرا من بعض المعانى اللغوية للكلمة ، فابن فارس فى معجم المقاييس[2] يقول : " الفاء والجيم ، والراء : أصل واحد وهو التفتح فى الشىء ، من ذلك الفجر : انفجار الظلمة عن الصبح ، ومنه انفجر الماء انفجارا : تفتح والفَجْرة : موضع تفتح الماء ثم كثر هذا حتى صار الإنبعاث والتفتح فى المعاصى فجورا ولذلك سمى الكذب فجورا ، ثم كثر هذا حتى سمى كل مائل عن الحق فاجرا ... ومن الباب المفاجر : لانفجار الماء فيها .. ويوم الفجار : يوم للعرب استحلت فيه الحرمة " أهـ ... وإلى معنى الشق والتفجر أشار الراغب بقوله[3] : " .. ومنه تفجير الأرض عيونا وأنهارا ، ومنه قيل للصبح فجرا لكونه ساتر الليل ، والفجور شق فى ستر الديانة " ومع ماذكرناه من مساعدة بعض معانى الكلمة لما ذكره الرازى فهل يعنى هذا أن نلتزم التأويل لا يجافى الصواب؟ .. الحق أن المراجع التى رجعنا إليها من كتب التفسير ذكرت للفجر معانى هى :

(١) الفجر هو " أول أوقات النهار ، الذى هو أحد قسمى الزمان "[4] ـ وقريب منه تعريف من عرفه بأنه : انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم ، فيكون المقصود مطلق الفجر وقد نسب هذا الرأى إلى على وابن الزبير

---

(١) انظر تفسيره الكبير مفاتح الغيب سورة الفجر جـ ٨ الطبعة البولاقية أو جـ ٣٢ ط: عبد الرحمن محمد .

(٢) انظر معجم المقاييس جـ ٤ صـ ٤٧٥ ، ٤٧٦ بتصرف ، وقريب منه ماورد فى معجم ألفاظ القرآن الكريم للأستاذ أمين الخولى جـ ٤ صـ ٣١٩ ، وعنهما نقلت صاحبة التفسير البيان بتصرف صـ ١٢٥ ط : المعارف .

(٣) انظر مادة فجر فى مفردات الراغب الأصفهانى .

(٤) أحكام القرآن لأبى العربى المالكى ق ٤ صـ ١٩١٣ .

وابن عباس رضى الله عنهم. (١)

(٢) إن المقصود بالفجر النهار كله ، وعبر عنه بالفجر لأنه أوله وعُزى كذلك إلى ابن عباس.

(٣) فجر أول يوم من المحرم: منه تنفجر السنة ، ونسب أيضا إلى ابن عباس وقتاده.

(٤) إن المقصود به صلاة الصبح.

(٥) فجر يوم النحر.

(٦) فجر الأول من ذى الحجة لأن الليالى العشر هى الليالى العشر من ذى الحجة.

هذه مجموع الآراء التى أحصيناها من كتب التفسير التى رجعنا إليها ، ولم نجد شبيها بهذا التأويل الذى ذكره الرازى إلا إشارة ذكرها القاسمى (٢) فى كتابه " محاسن التأويل " وهى : " والفجر " أى الصبح كقوله تعالى : " والصبح إذا تنفس" أقسم تعالى بآيته ، لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات ، لطلب الأرزاق ، وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم ، وفيه عبرة لمن تأمل" اهـ وهذه الإشارة من القاسمى قد تكون محتملة.

ونعود إلى ذكر الرأى الذى نرجحه وهو أن المقصود بالفجر أول وقت النهار والذى يبين أن هذا الرأى هو الأرشد فى فهم الآية الدلائل الآتية:

١ ـ أن قرينة السياق تعين عليه ، فبعد ذكر الفجر ، جاء ذكر الليالى العشر.

٢ ـ أن كلمة الفجر لم تستعمل فى القرآن إلا فى معنى أول ضوء النهار كما قال تعالى:

" .. حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر" (١٨٧: البقرة).

"وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا " (٧٨: الاسراء).

" .. من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة" (٥٨: النور).

".. سلام هى حتى مطلع الفجر" (٥ : القدر).

٣ ـ أن أقوال المفسرين قد أجمعت على أن المقصود بالفجر هو أول وقت النهار وإن اختلفوا فى جعل الفجر على إطلاقه ، أو تحديد فجر يوم بعينه فإن هذا الإختلاف هو من قبيل اختلاف التنوع.

---

(١) انظر القرطبى جـ ٢٠ صـ ٣٨ انظر كذلك الفتوحات الإلهية فى تفسير الجلالين للجمل جـ ٤ صـ ٥٢٨.

(٢) انظر محاسن التأويل جـ ١٧ صـ ٦١٤٤ وتفسير الفجر بالصبح إذا تنفس قاله ابو السعود

٣٠٨

تأويل "الأوتاد" بالأهرامات

عند قول الله تبارك وتعالى " وفرعون ذى الأوتاد " (١٠ : الفجر) ، قال الشيخ محمد عبده [١] : " .. إن أظهر أقوال المفسرين فيها ملاءمة للحقيقة أن الأوتاد هى المبانى العظيمة الثابتة .... وما أجمل التعبير عما ترك المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ، فإنها هى الأهرام ، ومنظرها فى عين البرائى فى منظر الوتد المغروز فى الأرض ، بل إن شكل هياكلهم العظيمة شكل الأوتاد المقلوبة .. وهذه هى الأوتاد التى يصح نسبتها إلى فرعون على أنها معهودة للمخاطبين " .

هذا ماقاله الشيخ رحمه الله فلننظر هل أصاب ؟

(١) وصف الله فرعون بهذه الصفة فى سورة الفجر وفى قوله تعالى : " كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد " (١٢ : ص) . ووردت كلمة الأوتاد فى وصف الجبال فى قوله تعالى : " ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا " (٧ : النبأ) ، واذا كان هذا هو استعمال الكلمة فى القرآن فما معناها فى اللغة؟ ..

(٢) الوتد لغة " قطعة من خشب أو حديد تثبت فى الأرض أو الجدار يشد بها حبل هو زمام لدابة أو طنب لخيمة .. ويقال الجبال أوتاد الأرض على التشبيه ، لأنها تثبت بها وتحفظها من الميدان والإضطراب [٢] " وأما ابن فارس فقال : " الواو ، والتاء ، والدال : كلمة واحد هى الوتد يقال وتده ... ووتد الأذن الذى باطنها كأنه وتد [٣] وأضاف الفيروز أبادى [٤] : " وأوتاد الأرض جبالها ، ومن البلاد رؤسائها ومن الفم أسنانه ، ووتد الوتد يتده وتدا ثبته .. " وجاء من المجازى عند الزمخشرى " وتد بالمكان وهو واتد : لايبرح ثابت [٥] " .

---

(١) انظر تفسيره لسورة الفجر من جزء عم يتساءلون ط : الشعب
(٢) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم اعداد مجمع اللغة العربية صـ ٦٢١ .
(٣) انظر معجم المقاييس ج ٦ صـ ٨٣ .
(٤) انظر القاموس المحيط ج ١ صـ ٣٥٦ .
(٥) أنظر أساس البلاغة صـ ١٠٠٤ .

(٣) وأما أقوال المفسرين فى معنى الأوتاد فهى [١] :

أ ـ ذو الأوتاد : ذو البناء المحكم ، كان كثير البنيان ، والبنيان يسمى أوتادا .

ب ـ ذو الجنود الكثيرة ، فسميت الجنود أوتادا ، لأنهم يقوون أمره كما يقوى الوتد البيت ، وقال ابن قتيبة : " العرب تقول : هم فى عز ثابت الأوتاد يريدون دائما شديدا " وقريب من هذا الرأى من فسرها بأنه ذو القوة والبطش ، أو لأن كثرة الجنود تقتضى كثرة الخيام والمضارب والأوتاد .

جـ ـ إن المقصود بالأوتاد : أوتاد الحديد التى كان يشد إليها من يعذبهم ، فقيل كان يربط الرجل كل قائمة من قوائمه فى وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة .

(٤) تأويل الشيخ محمد عبده للأوتاد بالأهرامات علاوة على مناقضته لما تقدم ، فإنه يقتضى قيام دليل تاريخى على أن فرعون الذى أرسل إليه الكليم عليه السلام ، بنى هرما من هذه الأهرامات أو دفن فى واحد منها حتى تصح نسبتها إليه وهذا الدليل التاريخى غير قائم ولا ثابت .

(٥) يشتم من وصف الشيخ للأهرامات بأنها هياكل عظيمة نزعة مفاخرة ..... وهذه الأهرامات إن كانت عظيمة بالمقياس المادى فهى ليست كذلك فى الميزان الإسلامى .

---

(١) انظر فى معانى الأوتاد تفسير القرطبى جـ ١٥ صـ ١٤٤ ، ١٥٥ ، جـ ٢٠ صـ ٤٨ . والكشاف للزمخشرى جـ ٣ صـ ٢٣٥ ، تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٥٠٨ ، وتفسير البيضاوى صـ ٥٦٨ .

" الدابة التي تكلم الناس والتأويلات المتضافرة المحيرة حولها "

حول قول الله تبارك وتعالى : " وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون " ٨٢ : النمل وجدنا لبعض المفسرين تعسفا في التفسير ، ووجدنا عند غيرهم شططا في التأويل ، وأخذ كل صاحب هوى يحمل الآية على هواه ، أو يحمل ألفاظها مشتهاه ، وهاك بسط القول :-

١- خروج الدابة وظهورها لأرواح :-

حاول الشيخ طنطاوي جوهري - جريا على مسلكه في التأويلات ، واتباعا لنهجه في تحميل ألفاظ الآيات النظريات المحدثات ، عقد الصلة بين خروج الدابة وبين خرافة ظهور الأرواح فقال [1] : " يقول الله تعالى : وإذا وقع القول عليهم : أي - شارف الوقوع ، وهو قرب قيام الساعة ، وحقت كلمة العذاب على نوع الإنسان ، فجهلوا المعنويات ، وعكفوا على المادیات ، وكذبوا الديانات ، وشكوا في الآيات ، وأصبحوا لا شرف لهم في حكوماتهم ولا أفرادهم ، ومرنوا على الكذب والنفاق ، وازدادوا - بالعلم عمى ، وبالفلسفة ظلما ، أخرج لهم من الأرض من يطرق الموائد ويحركها ، ويمسك الأقلام في أيديهم ، ويكتب لهم ويتراءى لهم في أشكال وأزياء مختلفة ، ووجوه نورية ، فتراه أبصارهم ، ويسمعون كلامه وطورا يبصرون أشكالا ، وتارة يقرؤون خطوطا ، وآونة يسمعون صريرا وصوتا شديدا ، كالرعد القاصف ، وقد يحسون ببرودة تمر عليهم ، ثم تتحرك الأيدي بالكتابة [2] فكان في عمله أشبه بمن يدب على الأرض من الإنسان في تعقله وعمله ، وبما يجري فوقها من الدواب في حركاتها وأعمالها الأخرى ، فهذا يشير له معنى قوله " أخرجنا لهم دابة من الأرض " وهذه الدابة تبين للناس حقائق ، وتدرس لهم حكمة وتبهم أنهم غافلون جاهلون ضالون ، فيجلس أمامها أكبر الضالين وأعظم الفاسقين وأشد الغافلين ومن يدعي أنه ملك مقاليد العلم ، ومرج في الحكمة المادية ، فيخر ساجدا لربه ، خاضعا لخالقه ، موقنا أن روحه ستبقى بعد موته ، فهذا معنى تكلمهم ... الخ ، وقرأ ابن مسعود "تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون " وهذا هو الحاصل الآن بعينه ، وهذه معجزة

---

١) انظر الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات للشيخ طنطاوي جوهري جـ١٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢٦ ، ط : ٠٣ .

٢) كان الشيخ طنطاوي متعدد المعارف ، متطلعا للجديد ، وقد خدعته " الروحية الحديثة " الوافدة من الغرب ، فكان ممن يشهدون جلساتها كما قرأناه ، والعبارات المذكورة تصف ما يخادع به دعاة الروحية من يشهدون جلساتهم ، وهي مزاعم قريبة مما كان يدعيه " أحمد فهمي أبو الخير " وهي دعاوى ليست من الحقيقة في شيء ونقول بذلك عن خبرة ومدارسة ، لا عن تقليد ومشايعة .

للقرآن ، وحكمة ثابتة للفرقان ، فإن الآلاف المؤلفة من البشر اليوم فى أنحاء العالم يوقنون إذا تحققوا مذهب الأرواح ، وليس الإيمان بكاف ، بل اليقين هو أكمل الإيمان ، فتعجب من الآية وانظر كيف كان هذا مظهرها وهى مسألة ظهور الأرواح والقرآن يشير إليها ... ولما أحس الشيخ أنه أبعد النجعة عن الحقيقة وسلك التعسف سبيلا إلى فهم الآية ، عاد يقول : " إنى لم أقل : إن هذا هو المعنى ، ولكن أقول : أنه رمز له [1] وإشارة ، فالآية باقية على ظاهر معناها ترمز إلى ما ذكرنا ، فالدابة باقية على المعنى الأصلى ، تنقل علمها إلى الله تعالى [2] ، وتكون رمزا لهذا ، فهذا قسم من أقسام الكناية فى علم البيان [3] ، فاللفظ على حاله يشير لما أقتضب منه كما وضحه الإمام الغزالى فى قوله صلى الله عليه وسلم : " لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة " فقد جعلهما على حالهما ، ورمز بهما إلى الشهوة والغضب [4] فافهم ، فإذا فهمت هذا قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وقطع لسان كل معترض بمعدك ، فقد سدت فى وجهه أبواب الجدال " وكفى الله المؤمنين القتال " اهـ .

٢ـ خروج الدابة وأبطوله " الرجعة " :ـ

الرجعة من العقائد الأصيلة للشيعة كما هو معروف ، ولقد كانت آية الدابة من بين الآيات التى يتخذون منها مستندا يدعمون به معتقدهم فى الرجعة ، وفى هذا المعنى قال الطبرسى [5] المفسر الشيعى : " أخرجنا لهم دابة من الأرض " تخرج من بين الصفا والمروة فتخبر المؤمن بأنه مؤمن ، والكافر بأنه كافر ، وعند ذلك يرتفع

---

١) سلك الشيخ فى تفسيره هذه المسلك الرمزى ، ولقد كانت " الرمزية " سلاحا من أخبث أسلحة " الباطنية " لحرب الإسلام ، وتعطيل أحكامه ، والعبث بشرائعه ، ولقد أستعملت هذا السلاح الفادر " رسائل " الباطنية من الفرق الزائغة كالبهائية ، والقاديانية .

٢) ان نكل علم الغيب الى الله : قاعدة جليلة ، ليست الشيخ اتبعها ووقف عندها .

٣) هذا لايسلم له .

٤) لست أدرى كيف تدل كلمة "الكلب والصورة " على الشهوة والغضب ، وإذا كان هناك من صريح نصوص القرآن والسنه والمطهرة ماينهيان عن رذيلتى الشهوة والغضب فلماذا هذا الشطط فى التأويلات ، وعجيب أن يقول بهذه التأويلات من كتب " فضائح الباطنيه " ليكشف عوارها ، ويهتك أسرارها .

٥) هو أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى أنظر تفسيره مجمع البيان فى تفسير القرآن ج ٢٠ صـ ٢٤٨ : ٢٥١ ط : مكتبة الحياة ببروت ١٣٨٠ هـ

التكليف ولاتقبل التوبة ، وهو — يعنى خروجها — علم [1] من أعلام الساعة ، وقيل لايبقى مؤمن إلا مسسحته ، ولايبقى منافق إلا خطمته ، تخرج ليلة جمع [2] والناس يسيرون إلى منى ... ثم روى الطبرسى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال " أ سئل على صلوات الرحمن عليه عن الدابة فقال :" أما والله مالها ذنب ، وأن لها لحية " ثم قال الطبرسى وفى هذا إشارة إلى أنها من الإنس ، ثم ذكر أن ابن عباس وحذيفه يقولان : انها من دواب الأرض ، ثم قال الطبرسى ، وروى عن وهب أنه قال : (" وجهها وجه رجل ، وسائر خلقها خَلْقُ الطير " ثم عقب الطبرسى على هذه الرواية قائلا ومثل هذا لايعرف إلا من النبوة الإلهية ، وقد روى عن على عليه السلام انه قال : إنه صاحب العصا والميسم [3] وروى على بن إبراهيم بن هاشم [4] فى تفسيره : عن أبى عبد الله [5] عليه السلام قال : قال رجل لعمار بن ياسر يا أبا اليقظان : " آية فى كتاب الله أفسدت قلبى " قال عمار وأية آية هى؟ فذكر له الرجل هذه الآية وسأله عن دابة الارض .

فقال عمار والله ماأجلس ، ولا آكل ولاأشرب حتى أريكها ، فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين وهو يأكل تمرا وزبدا ، فقال ياأبا اليقظان هلم ، فجلس عمار يأكل معه ، فتعجب الرجل منه ، فلما قام عمار ، قال الرجل : سبحان الله إ ن حلفت أنك لاتأكل ولاتشرب حتى ترينيها ، قال عمار أريتكها إ ن كنت تعقل ، وروى العياشى هذه القصة بعينها عن أبى ذر رحمه الله ، ثم ذكر الطبرسى الآية التالية لآية الدابة وهى قوله تعالى : " ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون " ٨٣ : النمل قال الطبرسى [6] : " واستدل بهذه الآية على صحة الرجعة ، من ذهب إلى ذلك من الإمامية ، بأن قال إن دخول (من) فى الكلام يوجب التبعيض [7] ، فدل ذلك على أن اليوم المشار اليه فى الآية يحشر فيه قوم دون قوم ، وليس ذلك صفة يوم القيامة الذى يقول فيه سبحانه : " وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا " ٤٧ : الكهف ، وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد صلى الله عليه وسلم فى أن الله تعالى سيعيد عند قيام المهدى [8] قوما ممن تقدم موتهم من أوليائه

---

1) بفتح العين واللام أى علامة .

2) هى ليلة النحر سميت بذلك لاجتماع الحجيج فيها بعد الإفاضة من عرفات .

3) إشارة إلى ماورد فى بعض الروايات من أن الدابة تحمل عصا وميسما .

4) مفسر شيعى معروف بالغلو والتطرف .

5) يعنى الحسين عليه السلام .

6) انظر تفسيره جـ ٢ صـ ٢٥١ .

7) بل هى للبيان كقوله تعالى " فاجتنبوا الرجس من الأوثان " .

8) المهدى : هو الإمام الثانى عشر عند الشيعة الإمامية ، يزعمون أنه مختبئ فى غيابة من الأرض وسيعود ليملأ الأرض عدلا بعد ما ملئت جورا .

وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ، ويبتهجوا بظهور دولته ، ويعيد أيضا قومه من أعدائه لينتقم منهم ، وينالوا بعض ما يستحقونه من العذاب فى القتل على أيدى شيعته ، والذل والخزى ، بما يشاهدون من علو كلمته ، ولا يشك عاقل فى أن هذا مقدور لله تعالى [1] ، غير مستحيل فى نفسه ، وقد فعل الله ذلك فى الأمم الخالية ، ونطق القرآن بذلك فى عدة مواضع : مثل : قصة عزير وغيره ، على ما فسرنا ، فى موضعه "

رد الطبرسى على متأولى الرجعة من الشيعة :ـ

أحس بعض عقلاء الشيعة أن القول بالرجعة لا سند له من الحق فتأولوها على نحو لا يصادم المعقول ، وندع الحديث عنهم للطبرسى إذ يقول : " على أن جماعة من الإمامية تأولوا ما ورد من الأخبار فى الرجعة على رجوع الدولة ، والأمر والنهى دون رجوع الأشخاص ، وإحياء الأموات وأولوا الأخبار الواردة فى ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافى التكاليف وليس كذلك ، لأنه ليس فيها ما يلجئ إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح ، والتكليف يصح معها كما يصح مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة ، كفلق البحر ، وقلب العصا ثعبانا وما أشبه ذلك ، ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرق التأويل إليها ، وإنما المعول فى ذلك على إجماع الشيعة الإمامية ، وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيده " أهـ

ونحن نعجب لهذا التناقض من الطبرسى بين قوله : أن جماعة من الإمامية تأولوا الأخبار الواردة فى الرجعة .. ، وقوله : إن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة .

والحلقة الثانية من ملقات التناقض : أعترافه بأن بعض الشيعة تأولوا الرجعة " ثم دعواه : إجماع الشيعة على الرجعة ، فأين الإجماع مع أن فريقا من الشيعة يؤولون .

والحلقة الثالثة : اعترافه بأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار ، ثم يدعى أن العبرة بإجماع الشيعة ، والرجعة أمر غيبى ، والأمور الغيبية لا تثبت إلا بالنقل ، لا بالإجماع إذ كيف يجمع فريق من الناس على أن أمرا سيقع إلا إذا كان لهم برهان من كتاب من عند الله ، أو خبر عن نبى مرسل ، أو سولت لهم أنفسهم أنهم يعلمون الغيب .

زعم الشيعة أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمى عليا رضى الله عنه " دابة الارض " :

ولم يقتصر الشيعة فى أمر الدابة على ما سبق ذكره وإنما ينقل الطباطبائى عن القمى فى تفسير آية النمل المذكورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مر على

---

1) قدرة الله على الاعلى لا يشك فيها مؤمن ، ولكن هذه التخيلات المريضة والأوهام الباطلة لا سند لها من نقل ولا من عقل .

2) أنظر الميزان فى تفسير القرآن " لمحمد حسين الطباطبائى جـ ١٥ ص ٤٠٥ ، ٤٠ ط : الأعلمى ببيروت .

3) هو على بن إبراهيم القمى الذى سبق ذكره ، وكتابه فى التفسير من المراجع الرئيسية

رضى الله عنه ، وهو نائم بالمسجد فحركه برجله ، ثم قال له : قم " يادابة الأرض " ، فقال رجل من أصحاب النبى يارسول الله : أيسمى بعضنا بعضا بهذا الإسم؟ فقال لا والله ، ماهو إلا له خاصة ، وهو (الدابة ؟ الذى ذكره الله فى كتابه ... ثم قال ياعلى : إذا كان آخر الزمان أخرجك الله فى أحسن صورة ، ومعك ميسم تسم به أعدائك ثم روى الطباطبائى : أن رجلا قال لابى عبد الله عليه السلام ، أن هذه الآية إنما هى " تكلمهم " فقال كلمهم الله فى نار جهنم ، إنما هى تكلمهم من الكلم ، ثم بين الطباطبائى : أن الروايات فى هذا المعنى من طرق الشيعة كثيرة ، ثم نقل عن " القمى " مانقله قبله الطبرسى من أن توله تعالى " ويوم نحشر من كل أمة فوجا " إنما هى فى الرجعة ولبست فى القيامة " اهـ - بإيجاز .

ويذهب الطباطبائى[1] إلى أن المقصود بالدابة مايدب على الأرض من إنسان أو حيوان وأن المقصود بإخراجه الإحياء والبعث بعد الموت ... وأن سكوت القرآن عن تفصيل القول فى أخبار الدابة لميل القصد إلى الإبهام ، ليكون الكلام مرموزا فيه .. وماساق الطباطبائى هذه المقدمات إلا ليستدل بها على الرجعة .

رأى شيعى معاصر :-

وتقضينا الأمانة العلمية أن نذكر رأيا لأحد الشيعة المعاصرين حول موضوع الدابة ونصه هو[2]: " أما الداية فقد كثر الكلام فيها والله سبحانه لم يبين ماهى ، والحديث عن المعصوم فى بيانها لم يثبت ، حتى لو صح سنده لم نعمل به لأنه خبر واحد [3] ، وهو حجة فى الأحكام الفرعية ، لافى المسميات ، وأصول العقيدة ، والقول بغير علم حرام فلم يبق إلا الأخذ بظاهر الآية الذى يدل على أن الله سبحانه عندما يحشر الناس للحساب ، يخرج من الأرض مخلوقا : يعلن أن الكافرين جحدوا الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته " .

الدابة وعصا موسى عليه السلام :-

ذكر الفيروز ابادى[4] فى تفسير آية الدابة مايلى : " وإذا وقع : وجب ، القول عليهم : بالسخط والعذاب ، أخرجنا لهم دابة من الأرض بين الصفا والمروة وهى عصا موسى ، ويقال معها عصا موسى [5] ، تكلمهم (أن الناس كانوا بآياتنا " : بآيات ربنا

1) الميزان جـ١٥ ص ٣٩٦ .
2) انظر التفسير الكاشف جـ ٦ ص ٤٠ للقاضى الشيعى اللبنانى محمد جواد مغنيه وتفسيره يقع فى سبعة مجلدات .
3) نزعة اعتزالية تتجهم للحديث ، والصحيح أن خبر الواحد يتلقى بالقبول إذا ثبتت صحته ، والشيعة الذين يرفضون خبر الواحد يؤمنون بالموضوعات الدسيسة فى الدين .
4) انظر " تنوير المقباس من تفسير ابن عباس " لمجد الدين يعقوب الفيروز ابادى ونسبة هذا التفسير لابن عباس غير صحيحة .. على التحقيق ، والنص المنقول من ص ٣٨٧ ط :

بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ، ويقال بخروج الدابة " لا يوقنون " : لا يصدقون وإن قرأت : بنصب التاء : تضربهم وتجرحهم " .

تسرب الرواية الشيعية حول الدابة إلى بعض التفاسير السنية :

وجدنا الرواية الشيعية القائلة بأن الدابة هي علي رضي الله عنه قد تسربت إلى بعض التفاسير السنية ومثال ذلك ما أورده البغوي[1] ونصه : " وروي عن علي أنه قال ليست بدابة لها ذنب ، ولكن لها لحية ، ثم عقب البغوي بقوله : كأنه يشير إلى أنها رجل والأكثرون على أنها دابة " وما أورد البغوي ، أورده ابن كثير [2] وكذلك ذكره القرطبي [3] وغيرهم .

الدابة بين الكلم والكلام :

وردت لقوله تعالى . " تكلمهم " من الآية قراءتان :-

الأولى : (تُكَلِّمُهُم) بضم التاء وتشديد اللام المكسورة ، وقد قال القرطبي [4] عنها إنها قراءة العامة ، أي جمهور القراء واستدل لها بقراءة أبي تنبئهم ، والذي أرجحه أن قراءة ابي هذه ليست قراءة وإنما هي من باب التفسير ، وقالوا في تفسير هذه القراءة إنها تكلمهم ببطلان الأديان سوى الإسلام ، وقيل تكلمهم بما يسوءهم ، وقيل تكلمهم بلسان ذلق يسمعه من قرب وبعد " أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون " أي بخروجها لأن خروجها من الآيات .

وبعض المفسرين حمل هذه القراءة على أنها تكثير [5] من تكلمهم وفي هذا قال الزمخشري [6] ويجوز أن يكون " تُكَلِّمهم " بضم التاء وتشديد اللام المكسورة من الكلم أيضا على معنى التكثير ، يقال فلان مكلم أي مجرح ، فهي عنده كقراءة "لنحرقنه" بتشديد الراء التي فسرت بقراءة علي رضي الله عنه " لنحرقنه " بغير تشديد الراء .

والثانية : هي " تُكْلِمهم " بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام ، من الكلم وهو الجرح وفسر بعضها " كلمها " بما رواه أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم وبما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن علي أيضا من أنها تُكَلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر أي تجرحه [7] .

---

١) انظر معالم التنزيل للبغوي جـ٥ صـ١٣٠ بهامش تفسير الخازن .
٢) انظر هذه الرواية عند ابن كثير في تفسيره جـ٣ صـ٣٧٦ .
٣) انظر تفسير القرطبي جـ١٣ صـ٢٣٦ .
٤) انظر تفسير القرطبي جـ١٣ صـ٢٣٧ .
٥) نفسه صـ ٢٣٨ .
٦) انظر الكشاف جـ٢ صـ ٤٦٢
٧) انظر القرطبي جـ ١٣ صـ ٢٣٨ .

الدابة ودودة القطن :-

وأما الذين إذا ذكر خبر من أخبار الغيب اشمأزت نفوسهم ، وتجهمت وجوههم ، فقد كبر عليهم أن يخرج الله دابة من الأرض تكلم الناس فحاروا ودارروا واستبانوا أنهم لا يستطيعون التكذيب ، فبحثوا عن مخرج للتأويل وأعانهم على بحثهم هذا أن أسعفتهم رواية ابن عباس التي يقرأ فيها تَكلمهم (١) بفتح التاء وتخفيف اللام من الكلم وهو الجرح وأنه رضي الله عنه لما سئل هل هي تَكلّمهم او تَكلِمهم فقال كل ذلك تفعل تُكلّم المؤمنَ ، وتَكلِم الكافرَ " فارتضى دعاة العقلانية هذه القراءة لأنها أقرب إلى التصورات المادية ولقد سمعت منذ عشرين عاما محاضرا يقرأ هذه الآية الكريمة ويفسر دابة الأرض بأنها حشرات الزرع وخص دودة القطن من بين هذه الحشرات لأنها كلمت القوم وأذنتهم بإتيانها على محصول القطن وكانت مُضر وقتها تمر بمحنة اقتصادية من جراء فاعلية هذه الدودة البغيضة في القطن ، وما أظن هذا المحاضر بهذا التأويل إلا أثرا له عن غيره ، وليس آتيا به من عند نفسه .

الدابة والمذياع :-

وجاء مؤول آخر آمن بأن الدابة تكلم الناس ولكن تفسيره لكلامها كان تفسيرا هازلا كسابقه فقد قال إن الدابة هي المذياع وإن كلامها هو هذه الأصوات ، التي تتردد عبر الأثير وأجهزة الإستقبال إلى آذان المستمعين .

الدابة وسفن الفضاء :-

وعندما أطلقت أول سفينة فضاء في الجو في خمسينيات هذا القرن سمعنا من يقول إن سفينة الفضاء هذه هي الدابة التي حدثنا الله عنها في سورة النمل وهو تأويل لا سند له من اللغة ولا مسوغ له من السياق وإنما هو تأويل متعسف معجوج .

الدابة والإسرائيليات :-

وكما كثرت هذه التأويلات المعجوجة حول الدابة كذلك كثرت الروايات الإسرائيلية (٢) حولها فجاءت روايات تصفها بأن رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، الى

١) أنظر في أسانيد هذه القراءة تفسير ابن كثير جـ٣ صـ٣٧٤ ، وتفسير الخازن جـ٥ صـ١٣٠ .
٢) انظر تفسير ابن كثير جـ٣ صـ ٣٧٦ .

غير ذلك من الأوصاف المتعلقة المتضاربة المتنافرة التى تضحك الثكالى وجاءت روايات تصف مكان خروجها من تصدعت صخرة من صخور مكة وجاءت روايات تحدثنا عن أفيالها مع المؤمن والكافر، وعن عصا موسى عليه السلام التى تحملها إلى غير ذلك من الاقاصيص التى لانجد من التمادى فى ذكرها غير مضيعة أوقات المسلمين .

تصورات متوهمة فى شأن الدابة :-

خبر الدابة من الأمور الغيبية التى يجب علينا أن نتلقاها مصدقين مؤمنين إلا أن نفرا من المفسرين أورد فى شأنها مالا يقبل إلا إذا صح سنده عن سيد الأنبياء والمرسلين، فمن هذه الروايات القول بأنها فصيل ناقة صالح وهو قول يصفه القرطبى بأنه أصح الأقوال ولم يذكر لنا دليله على هذه الدعوى[1] ومن هذه الروايات أيضا القول بأن الدابة هى الثعبان المشرف على بناء الكعبة التى أقتلعته العُقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة [2] ولا دليل أيضا على صحة هذه الرواية وروى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن حذيفة قال[3] : "ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال " لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج فى أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية - يعنى مكة ثم تكمن زمانا طويلا، ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها فى البادية ويدخل ذكرها القرية ، يعنى مكة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وخيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهى تورغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس منها شتى ومعا، وتثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلّت وجوههم، حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى، وولت فى الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب، حتى أن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة، فتأتيه من خلفه فتقول له يافلان الآن تصلى، فتقبل عليه فتسمه فى وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال، ويصطلحون فى الأمصار، يُعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن يقول : ياكافر اقض حقى " .

هل الدابة داعية يبعث ليقيم الحجة على الكافرين :

نقل القرطبى فى تفسيره الرواية المنسوبة لعلى رضى الله عنه والقائلة بأن الدابة مالها ذنب وإنما لها لحية ثم نقل تعليق الآلوسى على[4] هذه الرواية وهو : " وفى هذا القول إشارة منه إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به " ثم بين القرطبى الصلة بين

---

١) انظر تفسير القرطبى جـ١٣ صـ٢٣٥ .
٢) انظر أيضا القرطبى جـ١٣ صـ٢٣٦ .
٣) نقلا عن تفسير القرطبى جـ١٣ صـ٢٣٥ .
٤) انظر تفسير القرطبى جـ ١٣ صـ ٢٣٦ .

هذه الرواية وبين تأويل من التأويلات الواردة فى شأن الدابة وهو: " قال بعض المتأخرين من المفسرين: إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنسان متكلما يناظر أهل البدع والكفر، ويجادلهم لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة " اهـ.

تنقيد القرطبى لهذا التأويل:-

أخذ القرطبى [1] بعد أن ذكر هذا التأويل يبين رأيه ورأى العلماء فيه فقال: "وعلى هذا فلا يكون فى هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة ولا تكون من أمارات الساعة، لأن - وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير فلا تكون آية خاصة مقترنة بوقوع القول، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذى على أهل - الأرض أن يمسحوه بسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يسمى بدابة فهذا خروج عن عادة الفصحاء وعن تعظيم العلماء .. فالأولى ما قاله أهل التفسير والله أعلم بحقائق الأمور". اهـ.

الرأى الذى نرتضيه:-

بعد استعراض كل هذه الآراء السابقة فى شأن الدابة، نرى أن المنهج الأرشد فى هذه المسألة وما شابهها من المسائل الغيبية، أن نقف أمام ما جاءنا من كتاب الله ساجدين، وأمام ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين، وقد قال الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: " أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا [2] وإذاً فخبر الدابة من أخبار الغيب، ومن علامات الساعة التى يجب أن نؤمن بها، والمنهج السديد حيالها هو كما عبر عنه الشيخ شلتوت - رحمه الله بقوله [3]: " وماذا علينا لو وقفنا فى حديثنا عن المغيبات عند القدر الذى أخبر به القرآن، ثم تركنا ما وراءه من التفصيل إلى اليوم الذى يأتى فيه تأويله وبيانه وليس الخبر متعلقا بعمل مطلوب من العباد وإنما هو إنذار ووعيد وتهديد "

---

١) انظر تفسيره جـ١٣ ص٢٣٦ بتصرف.
٢) قال ابن كثير معقبا على هذا الحديث وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من طرق مرفوعا ورواه مسلم أيضا موقوفا .. وقال الترمذى حسن صحيح أنظر جـ٥ ص٣٠٧.
٣) انظر كتابه إلى القرآن الكريم ص١٤١ ط: الهلال.

تأويلات حول

((صفات جهنم))

وردت في القرآن الكريم آيات مجيدة ، تصف جهنم بأنها تتكلم " وتقول هل من مزيد " وأنها ترى أصحابها : " إذا رأتهم من مكان بعيد " ، وأنها : " تطلع على الأفئدة " وأن لها : " تغيظا وزفيرا " ... وكانت للمفسرين نظرات إلى هذه الآيات تختلف باختلاف مناهجهم ، فلنصطحبهم في تطوافهم :-

هل تتكلم جهنم ؟

قال رب العزة جل جلاله " يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد " ٣٠ ق أفاد ظاهر هذه الآية الكريمة : أن جهنم خوطبت وسئلت ، وأنها أجابت وقالت : هل من مزيد ؟ فمن المفسرين من آمن بظاهر ما دلت عليه الآية ، ووكل ما وراء ذلك إلى علام الغيوب ومنهم من طوحت به طوائح التأويلات فهام معها ...

فأما أهل الاثبات فهذه آراؤهم :-

١ - رأى ابن كثير : " قال عند تفسيره لهذه الآية الكريمة [1] : " يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة هل امتلأت ؟ وذلك لأنه تبارك وتعالى : وعدها أن يملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها ، ويُلقى وهي تقول هل من مزيد : أي هل بقي شيء تزيدوني ؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث ، ثم ذكر ابن كثير من صحاح الأحاديث ما يؤيد رأيه ومنها : ما رواه البخاري عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يلقى في النار وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول قط قط " ، وما رواه الإمام أحمد عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط ، وعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشيء الله لها خلقا آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة " ثم رواه مسلم من حديث قتادة بنحوه ، وروى ابن كثير عن مجاهد أنه قال : " لا يزال يقذف فيها حتى تقول قد امتلأت فتقول هل من مزيد " وعن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم نحو هذا فمنذ هؤلاء أن قوله تعالى (هل امتلأت) إنما هو بعد ما يضع فيها قدمه فتنزوي ، وتقول حينئذ هل بقي في مزيد يسع شيئا ؟ قال الصوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع ابرة والله أعلم " اهـ

---

١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ صـ ٢٢٦ ، صـ ٢٢٧

٢ - رأي القرطبي :

وأما القرطبي فقد عرض لرأي المثبتين ولمقالة المؤولين ثم كان للمثبتين ظهيرا وبيان ذلك أنه قال [1] : " يوم نقول لجهنم هل امتلأت " لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها وهذا الإستفهام على سبيل التصديق لخبره ، والتحقيق لوعده ، والتقريع لأعدائه ، والتنبيه لجميع عباده . " وتقول " جهنم " هل من مزيد " أي ما بقي فيّ موضع للزيادة ، كقوله عليه السلام : " هل ترك لنا عقيل من ربع او منزل أي ما ترك ، فمعنى الكلام الجحد ويحتمل أن يكون استفهاما بمعنى الإستزادة ، أي هل من مزيد فازداد ؟ . وإنما صلح هذا للوجهين ، لأن في الإستفهام ضربا من الجحد . وقيل : ليس ثم قول وإنما هو على طريق المثل ، أي أنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك ، كما قال الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني ∴ مهلا رويدا قد ملأت بطني

وهذا تفسير مجاهد [2] وغيره أي هل فيّ من مسلك ، قد امتلأت . وقيل : ينطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح . وهذا أصح على ما بيناه في سورة " الفرقان " ثم صنع القرطبي صنيع ابن كثير في الاستظهار لرأي المثبتين الصحاح الأحاديث التي ذكرنا بعضها من قبل ، ومنها حديث وضع القدم ، وإن كان له من المتأولين . . . [3] "

٣ - رأي الشوكاني :

وأما موقف الشوكاني فكان كما قال [4] : " . . . والأولى أنه على طريقة التحقيق ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع ، قال الواحدي : قال المفسرون أراها الله تصديق قوله : " لأملأنّ

---

١) انظر تفسير القرطبي حـ ١٧ صـ ١٨ ، ١٩

٢) قارن هذا بما سبق نقله من تأويلات مجاهد رحمه الله ، ليتضح لك منهجه

٣) قال القرطبي في تفسيره حـ ١٧ صـ ١٩ : " قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القدم هنا فهم قوم يقدمهم إلى النار ، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار . وكذلك الرجل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم ، يقال رأيت رجلا من الناس ورجلا من جراد ، وقال الشاعر :

فمر بنا رجل من الناس وانزوى ∴ إليهم من الحي اليمانين أرجل

واستشهد لصحة تأويل الرجل والقدم : بالجمع من الناس بما ورد في تتمة الحديث " ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة "
وليس هذا التأويل من القرطبي مسلما فإن الحديث من أحاديث الصفات والخلاف حولها معروف .

٤) انظر تفسيره فتح القدير حـ ٥ صـ ٧٧

جهنم " ، فلما امتلأت ، قال لها (هل[1] امتلأت وتقول هل من مزيد) أى قد امتلأت ولم يبق فى موضع لم يمتلىء ، وبهذا قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان . وقيل إن هذا الإستفهام بمعنى الإستزادة : أى أنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها . وقيل إن المعنى : أنها طلبت أن يزاد فى سعتها لتضايقها بأهلها ، والمزيد اما مصدر كالمحيد ، او اسم مفعول كالمنيع ، فالأول بمعنى هل من زيادة والثانى بمعنى هل من شىء تزيد فيه .. " اهـ ونختار من المؤولين :-

الزمخشري :

قال الزمخشرى[2] : " .. وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب وتثبيته وفيه معنيان : أحدهما : أنها تمتلىء مع اتساعها ، وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شىء ولا يزداد على امتلائها لقوله : " لأملأن جهنم " والثانى : أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد .. "

رد ابن المنير[3] على الزمخشري :

قال ابن المنير[4] : " قد تقدم انكارى عليه إطلاق " التخييل " فى غير موضع ، والنكير ههنا أشد عليه ، فإن إطلاق " التخييل " قد مضى له فى قوله : " والأرض جميعا قبضته يوم القيامة " ٦٧ : الزمر ، وفى مثل قوله " بل يداه مبسوطتان " ٦٤ : المائدة ، وإنما أراد به حمل الأيدى على نوع من المجاز فمعنى كلامه صحيح لأنا نعتقد فيها المجاز وندين الله بتقديسه عن المفهوم الحقيقى[5] فلا بأس عليه فى معنى إطلاقه ، غير أنا مخاطبون باجتناب الألفاظ ، الموهمة فى حق جلال الله تعالى ، وإن كانت معانيها صحيحة ، وأى إيهام أشد من إيهام لفظ التخييل ألا ترى كيف استعمله الله فيما أخبر أنه سحر وباطل فى قوله : " يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى " ٦٦ : طه ، فلا يشك فى وجوب اجتنابه ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه هنا فنقول : هو منكر لفظا ومعنى ، أما اللفظ فقد تقدم ، وأما المعنى فلأنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة ، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه ، وكيف

---

١) فيكون الإستفهام مقصودا به تقرير امتلائها ، وعلى الثانى يكون على حقيقته .

٢) انظر تفسيره " الكشاف " حـ ٣ صـ ١٦٣ ط : الحلبى

٣) هو ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى وكتابه مطبوع على هوامش الكشاف وعنوانه " الإنتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال "

٤) انظر الإنتصاف بهامش الكشاف حـ ٣ صـ ١٦٣

٥) وقع ابن المنير فيما عابه على الزمخشرى ، ولو قال : وندين الله بتقديسه عن مشابهة خلقه ، لكان أمس بالحقيقة رحما فإن السلف يثبتون بغير تمثيل ولا تكييف .

نفوص وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك : منها هذا ، ومنها لجاج الجنة والنار ، ومنها اشتكاؤها إلى ربها فأذن لها في نفسين ، وهذه وإن لم تكن نصوصا فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ، ما لم يمنع مانع ولا مانع ههنا ، فإن القدرة صالحة والعقل يجوز والظواهر قاضية بوقوع ما صوره العقل وقد وقع مثل هذا قطعا في الدنيا كتسليم الشجر وتسبيح الحصى في كف النبي صلى الله عليه وسلم وفي يد أصحابه ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر في تفاصيل المقالة لا تسع الحزب ، وضل كثير من الخلق عن الحق ، وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق ، فاشدد يدك بما فصل في هذا الفصل مما أرشدتك به إلى منهج القرب والوصل والله الموفق." أ هـ

كيفية دعاء النار للكافرين

ومما له علقة بما سبق من سؤال النار وجوابها ما ورد في وصفها من قول الحق جل ذكره : " تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى " ١٧ ، ١٨ : المعارج . وفي معنى (تدعو) كانت للمفسرين هذه التأويلات :

١ ـ الدعاء على ظاهره ، بمعنى القول والنداء ، فتقول : إليّ يا مشرك ، إليّ يا منافق او بتعبير ابن كثير (١) : " تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها وكانوا في الدار الدنيا يعملون عملها فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق .. " وهذا الرأي في تفسير الدعاء ذكره أكثر المفسرين حتى أولئك الذين ينهجون منهج القول بالتسهيل والتخييل ، كالزمخشري (٢) مثلا فقد كان هذا الرأي من بين الآراء التي ذكرها ، أما القرطبي (٣) فقد قال عنه أنه هو الحقيقة التي تدعمها آي القرآن وصحيح الأخبار ، ودعاء " لظى " يكون بخلق الحياة فيها حين تدعو وخوازن النار ة كثيرة "

٢ ـ الدعاء بمعنى الإهلاك ، تقول العرب : دعاك الله : أي أهلكك الله (٤) ،

٣ ـ الدعاء ليس من جهنم وإنما هو من خزنتها ، وأسند دعاؤهم إليها من قبيل الإسناد المجازي .

---

١) انظر تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ٤٢١

٢) انظر تفسير الكشاف حـ ٣ صـ ٢٦٨

٣) انظر الجامع لأحكام القرآن حـ ١٨ صـ ٢٨٩ بتصرف

٤) كان هذا الرأي من بين الآراء التي ذكرها القرطبي ، والزمخشري ، والشوكاني وقاله ثعلب ، ونقله ابن سيده في المخصص حـ ٢ صـ ١٣٣ ونقله عنه الشيخ المغربي في تفسير جزء تبارك مرتضيا له .

٤ ـ الدعاء : هو تمكينها من عذابهم وقد نقل القرطبي في هذا المعنى عن الخليل [١] قوله أنه ليس كالدعاء (تعالوا) ولكن دعوتها إياهم تمكنها من تعذيبهم "

٥ ـ إن الدعاء هو من قبيل التمثيل قال الزمخشري [٢] : " (تدعو) مجاز عن احضارهم كأنها تدعوهم فتحضرهم كقول ذي الرمة : تدعو أنفَ الريبُ .. " وكان هذا الرأي من بين الآراء التي ذكرها القرطبي [٣] أيضا فقال : " وقيل هو ضرب مثل ، أي أن مصير من أدبر وتولى إليها ، فإنها الداعية لهم . ومثله قول الشاعر :

ولقد هبطنا الواديين فواديا .. يدعو الأنيس به الضئيلُ الأبكمُ

الضئيل الأبكم : الذباب . وهو لا يدعو وإنما طنينه نبه عليه ، فدعا إليه "

دفاع الشيخ المغربي عن المجاز في تفسير الآية :

انتهج الشيخ المغربي [٤] في تفسير الآية نهج القائلين بالمجاز ، وأسرف على نفسه حين أخذ في الرد على القائلين بالحقيقة وهاك نص رأيه : ـ " ... وقوله " تدعو من أدبر وتولى " أي تنادي وتهتف بالذي أدبر وأعرض عن الإيمان ، وقال (تدعو) لأن تهيؤ جهنم ، وتبرجها للمعرضين عن الإيمان ، وتفتح أبوابها لدخولهم كأنه في المعنى هتاف بهم ، ودعاء لهم ما يسمونه " لسان الحال " كما أن الدعاء بالقول (لسان المقال) وهذا الضرب من التعبير كثير الشيوع في كلام العرب وأشعارهم ، لا سيما إذا أرادوا الحكاية عن شيء لا يعقل ، ووصف أحواله ومنه قوله :

شكا إليّ جملي طول السرى .. يا جملي ليس إليّ المشتكى

صبرا جميلا فكلانا مبتلى

والجمل لا يمكن أن يشكو بلسان مقاله ، وإنما يشكو بلسان حاله ، فإن آثار الأين [٥] والكلال والحفاء البادية عليه ، كأنها ألسنة تنطق بالشكوى إلى صاحبه .

وقال أبو النجم ـ الرجاز المشهور ـ يصف روضة : " تقول للرائد أعشبت انزل " أي أنها لاستجلابها ما يلزم للقوم المسافرين من : مرعى ، وماء وظل ، إذا وصل إليها رائدهم يهتفي لهم مكانا للنزول ، استوقفته تلك الروضة ، بحيث لا يمكنه تجاوزها دون النزول فيها بقومه ، فهي كأنها تقول له : (أعشبتَ) أي أصبت عشبا " فانزل " على الرحب والسعة .

---

١) انظر القرطبي حـ ١٨ صـ ٢٨٩
٢) انظر الكشاف حـ ٣ صـ ٢٦٨
٣) انظر القرطبي حـ ١٨ صـ ٢٨٩
٤) انظر تفسيره لـ " جزء تبارك " صـ ٤٩ ط : الشعب بالقاهرة
٥) الأين : الإعياء وانظر القاموس حـ ٤ صـ ٢٠١

ومثله قول الراجز الآخـــر :

امتلأ الحوض وقال قطـــنى[1] . . . مهـــلا رويدا قد ملأت بطـــنى

فهذا ما يسمونه " لسان الحال " ، وله شواهد كثيرة جدا فى القرآن والحديث ، وقد عقل عنه الكثيرون فحملوه على الحقيقة ، وجعلوه من الخطاب بلسان المقال ، ولا حجة لهم إلا أن الله تعالى قادر على كل شىء ومن ذا الذى ينكر قدرته تعالى ، ولكننا نرى أن حمل هـذه الآية ونظائرها على التمثيل كما ذكرنا عن أهل اللسان فى الحكاية عن مالا يعقل ـ أمثل وأبلغ من حملها على الحقيقة ، ولا داعى ـ عقلا أو شرعا للحمل عليها . . . " اهـ

تعقيـــب :

قال الشيخ : أنه لا يرى داعية من العقل أو الشرع ، تدعوه إلى فهم "دعاء النـــار" على حقيقته ، ولست أرى أية قرينة استظهر بها الشيخ لصرف دلالة الدعاء عن الحقيقة إلـــى المجاز ، إلا قرينة استبعاد الوقوع وما شأ هذا الإستبعاد إلا من تحكيم العقل المتقوقـــع فى آفاقه الضيقة ، وجعل قوانين العالم المحسوس المشهود ، حكما على أخبار مستكنة فـــى أرحام الغيوب ، ولو استشرفنا إلى آفاق أرحب لقلنا : آمنا به كل من عند ربنـــا .

هـــل ترى النـــار أصحابها حقيقة ؟

قال الحق جل ذكره فى وصف جهنم " إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظـــا وزفيرا " ١٢ : الفرقان وكانت اتجاهات المفسرين فى فهم الآية كما يلـــى :ـ

١ ـ حمل الرؤية على حقيقتها وكذلك التغيظ والزفير وليس هناك ما يمنع من أن يجعـــل الله لها حسا وإدراكا ، وقد وصف القرطبى[2] الحمل على الظاهر بانه هو الأصـــح مستدلا بما روى مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب على متعمدا فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا " قيل يا رسول الله وهل لها عينان ؟ قال : " أما سمعتم الله عـــز وجل يقول : " إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا " يخرج عنق من النـــار له عينـــان تبصران ، ولسان ينطق ، فيقال وكلت بكل من جعل مع الله إلاها آخر فلهـــو (أى العنق) أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه "[3] .

١) انظر فتح القدير للشوكانـــى حـ ٤ صـ ٦٤

٢) انظر الجامع لاحكام القرآن حـ ١٣ صـ ٧ ، ٨

٣) قال القرطبى عن سند هذا الحديث : " ذكره رزين فى كتابه ، وصححه ابن العربـــى فى قبسه ، . . . وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة . . . وقال هذا حديث حســـن غريب صحيح ، وانظر القرطبى حـ ١٣ صـ ٨ ، والسمسم : بالكسر هو الجلجـــلان

وقيل : ترى النار أصحابها من مسيرة مائة عام [١] ، وقيل : خمسمائة عام [٢] ، وهذا هو معنى " من مكان بعيد " عند بعض المفسرين وهذه الروايات غير مرفوعة إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فهي ليست إلا من باب الحشو والتزيد .

٢ - فسرت الرؤية بمعنى : إذا رأهم خزنتها ، سمع المعذبون للخزنة تغيظا وزفيرا هو من الآراء المذكورة في تفسير الآية [٣] ، وجوزه الزمخشري بقوله [٤] : " ويجوز أن يراد : إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار ، وشهوة للانتقام منهم " أ هـ

٣ - حمل الرؤية على المجاز بمعنى : إذا ظهرت لهم فكانت بمرأى الناظر [٥] أو بعبارة الزمخشري [٦] : " ... (رأتهم) .. من قولهم : " دورهم تتراءى وتتناظر " ومن قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تتراءى ناراهما [٧] " كأن بعضها يرى بعضا على سبيل المجاز ، والمعنى إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر " أ هـ

رد ابن المنير [٨] على الزمخشري :

وجرى ابن المنير على محمود عادته في الرد على الزمخشري فقال [٩] : " لا حاجة إلى حمله على المجاز ، فإن رؤية جهنم جائزة ، وقدرة الله تعالى صالحة [١٠] ، وقد تظافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز ، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكا حسيا وعقليا ، ألا ترى إلى قوله " سمعوا لها تغيظا " وإلى محاجتها مع الجنة ، وإلى قولها " هل من مزيد " وإلى اشتكائها إلى ربها فأذن لها في نفسين ، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها إذ لا محوج إليه ، ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد ، لتطرق الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة والتحيز إلى فرق الفلاسفة ، فالحق أنا متعبدون بالظاهر ما لم يمنع مانع والله اعلم " .

---

١) ذكره ابن كثير في تفسيره ناقلا له عن السدي انظر حـ ٣ صـ ٣١٠ وكتابة " مئة " بهذه الصورة الإملائية صحيحة .
٢) ذكره القرطبي حـ ١٣ صـ ٧
٣) ذكره كثير من المفسرين كالقرطبي والشوكاني ولم يرتضياه
٤) انظر الكشاف حـ ٢ صـ ٤٠١
٥) انظر فتح القدير حـ ٤ صـ ٦٤ ولم يرجح الشوكاني هذا الرأي .
٦) انظر الكشاف حـ ٢ صـ ٤٠١
٧) الحديث النهي في النهي عن تقارب منازل المسلمين والكافرين
٨) انظر الانتصاف بهامش الكشاف حـ ٢ صـ ٤٠١
٩) لو قال : وقدرة الله تعالى لا يؤودها شيء في السماوات والأرض ، لكان أوفق .

كيفية اطلاع النار على الأفئدة !!

وما هو متعلق بما سبق وموصول به قول الله جل ذكره : " نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة " ٦ : ٧ : الهمزة .

وحول " اطلاع النار على الأفئدة " كانت تأويلات المفسرين كما يلي :-

١ - الإطلاع بمعنى البلوغ ، قال الطبري [١] : " أي التي يطلع لهبها ووهجها القلوب ، والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى ، حكي عن العرب سماعا : " متى طلعت أرضنا " و " طلعت " أرضي " أي بلغتها " اهـ . ومن هذا المعنى ما ذكره القرطبي [٢] : عن خالد بن أبي عمران عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن النار تأكل أهلها ، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت ، ثم إذا صدروا تعود فذلك قوله تعالى : " نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة " . وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه ، أي أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون ، كما قال الله تعالى : " .... لا يموت فيها ولا يحيا " فهم إذاً أحياء في معنى الأموات " اهـ

٢ - ومما يقرب من سابقة تفسير الاطلاع بما قاله الألوسي [٣] : " أي تعلو أوساط القلوب وتغشاها ، وتخصيصها بالذكر ، لما أن الفؤاد ألطف ما في الجسد وأشده تألما بأدنى أذى يمسه ، أو لأنه محل العقائد الزائغة ، والنيات الخبيثة ، والملكات القبيحة ، ومنشأ الأعمال السيئة ، فهو أنسب بما تقدم من جميع أجزاء الجسد " .

٣ - أن المقصود بالاطلاع : العلم ، قال الزمخشري [٤] : " ومعنى اطلاع النار عليها أنها تعلوها وتغلبها وتستعلي عليها أو تطالع على سبيل المجاز معادن موجبها " اهـ ، وقد بسط هذا الرأي الأخير للزمخشري الألوسي [٥] حين قال : " ... أو أن يراد الإطلاع العلمي - والكلام على سبيل المجاز - وذلك أنه لما كان لكل من المعذبين ، عذاب من النار على قدر ذنبه المتولد من صفات قلبه ، قيل أنها تطالع الأفئدة التي هي معادن الذنوب فتعلم ما فيها فتجازي كلا بحسب ما فيه من الصفة المقتضية للعذاب .

---

١) انظر تفسير الطبري جـ ٣٠ صـ ١٩٤ ط : الحلبي الثالثة بتصرف قليل ولم يذكر الطبري وهو المفسر الموسوعي غير هذا الوجه في المسألة .
٢) انظر تفسير القرطبي جـ ٢٠ صـ ١٨٥
٣) انظر روح المعاني للألوسي جـ ٣٠ صـ ٢٣١ ، ٢٣٢ ط : الدمشقي القاهرة وقد نقل الألوسي أكثر عباراته في هذه المسألة عن الزمخشري انظر الكشاف جـ ٣ صـ ٣٥٨ ، وقريب من هذا ما فصله الشوكاني في " فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير " جـ ٥ صـ ٤٩٤
٤) انظر الكشاف جـ ٣ صـ ٣٥٨
٥) انظر روح المعاني جـ ٣٠ صـ ٢٣٢ ، وقد وجدنا أن الألوسي قد جمع في هذه المسألة آراء العلماء السابقين بما يشبه الاستيعاب بينما مر بهذه الآية بعض المفسرين في عجل لا يتوانى

٤ - وجمع الشيخ محمد عبده [١] بين قولى الزمخشرى آنفى الذكر فقال : " ولا يخفى عليك أن الفؤاد إنما يطلق على القلب ، إذا لوحظ أنه بمعنى موضع الوجدان والشعور ، فكأنه قال : التى تعلو مشاعرهم ، ومداركهم ، ومواطن الوجدان من نفوسهم .
أى أن سلطان هذه النار على قوى الوجدان والشعور التى هى مواطن النيات والمقاصد ، ومساكن الفضائل والرذائل . وقد قيل : أن معنى الإطلاع هنا المعرفة والعلم ، أى أن هذه النار تعرف ما فى الأفئدة فتأخذ من تعرفهم أهلا لها ، من أهل الوجدان الخبيث .

والنار التى تعرف [٢] من يستحق العذاب بها لا تكون من النيران المعروفة لنا فى الدنيا ، بالضرورة ، وعلى كل لا يخلو الكلام - على هذا التأويل الثانى - من التمثيل والتجوز . "

٥ - وأما القائلون بالتفسير الإشارى [٣] فكان رأيهم الذى ذكره صاحب " الألوسى [٤] " هو : " أن ما ذكر إشارة إلى العذاب الروحانى الذى هو أشد العذاب "

---

١) انظر تفسير " جزء عم يتساءلون " صـ ١١٨ ط : الشعب
٢) قيل أنها تعرف أصحابها بأمارات يعرفها الله بها .
٣) سمى القشيرى كتابه فى التفسير بلطائف الإشارات ولم نجد هذه الإشارة فيه عند هذه الآية انظر اللطائف حـ ٦ صـ ٣٣٥
٤) انظر روح المعانى حـ ٣٠ صـ ٢٤٢

النجم الثاني

تأويلات

حول

حقيقة الجن

تأويلات وتلبيسات في حقيقة الجن للدكتور محمد البهي :

كتب الدكتور محمد البهي [1] تفسيرا مستقلا لسورة الجن ، ذهب فيه إلى عديد من الآراء المتناقضة حول " حقيقة الجن " في القرآن الكريم ، ولا نريد أن نعاجل القارئ بإصدار الأحكام على هذه الآراء ، وإنما نريد أن ندع هذه الآراء تحكم على نفسها بنفسها .

استهل الكاتب الفقرة الأولى من كتابه بقوله :

" لم يزل بعض الذين ينسبون أنفسهم إلى المعرفة الدينية في وقتنا الحاضر - وكذلك عبر التاريخ كله - يحملون غيرهم ، تهمة عدم فهمهم ، أو سوء فهمهم - لما يطرحونه من رأي في اعتقادهم ، وذلك بمعارضتهم لرأي غيرهم ، وانتقاصهم لمن سواهم ، بما يكشف عن عدم الفهم ، أو سوء الفهم لهم .

وكان ذلك شأن كهان الوثنية المادية وأصنامها بمكة ، على عهد الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .... "

بعد هذه البداية الهجومية من الدكتور الفاضل ناخذ في الموضوع لنرى هل كان محقا في هذه البداية موفقا في المقدمة التي صدر بها للسورة الكريمة ، والتي كانت أكثر عباراتها "مقحمة" على الموضوع ، نتيجة لظروف خاصة !!

يقول الدكتور البهي [2] :

" عالما الجن ، والانس تحدث الله عنهما في قوله : "خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار " ١٤ ، ١٥ : الرحمن ، والمارج هو النار الصافية التي لا يشوبها دخان .... [3] إلى إن يقول :

١ - والجن موجود قطعا ، وهم قوى مخلوقة من نار صافية ، ولذا كانوا قوى روحية .

٢ - وعالم الجن قائم إلى يوم البعث لا مرية في ذلك .

٣ - أما موجوداته الأصلية فهي طبائع الملائكة ، وهي العناصر الخيرة المطيعة . وطبيعة إبليس كذلك ، وهو العنصر الشرير فيها . وهو قد وصل إلى الشر بعد أن عصى ربه

---

١) الدكتور محمد البهي قرقر ، وزير الأوقاف المصرية الأسبق ، ولد باحدى قرى محافظة البحيرة وجمع بين الثقافتين الإسلامية العربية في الأزهر ، والثقافة الغربية في جامعة هامبورج بألمانيا ، ولي عديدا من المناصب الجامعية الأزهرية حتى صار وزيرا وله عدد من المؤلفات الذائعة ، وكتب تفسيرا لبعض سور القرآن الكريم .

٢) انظر تفسير سورة الجن ص ٧ ، ٨ ط : دار الفكر : بيروت

٣) يكتب الدكتور البهي شروحه لبعض ألفاظ الآيات في وسطها وقبل إتمامها بين أقواس وهذه الوتيرة هذه الطريقة وهو يكتب للعامة والخاصة ليجنب القارئ خطر اللهث .

فلم يسجد لآدم ، كما سجدت جميع الملائكة عداه معترا بأن خلق من نار ... وكان من الملائكة . وإذا الملائكة جميعا مخلوقون من نار مشعة صافية .....

فإبليس ملك عصى ربه وإبليس جان من عالم غير المرئيات ، والملائكة من الجن ، كما هم من النار الصافية "

مناقشة : انتهى الدكتور في هذه الفقرة إلى أمور هي :

١ ـ أن الملائكة هي الموجودات الأصلية للجن .

٢ ـ إن الملائكة خلقت من نار .

٣ ـ أن إبليس من الملائكة .

ونلاحظ على هذا الرأي الخلط ، والتعسف في الاستدلال ، وإنكار الأحاديث الصحيحة التي لا مطعن في سندها ، والخروج على إجماع المفسرين والمحدثين .

فأما خلطه ففي دعواه : أن الملائكة : هم أصل الجن ، وهي دعوى رددها في غير موضع من كتابه ، ولا دليل له عليها ، ونبدأ مناقشته في هذه الدعوى ببيان من هم " الجن " ؟

الجن في لغة العرب :

تطلق كلمة " الجن " في لغة العرب على ما من شأنه الستر والخفاء ، وأكثر استعمالاتها تدور حول هذا المعنى ، فالجُنة (بضم الجيم) الوقاية والستر وكل ما وارك وسترك وجنه : أي ستره ، والجنين : لاستتاره في رحم أمه وكل مستور جنين ، والمجنون : من ستر عقله وأجن الميت : ستره بكفنه ، وأجنه الليل : ستره بظلمته ، والجَنَن (بفتحتين) : القبر لأنه يستر الموتى ، والكفن : جنن لهذا المعنى ، والجَنان (بفتح الجيم والنون) القلب لاستتاره ، والمجن : الترس يتقى به ، الجَنة : البستان يستر الأرض بأشجاره (١) .....

وهكذا . والجِنة : الجن لاستتاره عن الأعين ، لهذا سميت الملائكة بالجِنة . أيضا وفي القاموس (٢) " الجِن (بكسر الجيم) الملائكة والجنة طائفة من الجن " أ هـ

ومن هذا الاستعمال اللغوي للجنة جاء قول الحق سبحانه " وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون " ١٥٨ : الصافات

---

١) انظر معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا ط : الحياة بيروت ١٣٧٧ هـ المجلد الأول مادة جن ص ٥٨٤ ، ٥٨٦ والنقل بإيجاز وتصرف

٢) انظر القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروز أبادي حـ ٤ ص ٢١٢ بصورة

فالآية إنكار على المشركين الذين قالوا : "إن الملائكة بنات الله وأمهاتهم بنات سروات الجن ، فجعلوا بين الله وبين الجنة أي الملائكة نسبا ، ولقد علمت الجنة أنهم سيشهدون عذاب أولئك المشركين ، أو بعبارة البخاري " ستحضر للحساب (١) "

وإذاً فكلمة الجنة مشترك لفظي بين الجن والملائكة ، وكذلك يسمى ذهاب العقل جِنَّة كما في قوله تعالى : " أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين " ١٨٤ : الأعراف ، وقوله سبحانه : " ما بصاحبكم من جنة .. " ٤٦ : سبأ ، وقوله تعالى : " أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون " ٧٠ : المؤمنون ، وإذاً فالقول : إن الملائكة هم الجِنّ لهذا الإشتراك اللفظي تلبيس لا يليق من رجل : له علم " الدكتور " وثقافته ، وذكاؤه

إنكاره لصحاح الأحاديث :

وأما إنكار " الدكتور " للأحاديث الصحيحة فيتبدى أول ما يتبدى في قوله بأن الملائكة خلقت من نار صافية مشعة وذلك ينافي حديثه صلى الله عليه وسلم عن خلق الملائكة من النور والذي سيأتيك نصه بعد قليل إن شاء الله تعالى .

والقرآن قد نص على خلق الجن من غير موضع كما في قوله تعالى : " وخلق الجان من مارج من نار " ١٥ : الرحمن ، فما هو المارج ؟ إن كلمة (مرج) دالة على الاختلاط ، والمارج : الخلط ، والشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد (٢) ، أو اللهب المختلط بسواد النار (٣) ، وروى عن ابن عباس : " من مارج من نار " أي من خالص النار وروى هذا القول أيضا عن مجاهد وعكرمة والضحاك ، وغيرهم (٤) .

ولكي يزداد الأمر وضوحا نقرأ قوله تعالى : " والجان خلقناه من قبل من نار السموم " ٢٧ : الحجر ، وقد وردت كلمة السموم هذه في صفة عذاب الفجار في قوله تعالى : " وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم " ٤١ : ٤٤ : الواقعة ، " والسموم هي الريح الحارة من النار قيل سميت بذلك لأنها تنفذ في مسام الجسد (٥) ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، واليحموم هو الدخان الأسود (٦)

---

١) انظر البخاري كتاب التفسير حـ ٦ صـ ١٥٤

٢) فسر ابن كثير " المارج " بأنه طرف اللهب حـ ٤ صـ ٢٧١ ، وفسره القاسمي : بأنه اللهب الصافي انظر محاسن التأويل حـ ١٥ صـ ٥٦١٧ وقد وجد الدكتور الهمي منفذا له في عبارة " اللهب الصافي " ليخلط بين النور والنار .

٣) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم مادة " مرج " صـ ٤٣٢

٤) انظر تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ٢٧١ ط : الحلبي .

٥) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم مادة " سمم " صـ ٥٧٦ ، وكذلك معجم متن اللغة

٦) انظر تفسير الخطيب الشربيني حـ ٤ صـ ١٨٩ .

فاذا عرفنا أن مادة خلق إبليس هي بعبارة القرآن " من مارج من نار "(١) أو " من نار السموم " وأن مارج النار هو لهبها أو خالصها أو صفوتها ، ونار السموم هي الحارة الشديدة وسمى التعبيريون : دفع توهم اختلاط النار بمادتها من خشب أو غاز وإنما هي الحرارة الشديدة الخالصة . وإذا كانت النار هي أصل النور ، فإن الفرق يظل بين اللهب الحارق ، والضوء الهادئ كبيرا ، فالنار مع ما فيها من نفع فيها الخوف وفيها الضرر ، والنور فيه الهداية وفيه الأمن والسكينة .

لذلك فإن النور اسم من أسماء الله ، وصفة من صفات " الله نور السموات والأرض ... " ٣٥ : النور ، وصفة للنبي صلى الله عليه وسلم " يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا " ٤٦ : الأحزاب ، وصفة للقرآن الكريم " ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ... " ٥٢ : الشورى ، وصفة للمؤمنين " يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم ... " ١٢ : الحديد ، ومن هذا وغيره كثير نتعلم بعض أسرار الإمتنان بالنور ، والإنتقام بالنار فإذا قصد " الدكتور " من وصفه للنار بأنها مشعة ليخلط بين النار والنور ، وبين مادة خلق الملائكة ، ومادة خلق الجن ، فإنه يكون قد أخطأ المرمى والهدف .

وأما ما ورد في السنة عن مادة خلق الملائكة : فمنه قوله صلى الله عليه وسلم " خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " .

رواه الإمام أحمد قال : حدثنا عبد الرازق ، حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عائشة رضي الله عنها ، وكذلك رواه مسلم عن محمد عن رافع وعبد بن حميد ، كلاهما عن عبد الرازق بالإسناد السابق ، فهذا سند الحديث عند إمامين من أئمة السنة (٢)

قوله أن إبليس كان الملائكة :

وردت في بعض كتب التفسير(٣) روايات لا تثبت على النقد منها أن ابليس كان ملكا إسمه عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة إجتهادا وأكثرهم علما ، فدعاه

---

١) انظر تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ٢٧١ د : الحلبي

٢) وانظر كذلك تفسير الحافظ بن كثير حـ ٦ صـ ٤٨٨ ط : بيروت

٣) انظر ما ورد في تفسير ابن كثير حـ ١ صـ ٧٧ وما بعدها ط : الحلبي من روايات حول تفسير آية البقرة (٣٤)
وآية الكهف " ٥٠ " وغيرهما من كتب التفسير .

ذلك إلى الكبر ، وكان يسوس ما بين السماء [1] والأرض ، فعصى الله فمسخه شيطانا رجيما ، وأنه كان من حي من الملائكة يقال لهم " الجن " ونسبوا لابن عباس في معنى قوله سبحانه " كان من الجن " أي كان خازنا من خزان الجنة ، كما يقال للرجل مكي ومدني وبصري وكوفي .... إلى غير ذلك من الروايات .

ورأينا أن ابن عباس عليه الرضوان أعلم وأفقه من أن يقول بما نسبه إليه راويا له أو صادرا عنه .

ويقول ابن كثير [2] رحمه الله ، ناقدا لهذه الروايات ، ولله دره :- " وقد روى في هذا آثار كثيرة عن السلف ، وظاهرها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من العلماء الأتقياء ، والجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد ... " إلى آخر ما قال فأحسن وأجاد رحمه الله ، ومقالة ابن كثير قاعدة ذهبية في التفسير يجب تدبرها ومراعاتها ، وقبل ذلك كله لا نقول في إبليس إلا ما قاله الله سبحانه وتعالى " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا " ٥٠ : الكهف ، فقوله تعالى : " وإذ قلنا للملائكة .. " أي لجميع الملائكة كما حقق ذلك المحققون من المفسرين كابن تيمية وابن كثير والقاسمي وغيرهم خلافا لمن جعل المسألة موضع خلاف أو قال بسجود ملائكة السماء دون ملائكة الأرض .

وخير القرآن في ذلك يغني عن قول الناس ، لأنه القول الفصل الذي ندع عنده قول كل قائل وخير القرآن هو : " فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون " ٢٩ : ٣٣ : الحجر .

والآيات نص في سجود جميع الملائكة ، وإنما استثنى إبليس لأنه ليس من الملائكة .

ويحسن أن نستعرض آراء العلماء في هذه المسألة ثم نعقب بما نرجحه بقول القاسمي [3] " للعلماء في إبليس هل كان من الملائكة أم لا ؟ قولان : أحدهما أنه كان من الملائكة . قاله

---

١) تكررت عبارة " يسوس " في تفسير ابن كثير مرتين في البقرة والكهف .
وفي رواية ثانية حـ ١ صـ ٧٧ " وله سلطان في السماء الدنيا وسلطان في الارض " وحسبنا في التعليق عليها رأي ابن كثير نفسه المذكور أعلى الصفحة .

٢) في تفسير الآية " ٥٠ " من سورة الكهف حـ ٤ صـ ٣٧٨ ط الفكر . بيروت

٣) محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي حـ ٢ صـ ١٠٣

ابن عباس ، وابن مسعود ، وسعيد بن المسيب ، واختاره الشيخ موفق الدين ، والشيخ أبو الحسن الأشعري ، وأئمة المالكية وابن جرير الطبري " قال البغوي[1] : واختلفوا فيه فابن عباس وأكثر المفسرين أنه من الملائكة واستدلوا بأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فلولا أنه كان من الملائكة ، لما توجه الأمر إليه بالسجود ، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصيا ... والقول الثاني : أنه كان من الجن ، ولم يكن من الملائكة . قاله ابن عباس في رواية [2] ، وقاله الحسن وقتادة واختاره الزجاج وأبو البقاء العكبري ، والكواشي في تفسيره فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ... قال في الكشاف : " إنما تناوله الأمر ، وهو للملائكة خاصة ، لأن إبليس كان في صحبتهم ، وكان يعبد الله عبادتهم فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة ، كان الجنى الذي معهم أجدر بأن يتواضع "

وقال القاسمي الأول [3] قال ابن قيم الجوزية " الصواب التفصيل في هذه المسألة وأن القولين في الحقيقة قول واحد . فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله ، فأصله النار ، وأصل الملائكة من نور ، فالثاني كونه من الملائكة ، والمثبت ، لم يتوارد على محل واحد " .

والذي قاله ابن قيم تفصيل يدفع الإشكال في المسألة .

ومن علماء التابعين من قطع في المسألة كالحسن البصري ، رضي الله عنه في قوله : " ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وأنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر " وقد صحح ابن جرير إسناد هذه الرواية إلى الحسن [4] ، وهذا الرأي هو الراجح عند ابن كثير كما يفهم من سياق ما كتبه [5] .

اختيارنا في المسألة : أن إبليس كان من الجن لما يلي : ـ

١) خبر القرآن القاطع " إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه " ٥٠ : الكهف .

٢) ما قطع به القرآن من أصل الجن هو " مارج من نار " وأصح في السنة من أن أصل الملائكة هو النور .

٣) ما نص عليه القرآن من وجود ذرية لإبليس حذرنا منها القرآن في قوله سبحانه وتعالى " أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا " ٥٠ : الكهف ،

---

١) انظر معالم التنزيل للبغوي حـ ١ صـ ٤١ بهامش لباب التأويل للخازن .

٢) ما أكثر ما ظلم الرواة ابن عباس فنسبوا إليه النقيضين : نسبوا إليه القول بأن ابليس من الملائكة ، والقول بأنه من الجن .

٣) قال القاسمي حـ ٢ صـ ١٠٣ : " والقول الأول : هو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء وصححه البغوي " وفي هذه الدعوى من القاسمي نظر .

٤) ، ٥) انظر تفسير ابن كثير لآية ٥٠ : الكهف حـ ٤ صـ ٣٩٦ ، ٣٩٧ بيروت

وليس للملائكة ذرية ، ونفى القرآن الكريم الإناث عن الملئكة فى غير موضع كقوله سبحانه " إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملئكة تسمية الأنثى .. " ٢٧ : النجم ، " أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا .. " ٤٠ : الإسراء ، " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون " ١٩ : الزخرف .

٤ - إن الله سبحانه وصف إبليس بصفات من المعصية والفسق عن أمر الله " ففسق عن أمر ربه " ٥٠ : الكهف ، " إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين " ٣٤ : البقرة ، وهكذا كل صفاته فى القرآن لا يذكر إلا مقرونا باللعن والرجم ، والغضب والفتنة ، والإضلال ، والطرد من رحمة الله ، هو ومن تبعه وتلك صفات نزه الله ملائكته عنها تنزيها فهم على النقيض من إبليس تماما " ... لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " ٦ : التحريم ، " وإنا لنحن المسبحون " ١٦٦ : الصافات ، " الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم " ٧ : غافر ، " إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون " ٢٠٦ : الأعراف ، " فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون " ٣٨ : فصلت .

والمقابلات فى القرآن كثيرة كثيرة فإبليس " استكبر " والملائكة " لا يستكبرون " وهو " عصى " وهم " لا يعصون " وهو أبى أن " يسجد " امتثالا لأمر الله ، والملائكة " يسجدون " وهكذا .

٥ - ذكر القرآن أدب الملائكة فى قصة آدم " قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم " ٣٢ : البقرة ، ولما تكلموا فى استخلاف آدم ساقوا الأدب والإمتثال فى سؤالهم " قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك " ٣٠ : البقرة (١).

وأما إبليس فموقفه تحكيم العقل القاصر ، والاغترار بالقياس الفاسد ، والاستكبار بالأصل " فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا " ٦١ : الإسراء ، " ... قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين " ١٢ : الأعراف ، ٧٦ : سورة ص

٦ - لو كان إبليس والملائكة من أصل واحد وهو النار ، لما احتج بهذه الحجة الواهية من دونهم ، ولبين القرآن انفراده بهذا الإحتجاج من دون الملائكة ولبين أنهم لم يحتجوا بحجته ، بل أطاعوا مع أنهم هم وإبليس من أصل واحد ... وشئ من هذا البيان لم يرد

---

(١) سؤال الملائكة : استخبار لا على وجه الانكار انظر تفسير ابن كثير حـ ١ صـ ٧١ : الحلبى ، وهو اختيار ابن جرير الطبرى .

في الكتاب والسنة بل الوارد خلافه . فابليس قال : أنا خير منه ولم يقل أنا والملائكة خير منه .

٧ - إن الذي يريد أن يلتمس هداية القرآن في مسألة من المسائل ، يجب عليه أن يطلب ما ورد في القرآن كله حولها ، وما فصلته السنة المطهرة من أمرها ، ومن هداية القرآن في هذه المسألة أن تقرأ قوله تعالى " فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين " ٧٣ ، ٧٤ : ص

وأنت ترى هنا من أسلوب القرآن أنه كان يمكن القول " فسجدوا إلا إبليس ، لأن ما قبلها " واذ قال ربك للملائكة .... " ٧١ : ص

لكنه : استعمل الظاهر موضع المضمر " فسجد الملائكة واستعمل تأكيدين " كلهم " ، " أجمعون " .

فلما استثنى كان ما سبق دالا على أن الإستثناء منقطع ، وبالغ في ذمه بقوله " وكان من الكافرين " والملائكة لم يكفر منهم أحد ، ولا تصدر عنهم المعصية ، ثم أن قوله سبحانه " وكان من الكافرين " له من الدلالة عند ذواقة البيان العربي مالا يدل عليه تتابع الأفعال لو جاء القول هكذا إلا إبليس أبى واستكبر وكفر ... أو فكفر ، ومعنى " وكان من الكافرين " قال البغوى [1] : قال أكثر المفسرين : " وكان في سابق علم الله من الكافرين الذين حقت عليهم الشقوة ... لأنه كان أول كافر ورأسا للكفر الذي لم يكن ثم على الأرض بعد "

٨ - تبقى الحجة الوحيدة للقائلين بأن إبليس من الملائكة ، وهي فهم في قول الله تعالى "واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين " ٣٤ : البقرة وحجتهم من الآية الكريمة ، أنه لو لم يكن من الملائكة لما توجه إليه الأمر ، ولو لم يتوجه إليه الأمر لما كان عاصيا ، والاستثناء في هذه الآية منقطع ، ودليل ذلك قوله تعالى : " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ... " والقرآن يوضح بعضه بعضا ، فهل يعقل أن يكون معنى الآية : أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الملائكة !! تنزه بيان القرآن عن هذا الفهم تنزيها ، والقول بأن معنى " كان من الجن " أي من حي من الملائكة يقال لهم الجن ، أو نسبة للجنة لأنه كان من خزنتها [2] ، هذا القول خبر عن غير المعصوم صلى الله عليه وسلم وقول على الله بغير علم .

وسر توجه الخطاب إليه ، أنه كان مع الملائكة حين أمروا بالسجود فتوجه الخطاب

---

١) معالم التنزيل للبغوى ، ومعه لباب التأويل للخازن حـ ١ صـ ٤١ ط : التجارية ومثله ابن كثير حـ ١ صـ ٧٨

٢) قارن بما ذكره السدى ورواه ابن كثير في تفسير الآية . حـ ١ صـ ٧٥

إليه ، لأن الله تعالى لما شاءت حكمته أن يجعل في الأرض خليفة ، دعا من يظنون أنهم أحق بالاستخلاف إلى السجود لهذا الخليفة ، امتثالا لأمر الله وطاعة له وحده ، وتحية وتكريما لهذا الخليفة ، فامتثل الملائكة أمر الله ، وأبى أصل الجن إبليس ، وربما إذا أعدنا ذكر آيات سبقت منذ قليل وتدبرناها وجدنا من لدنها هداية إلى هداية ، وبينة إلى بينات وهي " ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون "٢٦ : ٣٣ : الحجر .

تضمنت الآيات الكريمة قصة خلق الإنسان ، وخلق الجان ، وموقف الملائكة ، وموقف الجن من هذا الإنسان ، .

وهذا رد آخر على من يقول : أن الجن هم الملائكة وإلا فما معنى قوله سبحانه " والجان خلقناه من قبل ... " أي قبل خلق الإنسان وتذكر هذه الآية قبل "وإذ قال ربك للملائكة " فهل يمكن أن يكون هذا الكائن المخلوق من نار السموم ليس غير الملائكة وإن سماه القرآن بأنه " الجان " ثم يعود القرآن إلى الحديث عن كائن آخر هو الملائكة وإن كانوا هؤلاء الملائكة ليسوا إلا " الجن " كما يريد الدكتور البهي ، إن قائل هذا متهم لكتاب الله بالإلغاز والتلبيس ، والتعمية . ومعاذ الله ثم معاذ الله أن نقول بهذا .

ثم تأمل كرة أخرى " كلهم أجمعون " وبعدها "إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين " .. وبعدها " ... مالك ألا تكون مع الساجدين ... " لم يقل : أبى أن يكون مع قومه وقبيله ولم يقل : أبى أن يكون مع الملائكة ، ولم يعاتبه سبحانه بقوله : مالك خالفت قومك ؟ وخرجت عن قبيلك وجمعك ؟

فسر توجه الخطاب إليه : أنه أمر أن يكون مع الساجدين . ولو أمر أن يكون مع الملائكة لقال لم أومر لأني لست منهم ، أو لدل هذا التعبير بدلالة المفهوم أنه من الملائكة ، ودلالة المفهوم لم توجد وإن وجدت جدلا فدلالة المنطوق في قوله تعالى : " كان من الجن "مقدمة عليها .

. اسمع الله جل ذكره " ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون " ٤٠ ، ٤١ : سبأ ، فهذا نص صريح قاطع يسأل الله فيه ملائكته " أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون " فيكون جواب الملائكة " سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن " أي كانوا يعبدون شياطينهم الذين أضلوهم فهل يقال بعد هذا أن الملائكة هم الجن !!

١١ ـ قول الله جل ذكره " وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون " ١١٢ : الأنعام ،

فإذا كان الجن هم الملائكة ، فهل يقول الدكتور : إن من الملائكة من عصى الله ، وفسق عن أمره ، وأصبح عدوا لأنبيائه ورسله ؟

هذا مقتضى قوله ولا زمه

والإنسان أيضا من الجن !!

كان الناس يعلمون ويؤمنون بأن الإنس خلق مغايرا للجن ، لكن التجديدات العصرية للأستاذ الدكتور البهى اكتشفت الأمور الآتية وهى (١) :ـ

" ويدخل فى عالم الجن ـ ملحقا بطبائعه الأصلية ـ من يتخفى من عالم الإنسان : فى إيمانه ، وكفره ، وفى خيره وشره ، باعتبار : أن هذا الذى يتخفى غير ظاهر ، وغير مرئى وذلك كشياطين الجن ، فإنهم من الإنسان ، يخفون شرهم وكيدهم لدين الله وللمؤمنين به ، وصدهم عن سبيل الله . وجاء فى قوله تعالى : " إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . " يراكم : أى الشيطان وهو إبليس . هو وقبيله : أى هو وأعوانه من الشياطين . من حيث لا ترونهم : لأن إبليس بحكم طبيعته من عالم الجن ، وأعوانه بحكم تخفيهم فى الشر ألحقوا بهذا العالم وأصبحوا شياطين الجن (٢) ومثل هذا الفريق الشرير من الناس فى إلحاقه بعالم الجن لتخفيه فى الكفر ، والإيذاء ، والإغراء : فريق آخر من الناس أيضا يخفى فى إيمانه ولم يظهر فى تعرفه على الهداية ، وفى تبشيره بالدعوى (٤) لدين الله ، وهو هذا الفريق الذى أعلن عنه الوحى فى سورة الجن ، فى قول الله تعالى " قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا " ١ ، ٢ : الجن ... وكذلك فى سورة الاحقاف فى قوله القرآن الكريم : " وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . يا قومنا : أجيبوا داعى الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين " ٢٩ ـ ٣٢ : الاحقاف

---

١) انظر تفسير سورة الجن ص ٨ ، ٩

٢) تأمل جيدا : شياطين الجن هم من الإنس !!!

٣) انظر ص ٩ وقد فصلنا شيخ الدكتور البهى خلافا لما يفعله هو

٤) بالدعوى : كذا بأصل الكتاب ، وصحتها بالدعوة ولعلها خطأ مطبعى .

من الجن : أى من العالم غير المرئى ، ولكن ليس من القوى النارية .

فلما قضى : أى فلما انتهت تلاوته .

ولوا إلى قومهم منذرين : أى عادوا مسرعين إلى قومهم . مصدقا لما بين يديه : ما بين يدى القرآن : هو التوارة والإنجيل ، ولكن التوارة على وجه أخص لأنه كتاب هداية وتشريع كالقرآن إلى الحق . وهو العقيدة والشريعة .

إلى صراط مستقيم : وهو الهداية والسلوك السوى .

فهذا الفريق الذى تخفى ولم يكن معروفا للمكيين . حتى كذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند سماعه القرآن بمكة ، ثم فى إيمانه وفى دعوته وتبشيره بين قومه . هو من البشر وليس من القوى النارية ، ويرجح إلى درجة كبيرة من الترجيح أنه من " يثرب " !

أما أنه من البشر فقد ساقت آيات الجن والأحقاف ضمنا - فى عرض الوحى بشأنه - عدة قضايا :

القضية الأولى : إيمان هذا الفريق بتوحيد الله فى الألوهية : " فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا "

القضية الثانية : حكم هذا الفريق على القرآن - بعد ما سمعوا منه بعض آياته . وبقوله : أن الذى تلى منه كان من سورة الحق بأنه كتاب مصدق لما بين يديه من التوارة " إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى .... "

القضية الثالثة : دعوة هذا الفريق للإسلام بين قومه [2] ووعده لمن آمن منهم بغفران الله لذنوبه ، وإنقاذه من عذاب أليم ...

" يا قومنا أجيبوا داعى الله ... "

وهذه القضايا الثلاث جميعها تختص برسالة الله للبشر فالبشر وحدهم المكلفون باتباع ورسالة الله ... وليست (رسالة الله) لتلك القوى الأخرى التى خلقت من [3] نار وهى الملائكة التى توجد فى العالم الثانى ، وهو العالم غير المرئى أو عالم الجن وذلك لأنه :-

أولا : أن القوى النارية وهى الملائكة أختبرت فى طاعتها ، عندما أمرها سبحانه بالسجود لآدم ، وقد أطاعت جميعها ، عدا واحد منها فقط وهو إبليس . والتكليف بالرسالة الإلهية اختبار قائم لمن يطيع ، ولمن يبقى على كفره . وذلك وضع ليس موجودا بين الملائكة ، بعد أن سجدت لآدم . وهى لا تتوالد ولا تتناسل حتى يكون لها أجيال متتابعة ، حتى يمكن أن يستمر اختبارها ..... [4]

---

١) يريد أن يقول أنهم من الأنصار أو من أصحاب يهتدى بهديهم .

٢) فهل من يباشر الدعوة إلى الله بين البشر يكون من الجن ؟ !!

٣) هذا انكار صريح لما ثبت بالقرآن والسنة من أن الرسالة للثقلين واقرأ سورة الرحمن وخاصة الآية ٣١ منها وآيات الاحقاف فسالفة الذكر وسورة الجن ...

٤) باختصار من ص ١٠ ، ١١ .

ثانيا : ان الملائكة لا ذنوب لها ، لا قبل أمرها بالسجود لأنها لم تعص ، ولا بعد أن أطاعت فسجدت . فما معنى غفران الذنوب لها فى قوله تعالى ، كما جاء على لسان فريق من الجن فى سورة الاحقاف : " يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم " ... علما بأن الذى عصى من الملائكة واحد وقد عرف ، ثم لحقه عقاب من الله .... (١)

مناقشات مع الدكتور البهى :

لقد مضى الدكتور البهى فى هذا الطريق المسدود إلى نهايته فكلمة الجن عنده تشمل الملائكة والشياطين ، والإنسان اسمع إلى قوله " ويدخل فى عالم الجن ملحقا بطبائعه الأصلية من يتخفى من عالم الإنسان : فى إيمانه وكفره ... باعتبار أن هذا الذى يتخفى غير ظاهر وغير مرئى ، وذلك كشياطين الجن ، يخفون شرهم وكيدهم لدين الله وللمؤمنين به "

نحن فى حاجة إلى وقفة طويلة مع الدكتور نقول له فيها أن القرآن الكريم يقول شيئا آخر غير الذى تقول تماما يقول أن الجن خلق مقابل للإنسان ومخالف له ومغاير لطبائعه تماما ، ومادته غير مادته ونكرر على سمعك هذه الآيات :-

والجان خلقناه من قبل من نار السموم " ٢٧ : الحجر

" وخلق الجان من مارج من نار " ١٥ : الرحمن

والجان مثل فى سرعة الحركة والاهتزاز كما ذكر القرآن عن عصى موسى عليه السلام :-

" فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب " ٣١ : القصص ، فصورة الجان الحقيقية وما يشبهها صورة مفزعة مخيفة ، وإلا لما ولى الكليم عليه السلام مدبرا ولم يعقب عند رؤيته لهذا المنظر .

ركائز رأى الدكتور البهى :

لقد كنا حريصين أن ننقل أقوال " الدكتور " بألفاظها حتى لا نتجنى عليه ، لم نغادر منها إلا ما لا يتصل لنا به قول ولا رد ، ولا يتم له به سياق او حجة .

---

١) باختصار من صـ ١٢

وكان الرجل صريحا فيما كتب ، بل لقد عمد إلى تكرار ما يريده من قول ، حتى لا يتأول لـه محب بحسن الرضا الكليلة عن العيوب والمثالب ، وحتى لا يتجنى عليه ناقم بحسن السخـط فيتقول عليه مالم يقل ، ويحمل ألفاظه ما لا تحتمل ، فالرجل قال ، وفصل وكرر ، ثم عاد فلخـص وأوجز ، ومما تقدم نستطيع أن نقطع بأن وكائز حقيقة الجن عند البهى هى :-

١ - الملائكـة . (١)

٢ - إبليـس . (٢)

٣ - شياطين الجن وهم من البشر بنص قوله . (٣)

٤ - بعض مؤمنى البشر فى تخف (٤)

وهذا المعنى تكرر كثيرا بعبارات قاطعة من أول السورة إلى آخرهـا .

وهو رأى جمع فيه صاحبه من الخلط فأوعى وأوعب ، وحمل فى سبيله دلالات عشرات الآيـات القرآنية مالا تحتمله ومسخ معانى بعض الآيات الكريمة مسخا غريبا ، وأتى خلال ذلك بأوهـام مضحكة .

استبدال الخرافات بالحقـائـق (٥) :

فمن مسلمات العقول الراشـدة أن كل خبر جاء به القرآن الكريم هو الحق الأبلج القاطع والجن خلق من خلق الله ، ليسوا من الملائكة ، وليسوا من البشر ، وانما هم خلق مغاير لهؤلاء ومباين لأولئك تمام المباينة ... فيخرج علينا الدكتور البهى برأى ينكر فيه هذه الحقيقة تماما ليقول لنا " وعالم الجن قائم إلى يوم البعث .. أما موجوداته الأصلية فهى طبائع الملائكة ... وطبيعة إبليس كذلك ... والملائكة من الجن كما هم من النار الصافية " (٦) وقد بينا وجه الحـق فى المسألة وهو أنه لم يكن من الملائكة طرفة عين كما قال الحسن البصرى رضى الله عنه ونحاول هنا أن نتابع المناقشـة .

تناقضـات :

يقول الدكتور البهى " إن القوى الناريـة وهى الملائكة اختبرت فى طاعتها لله ، عندما أمرها سبحانه بالسجود لآدم ، وقد أطاعت جميعها عدا واحد منها فقط وهو إبليس (٧) " ثم يقـول

---

١) ص ١٦ من تفسير سورة الجن

٢) انظر ص ١٧ نفسـه

٣) انظر ص ١٧ نفسـه

٤) ص ١٦ نفسـه

٥) الباء تدخل على المتروك

٦) هذه العبارات ص ٨ وقد سبق نقلها كاملـة

٧) انظر ص ١١

بعد ذلك " إن الملائكة لا ذنوب لها ، لا قبل أمرها بالسجود لأنها لم تعص ولا بعد أن أطاعت فسجدت " (١)

إن الأستاذ يعترف صراحة بأن الملائكة لا ذنوب لها لا قبل أمرها بالسجود ولا بعده .. فكيف إذاً يكون إبليس من الملائكة ؟ وهو الشيطان الغوى ، وهى المخلوقات التى لم تعرف إلى المعصية طريقا .

ثم يقول بعد ذلك (٢) " فما معنى غفران الذنوب لها (يعنى الملائكة) ، كما جاء على لسان فريق من الجن فى سورة الأحقاف : " يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم " ٣١ : الأحقاف .

والجواب : من العجيب أن يصدق الإنسان أوهاما ابتدعها . فمن قال بأن الملائكة والجن شىء واحد . إن الذى قال بهذا هو الذى ساق الإعتراض السابق ، وردنا يعرفه : أن الآية خطاب ودعوة إلى الإيمان من مؤمنى الجن إلى كفارهم ، فليست فى حق من آمن فى تخلف من أهل يثرب (٣) كما ادعى ، وليست خطابا من بعض الملائكة لبعض وهو الزعم الذى عليه أقام دعوى التناقض .

عالم ما تحت الأرض :

والدكتور البهى وهو ينكر حقيقة وجود خلق مستقل : هو الجن ، يرد أوهاما وخرافات غريبة ، حلت عنده محل الحقائق فصارت هى الحقائق إسمع إليه يقول : " والإيمان بعالم الجن أو بالعالم غير المرئى ، أو بعالم : " ما تحت الأرض " ضرورة إجتماعية لصالح المجتمع المؤمن بالله وضرورة فردية لصالح المؤمنين به . إن من يحاول الإيمان بالله بعد اقتناع بما فى كتاب الله فى مجتمع يتحيز ضد هذا الكتاب ، أو فى مجتمع يعلن كفره وتحديه لرسالته ، لا يمكن أن يصل إلى الإيمان كما يريد مع المحافظة على حياته ، إلا إذا عاش فى عالم الجن بإيمانه أى تستر فى إيمانه ومارس مقتضيات هذا الإيمان فى سرية .

وإن مجتمع المؤمنين إذا لم يؤمن بعالم الجن ، بعالم التخفى والسرية ، بعالم غير مرئى (٤) إذا لم يؤمن بذلك فإنه لا يأمن أن يأتيه التفويض من عالم " ما تحت الارض " ممن يكونون فيه

---

١) ص ١٢ ٢) ص ١٢ ٣) ص ١٠

٤) تأمل التكرار فى هذه العبارات

قبيل الشيطان وذريته ، أشبه بالخلايا الهدامة السرية . وهم الذين يسعون حثيثا للصد عن دين الله وتفكيك أمر المؤمنين وإضعافهم " (١) " فعالم ما تحت الأرض " ضرورة إجتماعية للمؤمنين هكذا يقول الدكتور البهى . و " عالم ما تحت الأرض " فيه خلايا الشيطان وذريته وهم أشبه بالخلايا السرية . هكذا يقول أيضا .

وإذاً فعالم ما تحت الأرض : منقسم كعالم ما فوق الأرض إلى فريقين : فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين وإذاً فما فائدة هذا العالم الخفى الذى لاخفاء فيه والمستتر - ولا ستر فيه يهرب إليه المؤمنون فإذا بهم قد سبقهم إليه الكافرون ؟

هذا إذا توهمنا مع الدكتور بوجود هذا العالم فإننا ننتهى إلى عدم جدواه .

أما إذا وقفنا مع الحقائق فإننا نسائل الدكتور : أين يقع عالم ما تحت الأرض هذا ؟ أهو حقيقة أم خرافة ؟

وإذا كان خرافة ، فكيف يجوز لعالم مسئول مثلك أن يفسر القرآن بالخرافات ؟

وإذا كان حقيقة ، فما موقع عالم " ما تحت الأرض " هذا من دوران العالم وقاراته ؟ وهل وجد أو لم يوجد ؟ أم ينبغى أن يوجد ؟

إذا كان " الدكتور البهى " لم يحدثنا عن جغرافية عالم ما تحت الأرض ، فقد حدثنا عن سكان ما تحت الأرض فى قوله " ويدخل فى عالم الجن .. من يتخفى من عالم الإنسان ... (٢) إلى أن يقول : " فهذا الفريق الذى تخفى ولم يكن معروفا للمكيين - حتى كذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم - عند سماعه القرآن بمكة ، ثم " تخفى " فى إيمانه وفى دعوته وتبشيره بين قومه هو من البشر وليس من القوى النارية ويرجح إلى درجة كبيرة من الترجيح أن يكون من " يثرب " (٣) ويكرر هذا مرة ثانية فى قوله " وأما أن هذا الفريق من الجن ، أى من العالم غير المرئى ، يرجح : أنه من أهل " يثرب " .... إلخ (٤) وثالثة فى قوله " ولكن من المرجح أنه كان من مشركى العرب فى المدينة ..... (٥)

تناقضات تتلو سابقاتها :

يقول الدكتور فيما سبق بأن الذين استمعوا القرآن من الرسول صلوات الله عليه بمكة لم يكونوا معروفين لا للرسول ، ولا للمكيين ... وهذا قول قبل أن نقل بعينه صحيح لأنهم من الجن وطبيعته الا جتنان وهو الستر والخفاء وهو ما قاله الله سبحانه : " قل أوحى إلى أنه

---

١) صـ ٢٠ من التفسير
٢) صـ ٨
٣) صـ ١٠
٤) صـ ١٦
٥) صـ ١٦

استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا • يهدى إلى الرشد فآمنا ولن نشرك بربنا أحدا " ١ ، ٢ : الجن ، فقول الله سبحانه " قل أوحى إلى " خبر بأنه لم يكن يعلم باستماعهم له ومثله قوله سبحانه "وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين " ٢٩ : الأحقاف ، فهذا إعلام من الله لنبيه بما كان من توجه نفر من الجن إليه وإنصاتهم لاستماع القرآن •

ويقول سعيد بن جبير : " ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، وإنما كان يتلو في صلاته ، فمروا به ، فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر ، فأنباه الله باستماعهم "

لكن الدكتور البهى بعد أن يذكر ما قرره القرآن من أن النفر من الجن المستمع للقرآن لم يكن معروفا للرسول ولا للمكيين يعود فيقول إن هذا النفر هو من البشر !!

ثم لم يحدث الدكتور عن أجهزة التسمع التى استمعوا بها حيث لا ترقبهم العيون إن سرد هشتنا أن الدكتور لم يحدثنا عن صفات وخصائص عالم ما تحت الأرض •

وإنه لمن قبيل الأوهام الشاطحة أن نصرف لفظ القرآن عن حقيقته الواضحة ، ليوافق أهواء بعض الناس ، ورغبتهم المريضة فى الظهور بألقاب المجددين ثم إن الدكتور زعم أن هؤلاء البشر كانوا من يثرب فمن أين جاء بهذا الخبر ؟

وهل من قواعد الفهم السديد لكتاب الله أن نفسر آياته بالافتراضات والأخبار المختلقات ؟ لعل [1] الدكتور يعنى بالجن " الأنصار " الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعتى العقبة الأولى والثانية ؟ لكن هذا الافتراض يتعارض مع قوله أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلمهم • والمقطوع به فى بيعتى العقبة أنهم قد استمعوا إليه كفاحا ، ودعاهم إلى الإسلام ، وسألوه وأجابهم ، وآمنوا به ، وعاهدوه ، وبايعوه •

وأخبار بيعتين المبعتين تقطع أى ريبة فى هذا ، ففى العام الحادى عشر من بعثته صلى الله عليه وسلم وبينما كان رسول الله يعرض دعوته على القبائل فى موسم الحج لقى عند العقبة [2] رهطا من الخزرج وكانوا ستة هم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن

---

١) قلنا " لعل " تجنبا للقطع ، لأن الدكتور البهى كان قد أذاع حديثا فى إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة حول تفسير سورة الجن أشار فيه إلى شىء مما ذكرناه لكنه لم يذكر هذا الرأى صراحة عند تدوين تفسيره للسورة ، وقد رد عليه بعض العلماء فى الصحف اليومية فى حينه •

٢) موضع جمرة العقبة يعرفه الحجيج ، بين منى ، ومكة •

مالك ، وقطبه بن عامر ، وعقبه بن عامر ، وجابر بن عبد الله . فلما عرض عليهم الإسلام نظر بعضهم لبعض وقالوا :

" اعلموا والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه " .

فأجابوا الرسول إلى الإسلام (١) .....

ولما حان العام التالي ، وفي موسم الحج اثنا عشر رجلا من الأنصار ، منهم : أسعد بن زرارة ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان .

وكانت بيعة العقبة الأولى ، على ما رواه ثبت من هؤلاء الأنصار هو عبادة بن الصامت فقال : " كنا اثني عشر رجلا ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه " قال عبادة : فبايعناه على ذلك (٢) وأرسل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام .

أيصدق على هذا الفريق ما نقلناه عن " الدكتور " آنفا من أنه هو المقصود في سورتي الأحقاف والجن ، وأن هؤلاء الأنصار من يثرب ، دعاهم الرسول وآمنوا وهو لا يعرف أنه دعاهم ، ولا أنهم آمنوا بنص قول " الدكتور " " لم يكن معروفا ... حتى كذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم " (٣) .

وإذا الدكتور يعني فريقا آخر من المؤمنين من " عالم ما تحت الأرض " فمن هو هذا الفريق ومن أخبره بأمره ثم إن هذا الفريق " تخفى في إيمانه وفي دعوته وتبشيره (٤) " من الذي أطلع الدكتور على هذه الغيوب التي وقعت " تحت الأرض " ومن الذي أذاع له أسرار القلوب المؤمنة ؟ وكيف كانت الدعوة والتبشير بالإسلام في " عالم ما تحت الأرض " (٥) ؟

علم الله لست هازلا ، وإنما هذه عبارات الأستاذ الدكتور ولماذا أخفت الصادر الإسلامية أخبار الدعوة والتبشير بالإسلام تحت الأرض وتواطأت على هذا الإخفاء حتى انفرد الدكتور وحده بعلم هذه الغيوب ؟ أسئلة محيرة وأكثر منها مدعاة للحيرة والدهش : هذه التأويلات المصرية للدكتور المهدي .

---

١) انظر سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ٤٢٨ .

٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب وفود الأنصار وبيعة العقبة ، ومسلم في كتاب الحدود .

٣) صـ ١٠ من تفسيره ٤) صـ ١٠

٥) نص عبارة " عالم ما تحت الأرض " صـ ٢٠ من التفسير .

وكانت بيعة العقبة الثانية ، كبيعة العقبة الأولى ... وعن خبرها قال كعب بن مالك : فواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل تسلل القطا مستخفين (١) ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدي .

قال : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، فتكلم القوم وقالوا : خذ منا لنفسك ولربك ما أحببت ... فتكلم رسول الله ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم "

فأخذ البراء بن معرور بيده ... وبايعوه .... الخ

ولا تعلق للدكتور المهنى بعبارة كعب " نتسلل تسلل القطا مستخفين لأن ذلك يناقض قوله إن هذا الفريق ... لم يكن معروفا لرسول الله وهو يسمع منه القرآن بمكة (٢) ... وما قدمنا ينقض هذا القول بالكلية

((الجن الإنسي ، والإنس الجني))

تضاربت الأمور عند الدكتور المهنى ، واختلطت أيما اختلاط فأصبح البشر جنا ، كما أصبح الجن بشرا ، فأما أن الجن قد أصبح بشرا ، فهو من أمر فكرة كتابه وهو يقطع في غير موضع منه بأن الجن الذين ورد ذكرهم في سورتي الاحقاف والجن هم من البشر ، وهو ما سبق أن ناقشناه فيه منذ قليل .

أما إن بعض البشر صاروا من الجن فهذا قوله : " إن من يحاول الإيمان بالله ... في مجتمع يتحيز ضد هذا الكتاب ... لا يمكن أن يصل إلى الإيمان كما يريد مع المحافظة على حياته ، إلا إذا عاش في عالم الجن بإيمانه ، أي تستر في إيمانه ، ومارس مقتضيات هذا الإيمان في سرية (٣) .

---

١) القطاة : جمعها : قطوات ، وقطيات ، وقطا انظر مختار الصحاح ص ٥٦٣ والقطاة : حيوان معروف ، قال ابن فارس في معجمه حـ ٥ ص ١٠٤ ، ١٠٥ : " القاف والطاء والحرف المعتل : أصل صحيح يدل على مقاربة في المشي ، يقال : القطو : مقاربة الخطو ..... وسميت القطاة بذلك لأنها تقطو في المشية ... " وانظر كذلك القاموس حـ ٢ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥

٢) انظر تفسيره ص ١٠

٣) ص ٢٠ من تفسيره ، وقد سبق نقله منذ قليل .

إن الدكتور نسى فتحدث عن " عالم الجن " مثبتا له ، مبينا أنه ضرورة اجتماعية وفريضة وقد يقول : إنه يعنى بعالم الجن : عالم الستر والخفاء ، ولكن أليس هذا إعترافا من حيث لا يدرى بحقيقة الجن وطبائعه ، وقد يقول : إنه مؤمن بالجن ، لكن موجوداته الأصلية هى الملائكة[1] واكن هذا يقودنا إلى سؤال آخر وهو : كيف يعيش البشر فى مجتمع الملائكة؟ ونسوق عبارات أخرى للدكتور تدفع عنا مظنة التحامل على الرجل فقد قال (٢) : ويضم عالم الجن :

أولا : طبائع الملائكة الخيرة التى لم تعص الله .

ثانيا : بعض من آمن من البشر بالرسول صلى الله عليه وسلم فى تخف وفى غير عهد بهم ، وهم من نزل بهم[3] الوحى .. وكذلك من آمن برسول سابق على هذا النحو ، أو يؤمن برسالة الرسول بعده فى تخف من سلطة الحاكم .... "

وقد بينا من قبل أن الرجل لم يعطنا صورة تطبيقية ، أو مثالا واقعيا لوجود عالم البشر الجنى فى الإسلام ، ومع ما يُذكر عن " الفترة السيئة " التى مرت بها الدعوة الإسلامية فإننا لا نعلم أن السابقين من المستضعفين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلوا " عالم الجن " فى فترة من أحلك الفترات فى حياة الدعوة ، وقد تعرضوا لفتن تشتل كاهل البشر ، وتخرّ من هولها الجبال ، وفيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لآل ياسر وقد عرضوا على المحن عرضا " صبرا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة "

ولا نحسب أن الدكتور يجد متعلقا له ، أو حجة فى رخصة الله سبحانه المكرهين المعذبين أن ينطقوا بكلمة الكفر تقاة إذا ألجأتهم إلى ذلك فتنة طاحنة ساحقة ، وذلك هو ما جاء فى قول الحق جل ذكره : " من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم " ١٠٦ : النحل .

---

١) انظر ص ١٦

٢) نفسه

٣) لعلها فيهم

فالإسلام لم يدع أتباعه إلى العزلة والخفاء ودخول عالم ما تحت الأرض ، فإن منهج الله هو لصياغة هذه الحياة صياغة ربانية ، وبهذا فإن الخفاء قد يصل بالدعوة إلى الفناء ، وإنه ليؤسفني في مجتمع كفور حين تصبح شعائر الإيمان "جرائم" يتوارى بها أصحابها .

والإسلام - بحمد الله - ما توارى به دعاته يوما ما وفي أحلك الظروف ، بل لا زال دعاته يعرضون على المحن عرضا فلا يزيدهم ذلك إلا إيمانا ، ولا زال شهداؤه يعطر دمهم المراق ربوع الأرض ليظل الأريج حجة على المعرضين ، ونغصة في حلوق القاعدين .

وأما قوله " وكذلك من آمن برسالة رسول سابق على هذا النحو " أي منهج التستر ودخول عالم الجن ،

ولا نعلم كذلك من خبر القرآن وهو الحفيظ على أن يذكر لنا من أخبار حزب الرحمن ما فيه مذكر .

ولو كانت الفتية المؤمنة التي ذكر القرآن أمرها في سورة الكهف ، دخلت بادئ الأمر[1] عالم الجن ، لما خشيت على نفسها السلطة الغاشمة وفرت بدينها إلى الكهف.

ولو كان المؤمنون الذين ورد ذكرهم في سورة البروج دخلوا عالم ما تحت الأرض ما أحرقوا بنيران الأخدود ، بأيدي الآثمين المجرمين .

ولو مضينا نعدد صور طلائع جند الرحمن في كل عصر ومصر لخرجنا عن موضوعنا .

إنكاره "الرسالة" إلى الجن !!

ينكر الدكتور البهي أن يكون الله سبحانه قد أرسل للجن رسلا مبشرين ومنذرين ، وقد صح بهذا الإنكار في غير موضع من "الكتيب"[2] ويستدل لذلك بضروب من الاستدلالات الكسيحة :

فتارة يقول[3] : "... فكيف إذن يكون النفر من الجن - وهو من القوى النارية - الذي جاء الوحي به في سورتي : الجن ، والأحقاف .. مكلفا برسالة الرسول محمد (ص) فآمن بها ، ثم أخذ يدعو بين قومه ، ورسالة الرسول هي للناس وحدهم ؟ وثانية يقول[4] : "والإنسان الرسول من قبل الله إلى قومه أو إلى الناس كافة .. هو واقف في تبليغ رسالته

---

١) قلنا بادئ الأمر لأن الدكتور قد يرى الكهف من "عالم الجن" ولا نجد كذلك مستندا له في قوله تعالى : "إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم .." ٢٠ : الكهف ، ذلك أنهم فروا بدينهم من كانوا يطلبونهم وهذه الآية بعد موتهم .

٢) يقع كتيب تفسير سورة الجن في ثمان وأربعين صفحة فقط .

٣) انظر صـ ١٥ من الكتيب المذكور .

٤) صـ ٢٤

عند الناس وعندهم ، لا يتعداهم إلى موجودات أخرى فى كون الله : ... وإذاً فالرسول الإنسان ـ ومحمد (ص) واحد منهم ـ لم يرسل الى الجن ، وليس من رسالته تهليفهم هداية الله "

وثالثة يجعل الجن هم الملائكة ويسوق الإعتراض قائلا : " لو كانت الملائكة ـ أو القوى النارية الخفية وهى الجن ـ مكلفة برسالة إلهية لكان لها رسول منها وليس من البشر .. " (١)

وجوابنا على هذا : إننا لا نريد أن نشتط فننتهم الدكتور بتكذيب صريح دلالات القرآن ، ولا أن نرميه بالجهل بها ، لكن الرجل كأستاذ للفلسفة متعدد الثقافات قد اختلطت عليه الأمور ، فمضى فى طريق التأويل إلى غايات بعيدة ... وإنا نسائله ماذا تقول فى قول الحق جل ذكره " يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين " ١٣٠ : الأنعام .

فهذه الآية نص قاطع فى إرسال الله الرسل إلى الجن كما أرسلوا إلى الإنس ، وتبكيت للمكذبين المعاندين من الثقلين يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، وبيان لعدل الله فى عقابهم وقد قامت عليهم الحجج وانقطعت المعاذير ببعثة الرسل .

وتأمل الإستفهام التقريرى " ألم يأتكم رسل منكم " ؟ ! بعد النداء : " يا معشر الجن والإنس ... " وبيان مهمة هؤلاء المرسلين " يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا " ؟

فهل نصدق قول الله سبحانه : " ألم يأتكم رسل منكم " ؟

أم نصدق فلسفة الدكتور : " لو كانت مكلفة لكان لها رسول منها ... " ولنقف قليلا عند " رسل منكم "

هل الرسل من الإنس إلى الإنس والجن معا ؟ أم لكل قوم رسول منهم ؟

تعلق بظاهر اللفظ فريق ، وادعوا أن الله أرسل لكل من الثقلين رسولا من جلدتهم ، ولا نجد لهؤلاء القائلين من حجة إلا الاستدلال بما لا حجة لهم فيه كقوله سبحانه : " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... " ٤ : إبراهيم ، وما شاء كل ذلك .

والقول المرتضى عندنا أن الرسل من الإنس دون الجن ، ولكن لما جمع الجن مع الإنس فى الخطاب ساغ هذا التعبير وله نظائر فى لغة العرب ومثله فى القرآن " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " ٢٢ : الرحمن .

---

(١) ص ـ ١٤

وإنما يستخرج ما ذكر من البحار دون الأنهار [1]

ومما يكاد يكون جمعا بين الرأيين السابقين قول من قال : "إن رسل الجن : هو الرسول الجني المرسل من الرسول الإنسي ، وقد يشهد لهذا الرأى تسمية القرآن رسل عيسى عليه السلام بالرسل ، كما قال سبحانه : "واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون" ٣٦ ، ١٤ : يس ، وهذا الإستدلال على رأى من قال بأنهم رسل المسيح عليه السلام إلى أهل "أنطاكية" ، وفي المسألة خلاف ، ذهب فيه ابن كثير الى أنهم رسل من الله ، واستدل بوجيه من الرأى [2] ويستدل كذلك بقوله تعالى "وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين" ٢٩ : الأحقاف . فقوله سبحانه "منذرين" يفيد أن بواعث الإيمان الجديد في أنفسهم اقتضتهم أن ينهضوا مبشرين ومنذرين لقومهم من الجن .

ونتابع إجابة الدكتور البهى على سؤاله "كيف يكون النفر من الجن الذى جاء به الوحى فى سورتى الجن والأحقاف ، مكلفا برسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فآمن بها ، ثم أخذ يدعو إليها بين قومه ، ورسالة الرسول للناس وحدهم ؟ ؟

فأما قوله للناس وحدهم .

فنقول لك ألم يكفك قول الله سبحانه الذى ذكرناه آنفا فى سورة الأنعام "ألم يأتكم رسل منكم"

وأما قوله : كيف يكون مكلفا فهذا هو صريح القرآن فى سورة الأحقاف وهو قوله سبحانه "وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين" ٢٩ ـ ٣٢ : الأحقاف

إن زعم "الدكتور البهى" أن هؤلاء النفر من الجن هم من البشر الذين آمنوا مستخفين من أهل يثرب سبق أن ناقشناه وأبطلنا فيه حجته . ثم ما هذا العبث فى التلاعب بالألفاظ حين يقول القرآن نفرا من الجن ويقول قائل . بل هم من البشر إننا إذا مضينا على هذا النهج أصبحت

---

١) انظر ما ذكره البيضاوى فى تفسيرا لآية (١٣٠) من الأنعام ص ١٥٣ ط : البهية المصرية .

٢) انظر ابن كثير فى تفسير "يس" عند تفسير الآيات من ٢٦ ـ ٢٩ حـ ٥ ص ٦١٠ ، ص ٦١١ ط : الفكر بيروت ، حـ ٣ ص ٥٦٩ ط : الحلبى .

الآيات لا مدلول لها . ولماذا يخص القرآن هؤلاء بالذكر دون غيرهم ويسميهم جنا . ثم تأمل ما ذكره القرآن على لسانهم : "إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى " ، " أجيبوا داعي الله " ، " ومن لا يجب داعي الله " ثم يفرد القرآن سورة الجن بأكملها : لحديث هؤلاء ، وإيمانهم ، ويخبر ربنا سبحانه رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم بقوله : " قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا " ١ ـ ٣ : الجن ، وقوله بعد ذلك : " وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا " ٥ : الجن ،

فهل يستقيم في ذهن متدبر للقرآن أن يكون معنى الآية وأنا ظننا أن لن تقول الإنس وأخفياء الإنس !! ألا تنزه قول الله سبحانه عن هذا اللغو تنزها كبيرا .

حديث لابن عباس يفسر كيفية استماع الجن :

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :ـ (١)

" ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق " عكاظ " ، وقد حيل بين الشياطين وخبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ! فقالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء .

فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو " تهامة " إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو " بنخلة " عامدا إلى سوق " عكاظ " وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم ، قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا ... ، وأنزل الله على نبيه : " قل أوحي

---

١) رواه البخاري في كتاب التفسير عن سعيد بن جبير حـ ٦ صـ ١٩٩ ، ٢٠٠ ط الشعب وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ عن أبي عوانه عن أبي بشر وانظر شرح النووي حـ ٤ صـ ١٦٧ ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من حديث أبي عوانه ، وانظر كذلك ابن كثير في تفسير الأحقاف حـ ٦ صـ ٢٩١ ط : الفكر بيروت ، حـ ٤ صـ ١٦٢ ، ١٦٣ ط الحلبي القاهرة وأشار ابن كثير في تفسيره لسورة الجن لهذا الحديث ولم يذكره بتمامه تعويلا على سبق ذكره له .

إلى أنه استمع نفر من الجن " ١ : الجن ، وإنما أوحى اليه قول الجن " .

موقف " الدكتور البهى " من هذا الحديث :

اكتفى الدكتور البهى من الحديث السابق بفقرة واحدة هى [1] " ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن وما رآهم " ثم يعقب عليها بما يوافق هواه فيقول [2] : " فهى لم تستمع تلاوة القرآن من الرسول عليه السلام ، وهى كذلك التى يذكر بعض المفسرين أنها من جن : " نينوى " التف به فى وادى : " نخلة " فى الطريق بين مكة والطائف "

والدكتور البهى لو كلف نفسه الرجوع إلى كتب السنة التى ذكرت حديث ابن عباس لما قال بما قال به ، إتباعا للظن ، ولو حمل نفسه على الرجوع إلى أمهات كتب التفسير بالمأثور ، وراغم هواه على أن ينزلها منزلتها ، لقال بغير ما قال [3] ، لأن آخر هذا الحديث يشرح أوله وحتى لا نفتات على الرجل نذكر بقية رأيه الذى يقول فيه [4] : " إن الحديث فى السورة عن الجن حديث عن مجموعتين ، وليس عن مجموعة واحدة ، إحداهما : جاءت إلى مكة فاستمعت القرآن فآمنت " والثانية : هى التى ذكر الدكتور أنها لم تسمع ، فهما من حديث ابن عباس الذى يتره يترا عجيبا ، وليست هناك باعثة تبعث الدكتور على بتر حديث ابن عباس ، والرغبة عن بقيته إلا أن هذه النتفة تهدم فكرة الدكتور عن الجن ، وهى الفكرة التى نقل عنها الأولون ، واهتدى هو إليها فعبارة ابن عباس " ما قرأ رسول الله على الجن وما رآهم .. " معناها كما يقول ابو

---

١) ، ٢) انظر صـ ٢٧ من تفسيره لسورة الجن

٣) لا يشك كاتب هذه السطور فى ذكاء الدكتور البهى ، وسعة علمه ، وخصوبة ذهنه ، وتعدد معارفه ، وما قدمه الدكتور للمكتبة الإسلامية من مؤلفات ذاعت وشاعت ، وتعددت طبعاتها وما وليه الدكتور من مناصب علمية يؤكد هذه الحقيقة ، ولا نقول هذا القول إلا إنصافا للرجل حتى لا نتهم بسوء الأدب مع شيوخنا ، ولكن الحق أحق أن يتبع ، وقديما قال ابن القيم وهو ينقد بعض ما قاله الهروى فى كتابه " منازل السائرين " الذى علق عليه ابن القيم بكتابه " مدارك السالكين " قال " شيخ الإسلام حبيب إلى قلوبنا والحق أحب إلينا من شيخ الإسلام " ولنا جميعا أسوة حسنة بما قاله نبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم : على بن أبى طالب رضى الله عنه : " إنما نعرف الرجال بالحق ولا نعرف الحق بالرجال "

٤) انظر أوائل صـ ٢٧ من تفسيره لسورة الجن .

السعود فى تفسيره (١) " ... وفيه دلالة أنه عليه الصلاة والسلام لم يشعر بهم وباستماعهم ولم يقرأ عليهم ، وانما اتفق حضورهم فى بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك " وعبارة " اتفق حضورهم " ذكرت بنصها فى أكثر من مصدر (٢) ، وعبارة القرطبى فى حديث ابن عباس هى (٣) " ففى هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم ير الجن ولكنهم حضروه وسمعوا قراءته " ووافقه الخازن فى تفسيره (٤) .. ، وأما حديث ابن مسعود الصحيح يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم للجن ومخاطبته لهم ، وسنذكره بعد سطور بتمامه فهو كما يقول الخازن (٥) : " قضية أخرى وجن آخرون " ، ولكن الدكتور الهيبى يجعل المذكورين فى الآية الكريمة : " قل أوحى إلى أنه استمع .. " هم الذين ذكروا فى حديث ابن مسعود ولو قرأ " الدكتور الهيبى " حديث ابن مسعود الذى أخرجه مسلم فى صحيحه (٦) لوجد فيه هذه العبارة " فانطلق بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد ، فقال : لكم لكل عظم ذكر اسم الله عليه ... " لكن الجن فى هذا الحديث عند الدكتور الهيبى " هم نفر من الغرباء (٧) وهم الذين ذكرهم بأنهم من أهل يثرب (٨) " .

ومما يقطع بأن الدكتور الهيبى يخلط واقعة حديث ابن مسعود بحديث ابن عباس ، أن ابن مسعود صرح بنقض دعوى الهيبى : فعن عامر قال : سألت علقمة هل كان ابن مسعود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن (يعنى المذكورة فى سورتى الأحقاف والجن) فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقال لا ...

---

١) انظر كتاب " إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " لأبى السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى سنة ٩٥١ هـ حـ ٥ صـ ٢٠٠ ط محمد عبد اللطيف وقد نقلنا عنه ما يتعلق بموضوعنا وقد فضنا الأمانة العلمية أن ننقل فقرات ذكرها أبو السعود قبل العبارة المنقولة وهى قوله : " الجن : أجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية أو الهوائية ، وقيل نوع من الأرواح المجردة ، وقيل هى النفوس البشرية المفارقة عن أبدانها ، وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ، لم يشعر بهم وباستماعهم وانما اتفق حضورهم فى بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك " وقد نقل الدكتور الهيبى عبارات أبى السعود هذه فى هامش صـ ٢٩ ليتوكأ على عبارة أبى السعود : " وقيل هى النفوس البشرية المفارقة لأبدانها " واستشهاد الرجال بأقوال الرجال ليس حجة فى دين الله .

٢) انظر مثلا " الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية " لسليمان الجيلى الشهير " بتفسير الجمل " حـ ٤ صـ ٤١٥ ط التجارية ، وتفسير الخطيب الشربينى حـ ٤ صـ ٣٩٧ صورة بيروت .

٣) انظر الجامع لأحكام القرآن حـ ١٩ صـ ٢ ، وقد عنى القرطبى بذكر العديد من الأحاديث والآثار والأقوال فى تفسير سورة الجن فليرجع إليه من شاء

٤) انظر تفسير الخازن حـ ٦ صـ ١٣١ ط : التجارية .

٥) انظر تفسير الخازن حـ ٦ صـ ١٣٢ ، وانظر كذلك تفسير القرطبى كما سبقت الإشارة .

٦) انظر صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٣٦ بيروت وسيأتى الحديث بنصه ، وانظر شرح النووى حـ ٤ صـ ١٦٩

٧) انظر صـ ٢٧ من تفسيره لسورة الجن السطر الأخير ٨) صـ ١٠ من تفسير الجن

ونذكر هنا استطراد كلمة الخازن [1] : " والحاصل من الكتاب والسنة : العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبدون بالأحكام الشرعية ، على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم رسول إلى الإنس والجن " ولعله قد استبان للقارىء علم الدكتور الهبي بالتفسير !!! وعلى أي أساس يبني تأويلاته واجتهاداته !!

الجن خلق : متميز ، مكلف ، مسئول :

حقيقة الجن ومسئوليته : بدهية إسلامية أعتقادية ، أقدم الدكتور الهبي على إنكارها وتورط في ذلك تورطا منكرا شاع فيما نسبه من سور القرآن الكريم فهو يقول في تفسير سورة الصافات [2] " وأطلق اسم الجنة على الملائكة هنا ، لأنهم قوى خفية ، والجن إذا ليس من طبيعة تغاير : الملك ، والإنسان معا ، بل هو بالأحرى اسم لكل قوة خفية من الملائكة ، أو المستخفية من الناس خيرة أو شريرة " [3] وقد سبق نقضنا لهذه الدعوى من أساسها ، ونتابع في هذه الفقرة ما قرره القرآن من مسئولية الجن :

١) فهم مخاطبون بالرسالة كالبشر ، سواء بسواء وهو ما قرره القرآن في الآيات التي ذكرناها منذ قليل ، ويذكر القرآن إيمان الجن بقوله سبحانه على لسانهم " قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به ... " ٣٠ ، ٣١ : الأحقاف .

٢) وفي قولهم " أنزل من بعد موسى ... " ما يدل على معرفتهم بكليم الله موسى عليه السلام ، وفي قولهم " مصدقا لما بين يديه ... " دليل على معرفتهم بالتوراة كذلك ، وفي الآية دليل على أن رسالة موسى عليه السلام كانت للجن ، كما كانت لبني إسرائيل وأن من الجن من آمن بها ، بل ومن آمن بعيسى ، لأن القرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، وإنما قالوا أنزل من بعد موسى ، ولم يقولوا من بعد عيسى لأن الإنجيل متمم للتوراة ، ورسالة المسيح عليه السلام ليست ناسخة لرسالة موسى ، وما يشابه القرآن من الكتب السماوية هو التوراة لاشتمالها على العقيدة والشريعة معا وليس كذلك الإنجيل ، ولذلك ذكر الله سبحانه على لسان المسيح قوله "إني رسول الله مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد " ٦ : الصف

٣) وتجد إيمان الجن برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكره ربنا سبحانه على لسانهم

---

١) حـ ٦ صـ ١٣٢

٢) انظر صـ ٤٢ طبعة دار الفكر بيروت .

٣) يريد أن يقول أن كلمة الجن تطلق على الملائكة ، وعلى المستخفين من البشر سواء كانوا أخيارا أو من الأشرار .. لكن وضوح العبارة جن فاستجن .

" وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا " ١٣ : الجن والهدى : هو القرآن الكريم .

٤) وشهادتهم على حال قومهم قبل بعثة محمد صلى الله عليه : فيما ذكره لنا العليم الخبير " وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا " ١١ : الجن ، " وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا " ١٤ ، ١٥ : الجن .

٥) بل إن استماع الجن لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكرر غير مرة : فعن عامر قال (١) : سألت علقمة ، هل كان ابن مسعود مع رسول الله ليلة الجن ، قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ، فقلت : هل شهد أحد ليلة الجن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لا (٢) ، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقلنا : استطير ، أو اغتيل ، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء ، فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : أتاني داعي الجن ، فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن ، قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم ، وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه ، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما . . . " بل وفي هذا الحديث نص على طعامهم من العظم ، وطعام دوابهم من الابعار ، وهو من الأدلة على أنهم خلق قائم بنفسه .

لكن إنكار الأحاديث الصحيحة ـ خاصة تلك التي تقرر الغيبيات ـ نزغة شاردة نبرأ إلى الله منها .

أدلة أخرى من القرآن حول تكليف الجن :

بينا فيما سبق أن الجن خلق : مكلف ، مثاب بطاعته ، معاقب بمعصيته ، والآيات الكريمة الآتية تجلي هذه الحقيقة جلاء ، وتزيد المؤمنين يقينا .

١) " قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها . . . " ٣٨ : الأعراف ، والآية تفيد أن أمما من الجن ستدخل النار بذنوبها .

---

١) انظر صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٣٦ ، وانظر شرح النووي على مسلم حـ ٤ صـ ١٦٩ ، ١٧٠ ط : المصرية .

٢) السؤال وجوابه يؤكدان أن ما قلناه نقلا عن الثقات من أن هذه الليلة غير تلك ، والليلة الأولى هي المذكورة في سورتي الأحقاف والجن .

٣) استطير : طارت به الجن ، اغتيل : قتل سرا ، والغيلة ـ بكسر الغين ـ القتل في خفية انظر شرح النووي حـ ٤ صـ ١٧٠

٢) " ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " ١٧٩ : الأعراف .

ونعوذ بالله سبحانه أن نعتقد فى الملائكة الكرام أنهم كذلك ، أو نجعل معنى الآية ولقد ذرأنا لجهنم من الإنس المستخفين ، والإنس الظاهرين من لهم قلوب لا يفقهون بها

٣) " ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين " ١٣ : السجدة

فهل يمكن أن تحمل الجنة فى هذه الآية على الملائكة ؟ فيكون الملائكة منهم الأبرار والفجار ، فلا عجب أن يقول بهذا ليكون منطقيا مع نفسه .!!

٤) " أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين " ١٨ : الأحقاف .

أولئك الذين ذكرت الآية السابقة على هذه الآية افكهم وضلالهم حق عليهم القول أنهم من أهل النار ، مع أمم سبقتهم فى الضلالة من الجن والإنس .

٥) " يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم " ٣١ : الأحقاف (١) .

٦) " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " ٥٦ : الذاريات

ولا ريب أن العبادة التى أوجبها الله على الجن والإنس وجعلها غاية وسوا لخلقهم هى أعظم مسؤليات الثقلين ، وتأمل كيف ذكر الجن قبل الإنس فى الآية الكريمة .

٧) " سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأى آلاء ربكما تكذبان " ٣١ : ٣٢ : الرحمن ، والثقلان (٢) هما الإنس والجن ، سميا بذلك لأنهما مثقلان بالكدح والأعباء والتكاليف وقيل لثقلهما على الأرض أو لثقل قدرهما ، والآية بيان لدقة حساب الله وعدله ، حيث يحاسب الثقلين — يوم القيامة — حساب من لا يشغله عن حسابهما شئ آخر ، وتعالى سبحانه أن يشغله شأن عن شأن .

---

١) اقتضت طبيعة البحث تكرار هذه الآية الكريمة

٢) استعمال كلمة " الثقلين " يوحى بكثير وكثير . وقد استعملت كلمة الثقل فى عظائم الأمور فى كتاب الله : " قولا ثقيلا " ٥ : المزمل ، فى وصف القرآن ، " ثقلت موازينه " ٦ : القارعة ، " ثقلت فى السموات والأرض " ١٨٧ : الأعراف ، فى وصف الساعة أى عظمت وجلت . وأما ابن فارس فى معجمه ج ١ ص ٣٨٢ فاكتفى بالقول : " سمى الجن والإنس : الثقلين لكثرة العدد .. " وأما معجم ألفاظ القرآن الكريم فقد ورد فيه " ... لأنهما كالحملين على الأرض أو لعظم شأنهما " انظر ج ١ ص ١٧١ .

٨) "يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان • يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران " ٣٣-٣٥ : الرحمن ، والمختار عندنا فى تفسير هذه الآيات أنها تحد للثقلين أن يخرجوا من جنبات الكون فرارا وهربا من حكم الله وقضائه ، وأنهما لا يستطيعان ذلك إلا بقـــوة ليست لهم ، وأن العذاب بشواظ النار والنحاس هو مصير المرتابين فى بطشة العزيـــز المنتقم وجبروته •

٩) " فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان • فبأى آلاء ربكما تكذبان • فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان " ٣٧ ، ٣٩ : الرحمن ، فالآية تقرر وجود ذنوب للإنس والجان ولا ذنب ولا عقاب إلا على مكلف ،

وفى القرآن الكريم أمثال ونظائر لهذه الآيات البينات حول تكليف الجن ومسؤليته ، وفيما سبق ما يكفى حجة ، وينهض برهانا •

رأى الشيخ شلتوت[1] رحمه الله فى مسؤلية الجـــن :-

حول قول العلـــى الأعلـــى :

" ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا • قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله إن ربك حكيم عليم " ١٢٨ : الأنعـــام ،

قال الشيخ شلتوت[2] رحمه الله : " ... وهكذا نجد القرآن قد أشرك الإنس مع الجـــن فى المسئولية والمؤاخذه والمصير ، ووضعهما فى إطار واحد ، وتحدث عنهما بحديث واحـــد ،

---

١) سرغايتنا بذكر رأى الشيخ رحمه الله فى المسألة ، أنه من الذين ينظرون نظرة تقدير وإكبار للجهود العلمية التى بذلها الشيخان الفاضلان محمد عبده ورشيد رضا ، فى خدمة الإسلام وكانت للشيخ محمد عبده نزعات تأويلية سورة جموح عقلى تأثر بها من اقتفى نهجه ، مـــن بعده ، لكن الشيخ شلتوت رحمه الله : من محامده أن أخذ من الشيخين ، ورد عليهما ورأيه فى موضوع الجن من الآراء التى نسأل الله أن يجعلها تكفيرا لزلات أخر ، ولا معصوم بعد إمام الورى وسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ... ثم إن الدكتور الهى يعـــد واحدا من تلاميذ هذه المدرسة ، وكان يرى فى الشيخ شلتوت أستاذه ووالده •

٢) انظر كتابه "إلى القرآن الكريم " وهو مقـــالات مجموعـــة ، صـــ ١٦٧ ، ١٦٨ ط : دار الهـــلال •

وشرع فى وجوههم جميعا حجة واحدة " يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا " ١٣٠ : الأنعام

ثم قال فى نفس الموضوع تحت عنوان " حقائق ثابتة[1] " :

" وإذن فليس فى وجود الجن شك ، وليس فى تحميلهم شرائع الله ورسالاته شك ، وليس فى مسئولياتهم ومؤاخذتهم بالتقصير شك ، وليس فى استعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك ، فكل هذا حق لا ريب فيه ، ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ، ولا برسالة السماء ، وان محاولة تأويل شئ منه تحريف للكلم عن مواضعه وسلخ للألفاظ عن معانيها وضيق عطن[2] من المولعين بإنكار ما لا يدركه الحس "

ثم تحدث الشيخ الفاضل[3] عن استجابة فريق من الجن لدين الله كما ورد فى كتاب الله ... ثم بين فساد الإعتقاد بإنكار الجن ، وبين فساد معتقدات المشركين القدامى فى الجن حين استعاذوا بهم لرفع الضر ، ودفع الأذى ، وحين طلب بعض أدعياء الإسلام من الجن والمرتزقة .

والحق نقول أن كلمات الشيخ : كلمات قواطع : أصابت المفصل وقطعت جهيزة قول كل خطيب .

تناسل الجن وذراريه :

قال الدكتور محمد البهى فى تفسيره[4] سورة الجن : " وإذا تحدث بعض الفقهاء عن زواج الجنية بإنسان ، أو زواج الجنى بأنثى من الناس فى العالم المرئى ، فلا يحمل ذلك إلا على أن بعض البشر الذين يتخفون فى إيمانهم ، أو بوسوستهم للشر ، قد اتصل فى زواجه ببعض أفراد البشر فى العالم المرئى "

ونحن نقول للدكتور إن قضية التزاوج بين الجنه والناس لا دليل للقائلين بها من نقل ولا عقل ، فلسنا بحاجة إلى وهم ثم تأويله - على مذهب الدكتور البهى - إلى وهم آخر .

وإنما القضية التى نسوق عليها الدليل للمكذبين هى تزاوج الجن بعضهم ببعض ، وهى التى نجد بيانها فى قوله سبحانه : -

---

١) انظر إلى القرآن الكريم صـ ١٦٨

٢) أصل كلمة المطن : موطن الإبل ومبركها ثم توسعوا فقالوا : رحب المَطَن أى كثير المال ، وضيق المطن كناية هنا عن ضيق الفهم انظر القاموس حـ ٤ صـ ٢٥١ والأساس صـ ٦٤١ بتصرف .

٣) انظر إلى القرآن ... صـ ١٦٩

٤) انظر صـ ١٩

١) " ... إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونـــي وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا " ٥٠ : الكهف

عند هذه الآية قال الدكتور " وفي عالم الجن أيضا : تناكح وتزاوج ، وذكر وأنثى ، ورجال ونساء ، وهم ذرية أولئك الذين يتسترون في إيمانهم من الناس عندما يؤمنون !!! أو يظلون في تسترهم خشية من حاكم ملحد ظالم !! وكذلك أولئكم الآخرون الذين يلحقون الشر في خفية بدين الله ، أو بغيرهم من الناس ، وعلى الأخص بالمؤمنين ، وهـــم شياطين الجن . ومن مجموعهم !!! تتكون " ذرية الشياطين " " أفتتخذونه وذريته . ... الآية " وهذه الفقرة من أشد فقرات الكتاب خطأ . الآية تتحدث عن ذرية إبليس الذي قال عنه الدكتور : إنه من الملائكة ؟ ثم جعل ذريته من البشر !!! أو من شـــرار البشر !! ولولا أنه قال في أول الفقرة : " تناكح وتزاوج وذكر وأنثى " لأمكن لمؤول حمل عبارته على المجاز ، وتفسير الذرية بالأعوان [1] . وإذا كان البشر الذين تستروا أصبحوا من الجن فكيف تصبح ذريتهم ونساؤهم من الجن كذلك !! إن الدكتور يخترع لنا أجناسا من الخلق ، وصنوفا من الكائنات لا تجدها إلا في صفحات كتبه .

ولا حاجة بنا إلى ترك المعنى الحقيقي لكلمة " ذرية " إلى معنى مجازي ، لأنه لا تعذر من حمل اللفظ على حقيقته اللغوية ، وقد وردت كلمة في إثنين وثلاثين موضعا من القرآن [2] لم تخرج في استعمال واحد عن معنى البنين والحفدة .

٢) " يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذيـــن لا يؤمنون " ٢٧ : الأعراف . والشيطان في هذه الآية هو إبليس ، وقبيله : ذريتـــه وجنده من جنسه لإجراء حكم القدرة على الاستتار عليهما معا ، وليس في الآية نـــص على استحالة رؤية الإنس للجن وإنما هي لبيان قدرة الجني على أن يرى الإنسي بحيـــث لا يراه الإنسي ، أما لو تمثل الجني لرآه الإنسي ، كم رأى الملأ حول سليمان عليه السـلام العفريت ، وكما وردت الأحاديث الصحيحة برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم للجن ومصارعة عمر لجني منهم — وقد سبق ذكر بعض هذه الأحاديث ، وسيأتي بعد قليل بعضها الآخر .

---

١) قال البيضاوي : " وذريته لأولاده أو أتباعه وسماهم ذرية مجازا " انظر تفسيره للآية ٥٠ من سورة الكهف ص ٢٩٣ . ط / عبد الرحمن محمد

٢) رجعنا في هذا الإحصاء إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٧٠ للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ط : الشعب

٣) " وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا " ٦ : الجن
فذكر القرآن كلمة رجال من " عالم الإنس " وقابلها برجال من " عالم الجن "

٤) " فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان " ٥٦ : الرحمن
" حور مقصورات في الخيام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان "
٧٢ ـ ٧٤ : الرحمن

قال ابن قتيبة [١] : " قد جعل الله الجن أحد الثقلين ، وخاطبهم في الكتاب كما خاطبنا ، وسماهم رجالا كما سمانا ... وقال في الحور العين : " لم يطمثهن ... " فدل على أن الجن تطمث كما تطمث الإنس ""

فذهب كثير من المفسرين يستدلون بالآية الكريمة على أن الجن يطمثن ويدخلن الجنة [٢]
وعبارة القرطبي : " في هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنيات " [٣]

وأصل كلمة الطَّمْث ـ بفتح الطاء وسكون الميم ـ كما قال ابن فارس [٤] : " ... المس وذلك في كل شيء يقال : ما طمث الحوض قبلنا أحد أي ما مسه ومن ذلك الطامث وهي الحائض يقال : طمثت وطمَثت ـ بكسر الميم وفتحها ، وطَمَث الرجل المرأة مسها بجماع ، وأكثر المفسرين واللغويين على أن الإفتضاض [٥] أو النكاح بالتدمية هو الذي يقال له طمث ، وروي عن ابن عباس : " لم يطمثهن : أي يُدَمِّيهن بالنكاح [٦] " . قال القرطبي [٧] " قوله تعالى " لم يطمثهن " أي لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد . الفراء : والطَّمْث : الإفتضاض وهو النكاح بالتَّدْمِيَة ، طَمَثَها يطمِثُها ويطمُثُها طمثا إذا افتضها ومنه قيل : امرأة طامِث أي حائض . وغير الفراء يخالفه في هذا ويقول : طمثها بمعنى وطئها على أي الوجوه كان . إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر . وقرأ الكسائي " لم يطْمُثهن " بضم الميم ، ويقال : طَمُثت المرأة تطمُث بالضم حاضت . وطَمِثت بالكسر لغة فهي طامث . "
وإذا فهناك نوعين من الجنيات وهن للجن من الإنسيات وهن للإنس ، لأن الجن لا يطأ الإنسيات [٨] .

بل إن مفسرا يحكم العقل في النقل انتصارا لمذهب الإعتزال ، وجدناه يؤمن بهذه القضية الغيبية أشد إيمان ، وهذا المفسر هو الزمخشري وقد قال [٩] : لم يطمث الإنسيات

---

١) انظر " تأويل مشكل القرآن " صـ ١٣٢ ط : التراث بتحقيق الأستاذ : السيد صقر
٢) انظر البيضاوي صـ ٥٠٩ ، ومحاسن التأويل للقاسمي حـ ١٥ صـ ٥٦٣١
٣) انظر " الجامع لأحكام القرآن " حـ ١٧ صـ ١٨١
٤) انظر معجم المقاييس حـ ٣ صـ ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، وانظر مادة " طمث " في لسان العرب
٥) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم حـ ٤ صـ ١٤٨
٦) انظر أساس البلاغة للزمخشري صـ ٥٩٣ ط : الشعب
٧) ٨) انظر تفسير القرطبي حـ ١٧ صـ ١٨١
٩) انظر الكشاف للزمخشري حـ ٣ صـ ١٩١

منهن أحد من الإنس ، ولا الجنيات أحد من الجن ، وهذا دليل على : أن الجن يطمثون كما يطمث الانس." أهـ

من وظائف الجن

بعد أن بينّا من نصوص القرآن : أن الجن خلق : منه الرجال والنساء ويقع التزاوج والتناسل بين ذكرانه وإناثه ، وأنه يطعم الطعام كما بينت نصوص السنة ، نبين فى هذه الفقرات أن الجن يعمل ويكدح فى بعض الأعمال التى هى من شأن الإنسان ومنها :ـ

الجندية :

يقول عز من قائل " وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون " ١٧ : النمل ، ومعنى يوزعون : يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا (١) .

وتجييش الجيوش من الجن ، وإن كان آية من الله سبحانه لسليمان عليه السلام استجابة منه جل جلاله لدعاء سليمان " قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى " ٣٥ : ص ، إلا أن فى هذه الآية دلالة على أن الجن خلق يكون منه الجند .

صناعات محاريب :

" ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور . فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين " ١٢ ـ ١٤ : سبأ

فقد بينت الآيات تسخير الجن لسليمان ، وأن أليم العذاب جزاء مردتهم وعصاتهم وأنهم يعملون لهذا النبى الكريم ما يليق بجلال النبوة وحكمة الملك : ما يريد من محاريب والراجح عندى فى معناها أنها القلاع العالية الحصينة لحماية مملكته من الأعداء سميت بذلك لأن أصحابها يحارب عنها أو يحارب فيها غيره وهى جمع محراب وقيل معناها القصور أو المساجد أو هى أبنية يصدق عليها المدلول اللغوى أو ما صدق اللفظ للمحراب ، لأن القصر مسكن الإنسان ، والمسجد معبده ، والدفاع عنهما دفاع عن العقيدة والنفس والمال (٢) .

---

١) البيضاوى فى تفسير النمل صـ ٣٦٩

٢) رجحت قبل كتابة هذا الرأى إلى تفسير سورة سبأ عند ابن كثير حـ ٥ صـ ٣٤٥ الفكر وإلى حاشية الصاوى على الجلالين حـ ٣ صـ ٢٩٤ التجارية ، وإلى التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى الكلبى حـ ٣ صـ ١٤٨ الكتاب بيروت وإلى البيضاوى صـ ٤١١ ط دار الجيل ، وكلمات القرآن لمخلوق صـ ٣١٠

وأما التماثيل : جمع تمثال وهى الصور التى تتخذ على مثال الإنسان ، أو الحيوان ، من الحجر أو النحاس أو الزجاج ، أو ما ماثل ذلك . ولكن هذه التماثيل هل كان يتخذها سليمان عليه السلام للزينة واستكمال أبهة الملك ؟ أم أنها تماثيل سابقيه وأجداده عليه السلام من ملوك بنى إسرائيل وأنبيائهم يتخذها فى قصره ، والأماكن النابهة فى مملكته على عادة الملوك والحكام فى عصر كانت الممالك تحفل فيه بالتماثيل والهياكل والقصور أيما احتفال ، ولم يكن ذلك منكرا فى شرائع بنى إسرائيل ، وفيما أنزل الله إلى سليمان ، أم أن هذه هى صور الأنبياء والصالحين ، كانت تقام فى الصلوات والبيع والمساجد تكريما للصالحين واقتداء ثم ضل الناس عن هذا المعنى وانصرفوا إلى عبادة الصالحين ، كما روى عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا أو صوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة " (١) لذلك حرم الإسلام الصور إنشاء ، واقتناء ... أو لعل هذه التماثيل (٢) كانت فى المساجد كالنماذج التعليمية التوضيحية لحركات العبادة ، وفنون الحرب والكر ؟

كل ذلك يحتمله لفظ التمثال ، والله أعلم بحقيقة ما كان .... وجفان كالجواب : والجفان : جمع جفنة ، والجوابى : جمع جابية وهى الحوض الكبير يجمع فيه الماء ويجبى : أى يحملون له القصاع التى تشابه فى ضخامتها حياض الماء العظيمة فإن كانت هذه الجفان من النحاس ، فهو دليل على تقدم الجن فى الصناعات المعدنية ، وإن كانت الجفان نحتت من الحجر ، فهى استخدام للنحت فى خدمة الإنسان .

وقدور راسيات : آنية للطهى ثابته لضخامتها فوق المواقد ، تلك الجفان وهى آنية الطعام والقدور وهى آنية الطهى ، تدل على الكميات الكبيرة من الطعام التى تطهى وفاء بحاجة جيش سليمان اللجب ، وإجابة لنداءات بطون الجائعين من المحتاجين فى ملك سليمان عليه السلام .

وكلها نعم من نعم الله السابغة لذا قال سبحانه بعد تعداد هذه النعم " اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور " ١٣ : سبأ

البنـاء والغـوص :

" فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب .. والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد " ٣٦ ـ ٣٨ : سورة : ص

---

١) انظر صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٦٦ صورة بيوت والحديث مما تفق عليه الشيخان

٢) انظر فى معنى التماثيل القرطبى حـ ١٤ صـ ٢٧٢ ، والزمخشرى حـ ٢ صـ ٥٥٦ ومحاسن التأويل حـ ١٤ صـ ٤٩٤٣

" ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين " ٨٢ : الأنبياء ، فبينت لنا آيات سورة ص تسخير الشياطين فى الغوص فى البحار واستخراج ما ينفع الإنسان من قاع البحار فى طعامه أو ملبسه وزينته ، وقد يكون ما يستخرج من الوفرة بحيث يصلح للمتاجرة به وذلك كاللآلىء البحار ، وبينت كذلك تسخيرهم فى البناء وتأمل استعمال صيغة فعال وهى تدل هنا على كثرة مزاولة الجن للبناء والغوص ، وزادتنا آية الأنبياء أنهم يعملون أعمالا أخرى تظهر فيها مهارة الجن ومقدرته : كبناء الصروح من الزجاج تجرى تحتها جداول المياه ، على نحو أخذ بلقيس ملكة عاقلة هى بلقيس ملكة سبأ .. ومعنى قوله سبحانه " وكنا لهم حافظين " أى حفظهم (١) " أن يفتروا عن أمر سليمان ويفسدوا الأعمال على مقتضى جبلتهم " وطبائعهم الشيطانية .

حمل الأشياء ونقلها عبر المسافات الطويلة :

وللجن قدرة على حمل الأشياء الثقيلة والتنقل بها بسرعة عبر المسافات الطويلة ، فهذا عرش ملكة سبأ الذى وصف بأنه " عرش عظيم " يعرض جنى على سليمان أن يأتيه به فى برهة قليلة من الزمن كما ذكر لنا ربنا سبحانه وتعالى فى قوله " قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين " ٣٩ : النمل

هذه النصوص الكريمة وغيرها تقطع بأن الجن حقيقة وأنه خلق مباين مغاير لعالم الملائكة والإنس له أعمال ، وتناط به تكاليف ووظائف ، كما أخبرنا العليم الخبير ، ومن أصدق من الله حديثا .

الفيصل بين الحق والخرافة :

اتسمت كتابات الدكتور البهى فى موضوع الجن بالشطط والتعسف ، وتكررت آراؤه فيما كتبه فى تفسير سور الأنعام والأعراف والصافات حتى انتهى إلى إنكار الجن كلية وهذا ما صرح به فى تفسير سورة الأنعام حيث قال (٢) : " استغلوا رأى الكهان ، اعتقاد التابعين لهم فى خرافة : الجن .. وعالم الغيب ، وتدخلوا فى شئون أموالهم "

فأما القول بأن هناك أضاليل وخرافات افتراها الكهان قديما وأتباعهم حديثا حول عالم الجن والغيب فهذا حق صراح وشتان بين هذا وبين معتقدات الدكتور البهى الذى يذهب فيه إلى أن الجن خرافة !! لا أصل لها ولا أساس ...

والعقيدة التى جاء بها القرآن والسنة أن عالم الغيب والجن حقيقة واقعة لا يجحدها مسلم

---

١) انظر البيضاوى صـ ٣٢٢ بمعنى تصرف

٢) انظر صـ ٧ دار الفكر بيروت

وإن احتفت بهما دعاوى نقضها القرآن ... وإن رددت الألسنة الكاذبة حولهما الأساطير التي هتك القرآن ظلامها بنوره الهادي وبيانه المحكم .

صور من شطط القول :

ومن أمثلة الشطط الذي أشرنا إليه ، تفسيره لقوله سبحانه : " وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا " ٦ : الجن .

فقال : " أي قل للمشركين وأعلن إليهم : أنه كان هناك بعد رسالتك ونزول الوحي إليك رجال من الإنس وهم كهنة الأصنام ، " يعوذون برجال من الجن " أي يستعينون برجال من العالم غير المرئي ، وهم من قبيل الشيطان وذريته على معرفة الغيب وتقصي شأن رسالتك .... " (١)

وتأمل عبارة (من قبيل الشيطان وذريته)

ونحن نسأل الدكتور : هل عدت إلى الإعتراف بوجود الشيطان وذريته على النحو الذي أخبرنا به العليم الحكيم في كتابه ؟ أم أن هذه العبارة غافلت قلمك ، وسابقته إلى أسطر الكتاب فنجت من عسف التأويل وعبثه ؟ أم أنك قائل : بأن الشيطان وذريته هم من شياطين الإنس فتكون قد مسخت معنى الآية مسخا لم تسبق إليه ؟ !! أم أنت عائد إلى القول بأن الشيطان هو من الملائكة ، وذريته هم ناصروه من الإنس ؟ ! وليس يجوز في إيماننا ولا في عقلنا أن الملائكة شياطين أو منها الشياطين .

ومن أمثلة التخبط كذلك قوله (٢) في تفسير قوله سبحانه " وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا " ٨ : الجن

وأنا أي رجال الجن (هل يؤمن الدكتور بوجود الجن) حاولنا بعد نزول الوحي والقرآن وتكليف الرسول برسالته من ربه : أن نسترق السمع من عالم السماء كما كنا نقول - أو كما كنا ندعي للكهنة - فلم ننجح ، " فوجدناها ملئت حرسا شديدا " وسبب إخفاقنا أنا وجدنا أبواب السماء موصدة دوننا ، وعليها حرس قوي ، وفيها قطع من نار يقذف بها كل من يحاول القرب منها ، أحس الدكتور هنا أنه قد أحيط وأنه قد ربط بقلمه حقيقة الجن التي أنكرها فلجأ إلى كهف التأويل بقوله (٣) " وهذا كناية عن أن نزول القرآن وضع فاصلا قويا بين الخرافة

---

١) صـ ٢١ من تفسير سورة الجن .

٢) صـ ٢١ من تفسير سورة الجن

٣) نفسه .

ومارستها من جانب ، والحق والواقع من جانب آخر ... " ... وبعض هذه الكلمة حق يراد به غير الحق .

ومما يقطع بأن الآية على ظاهرها لا تقبل صرفا ولا تحتمل تأويلا ، قوله سبحانه بعدها :- " وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا " ٩ : الجن فهل تستطيع شياطين الإنس أن تقعد من السماء مقاعد للسمع ؟

ولكن الدكتور يقف من هذه الآية الكريمة موقفه من سابقتها فيقول [1] " وهذا تعبير مجازي قصد منه الحيلولة وعدم التمكن من استراق السمع كما كان يتم سابقا ، ولو أن استراق السمع فيما مضى كان ممكنا وحقيقة واقعة بالنسبة للجن ... ما هي الحاجة إلى صعود هذه القوى النارية إلى السماء ، لأداء هذه الغاية والوجود بالنسبة لها ليس فيه مسافات ؟ إذ المسافات هي بالنسبة للأجسام المادية وحدها ، فهي كثيفة تنجذب نحو الأرض ... ولكنها الخرافة في الوثنية !!

تأمل ماذا يقول الرجل عن خبر القرآن وحقائقه حول الجن يقول " وهو عالم مسئول " ولكنها الخرافة في الوثنية " [2] ونعوذ بالله مما قال ...

ولكن من قال لك أن الجن ليست أجساما مادية ؟ والله يقول " وخلق الجان من مارج من نار " ١٥ : الرحمن ، فمن قال قبلك أن النار ليست مادة ؟ وإذا كنت قد نصبت من نفسك إماما في التفسيرات من التأويلات مالم يأت به السابقون الراشدون ، فهل أصبحت في علوم المادة ، وأنواع الطاقة مخترعا جعل النار روحا ... والنار بكل صنوفها ما كانت ولن تكون الا مادة ... ولكن الرجل مجدد !!

ثم من قال إن الوجود بالنسبة إلى الجن ليست به مسافات إذ المسافات بالنسبة للأجسام المادية وحدها ؟ ونحن لا نرد على الرجل تأويلاته الشاردة إلا بخبر القرآن القاطع .

لقد أنكرت يا دكتور دلالة قطعية لآيات كريمة أفادت صعود الجن لاستراق السمع ، وشخصت على المعنى البين بكواذب الظنون .... كانت هذه الآيات لا تفيد عندك الصعود فماذا تقول في آيات أخرى تفيد هبوط الجن إلى الأرض أو ليس الذي يهبط يصعد والعكس صحيح ، وهل إبليس إلا واحد من الجن والله يقول في شأنه : " قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين " ١٣ : الأعراف ... ويقول له ولآدم عليه السلام

---

١) صـ ٣٧ من تفسير سورة الجن

٢) صـ ٣٧ نفسه

وزوجه حواء " قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين " ٢٤ :الأعراف
وأكد القرآن هذا المعنى في الآيتين ٣٦ ، ٣٨ من سورة البقرة ، والآية ١٢٣ من سورة طه
ثم اسمع معنا لهذه الآية على لسان إبليس " ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن
أيمانهم وعن شمائلهم ثم لا تجد أكثرهم شاكرين " ١٧ : الأعراف ، وبغير إغراق في وجوه
التأويلات في الآية الكريمة ، فدلالتها على ما نحن بصدده أن الحديث عن الحركة " لآتينهم "
حديث عن المسافة ، فالإتيان أو المجيء انتقال من مسافة إلى مسافة الجهات الأربع :
١) من بين أيديهم ٢) من خلفهم ٣) عن أيمانهم ٤) عن شمائلهم (١) .....
أو ليس الذي يقطع المسافات هو الذي يبحث عن الجهات ...

ولنفترض جدلا أن إبليس كان من الملائكة - كما يزعم غير المحققين فإن القرآن الكريم يحدثنا عن صعود الملائكة ونزولها وحركتها ... وذلك ما يلح الدكتور على نفيه باعتراضات أوهى من بيت العنكبوت ، وهاك بعض أخبار القرآن عن حركة الملائكة :-

١) " ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون "
٢ : النحل .
أو ليست تفيد الآية نزول الملائكة بوحي الله إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، لإنذار العباد ، والأرض هي مكان الرسل والعباد .

٢) " وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين " ٦ - ٨ : النمل .
أي ولو نزلت الملائكة إجابة لتعنتهم ، لنزلت بعذابهم ولقضي إليهم أجلهم .

٣) " إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ... " ٩٧ : النساء ، وتوفي الملائكة للناس يكون على الأرض .

٤) " تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " ٤ : المعارج

٥) " ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين " ١٢٤ : آل عمران
وهذا الإمداد كان على أرض المعركة في بدر ...

والأدلة غير ما قدمنا كثيرة ، وفيما ذكرنا كفاية وشفاء ، فهل يعود بعدها الدكتور إلى الشغب على دلالات القرآن .

---

١) لبعض المفسرين أقوال في المقصود بالجهات الأربع بالآية نجعل ذكرها من باب المجاز ... ولكن المجاز فوق الحقيقة .

ثم نعود إلى إنكاره أن يكون الله قد عاجل بالشهب الثاقبة شياطين الجن عقابا وزجرا ، فنقول له إذا كنت قد تحررت بالمجاز حجابا من نور قوله سبحانه " ... يجد له شهابا رصدا " فهل يغنى عنك المجاز - وما أغنى من قبل - مع قوله سبحانه :-

" ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ، وأعتدنا لهم عذاب السعير " ٥ : الملك .

ستؤول لها وتقول جعلها الله رجوما لعذاب المكذبين من شياطين الإنس فى الدنيا .. أوتقول رجوما : ظنونا للمرافين من المنجمين .. وهو باطل من التأويلات أنت بها مسبوق [1] .... ولكن ماذا تقول فى هذه الآيات التى تأخذ بخناق المؤولين ، وتسد عليهم منافذ التنفس فإما الإذعان وإما الإختناق ... يقول سبحانه :-

" إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب " ٦ - ١٠ : الصافات

يقول الدكتور البهى [2] " وحفظا من كل شيطان مارد " والمراد بكل شيطان : قوى الشر المتمردة والمتمرسة على الشراسة . " لا يسمعون إلى الملأ الأعلى " أى لا يستطيعون التسمع إلى عالم الملائكة بفضل الحراسة القوية فهم ممنوعون من السمع " ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب " لأنهم سيقذفون مطرودين من جوانب عديدة ، والذى يباشر قذفهم هم الملائكة التى من صفاتها الزجر " فالزاجرات زجرا " . وبالإضافة إلى طردهم وإبعادهم عن الإقتراب من سماء الدنيا فإن لهم عذابا مستمرا فى الآخرة لممارستهم الشر والعداء لله : " إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب " أى إلا على فرض : أن هناك من خطف خطفة واسترق استراقة فتعالجه الملكة باتباع الشهاب الثاقب له فلا يصل إلى الأرض مرة أخرى .

---

١) هذه التأويلات ذكرها بعض المفسرين بصيغة التضعيف قبل كما فعل البيضاوى والشربينى بعضهم جعلها من وجوه التأويل وبعضهم أغفلها كابن كثير والبغوى والخازن وبعضهم نقضها وفندها كما سيأتى .

٢) سورة الصافات صـ ١٠ دار الفكر

والقرآن هنا ينفى وجود قوى تسترق السمع من علم الغيب ، ينفى أنها تتمكن من السمع منه ، وينفى تمكنها من ذلك عن طريق الحراسة المشددة التى لاتدع غيبا يتسرب إلى الأرض فى أية حالة من الحالات ، إلا عن طريق الرسل التى ترسل إليها الملائكة به : " فالتاليات ذكرا " .

ولكن الصورة التى ينفى بها القرآن هنا وجود قوى تسترق السمع من السماء ، كما كان يرى مشركو مكة : صورة لايسلط فيها النفى مباشرة على : " وجود هذه القوى " بل على وظيفتها المدعاة ، وهى استراق السمع . وإذا انتفت وظيفتها فوجودها يساوى عدمها . واختار القرآن صورة النفى هذه للتدليل على أن هؤلاء المشركين يتصورون العبث فى اعتقادهم ويتخيلون قوى لاتتمكن من إثبات وجودها بأداء وظيفتها "اهـ"[1] فتأمل شطط التأويلات فى هذه الفقرة وما فيها تناقض كسيح :ـ

الشيطان : قوى الشر المتمردة إلخ ولم يقل من الجن كما يدل سياق الآية ، وهكذا التأويل المفرض تترك فيه حقائق المعانى ومدلولات الألفاظ إلى متاهات الظن .

والقرآن يبين أن الشياطين تُقذف بالشهب الحارقة ويؤكد القرآن هذه المعانى تارة فى بيان مهمة الكواكب " وحفظا من كل شيطان مارد " ٧: الصافات " .. فأتبعه شهاب ثاقب " ١٠: الصافات ، " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين " ٥: الملك .

وتارة باعتراف الجن أنفسهم : " وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا " ٨، ٩: الجن وعند قوله سبحانه : " إلا من خَطِف الخطفة ... " ١٠: الصافات ، يقول الدكتور " إلا على فرض " فهل فى لفظ الآية مايدل على هذا الإفتراض وينتهى إلى نفى وجود الجن بعبارات مختلفات الألفاظ ، منتهيات إلى غرض واحد ومن هذه العبارات "[2]ـ

والقرآن ينفى وجود قوى .. ولكن الصورة التى ينفى بها القرآن صورة لايسلط فيها النفى مباشرة على وجود هذه القوى ... وينتهى إلى ما يبغى أن يقرره وهو : " فإذا انتفت وظيفتها فوجودها يساوى عدمها "

١ـ وضع هذه العبارة بين قوسين هو ضمن عمل الدكتور البهى فتأمل

٢ـ ص ١١ سورة الصافات

ليس تجديدا ولكنه أفك قديم :-

إن ماقاله الدكتور البهى ليس تجديدا ... فقد سبقه إليه أناس غرتهم فلسفتهم ، وخدعتهم أحلامهم فقالوا على الله بغير علم ، ثم أصبحت مفاهيمهم تاريخا يروى لتحقير ولنصل إلى بعض المفسرين يذكرون لنا من أنبائهم ، مايتبين لنا أن محاولة الدكتور البهى هى محاولة قديمة غابرة .. ، فهذا هو ابن كثير الدمشقى[1] : وهو من مفسرى القرن الثامن الهجرى ، ينقل آراء مفسرين من القرنين الثانى والثالث الهجريين[2] حول المسألة ، فعند تفسير لقول الله جل ذكره[3] : " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير " ٥ : الملك ، استطرد فنقل رأيا لقتادة وشيخ الصلة بموضوعنا : " انما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به " رواه ابن جرير وابن ابى حاتم ؛ أهـ

الخازن يبين موقف بعض الفرق من الجن :-

وهذا مفسر آخر ألف تفسيره فى القرن الثامن الهجرى أيضا هو الخازن[4] ، يذكر لنا من مواقف الناس فى الجن مالعله يكون عبرة للمجددين فيقول : " اختلف الناس قديما وحديثا فى ثبوت وجود الجن ، فأنكر وجودهم معظم الفلاسفة ، واعترف بوجودهم جمع منهم وسموهم الأرواح السفلية ... وأما جمهور أرباب الملل وهم أتباع الرسل والشرائع فقد اعترفوا بوجود الجن ، لكن اختلفوا فى ماهياتهم فقيل الجن حيوان هوائى يتشكل بأشكال مختلفة وقيل أنها جواهر ، وليست بأجسام ولا أعراض ، ثم هذه الجواهر أنواع مختلفة بالماهية فبعضها خيره كريمة محبة للخيرات ، وبعضها دنيئة خسيسة شريرة محبة للشرور والآفات ولا يعلم عدة أنواعهم إلا الله تعالى ، وقيل إنهم أجسام مختلفة الماهية ، لكن تجمعهم صفة واحدة هى وجودهم فى حيز ، ويوصفون بالطول والعرض والعمق ، وينقسمون إلى : لطيف وكثيف وعلوى وسفلى ولا يمتنع فى بعض الأجسام اللطيفة الهوائية أن تكون مخالفة لسائر أنواع الأجسام فى الماهية ، وأن يكون لها علم مخصوص ، وقدرة مخصوصة على أفعال عجيبة أو شاقة يعجز البشر عن مثلها ، وقد يتشكلون بأشكال مختلفة ، وذلك بإقدار الله تعالى إياهم على ذلك ، وقيل أن الأجسام متساوية فى تمام الماهية وليست البنية شرطا للحياة ، وهذا قول الأشعرى وجمهور أتباعه ، وشذ تأويل المعتزلة من هذه الأمة فأنكروا وجود الجن[5] وقالوا

---

١) ابن كثير هو المفسر " أبو الفداء إسماعيل ..) المتوفى ٧٧٤ هـ.

٢) نفى ما سيذكره ابن كثير عن قتادة بن دعامة السدوسى ، ومحمد بن جرير الطبرى .

٣) انظر تفسيره لسورة الملك من كتابه " تفسير القرآن العظيم " جـ٤ صـ٣٩٦ ط: الحلبى بالقاهره ، جـ٧ صـ ٦٩ ط: الفكر ببيروت ، وقد قال ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة المذكورة: " وجعلناها رجوما " : عاد الضمير فى جعلناها على جنس المصابيح لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمده منها .. " .

٤) الخازن هو: على بن محمد بن إبراهيم البغدادى المعروف بالخازن ، وقد فرغ من كتابة تفسيره: " لباب التأويل ، فى معانى التنزيل " فى رمضان عام ٧٢٥ هـ - وانظر تفسيره جـ ٦ صـ ١٣١ ط: التجارية .

٥) من الإنصاف أن نقول : ليس كل المعتزلة كذلك ، فأنك مطلع خلال هذه الرسالة على أقوال للجاحظ والزمخشرى - وهما من كبار المعتزلة - يتجلى فيها إيمانهما

البنية شرط للحياة ، وأنه لابد من صلابة البنية حتى يكون قادرا على الأفعال الشاقة وهذا قول منكر ، وصاحب هذا القول ينكر خرق العادات ، ويرد ماثبت وجوده بنص الكتاب والسنة أ هـ .

هل ينكر المعتزلة الجن :-

نسب إلى المعتزلة القول بإنكار الجن وردت أقلام كثيرة فى القديم والحديث هذا الإتهام ونحب أن نقول أن المعتزلة أنشعبت إلى فرق تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا فمنهم ظالم لنفسة مسرف عليها ومنهم كابح لجماح مهدهد لثورة الجموح الإعتزالى ، وليس من أرضنا فى هذه الأسطر أن نؤلف للمعتزلة ولكن نريد أن نبين أن بعض كبارهم آمن بالجن على النحو الذى جاء فى كتاب الله ومن هؤلاء :-

١) الجاحظ :-

أكثر الجاحظ[1] فى كتابة " الحيوان " [2] الردود على المشككين فى أخبار القرآن الكريم عن الجن فكتب رادا عليهم : " قالوا : زعمتم أن الله تعالى قال : " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين .. " ١٥ : الملك ، وقال تعالى : " وحفظناها من كل شيطان رجيم " ٧٣ : من الحجر ، ونحن لم نجد قط كوكبا خلا مكانه ... قيل لهم : قد يحرك الإنسان يده أو حاجبه أو إصبعه فتضاف تلك الحركة إلى كله ، فلا يشك أن الكل هو العامل لتلك الحركة ، ومتى فَصَلَ شهابٌ من كوكب فأحرق وأضاء فى جميع البلاد ، فقد حكم كل أنسان بإضافة ذلك الإحراق إلى ذلك الكوكب ، وهذا جواب قريب سهل والحمد لله " - ثم يقول الجاحظ : " لم يقل فى قوله تعالى " وجعلناها رجوما للشياطين أنه يعنى الجميع " أى جميع الكواكب " ويبين أن النجوم " لم يضرب المثل فى كثرة العدد إلا بها دون الرمل والتراب وقطر السحاب "فة يستطاع الإحاطة بها إذا زايل كوكب منها مكانه [3] واسترعى الجاحظ الأفهام لوعى قوله تعالى : " إلا من خطف الخطفه فأتبعه شهاب ثاقب " ١٠ : الصافات بمعرفة معنى الشهاب فى لغة العرب ، وفى استعمالات القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان الكليم موسى عليه السلام " .. أو آتيكم بشهاب قبس .. " ٧ : النمل [4] ونضيف إلى استشهاد

---

١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عاش بين اعوام ١٥٠ - ٢٥٥ هـ وهو عالم موسوعى ويدل ماوصلنا من آثاره على غزارة علم ، وإشراقة بيان .

٢) انظر كتاب "الحيوان" جـ ٦ ص ٤٩٦ لأبى عثمان الجاحظ بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط/الثالثة بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩م .

٣) انظر كتابه "الحيوان" جـ ٦ ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ وقد أكثر الجاحظ القول فى أخبار الجن - وذكر تزايدات الشعراء حول الجن وذكر فتخلا من الأقوال وباطلا وفى الزوبعة غنيه عن المخيض والفشاء فليراجع من شاء الجزء السادس من الحيوان فى مواضع شتى منه يدلك عليها فهرست الجزء السادس ص ٥١٦ .

٤) انظر الحيوان جـ ٦ ص ٤٩٨ بتصرف .

الجاحظ لمعرفة معنى الشهاب القبس قوله سبحانه : " لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى " ١٠ : طه ، وبسط الجاحظ القول لمن شاء مزيدا [١]

٢ـ القاضي عبد الجبار :

تعرض القاضي [٢] لهذا الموضوع في مواضع من كتابه " متشابه القرآن " [٣] وعند قوله تعالى : " وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن .. " ٢٩ : الأحقاف وبعد شقشقة اعتزالية حول " خلق الأفعال " قال : " ... لأن الجن الذين ذكرهم حضروا وآمنوا فلا يمتنع أن يكون تعالى لطف بهم وأعانهم ، فوصف ذلك بأنه صرفهم [٤] إليه يستمعون القرآن " .

فأدنا هذا النص عن القاضي عبد الجبار إيمانه بالجن ، وتصديقه باستماعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ... ، وإنما سقنا هذا مثالا فقط ، وغيره في كتب القاضي كثير ، وكلها تدل على أنه ليس من منكري حقيقة الجن .

٣ـ الزمخشري :

تعرض الزمخشري في كتابه " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " لقضايا الجن وأخبارهم في مواضع ورودها من القرآن الكريم ، ولم نجده في موضع من هذه المواضع ينكر وجود الجن ، وقد سبقت لنا نقول عن

تدل دلالة صريحة على ذلك ، وعند

---

(١) انظر رد الجاحظ في كتابه " الحيوان " جـ٦ ص ٤٩٩ـ٥٠٠ على شبه الطاعنين فيما ذكره الله من أمر الجن في الآيات ٧ـ٩ : الصافات ، وذكر قولا لبعض النحاة بأن : " إلا من خطف الخطفة " ليست على باب الإستثناء ... ونذكر نحن قول الزمخشري في الكشاف جـ٢ ص١٩٨ عن هذا الإستثناء (من : في محل الرفع : بدل من الواو في " لا يسمعون " أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف الخطفة " وأما القرطبي فقال في تفسيره جـ١٥ ص١٦ : " الإستثناء من " ويقذفون من كل جانب " وقيل : الإستثناء يرجع لضمير الوحي لقوله تعالى : " إنهم عن السمع لمعزولون " فيسمعون بعض ما يتفاوض فيه الملائكة مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض .

(٢) هو القاضي : أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسد أبادي ، من كبار رجال الإعتزال ، ولاه الصاحب بن عباد قضاء الري وتوفي في ٤١٥هـ ومن مؤلفاته (المغني في أبواب التوحيد والعدل " ويقع في عشرين جزءا .

(٣) انظر " متشابه القرآن " بتحقيق د . عدنان زرزور القسم الثاني ص٦١٥ ط : التراث بالقاهرة .

(٤) ظاهر قوله تعالى : " وإذ صرفنا " يفيد أنه سبحانه وتعالى هو الذي يقلب القلوب ، ويوجه الامور ، ويأخذ بالنواصي ، فهذا التعبير " صرفنا " من الأدلة الناقضة لدعاوى المعتزلة في أن العبد خالق فعل نفسه ، ومعتقد أهل الحق : أن الله خالق كل شيء ولكن يفرقون بين الخلق الذي هو من شأن الله وحده ، وبين الكسب الذي هو من فعل العبد ومسئوليته .

قول الحق جل ذكره " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه .. " ٥٠ : الكهف ، قال الزمخشري (١) : " كان من الجن " كلام مستأنف جاري مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين كأن قائلا قال ماله لم يسجد ؟ فقيل كان من الجن " ففسق عن أمر ربه " والفاء للتسبيب لنا جعل كونه من الجن سببا في فسقه ، لأنه لو كان ملكا كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر ربه ، لأن الملائكة معصومون البتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس . كما قال " لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون " ٢٧ : الأنبياء ، وهذا الكلام المتعرض تعمد من الله تعالى ، لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم ، فما أبعد اليمين بين ما تعمده الله ، وبين قول من ضاده وزعم أنه كان ملكا ورئيسا على الملائكة ، خرج عما أمره به ربه من السجود ... " أهـ .

والحق يقال : إن الزمخشري في هذه الكلمات أوجز وأبلغ ، وأنقى وأمتع .

وعند قوله تعالى : " وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن " ٢٩ : الأحقاف تناول القول بشيء من التفصيل (٢) ، واستشهد بحديث عبد الله بن مسعود وبحديث سعيد بن جبير عن ابن عباس وقد سبق لنا ذكرهما ، وذكر ما ذكره غيره من المفسرين من أن هؤلاء كانوا من جن نصيبين ، أو جن نينوى ، إلى غير ذلك من المسائل ولم تبد منه بادرة نحو التأويل أو استكراه الألفاظ على غير دلالاتها ومضى في تفسير سورة الجن (٣) على هذا النهج لم يزغ عنه .

* * *

فهؤلاء ثلاثة من عمد الإعتزال وأقطابه لم يسلكوا مسلك الدكتور البهي في إنكار الجن وجحده ، ومن عجب أننا نجد أحيانا أناسا يدعون أنهم من أهل السنة والجماعة يقولون بمقالات لا تقل نكرا عن خبيثات مقالات الرافضة وتزداد غلوا فوق جموح الإعتزال .

وهذا يبين لنا أن الدكتور البهي حينما قال بنفي الجن إنما سلك طريقا ارتاده قبله (معظم الفلاسفة) كما قال الخازن ، وانتهجه قبله أصحاب النزعات المادية ، القائلون بخرافة (الميتافيزيقا) أي ما وراء الطبيعة ، فهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس الملموس وإذا كان حقا وإنه لحق قول القائل :-

---

(١) انظر الكشاف حـ٢ صـ ٢٦٢ .
(٢) انظر الكشاف حـ٣ صـ ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٣) انظر تفسيرة لسورة الجن في الكشاف حـ٣ من ص ٢٧٤ : ٢٧٩ .

وإذا لم ترالهلال فسلم .. لأناس رأوه بالأبصار

نقد كنا نريد للدكتور البهى وهو العزيز على قلوبنا بما قدم من كتب نريد بها عن دين الله ، ويرد بها كيد المبشرين والمستشرقين ، كنا نريد له أن يثبت على عقيدة الحق ، وألا يزيغ فيها ، وراء سراب التجديد ومخايل العصرية .

مقالات التناقض لم ينقطع جماهها

تسربت وساوس الشيطان إلى قلم الدكتور البهى ، فقادته هذه الوساوس إلى انكار الشيطان ، ولكن الرجل ظل روحا من حياته نيف على الستين ، يعتقد معتقد أهل الحق فى الجن ، فلما قال بما قال من شطط التأويلات ، لم يك مستطيعا أن ينفك عن معتقد اعتقده وعاشه هذا الزمن الطويل ، فتراه فى كتاباته ينكر الجن ثم يسارقه قلمه ، ويغالبه تعبيره ، فيعترف بالجن وهو يريد الإنكار فيثبت ما يريد أن يزور عن اثباته .

ومن أمثلة ذلك :-

١) فى تفسيره لسورة الصافات وبعد قوله عز من قائل : " والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا .. " ١ - ٣ : الصافات ، قال الدكتور[1] البهى : " يقصد الله الملائكة التى لها هذه الأوصاف الثلاثة وهى : أهبة الإستعداد للحراسة (والصافات صفا) ، ومباشرة الزجر والطرد لمن يحاول من قوى الشر الإقتراب من الملأ الأعلى وهو طالعهم : " فالزاجرات زجرا " ... وسؤالنا له : ما هى قوى الشر التى تحاول الإقتراب من الملأ الأعلى ؟ أهى من الإنس ؟ ولا يستطيع الإنس هذا البتة إلا أن يخلقه الله خلقا آخر ، أم هى من الجن الذى أنكر وجوده الدكتور البهى وجحد حقيقته ثم أقام قلمه الحجة عليه ، أم أن القرآن جاء ليقرر ويؤكد أساطير الكهان ، ونعوذ بالله عياذا من هذا المعتقد .... الذى دندن حوله " الدكتور " .

٢) تساءل الدكتور البهى تساؤلا نابعا من " وادى الإعراض والإنكار " فقال[2] : " وما هى الفائدة التى تعود على الهداية بالقرآن من تحول هذه النفر عن الشرك إلى الإيمان بالله وحده ؟ أهى إقامة الحجة على مشركى مكة ؟ وهل تقام

---

(١) انظر تفسير سورة الصافات ص ٨ .

(٢) انظر تفسير سورة الجن ص ٢٥ .

الحجة على نوع من المخلوقات بسلوك نوع آخر مقابل له تماما ؟ أما الشق الأول من هذا السؤال الإعتراضي فقد أجاب هو عليه بقوله [1] عند آية الأحقاف : " أى واذكر إذ أملنا ووجهنا إليك وإلى مجلسك لاستماع القرآن نفرا من العالم غير المرئى كآية من آيات الله على تصديقك " ثم ذكر الدكتور البهى أن هؤلاء النفر من الغرباء سمعوا القرآن واهتدوا من [2] الإستماع إلى أمرين : أولا : أنه رسالة من الله لا شك فيها ... وثانيا : أنه هداية للحق فى الإعتقاد والأخص فيما يتصل بذات الله سبحانه وصفاته وكذلك هداية للصراط المستقيم فى السلوك والعلاقات بين الناس بعضهم ببعض " .

لقد بدأ الدكتور البهى سؤاله من وادى الإنكار ، وأجاب عليه من منطلق الإقرار !! ولا استغراب ولا تناقض لأن الرجل أنكر أن يكون القرآن هداية للجن واستنكر أن يكون إيمان الجن آية مصدقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما إذا وقع هذا الإيمان فذلكم التصديق ممن سماهم الدكتور البهى " نفرا من الغرباء من العالم غير المرئى [3] أو " الفريق الغريب المتخفى الذى ليس من طبيعة أخرى غير طبيعة الإنسان " ! فقد زال الإشكال وحل التناقض ، ولكن الخلاف بيننا وبين الدكتور البهى ليس خلافا لفظيا وإنما هو الخلاف بين " الذين يؤمنون بالغيب " وبين الذين يقبلون من هذا الغيب ما يوافق أهواءهم

٣) وأما الاجابة على الشق الثانى من السؤال وهو : " وهل تقام الحجة على نوع من المخلوقات بسلوك نوع آخر مقابل لها تماما ... ؟ ونقول للدكتور البهى إن هذا هو مفهوم آيات الجن فى سورتى الأحقاف والجن ، وما دمت فى شك مريب من أمر الجن - وحسابك على الله - فإننا نسوق لك دليلا تؤمن به وهو أنك مؤمن بالملائكة حتى أردت جعل الجن ملائكة والذى أنكرته فى شأن الجن من قيام الحجة بإيمانهم على معاندى البشر ، قد أثبته القرآن فى شأن الملائكة . وقال عز من قائل : " ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم اياه تعبدون ، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون " ٣٧ ، ٣٨ فصلت .

لقد أقام الله الحجة على البشر بسلوك الملائكة وكذلك أقام الحجة على الملائكة بسلوك آدم كما قال تعالى : " وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون .

---

(١) انظر تفسير سورة الجن ص ٣٠ ، ٣١ . (٢) نص عبارة الدكتور البهى ص ٣٠ (وحكموا عليه .. " وهى عبارة جانبية نابية إذ القرآن هو الحكم الجليل المطاع .

(٣) انظر هذه التسمية فى السطر الأخير من ص ٣٠ وما أكثر ما تكررت فى كتيبه عن تفسير سورة الجن .

(٤) نفسه ص ٣٠ .

وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " ٣٠ ـ ٣٣ البقرة •

٤) وعند قوله تعالى : " وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا " قال [1] : " ولو أن استراق السمع فيما مضى كان ممكنا وحقيقة واقعة بالنسبة للجن ـ على أنها من القوى الغازية ، وليسوا من رجال البشر الذين لا يعرفون بادئ استراق السمع بين أقرانهم من الناس ـ ما هى الحاجة إلى صعود هذه القوى الغازية إلى السماء ، لأداء هذه الغاية ، والوجود بالنسبة لها ليس فيه مسافات ؟ إذ المسافات هى بالنسبة للأجسام المادية وحدها ، فهى كثيفة تنجذب نحو الأرض ، ويحجبها عن الرؤية البعيدة وإدراكه : ما بها من ظلمة • ولكنها الخرافة فى الوثنية " •

والآن هل يرى القارئ فى هذه العبارات غير الجدال فى خبر القرآن ، بضروب من الشقشقة والفلسفة أشبه ما تكون بمضغ الماء ، بل إنه قبل أن يسوق هذه الإعتراضات المعوجة ، وحذرا من التكذيب الصريح لخبر القرآن على لسان الجن " فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا " يقول [2] وهذا تعبير مجازى قصد منه الحيلولة وعدم التمكن من استراق السمع كما كان يدعى سابقا • ثم يعود إلى القول : " والآن [3] بعد أن وقفت خرافة استطلاع الغيب بإعلان رجال الجن أنفسهم عجزهم عن استراق السمع من السماء بعد نزول القرآن ـ أخذت هذه الخرافة تضعف فى الإعتقاد بين المشركين المكيين " •

والسؤال الان من هم رجال الجن ؟ ولا تريد وقد قاربنا " الياء " أن نعود إلى " الألف " مرة أخرى ، وفى الكتاب على صغره كثير مما يستوجب الحوار بل والتفنيد ، وفيما سلف بلاغ ، ونسأل الله العفو والعافية والهداية والتوفيق لنا وللأستاذ الدكتور محمد البهى والله يقول الحق وهو يهدى السبيل •

---

(١) انظر ص ٣٧ نفسه •

(٢) أنظر ص ٣٧ •

(٣) انظر ص ٣٧ •

تأويل قوله سبحانه
" وجعلناها رجوما للشياطين "

عند قول الحق جل ذكره " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير " ٥ : الملك ، تعرض الشيخ عبد القادر المغربي[1] لمعنى كون الكواكب رجوما للشياطين ، فتكلم عن الشهب المنفصلة عن النجوم لتكون رجوما للشياطين .. ، وعن تسمية هذه الشهب بالنيازك ثم قال : " ونحن معشر المسلمين نعتقد بظاهر ما ورد في القرآن الكريم : من أن النجوم قد ينفصل عنها رجوم تتبع الشياطين . وإذا لم يفهم العلم الطبيعي هذه القضية ، فذلك لأنه لم تتوفر له أسباب الفهم اليوم . ويكفينا في صحة الإيمان بها على ظاهرها أن العقل لا يجعلها من المحالات العقلية .. " .

تأويل غريب :

ثم انتقل الشيخ إلى ذكر تأويلٍ غريب للآية فقال : " ولبعضهم[2] في تأويل جعل النجوم رجوما للشياطين كلام جدير بالقبول وهو : إن الرجوم واحدها الرجم مصدر رجم ، وهو أن يتكلم المرء بالظن والتخمين ، ومنه قوله تعالى : (ويقولون رجما بالغيب ..) ٢٢ : الكهف ، فالرجوم هنا بمعنى الظنون ، أما الشياطين فهم شياطين الإنس ، أعني المنجمين الذين اتخذوا من النظر في نجوم السماء والتكهن عن أمور المستقبل بما يبدو لهم من طوالعها صناعة لِحْمَتُها الرجم ، وسِدَاها الوهم ، فالله تعالى يقول : إنه خلق النجوم فكانت زينة السماء ، أما الشياطين من الكهان فقد اتخذوها وسائل للتنجيم وإضلال الناس فلا بدع إذا أعدت لهم النار يصلون سعيرها .

ومعنى كونه تعالى جعلها ظنونا للمنجمين أن ذلك كان من نتائج خلق النجوم ، وقد حصل بإرادته ، لا أنه تعالى شرعه ورضي به كما رضي بأن تكون النجوم زينة ومصابيح للسماء .. " .

---

(١) انظر تفسير جزء تبارك ص ٧ للشيخ عبد القادر المغربي كلمة : الشعب .

(٢) هذا الرأي ذكره بعض المفسرين كالبيضاوي وغيره كما سبق البيان خلال هذه الرسالة ولكنهم ذكروه احتمالا ... وذكره الشيخ المغربي استحسانا .. وأفردناه للمناقشة .

مناقشة هذا الرأى :

تأخذ على هذا الرأى ما يلى :

١) دورانه فى فلك تضييق نطاق الغيبيات ، وتأويلها لتخرج من وادى خوارق العادات إلى سنن الأمور المعتادة .

٢) الإعراض عن الحقيقة والإقبال على المجاز بغير داعية تدعو إليه أو باعثة تبعث عليه ، ذلك أن أصل الرجم هو الرمى[1] بالحجارة ، ثم أصبح يستعمل غالبا فى القتل بالحجارة ، فعدل عن هذا المعنى الظاهر إلى استعمال آخر دل السياق على أنه استعمال مجازى للكلمة ونعنى به قوله تعالى " رجما بالغيب " وهى واردة فى شأن المتكلمين فى عدد أصحاب الكهف بغير برهان آتاهم .

٣) ترك قاعدة " التكامل الموضوعى " فى فهم معانى القرآن الكريم إذ أن هذه الآية " وجعلناها رجوما للشياطين " ليست هى النص الوحيد فى هذا الموضوع ، بل هناك من نصوص القرآن ما يبين أن هذا الظاهر من الآية هو المراد ، وذلك كقوله تعالى على لسان الجن " وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا " ٨ ، ٩ ، الجن ، وكقوله تعالى " إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الاعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب " ٦ ـ ١٠ الصافات ، وتزداد أيها القارئ يقينا فوق يقين من أن هذا الظاهر مراد لا سواه ، إذا قرأت قوله تعالى : " ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين " ١٦ ـ ١٨ الحجر .

٤) ان قوله تعالى " وجعلناها رجوما[2] للشياطين " يتفق أيضا مع الوصف المتكرر فى القرآن الكريم للشيطان بأنه[3] رجيم كما فى قوله تعالى : " فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم " ٩٨ : النحل ، وقوله سبحانه : " وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم " ٣٦ : آل عمران .

---

(١) الرجم : الحجارة .. وانظر معجم المقاييس جـ٢ ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

(٢) الرجوم : جمع رجم ، والرجم : هو الشىء الذى يقذف أو يرجم به من الحجارة ونحوها .

(٣) الرجيم : فعيل بمعنى مفعول ، وهو المطرود من رحمة الله وانظر معجم ألفاظ القرآن الكريم المجلد الأول ص ٤٦٠ .

٥) الاخلال بسياق الآية ، فالله سبحانه وتعالى قال : " وأعتدنا لهم عذاب السعير " بعد قوله " وجعلناها رجوما للشياطين " فجمع بين العذاب الدنيوى وهو الرجم بالشهب والعذاب الأخروى بالسعير .

٦) العدول عن قصد القول ومستقيم المعانى إلى أضدادها إذ أنه لا يصح البتة أن نفهم أن الله سبحانه وتعالى يمتن على عباده بالتنجيم أو ينسب إلى نفسه أنه جعل النجوم وسيلة لخرافات وهمية قال فى شأنها الرسول صلى الله عليه وسلم " من أتى عرافا أو منجما فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد " .

النجم الثالث

التأويلات العلمية

من

أنبائها وأمثالها

النص القرآني
والتأويلات العلمية

.....

" قد يخطئ العين الحدود الفاصلة بين المتقابلات ، وقد تلتبس عليها المعالم الفارقة بين المتشابهات ..... فيكون من وراء ذلك التيه والشحناء ..... وفي حسباني أن استعار أوار الجدل حول :

" التأويلات العلمية لبعض آي القرآن الكريم " انما كان مرده الى الخلط الخابط بين (الاعجاز العلمي) الذي سمقت مئارته على دعامات اليقين ، و (التفسير العلمي) الذي يجلي من حكم الله للمؤمنين ، وبين هاتيك التأويلات التي تضرب في مجاهل الوهم ، أو تتعلق بظنيات مفترضات من العلم " .

+++++++

موقف أعداء الله من العلاقة بين الإسلام والعلم

العلاقة بين القرآن والعلم : قضية متجددة بدوام محاولات الفكر البشرى فهم القرآن وتدبر أسراره ، والوقوف على بواطن إعجازه ، والتتبع لمرام غاياته ، والباحثون فى هذه القضية عدة طرائق :

فطائفة تجحد القرآن وتناصبه العداء ، وهى بالتالى تريد فى خبث خبيث أن تتسنم موجة المد العلمى ، فى عصر فتن فيه الناس بمعجزات العلم وفتوحاته أيما فتون - لإظهار العلاقة بين القرآن والعلم بأنها علاقة تناقض دائم ، وتنافر موصول ، وتريد إفساد عقائد المسلمين ، وصرفهم عن دينهم باسم العلم ، وهم دائما يعزفون نغمة واحدة هى : التشكيك فى آيات القرآن باسم العلم ، وصد الناس عن أحكامه باسم " العلمانية " ويرددون بأن عصر الخرافات قد انتهى ، واستقبل الناس عهد المختبرات وغرف التشريح [1]

وهذه الطائفة وإن اختلفت نزعاتها إلا أنها تتحد على غاية واحدة وهى محاربة القرآن باسم العلم ، ولا تستطيع هذه الصحائف استقصاء نزعات هؤلاء المشككين ، ولا عد أسمائهم ، ولا حصر كتبهم ، وهم إما صليبى وقره الإسلام فى تثليثه ، أو صهيونى يحمل فى قلبه مواريث الحقد على الإسلام وأمجاده ، وشر الثلاثة أذناب الشيوعية الذين أشربوا فى قلوبهم عبادة الأوهام الماركسية ، وذلوا خانعين لطواغيتها : كارل ماركس ، وفردريك إنجلز ، ولينين .

وإذا كان العدل أن يؤخذ بناصية المجرم متلبسا بجريمته ، فهاهى نماذج من أقوالهم عن علاقة الإسلام بالعلم يقول صاحب كتاب الإسلام نشأته ومستقبله [1] عن العقائد التى

---

(١) ملخص بتصرف من هذه العبارة كاتب أزهرى متفرنج فى كتاب له ، ودار حول هذا المعنى فى كتب أخرى صورت منذ سنوات .

(٢) انظر ص ١١ من كتاب الإسلام : نشأته ومستقبله تأليف لوسيان أو ليتوفيتش كليموفيتش ، وقد عثر الدكتور إحسان حقى على ترجمة فرنسية لهذا الكتاب ، أثناء وجوده بإحدى البلدان الأوربية ، فترجم النص الفرنسى إلى العربية ، وعلق عليه ، وقدم له بمقدمة طويلة ، وجعل عنوانه " الإسلام أو الشيوعية " وقد طبع فى بيروت غير مرة ، وآخر طبعاته طبعة الدار السعودية للنشر . ونظرا لما فى الكتاب الروسى من فضح للمخطط الشيوعى تجاه العرب والمسلمين ، فقد أصدر السفير الروسى فى بيروت وقتها بيانا مؤداه أن الكتاب مزور على السوفييت ، وأن الروس يحترمون الإسلام وأهله ، وردا على هذا التكذيب فقد قامت " جمعية الدراسات الشيوعية " فى بيروت بتصوير غلاف الطبعة الروسية للكتاب ، ونشر صورة " فوتوغرافية " للطبعة العربية ، وقد نشرت صحيفة البعث البيروتية فى عددها رقم " ٤٢٠٠ " الصادر فى يوم الخميس الموافق للثامن من أكتوبر ١٩٧٠م نبأ قيام عدد من الطلاب المسلمين بالتظاهر ضد السفارة الروسية فى " جاكرتا " إثر وصول إحدى ترجمات كتاب سليموفيتش إلى البلاد ، وعقبت الصحيفة اللبنانية قائلة " سليموفتيش هذا كاتب سوفييتى من أشهر أعداء الإسلام ، ابتدأ الكتابة عام ١٩٢٨م حول القرآن الكريم ، وألقى محاضرة عام ١٩٣٠م عن محمد " صلى الله عليه وسلم " أنكر فيها وجوده : أى أنه شخصية خيالية .. وله كتابات أخرى حول أركان الإسلام كلها مأى بالحقد والجهل والمهاترة ، وهو يكتب بإملاء من هيئة " الدراسات الإسلامية " لمعهد ماركس ولينين ! ! "

تحاربها الشيوعية " ... ومن ضمن هذه البقايا : الخرافات الدينية المخالفة للعلم ، ويمثل الدين الإسلامي إحدى هذه البقايا المحافظ عليها من قبل جزء من سكان ... الجمهورية السوفيتية [1] ....."

هكذا وصف الكاتب الإسلام بعبارات تقطر من قلم فج ، وتعبر عن فكر غوغائي مريض ..... ولن نأخذ الان في محاسبته . ويقول في موضع آخر " وتدل الأفكار التي جاءت في القرآن على تأخر وضيق نطاق إدراك العرب لوضع العالم في ذلك الزمن ، وإلا لما استطاع الأنبياء [2] إثبات وجود الله بقولهم : إن الطيور تمسك في الجو كما جاء في القرآن : " ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون " ٧٩ :النحل [3]

القرآن من عند محمد (صلى الله عليه وسلم) : عبارة عريقة في الكفر ، ولكن جديد الكفر في عبارات الشيوعي هذا ، أن القرآن من عند أنبياء عدة .

وتبدو أصالة الكاتب في الجهل حينما يتخذ من آية سورة النحل السالفة واعية للاستهزاء بالإسلام ، ولو بحث الكاتب الطبيعة الجسمانية التي زود الله بها الطير ليطير ولماذا يطير؟ ولو تدبر سعي الطيور خماصا إلى أقواتها وعودتها بطانا ؟ ولو نظر إلى هجرة الطيور من بلد إلى آخر ، ومن قارة إلى قارة ! إلى عشرات من الأبحاث حول الطير انقضت أعمار علماء هذا الشأن لو بحث وبحث لعلم أي الفريقين أحق أن يدمغ بالجهالة والضلالة ؟

ويقول الكاتب الشيوعي [4] : " فآراء القرآن السنة عن الكون ، وكذلك عن نشوء وتطور الحياة في الأرض ، وعن أصل الإنسان وليدة التأخر والجهل ، وما هي إلا معقولات من الأساطير التي كتبت في التوراة ... وكتب في القرآن أن الله خلق جميع الحيوانات من الماء آية ٤٥ سورة : النور [5] .. وفي سبعة أماكن مختلفة يذكر القرآن كيف خلق الإنسان ؟ ويناقض القرآن نفسه في هذا الخصوص ، إذ يقول في المرة الاولى : إن الله خلق الإنسان من التراب ، وفي الثانية : من الطين ، وفي الثالثة : من خلاصة الطين ... " وهكذا مناقضات بعضها فوق بعض ، وظلمات متراكمة ... أما موعد حسابنا لهؤلاء المبطلين ونقض أباطيلهم فإنه آت في موضعه من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

---

(١) ص ١٩ من الكتاب المذكور .
(٢) كذا بالأصل فتامل .
(٣) أخطأ الكاتب في الآية ورقمها وقمنا بالتصويب .
(٤) ص ٤٢ من الكتيب المذكور .
(٥) اخطأ الكاتب رقم الاية صححناه .

وما دمنا نهين موقف الشيوعية من علاقة القرآن بالعلم فلننتقل إلى كوينب آخر في كتيب آخر(١) فنراه يقول عن محاولة صاحب التفسير العصري للقرآن في بيان علاقة القرآن الكريم بالعلوم الحديثة إنها " محاولة للتوفيق بين أنماط من التفكير ذات طبيعة متعارضة ومتناقضة ، وهي محاولة تكلف من يتصدى لها كثيرا من العناء : فهي دفاع عن قضية خاسرة بحكم التاريخ وحكم المنطق وحكم الواقع . ، لذلك لجأ مصطفى محمود — بوعي أو بدون وعي — إلى إخفاء التناقض الأساسي بين العلم والدين ، ذلك التناقض الذي يتضح من كونهما — أي العلم والدين — نمطين مختلفين من أنماط التفكير . . . فلكل منهما طريقته المستقلة في النظر إلى الظواهر . . فالطريقة العلمية . . . تبحث الواقع كما هو دون أية إضافات من خارجه ، وأما طريقة التفكير التي يتميز بها الفكر الديني بمختلف أنماطه ومراحله ، إنما تنظر إلى ظواهر الواقع الموضوعي على أنها نتيجة لظواهر أخرى ذات طبيعة مغايرة ، تعلو على التحقق التجريبي ، وتسمو على البرهان المنطقي المستمد من حقائق الواقع وإنما يسلم بها تسليما لأنها تتجاوز حدود إدراك العقل البشري . . . "(٢) ثم أخذ بعد ذلك يختلق أمثلة التناقض بين الدين والعلم ، وبين الدين والعقل ولا نطيل الوقوف . . فحسبك من شر سماعه ولننتقل إلى وعي ثالث ، وإلى وجه للإلحاد كالح ، يردد المزاعم عن التناقض بين الإسلام والعلم(٣) فقال : " كيف يكون موقف الإنسان الذي

---

(١) الكتيب هو نقد الفهم العصري للقرآن ، ولقد ظننت قبل مطالعته أنه ينقد . . ولكني منذ مطالعة صفحاته الأولى أدركت الحقيقة ، فأغلب الظن أن مؤلفه انتحل الإسم المطبوع على الكتيب ، ولم تكشف لنا دار الطليعة البيروتية التي قامت بنشره شيئا عن ماهية هذا المؤلف المجهول ، وإنما أسبغت عليه درجة " الدكتوراه " بغير إفصاح عن حقيقة التخصص هل هي دكتوراه " طبولية " ؟ أم دكتوراه في الدجل الإعلامي ! ! أم في الفلسفة الماركسية والمؤلف يحمل اسما إسلاميا ، وتكاد تكون معظم المطبوعات الصادرة عن هذه الدار ماركسية اللون ، إلحادية الغاية ، وكذلك كان هذا الكتيب صفحات سافرة في الإلحاد ، ومغالطات حاقدة تكشف عن جهل فاضح بحقائق الإسلام مع ما فيه من تهكم بالفضائل الأخلاقية والسلوك الإسلامي اسمع إلى مدحه للإلحاد في كتاب " الله والانسان " قال " كتاب الله والانسان يحمل سمات كاتبه لمانى ليبرالي يتطلع إلى تجاوز الفكر التقليدي بمكوناته القيمية ، ويتطلع إلى تحرير العقل العربي بتطعيمه ببعض المفاهيم الليبرالية والعلمانية " ص٥ ، ٦ من الكتاب المذكور .

(٢) ص٦ ، ٧ من كتاب نقد الفهم العصري للقرآن . لعاطف أحمد وهذا الكليمات لا تخدع عاقلا عن عقله ، ولا تفتن مؤمنا في دينه وإنما هو تصور العقلية الطينية التي يحول بينها وبين الحق أهواء مخبولة ، ونظرات أعمتها الحجب المادية الحسية الصفيقة .

(٣) انظر ص١٨ من كتاب نقد الفكر الديني لصادق جلال العظم وهو دمشقي يدرس بجامعة بيروت ، ويحمل إجازة في الفلسفة ، ولد لأبوين مسلمين ، وارتضع زقوم الماركسية يحسبه رحيقا ، وهو يفاخر بردته القهقرى عن سماوات الإسلام إلى حمأة الشيوعية وحضيضها .

تعرض للثقافة العلمية وتأثر بها تأثرا جذريا من المعتقدات الدينية التقليدية والمؤسسات التي تتجسد فيها ؟ (١)

وفي موضع ثان يقول (٢) : " وتتضخم في مثل هذا الجو المحموم مشكلتان : أولاهما : فكرية ثقافية عامة هي مشكلة النزاع بين العلم والدين ، أي : الإسلام بصورة رئيسة بالنسبة لنا ....

والثانية : مشكلة خاصة يعانيها كل من تأثرت ثقافته تأثرا جذريا بالثقافة العلمية ، التي بدأت تكتسح مجتمعه ومحيطه ، فيضطر لان يواجه من جديد سؤالا أساسيا : هل باستطاعتي أن أتقبل - بكل نزاهة وإخلاص - المعتقدات الدينية التي تقيطها آبائي وأجدادي دون أن أفقد مبدأ الأمانة الفكرية ؟ "

وفي موضع ثالث يقول (٣) " لاشك أن القارئ يعرف التعليل الاسلامي التقليدي لطبيعة الكون ونشأته ومصيره : خلق الله هذا الكون في فترة معينة من الزمن بقوله : كن فيكون ...."

ويصل إلى أحط دركات الإلحاد حين يقول (٤) : " فهل من عجب إذاً أن نسمع " نيتشه " يعلن في القرن الماضي أن الله قد مات ! ! وهل باستطاعتنا أن ننكر أن الإله الذي مات في أوربا (٥) بدأ يحتضر في كل مكان تحت وقع تأثير المعرفة العلمية ، والتقدم الصناعي ، والمناهج العقلية في تقصي المعرفة ، والاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد (٦)

---

(١) أجابته على تساؤله هذا الدكتوره عائشة عبدالرحمن في كتابها : " الشخصية الإسلامية : دراسة قرآنية " ص١٤ فقالت : " ويخالجني الفهم والعطف ، أسأل معه من رؤيتي للواقع التاريخي الذي شهد أمتنا ، وهي تحقق وجودها الحر مرتبطا بفكرها الديني ، وحملت لواء الإسلام منار الحضارة رائدة قائدة : هل الخطأ في أصل الفكر الديني ، أم في سوء فهمه والجهل به ، والانحراف عنه ؟ " أ هـ
ونحن نقول للكاتبة المسلمة (أمثل هذا الصابئ الذي تفاحص في عشرات الصفحات على الله جل جلاله وعلى دينه ورسوله يكون خطاب العطف والتساؤل معه ! ! ولا تتساقط كسف السماء على الحاده وزندقته ! !
(٢) الكتاب المذكور ص٢١
(٣) ص٢٥
(٤) ص٢٨ من الكتاب المذكور .
(٥) الذي عرفته أوربا من الدين هو الاقانيم الثلاثة ، والصلب ، والخطيئة الازلية ، وأسرار الكنيسة السبعة وصكوك الغفرات ، واخترعت لهم أوهامهم المسا يأكل ويشرب ويقتل ويصلب وتعالى الله علوا كبيرا .
(٦) كلمات موظفة في الكفر ، مقذعة في الفحش فحذفناها .

نحن لانقصد أن العقائد الدينية قد تلاشت من ضمير الشعوب، وإنما نعنى أن النظرة العلمية[1] التى وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان خالية من ذكر الله تماما كما قال " لابلاس " ... " الخ .

هذا بعض ماتقيأه فيلسوف الالحاد !! كلمات يلوكها فى فمه عن العلم ... والرجل لايعرف العلم إلا معرفة الأكمة بالألوان ... إنه مدرس فشل فى اجترار الفلسفة، فهو بين العلماء كعصفالنبات .. وفى مهنته صفر أو يكاد ... والدين لم يعرفه إلا وراثة عن الآباء لم يذكر آية كريمة تعارض بديهة علمية — ولو فعلها جدلا — لامتلك دليلا أو شبهة دليل .

كل مايريده منا أن نصدق " نيتشه " ألا لانكذب " لابلاس " وأن نكفر برب العالمين ليرضى عنا سادة هذا الذنب فى " موسكو " و " بكين " .

هذه شذرات من افتراءات الشيوعية على الإسلام آثرنا أن ننقل بعضها عن أقلام المرتدين، وهى تظن أن علاقة القرآن بالعلم هى الشرارة التى منها تكون الإثارة والغزو .

موقف التبشير والإستشراق من هذه القضية :

إن الأحقاد التى حملتها الصليبية قديما وحديثا تجاه الإسلام، جعلتها دائما وأبدا تحاول النيل من الإسلام وتسلك كل سبيل للقضاء عليه [2] .. ولقد سلك الإستعمار الصليبى سبيل الحرب والمؤامرة، كما سلك عملاؤه وأذنابه سبيل بث السدسائس، وزرع الفتن بين المسلمين

أما أبواقه ودعاته فقد شنوا — ولايزالون — حربا فكرية تستهدف صرف المسلمين عن دينهم إلى المسيحية أو حتى إلى الإلحاد !! لأن القضاء على هذا الدين غاية الغايات، وارتداد أتباعه عنه أطيب المنى، ولقد أنشئت المعاهد والإرساليات والجامعات بتخطيط استعمارى بعيد النظر طويل النفس، وتقلب على بغضا للإسلام، وكانت الغاية من هذه المؤسسات العلمية هى تنشئة أبناء المسلمين على طعام الإستعمار وموائد الصليبية حتى يشبوا وقد أصبح الإسلام زادا لم يعرفوا له طعما، وغذاء لم يروا له شكلا .

---

(١) بل هى النظرة الجاهلية التى جعلت المال إلها، والبغى الغشوم حكما فيصلا، واللذة العاجلة غاية، وجعلت القيم والذمم سلعا تباع وتشترى .

(٢) تستطيع أن تقرأ فى هذه الناحية كتاب " الإستعمار أحقاد وأطماع " للشيخ محمد الغزالى، وقد جلا فيه بصيرة الكاتب المسلم أحقاد الإستعمار الصليبى أنظر فصل " كيف يفتكون بنا " ص٢٧ وما بعدها، وفصل " تمهيد وتنصير " ص٦٩ وما بعدها وفصل (سماحة وجحود) ص١٧١ وما بعدها الطبقة الثانية السعودية للنشر جدة ونسجل استنكارنا لاستعطاف النصرانى لموظفى " الجمارك " اليهود والنصارى الوارد بص١٧٤ ، ١٧٥

واستهدفت الحملة الفكرية على الإسلام إلى زعزعة عقائد المسلمين في الإسلام بشتى السبل ومنها ادعاء مناقضة القرآن للعلم ، وكانت كتابات كثير من المبشرين وصبيانهم تعوض بهذا وتصرح به وفق الأوضاع والظروف" (١)

وكانوا يصورون الإسلام على أنه " الغيبيات " (٢) والخرافات وكانت "العلمنة" أو "العلمانية" هي الراية التي رفعت وما زالت ترفع لحرب الإسلام " (٣)

وهذا هو المناخ السائد في العلاقات بين الإسلام والمسيحية ، وإذا استثنينا بعض الكلمات المجاملة التي تناسب المقام الذي تقال فيه " (٤) أو التي تعترف بالحقيقة ، ثم لا يكون سلوكها موافقا لقولها (٥) ، وإن كنا لا نجحد جهود بعض الباحثين المنصفين مثل

---

(١) كان القس زويمر يحاول هذا ، وحذا حذوه القس لامانس في سيل من الإتهامات الجاهلة والبذيئة ، وكان سلامه موسى ينحو هذا المنحى في خبث خبيث ويتخذ من " داروين " إلها ، لاعتقاده إنه هو الطاغوت الذي يهدم به عقيدة الإسلام انظر له كتابه " هؤلاء علمونى " وهو تمجيد لأساتذته " داروين " و" فرويد " وغيرهم ، وكتابه "البلاغة العصرية" وهو حقد أعمى على لغة القرآن ، وكتابه " عقلى وعقلك " وقد نفث من خلاله سمومه ، وانظر أحقاد " لويس عوض في "على هامش الغفران " وبجلاء الحق أقرأ " أدلة اليقين : في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين " للشيخ عبد الرحمن الجزيري ، وكتاب: " إظهار الحق " لرحمة الله الهندي ، و" محاضرات في النصرانية " للشيخ أبي زهرة ، " الله واحد : أم ثالوث " لمحمد مجدي مرجان وهو كاتب من الله عليه بالتوحيد بعد التثليث .. وانظر كذلك " أباطيل وأسمار "للأستاذ محمود شاكر .

(٢) تتردد كلمة "الغيبيات" على ألسنة وأقلام الملاحدة من كتابنا ومفكرينا خلال مقالاتهم وكتبهم وقصصهم وكأنها " المجذام " الذي على الناس أن يحذروه ، وتجد هذا على سبيل المثال لا الحصر عند القصاص" نجيب محفوظ" ومدرس الفلسفة "فؤاد زكريا " وكلاهما ولد لأبوين مسلمين، وكذا للغوى بعض كتابات لويس عوض وسلامة موسى .

(٣) انظر في دحض هذه الضلالة " حقائق الإسلام وأباطيل خصومه " للعقاد ، " دفاع عن العقيدة والشريعة " للشيخ الغزالي و" سقوط العلمانية " بقلم أنور الجندي اقرأ فيه "منهج الإسلام في المعرفة " ص١٥٣ وما بعدها ط : الكتاب اللبناني . بيروت .

(٤) وإلا فهل كان الرئيس الأمريكي أيزنهاور صادق النية حينما قال : " إن الشرق الأوسط مهد ثلاث ديانات كبرى هي الإسلام والمسيحية واليهودية ، فمكة والقدس أكبر من مجرد مكانين على الخريطة ، لأنهما يمثلان ديانات تعلم أن الروح فوق المادة ، وأن للفرد كرامته وحقوقه التي ليس لأي حكومة مستبدة أن تحرمه منها . وإنه لمن الأمور التي لا تحتمل أن تقع الأماكن المقدسة تحت حكم يمجد الوثنية المادية " ونسأل أيزنهاور وهل الصهيونية التي تحميها أمريكا الا صورة من هذه الوثنيات المادية .

(٥) فقد أصدر المجمع الفاتيكاني الثاني الذي انعقد في ٢٨ من أكتوبر " تشرين الاول " ١٩٦٥ ، تصريحا عن علاقة الكنيسة بالأديان الأخرى ، ومما ورد فيه بشأن الإسلام : " وتنظر الكنيسة أيضا بعين الإعتبار إلى المسلمين ، الذين يعبدون الله الأحد ، الحي القيوم ، الرحمن القدير ، فاطر السماء والأرض ، والذين يجتهدون في أن يخضعوا من صميم الفؤاد لأحكام الله ، حتى ولو كانت خفية ، كما خضع له إبراهيم الذي يشير إليه الأيمان الإسلامي بطيب خاطر ، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمسيح كإله إلا أنهم يجلونه كنبي ويكرمون والدته العذراء مريم بل وأحيانا يبتهلوا إليها بتقوى (كل ابتهال لغير الله في الإسلام شرك صريح : المؤلف) ، وعلاوة على ذلك فإنهم يترقبون يوم الدينونة حيث يجازى الله جميع الناس .. وهذا ما يجعلهم يقدرون

الكاتب المسيحي نصري سلهب[1] الذي انحاز لسطوع الحق حين قال : " لا أخفي عليكم أن كثيرين من المسيحيين يجهلون مدى وأهمية اسهام الإسلام ، كدين ودولة ، في الحضارة ، وهم يظنون ، وقد قدر لي أن أدرك ذلك من خلال مناقشات كثيرة ، إن الإسلام كان ، عبر التاريخ ، غائبا عن ساح الفكر والعلم ... وأن الغرب مدين لنفسه ... ثم بين الكاتب خطأ هذا الفهم فقال : إن الغرب مدين لهذا الشرق ، وإن المسيحية مدينة للإسلام بأشياء كثيرة مهمة " .

وكان الكاتب أكثر صراحة مع قومه حين قال " لقد مررنا نحن المسيحيين - بصورة خاصة - بمراحل من الحياة جعلتنا نشرب السم رويدا رويدا ، وبجرعات قليلة ، نشأنا وترعرعنا وهنا نشأ السم وترعرع ، فإذا بنا ننظر إلى الاسلام والمسلمين نظرة تفتقر إلى الكثير من المحبة والتقدير ، حتى يخيل إلى الكثيرين منا أن السماء لنا دون سوانا "[2] ثم بين دور الغرب في صنع هذه الطائفية .

أما دور الصهيونية فطويل طويل ، وليس آخره المحاولة الخاسئة لتحريف النص القرآني ، لكيلا يمضي بعض الحديث على بعض فإن وفاء هذه الفصلة من القول في غير هذا الموضع

.....

بعد هذه التوطئة بين يدي الموضوع ، نريد أن نزود ظنونا عن بعض الأذهان وهاك تفصيلها :-

١- إن العلاقة بين القرآن والعلم ليست نفرة ينفذ منها المتسللون ، بل هي عند جلاء الحقيقة حصن يستعصي على كل المبطلين والمرجفين .

٢- إننا لا نريد كرد فعل للهجوم الظالم على الإسلام أن نصطنع علاقة موهومة بين القرآن والعلم .

٣- إننا نرفض بكل ما في طاقتنا من رفض ، كل ابتداع في دين الله ، كما نكره شطط التأويلات كراهتنا لأن نقذف في النار .

٤- إننا نكره الجمود الضرير الذي لا يفهم الإسلام فهما كليا ، ولا يسترشد بروح القرآن مع دلالات ألفاظه .

(=) ثم دعا المجمع إلى إحلال التفاهم المتبادل محل العداءات القديمة فهل حدث هذا ؟ ص٤٣ وانظر كتاب "لقاء المسيحية والإسلام " لنصري سلهب ط : الكتاب اللبناني بيروت . وفي الكتاب دعوة لنبذ التعصب تستحق التقدير ، والتصريح الفاتيكاني نقلناه من ص٤٣ من الكتاب المذكور .

(١) لقاء المسيحية والإسلام ص٤٤ وقد وردت كذلك أقوال منصفة في كتاب حضارة العرب بقلم ريسلر طبع في باريس ١٩٥٥ ، تاريخ وحضارة الشعوب السامية لموسكاتي باريس ١٩٥٥ تاريخ الحضارة بقلم ول ديورانت باريس ١٩٥٠ ونقل عنها سلهب ، والكتابات في إنصاف الإسلام كثيرة ومن الغربيين من درس الإسلام فاقتنع به كما فعل محمد أسد النمساوي ومحمد الكريم جرمانوس المجري ، ومحمد مرماديول الإنجليزي وغير هؤلاء كثيرون .

(٢) نفسه ص١٩

أشرنا فيما سبق إلى موقف خصوم القرآن من هذه القضية ، فأشرنا إلى مواقف الإلحاد الشيوعي ، الحقد الصليبي ، والخبث الصهيوني ، وإذا كان هذا هو موقف أعداء القرآن فما هو موقف أوليائه ؟

موقف المؤمنين بالقرآن من هذه القضية :

المؤمنون بالقرآن إزاء هذه القضية : فريقان :ـ

١) فريق يرى أن ربط تفسير بعض آى القرآن الكريم بالنظريات العلمية الحديثة خطر يتهدد قداسة القرآن ، وأنه ضرب من شطط الفهم وتعسف التأويلات .

٢) والفريق الآخر يعقد أوثق العلائق بين بعض آيات القرآن وبين الحقائق العلمية ، والنظريات العلمية . ويرى أن هذا النوع من التفسير يكشف عن وجه من وجوه الاعجاز القرآني ، وهو الاعجاز العلمي ـ والقرآن لا تنقضي عجائبه ، وهذا الفريق في تفسيراته العلمية منه قاصد إلى الخير مقتصد ، ومنه فاسد الرأى مستبعد .

والموضوع ليس كما تبادر إلى كثير من الأذهان من المحدثات التي داخلت أفكار المسلمين بل هو مطروح للبحث والنظر ، منذ أن حاول المسلمون فهم القرآن الكريم وتدبر أسراره ، مصاحب لعلم التفسير في نشأته ، مواكب له في خطواته ، كما سنبين إن شاء الله تعالى .

أصول القضية

الكون بسماواته وأرضه : كتاب الله المشاهد ، والشمس والقمر والنجوم ، والبحار والثمار ، والأشجار ، والدواب والأطيار كلها وغيرها صفحات في هذا الكون المشهود ... والإنسان الذي كرمه الله وسخر له كثيرا من خلقه ، وجد نفسه حين خلق أمام هذا الكتاب الكوني ، فأخذ يقرأ صفحاته متدبرا ومتعجلا ، فوعى بعضها ، وعجز عن بعض ، وفهم دقائق صفحات ، وبدت الأخرى أمامه من المعميات ... فظل يعيد قراءة الصفحات التي لم تفض إليه بسرائرها ، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، يحاول الإنسان أن يعي كل شيء وما هو بواع ، وأن يبلغ علم كل ما وقع عليه نظره ، وما هو ببالغ من ذلك إلا ما يسره الله له ، وأقدره عليه .

والقرآن الكريم كتاب الله المتلو حدث الناس عن آيات رب العالمين في هذا الكون ، واسترعى أنظارهم وأفكارهم ، فيسر الله لهم أن يفهموا من أسرار هذا الكتاب ، بقدر إخلاصهم وصدق عزائمهم ، وصفاء أذهانهم ، ورقة أحاسيسهم .

فالصلة بين الكتاب المشهود في صحائف الكون ، والكتاب المنزل المستودع في الصدور والسطور : صلة وثيقة موثقة ومن هنا كانت محاولة الربط بين الكتابين ، ومادام هنا على هذه الأرض مؤمنون يتدبرون ، ومن هنا بدأ المؤمنون يسألون ....

أسئلة الى سيد المرسلين عن بعض المسائل الفلكية :

كانت حياة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بين المؤمنين نعمة لا تقدر ، امتن الله بها على عباده : " واعلموا أن فيكم رسول الله ... " ٧ / الحجرات ، وكان بقاؤه بين ظهرانيهم درءا للعذاب عنهم " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم .. " ٣٣ : الأنفال ، وكانت رسالته رحمة لهم : " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " ١٠٧ : الأنبياء ، وكما قال عن نفسه "إنما أنا رحمة مهداة " .

من هنا سأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في كل ما ينجيهم من عذاب الله يوم القيامة ، وفيما يصلح لهم معاشهم ودنياهم .

سألوه في الدين إلى ما احتاجوا إلى بيانه وتفصيله ، ونزل القرآن الكريم مبينا ، وجاءت السنة المطهرة مفصلة وسألوه في أمور دنياهم ، وفي تفسير بعض ظواهر الكون من حولهم ، أوليس يحدث عن الله الذي أحاط بكل شيء علما : " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " ٥٩ : الأنفال ، استرعت الأهلة أنظارهم ، فالهلال يبدو دقيقا كالخيط الأبيض في كبد السماء ، ثم يتدرج في منازله حتى يصير بدرا ، ثم يتابع تدرجه القهقرى حتى يعود محاقا ، ظواهر لابد وأن وراءها سرا ، وكيف للقوم أن يحيطوا به ، ولم يقفوا على دقائق " الجغرافيا الفلكية " ولم يملكوا " المراصد الإليكترونية " ، ليس هناك من يخبرهم بأسرار دورة القمر إلا الذي يوفى إليه ، وفي هذا ورد قول الحق جل ذكره " يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج .. " ١٨٩ : البقرة .

قال العوفي عن ابن عباس : " سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأهلة ؟ فنزلت الآية [1] وعن قتادة : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : لم جعلت الأهلة ؟ فنزلت الآية [2] ، وهناك روايات أخر تربية المعنى مما ذكرنا وكانت إجابة القرآن طبقا لأهداف القرآن وغاياته في هداية الناس إلى عبادة الواحد الأحد ، فذكر لهم من الأهلة ما يتعلق به مصلحة دنيوية " قل هي مواقيت للناس .. " وذكر لهم منفعة دينية وهي أنها مواقيت " للحج " .

* والحيض حالة مرضية تعتري المرأة منذ " البلوغ " حتى ما يسمى " بسن اليأس " وهذه الحالة للطب فيها بحث ومقال ، ولشريعة الله فيها حكم ، فكان السؤال إلى رسول الله صلوات الله عليه عن حالة المحيض هذه : " ويسألونك عن المحيض قل هو

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٢٥ ط : الحلبي .
(٢) انظر أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي جـ١ ص ٩٨ لتقرأ الأوجه في تفسير الآية كاملة .

أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " ٢٢٢ : البقرة .

فقوله جل جلاله : " .. قل هو أذى .. " أفاد حكما طبيا ، كان هو العلة للنهى عن قربانهن " فاعتزلوا النساء فى المحيض " أى حالة الحيض " ولا تقربوهن " ولا تجامعوهن حتى يطهرن ... وكان من الممكن أن تخلو الآية الكريمة من هذا التعليل "قل هو أذى " ولمعرفة معنى الأذى فى لغة القرآن الكريم تستطيع أن تتتبع أستعمالاتها فى المواضع التى ذكرت فيها فى القرآن الكريم ، ولقد فعلنا فوجدناها تدل على الأذى البدنى ، كما فى قوله سبحانه " فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه .. " ١٩٦ : البقرة ، وتدل على الإيذاء النفسى ، كما فى قوله جل جلاله " ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن .. " ٦١ : التوبة ، " يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى .. " ٢٦٤ : البقرة ، والمحيض أذى بدنى وأذى نفسى ، وأما تفصيل القول فى ذلك ففى غير هذا الموضع . وإنما الذى نريده أن نستدل له هو أن السؤال عن الظواهر الكونية والمسائل الطبية بدأ منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صحيح أن القرآن الكريم لم يفصل القول فى ظاهرة الأهلة ، لأن القرآن ليس كتابا فى الفلك ، ولكن القرآن الكريم إستلفت الأنظار إلى آيات الله فى القمر ، كما فى قوله سبحانه : " والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم " ٣٩ : يس ، " تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا " ٦١ : الفرقان ، " والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها " ١ ، ٢ : الشمس ، وكما فى غير هذه الآيات ... فلماذا استلفت القرآن الأنظار إلى هذه الظواهر ؟

" أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ... " كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الله سبحانه يقول " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " ٤٣/ العنكبوت ، فإنه كذلك لا يعقل آيات الله الكونية إلا العالمون .

<u>أسئلة إلى الصحابة عن بعض المسائل الكونية :</u>

وكما تحدثت آيات كريمة عن بعض آيات الله فى الكون ، تحدثت آيات أخرى عن تاريخ الكون كقوله تعالى " أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون " ٣٠ : الأنبياء ، أثار ما تضمنته الآية الكريمة من حقائق علمية تاطمة العقول أن تسأل عن تفاصيل هذه الحقائق على عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا رجل جاء إلى ابن عمر يسأله عن هذه الآية الكريمة ، فأمره أن يذهب إلى ابن عباس ، فذهب إلى ابن عباس فسأله .. ؟

١) فقال ابن عباس[1] : " نعم كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، فلما خلق الله للأرض أهلا فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات " فلما بلغت مقالة ابن عباس ابن عمر قال : " قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن قد علمت أنه أوتي علما " .

هذا ما نقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن دينار ، فهل اكتفى ابن كثير بهذا النقل ووقف عنده لا يتعداه ؟ وهل أصبح رأي ابن عباس في المسألة هو القول الفصل الذي لا يصار إلى غيره .

٢) لو كان الأمر كذلك لما نقل ابن كثير غيره من الآراء ، لكنه قد فعل ، ونقل[2] عن إسماعيل بن أبي خالد سألت أبا صالح الحنفي عن قوله سبحانه : " .. إن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما " قال : كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين وكذا قال مجاهد ... " .

وتأمل هذا الإسم " مجاهد " إنه مجاهد ابن جبر خير تلاميذ الحبر الجليل ابن عباس ، ومن مفسري التابعين ومع ذلك فإن رأيه في الآية الكريمة ، مخالف لما ارتآه شيخه ، مع أننا لا نستطيع أن نقطع بنسبة هذا الرأي إلى ابن عباس ، وهو إن صح فموقوف عليه .

٣) أ ـ ويذهب سعيد بن جبير في الآية إلى : " كانت السموات والأرض ملتصقتين ، فلما رفع السماء ، وأبرز منها الأرض ، كان ذلك فتقهما الذي ذكر في كتابه " .

ب ـ وقال الحسن وقتادة : " كانتا جميعا ففصل بينهما بهذا الهواء " .

أفلا تتسع أوجه القول في هذه الآية ، لقول آخر ؟ أظن ذلك .. وهذا الرأي الآخر الذي قال به المحدثون من العلماء هو[3] " إن الأرض والسماء كانتا شيئا واحدا متصلا ثم انفصل ذلك الشيء إلى أجرام ، وهذه حقيقة فلكية مهما اختلف الرأي في طريقة الإنفصال ... والله تعالى يقيم الحجة على الكافرين بمثل هذه الحقيقة " .. والرتق والفتق سابق إلتحام ثم انفصال تنجم عنه أجرام السماء من العدم " أهـ .

ويقول الدكتور أحمد زكي[4] : " وأول شيء يهمنا ، فيما نهدف من إيضاح وحدة الكون ، ما بين الأرض والقمر من تشابه في التركيب ، أن القمر اقتطع من الأرض . وعلى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٥٦٠ ط: الفكر بيروت .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) انظر كتاب " الله والكون " للدكتور الفندي ص ٢٩٨ وقد قال بهذا الرأي في تفسير الآية الكريمة
(٤) انظر كتاب " مع الله في السماء " للدكتور أحمد زكي المدير الأسبق لجامعة القاهرة ص ١٤٨ ط: كتاب الهلال العدد ٦٢ .

هذا الفرض وجب أن يكون تركيبه كتركيب الأرض .

ويقول العلماء : إنها انقطعت من سطح الأرض ، والأرض على وشك انجماد ، ولا تزال في سطح الأرض حفرة هائلة تشهد على هذا الإنقطاع . فذلك هو الحوض ، الذي فيه الماء الغمر الذي يعرف بالمحيط الهادي .

وانجمد القمر من بعد ذلك ، فوجب أن يشبه الأرض من بعد انجمادها وننظر إلى القمر بالمناظر الحديثة ، ونأخذ بهاله صورا ، وننتهي بأن نقول : ما أشبه الوليد بأمه . وهو إن اختلفتا فللأسباب نعلمها كان هذا الإختلاف ... ثم يقول الدكتور زكي : " ولو أنك على سطح القمر ، ونظرت إلى الأرض لوجدتها قمرا في كبد السماء . وهي تدور في السماء بمثل الأوجه التي يدور بها القمر في السماء ، فتكون هلالا ، فتربعا ، فهلالا ، وهي تتراءى ، وهي بدر ، أكبر من بدر القمر في سمائنا مرات أربعا . ولها مثل ضيائه ستين مثلاً ، أنها مرآة عظيمة عاكسة ، يزيد من حسن عكسها أن جوا يلفها . فالأجواء تحسن عكسا للضياء .. "

موقف بعض المفسرين القدامى من الآيات الكونية :

نظر المفسرون إلى هذه الآيات الكريمة ، ففسروها بما ورد في السنة المطهرة ، وما ورد في تفسيرها قليل ، والصحيح منه - إسنادا - أقله ، ونظروا فيها ففسروها بالروايات فشهنا وسمينها .

ولا نريد أن نضرب مثلا ببعض الروايات الواهية التي ذكرها شيخ المفسرين الطبري في تفسيره الإمام ، ذكرها مفندا لها أو ساكتا عنها ، ولا نريد أن نضرب مثلا بما عند مفسر كالخازن من غرائب ، وإنما فلنضرب المثل بمفسر فقيه كالقرطبي :

القرطبي في تفسير آية كونية :

" هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم " ٢٩ : البقرة ، يقول القرطبي (٣) في هذه الآية " إن الله لم يخلق شيئا قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا ، فارتفع فوق الماء ، فسما عليه ، فسماه سماء ، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين ... فجعل الأرض على حوت - والحوت هو النون الذي

---

(١) ذكر الدكتور زكي لفظ " انجمد " كفعل مطاوع بمعنى تجمد ، وأظنني أن هذا الإستعمال غير صحيح .

(٢) انظر " مع الله في السماء " ص ١٥١ .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٢٥٦ بتصرف إيجاز .

ذكر فى قوله سبحانه : " ن والقلم ... " ١ : سورة القلم ـ والحوت فى الماء ، والماء على صفاة [١] ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على الصخرة ، والصخرة فى الريح ـ وهى الصخرة التى ذكر لقمان : ليست فى السماء ولا فى الأرض ـ فتحرك الحوت فاضطرب ، فتزلزلت الأرض ، فأرسل عليها الجبال فقرت ، فالجبال تفخر على الأرض ... " .

هذا مجمل رواية السدى عن ابن مالك التى رواها القرطبى مستشهدا بها ، جاعلا منها دليلا بقوله فى أولها ومما يدل ، دون تعرض لما قاله الرجال فى عدالة السدى وعلمه .

ثم يخرج ثانية عن وكيع عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس ؛ ؛ تقارب الرواية الأولى وتختلف عنها فى التفاصيل . ثم رواية ثالثة عن كعب الأحبار [٢] " أن إبليس تغلغل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها ، فألقى فى قلبه ، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا " لوثيا " [٣] من الأمم ، والشجر ، والدواب ، والناس ، والجبال ؟ لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع . قال : فهم " لوثيا " بفعل ذلك ، فبعث الله دابة فدخلت فى منخره ، فصح الى الله منها فخرجت . قال كعب : والذى نفسى بيده ، انه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن هم بشىء من ذلك عادت حيث كانت " .

ومن العجب العجاب أن القرطبى الذى روى هذا اللغو الفارغ كأنما العلم المصفى هو الذى قال فى مقدمة تفسيره [٤] عن منهجه المرتضى " .. وشرطى فى هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها ... وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ..... " فهل التزم القرطبى هذه القاعدة التى أشترطها لتفسيره ، وأفترضها على نفسه حين روى هذه الروايات وأمثالها .

دلالة هذه الروايات :

هذه الروايات وعشرات أمثالها تجدها مبثوثة فى أكثر كتب التفسير [٥] ، عند التعرض للآيات الكونية فى القرآن الكريم ، وهى تدلنا على أنه فى غياب التفسير العلمى الصحيح أو المحتمل للظواهر الكونية التى أشار إليها القرآن الكريم ، كان البديل هو الخرافة والأساطير ، وهذا الموقف مضافا إلى ما سبق عرضه من مواقف الآخرين من " علاقة القرآن بالعلوم الحديثة " يبين حاجتنا الماسة إلى قصد السبيل الأمثل فى هذه المسألة ومن الله العون والتسديد .

---

(١) الصفاة : حجارة ملساء .
(٢) انظر تفسير القرطبى حـ ١ ص ٢٥٧ . (٣) اسم الحوت المزعوم .
(٤) نفسه حـ ١ ص ٣ .
(٥) سنشير بعون الله سبحانه ـ الى بعض هذه الروايات عند التعرض فى هذا البحث للآيات القرآنية التى تحدثنا عن آيات الله الكونية وانظر بعض المآخذ على تفسير القرطبى مثلا فى صفحة د ، هـ من تفسيره ، وهى المآخذ التى عدها أحد مصححيه .

دقائق القرآن العلمية

بين المحكم والمتشابه

تثور أسئلة كثيرة حول مسائل العلوم الواردة في القرآن الكريم ، ويختلف الباحثون في شأنها اختلافا كثيرا ، ومن بين هذه الأسئلة وأهمها : هل الآيات العلمية في القرآن من المحكم أو من المتشابه ؟ وما موقف الذين نزل عليهم القرآن من هذه المسائل ؟

لقد قرأنا فصلة نقلها الشيخ القاسمي عن أحد العلماء في تفسيره[1] يقتضينا واجب البحث إثباتها ثم التعقيب عليها : " ... ومن عجيب أمر هذا القرآن أن يذكر أمثال هذه الدقائق العلمية ، التي كانت جميع الأمم تجهلها ، بطريقة لا تقف عثرة في سبيل إيمان أحد به ، في أي زمن كان ، مهما كانت معلوماته . فالناس قديما فهموا أمثال هذه الآية بما يوافق علومهم ، حتى إذا كشف العلم الصحيح عن حقائق الأشياء ، علمنا أنهم كانوا واهمين ، وفهمنا معناها الصحيح . فكأن هذه الآيات جعلت في القرآن معجزات للمتأخرين ، تظهر لهم كلما تقدمت علومهم .. ! وأما المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم ، فمعجزته لهم : إتيانه بأخبار الأولين ، والشرائع التي أتى بها ، وبالمغيبات التي تحققت في زمنه ... وغير ذلك ، مع علمهم بصدقه وجلالته ، وبعده عن العلم[2] والتعلم بالمشاهدة والعيان ، فآيات القرآن — بالنسبة لهم — بعضها معناه صريح لا يقبل التأويل ، وفيها بيان لكل شيء مما يحتاجون إليه ، والبعض الآخر يقبل التأويل ، وتتشابه عليهم معانيه لنقص علومهم ، وهذا القسم لا يهمهم كثيرا ، فإنه خاص بعلوم لم يكونوا وصلوا إليها ، وهو معجزات للمتأخرين يشاهدونها ، وتتجلى لهم كلما تقدموا في العلم الصحيح . قال تعالى : " هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات " ٧ : آل عمران فأي لها معان كثيرة يشبه بعضها بعضا ، وتتشابه عليهم في ذلك الزمن ، فلا يمكنهم الجزم بالصحيح منها ، " فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة " بتشكيك الناس في دينهم بسببه " وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله " في زمنهم لنقص علمهم " وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " ٨٥ : الإسراء .. " والراسخون في العلم يقولون .. " ، فإذا جعل قوله تعالى " والراسخون " معطوفا على لفظ الجلالة كان المعنى : أن تأويله لا يعلمه أحد في جميع الأزمنة إلا الله ، والراسخون في العلم يعلمونه ، وإذا كان لفظ " والراسخون " مستأنفا كان المعنى : أن الراسخين في العلم

---

(١) انظر محاسن التأويل للشيخ محمد جمال الدين القاسمي حـ ١ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ولم يصرح الشيخ باسم العالم الذي نقل عنه وإن أشار إلى أنه نقل عنه مجروفه وكان التصريح باسمه أتوم فيلا .

(٢) الرسول صلى الله عليه وسلم بعد تنزل الوحي عليه كان أعلم الخلق جميعا وإن لم يكن قارئا ولا كاتبا ، فعلى هذا تحمل العبارة .

فى زمنهم لا يعلمون تأويله ـ كما قلنا ـ وإنما يؤمنون به لظهور الدلائل الأخرى لهم على صدق النبى ، ويفوضون علم هذه الأشياء إلى المستقبل من الزمان ، كما نفوض الآن نحن ، مسألة رجم الشياطين بالشهب ، للمستقبل ونؤمن بالقرآن لثبوت صدقه بالدلائل القطعية الأخرى " أ هـ .

ونزيد القول تفصيلا وإيضاحا ، إن هذا القرآن لا تنقضى عجائبه ، ولا تنتهى وجوه إعجازه ، وقد جعل الله القرآن معجزة رسوله الخالدة الباقية ، وإذا كان سبحانه قد آتى كل نبى من الأنبياء من المعجزات ما يناسب حال قومه ، كما قال صلوات الله وسلامه عليه " ما من نبى من الأنبياء إلا أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا يوحى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " فإن إعجاز القرآن متجدد ، يظهر منه فى كل عصر وجه لم يكن قد بدا من قبل لأنه " لا يخلق على كثرة الرد " ، فالمعاصرون للنبى صلى الله عليه وسلم ، قد بدا لهم من وجوه إعجازه ما دفعهم أن يخروا لجلال الله ساجدين ، وكل من تدبر القرآن على اختلاف الأعصار وتباين الأمصار لا يملك إلا الإجلال والسجود .

هل كانت هذه الآيات معطلة المعانى ؟

وربما عَنَّ لبعض السائلين أن يسألوا : هل كانت هذه الآيات قبل عصر الكشوف العلمية معطلة المعانى ؟ والجواب : كلا : إن القرآن كله قطعى الثبوت ، فى ذلك شك ، وإن كانت دلالات آياته ليست كلها قطعية ، بل بعضها قطعى وبعضها ظنى . فهذه الآيات الكونية فى القرآن منها ما هو ظنى الدلالة ، أى أن الآية الكريمة تحتمل أكثر من معنى " والقرآن حمال أوجه " كما قال على رضى الله عنه .

ولا ضير على عقيدة أو عبادة ، أن تحتمل بعض الآيات أكثر من معنى ، فغالبا ما يكون اختلاف المعانى ، اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، ومن خواص القرآن الكريم أن كر الأعصار يكشف عن جديد من الأسرار ، فهو سابق لزمنه ولكل زمان ، كما أنه فوق حدود المكان " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " ٨٢ : النساء ، ولنضرب مثلا بقول الله جل ذكره " سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون . وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون " ٣٦ : ٤٢ / يس .

استلفتت هذه الآيات القرآنية أنظار علماء البشر إلى آيات لله قاطعة بوحدانيته وتفرده بالخلق والأمر ، والملك والملكوت ، واسترعت الأبصار والبصائر إلى آيات لله في :

١) الأنفس .
٢) النباتات .
٣) تعاقب الليل والنهار .
٤) حركة الشمس ودورتها .
٥) القمر ومنازله .
٦) صلة الشمس بالقمر .
٧) بناء السفن .
٨) استخدام البحار والأنهار في النقل .
٩) وسائل النقل ما كان منها على عهد نزول القرآن وما استحدث وما سيستحدث .

هذه الآيات الكريمة هل ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان قاطع لها ليس لنا أن نتعداه ، كل ما ورد في باب التفسير من صحيح البخاري حديث عن سجود الشمس تحت العرش[1] وللعلماء في تأويله آراء .

ولو أنك قرأت تفسير هذه الآيات عند نفر من المفسرين الذين تختلف مناهجهم لوجدت اختلاف فهمهم للآيات باختلاف مناهجهم في الفهم والتفسير[2] بل ان المفسر الواحد ليذكر العديد من الآراء حولها .

وإذا كان قدامى المفسرين ومحدثوهم قد اختلفت أنظارهم ، فلا مسوغ للحجر على عقول المسلمين أن تنسلب أسرار القرآن ، وأن تحاول الوقوف على بعض عجائبه التي لا تنقضي[3] .

فهذه الآيات الكثيرة يفهم المسلمون منها في كل عصر من عصورهم ، ما تطيقه أفهامهم وقد يصيبون الفهم أو يخطئونه ... وهم مأجورون إن شاء الله ما لم يسلكوا شططا .. أما جلال القرآن فلا يضيره قصور أفهام بعض الناس عنه ، وما ضر ذلك قدسيته وجلاله يوما ما ،

---

(١) انظر البخاري حـ٦ ص ٢٩ في تفسير سورة يس ط : الفكر بيروت مصورة ، ومعنى الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه كنت مع النبي صلى الله عليه في المسجد عند غروب الشمس ، فقال : يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله تعالى : " والشمس تجري لمستقر لها .. " .

(٢) انظر مثلا ابن كثير حـ ٥ ص ٦١٢ ـ ٦١٥ ط : الفكر ، القرطبي جـ ١٥ ص ٢٦ ـ ٢٨ ط : الكتب ، القاسمي حـ ١٤ ص ٥٠٠٤ = ٥٠٠٨ الحلبي ، هؤلاء تتقارب مناهجهم ويبعد واختلافها اذا قارنتها بما سجله الشيخ طنطاوي جوهري ، وما دونه الفخر الرازي من الآراء المتعددة دونه .

(٣) اقتباس من حديث ورد في وصف القرآن الكريم " ... وهو الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد " رواه الترمذي عن علي رضي الله عنه ، واختلف في رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحح ابن كثير أنه موقوف ، انظر فضائل القرآن لابن كثير ، الملحق بالجزء الرابع ط : الحلبي وقد سبق هذا الحديث بتمامه في فصل الفواتح من هذه الرسالة .

ولإقامة البينة على أن الناس ليسوا سواء فى فهم آى القرآن الكريم — والبينات على ذلك كثيرة — نسوق هذا المثال : لما نزل قول الله تبارك وتعالى " .. وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل .. " ١٨٧ : البقرة ، يقول عدى بن حاتم : لما نزلت هذه الآية عمدت إلى عقالين لى أسود وأبيض ، فجعلتهما تحت وسادتى ، وجعلت أنظر فى الليل إليهما فلا يستبين لى ، فعمدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك ، فقال : إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار ، ونزل قوله تعالى : " من الفجر " (١).

فهذا عدى بن حاتم وهو عربى قح يعرف لغته ، ثم هو معاصر للرسول صلوات الله وسلامه عليه ... ومع هذا فانظر كيف فهم من عبارة الآية ما فهم .

حول هذا الموضوع يثير العقاد سؤالا ويتولى الإجابة عليه فيقول (٢) : " .. ولكن هل الكتب المقدسة لا تفهم إلا كما فهمها المخاطبون لأول مرة ؟ أو أنها تفهم فى كل عصر على حسب النظريات العلمية التى انتهى إليها أبناؤه ؟

ويجيب : " لا هذا ولا ذاك فيما نعتقد هو الفهم المطلوب من المكلف المخاطب بالكتاب ، فإن المسلم مأمور فى القرآن بالتفكير والتأمل والتدبر ، والإستدلال بذلك عن الآباء والأجداد ، وأحبار الزمن القديم ، وأئمة الدين فيه ... وليس الخطاب مقصورا على العرب الأميين ، ولا هو بمقصور على أبناء القرن العشرين ، ولكنه عام مطلق لكل عصر ولكل مكان ... إذ ليس من المعقول أن يفكر الإنسان على نسق واحد فى جميع العصور إننا مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم فى عصرنا كما كان يفهمه العرب الذين حضروا الدعوة المحمدية ، لو أنهم ولدوا معنا ، وتعلموا ما تعلمناه ، وعرفوا ما عرفناه ، واعتبروا بما نعتبر به من حوادث الحاضر ، وحوادث التاريخ منذ الدعوة المحمدية إلى اليوم ، ولكن التفكير العصرى شىء وإقرار النظريات العلمية المتجددة شىء آخر " .

ونعقب على عبارة العقاد قائلين : إننا لا ننكر أن أولى الناس بفهم القرآن هم الذين تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان على المسلم أن يحيا عصره ، فإنه يحياه كما علمه الله : لا ينغلق فيتجمد ، ولا يذوب فيتبدد ، وإنما عليه أن يتدبر دينه ، وأن يتفهم عصره ، ليطوع عصره لأحكام دينه ، لا ليجعل فهمه لدينه فى خدمة وافدات العصر ومحدثاته .

---

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربى القسم الأول ص ٩٢ : الحلبى وقدم للحديث بقوله " روى الأئمة بأجمعهم " وانظر ابن كثير فى تفسير الآية ، وأشار البيضاوى فى تفسيره إلى الحديث إشارة تدل على قلة البضاعة فى الحديث انظر ص ٤٣ من تفسيره ، وكذلك أخرجه البخارى ومسلم فليس للبيضاوى أن يقول " إن صح " وانظر ابن كثير حـ ١ ص ٢٩١ ط : الفكر بيروت .

(٢) انظر الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠٤ ط : الكتاب العربى بيروت .

سبب ذكر الكونيات في القرآن :

بينا فيما سبق رغبة بعض المسلمين في أن يعرف إجابة الوحي عن بعض الظواهر الكونية والإنسانية المحيطة به ، وكانت اجابات الوحي معجزة موجزة تذكر للناس ما ينفعهم في أمر دينهم بصورة لا تدع قولا لقائل ، لأن شرائع الله لا تؤخذ من السنة البشر ولا من اجتهاداتهم ، كما قال عز من قائل " أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ... " ٢١ : الشورى " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا " ٣٦ : الأحزاب .

وكانت إجابة الوحي عن أسرار الكون ، ودقائق طبائع الخلق مع إيجازها موحية ، وتقوم على قاعدتين :-

١) إقامة الحجة على الخلق ، بذكر آيات الله في الآفاق والأرض والأنفس ، لتكون أدلة ملموسة وبراهين محسوسة على وحدانية الله سبحانه ، وعلى وجوب إفراد العبادة وإخلاصها له جل جلاله .

٢) تحريك الأذهان أن تتوثب لإلتماس المزيد من آيات الله بالبحث في أسرار الكون وطبائع المادة .

وعلى هذا النهج كانت إجابات القرآن على أسئلة السائلين .

* * *

أثر اختلاط الثقافات في ظهور هذه النزعة :

حينما دخل في الإسلام بعض أهل الكتاب ، سألهم بعض المسلمين عن تفصيلات من كتبهم أغفل القرآن ذكرها ، لأن ذكرها حشو وفضول تتنزه غاياته عنه ، وكانت هذه التفصيلات لا تعلق لها بعقيدة ولا عبادة ، وكان من بعض إجابات هذه الأسئلة ما عرف بالإسرائيليات .

فلما ترجمت ثقافات الأمم ودخلت هذه الثقافات مجتمع المسلمين في الدولة العباسية ظهرت هذه الصلات بين علوم المسلمين وثقافات الأخرين ، ومن أمثلة ذلك :-

١) استخدام الفلسفة في براهين العقيدة الإسلامية ومن أثر هذا ظهرت فرق المتكلمين وطوائف المعتزلة .

٢) استخدام علم المنطق في أصول الفقه وخاصة في مباحث العلة والقياس .

٣) استخدام ما عرف من العلوم الكونية والطبيعية في تفسير الآيات القرآنية .

ومما لا شك فيه أن ثقافات المفسرين ظهر أثرها جليا واضحا في مؤلفاتهم .

لذلك فنحن لا نستطيع أن نقول : إن فلانا من العلماء هو أول من أدخل هذه النزعة في التفسير ، وإن فلانا هو أول من عارضها ، وإنما تقصارى الجهد هو ذكر من عرف له سبق في الموضوع ، طبقا لما تناهى إلى علمنا .

* * *

وفي الصفحات التالية تجد عرضا لآراء العلماء الذين عارضوا إدخال النزعة العلمية في تفسير الآيات القرآنية بادئين بالإمام الشاطبي وهو أول من تناهى إلى علمنا إنكاره لهذه المحاولة ، وهذه الأولية التي ننسبها إليه ليست على إطلاقها لأننا ما أحطنا علما بكل ما كتب عن هذا الموضوع وظللنا نتابع عرض آراء العلماء المنكرين لهذه المحاولة وأكثرهم من علماء هذا العصر الذي نعيش فيه لأن المشكلة فيه — إن صح أنها مشكلة — أكثر حدة ، ولم نقف عند سرد الآراء سردا وإنما أتبعنا كل رأي بالتعقيب والمناقشة .

ولاحظنا أن كثيرا من العلماء الذين سلكناهم في قبيل المعارضين لهذا المنهج منهم من لا ينكر المنهج أصلا ، وإنما ينكر بعض تفاصيله ، أو يستنكر الشطط في تطبيقه ، ونصارح القارئ بأن أكثر هؤلاء كانوا في نظرنا على السبيل القاصد والمحجة الواضحة .

ومن هذا الفريق المعارض من أسرف على نفسه وعلى المنهجية باسم المنهجية ، وشطط أولئك المعارضين هو في نظرنا كشطط أولئك الغلاة من المثبتين ، والشطط مرذول كله .

ثم سنتبع هذا العرض — بعون الله وتوفيقه — بتأريخ للقائلين باتباع المنهج العلمي في تفسير الآيات الكونية ، وسنتابع عرض آراء العلماء المثبتين حتى يومنا هذا ، ولا نحيد على هذا الفريق — كما أسلفنا — إلا أن طائفة منه تُبوئ نفسها من المقاعد ما ليس لها ، ولو أعايت القوس لباريها لزال كثير من الإغراب ولحلت عقد الإشكال أو كادت .

المنكرون لهذا المنهج من العلماء

بينا فيما سبق أن نظرات العلماء إلى هذا المنهج من مناهج التفسير مختلفات ، ـ فمنهم من يبالغ في إنكاره ، ومنهم من يشتط في المسألة ، ومنهم من آثر أن يكون بين هؤلاء وأولئك قواما .

وكما أن هذا الاتجاه التفسيري قديم ، فالانكار عليه قديم أيضا ... ومن هـــؤلاء المنكرين القدامى :ـ

أبو اسحق الشاطبي (١)

كان ما كتبه الشاطبي حول هذا الموضوع مرجعا لكثير من الباحثين المعاصرين الذيـن عارضوا التفسير العلمي لبعض آيات القرآن الكريم (٢) وقد أوضح الشاطبي رأيه وهو يتحدث في كتابه (٣) عن مقاصد الشريعة فجعل المقصد الثاني هو "بيان قصد الشارع في وضـع الشريعة للافهام" وضمنه مسائل هي بايجاز :ـ

الاولى : أن هذه الشريعة المباركة عربية وأن القرآن نزل بلسان العرب .. فمن أراد تفهمه فبلسان العرب يفهم .

الثانية : أن هذه الشريعة المباركة أمية ودليل ذلك عنده :ـ

(١) النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله سبحانه " هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم .. " ٢ : الجمعة ، " فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته " ١٥٨ : الأعراف وفي الحديث " بعثت إلى أمة أمية " لأنه لم يكن لهم علم بعلوم الأقدمين

---

(١) هو ابو اسحق ابراهيم بن موسى الشاطبي ، فقيه أصولي أندلسي ت : ٧٩٠ هـ ، مـن أشهر مؤلفاته " الاعتصام " ، " الموافقات في أصول الشريعة " نشره محققا الشيـخ عبدالله دراز ، التجارية بالقاهرة .

(٢) وقد نقل عنه الشيخ أمين الخولي في كتابه " التفسير معالم حياته " ، ورجع اليه الدكتور الذهبي في كتابه " التفسير والمفسرون " جـ٣ ص١٥١ وما بعدها ، وكذلك فعـل صاحب " اتجاهات التفسير في العصر الحديث " .

(٣) انظر الموافقات جـ ٢ ص ٦٤ وما بعدها ط : التجارية

٢) أن الشريعة التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العرب خاصة وإلى غيرهم عامة إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية أو لا تكون ، فان كانت كذلك فهو معنى كونها أمية أي منسوبة إلى الأميين ، وإن لم تكن كذلك كانت على غير ما عهدوا ، فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ما يعهد ...

٣) أنه لو لم يكن القرآن على ما يعهدون لم يكن معجزا عندهم ... ولقالوا ان كلامنا معروف مفهوم ، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف فلم تقم الحجة عليهم به (١)

مناقشة يسيرة :

هذه المقدمات التي أوجزنا ذكرها عن الشاطبي ، هل تمكن بها من ابداء الحقيقة ؟ إننا لا نستشعر منها برد اليقين من أننا نجل علم الرجل ...

أن قوله "بأمية الشريعة" لا نسيغه لفظا ، ولا نهضمه معنى .. ولقد طرح أمامنا بهذه المقولة مقدمتين هما : أمية الرسول .. وأمية الأمة . ورتب عليهما النتيجة وهي : أمية الشريعة .

والمقدمتان لا تفضيان الى هذه النتيجة .. لماذا ؟

ـ إن الرسول ليس مصدر هذه الشريعة حتى إذا كان أميا كانت الشريعة بالتالي أمية .

ـ وان الأمة الأمية جاءت الشريعة لتنتشلها من هذه الأمية بتعميم أنوارها لا لتكون أمية مثلها ؟ وشتان بين أمية الرسول ، وأمية الأمة .

فأمية الرسول صلوات الله وسلامه عليه (٢) ، آية من آيات الله على صدق رسالته ، وهي

(١) انظر الموافقات ج ٢ ص ٦٩ ـ ٧١ وقد لخصناه .

(٢) البحث في أمية الرسول "ص" مبحث خاض غمراته الكثيرون من القدامى والمحدثين مابين مثبتين ومنكرين ، ومنهم من يجعل نسبة الأمي إلى الأم ، أو الى أم القرى ، أو من الأمة بمعنى الدين أي النبي صاحب الدين والرسالة وهي عند العقاد وصف يطلقه اليهود على غيرهم فيسمونهم بالأميين والصحيح في العربية أن تكون النسبة إلى المفرد فتكون بالأميين مفردها الأمي لأن اليهود يزعمون أنهم وحدهم أهل النبوة والرسالة أنظر كتاب الاسلام دعوة عالمية ص ٢٢٢ ـ ٢٢٨ مقال "معنى كلمة الأميين" والكتاب مجموعة مقالات نشرتها الهلال

وصف للحالة التي كان عليها قبل البعثة " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون " ٤٨ ، ٤٩ العنكبوت .

وأما أمية العرب فالآية تشير إلى مجيء القرآن لتبديدها بنوره وعلمه الهادي " هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم .. " لماذا ؟ ليرسخ وضع الأمية فيهم ويأتيهم بما يناسب اميتهم ؟ !! أم كما قالت بقية الآية الكريمة " يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين " ٢ : الجمعة ، فالآية الكريمة تبين مهمة الرسول مع الاميين وهي :-

١ - إزالة أمية العقل عنهم " يتلو عليهم آياته .. "

٢ - يمحو عن قلوبهم أميتها ، ورين(١) الجاهلية " ويزكيهم " .

٣ - ويبدد شرائع الجاهلية بتفصيل الحق " ويعلمهم الكتاب " .

٤ - ويقيم لهم الميزان ، ليستقيم حكمهم على الأمور ، ويسلكوا الرشد ، ويصرفوا السداد وتلك هي " الحكمة " .

وإن كان هؤلاء الأميون بفعل الأميات والجهالات من قبل هذا القرآن المبين " لفي ضلال مبين " .

. . .

وأما قوله : ان القرآن لو كان على غير ما يعهدون لم يكن معجزا عندهم ...

فجواب هذه المسألة : ان القرآن جاء باللسان الذي يعهدون ، وبنظم ماعرفوا له مثيلا من قبل حتى احتاروا في أمره ، وكان أمرهم معه " بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر " ٥ : الأنبياء فلماذا هذا التخبط المذهول إن كان القرآن كما يعهدون ولماذا تضاربت أقوالهم فيه فصاروا في " عزة وشقاق " ٢ : ص وفي " أمر مريج " ٥ : ق .

وأما شرائعه وهداياته وأحكامه فقد قالوا فيها : " ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق " ٧ : ص " فقال الكافرون هذا شيء عجيب أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد " ٢ ، ٣ : ق فكذبوا بتوحيد الالوهية ، وماروا في البعث والنشور ..و...و.. وتلك كلها معان لا يجهلها عالم ثبت في مثل علم الشاطبي ولكن قلم الإنسان يلوى به أحيانا إلى غير ما يريد .

---

(١) الرين: هو الطبع والدنس ، يقال رين ذنبه على قلبه رينا وربونا أي غلب عليه .

عود الى الاستماع الى الشاطبى رحمه الله :

ثم يأخذ الشاطبى فى الإبانة عن علمه بعلوم العرب ، فقال ما وجازته : " وأعلم أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها القرآن ... فمنها : علوم النجوم وما يختص بها من الإهتداء فى البر والبحر ، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها .. وهو معنى مقرر فى القرآن كما فى قوله سبحانه : " وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر .. " ٩٧ : الانعام ، وقوله : " ... وبالنجم هم يهتدون " ١٦ : النحل ، وقوله " والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم " ٣٩ : يس ..

ومنها علم الانواء ، وأوقات نزول المطر وانشاء السحب وهبوب الرياح .. فبين الشرع حقها من باطلها : " هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال " ١٢ : الرعد ، " أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون " ٦٨ ، ٦٩ : الواقعة ، " وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين " ٢٢ : الحجر .

ومنها علم التاريخ والامم الماضية ، وفى القرآن من ذلك كثير ، وقد احتفل القرآن بأخبار الغيوب خاصة كقوله سبحانه : " ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك .. " ١٠٢ الكهف ، " تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .. " ٤٩ : هود

ومن هذه العلوم ماكان أكثره أو جميعه باطلا كعلم القيافة ، والزجر (أى زجر الطير) ، والكهانة ، والضرب بالحصى ، والطيرة .. فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل ونهت عنه : كالكهانة ، وخط الرمل .. وأقرت التفاؤل من غير تطلب للغيب .. وأكثر هذه الأمور السابقة تخرص على الغيب .

ومن علوم العرب : الطب ، فقد كان للعرب منه شىء " مأخوذ من تجارب الأميين ، وغير مبنى على علوم الطبيعة التى يقررها الاقدمون ، وعلى ذلك المساق جاء فى الشريعة ، لكن على وجه كاف شاف قليل يطلع منه على كثير ، كما فى قوله تعالى : " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين " ٣١ : الأعراف ، وجاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم التصريف ببعض الادوية لبعض الأدواء ، وأبطل من ذلك ماهو باطل كالتداوى بالخمر والرقى غير الشرعية .

ومن علوم القرآن فنون البلاغة .. وضرب الأمثال ... إلى آخر ماقال[1] .

(١) نقلا عن الموافقات جـ ٢ ص ٧١ ـ ٧٥ ببعض تصرف وايجاز .

وقفة مع الشاطبي :

لقد ذكر الشاطبي في الفاصلة السابقة بعض العلوم وكيف تؤخذ أصولها من القرآن . فذكر علوم الفلك ، والطبيعة الجوية ، والتاريخ وأخبار الأمم ، وبعض الأصول الطبية ، ويتضح من عبارته ومن الآيات التي استشهد بها العلاقة الوثيقة بين هذه العلوم وبين القرآن الكريم ، وبعض أحاديث رسول الله صلوات الله عليه ، وذلك كالأحاديث الواردة في الطب والتداوي .

وبيّن إبطال القرآن لعلوم تقوم على فساد في العقيدة وخطل في التصور ، وتؤدي إلى المفاسد والمقابح ...

والعجب من أمر الشاطبي أن يذكر علم العرب بالطب ـ ولكنه طب بدائي يقوم على تجاربهم لا على علوم غيرهم ـ فنسأله فهل يمنعهم القرآن من أن يأخذوا عن غيرهم الجديد في علم الطب ، أو في أي علم تجريبي آخر ، مما يعود عليهم بالنفع في دنياهم ، ولا يضرهم في دينهم شيئا ، بل ربما نفعهم في تدبر آيات الله في أنفسهم وفي الكون حولهم .

وبين أن قوله تعالى " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا .. " يعد أصلا طبيا كافيا شافيا ، فماذا لو جاء عالم فبين كيف جعل الله الطعام والشراب قواما لحياة الناس أفي ذلك من ضرر ؟ !

وماذا لو جاء عالم فبين أضرار الاسراف الذي نهى القرآن عنه ؟ وماذا لو بين آثار الاسراف في الطعام وما يستتبعه من أمراض الجهاز الهضمي ، وضغط الدم ، والسكر ، وتصلب الشرايين ، وأمراض الكبد والكلية وما شابه ذلك من الأمراض التي يكون الاعتدال في الطعام وقاية منها ، وعلاجا لها بعد وقوعها ؟ وهل هذه الآية وحدها هي في كل ما في القرآن من علوم الطب؟ ! أم فيه الكثير مما سنبينه في موضعه باذن الله تعالى .

انكاره على المتجاوزين :

ثم أشار الشاطبي إلى أن كثيرا من الناس " قد تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات ... والهندسة ، وغيرها من الرياضيات والمنطق ... وأشباه ذلك .. وهذا اذا عرضناه الى ما تقدم لم يصح .. "

ثم أخذ الشاطبي في ابطال هذه الدعوى مستدلا بما يلي :ـ

١) أن الصحابة والتابعين كانوا أعرف بالقرآن وعلومه ولم يتكلموا في شيء من هذي المدعى ، سوى ما تقدم ، وما ثبت من أحكام التكاليف والآخرة ، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر

لبلغنا ، وذلك دليل على القرآن لم يقصد لتقرير شيء مما زعموا ، وانما تضمن علوما هي من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها .

٢) وربما استدل المتجاوزون على دعواهم بقوله سبحانه : " ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء .. " ٨٩ : النحل ، وقوله " .. ما فرطنا في الكتاب من شيء .. " ٣٨ الأنعام ونحو ذلك ، وبفواتح السور وبما نقل عن الناس فيها ... ويرد الشاطبي : فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بمجال التكليف والتعبد (يعني تبيانا لكل شيء من الاحكام) .. أو المراد بالكتاب : " ما فرطنا في الكتاب " اللوح المحفوظ ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية ، وأما فواتح السور فقد تكلم فيها الناس بما يقتضي أن للعرب بها عهدا كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب .. أو هي من المتشابهات .... وليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما يقتضيه وينكر منه مالا يقتضيه .. فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ... " (١)

عودة إلى مناقشة الشاطبي :

أنكر الشاطبي على الذين تجاوزوا في الدعوى على القرآن وأضافوا اليه كل علم للمتقدمين والمتأخرين ، ونحن لا نرى في أن بعض الناس قديما وحديثا حملوا آيات القرآن ودلالات ألفاظه مالا تحتمله ، وهذا ضرب من الشطط لا يخدم أهدافه ، وهو نوع من تعسف التأويل الذي مارسته الفرق متابعة لأهوائها .

ولكن ما بال الشاطبي يجعل حساب الجمل علما أخذه العرب عن أهل الكتاب ، ويرى أن حساب الجمل على مافيه يمكن أن يكون مسلكا لفهم فواتح السور ، وهو فهم لا يعدو أن يكون قولا على الله بغير علم ، وتحميلا للغة ماليس منها ولا من معهود العرب ، بينما هو لايقر التوسع في آيات الطب مثلا في القرآن إلا بما تعرفه العرب من الطب عند نزول هذه الآيات ، وقد نزلت هذه الايات للناس كافة وللدهر كله .

وقصارى القول :

إننا نقر أصل المسألة إقرارا وهي وجود اعجاز علمي للقرآن وهو وجه من وجوه اعجازه ،

---

(١) بايجاز عن الموافقات جـ ٢ ص ٨٠ ــ ٨٢

ونختلف مع الذين أساءوا تطبيقها ، ويكاد يكون الشاطبي مقتربا من هذا المنتحى حين أقـــر بأصل ما ذكر من العلوم في القرآن الكريم ، لكنه يريد أن تفهم كما فهمها العرب الأوائل ، ونحن نريد أن نفهمها بلسان العرب الأوائل ، وبروح الإسلام ، مستأنسين بعلوم العصر .

. . . .

وقد رأينا أن نجعل الشاطبي ممثلا لوجهة نظر عصره (القرن الثامن الهجرى) في المسألة ، ونظرا لأن القضية أصبحت مطروحة بالحاح بليغ في عصرنا هذا رأينا أن ننقل وجهة نظـــر المعاصرين مناقشين لهم فيما يرون ، وهذه هي :ـ

رأى الاستاذ أمين الخولي ومناقشتنا له :

كان الاستاذ الخولي من أوائل الذين ناقشوا هذه المسألة معترضين عليها في هذا العصر في كتيب : " التفسير : معالم حياته ، منهجه اليوم " [1] فبعد أن عرف التفسير العلمي بأنـــه تحكيم الإصطلاحات العلمية في عبارة القرآن والاجتهاد في استخراج مختلف العلوم والآراء ـ الفلسفية منها ، أخذ في بيان تاريخ المحاولة عند الرازى وغيره ثم عرض لإنكار الشاطبي لهـذه المحاولة ثم عرض وجهة نظره في رفض هذا الاتجاه التفسيرى ، متكئا على إستدلالاته الآتية :

(١) الناحية اللغوية في حياة الألفاظ وتدرج دلالتها ، لو ملكنا منها مالا بد لنا أن نملكـــه في تحديد هذا التدرج ، وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة ، وعهـــد استعمالها فيها ، لوجدنا من ذلك ما يحول بيننا وبين هذا التوسع العجيب في فهـــم ألفاظ القرآن ، وجعلها تدل على معان لم تعرف لها ، ولم تستعمل فيها ، وان كانت قـد استعملت في شيء منها فباصطلاح حادث في الملة بعد نزول القرآن بأجيال .

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتيب ١٩٤٤ م عن دار المعلمين بالقاهرة وانظر الصفحـات من ١٩ الى ٢٧ ، وقد كتب مادته لدائرة المعارف الإسلامية حين لم يف الاصل بالمـــراد على حد تعبيره هو في تاريخ سابق من ١٩٤٤م ، وقد أعاد طبعه وجعله فصلا في كتـــاب بعنوان " مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب" وهذه المناهج مجموعة محاضرات وبحوث كتبت في أوقات متفرقة ، وقد نشرته دار المعرفة بالقاهرة الطبعة الاولى سبتمبر ١٩٦١ وقد ناقش القضية برمتها في الصفحات من ٢٨٧ ـ ٢٩٦ من طبعة المعرفة .

(٢) الناحية الأدبية أو البلاغية ـ ان شئت ـ والبلاغة فيما يقال : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فهل كان القرآن ـ على هذا النحو المتوسط من التفسير العلمي ـ كلاما يوجه الى من خوطب من الناس فى ذلك العهد ، مرادا به تلك المعانى المذكورة ، مع أنها معان من العلم لم تعرفها الدنيا الا بعد ما جازت آمادا فسيحة ، وجاهدت جهادا طويلا ارتقى به عقلها وعلمها !! وهب هذه المعانى العلمية المدعاة ، كانت هى المعانى المرادة بالقرآن فهل فهمها أهل العربية منه اذ ذاك وأدركوها ؟ واذا كانوا قد فهموها فما لنهضتهم العلمية فى علوم الحياة المختلفة لم تبدأ بظهور القرآن .. واذا كان لم يدركها أصحاب اللغة الخلص ، فكيف تكون معانى القرآن المرادة ؟

تعقيب : [1] اننا مع الشيخ الخولى لا نقر التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن ، وتحميل الكلمات مالا تحتمله لغة ولا شرعا ولا سياقا ، ولكن اذا كانت اللغة والشريعة والسياق لا يعارضن فهما ـ يذهب إليه متدبر لآية كريمة ـ يكشف عن سر من أسرار القرآن أو وجه من وجوه إعجازه ، فما الذى يحول بيننا وبين هذا ؟

وأما الناحية البلاغية ـ والبلاغة كما عرفها مراعاة الكلام لمقتضى الحال ـ فهى موضع الاتفاق والاختلاف بيننا وبينه ، أما الوفاق فظاهر ، وأما الخلاف : فهل من مقتضى الحال أن يخاطب القرآن العرب بما يجهدون ، ولا يخاطب ذراريهم واخلافهم فى كل زمان ومكان ؟

لعله من قواطم القول وجوامعه : ان القرآن فوق الزمان والمكان ، وهو مع هذا يراعى كل حال ويخاطب كل عالم وعاقل .

وأما قوله : فما لنهضتهم العلمية .. لم تبدأ بظهور القرآن ؟ فانه يعلم أن القرآن أعطاهم المفاتيح ففتحوا بها المغاليق حين عرفوا كيف يستخدمونها ، وأن القرآن مهد لهم الفجاج الواضحة فعزوا وسادوا حين سلكوها ، وذلوا حين ضلوا عن سواء السبيل والكلام عن أثر القرآن فى التقدم العلمى للمسلمين بخاصة ، وأثره فى كل تقدم أحرزوه بعامة ، مما ألفت فيه المؤلفات من المسلمين وغير المسلمين ولا يتسع هنا المجال لذكر شىء منه .. ثم نعود إلى متابعة الشيخ الخولى حيث يقول :ـ

---

(١) رأينا أن يكون التعقيب عقيب الفترة التى نناقشها مباشرة حتى لا نضطر إلى اعادة الكلام لو أخرناه إلى نهاية الموضوع كله .

(٢) وهناك الناحية الدينية ، وهى التى تبين مهمة كتاب الدين ، وهل هو كتاب يتحدث الى عقول الناس وقواهم العالمة عن مشكلات الكون وحقائق الوجود العلمية ؟؟ كيف يساير ذلك حياتهم ، ويكون أصلا ثابتا تختم به الرسالات السماوية ، كما هو الشأن فى القرآن مع أن هؤلاء المتدينين لا يقفون من مرونة هذه الحقائق عند غاية محدودة ولا ينتهون عند مدى ما ؟ فكيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة عن القرآن ... وهى جوامع تتغير تغييرا عظيما ، والحق البين أن كتاب الدين لا يعنى بهذا من حياة الناس ، ولا يكلفهم مؤنته حتى يلتمسوه عنده ، ويعدوه مصدرا فيه .

. . . . .

ثم يقول : " وأما ما اتجهت اليه النوايا الطيبة من جعل الارتباط بين كتاب الدين ، والحقائق العلمية المختلفة ناحية من نواحى صدقه أو إعجازه أو صلاحيته للبقاء ... فلعله يكفى فى هذا ويفى ألا يكون فى كتاب الدين نص صريح يصادم حقيقة علمية يكشف البحث أنها من نواميس الكون ونظم وجوده وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة ، ومسايرة للعلم وخلاصا من النقد .

تعقيب : أما سؤال الشيخ عن القرآن ، هل هو كتاب يتحدث إلى عقول الناس وقواهم العالمة ... ؟ نقول نعم إنه يتحدث إلى أرواح الناس ونفوسهم وقلوبهم وعقولهم ، ومقارنة بسيطة بين عدد الآيات التشريعية وعدد الآيات الكونية ، ونسبة هذه إلى تلك تخبرك بعناية القرآن بأمر هذا الكون ثم ألم يتحدث القرآن عن الشفاء فى عسل النحل ، والدفء فى الألبان واللحوم من الأنعام ، والزينة فى اللباس ، والأذى فى المحيض ، والنهى عن الإسراف فى المطعم وغيره .. فهل كان الحديث عن هذا وغيره إلا بيانا لكمال الإسلام وشموله ، وأن القرآن الكريم كتاب دين ودنيا ، وحديث عن الغيب والشهادة ، ونظام للمعاش وخبر عن المعاد ، وإعداد له .

وأما حديثه عن تطور العلوم وتغيرها فاننا نتحدث عن أصول ثابتة لا عن فروع متغيرة ، وهب جدلا أن مفسرا أخطأ فى تفسير آية بنظرية علمية ، فقوله عليه مردود والقرآن حجة على الناس ، وليس الناس حجة عليه .

أما قوله وحسب كتاب الدين بهذا القدر ٠٠ مسايرة للعلم وخلاصا من النقد ٠

فكيف يليق أن نقول : ان القرآن " يساير " العلم ؟!! هل الخالق يساير الخلائق ؟ وإذا كان العلم التجريبي صنعة البشر ، كيف ترتقي الصنعة إلى مقام الصانع ؟ وأما قوله " وخلاصا من النقد " فان القرآن لن يكون يوما في موضع النقد إلا عند من لا يؤمن به ٠

ورجل في مثل علم الشيخ الخولي حري به أن يتحرز من هذه العبارات ، وله من الاداة ما يعينه على هذا ويلزمه به ٠

ثم ان تفسير بعض آيات الكتاب الكريم ببعض ما كشف الله للانسان من علم ليس دائما " النوايا الطيبة " فحسب وانما قد تكون أحيانا ضرورة بيان لسر من أسرار القرآن المخبوءة ٠

رأي الاستاذ سيد قطب :

عند قول الحق جل ذكره " ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ٠٠ " ١٨٩ : البقرة ، بسط الأستاذ رحمه الله رحمة واسعة على صفحات كتابه " في ظلال القرآن " [1] وجهة نظره في المسألة فقال " ٠٠٠ اتجه الجواب إلى واقع حياتهم العملي ، لا إلى مجرد العلم النظري ، وحدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم ، ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم ، وهي داخلة في مدلول السؤال ٠٠٠ الى أن يقول ان القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية ، ولم يجئ ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي ٠٠٠ كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم ، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتمسوا مخالفته لهذه العلوم ٠٠ إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ، ووظيفته ومجال عمله ٠ إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية ، وإن وظيفته أن ينشئ تصورا عاما للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه ، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاما للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومن بينها طاقته العقلية ٠٠٠٠ وانى لاعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب في الخمسينيات تحت دار الحلبي واكتملت الطبعة الثانية المزيدة الموسعة في الستينيات وقد لقي ربه في عام ١٩٦٦ ٠

اليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات في علم الطب والكيمياء والفلك .. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه .. " .

تعقيب : إن العلم النظري هو السبيل إلى الواقع العملي كما تسبق النظرية التطبيق ، واجابة القرآن حين تتجه إلى الواقع فلأنه الهدف والغاية ، والحديث عن الدورة الفلكية ليس علما نظريا ، وانما هي آية من آيات الله ، لذلك فقول الأستاذ الفاضل " .. ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية " هذا القول ليس على إطلاقه لأن القرآن تتكامل معانيه ، ويفسر بعضه بعضا وقد سبق للقرآن أن حدثهم عن الدورة الفلكية في قوله جل ذكره " والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم " ٣٩ : يس ولنتذكر أن سورة يس مكية ، وأن ذكر الايات الكونية والأنفسية كانت لإقامة الحجج والبينات على جاحدي توحيد الالوهية ومنكري البعث من كفار قريش ، وأما سورة البقرة فمدنية تتجه آياتها - فيما تتجه - الى تفاصيل الشريعة ، وإذ قد سبق في المكي حديث عن منازل القمر ، فلتكن الاشارة في المدني متعلقة بشرائع الله كالصوم والحج - وقد ذكرا في سورة البقرة - وهكذا تتكامل أهداف القرآن وتتظاهر غاياته .

وما دام الأستاذ الفاضل يقول : إن وظيفة القرآن أن ينشئ تصورا عاما للوجود وارتباطه بخالقه - فنقول : إن القرآن حين يشير إشارات موجزة معجزة إلى مظاهر هذا الوجود لا يكون ذلك إلا من صميم مهمة القرآن في إعطاء التصور الإسلامي للوجود على النحو المقتضى .

وللاستاذ رحمه الله أن يعجب من سذاجة المتحمسين إذا حملوا نصوص القرآن ما لا تحتمله ، أما اذا ربطوا بين آية قرآنية وأخرى كونيه هدى التدبر الرشيد إلى ما بينهما من وثيق العلائق ، فذلك المقصود الذي لا يعاب ..

ثم يقول الأستاذ الفاضل : "إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة ، أما مايصل إليه البحث الإنساني - أيا كانت الأدوات المتاحة له - فهي حقائق غير نهائية فمن الخطأ المنهجي .. أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية ...

نقول وللخروج من هذا الإشكال أن يقول المفسر إن هذا التفسير العلمي وجه من وجوه النظر إلى الآية الكريمة وعليه أن يتجنب التعسف والشطط .

ثم يقول الأستاذ : " .. وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة ، بما يصل إليه العلم من نظريات متعددة متغيرة ، أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا ، تحتوي

أولا على خطأ منهجي أساسي ، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بظلال القرآن الكريم :ـ

الأولى : هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن ، والقرآن تابع ، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم ، أو الاستدلال له من العلم ، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ، ونهائي في حقائقه ، والعلم ينقض اليوم ما أثبته بالأمس ... "

تعقيب : نعم إن الذين لم يتشربوا الإسلام حقيقة خالدة يفعلون هذا ، أما الذين اخلصوا دينهم لله سبحانه فإنهم بحسن فهمهم للقرآن ووضعهم للعلم على درجته يُظهرون وجها من وجوه إعجاز القرآن ...

ثم يقول الأستاذ :ـ

والثانية : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته ، وهي أنه حقيقة مطلقة ، تعالج بناء الإنسان بناء يتفق مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي ... ليستخدم النواميس التي تكشف له بالنظر والتجريب ، وفق ما يهديه اليه عقله الموهوب له ليعمل ، لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة .

الثالثة : هي التأويل المستمر ـ مع التعسف والتكلف ـ لنصوص القرآن كي تحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر ، وكل يوم يبدو فيها جديد ... "

وكل أولئك لا يتفق وظلال القرآن ، كما أنه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا .

طريقة الأستاذ سيد قطب في الانتفاع بالكشوف العلمية :ـ

بين الأستاذ رحمه الله في نهاية الفصل المشار إليه الطريقة التي ينتفع بها حتى تكون المكتشفات العلمية في خدمة الحقائق القرآنية أو بنص[1] تعبيره : " المنهج الصحيح في الإنتفاع بالكشوف العلمية في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها ، دون تعليقها بنظرية خاصة أو ـ بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق " وهذا المنهج هو كما بينه : أننا إذا قرأنا قوله تعالى : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " ٥٣ : فصلت ، فعلينا أن نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله وأن نوسع بما يكشفه مدى الآيات القرآنية في تصورنا .

---

(١) انظر في ظلال القرآن جـ ٢ ص ٩٩ ط : الحلبي بإيجاز وتصرف .

وأما الذى ينكره الاستاذ من سوء التطبيق لهذا المنهج فهو اذا ظهرت نظرية تقول : "إن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها" فيجب علينا ألا نعمل هذه النظرية هى التفسير العلمى المطابق لقوله تعالى : "أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما" ٣٠ : الأنبياء ، لأن هذه النظرية ليست نهائية ولا ثابتة ومن ثم لا يجوز أن يقال عن أى فرض من الفروض العلمية انه هو المدلول النهائى لهذه الآية أو تلك ... " ١ هـ

والحق أن الاستاذ بهذا البيان الاخير (سدد وقارب) وليس لنا إلا أن نقول إن أراء الكثيرين من المفسرين ليست أيضا هى المدلولات النهائية للآيات القرآنية .

رأى الاستاذ العقاد :

أدلى البحاثة عباس العقاد برأيه فى جوانب هذا الموضوع فى بعض كتبه ومقالاته ، ومن ذلك ما كتبه فى كتابه حقائق الاسلام [1] وهو : " نحن لا نحب أن نقحم الكتاب فى تفسير المذاهب العلمية ، والنظريات الطبيعية ، كلما ظهر منها مذهب قابل للمناقشة والتعديل ، أو ظهرت منها نظرية يقول بها أناس ، ويرفضها آخرون ، ومهما ما يكن من ثبوت النظريات المنسوبة إلى العلم فهو ثبوت إلى حين ، لا يلبث أن يتطرق إليه الشك ، ويتعيفه التعديل والتصحيح ، وقريبا رأينا من فضلائنا [2] يفسر السموات السبع ، بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، ثم تبين أن السيارات أكثر من عشر ، وأن الصغار منها تعد بالمئات ولا يحصرها الإحصاء ، فليس من الصواب إذا أن نقحم أصول العقيدة فى تفسير أقوال وآراء ليست من الأصول فى علومها ، ولا يصح أن تتوقف عليها الأصول ، وحسب الدين من سلامة المعتقد وموافقته للعقل ، أن لا يحول بين صاحبه وبين البحث فى العلم وقبول الرأى الذى تأتى به فتوح الكشف والاستنباط ، وعلى هذه السنة يرجع المسلم إلى آيات كتابه وأحاديث نبيه فلا يرى

---

(١) انظر ص ٩١ من كتابه " حقائق الإسلام وأباطيل خصومه " الطبعة الأولى التى أصدرها المؤتمر الاسلامى ١٩٥٧ م .

(٢) يشير العقاد إلى ما ذكره الشيخ محمد عبده فى تفسير قوله تعالى : " وبنينا فوقكم سبعا شدادا " ١٢ : النبأ انظر ص ٦ من تفسير جزء عم : " ط : الشعب ، وتابعه الشيخ عبد القادر المغربى فى تفسير قوله سبحانه " الذى خلق سبع سموات طباقا .. " ٣ : الملك وانظر تفسيره لجزء تبارك ص ٤ ط: الشعب ولم يصرح العقاد بأسماء هؤلاء الفضلاء لما كان للشيخ محمد عبده ومدرسته عنده من منزلة خاصة .

فيها مانعا يمنعه أن يدرس التطور ويسترسل فى بحاثه العلمية الى حيث يلهمه الفكر ، وتقوده التجربة ".

ومن هذا النهج أيضا ما ذكره فى كتابه " الفلسفة القرآنية " [1] وهو : " تتجدد العلوم الإنسانية مع الزمن على سنة التقدم ، فلا تزال بين ناقص يتم ، وغامض يتضح ... وتخمين يترقى إلى اليقين ...

وقد أخطأ أناس فى العصور الأخيرة لأنهم أنكروا القول بدوران الأرض واستدارتها ، إعتمادا على ما فهموه من ألفاظ بعض الآيات ... وجاء أناس بعدهم فأخطأوا مثل خطئهم حين فسروا السموات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، ثم ظهر أنها عشر لا سبع ، وأن " الأرضين السبع " إذا صح تفسيرهم لا تزال فى حاجة إلى التفسير . ولا يقل عن هؤلاء فى الخطأ أولئك الذين زعموا أن مذهب التطور والإرتقاء ثابت من بعض آيات القرآن كقوله تعالى : " .. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ... " ٢٥١ البقرة ، أو قوله : " ... فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض .. " ١٧ : الرعد ، لأن الآيتين تؤيدان تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، ولكن مذهب التطور والارتقاء لا يزال بعد ذلك عرضة لكثير من الشكوك — والتصحيحات بل عرضة لسنة التطور والارتقاء التى تنتقل به من تفسير إلى تفسير ... إلى أن يقول عن أصحاب هذه التأويلات : وخليق بأمثال هؤلاء المعتسفين أن يحسبوا من الصديق الجاهل لأنهم يسيئون من حيث يقدرون الإحسان .. كلا لا حاجة بالقرآن الكريم إلى مثل هذا الإدعاء ، لأنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، وخير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ، ولا يتضمن حكما من الاحكام يشل حركة العقل فى تفكيره ... فالقرآن الكريم يطابق العلم أو يوافق العلوم الطبيعية بهذا المعنى الذى تستقيم به العقيدة ، ولا تتعرض للنقائض والاظانين كلما تبدلت القواعد العلمية ، أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم أو يبطل التخمين .. وفضيلة الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها ، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن ... ".

---

(١) انظر كتاب " الفلسفة القرآنية " فصل : القرآن والعلم ص ٢٥ : ٢٨ ط : الكتاب العربى بيروت .

تعقيب : سلك الأستاذ العقاد الجادة حين نعى على الذين أنكروا حقائق من العلم بضلال فهمهم للقرآن ، وحين قبح صنيع الذين حملوا آيات من القرآن مالا تحتمله من القول بنظريات علمية لم تبلغ درجة اليقين ، والقرآن لا يؤاخذ بفهم الجاهلين ، ولا يتزعزع لتأويلات المفتونين ، وتبقى بعد ذلك علاقة بعض آى القرآن بالتفسير العلمى تنشد الصراط المستقيم ، والنهج الأمثل وهو الوسط بين هؤلاء وأولئك .. ورجل فى غزارة علم العقاد كان عليه أن يبينه ... لكن قول الأستاذ العقاد : إن القرآن كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، هذا القول تحجير لما اتسع من آفاق القرآن الكريم ، ونخشى أن يكون له خبىء .. وليس الأستاذ بالذى يجهل أن القرآن هو كتاب العقيدة والشريعة والسلوك ، وكتاب الدين والدنيا ، وكتاب العقل والقلب والضمير .

وأما قوله : وغير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم ... الخ فمن الذى يطلب ؟ وهل هناك مواصفات ؟ وهل أنزل الله كتابه ونقا لمطالب بعض البشر ؟ أم هو كما قال سبحانه " وبالحق أنزلناه وبالحق نزل " ١٠٥ : الاسراء ، ثم لقد ضيق الاستاذ العلاقة بين القرآن والعلم ضيقا سنعده ناقضا له بقلمه فى سطور آتية بعد قليل .

ويعاود العقاد القول فى الموضوع فى فصل عنوانه " تفسير القرآن فى العصر الحديث " فى كتابه الفلسفة القرآنية فيقول : (١)

" ... والذين فسروا الايام الستة بأيامنا هذه كما نعدها فى كل أسبوع قد أخطأوا أفهم ووجب أن يدركوا خطأهم قبل أن يتبين للعلم أن تاريخ الكواكب يمتد الى ملايين السنين .. نعم .. قد وجب أن يدركوا خطأهم هذا ، وأن يعلموا أن الأيام الستة غير أيام الكرة الأرضية فى دورتها حول نفسها " وأن السنين أيضا غير سنوات الكرة الأرضية فى دورتها حول الشمس ، لأن الشمس والأرض لم تكونا مخلوقتين فى اليوم الأول من تلك الأيام ، فلا بد أن يكون للخلق حساب غير حساب الفلكيين للأيام والسنين .. " اهـ وهذا الذى

---

(١) انظر ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ مع الإيجاز والحذف .

قاله العقاد أيضا ليس كلمة الفصل فى الموضوع وان كان قد سبقه به غير واحد من المفسرين ، فالبيضاوى مثلا وهو من مفسرى القرن الثامن الهجرى (ت: ٧٩١) ومن أصحاب التفاسير الموجزة يقول عند تفسير قوله تعالى " إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش .. " ٥٤ : الاعراف ، أى فى ستة أوقات ، كقوله : " ومن يولهم يومئذ دبره .. " ١٦ : الانفال ، أو فى مقدار ستة أيام ، فان المتعارف بالليوم : زمان طلوع الشمس إلى غروبها — ولم يكن حينئذ ، وفى خلق الأشياء مدرجا مع القدرة على ايجادها دفعة ، دليل للاختيار ، واعتبار للنظار ، وحث على التأنى فى الأمور " (١)

هل خالف العقاد نفسه ؟

كان داعيتنا إلى طرح هذا السؤال : أن وجدنا كثيرا من الباحثين يمارسون التوفيق بين القرآن والعلم ثم يقومون بهذه المحاولة ، وبغير إسراف فى الدعوى ، نسوق العقاد مثالا حين قال (٢) : " قلنا فى كلامنا عن القرآن والنظريات العلمية : إن محاولات التوفيق قد تكون مأمونة محمولة كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله : فى تفسير الطير الأبابيل بجراثيم الأمراض التى تسمى بالميكروبات موجودة لا شك فيها ، والإصابة بها محققة كذلك فى مشاهدات عربية لا تقبل الجدال ، فاذا قال المفسر كما قال الأستاذ الإمام : إن هزيمة أصحاب الفيل — ربما كانت من فعل هذه الجراثيم ، فذلك قول مأمون على الجواز والترجيح ... " وبعد أن نقل رأى محمد عبده) عقب قائلا : وهو تفسير مقبول ولا شك — كما قلنا — على سبيل الجواز والترجيح " .

تعقيب : لعل القارئ لم ينس بعد عبارة العقاد عن أصحاب التأويلات العلمية وخلقه وأطال هؤلاء المتسفين أن يحسبوا من الصديق الداهل ... " إلى آخر ما قال .. ولكن إذا كان المؤول هو " محمد عبده " فهو " الأستاذ الإمام الشيخ "

---

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل وتفسير البيضاوى ، ص١٦٤ ط : البهية .

(٢) انظر كتابه " الإسلام دعوة عالمية " : مقالات جمعت بعد وفاته ص٢٤٧ـ٢٤٨ ط: الهلال

وإن كان لقب إمامة يغض عن ما سواه وكفى به من لقب ، وهو " عبقرى الإصلاح والتعليم " ولا يمكن البتة أن يصحب من الصديق الباهل .. معاذ الله إنه الرأى الراجح والتفسير المقبول ولا محالة !! وإذا كان العقاد يعلن أن منهجه فى فهم الإسلام هو " رأيى أن العقل مقدم على النقل ، ولكن النقل لا يبطل إلا بالبرهان واستحالة القبول " (١) ومع مخالفتنا للعقاد ومحمد عبده معا فى تقديم العقل على النقل ، فإننا نسأل العقاد لماذا وافقت الشيخ محمد عبده (٢) فى إبطال دلالة صريحة للنقل بغير برهان أو استحالة للقبول .. ؟ .

رأى الشيخ رشيد رضا :

أما رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده ومدون أرائه ، فيختلف رأيه بعض الإختلاف عن رأى شيخه : إذ كان يرى أن التوسع فى ذكر هذه العلوم من الصوارف عن هداية القرآن ، وهاك قوله (٣) : " .. وقد زاد الفخر الرازى صارفا آخر عن القرآن ، هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة - على ما كانت عليه فى عهده - كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها . وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر (٤) وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية " فصولا طويلة " بمناسبة كلمة مفردة : كالسماء والأرض ، من علوم الفلك والنبات والحيوان ، ما يصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن . نعم ان أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن ، فنون العربية لابد منها ، واصطلاحات الاصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية ، وقواعد النحو والمعانى ، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه ، كل ذلك يعين على فهم القرآن .... الخ " .

---

(١) من مقال للعقاد بعنوان " خلاف يتحق الإختلاف " نشر بمجلة الرسالة فى العاشر من يناير ١٩٤٣ م وأعيد نشره بـ ص ١٩٨ من كتاب " ردود وحدود " وهو مجموعة مقالات له .

(٢) سيأتيك الحديث عن منهج الشيخ محمد عبده وبعض تأويلاته خلال هذا البحث .

(٣) انظر تفسير المنار جـ ١ ص ٨ ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٤) العصر الذى يعنيه هو الثلث الاول من القرن العشرين الميلادى .

هل التزم الشيخ رشيد منهجه ؟

الواقع أن المطلع على تفسير المنار يجد أن الشيخ ملأه بالفصول المطولة فى العلوم المختلفة ، ربما لم يسرف فى ذكر العلوم الكونية ، إسراف الرازى ، وطنطاوى جوهرى ، لكنه حمل الآيات الإستطرادات المطولة فى عديد من القضايا الإجتماعية ، التى كانت مثارة فى عصره .. والشيخ رشيد يقر بأن من منهجه [1] : " .. بعض الإستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها ، بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر ، أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة .. " .

بعض الذى كتبه الشيخ رشيد فى أستطراداته هذه كان يقتضيه مقام القول ، وروح العصر ، وواجب الذود عن الحق .

وأما بعضها الآخر فكان مما سماه هو " فصولا طويلة ، بمناسبة كلمة مفردة ... "

موقف الأستاذ حسن البنا رحمه الله :

تعرض الأستاذ البنا لموضوع التفسير العلمى ، أبان حديثه عن المزالق التى ينزلق اليها بعض المفسرين متأثرين بوافد الثقافات ، والحق يقال إن الصفحات الوجيزة التى عالج فيها هذا الموضوع تدل على : عمق نظر ، وحسن فهم ، مع حكمة فى العرض ، ودقة فى العبارة ، ولفة فى اللفظ لا تثير مخالفا ولا تهيج حفيظة ، فقال رحمه الله [2] " وهذا التأثر فى أسلوب التفسير بثقافات المفسرين وعصورهم ، كثيرا ما يجر بعضهم إلى مزالق الخطأ ، وينحرف بهم عن جادة الصواب فى الفهم أو التعبير ، وخاصة إذا لم يكونوا قد تمرسوا بالدراسات الشرعية واللغوية والدينية ، التى تعين على صحة الفهم .... وبعد أن أشار إلى مزالق بعض المتعرضين للقصص والمعجزات [3] انتقل إلى مزالقهم

---

(١) انظر المنار جـ ١ ص ١٦ .

(٢) انظر " فى التفسير وسورة الفاتحة " وهما رسالتان طبعتهما فى كتيب واحد دار العصر الحديث : بيروت فى ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٣) ظاهر عباراته أنه يشير الى طه حسين فى " الادب الجاهلى " ، محمد احمد خلف الله فى " القصص الفنى فى القرآن الكريم " .

فى العلوم الكونية فقال (١) " من المقرر أن القرآن الكريم لم ينزل ليكون كتاب هيئة أو طب أو فلك أو زراعة ، ولكنه كتاب هداية وإرشاد ..... وهو إنما يعرض للعلوم الكونية ، ولمظاهر الوجود المادية الطبيعية بالقدر الذى يعين على الإيمان بعظمة الخالق جل وعلا ، ويكشف عن بديع صنعه ... ثم استشهد بقول الله سبحانه : " قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " ١٠١ : يونس ، وقوله سبحانه : " إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار " ١٩٠ ، ١٩١ : آل عمران ثم أشار - رحمه الله - إلى محاولات الغزالى فى " جواهر القرآن " ، وطنطاوى جوهرى فى تفسيره " الجواهر " والطبيب عبد العزيز إسماعيل وأمثالهم ووصفها بأنها : " جهد مشكور ولا شك ، ولكنه تكليف بما لم يكلفنا الله به ، قد يصل فى كثير من الأحيان إلى التكلف ، وخروج بالقرآن عما أنزل له ... " وبعد أن أومأ إلى إنكار الشاطبى فى موافقاته على هذا المنهج ، لفت الأنظار إلى ما تعرض له القرآن من الآيات الكونية ، وخلق الإنسان .. وكيف فتحت هذه الآيات جميعا بالحث على النظر والتدبر . إلى هذه النواميس الكونية .. كان من دقة التعبير ، وصدق التصوير بحيث لا يمكن أن يصطدم أبدا بما يكشف العقل الإنسانى عنه فى أطواره المختلفة من حقائق هذه العلوم ومقرراتها .

ثم بين انقسام هذه المقررات العلمية إلى :-

أ - بدهيات : توافق القرآن كل الموافقة ، وتطابقه كل المطابقة ، وهى من إعجاز القرآن الذى جاء به نبى أمى صلى الله عليه وسلم .

ب - فرضيات : من التجنى وظلم الحقيقة أن يوازن بينها وبين ما جاء فى القرآن ، فلننتظر حتى يطمئن العلم الكونى إلى ما بين يديه ، ومن هذا القبيل ، ما يتصل بنشأة الإنسان ، وحقيقة الحياة ، وبدء التكوين ، وصلة الأرض بالسماء ، على أنه من عجيب أمر هذا القرآن أنه حتى فى مثل هذه المواطن ، يسوق التعبير سوقا عجيبا ، معجزا فى مرونة عبارته ودقة إشارته ، حتى إنه ليساير العقل الإنسانى فى كل زمان ومكان ...

---

(١) انظر ص ٢٦ - ٣٢ من الكتيب المذكور بإيجاز وحذف فقرات .

ثم بين مناسبتها الذى يؤمنون بهذه الفروض ، ولا يكلفون أنفسهم دقة النظر فى نصوص القرآن ، ولطف التركيب فى عباراته ، وسر الوضع فى ألفاظه ٠٠٠٠ " ا هـ

رأى الأستاذ وحيد الدين خان فى المسألة :

فى مقدمة كتاب : " الإسلام يتحدى " ناقش الأستاذ قضية التوفيق بين الإسلام والأفكار الحديثة الغربية بوجه عام وقضية التفسير العلمى لبعض الآيات القرآنية ، فقال (١) :

" ٠٠ وهناك نوع آخر (٢) من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين ، — ولكنهم لشدة تأثرهم بالفكر الحديث ، يرون أن كل ما توصل إليه أئمة الغرب يعد من (المسلمات العلمية) ، ومن ثم تقتصر بطولتهم على إثبات أن هذه النظريات — التى سلم بها علماء الغرب — هى نفس ماورد فى القرآن الكريم ، وكتب الأحاديث الأخرى — وهذه الطريقة فى التطبيق والتوفيق بين الإسلام وغيره ، هى نفس الطريقة التى تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة ٠ وأية نظرية تقوم على هذا النحو ، يمكنها أن تكون تابعة ، ولكنها لا يمكن أن تكون رائدة ! ولو خيل إلى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر فى العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية ، ليشرق على البشرية نور الحق ، فهو هائم ولا شك فى عالم خيالى ، لا يمت إلى الحقائق بسبب ٠ فإن تغيير الأفكار والمعتقدات لا يأتى من طريق التلفيق ، بل عن طريق الثورة الفكرية (٣)

وهذه الحالة تورطنا بصورة أكبر عندما تتعلق المسألة بجانب أساسى وهام من أفكار الدين ، فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة " الشهاب الثاقب " التى وردت فى القرآن ، حين يجد كشفا جديدا فى علم الفلك الحديث ، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة ، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التى تثار حول الدين ، فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكلى فى هيكل الفلسفة الدينية نفسه ٠

وأوضح مثال فى هذا ، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا " نظرية النشوء والإرتقاء " ، لأن علماء الغرب أعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها ، بعد دراستهم و ٠٠ ومشاهداتهم ٠٠ واضطروا بناء على هذا إلى تفسير جديد للإسلام فى ضوء النظرية

(١) انظر كتاب " الإسلام يتحدى : مدخل علمى إلى الإيمان " للأستاذ وحيد الدين خان ص ١٩ ، ٢٠ الطبعة الرابعة : القاهرة ٠

(٢) النوع الأول هو فريق من العلماء يعالج قضايا الإسلام بغير إدراك لحقيقة الصراع وأبعاده بين الاسلام وأفكار الغرب المعاصرة ٠

(٣) عبارة " ٠٠ الثورة الفكرية " لا تتمشى إلا إذا كان يقصد مطلق التغيير ، فإن كان يقصد الإسلام كان التعبير بـ " عن طريق المنهج الربانى " هو الأقوم قيلا ٠

الجديدة ، وحين احتاجوا إلى لباس جديد ، قاموا بتفصيل ثوب الإسلام مرة أخرى ، ولكنه ثوب مشوه المعالم ، لا أثر فيه من روح الإسلام ، التي ضاعت مع الأجزاء المقطعة في عملية التلفيق الجديدة .

إن نظرية النشوء والإرتقاء تستهدف إقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية . وبناء على هذا : لابد من أن تحدث الأحوال السيئة في الماضي ، لا في المستقبل . ويروق لهذه النظرية حياة الخلود في الجنة ، ولكنها لا تقبل الخلود في نار الجحيم . ولذا ، ادعى العلماء المسلمون ، الذين قبلوا هذه النظرية ، أن الجحيم ليست مكانا للعذاب (١) ، وإنما هي مركز للتربية والتزكية . فالحياة تواصل مسيرتها في مواجهة الصعاب والمشكلات . والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب ، سوف يمرون بأهوال الجحيم الصعبة ، حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة . ومن هنا ترى هذه الطائفة أن قوانين الملكية — مثلا — في الاسلام ، ليست إلا " أحكاما مؤقتة " ، فإن هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الإجتماعي " ..... ثم يقول " وانني لأشعر بأن المضمار الفسيح الذي هيأته الدراسات العلمية الحديثة لإثبات الدين ، هو تصديق لما جاء في القرآن ، في سورة النمل : " وقل الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها ... " ٩٣ آخر النمل ، وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الإمكانات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة ... "

. . . . . .

تعقيب : يتضح من هذه الكلمات الواعية للأستاذ " وحيد الدين " أنه يفرق بين موقفين متباينين ، وإن اختلطا والتبسا أمام كثير من الأعين التي لم ترزق حدة البصر العلمي ، وعمق البصيرة المؤمنة .

فأما الموقف الأول : فهو موقف المهزومين أمام الحضارة الغربية بصورتيها "الماركسية والرأسمالية " وهؤلاء يفسرون الإسلام تفسيرا تلفيقيا إنهزاميا يشوه حقيقة الإسلام ويمسخ هداياته .

---

(١) هذه الفكرة الخاطئة ، ظهرت في صور شتى قديما وحديثا ... وقد دندن حولها الصوفي محيي الدين ابن عربي في الفتوحات المكية ، وفي فصوص الحكم ، وفي قوله بنجاة فرعون ... وتقرب منها الفكرة الصليبية القائلة بمعنوية العذاب .

وأما الموقف الثانى : فهو موقف الذين فهموا دينهم وحقائقه حق الفهم ، ورأوا فى بعض كشوف العلم وحقائقه ، إيضاحا لبعض أسرار القرآن ، وبيانا لإعجازه الأبدى .

رأى الشيخ محمود محمود شلتوت رحمه الله :

حدد الشيخ [1] رحمه الله موقفه حيال هذه القضية بقوله : " إن تفسير القرآن على مقتضى النظريات العلمية ناحية يجب تنزيه القرآن عنها [2] ، وتحدث عن القائمين بها فقال : " نظروا فى القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : " ما فرطنا فى الكتاب من شئ .. " ٣٨ : الأنعام ، فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا فى القرآن فتحا جديدا ، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة [3]

ويذكر الشيخ صورا من هذا المنهج فيقول [4] : " يفسر أحدهم " فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم " ١٠ ، ١١ : الدخان ، فيفسرها بما ظهر فى هذا العصر من الغازات السامة ، والغازات الخانقة ، وغيرها مما أنتج العقل البشرى من وسائل التدمير والتخريب ، ويغفلون الآية التالية لها : " ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون " ١٢ : الدخان ... وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأنا غيبيا من شؤون الله الخاصة ، لم ينزل بتفصيله وحى ولم يطلع الله على حقيقته أحدا من خلقه ببعض الظواهر التى اكتشفها العلم ، فيفسرون الـ" كتاب المبين " [5] ، والـ " إمام المبين " [6] الذى تحصى فيه الحسنات والسيئات وتعرض على أصحابها يوم القيامة ـ بالتسجيل الهوائى للأصوات البشرية ... والله القادر خلق الكون على هذه السنن لغاية هى محاسبة الناس يوم القيامة ، وعرض أعمالهم عليهم كشريط

---

(١) توفى الشيخ رحمه الله عام ١٩٦٣ م ، ترقى فى عديد من المناصب الدينية حتى صار شيخا للأزهر وموَّلفاته كثيرة منها " التفسير " ، " الاسلام عقيدة وشريعة " ، " من توجيهات الإسلام " ، " منهج القرآن فى بناء المجتمع " ، " الفتاوى " ، " القرآن والقتال " وغيرها .

(٢) انظر تفسير القرآن الكريم ص ٩ ط : الشروق .

(٣) نفسه ص ١١ .

(٤) الكتاب المبين الوارد ذكره فى قوله تعالى : " وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين " ٣ : سبأ .

(٥) والإمام المبين الذى ورد ذكره فى قوله سبحانه : " إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين " ١٢ : يس .

مسجل يضم جميع حركات الناس ، وسكناتهم ، وخواطرهم ، وأقوالهم ، وما قدموا من عمل يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى : " قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى " ٥٢ : طه ، وقوله سبحانه : " وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " ١٣ ، ١٤ : الإسراء ، ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله [1] ثم يتحدث الشيخ عن " جوانب الخطأ في هذا الإتجاه " فيقول : " هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك ، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ، ودقائق الفنون ، وأنواع المعارف . وهي خاطئة لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم . وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع العلوم في كل زمان ومكان .. والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار [2] ...

مناقشة : إذا كان الشيخ الفاضل قد تحدث عن جوانب الخطأ في هذا الإتجاه ، فهناك جوانب صواب ، وجوانب الخطأ كما سبق أن بينا - إنما هي من سوء تطبيق المنهج وسوء فهم العلاقة بين القرآن والعلم .

وإذا كنا مع نهج الشيخ رحمه الله في إنكاره تفسير " الكتاب المبين " ، " والإمام المبين " بالتسجيل الهوائي للأصوات ، لأن هذا ضرب من الإفتيات على غيب الله سبحانه ، فإن الخطة التي نراها أن يقف في تفسير الكتاب المبين عندما تدل عليه ألفاظ القرآن ، وما فهمه أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه منها ، ثم يبين المفسر - ردا على شبهات الملاحدة ومنكري البعث ، بما توصل إليه العلم من بقاء الأصوات مسجلة في الأثير ، لبيان قدرة الله في ذلك ، وهذا الذي توصل إليه العلم ، كشف عن بعض أسرار القدرة الربانية التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء ، أي لا يذكر هذا الكشف العلمي كتفسير للآية ، وإنما كحجة على المكذبين وتقريب لما تستبعده وتمارى فيه عقول الممترين ، وهو ضرب من آيات الله في الآفاق .

---

(١) انظر تفسير الشيخ شلتوت ص ١٢ ، ١٣ بايجاز .

(٢) انظر تفسير الشيخ شلتوت ص ١٣ .

رأى الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله :

تتفق وجهة نظر الدكتور الذهبي [١] رحمه الله مع نظرة العلماء المعارضين للتفسير العلمي، فقد ناقش المسألة في كتابه (التفسير والمفسرون) [٢] ويتلخص رأيه في قوله [٣] :

" .. فإذا نحن ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شيء ، وجعلناه مصدر الجوامع الطب ، وضوابط الفلك ، ونظريات الهندسة ، وقوانين الكيمياء ، وما إلى ذلك من العلوم المختلفة ، لكنا بذلك قد أوقعنا الشك في عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم ، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات لا قرار لها ولا بقاء .... ويبدو لنا أن أنصار فكرة التفسير العلمي ، لم يقولوا بها ولم يعملوا على تأييدها إلا بعد أن نظروا إليها كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبيان صلاحيته للحياة ، وتمشيه معها على اختلاف أحوالها وتطور أزمانها . ولكن .. " ما هكذا يا سعد تورد الإبل " ، فإن إعجاز القرآن غني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك المتكلف ... "

هل طرأ على هذا الرأي تعديل ؟

كان هذا ما ذكره فضيلته في كتابه " التفسير والمفسرون " وهو مطبوع في عام ١٩٦١

---

(١) كتبت هذا البحث من مباحث الرسالة حين كان فضيلته يشغل منصب وزير الأوقاف وشئون الأزهر .. وقد أفضى الرجل إلى ربه ، وقد أصبح الوفاء وابها مبرأً من أهواء الدنيا ، وأن هذا الوفاء ليملي على كاتب هذه الرسالة أن يذكر للرجل الفاضل دوره في تسجيل هذه الرسالة أمام مجلس جامعة الأزهر ، والدفاع عن خطتها والثناء على منهجها ، دون أن تكون هناك أية علاقة تربطه بصاحبها إلا رحم العلم والرغبة في الإنتصار للحق ، ولما بلغني موقفه لقيته لأشكره ، وما كان يعرفني ، فلقيني لقاء الوامق وأبى عليه كرم خلقه : أن لا يجلس إلى مكتبه إلا إذا جلست ضيفا عليه ، ثم ودعني بعد أن علم بسفرتي عن مصر وداع الوالد الحفي ... وهكذا تأفل الدنيا ، وتزول دولها .. ولكن يبقى الذكر الحسن ، ولسان الصدق ، وكريم الوفاء ، فرحم الله الشيخ وغفر له .

(٢) انظر (التفسير والمفسرون) الجزء الثالث وقد عقد الدكتور رحمه الله الفصل الثامن لمناقشة " التفسير العلمي " ص ١٤٠ ـ ١٦٠ .

(٣) انظر نفسه جـ ٣ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ باختصار .

ثم قرأنا لفضيلته مقالا بمجلة " الوعى الإسلامى [1] " وجدنا فيه تعديلا للموقف السابق ، فقد تحدث عن " جوانب الإعجاز فى القرآن الكريم " فجعل " الإعجاز العلمى " جانبا من جوانب الإعجاز ، وذلك حين قال : " اشتماله - أى القرآن - على كثير من العلوم والمعارف ، التى كشف عنها العلم فيما بعد ، ولا زال يكشف عنها إلى اليوم ، وسوف يظل يكشف عنها على مدى الدهر وإلى الأبد . ولا نريد أن نستقصى كل ما حواه القرآن تصريحا أو تلميحا من علوم كونية ، وإنما نكتفى بثلاثة أمثلة نذكرها كشواهد على الإعجاز العلمى للقرآن ، وذكر التفسير العلمى لقوله تعالى : " أَوَلَمْ يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما " ٣٠ : الأنبياء ، ولقوله : " هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نورا .. " ٥ : يونس ، ولقوله سبحانه : " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه " ٣ ، ٤ : القيامة ... ثم عقب بعد التفسير العلمى - لهذه الآية بقوله " ولا شك أن انطواء الآية على هذه الحقيقة العلمية ، التى لم يكشف عنها العلم إلا حديثا ضرب من ضروب الإعجاز العلمى للقرآن الكريم ... " ولا شك أن هذه الكلمات تفصح بوضوح عن نوع مغايرة لرأى الأول الذى ارتآه فضيلته فى هذه المسألة .

رأى الشيخ محمد الصادق عرجون :

وقف الشيخ [2] مع قبيل المعارضين للتفسير العلمى ، وفى كتاب له بعنوان " نحو منهج لتفسير القرآن الكريم [3] " قال عن أصحاب التأويلات الحديثة [4] : " والذين حاولوا أن يتحرروا لم يكن لهم من سلاح العلم الصحيح ، والعقل الرجيح ، والإعتصام بأصول الإسلام ، ما يعصمهم عن الوقوع فى مزالق التقليد الأهوج لقوم هم أبعد ما يكونون عن الإسلام ومفاهيم هدايته ، وهؤلاء تعللوا ولم يتحرروا ، وحملوا القرآن فى تفسيره مالا تحتمله آياته من أقوال ومذاهب ونظريات ، هى أقرب إلى التعسف والتحريف منها إلى

(١) انظر مجلة الوعى الإسلامى العدد ٩٤ شوال ١٣٩٢ هـ ، نوفمبر ١٩٧٢م ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) هو أحد علماء الأزهر المعاصرين المعروفين ، وكان عميدا لكلية أصول الدين بالقاهرة ، وله عدد من المؤلفات فى الدراسات القرآنية ، والسيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامى .

(٣) هو كتيب صغير الحجم ، تعرض فيه للتفسير العلمى ، ولبعض تأويلات الشيخ محمد عبده ، والعنوان أكبر من المحتويات ولعله من عمل الناشر ، وهو من مطبوعات العصر الحديث بلبنان ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ .

(٤) انظر الكتاب المذكور ص ١٨ ، ١٩ .

التفسير والتحرير ، فخصصوا العام ، عمموا الخاص ، وأطلقوا المقيد ، وقيدوا المطلق ، ونسخوا المحكم ، وأحالوا الظواهر ، وجعلوا ما للآخرة منه للدنيا ، وما للدنيا للآخرة .

والذي يثير الدهش والأسف ، أن بعضا من الأفاضل الأكابر الذين أجادوا بيان هداية القرآن في بعض بحوثهم الدراسية للقرآن الكريم بعرفهم تيار التجديد فأنزلقوا في منحدر التأويل المتعسف ، وطول بعضهم اخضاع آيات القرآن لنظريات زعم أصحابها أنه قد استقام لها الإستدلال ، وأصبحت علما مقررا لا يحتمل الشك والإرتياب ، مع أنها نظريات لا تزال يحوزها الإستقرار العلمي ، وتنتقد البرهان الذي يرفعها إلى مظنونات الحقائق بله اليقين ٠٠٠٠ " الخ

رأي الشيخ محمد الزفزاف : بعد أن أشار إلى بعض محاولات العلماء للربط بين القرآن والنظريات العلمية ، قال [1] : " والذي لا شك فيه ، أن اعجاز القرآن لا يحتاج إلى هذا ، بل إن وصل هذه العلوم بالقرآن قد يضر ، فإن كثيرا من القضايا العلمية قد يسلم اليوم ، ثم يثبت بعد ذلك بطلانه ، وهذا مما يجعل القرآن لو سير في تفسيره ٠٠ على هذا النحو ـ عرضة لقيل والقال ، وهو والله بريء منه "

رأي الاستاذ محمد عزة دروزة [2] :

فأما محمد عزة صاحب " التفسير الحديث " نعتد تعرضه لقول الحق جل ذكره: "بلى قادرين على أن نسوي بنانه " ٤ : القيامة ، وجد الفرصة سانحة للإدلاء برأيه حول منهج التفسير العلمي فقال [3] " ولقد قرأنا مقالا أراد كاتبه أن يجعل صلة بين اختصاص البنان بالذكر ، وبين ما ظهر حديثا من علم بصمات الأصبع ، وما صار له من خطورة في إثبات شخصيات الناس ، وتمشيا مع الفكرة التي سادت ٠٠ من استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه ، ومعجزات الله المشار إليها فيه ٠

(١) انظر ص١٨٦ من كتاب : التعريف بالقرآن والحديث للشيخ محمد الزفزاف: أستاذ الشريعة الإسلامية ، ووكيل كلية دار العلوم الأسبق ط: مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م

(٢) محمد عزة دروزة ، كاتب معاصر ولد بفلسطين ١٣٠٥ هـ ـ ١٨٨٨م ، له عديد من المؤلفات شملت : التفسير ، وعلوم القرآن ، والسيرة المحمدية ، وتاريخ العرب ، وتاريخ بني إسرائيل ، وبعض هذه المؤلفات يقوم في عدة أجزاء ٠

(٣) التفسير الحديث ج ٢ ص ٧ ط : عيسى الحلبي ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م

وفى هذا فى اعتقادنا ـ تحميل لكلمات القرآن وآياته غير ما تحتمل ، وإخراج له من نطاق قدسيته وغايته ، وتعريض له للجدل والنقاش ، ولقد نزل القرآن بلسان العرب على قوم يفهمونه ، وأمر الله نبيه بشرحه ـ والنظريات الحديثة لم تكن معلومة ولا مكشوفة ـ ولا يصح لمسلم ـ مهما حَسُنَتْ نيته ـ أن يدعى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف جميع ما تضمنته آيات القرآن ، وأن الله عز وجل أبقى الأسرار الكونية ـ التى لم تكن مكشوفة ولا معلومة ـ خافية عن النبى صلى الله عليه وسلم .... وإنَّ فى عالم الحياة والجماد من الدقة والإتقان ما يبعث الذهول فى النفس ، ويملؤها بالدهشة ، وليس البنان وتكوينه إلا نقطة من محيط عظيم " .

مناقشة هذا الرأى :

أما قوله بأن التفسير العلمى للقرآن "إخراجٌ له من نطاق قدسيته وغايته ، وتعريض له للجدل والنقاش .. " فالجواب : إن التفسير العلمى تفسير بالرأى ، يُرَدُّ عليه حكم التفسير بالرأى : يُذَمُّ إن كان خطأ وافتياتا ، ويُحْمَدُ إن تمشى مع روح القرآن وأهدافه ، ولا يخفى على الكاتب الفاضل أن آراء المفسرين على اختلاف مناهجهم معرضةٌ للجدل والنقاش ، إلا فى البَيِّنِ بنفسه ، وما صح عن المعصوم صلوات الله عليه .

أما قوله : وأمر الله نبيَّه بشرحه ... فالكاتب نفسه لا يخفى عليه ما فى هذا القول من توسع وتجاوز ، فإن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، لم يفسر القرآن كله آيةً آيةً ، وكلمة كلمة ، بل فسر ما تحتاج إليه الأمة ، ويكتمل به بلاغ الرسالة ، ولهذه القضية تفصيل فى غير هذا الموضع .

وأما قوله : ولا يصح لمسلم أن يدعى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف جميع ما تضمنته آيات القرآن .

فالجواب : لا مشاحة فى أن رسول الله هو أعلم خلق الله جميعا بالله ، وأدراهم بأسرار القرآن ، وأفهمهم لأحكامه والآيات الكونية فى القرآن تضمنت إشارات علمية وعاها أوعى قلب خلقه الله ، وأما تفاصيلها فليست من غايات القرآن ولا من مهمة الرسول ... ولو بيَّن الرسول شيئاً منها لأمة أمية لما استوعبته ، وما هو بالهدف المحض من أهداف رسالته ... ورسول الله فى حادثة تأبير النخل ، يقول لأصحابه أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وفى

أحاديث الفتن قال من العبارات الوجيزة ، والإشارات البصيرة ، ما لم يعرف تفسيره الا عند وقوعه ، كحديث قتل الفئة الباغية لعمار بن ياسر ، وحديث إصلاح الحسن بين فئتين من المسلمين .

وأما قوله : إن في عالم الحياة والجماد من الدقة والإتقان ما يبعث الذهول في النفس .... نتمم له المسألة بقولنا : فماذا لو أشارت آيات القرآن إلى هذه الدقة المذهلة والإتقان العجيب ؟ أليس ذلك من غايات القرآن الكريم ؟ !

رأى الشيخ أحمد حسن الباقوري :

تحدث الشيخ الباقوري في كتابه " من القرآن " عن الإتجاهات المنحرفة في التفسير وضرب الأمثلة لذلك ببعض التفسيرات العلمية فقال : " .. ومثال سادس : يظهر به إنحراف الذين يتهافتون على مباهاة الذكر من طريق تفسير القرآن على صورة لا مفهومة ولا مهضومة ، كتفسيرهم الآية الشريفة : " يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان " ٣٣ : الرحمن ، وقد قالوا إن المراد بالسلطان : سلطان العلم ، واحتجوا لذلك بأن سلطان العلم بلغ بسواد الفضاء القمر ، حتى نزلوا على سطحه ، وتجولوا في نواحيه .

وقد فات هؤلاء أن رواد الفضاء لم ينفذوا من أقطار السموات ، بل ولا من أقطار الأرض ، فإن الهواء الذي يتنفسونه من أنابيب يحملونها على ظهورهم ، والكساء الذي يقون به أبدانهم ، والطعام الذي يأكلونه في سفينتهم ... كل ذلك من الأرض ، فهم لم ينفصلوا عن الأرض مع وقوفهم على سطح القمر . وقد غفل هؤلاء أشد الغفلة عن مساق الآية وأنها واردة على سبيل التعجيز كقوله تعالى : " قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم ... " ٥٠ ، ٥١ : الإسراء (١)

ولنا رأي : نقول الاستاذ إن رواد الفضاء لم ينفذوا من أقطار الأرض هو أيضا قول لا يهضمه الواقع ، ويحتاج منه إلى معاودة النظر .

---

(١) انظر ص ٧٧ ، ٧٨ من كتابه " من القرآن " ط : مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٧٠م

رأى الدكتور احمد الشرباصى :

تناول الشيخ الموضوع فى كتيب له عنوانه " قصة التفسير " وقد قرر فيه[1] " وجود آيات قرآنية تشير إلى حقائق علمية ، وتحض على التطلع والبحث والتنقيب ، وقد اتجه بعض المسلمين منذ القدم إلى إيجاد رابطة بين القرآن والعلم ، واجتهدوا فى استنباط طائفة من العلوم من آيات القرآن ، وتعددت هذه المحاولة ، واتسع نطاقها ، وكان من ورائها — دون شك — ثمرات وفوائد " بعد أن استعرض آراء نفر من العلماء فى المسألة ، أنهى مناقشته للمسألة بقوله[2] " والذى نستطيع الجزم به هو أن القرآن الكريم لا يوجد فيه نص من النصوص يناقض حقيقة علمية ثابتة ، وهذه ناحية من نواحى إعجازه ، كما أن الذى أشار إليه من الحقائق العلمية يعد أيضا دليلا من دلائل هذا الإعجاز ، وهذا القدر فى التدليل على إعجاز القرآن من هذه الناحية يكفى ويشفى ، وما وراءه تزيد بغير يقين ، وتعريض للنص القرآنى لبلبلة الآراء والنظريات " .

. . . . .

رأى الدكتورة عائشة عبد الرحمن :

يعد رأى " الدكتورة " فى هذا الموضوع ، إمتدادا لمنهج زوجها وشيخها الأستاذ أمين الخولى ، وقد أكثرت من ترديد رأيها هذا فى السنوات الأخيرة ، فقالت[3] فى رد ها على الطبيب مصطفى محمود " ... وأول ما يشغلنى من هذه القضية هو أن الدعوة إلى فهم القرآن بغير ما فهمه المبعوث به عليه الصلاة والسلام ، تسوق إلى الإقناع بالفكرة السامة التى تنأى بأبناء العصر عن مدرسة النبوة ، ونتورط من هذا إلى المزلق الخطر يتسلل إلى عقول أبناء الأمة وضمائرهم ، فيرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم (ما لم يفهمه النبى الأمى من : بيولوجيا ، وجيولوجيا ، وكيمياء عضوية ، وعلم أجنة ، وتشريح ، وأنثروبولوجيا) فليس صالحا لزماننا ولا جديرا بأن تسيغه عقليتنا العلمية أو يقبله منطقنا العصرى .

(١) أنظر فصل التفسير العلمى الصفحات من ١٢٢ — ١٢٧ من كتاب " قصة التفسير " المكتبة الثقافية .
(٢) نفسه ص ١٢٧ .
(٣) أنظر كتاب : القرآن والتفسير العصرى : هذا بلاغ للناس "ظ: المعارف سلسلة " اقرأ " ١٩٧٠ م . وأعادت نشره كباب بكتابها : " القرآن وقضايا الإنسان "ص٢٧٩ ، ٢٨٠ ط : دار العلم للملايين ببيروت : ١٩٧٢ م .

هكذا باسم العصرية ، تنزيههم بأن يرتضوا فهم كتاب الإسلام بعقلية نبي الإسلام وصحابته ، ليفهموه في تفسير عصري من بدع هذا الزمان ، وباسم العلم تخايلهم بتأويلات محدثة تلوك ألفاظا ساذجة صماء : عن الذرة ، والألكترون ، وتكولوجيا السدود ، وبيولوجيا الحشرات ، وديناميكا الصلب ، وجيولوجيا القمر .." أ هـ

تعقيب : نلاحظ أن الدكتورة وهي أستاذ بالجامعة تناقش المسألة ، مناقشة خطابية .. ونحن نريد منها التفرقة بين أمرين : أولهما : تحميل ألفاظ القرآن ما لا تحتمله بدعوى العصرية ، فهذا تعسف في الفهم ، وافتيات على الحق .

والأمر الآخر : أن تتضافر كل العلوم في خدمة كتاب الله تبارك وتعالى وهو ما نراه حَرِياً بكل مفسر ، وواجبا على كل متفهم ومتدبر لكتاب الله ، والقرآن بَحْرٌ لا يُسْبَرُ غوره ، وهو أعظم من أن يلم بعلومه فرد واحد .... وسيظل من أسقط بكل شيء علما .

رأي الدكتور شوقي ضيف :[1]

في مقدمة تفسيره لسورة الرحمن ، عرض لهذا الموضوع فقال [2] " .. القرآن فوق كل علم ، ومن الخطأ أن يتخذ ذريعة لإثبات نظريات علمية في الطبيعة والعلوم الكونية والفلكية ، وهو لم ينزل لبيان قواعد العلم ولا لتفسير ظواهر الكون ، وما ذكر فيه من خلق السموات والأرض والأفلاك والكواكب ، إنما يراد به حكمة الله ، وأن لوجود خالقا أعلى يديره وينظم قوانينه " .

وما سبق لنا من مناقشة الآراء السابقة يغنى عن إعادة القول في المسألة .

---

(١) الدكتور شوقي أستاذ للأدب العربي بجامعة القاهرة ، وكان نشاطه التأليفي في الناحية الأدبية والبلاغية ، وقد دخل ميدان الدراسات القرآنية حين حقق بأخرة كتابا في القراءات السبعة " لابن مجاهد " وكتب تفسيرا لسورة الرحمن وبعض السور القصار .

(٢) أنظر " تفسير سورة الرحمن وسور قصار عرض ودراسة " المقدمة ص ١٠ ط : المعارف بالقاهرة .

" المؤيدون للتفسير العلمي "

نعرض في الصحائف التالية لآراء من أيد هذا المنهج أوطبقه من العلماء ، معقبين على بعض أقوالهم محاذرين من التكرار :ـ

١) رأي أبي حامد الغزالي : (١)

كان أبو حامد الغزالي من الذين يرون أن القرآن يحوي أسس كل العلوم الدينية والدنيوية فهو يذكر في كتابه الإحياء قول بعض العلماء " لكل آية ستون ألف فهم ، وما بقي من فهمها أكثر ، وقال آخرون القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومئتي علم (٢) " .

وكان عباراته أوضح وأصرح في التعبير عن هذا المنهج في كتابه " جواهر القرآن " حين قال : " .. ثم هذه العلوم ما عددنا منها وما لم نعد ، ليست أوائلها خارجة عن القرآن ، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد ـ فمن أفعال الله تعالى ، وهو بحر الأفعال : فمثلا :ـ

علم الطب : الشفاء والمرض ، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ، " وإذا مرضت فهو يشفين " ٨٠ : الشعراء ، هذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله ، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه .

علم الفلك : ومن أفعاله : تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان وقال الله تعالى : " الشمس والقمر بحسبان " ٥ : الرحمن ، وقال : " وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب " ٥ : يونس ، وقال : " وخسف القمر وجمع الشمس والقمر " ٨ ، ٩ : القيامة ، وقال : " يولج الليل في النهار ويولج النهار في

---

(١) هو أبو حامد : محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي نسبة إلى طوس وهو مدينة بخراسان وفيها كان مولده عام ٤٥٠ هـ ، له العديد من المؤلفات : " إحياء علوم الدين " ، " جواهر القرآن " ، " وإلجام العوام عن علم الكلام " ، " والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى " ، " والمستصفى في أصول الفقه " وله في التصوف كتب تحتاج أن توزن بميزان القرآن والسنة " كالمنقذ من الضلال " ، " مشكاة الأنوار " .

(٢) أنظر الإحياء جـ١ ص ٢٩٠ .

(٣) أنظر " جواهر القرآن " ص ٢٩ ، ٣٠ ط : الجندي القاهرة سنة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

(٤) في الطبعات " من القرآن " وهو تصحيف .

الليل " ٦ : الحديد ، وقال : " والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم " ٣٨ : يس ، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل فى النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر ، إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه .

علم التشريح : ولا يعرف كما لمعنى قوله سبحانه : " يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك " ٦ : ٨ : الإنفطار ، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا ، وعددها وأنواعها ، وحكمتها ومنافعها ، وقد أشار فى القرآن فى مواضع إليها وهى من علوم الأولين والآخرين ، وفى القرآن مجامع علم الأولين والآخرين .

كيفية الخلق : وكذلك لا يعرف كمال معنى قوله : " سويته ونفخت فيه من روحى " ٢٩ : الحجر ، ما لم يعلم التسوية والنفخ والروح ، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق ، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها .

ثم قال الغزالى ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها ، وقد أشرنا إليه حيث ذكرنا أن من جملة معرفة الله تعالى معرفة أفعاله ، فتلك الجملة تشتمل على هذه التفاصيل .

وكذلك كل قسم أجملناه لو شعّب لانشعب إلى تفاصيل كثيرة .

فتفكر فى القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين ، وإنما التفكر فيه للتوصل من جملته إلى تفصيله وهو البحر الذى لا شاطئ له . أ هـ .

هذا بعض القول عن نظرة أبى حامد الغزالى للمنهج العلمى فى التفسير وهو قليل يغنى عن كثير .

٢) منهج الفخر الرازى : (٢)

عنى الفخر الرازى فى تفسيره " مفاتيح الغيب " بالربط بين الآيات الكونية فى القرآن وبين العلوم الطبيعية ، وهو من المفسرين الذين أولوا هذه الناحية عناية كبيرة حتى

---

(١) العناوين الجانبية ، وترقيم الآيات ، والتقسيم إلى فقرات من وضع كاتب هذه الرسالة .

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسين بن على القرشى التيمى البكرى الطبرستانى ، ابن خطيب الرى ، وعرف بفخر الدين الرازى ، ونسبة الرازى إلى الرى على غير قياس ، ولد فى ٢٥ من رمضان ٥٤٣ هـ ومات فى غرة شوال سنة ٦٠٦ هـ وقيل إنه مات مسموما انظر شذرات الذهب لابن العماد حـ٥ ص١٢ وما بعدها ، والبداية والنهاية حـ١٣ ص ٥٥ وفيات الأعيان حـ٢ ص ٢٦٥ ومن مؤلفاته " أساس التقديس " ، والمطالب العالية ، المحصول فى أصول الفقه وغيرها .

كانت مثار انتقاد عليه : فقديما أورد صاحب كشف الظنون بعض هذه الإنتقادات ومنها العبارة المشتهرة " فيه كل شيء إلا التفسير "(١) وحديثا عد الشيخ رشيد رضا عناية الامام الرازى بالناحية العلمية بأنها من الصوارف عن تدبر آيات القرآن (٢).

ومن صور توسع الرازى فى إلحاق المباحث العلمية بتفسير الآيات القرآنية ما وجدناه منه عند تفسيره لقول الحق جل ذكره : " إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون " ١٦٤ : البقرة ، فقد ذكر تفسيرها فى " ثلاثين صفحة(٣) كاملة " من القطع الكبير ، وكان مما ذكره فى تفسيرها أن فسيها مر " بعمر الأبهرى " بينما كان يقرأ عليه تلميذه " عمر بن الحسام " كتابا فى الطبيعة فقال الفقيه ماذا تقرءون فأجاب " الأبهرى " : أفسر آية من القرآن فقال وهى قوله تعالى : " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها " ٦ : ق ، فأنا أفسر كيفية بنيانها ، ثم عقب الرازى قائلا : " وقد صدق الأبهرى فإن من كان أكثر توغلا فى بحار مخلوقات الله تعالى ، كان أكثر علما بجلال الله وعظمته " ثم بدأ الرازى فى التفسير العلمى للآية على النحو التالى :-

أ - الكلام فى أحوال السموات على الوجه المختصر الذى يليق بهذا الموضع مرتب فى فصول(٤)

الفصل الأول : فى ترتيب الأفلاك وتضمن أربعة مباحث .

الفصل الثانى : فى معرفة الأفلاك .

الفصل الثالث : فى مقادير حركات الأفلاك .

الفصل الرابع : فى كيفية الإستدلال بهذه الأحوال على وجود الصانع .

ب - أحوال الأرض : وجعله فى فصلين :

الفصل الاول : فى بيان أحوال الأرض .

الفصل الثانى : فى بيان الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع .

حـ - اختلاف الليل والنهار : عقده فى عدة مسائل ، واستخرج منه الدلائل .

د - الفلك التى تجرى : جعله فى مسائل ، واستخرج منه الدلائل .

هـ - وما أنزل الله من السماء من ماء وقد حذى فيه المنهج السابق من المسائل والدلائل .

و - " وبث فيها من كل دابة " فتكلم عن منافع الناس من الدواب ، وآيات الله فيها .

---

(١) انظر كشف الظنون لحاجى خليفة جـ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) انظر تفسير المنار جـ١ ص ٨ ط : هيئة الكتاب .

(٣) انظر الجزء الرابع من تفسيره من أول ص ٢٠٠ إلى نهاية ص ٢٢٩ .

(٤) هذه نص عبارات الرازى أى أنه مع هذه الإطالة يصف صنيعه بأنه مختصر .

ز ـ تصريف الرياح : وتكلم عن حركاتها وآيات الله فيها .

كل ذلك صنعه الرازى فى اسهاب وتوسع ، وصفه هو بالإختصار والأمثلة على ذلك كثيرة كثيرة ، ولا عجب فقد حصل الرازى الكثير من العلوم والمعارف وله كتب فى النبض والتشريح ومسائل فى الطب والأشربة (١) .

التفسير العلمى عند الكاتبين فى علوم القرآن :

الكتب المؤلفة فى علوم القرآن ـ قديما وحديثا كثيرة (٢) ، ومن أشهرها وأكثرها تداولا : " البرهان " و " الإتقان " وقد تناول الشيخان المسألة فى كتابيهما فماذا قال كل منهما :

٣) الزركشى فى البرهان : (٣)

لم يتناول الزركشى فى البرهان علاقة القرآن بالعلوم الطبيعية التى كانت على عهده وهو من علماء القرن الثامن الهجرى ـ وإنما عرض لعلاقة القرآن بالعلوم الأخرى بعامة ، فعقد فصلا بعنوان (٤) " حاجة المفسر إلى الفهم والتبحر فى العلوم " قال فيه : " كتاب الله بحره عميق ، وفهمه دقيق ، لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر فى العلوم ، وطال الله بتقواه فى السر والعلانية ، وأجله عند مواقف الشبهات . واللطائف والحقائق لا يفهمها إلا من ألقى السمع وهو شهيد ، فالعبارات للعموم وهى للسمع ، والإشارات للخصوص وهو للعقل ..

وقال ابن مسعود : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور (٥) القرآن . قال البيهقى : أراد به أصول العلم ، وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم ، وما بقى من فهمها أكثر . وقال آخر : القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم ، إذ لكل سلمة ظاهر وباطن ، وحد ومطلع . وبالجملة فالعلوم كلها داخلة

---

(١) انظر عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لأبى العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى المعروف بابن أبى أصيبعه مرجع ص ٤٦٦ : ٤٧٠ تجد ترجمة للرازى ، وقد شرح الطبقات دكتور نزار رضا ونشرتها مكتبة الحياه ببيروت ١٩٦٥ م .

(٢) تجد أسماء بعض هذه الكتب المؤلفة فى علوم القرآن فى كتاب " كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون " المجلد الأول مادة " التفسير " ص ٤٣٤ ـ ٤٦٢ مقدمة " الاتقان " للسيوطى حـ١ ص ٧ ، والمدخل إلى دراسة القرآن الكريم للدكتور أبو شهبه .

(٣) هو الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، وكتابه " البرهان فى علوم القرآن " فى أربعة أجزاء ، وقد حققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ط : الحلبى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م . (٤) البرهان حـ ٢ ص ١٥٣ ـ ١٥٥ .

(٥) فليثور القرآن : أى لينقر عنه وليفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته . ونقله عن النهاية (١ : ١٣٨) فى غريب الحديث لابن الاثير مادة ثور وفى رواية فليتدبر القرآن .

في أفعال الله وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله ، فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا ... " اهـ[1].

توسع عجيب : توسع الزركشي في المسألة توسعا عجبا ، حتى حمل ألفاظ القرآن ما لا تحتمله بربطها بالعلوم كلها ، وحتى أداه الأمر إلى نقل هذا القول المجازف وهو " لكل آية ستون ألف فهم .. " وهي قالة تهدم الضوابط والموازين في فهم القرآن ، ولكل مدع مفتات أن يقول في القرآن بهواه ما دام هناك ستون ألف فهم في الآية الواحدة ، وما بقي من فهمها أكثر من هذه الآلاف الستين ... وأما القول بالظاهر والباطن فمناقشته في باب " التأويلات وشططها من هذه الرسالة "[2] ، بل إن الزركشي نفسه ليعيب مسالك الصوفية والباطنية في تفسير القرآن ، وقال عنها إنها ليست تفسيرا ... وقال ابن الصلاح في فتاويه : وقد وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي أنه قال : صنف أبو عبد الرحمن السلمي " حقائق التفسير " فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر "[3] .

٤) السيوطي في الإتقان :

أما السيوطي وهو من علماء القرن العاشر الهجري[4] ـ فقد كان تناوله للمشكلة أوضح وأصرح ، حين جمل النوع الخاص والستين بعنوان " العلوم المستنبطة من القرآن "[5] في كتابه " الإتقان في علوم القرآن " .

ابتدأ السيوطي فصله هذا بالإستدلال بقول الله جل ذكره : " .. ما فرطنا في الكتاب من شيء " ٣٨ : الأنعام ، وقوله سبحانه : " ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء " ٨٩ : النحل ، وبقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ستكون فتن كقطع الليل ، قيل فما المخرج منها ، قال : كتاب الله : فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم " أخرجه الترمذي[6] ... ثم أدار القول على أن في القرآن علم كل شيء ، وأن ما جاءت به السنة فأصله في القرآن ، أو بأمر القرآن لنا باتباع الرسول "ص"

---

(١) البرهان كما تقدم ، وقد ذكر الغزالي في الاحياء بعد هذه النقول حـ١ ص ٢٦٠ ، كذلك نقل السيوطي عن أبي بكر بن العربي الفقيه المالكي أنه قال في كتابه قانون التأويل ان علوم القرآن ٧٧٤٥٠ خمسون وأربعمائة وسبعة وسبعون ألف علم انظر الاتقان حـ٢ ص ١٢٨ .

(٢) انظر كذلك ما نقله الزركشي في موضوع الظاهر والباطن حـ٢ ص ١٦٩ .

(٣) البرهان حـ٢ ص ١٧٠ و ١٧١ .

(٤) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي توفي عام ٩١١ هـ .

(٥) انظر الاتقان حـ٢ ص ١٢٥ ـ ١٣١ مصورة بيروت .

(٦) الأصح في هذا الحديث أنه موقوف عن كلام الإمام علي رضي الله عنه ، وانظر فضائل القرآن لابن كثير ملحق بتفسيره حـ٧ ص ٤٣٤ ط : الفكر بيروت .

كما قال ابن برهان : ما قال النبى شيئا إلا وهو فى القرآن ، أو فيه أصله قرب أو بعد فهمه من فهمه ، وعمه عنه من عمه ... واعتمد السيوطى بقول من قال : إنه ما من شىء إلا ويمكن استخراجه من القرآن .. حتى إن بعضهم استنبط عمر النبى صلى الله عليه وسلم من قول الله سبحانه : " ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون " ١١ : المنافقون ، فإنها على رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده . (١)

ثم نقل السيوطى عن الراغب قوله : إن من معجزة الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم ، بحيث تقصر الآلات البشرية عن إحصائه ، كما قال سبحانه " ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم " ٢٧ : لقمان ،

كالبدر من حيث التفت رأيته .. يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا
كالشمس فى كبد السماء وضوؤها .. يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

ثم كرر السيوطى رأيه فى المسألة بقوله " .. قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شىء ، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هى أصل إلا وفى القرآن ما يدل عليها ، وفيه عجائب المخلوقات ، وملكوت السموات والأرض ، وما فى الأفق الأعلى وما تحت الثرى(٢) " .

وقفة مع السيوطى :

توسع السيوطى فى المسألة توسعا عجبا وكانت النقول التى أستشهد بها أعجب ، اذ كيف يستنبط مستنبط عمر النبى صلى الله عليه وسلم من الآية : ١١ سورة " المنافقون " المذكورة ، بينما هذه الآية مرتبطة بالآية السابقة عليها وهى : " وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن(٣) من الصالحين " .. فكان جواب القرآن " ولن يؤخر الله نفسا " فهل من اللائق فى هذا السياق أن يضع فيه مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يجعل المقصود من " نفسا " نفس رسول الله صلوات الله عليه ؟ ثم يربط ربطا جزافيا بين تفسير الآية ورقم السورة التى فيها الآية ، ثم يبالغ فى التمحل لينزع سلمة " التغابن " فى قوله سبحانه : " يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن .. " ٩ : التغابن ، ثم يحمل اللفظة محملا بعيدا عن محاملها ودلالتها .

---

(١) هذا النقل أيضا فى البرهان حـ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ . (٢) الإتقان حـ٢ ص ١٢٩ .
(٣) جزم " أكن " للعطف على موضع التاء وما بعده وقرأ ابو عمرو وأكون بالنصب عطفا على فأصدق وقرىء بالرفع على وأنا أكون "البيضاوى وحاشية الجمل " .

٥) نظرة أبي الفضل المرسي في المسألة : (١)

ذهب أبو الفضل المرسي ـ كما نقل السيوطي عنه ـ إلى أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ـ ثم الرسول صلوات الله عليه ، ثم ورث معظم ذلك عنه أعلام الصحابة ، ثم التابعون ، ثم اختصت كل فرقة بفنها ، فالقراء : بالقراءات ومخارج الحروف ، والنحاة : المعرب والمبنى ، واللازم والمتعدى .. ومشكلات الإعراب ، والمفسرون : بدلالات الألفاظ ، وعلماء العقيدة : بأدلة التوحيد والتنزيه .. ، والأصوليون : بالمضمر والنص والظاهر ، والمجمل ، والأمر ، والنهي والنسخ .. ، والفقهاء : بالحلال والحرام والفرائض ، والمؤرخون : بتاريخ الأمم الخالية ... ، والوعاظ : بالوعد والوعيد وذكر المعاد والحساب ... ، وأصحاب الرؤى : بالتعبير ... ، والفلكيون : بالمواقيت ، والبلغاء : ببديع نظمه وإعجازه .

ثم تحدث عن استخراج العلوم الطبيعية من القرآن فقال :

أما الطب :

فمداره على الاعتدال في المآكل والمشارب المأخوذ من قوله تعالى : " .. وكان بين ذلك قواما " ٦٧ : الفرقان ، ومعرفة أسباب الشفاء بعد الاعتلال من قوله سبحانه : " .. يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس " ٦٩ : النحل .. وفي القرآن كذلك طب القلوب وشفاء الصدور .

وأما الهيئة :

ففي الآيات التي استلفتت الأنظار إلى ملكوت السموات والأرض ، وما في العوالم العلوية والسفلية من المخلوقات .

والهندسة :

فمن قوله سبحانه : " انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغني من اللهب " ٣٠ ، ٣١ : المرسلات ، تستنبط قاعدة هندسية ، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له .

وأما الجدل :

ففي آياته من البراهين والمقدمات والنتائج ، ومناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود ومحاجته لقومه ما يفي بهذا .

---

(١) نقلا عن الإتقان بكثير من الإيجاز حـ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٨ ، وطبعة الأستاذ أبي الفضل إبراهيم حـ٤ ص ٣٠ ـ ٣٦ وقد ذكره باسم ابن أبي الفضل المرسي وأغفل التعريف به حتى في الفهارس العامة ، وقد أعياني في العثور على ترجمة له .

والجبـــــر :

فإن أوائل السور فيها تواريخ الأمم السالفة ، ومدة بقاء هذه الأمة ، وعمر الدنيا[1] وما مضى وما بقى مضروب بعضها فى بعـــض .

وأما النجامـــة :

فمن قوله سبحانه : " .. أو أثارة من علم " ٤ : الأحقاف ، فقد فسره بذلـــك ابن عبـــاس .

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها ، كالخياطة فى قولـــه : " وطفقا يخصفـــان .. " ٢٢ : الأعـــراف .

والحـــدادة :

" آتونى زبر الحديد " ٩٦ : الكهف ، " وألنّا له الحديـــد .. " ١٠ : سبأ .

والبنـــــاء :

فى آيـــات

والنجـــارة :

" واصنع الفلك بأعيننـــا " ٣٧ : هـــود .

والغـــــزل :

" نقضت غزلهـــــا " ٩٢ : النحـــل .

والنســـــج :

" كمثل العنكبوت اتخذت بيتا .. " ٤١ : العنكبوت .

والفلاحـــــه :

" أفرأيتم ما تحرثـــــون " ٦٣ : الواقعـــــه .

والغـــــوص :

" كل بنّاء وغوّاص " ٣٧ : ص ، " وتستخرجوا منه حلية " ١٤ : النحـــل .

والصّياغـــــة :

" واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جســـدا " ١٤٨ : الأعراف .

والزّجاجـــــة :

" صرح ممـــرد من قوارير " ٤٤ : النمل ، " المصباح فى زجاجة " ٣٥ : النور .

---

(١) يقصد المؤلف حساب الجمل ، وما أنزل الله كتابه ليفهم بحساب الجمل ، وعمر الدنيا وقيام الساعة مما اســـتأثر الله بعلمـــه .

والفخـــــارة :

" فأوقد لى يا هامان على الطين " ٣٨ : القصص .

والملاحـــــة :

" أما الســـفينة .. " ٧٩ : الكهـــــف .

والكتابـــــة :

" علم بالقلـــم .. " ٤ : العلـــق .

والخبـــز :

" أحمل فوق رأسى خبزا " ٣٦ : يوســـف .

والطبـــخ :

" بعجل حنيـــذ " ٦٩ : هـــود .

والغسل والقصارة :

" وثيابك فطهر " ٤٧ : المدثر ، قال الحواريون : وهم القصارون .

والجـــزارة :

" إلا ما ذكيتم " ٣ : المائـــدة .

والبيع والشـــراء :

فى آيات

والصبـــغ :

" صبغة الله " ١٣٨ : البقرة ، " جدد بيض وحمر " ٢٧ : فاطر .

والحجـــارة :

" وتنحتون من الجبال بيوتا " ١٤٩ : الشعراء .

والكيالة والـوزن :

فى آيـــات

والرمـــى :

" وما رميت إذ رميت " ١٧ : الأنفال ، " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " ٦٠ : الأنفال .

وفيه من أسماء الآلات ، وضروب المأكولات والمشروبات ، والمنكوحات ، وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله سبحانه : " ما فرطنا فى الكتاب من شىء .. " ٣٨ / الأنعام .

تعقيـــب :

يبدو للناظر إلى محاولة أبى الفضل المرسى أنه تمحل وتكلف ويذكرنى هذا الضرب من التكلف بقصة رجل تفرد عن كثير من الناس ببعض الآراء الشاذة حتى سماه قومه

" بالخامس " (١) وكان هو يلقب نفسه بالقرآنى ، وذات يوم ذهب إليه نفر من الشباب يريدون إفحامه فسألوه هل تجد كل شىء فى القرآن فقال نعم فبدءوا معه أسئلة هازلة ساخرة والرجل يجيب بجد لا يتكلفه ويظن أن كل قولة يتفوه بها تخرس خصمه ، وتختم على فيه ، فكان من أسئلتهم هل تجد ذكرا " للمليم " فى القرآن ؟ فقال : نعم ، وتلا قوله تعالى : " فالتقمه الحوت وهو مليم " ١٤٢ : الصافات ، فسألوه عن " النكلة " (٢) هل تجد فى القرآن ذكرا لهما ؟ فأجابهم تاليا قوله تعالى : " فأخذه الله نكال الآخرة والأولى " ٢٥ : النازعات . وسأله أحدهم مرة وكان لقاؤه بهذا الشيخ على شاطىء النيل وكانت ترسو على مياهه باخرة تابعة لشركة أجنبية هى شركة (كوك) فسألوه وهل ورد اسم " كوك " فى القرآن ؟ فأجابهم تاليا قول الله جل ذكره : " وتركوك قائما .. " ١١ : الجمعة ، وظن أحدهم مرة أنه سيبلغ النهاية فى إفحامه " فسأله عن : "الشيكولاته" فأجاب الشيخ على البديهة تاليا من كتاب الله : " قل كل يعمل على شاكلته " ٨٤ : الإسراء .

إن هذا الضرب من الحوار لا جدال فى أنه عبث عابث وهزل رخيص يتنزه عنه كتاب ربنا جل ذكره ، ومثل هذا الهزل المضحك ما ذكرناه تسلية ولا تسرية ، فشأن القرآن أعظم ، وأمره أجل و أكبر ، ولكن ذكرناه لنبين نمطا من التفكير يظن أصحابه أنهم على شىء !!

إن هذا الحوار العابث نقلناه عن مقال للأستاذ العقاد بعنوان " قراءة القواميس " (٣) وقد عقب فيه على أمر هذا الرجل الذى يزعم أنه " قرآنى " بقوله : " والمدهش فى أمره حقا تلك القدرة العجيبة على استحضار الكلمات بحروفها وألفاظها دون المعانى التى قد تعين الحافظ على سرعة الإحضار ، وكان يحفظ القرآن ، وكثير من الناس يحفظون القرآن ، ولكن الذى يمتاز به هو أنك لا تذكر له كلمة إلا جاءك بما يشبه لفظها من القرآن ، ولا عليه من معناها فى اللغة ولا فى كتب هؤلاء النحاة المذبذبين الذين أدخلوا فى الدين ما ليس فيه ! وكان لا يقر لك بالعجز أبدا لأنه كان يعتقد أنه ما من شىء فى الدنيا إلا وقد ورد فى القرآن بحرفه ونصه ، فإذا هو عجز عن إخراج كلمة من كتاب الله نقد شك فى دينه أو ألقى (٤) يد المسلم لمجادليه ... وكلاهما عنده بلاء عظيم ... " .

---

(١) تطلق كلمة " الخامس " فى بعض البلدان العربية على من ترك تقليد المذاهب الأربعة .

(٢) عملة مصرية : تساوى مليمين .

(٣) نشر العقاد هذا المقال بتاريخ ٢٢ من يوليه ١٩٢٩ م ، وأعيد نشره فى كتابه (ساعات بين الكتب) انظر ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ط : النهضة المصرية ، الثالثة ١٩٥٠ م .

(٤) هذا الرأى فى النحاة من سوء نظرة هذا الرجل الذى يتمسح بالقرآن ، وليس رأى العقاد ، كما هو واضح .

" المؤيدون للمنهج في العصر الحديث "

موقف الأفغاني من التأويلات العلمية للقرآن :

دندن الشيخ جمال الدين الأفغاني حول هذا الموضوع في خاطرة من " خاطراته "(١) تحت عنوان " السياسة والعلوم في القرآن " فكان مما قاله : " أما كروية الأرض وهي من الحقائق العلمية ، فقد أشار إليها القرآن بقوله : " والأرض بعد ذلك دحاها " ٣٠ : النازعات ، والدحى : بلغة العرب " البيض " أو الشكل البيضي ... فهذه الإشارة تكفي لتتفق الحقيقة العلمية مع القرآن ، أو نرجع بالتأويل ليتفق القرآن مع الحقيقة العلمية ، لا أن يختلفا ... ووصل علماء الفلك بالبحث إلى أن الأرض والشمس كانتا جرما واحدا ، ثم انفصلت الأرض كرة كما هي اليوم ... فإذا تقرر هذا كحقيقة علمية ، فإننا نرى في القرآن ما لا يخالفها في قوله تعالى : " .. كانتا رتقا ففتقناهما .. " ٣٠ : الأنبياء ، ثم يذكر القرآن بعد الحقائق العلمية والنظريات وأصولها في القرآن ، ثم يقول : وهكذا ترى في القرآن ، إما إشارات إلى كليات العلوم وقواعدها ، وإما بصراحة ، وقد يطول الشرح في تتبعها كلها ، فاجتزأنا بهذا القليل عن الكثير ، وتركنا لطالب المزيد التتبع " اهـ .

٧) رأي الشيخ محمد عبده :

لم يكن الشيخ محمد عبده بحكم النزعة العقلية التي تقوى منهجه من منكري التفسيرات العلمية لبعض آي القرآن الكريم ، بل لعله كان أقرب إلى هذا الإتجاه لرغبته في معايشة المسلمين للمخترعات العصرية ، ولمحاولته التقريب أو التوفيق بين الاسلام والحضارة الاوروبية ... هذه المحاولة التي تحتاج إلى ميزان دقيق ، ولئن أخطأ الرجل أحيانا فقد كان يريد الإحسان — والله أعلم — ، ولنأخذ في سرد تفسيره للطير الأبابيل ، قال (٢) " .. فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه ، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه ، وإن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وإن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن " بالميكروب "

---

(١) انظر كتاب " خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني " لمحمد المخزومي بيروت ١٩٣١م ونقلناها عن الأعمال الكاملة للأفغاني " ص ٢٦٧ جمع محمد عمارة ط: دار الكاتب العربي : القاهرة . (٢) انظر تفسير جزء عم يتساءلون للشيخ محمد عبده ص ١٢٠ ط: الشعب وط : الأميرية : ص ١٥٨ .

لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رءوس الجبال ... فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة .. إلخ ما قال " .

والسؤال الآن : من أين جاء الشيخ محمد عبده بهذا القول ؟ هل جاء في كتاب الله أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والجواب : لا .. بيقين ... إذاً هل كان الشيخ معاصراً للحادثة فرأى وسمع ؟ أم من أين جاءه علم الغيب هذا ؟ إنها وتستحيرعبارة العقاد ـ الأظانين والتخمينات .. ولماذا هذا المسلك ؟ .. لأن "العقلية المتأوبة" التى يريد الشيخ اقناعها بالإسلام لا تستسيغ إلا هذا النهج الذى يمسخ دلالة ألفاظ القرآن الكريم .

ولو كان هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب ، فلماذا لم يسمه القرآن باسمه ، وكلمتا البعوض والذباب ليستا أعجميتين أو مستقبحتين بل وردتا في القرآن الكريم ، فالبعوضة وردت في سورة البقرة آية : ٢٦ ، والذباب ورد في الآية : ٧٣ : في سورة الحج وتكررت اللفظة فيها مرتين .

وإذا كانت مدرسة الشيخ تجنح إلى تفسير الخوارق والمعجزات والغيبيات تفسيراً حسياً ، فعلى هذه القاعدة جاء هذا التفسير ، ومع صراحة النص القرآني في أن الحجارة من سجيل حملتها الطير الأبابيل يشغب الشيخ بحديث الحصبة والجدرى وهى أمراض لا تجعل المصابين بها كالعصف المأكول .

ثم إن التعسف في التأويل يقود إلى مثله ، فلا يقف التأويل عند حد ، ولا يستطيع الشيخ أن يقول عن حجارة أصحاب الفيل ما قال ، ثم لا يؤول الآيات الأخرى الواردة في تعذيب المبطلين في الدنيا ، بإمطار الحجارة عليهم ، فقد ورد خبر القرآن الكريم في تعذيب قوم لوط بحجارة من سجيل : " فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد " ٨٢ ، ٨٣ : هود ، فالحجارة هنا في هذه الآية موصوفة بأنها من سجيل ، وأن السجيل منضود ، وأنها مسومة ، وتكرر هذا المعنى في حق قوم لوط في الآية ٧٤ : الحجر ، ووصفت الحجارة المرسلة عليهم بأنها من طين : " قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين " ٣٢ ـ ٣٤ : الذاريات ..

والسجيـــل : هو الطين إذا تحجر .. ولا حاجة بنا إلى قول من قال : إن السجيل كلمة معربة أصلها ســـنك كـــل .. فهذا إبعاد وأقرب منه قول من قال إن السجيل من السجل أ مما سجل الله عليهـــم أن يعذبهم به .. أو من أسجل الشيء إذا أرسله [1] والإسجال هو الإرسال والمنضود ما وضع بعضه على بعض في ترتيب وتتابع [2] .

وإذا تدبرنا قوله تعالى " من سجيل منضود " رأينا الأولى في فهمها أنها قطع حجـارة من طين متساوية أرسلت عليهم في تتابع كما تتتابع قطرات المطر ، متساوية .

وإذا كان بيان القرآن هو الأولى والأعلى — والقرآن يفسر بعضه بعضا — فلماذا نترك بيان القرآن إلى شطحات العقـــول ؟!

وكما فسر الشيخ محمد عبده : الحجارة بأنها طين مسموم تحمله أرجل الذباب أو البعوض، اضطرب في تفسير الطير فهو البعوض أو الذباب أو الجراثيم " الميكروبات " ، ولو تتبعنا استعمال كلمة الطير في سياق سورة الفيل وفي المواضع الأخرى لها في القرآن لوجدنا الشيخ أبعـــد النجعة أيضا ، فكلمة الطير : وردت جمعا في تسعة عشر موضعا من كتاب الله ، كلها بمعنى ذي الجناحين ، وأما كلمة الطائر : فقد وردت بمعنى ذي الجناحين ، وبمعنى عمـــل الإنسان الذي يطوق به ، وبمعنى التطير ، ولهذا الإشتراك في معاني كلمة الطائـــر إذا جاءت مفردة جاء قوله تعالى : " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمـــم أمثالكم .. " ٣٨ : الأنعام ، فلعل قوله تعالى يطير بجناحيه للفصل بين الحقيقة والمجاز أو لتحديد المراد من بين المعاني المشتركة ، والله أعلـــم .

ورغم أن التأويل الذي قال به الشيخ عبده : لا يؤيده برهان من القرآن ، ولا يدعمـــه دليل من اللغة ، إلا أنه كان عنده هو الصحيح والمعتمد كما قال هو في خاتمة هذا التأويـــل [4] " هذا ما يصح الإعتماد عليه في تفسير السورة ، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبولـــه إلا بتأويل إن صحت روايته " وهكذا أصبح الأصل شاذا والشاذ أصلا !!

وإذا كان تفسير جزء " عم يتساءلون " يعد عملا سلما للشيخ محمد عبده لا يشركه فيـــه غيره ، فإنك واجد فيه من نزعات التأويل ما يقبل ، وما يرد ومما يرد — على سبيل المثـــال — تفسيره لقوله تعالى : " إذا السماء انشقت " : الإنشقاق ، بأن ذلك يكون عند مـــا يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه .. بحادثة .. كأن يمر كوكب في سيره بالقـــرب

(٢٦١) انظر تفسير البيضاوي ص ٥٧٧ . (٢) انظر مختار الصحاح مادة فضد .
(٤) انظر تفسير جزء عم ص ١٢٠ ط : الشعب .

من كوكب آخر فيتجاذبا ، فيتصادما ، فيضطرب نظام الشمس بأسره ، ويحدث من ذلك غمام وأى غمام ، يظهر فى مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع ، فتكون السماء قد تشققت بالغمام ، واختل نظامها حال ظهوره ... " وفى هذا الكلام من التخمين والإفتراض ما يجب أن يتنزه عنه تفسير الكتاب الكريم ، ثم فيه من الخلط بين السماء والمجموعة الشمسية ما لا يستقيم فى موازين العلم ، وفيه من الإجتراء على الغيب ما نقمه الشيخ من غيره ، فغفر الله لنا وله .

٨) رأى الشيخ محمد مصطفى المراغى :

قد يظن من قراءة بعض آراء الشيخ المراغى[1] رحمه الله فى المسألة ، أنه كان من منكرى التأويلات العلمية لبعض آى القرآن ، لكنه فى تقديمه لكتاب : " الإسلام والطب الحديث) للطبيب الدكتور عبد العزيز إسماعيل قال عن هذا المنهج[2] " لست أريد من هذا أن أقول : إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا بالأسلوب التعليمى المعروف ، وإنما أريد أن أقول : إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته والعمل به ، ليبلغ درجة الكمال جسدا وروحا ، وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، ليبينوا للناس جزئياتها ، بقدر ما أوتوا منها فى الزمان الذى هم عائشون فيه ... " إلى أن يقول : يجب ألا نجر الآيات إلى العلوم كى نفسرها ، ولا العلوم إلى الآية ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها ... " أ هـ .

وهذا الرأى الذى ذكره الشيخ — رحمه الله — فيه قَصْدٌ واعتدال واستنارة ويدعم هذا الرأى قوله[3] " وُجد الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية ، ووُجد عندهم مرضٌ آخر هو الغرور بالفلسفة ، وتأويل القرآن ليرجع إليها (أى إلى الفلسفة) ، وتأويله لبعض النظريات التى لم يَقر قرارُها ، وذلك خطر عظيم على الكتاب فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى ، والنظريات التى لم

(١) ولد الشيخ رحمه الله فى عام ١٨٨١ م وتوفى عام ١٩٤٥ وقد تخرج فى الأزهر وشغل الكثير من مناصبه التعليمية والدينية ، حتى صار شيخا للأزهر ويعتبر منهجه امتدادا لمدرسة الشيخ محمد عبده ، وله تفسير مطبوع لبعض سور القرآن الكريم ، وقد قامت دار الهلال بنشر بعض هذا التفسير تحت عنوان " حديث رمضان " فى كتاب متوسط الحجم ، وقرب العهد بحياة الشيخ يجعلنا فى غنية عن مزيد التفاصيل .

(٢) انظر ص ٢ ، ٣ من مقدمته لكتاب " الإسلام والطب الحديث " .

(٣) انظر ص ٤٢ من مجموعة " الدروس الدينية " لعام ١٣٥٥ هـ .

تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله .. " ولكن الشيخ رحمه الله الذى أنكر تعسف التأويل قد ألم ببعض ما أنكره على غيره كتأويله " لرجم الشياطين " عند تفسيره للآيه الخامسة من سورة الملك وكلامه عن أبواب الجنة ، وعدد أبواب النار عند كلامه فى تفسير الآية السابعة والثلاثين من سورة لقمان .

وكذلك سلك الشيخ مسلك التفسير العلمى لبعض الآيات ووقع فيما عابه على غيره ومن أمثلة ذلك ، عند تفسيره لقول الله سبحانه " خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة .. " ١٠ : لقمان ، قال[1] بعد حديثه عن الجاذبية .. والنجوم .. والسدائم " .. قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها ، قرر الكتاب الكريم أن الله " استوى إلى السماء وهى دخان .. " ١١ : فصلت ، وهذا الذى قرره الكتاب الكريم هو الذى دل عليه العلم ، وقد قال العلماء إن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس ، وفصلها عنها ، وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعا ، كل قطعة منها صارت سيارا من السيارات وهذه السيارات طافت حول الشمس ، وبقيت فى قبضة جذبتها ، والأرض واحدة من هذه السيارات فهى بنت الشمس ، والشمس هى المركز لكل هذه السيارات ... إلخ ما قال .

تعقيب :

يتضح من هذا المثال السابق ومن أمثلة أخرى — تجدها خلال تفسير الشيخ رحمه الله — للآيات الكونية فى السور التى كتب أو حاضر فى تفسيرها — يتضح أنه سلك المسلك الذى عابه على غيره ، وإلا فهل كون الأرض كانت قطعة من الشمس — انفصلت عنها على النحو المذكور — أصبح من الحقائق العلمية والمسلمات اليقينية ، حتى نفسر بها كتاب الله أم أن المسألة لم تصل إلى طور اليقين العلمى بعد ؟ وإذا كان الشيخ قد أعلن ، فى درس من دروسه قوله : " ليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات ، ومادته وأبعاده ، وأقداره ، وأوزانه ، لكنه يجب أن يلم بطرف يسير منه ، ليدل به على القدرة الإلهية ، ويشير إليه للعظة والإعتبار " .

إذا كان هذا رأيه ، وإنه لسديد . إلا أن التفرقة بين التفاصيل وبين الطرف اليسير تصبح نسبية تقديرية تختلف معاييرها من مفسر إلى آخر حسب اختلاف المناهج والثقافات . والله الهادى إلى سواء السبيل .

---

(١) نقلا عن " التفسير والمفسرون " للدكتور محمد حسين الذهبى حـ٣ ص ٢٧٠ هذا ومن يرجع إلى تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ، وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربى يجد التقارب بين الأفكار والإتحاد فى المنهج .

٩) رأى الشيخ طنطاوى جوهرى(١) :

أقام الشيخ طنطاوى جوهرى تفسيره الكبير المسمى " بالجواهر " على قاعدة الربط بين الآيات القرآنية والعلوم الكونية ، وذلك لأدنى ملابسة بين الآية الكريمة وبين النظرية العلمية التى يريد أن يربط بينها وبين الآية ، وتكاد تكون هذه الناحية هى البارزة فى تفسيره وتكاد نقول إنه أكبر وأوسع تفسير فى تطبيقه لهذا المنهج إذا علمنا أن تفسيرا كبيرا كمفاتح الغيب للرازى (٢) يُعنى بالوجهة العلمية كقاعدة من عدة قواعد أقام عليها منهجه فى التفسير ، أما عند الشيخ جوهرى فإن هذا المنهج العلمى يكاد يكون هو الأول ، وما سواه تبعا له ، وليس أدل على ذلك من أنه ينقل فى تفسيره المطبوع بعض الصور للأجرام الكونية ، وللظواهر الطبيعية ، وينقل الأعداد والإحصاءات بعناية بالغة ، ويقوده الطموح العلمى إلى مباحث هى من صميم التاريخ ، أو من لِحمة الفلك ، يربطها بالآية ربطا موفقا حينا ، ومتكلفا أحيانا ، ومن العجب أن تجد فى تفسيره ما يعرف عندنا فى مصر " بحسبة برما " وما يتصور متصور أن مسألة كهذه ذات صلة بتفسير القرآن الكريم .

وكان رحمه الله من أوائل الذين حاولوا التوفيق بين الإسلام وبين ما سمى بنظرية " دارون " فى أصل الأنواع ، فكتب فى ذلك مقالا (٣) جاء فيه : " إن الإيمان بالله تعالى قضيه كلية لا يناقضها مذهب من المذاهب ولا ينافيها منهج من المناهج ، فإذا قلت إن الله وضع العالم منظما مرتبا سائرا على القانون والترتيب والحكمة والتناسق ، كان هذا هو القضية الأولى ... وما يكفر بتلك القضايا إلا المتوسطون فى العلم ، الذين لم يرتقوا إلى طبقات الحكماء ، فإن عقولهم لا تسع نظاما وترتيبا وإلها قادرا حكيما ، ومثلهم كمثل العامة الذين لا تسع عقولهم أن تتصور تأثير العقاقير فى الأمراض ، ويكتفون بالإيمان وهم جاهلون بنظام العالم وحكمته وترتيبه ... ثم قال : قد علمتم أن مذهب دارون قد رجع إلى قضيتين اثنتين وهما لا ينافيان الألوهية ، فدلالة العالم المنظم على الله ، قضية كلية لا يختلف فيها المحققون وإن غفل عنها الكثيرون .

---

(١) ولد الشيخ طنطاوى سنة ١٢٨٧ هـ الموافقة ١٨٧٠ م وكان يعمل أستاذا بمدرسة دار العلوم وقراءة آثاره العلمية تدل على شدة حبه للعلوم الكونية والمباحث الفلسفية وله تفسير كبير طبع غير مرة بمصر ولبنان وهو " الجواهر فى تفسير القرآن الكريم " .. وكان رحمه الله ممن خدعوا فى أسطورة الروحية الحديثة .

(٢) يقع تفسير الرازى فى اثنين وثلاثين جزءا كبيرا فى طبعة دار المصحف بالقاهرة ويقع فى ثمانية مجلدات ضخمة فى الطبعة البولاقية بينما يقع تفسيرا الجواهر فى خمسة وعشرين جزءا .

(٣) كتب الشيخ طنطاوى جوهرى مقالا حول هذا الموضوع فى مجلة الهداية فى عددها الصادر فى أكتوبر سنة ١٩١٠ م وقد أعاد الدكتور محمد محمد حسين نقل أكثر فقرات هذا المقال فى كتابه الإتجاهات الوطنية فى الأدب الحديث جـ١ ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

علماء الإسلام سبقوا دارون :

ثم ذهب الشيخ طنطاوى رحمه الله فى دفاعه عن نظرية دارون إلى القول أن علماء الإسلام قد سبقوا إلى هذه النظرية ، فقال فى نفس المقال المذكور : " ولقد كانت هذه القضية الناموسية سرا مكنونا عند علماء الإسلام ، كم أخفوها عن العوام ، وتسمى عند علمائهم (دائرة الوجود) وعند أهل السنة والمعتزلة بالقضاء والقدر وتسمى فى القرآن بالميزان ، وورد الترتيب النظامى : بذكر الإنسان فالحيوان فالنبات فالسموات وكواكبها وشموسها فى سورة النحل(١) ، رجوعا بالعوالم من أواخرها إلى أوائلها ، وهذا عجب عجاب ، وقد قال الغزالى رحمه الله : " لا يعرف هذا السر إلا المحققون الذين درسوا أكثر العلوم " أهـ

الصلة بين الهجاء والكيمياء :

فى مفتتح سورة " آل عمران " يقف الشيخ طنطاوى عند الآية الأولى منها وهى " ألم " ليكتب فصلا غريبا جعل عنوانه : " الأسرار الكيميائية فى الحروف الهجائية ، للأمم الإسلامية فى أوائل السور القرآنية " نقتطف منه قوله(٢) : " .. يقول الله : أ ـ ل ـ م ـ طس ـ حم ليقول لنا : أيها الناس : إن الحروف الهجائية : إليها تحلل الكلمات اللغوية ، فما من لغة فى الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية ، شرقية أو غربية .

ولا جرم أن العلوم قسمان : لغوية وغير لغوية فالعلوم اللغوية مقدمة فى التعليم ، لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية ، فإذا كانت العلوم التى هى آلة لغيرها لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها فكيف إذاً تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية ؟ فهى أولى بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية . لا يعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد ، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات ، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها ، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم " أهـ .

---

(١) الآيات التى أشار إليها الشيخ جوهرى من سورة النحل هى : " خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس إن ربكم لرؤف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم فيه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه أن فى ذلك لآية لقوم يذكرون " ٣ ـ ١٣ : النحل .

(٢) انظر تفسير الجواهر جـ٢ ص ١٠ وما بعدها .

١٠) رأى شهاب الدين الألوسى (١) :

كان الألوسى ممن يميلون إلى التوسع فى تفسير الآيات الكونية ، والربط بينها وبين الحقائق والنظريات العلمية ، ولعله كان يحذو حذو مفسر موسوعى سابق عليه بقرون هو الفخر الرازى ، والأدلة على ذلك تجدها فى مواضع شتى من كتابه ، ومن أمثلتها : أنه عند قول الحق جل ذكره : " ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة " ٢٩ : الشورى ، ووجدناه يقول : " لا يبعد أن يكون فى كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لا نعلمها ، ولم يذكر فى الأخبار شىء منها ، فأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات فى جرم القمر ، لكنهم لم يحققوا أمرها لنقص فى آلاتهم على ما يدعون ، ويحتمل أن يكون فيما هدا القمر أيضا ، ونفى ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضر القول به " أ هـ .

ونجد قريبا من هذا المنهج عند تفسيره لقوله تعالى : " الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن .. " ١٢ : الطلاق .

١١) رأى محمد فريد وجدى :

كان الأستاذ محمد فريد وجدى (٢) من الكتاب المسلمين الذين ظهروا فى أوائل القرن العشرين الميلادى واتجهوا وجهة التوفيق أو التقريب بين الإسلام والعلوم العصرية وكانت له بعض المؤلفات التى تتبعها تطبيقا لهذا المنهج ومنها :

١) تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية (٣) .
٢) الإسلام فى عصر العلم (٤) .
٣) الحديقة الفكرية فى إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية (٥) .
٤) صفوة العرفان فى تفسير القرآن وهو الذى طبع بعد ذلك باسم المصحف المفسر فانت

---

(١) هو شهاب الدين محمود شكرى الألوسى نسبة إلى ألوس وهى جزيرة فى نهر الفرات فيها نشأ أجداده ولد فى بغداد وعاش بين أعوام ١٢١٧ هـ ـ ١٢٧٠ هـ وأشهر أعماله العلمية التفسير المسمى بـ " روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى " وهو موسوعة تفسيرية ضخمة تقع فى ثلاثين جزءا وقد طبع مرارا بالقاهرة بالأميرية ، والمنيرية ، وصبيح وصور فى بيروت ، وانظر ترجمته بالجزء الأول .

(٢) انظر كتاب محمد فريد وجدى رائد التوفيق بين العلم والدين "تأليف أنور الجندى ط: الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٤ م .

(٣) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٣١٦ هـ الموافقه ١٨٩٩ م عن المطبعة العثمانية .

(٤) طبع الجزء الأول منه بمطبعة الترقى (١٣٢٠ هـ ـ ١٩٠٣ م) ، والجزء الثانى بمطبعة الشعب ١٩٠٥ .

(٥) طبع بمطبعة الترقى ١٣١٨ هـ ـ ١٩٠١ م .

تجـــده فى هذا التفســـير على وجازته يحاول الربط بين الآيات القرآنية وبعض المعـــارف الكونية ولكن فى كلمات وجيزة وإشارات عاجلة لا تفصيـــل فيها ولا إطالة فمثلا يفسر قوله تعالى : " قال الذى عنده علم من الكتاب.." ٤٠ : النمل ، بقوله المراد بعلم الكتاب علم الأسرار الروحانية والتأثير فى المواد بالقـــوى النفســـيه [1] . أ هـ .

ومع ذلك وجدناه يمر بالآيات الكونية التى كان يطيل الوقوف عندها الرازى أو طنطـــاوى جوهـــرى ، فلا يحاول أن يذكر ما قيـــل حولها من التأويلات العلمية [2] ، وهذا يدل أنـــه مع ايمانـــه بالمنهج إلا أنه لا يعنى بتفصيـــلاته وتفريعاتـــه .

١٢ــ رأى الشيخ عبد الرحمن الكواكبى :

كان الشيخ الكواكبى من العلماء المعنيين بأمور العالم الإسلامى ، الباحثـــين عن أسباب إصلاحه ، وقد بث أفكاره الإصلاحية ، فى كتابه " أم القـــرى " وكتابـــه " طبائع الإستبداد ومصارع الإستعباد " [3] وكان يرى أن الأمراض عن المباحث الكونيـــة ، وترك الإشتغال بالعلوم التجريبية : هو الذى أدى بالمسلمين فى العصر الأخير إلـــى التخلف عما كان عليه آباؤهم ، وكذلك عاب فى كتابه " طبائع الإستبداد " قصر قضيـــة الإعجاز القرآنى على آراء القدامى فقال : " وهذه مسألة إعجاز القرآن " وهى أهم مسألة فى الدين ، لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث ، واقتصروا على ما قاله بعض السلـــف من أن إعجازه فى فصاحته ، وبلاغته ، وإخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون " ثم استنكر إطلاق الحرية لأهل التأويل والخرافات وحجبها عن العلماء الذين لو أطلق لهم عنان التدقيق لرأوا فى ألوف الآيات القرآنية ، ألوفا من صور الإعجاز ، الـــذى يتجدد كل يوم . ثم بين أننا إن سلكنا طريق البحث العلمى فى القرآن وصلنا إلى برهـــان من العيان لا مجرد التسليم والإيمان ثم قال : " إن العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربا وأمريكا ، والصدق فى القرآن

---

(١) انظر المصحف المفسر ط : الشعب ص٤٩٩

(٢) انظر صنيع الرازى السابق فى الآيـة ١٦٤ : البقرة بينما مَرَّ بِهَا وجدى عابرا ، وكذلك الآيـة ١٢٥ : الأنعـام .

(٣) طبع فى مصر مرات وطبعتنا منه هى التى صدرت فى سلسلة " كتب ثقافيـة " التى كانـــت تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب .

يجد أكثرها ورد التصريحُ ، أو التلميحُ به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا ، وما بقيت مستورة تحت غشاءٍ من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدةً بأنه كلامُ ربٍ لا يعلم الغيب سواه " ثم ضرب بعض الأمثلة للآيات القرآنية التي سبقت الكشوف العلمية .

١٣- رأي القائد أحمد مختار :

من أوائل الكتب : التي ألفت حول موضوع " القرآن والعلم " في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، كتاب عنوانه " سرائر القرآن في تكوين وإعادة الأكوان " ألفه بالتركية " الغازي أحمد مختار باشا " وقد ترجمه إلى العربية الشيخ محب الدين الخطيب ، وطبع مصدرا بمقدمة للأمير " شكيب أرسلان " قال فيها : " إن هذا الكتاب لم يخدم القرآن بمثله إلى اليوم " .

ولما أصدر الأديب مصطفى صادق الرافعي الطبعة الثالثة من كتابه " إعجاز القرآن " عقد فصلا عنوانه " سرائر القرآن " جعل محوره هذا الكتاب فقال [1] : " بعد أن صدرت الطبعة الأولى من كتابنا هذا خرج في الآستانة القديمة ... كتاب جليل للقائد ، والعالم الرياضي الفلكي المشهور الغازي : أحمد مختار أسماه " سرائر القرآن " وبناه على سبعين آية من كتاب الله تعالى ، فسرها بآخر ما انتهى إليه العلم الحديث في الطبيعة والفلك ، فإذا هي في القرآن مُنْطَبِقُ السماء عن نفسها ، لا يتكذب ولا يزيغ ولا يلتوي ، وإذا هي تثبت أن هذا الكتاب الكريم سبق العقل الإنساني ، ومخترعاته بأربعة عشر قرنا إلى زمننا ، وماذا إلا فصلٌ من الدهر ، وستعقبه فصول بعد فصول " أهـ [2]

وقد أشار الشيخ : عبد الوهاب خلاف رحمه الله إلى كتاب " سرائر الأكوان " في كتابه أصول الفقه ، ممتدحا له . [3]

---

(١) انظر " إعجاز القرآن " للرافعي الطبعة السابعة ص١٤٥

(٢) يقصد الرافعي أن اعجاز القرآن متجدد أبدا ، وفي كل فصل من الزمن يتجلى مكنونٌ كان خافيا من أسراره ، بمواصلة التدبر لهذا القرآن ، وإذا كان كتاب القائد مختار يمثل التدبر في زمن فستعقبه جهودٌ متواصلةٌ مع توالي الأزمان لإظهار مكنونات الإعجاز ولذلك أشار الرافعي في هامش كتابه بعد هذه الفقرة المذكوره إلى كتاب الدكتور عبد العزيز إسماعيل ليكون ذلك دليلا لقوله " وستعقبه فصول " .. فكتاب القائد مختار فصلٌ ، وكتاب الطبيب عبد العزيز فصلٌ تاله ، وتتوالى فصول الدهر وتُرَى متتابعة .

(٣) انظرها في ص٣٠ من الطبعة العاشرة .

١٤ـ رأي المشير أحمد عزت :(١)

لم يكن المشير عزت من المشتغلين بالدراسات الدينية ، ومع هذا فإن كتابه " الدين والعلم " كان كما وصفه الدكتور عزام " خلاصة تفكير طويل في حقبة مديدة ، ونتيجة تجارب اجتمعت له فيما باشر من الخطوب والأسفار ، وما شهد من اضطراب في المعايش والأفكار ، وأنه عزم على نشره حينما تقوضت الدولة العثمانية التي جاهد في سبيلها ... وهو كتاب جدير بعناية القراء ، ولاسيما الذين يهمهم الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وإقامة حججها على قواعد من العلم الحديث ، وهو يصور لنا حال الناشئة الإسلامية في تلك المدة المضطربة التي أُلِّفَ فيها الكتاب ... " (٢)

وقد بين المؤلف أن سبب تأليفه للكتاب(٣) هو ما رآه من الناشئة التي تدعى لنفسها التنور ، واشتداد العداء نحو الدين باسم " اللادينية " والإستمساك بنظريات الإلحاد والإنكار ونذكر من منهجه قوله (٤) : " إننا قد استفدنا من الحقائق العلمية ، والمكتشفات الجديدة ، على وجه الإختصار ، ولم نتعمد إيضاحها وإثباتها ، لخروج ذلك عن دائرة موضوع الكتاب ، بيد أن هذه الأدلة من الحقائق العلمية المقطوع بصحتها ، ولهذا كلما بحثنا عن الفرضيات والنظريات التي لم تتحقق تمام التحقق ، استعطنا من الألفاظ والجمل ما يفيد الشبهة أو بيّنا بكل صراحة أنها مشكوك في صحتها " .

ومع هذا فإن المؤلف عنى برد الشبه والأغاليط والأضاليل التي تثار في وجه الدين ، بأدلة العلم ومنطق التجربة أكثر من عنايته بالربط بين الآيات القرآنية وبين النظريات الطبيعية ، والمؤلف مع حسن نيته لا يخلو كتابه من مآخذ ليس هذا نطاق عرضها أو بحثها .

---

(١) المشير : أحمد عزت ، قائد عسكري تركي ، ولد عام ١٨٦٤م بولاية مناستر من أعمال الدولة العثمانية ، درس العسكرية ببلاده ، ثم قضى أربعة أعوام أخرى في ألمانيا يدرس جديد العسكرية ، ولي العديد من المناصب الإدارية حتى صار وزيرا للحربية ورفض التعاون مع الكماليين الملاحدة ، وكتابه " الدين والعلم " ألفه ذودا عن عقيدته في مواجهة رياح السموم ، وقد ترجمه إلى العربية : حمزة طاهر مدرس اللغة التركية بكلية الآداب بالجامعة المصرية " جامعة القاهرة حاليا " وراجعه وقدم له الدكتور : عبد الوهاب عزام وزير مصر المفوض بالخارجية المصرية وأثنى خيرا على الكتاب ، وقد طبع بلجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م

(٢) انظر مقدمة الدكتور عزام للكتاب ص هـ ، ز

(٣) انظر ص١ من الكتاب .

(٤) نفسه ص٣

١٥ـ رأى الأديب مصطفى صادق الرافعي : (١)

كان الأديب : مصطفى صادق الرافعي ممن يرون أن القرآن جمع علوم الدين والدنيا فلما أصدر كتابه " إعجاز القرآن " عقد فيه فصلا تحت عنوان " القرآن والعلوم " (٢) فلما أعاد طبعة الكتاب أضاف فصلا بعنوان " سرائر القرآن " وقد تناول في الفصلين موضوع الإعجاز العلمي وكان مما قاله عن هذا الإعجاز : " وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الإختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية ، وبسطوا كل ذلك بسطا ليس هو من غرضنا فسنتقصى فيه ، على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة " ولمحة " ، ولمحل متحققا بهذه العلوم الحديثة : لو تدبر القرآن ، وأحكم النظر فيه وكان بحيث لاتعوزه أداة الفهم ، ولا يلتوي عليه أمر من أمره ، لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى حقائق العلوم وان لم تبسط من أنبائها ، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها ، بلى وإن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونا على تفسير بعض معاني القرآن ، والكشف عن حقائقه ، وإن فيها لجماما (٣) ودربة لمن يتعاطى ذلك ، يحكم بها من الصواب ناحية ، ويحرز من الرأى جانبا ، وهي تفتق له الذهن ، وتؤاتيه بالمعرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه وتخرج له البرهان ، وإن كان في طبقات الأرض ، وتنزل عليه الحجة : وإن كانت في طباق السماء .

ولا جرم أن هذه العلوم ستدفع بعد تمحيصها واتصال آثارها الصحيحة بالنفوس الإنسانية إلى غاية واحدة ، وهي تحقيق الإسلام ، وأنه الحق الذى لامرية فيه ، وأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وأنه لذلك هو الدين الطبيعي للإنسانية ، وسيكون العقل الانساني آخر نبي (٤) في الأرض ، لأن الذى جاء بالقرآن كان آخر الأنبياء من الناس ، إذ جاءهم بهذا الدين الكامل ، ولا حاجة بالكمال الإنساني لغير العقول ينبه إليه بعضها بعضا ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض !

---

(١) ولد مصطفى صادق الرافعي في يناير عام ١٨٨٠م في قرية بهتيم بمحافظة القليوبية ، ونشأ مع والده وترعرع بمدينة طنطا . وكان يعمل كاتبا بالمحكمة الشرعية بمدينة طنطا ، ومن مؤلفاته " إعجاز القرآن " ، تحت راية القرآن " ، تاريخ آداب العرب " " أوراق الورد " ، السحاب الأحمر " ، رسائل الأحزان " ، المساكين " ، حديث القمر " وغيرها وتوفي بمدينة طنطا في الحادي عشر من مايو عام ١٩٣٧ وانظر كتاب " مصطفى صادق الرافعي " تأليف الدكتور كمال نشأت سلسلة أعلام العرب العدد ١ ٨ نوفمبر ١٩٦٨

(٢) يقع هذا الفصل في الطبعة السابعة للمكتبة التجارية بالقاهرة الصادرة في ١٣٨١هـ ١٩٦١م في الصفحات من ١٢٦ : ١٤٨

(٣) الجمام : بالفتح : الراحة ، يقال جم الفرس : يجم ويجم بكسر الجيم ، وضمها : ذهب اعياؤه .

(٤) القول بنبوة العقل كبوة قلم ، أو نبوة تعبير ... ولا تظن بالرافعي غير هذا .

وقد أشار القرآن إلى نشأة العلوم ، وإلى تمحيصها وغايتها ، وعلى ما وصفناه آنفا وذلك قوله تعالى : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد " ؟ ٥٣ : فصلت ، ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها من قوله تعالى : " في الآفاق وفي أنفسهم " هذه آفاق ، وهذه آفاق أخرى ، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح في الأفهام شيء ... فكلما تقدم النظر ، وجمعت العلوم ، ونازعت إلى الكشف والإختراع ، واستكملت آلات البحث ، ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة حتى كأنه غاية لا يزال عقل الإنسان يقطع إليها ، وحتى كأن تلك الآلات حينما توجه لآيات السماء والأرض توجه لآيات القرآن أيضا " والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون "

١٦ـ رأي الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله : (١)

قال رحمه الله (٢) : " بالإضافة إلى هدف القرآن الأول من ذكر الحقائق الدينية والأدبية ، هناك أغراض ثانوية تستهدف تقوية الإيمان بالخالق ، أو تقوية الأمل لدى المؤمنين ، ومن المدهش أن نكتشف مدى انطباق تفسيره لعالم الطبيعة الذي خلقه الله انطباقا تاما على أحدث ما توصل إليه في نظام الكون ، وعلم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، وبقية العلوم الموضوعية الأخرى .

وعلى سبيل المثال فلنتأمل في هذه الأمثلة الرائعة من المعرفة العلمية :

١) كروية الأرض : " خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ... " ٥ : الزمر .

٢) تكوين المطر : " الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون " ٤٨ : الروم .

٣) التلقيح بالرياح : " وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين " ٢٢ : الحجر .

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز انتقل إلى جوار ربه أثناء جهره بكلمة الحق في المؤتمر الإسلامي المنعقد بلاهور بالباكستان ١٩٥٨ ، وكان رحمه الله من الذين نهلوا من العلوم الإسلامية ، وأصابوا حظا من الثقافة الغربية الفرنسية ، وثمرات قلمه على قلتها تشهد أنه كان من الراسخين ، ولا نزكيه على الله ، ومن مؤلفاته " النبأ العظيم " ، " الدين " و" الربا " ، " المسئولية في الإسلام " ، " دستور الأخلاق في القرآن " .

(٢) انظر ص ٢٦ ، ٢٧ من كتابه دراسات إسلامية في العلاقات الإجتماعية والدولية ط: دار القلم بالكويت وقد طبع بعد وفاته رحمه الله .

٤) الأصل المائي لجميع الأحياء : " ... وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون " ٣٠ : الأنبياء .

٥) الثنائية أو الزوجية في جنس النباتات الأخرى : ولم تكن هذه بمعروفة : "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون " ٣٦ : يس

٦) الحياة التعاونية لدى الحيوانات : " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون " ٣٨ : الأنعام .

٧) طريقة الحياة لدى النحل : " وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون " ٦٨ : النحل .

٨) المراحل المتتابعة للجنين في رحم أمه : " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين " ١٢ ـ ١٤ : المؤمنون ، ٥ : الحج .

ويتحدث الشيخ الفاضل رحمه الله عن الأخبار التي أخبر بها القرآن فوقعت كما أخبر بها :

٩) فهزيمة المشركين المكيين : " فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون . إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون " ١٠ ـ ١٦ : الدخان .

١٠) وتعلن آيات أخرى عن نصر الإسلام ودوام العقيدة الإسلامية ، ونمو دولة الإسلام الفتية ، وعدم استطاعة أية قوة على وجه الأرض إبادة الإسلام " إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون " ٣٦ : الأنفال ، " ... فأما الزبد فيذهب جُفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال " ١٧ : الرعد ، " ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء " ٢٤ : إبراهيم .

١١) انشقاق النصرانية : ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون " ١٤ : المائدة .

١٢) تشتت الإسرائيليين : " وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون " ١٦٨ : الأعراف .

واضطهادهم حتى نهاية العالم " إذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم " ١٦٧ : الأعراف.

١٣) حاجتهم إلى حليف : " ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءو بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ... " ١١٢ : آل عمران.

١٤) سيطرة المسيحيين على اليهود إلى يوم القيامة : " ... وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ... " ٥٥ : آل عمران.

تعقيب : كان " الدكتور دراز " رحمه الله موفقا حين استشهد ببعض الآيات ، لكن بعض الآيات الأخرى تحتمل ما قاله وتحتمل غيره من التفسيرات، وهنا قسم ثالث من الآيات الكريمة كانت بعيدة بعض البعد عن المعانى التى حملت عليها.

١٧ـ رأى الدكتور عبد العزيز اسماعيل :(١)

فى فترة من الفترات اشتدت فيها هجمة " الغزو الثقافى " وكان من بين أسلحة هذا الغزو ما يُخدع به الأغرار وأنصاف المتعلمين وأدعياء الثقافة من مفارقة بين الإسلام والعلم ولذلك لما صدر كتاب الدكتور إسماعيل "الإسلام والطب الحديث" (٢) لقيه المخلصون لقاء المودة والتكريم ، وكان الكتاب يتميز بالسهولة والبعد عن التعقيد ، ولم يقحم الرجل نفسه فى غير تخصصه كما فعل غيره وقال فى مقدمة كتابه (٣) : " إن القرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك، ولكنه يشير أحيانا إلى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم ... وبين أن كثيرا من الآيات القرآنية لا يُفهم شيئا من معناها إلا من درس العلوم الحديثة .. وذهب إلى القول بأن العلم الحديث كشف عن معنى بعض الآيات ، وسينكشف الباقى منها كلما تقدمت العلوم ... ".

---

(١) الدكتور عبد العزيز إسماعيل : طبيب مصرى كان ذائع الصيت ، له كتاب فى موضوعنا هذا وهو "الإسلام والطب الحديث" طبع فى مصر غير مرة وقد قدم له الأستاذ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر وقتها ، رحمه الله وأثنى عليه خيرا ، وبين المنهج الأمثل فى هذه القضية ، وقد وضعه الأستاذ محمد سعيد العريان فى هامش ص١٤٢ من كتاب " إعجاز القرآن " للرافعى بأنه وُفق إلى المعانى الدقيقة ، وقال إن الكتاب كان عونا ومددا للرافعى فى كثير من شواهد كتابه " أسرار الإعجاز " وهو كتاب بدأه الرافعى ثم أعجلته منيته وقد أشار العريان إلى ذلك فى هامش ص١٢ من الإعجاز وفى كتابه عن " حياة الرافعى ".

(٢) صدرت الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ والطبعة الثالثة سنة ١٩٥٩م

(٣) نقلا عن المقدمة بتلخيص وإيجاز.

ثم أدار الدكتور منهج كتابه على ذكر الآيات القرآنية التي تتعلق بالنواحي الطبية والدوائية والغذائية مبينا أسرار الإعجاز فيها ، وكان يستعمل لغة الأرقام والإحصاءات إذا دعت لذلك الحاجة

وليس من غايتنا أن ننقد الكتاب فقرة فقرة .... وإنما موجز الرأي فيه أنه محاولة طيبة على طريق البحث الجاد .

نقد الدكتور الذهبي رحمه الله لهذا الكتاب :

نقل الدكتور الذهبي رحمه الله وغفر له في كتابه المستوعب " التفسير والمفسرون " رأي الدكتور إسماعيل الذي ذكرناه آنفا : من أن بعض آيات القرآن لا يفهمها حق فهمها إلا من درس العلوم الحديثة ، وعقّب على ذلك بقوله [1] : " وفي هذا إتهام للصحابة ، ومن جاء بعدهم من سلف الأمة بأنهم لم يفهموا المعاني الحقيقية لبعض الآيات القرآنية ، لجهلهم [2] بهذه العلوم المستحدثة ، وهذا اتهام نعيذ منه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلف الأمة رضوان الله عليهم ، وإذا نحن تتبعنا ما في هذا الكتاب لوجدنا الكثير منه لا يقصده القرآن ، ولا يهدف إليه من وراء خطابه للعرب الأميين " [3]

ونحن لا نذهب مذهب الدكتور الذهبي رحمه الله في نظرته إلى هذا الكتاب ويستطيع القارئ من خلال ما تقدم من مناقشات أن يعلم أدلتنا .

١٨ـ رأي الدكتور محمد أحمد الغمراوي : [4]

قال رحمه الله عن العلاقة بين الإسلام والعلم [5] : " والعلم قد أثبت ببحوثه اتساق الفطرة واطرادها في عالم الشهادة المحسوس الخاضع للمشاهدة والتجربة ، فأثبت بذلك عمليا جانبا من معنى قوله تعالى : " ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت " ٣ : الملك ، وقوله " لا تبديل لخلق الله " ٣٠ : الروم ، وقوله : " فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا " ٤٣ : فاطر .

---

(١) انظر : " التفسير والمفسرون " جـ٣ ص١٦٨ ، ١٦٩

(٢) هذا ما فهمه الدكتور الذهبي رحمه الله من لازم عبارات الدكتور إسماعيل رحمه الله ، وهو قول لم يصرح به الدكتور إسماعيل نصا .

(٣) في الأصل "الأميـة" .

(٤) كان رحمه الله أستاذا للكيمياء بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة ، ومن الذين أسهموا في تأسيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد عني عناية خاصة بدراسة سنن الله في الآفاق ، حتى عُهد إليه بتدريس " سنن الله الكونية " في تخصص الوعظ والإرشاد الذي أصبح شعبة الدعوة بالدراسات العليا في كلية أصول الدين ، وله في ذلك عدة مؤلفات ، درس بعضها لطلابه ، وكانت موضع ثناء أهل الرأي ومنها : " سنن الله الكونية " وكان مرجعا لكثيرين ممن جاءوا بعده ، و" الدين والعلم " وغيرهما (=)

فكان (أى العلم) من حيث لا يدرى ولا يقصد تفسيرا عمليا لهذه الآيات الكريمة فى عالم المادة ، وبرهانا محسوسا ملموسا على أنها حقا من عند الله فاطر السموات والأرض سبحانه ، وكانت هذه الآيات أيضا من حيث لا يدرى ولا يشعر برهانا له أن الأساس صحيح باق ، وأن الفلسفة تخطىء وتكذب حين تشكك عقلا فى هذا الأساس ... "

ويقصد الدكتور بما سبق : " أن الكشوف العلمية كما تخدم الدين بإظهار وجه من أسرار الإعجاز القرآنى ، فإن الدين يخدم العلم بنفى شكوك الفلسفة وريبها ، وذلك بقيام الحقيقة العلمية على أساس راسخ وطيد من اليقين الدينى .

وبعد أن ذكر الدكتور الإعجاز العلمى لبعض الآيات القرآنية فى علم الفلك قال " فهذه [1] آيات كريمة : لها أشباه فى الكتاب العزيز ، كل منها ينطبق بحقيقته أو حقائق كونية لم تثبت إلا بالعلم الحديث ، فكل منها معجزة علمية قرآنية قام العلم الحديث باثباتها من حيث لا يريد ، فأثبت بذلك نوعا من إعجاز القرآن ، يرجع إلى العقل والحس الملموس — لا إلى اللغة — وتلزم حجته عقلاء الناس جميعا ، إذ يفهمه ويقدره النرس والمجس على السواء .

ويلتحق بهذا النوع من خدمة العلم للقرآن والإسلام ، نوع آخر : تقوم به أيضا حجة الله على الناس بالقرآن ، هو إظهار وجوه الحكمة فى آيات الأحكام : فقد كشف العلم عن حكمة تحريم الخمر مثلا بما لم يكن يخطر لأحد على بال .

وإذا كان هذا كله خدمة من العلم الحديث للإسلام خاصة ، فإن العلم الحديث — على عكس ما يظنه بعض الجاهلين به — يقدم أجل خدمة للأديان عامة ، بإثباته استحالة أن تكون نظام العالم وليد المصادفة ، فقطع بذلك الطريق على أهل المراء والإلحاد الذين يتشككون حتى فى البديهى ، ويتشدقون حتى فى بعض مجلات هذا البلد المتدين بإنكار وجود الإله الحكيم سبحانه ، وتعالى الله عما يقول المبطلون " أ هـ

(=) وله مقالات فى المجلات الإسلامية والعلمية ، ورد على نتنة القول فى كتاب " الشعر الجاهلى " للدكتور طه حسين .

(٥) انظر الدين والعلم للدكتور الغمراوى ص٢٤ ط : سلسلة الثقافة الإسلامية جمادى الأولى سنة ١٣٧٩هـ — ١٩٥٩م .

---

(١) انظر ص٢٦ من كتابه " بين الدين والعلم " والآيات الكريمة المشار إليها هى " أولم ير الذين كفروا ... " ٣٠ : الأنبياء ، " خلق الإنسان من علق " ٢ : العلق " وترى الجبال ... " ٨٨ : النمل ، " يكور الليل على النهار ... " ٥ : الزمر

١٩ـ رأى الشيخ عبد الوهاب خلاف : (١)

تعرض الشيخ لهذا الموضوع في كتابه " علم أصول الفقه " عند حديثه عن " وجوه إعجاز القرآن " فكان من هذه الوجوه : " إنطباق آياته على ما يكشفه العلم من نظريات علمية " فكان مما قاله (٢) : القرآن أنزله الله تعالى على رسوله ليكون حجة له ودستوراً للناس ، وليس من مقاصده الأصلية أن يقرر نظريات علمية ... ولكنه في مقام الإستدلال على وجود الله ووحدانيته ، والتذكير بآلائه ونِعَمِه ، جاء بآياتٍ تُفهم منها سننٌ كونية .. كشف العلم الحديث براهينها فكان ذلك برهانا جديدا على أن القرآن من عند الله ، وإلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد الله سبحانه بقوله : " قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ، سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد " ٥٣ : فصلت ثم ذكر بعض الآيات الكريمة التي تتضمن صورا من الإعجاز العلمي ... ورد على المحتجين بأن آيات القرآن لها مدلولات لاتتبدل ، والنظريات العلمية عرضة للتغيير والتبدل ، بأنه يرى أن تفسير آية قرآنية بما كشفه العلم من سننٍ كونية ، ما هو إلا فهم للآية بوجه من وجوه الدلالة على ضوء العلم ، وليس معناه أن الآية لاتفهم إلا لهذا الوجه من الوجوه ، فإذا ظهر خطأ النظرية ، ظهر خطأ فهم الآية على ذلك الوجه لا خطأ الآية نفسها ، كما يفهم حكم " من آيةٍ ويتبين خطأ فهمه بظهور دليل على هذا الخطأ " أ هـ

ولا تعقيب لنا إلا أن ننوه باعتدال الشيخ في القول ، وبعده عن الإنحياز والتعصب ، والنظرة الموضوعية في البحث .

---

(١) الشيخ عبد الوهاب خلاف كان أستاذا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق التابعة لجامعة القاهرة عاش بين عامي ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م له عديد من المؤلفات مثل " أحكام الأحوال الشخصية " ، "الوقف والمواريث" ، " السياسة الشرعية " وغيرها

(٢) انظر كتاب "علم أصول الفقه" ص٢٩ ، ٣٠ ط: دار القلم بالكويت ببعض إيجاز وتصرف = الطبعة العاشرة .

٢٠- رأى الشيخ محمد الغزالـــى : (١)

عقد الشيخ محمد الغزالى فصلا عن الإعجاز العلمى فى كتابه " نظـرات فى القرآن " (٢) بين فيه أن الوقوف على دقائق العلوم الكونية هو من صميم التدبر لآيات الله فى ملكوته وكان مما قاله " كيف يعرف روعة القدرة وإحاطة العلـــم ، ودقة الحكمة ، وجلال الوجد الكبير ، امرؤ مغلق الذهن ، مكفوف البصيرة ؟ يمشى على الأرض كما تمشى السائمة لا يستبين من صفحات العالم إلا ما تستبينه الدواب من قوانين الكهرباء ، أو أسرار الجاذبية ، أو معالم الجمال ، أو طبائع العمران ؟؟ إن درسا فى الطبيعة أو الكيمياء هو صلاة خاشعة . وإن سياحـة فى علم الأفـلاك هى تسبيح وتحميـد ... " ثم بين الأستاذ الغزالـــى كيف يكون ذكر هذه الدقائق العلمية فى كتاب الله وجها من وجوه إعجـــازه فقال (٣) : "وليس ثمة تفاوت بين العلـم والدين ، فان الله الحق هو مصدر الأثنين ، وإذا لوحظ أن هناك اختلافا فليس بين علم ودين بل بين دين وجهل ، أخذ سمة العلم ، أو بين علم ولغو لبس سمت الدين .

وسترى أن القرآن الكريم مستقيم كل الإستقامة مع كل الكشوف التى يميط العلم عنها الستار ، وذلك لا ريب من دلائل صدقه وآيات إعجازه .

فإن راكب الناقة ابن الصحراء - الذى لم يَعْلُ اللُّجَجَ يوما أو يكابـد الأنواء - حين يجئ على لسانه وصفٌ علمى دقيق للبحر واللجو ، نجزم بـأن هذا الوصف ليس من عنده ، بل من عند عالم الغيب والشهادة .

هب أن فلاحا من أغمار الصعيد كتب وصفا لرحلة جوية بين شاطـئ المحيطين ، ذكر فيها أنباء لا تعرفها إلا أدق المراصد ، وأحوالا ما يتبينهـا إلا أذكى الطيارين .
أتحسب أحدا يصدق بأنه قال ذلك من عند نفسه ؟؟ ... " أ هـ

---

(١) الشيخ محمد الغزالى السقا : كاتب إسلامى معاصر وداعية معروف ، تخرج فى الأزهر الشريف وتقلب فى وظائف الدعوة حتى صار مديرا عاما لإدارة الدعـوة الإسلامية بمصر ، قاربت مؤلفاته الإسلامية ثلاثين كتابا .. ويحمل الآن أستاذا بالدراسات العليا بكلية الشريعة بمكة المكرمة .

(٢) انظر فصل " الإعجاز العلمى " من ص ١٢٤ ، ١٤٧ من كتاب " نظرات فـــى القرآن " الطبعة الثالثة دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٣٨٢هـ

(٣) نفســـه ص ١٣٧

٢١) رأى الدكتور محمد جمال الدين الفندى :(١)

عنى الدكتور الفندى إنطلاقا من دائرة تخصصه بخدمة العلاقة بين الدين والعلم وأصدر فى ذلك عدة مؤلفات ونحن ننقل نظرته إلى هذا المنهج من كتابه " الله والكون " (٢) إذ قال : " اتخذت من الكون معلما لى ، منه استمد الحقائق ، وإليه أرد تلك الحقائق مستخدما حواسى وعقلى . ولقد شاءت إرادة الخالق جل شأنه أن يتخذ فى الكون أعجب النظم وأروعها ، لتنفيذ إرادته ، وإظهار آياته ، وهى نظم وآيات أقرب ما تكون لفهم المتخصصين من العلماء الذين اتخذوا من الكون معلما لهم .

وعندما تكلم الخالق فى القرآن الكريم (كتاب الله المقروء) كان من الطبيعى أن يستمد أمثلته وحكمه من الكون (كتاب الله المنظور) وليس من المعقول : أن يخالف الكلام العمل ، أى لا يمكن أن يتحدث القرآن عن ظاهرة كونية كالسحاب أو السماء أو الرياح .. بطريقة تخالف ما نراه وما نلمسه بالعقل .. ولهذا ننادى بضرورة إظهار تلك الآفاق الواسعة التى فتحها أمامنا عصر العلم بطريقة سليمة لكثير من معانى الآيات الكونية فى القرآن غير محملين تلك الآيات ما لا طاقة لها به ، ولا مغالين فى العلم على غير أساس أو تخصص .

والقرآن بوصفه معجزة خالدة لا يقف إعجازه عند عصر معين ولا يحد بثقافة بالذات ..."

تعقيب :

أشار الدكتور الفندى إلى خطأين منهجيين ، يقع فيهما كثير ممن نصبوا أنفسهم للكتابة عن علاقة القرآن بالحقائق والنظريات العلمية .

وهذان الخطآن أو الخطيئتان هما :

١) ظلم اللغة عمدا أو عن جهالة بتحميل ألفاظها دلالات ما عرفها عربى ولا سمع بها أعجمى .

٢) القول على العلم بغير علم ، إدعاءً وتعالما ، وقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : " المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور " .

---

(١) الدكتور الفندى أستاذ للطبيعة الجوية بكلية العلوم بجامعة القاهرة وقد اتجه فى السنوات الأخيرة إلى بحث العلاقة بين القرآن والعلم وقد أصدر فى ذلك عدة مؤلفات منها : " من روائع الإعجاز فى القرآن الكريم " ، " القرآن والعلم " ، " الكون بين الدين والعلم " ، " السموات السبع " ، " لماذا أنا مؤمن " .

(٢) انظر كتاب " الله والكون " ص ١٧ ط : الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦ .

٢٢ـ رأى الاستاذ عبد الوهاب حموده : (١)

عالج الاستاذ هذا الموضوع ، وناقش أدلة المانعين له ، وانتهى الى القول (٢) : " والرأى الذى نميل اليه هو أننا فى حاجة شديدة الى أضواء من العلم تكشف لنا عن حكم وأسرار جاءت بها الآيات الكريمة ، ولاضرر من عدم قصر فهمه على ماعند العرب فى علمها وألوف معارفها ، لأن القرآن أنزل للناس كافة ، يأخذ منه كل على قدر استعداده وحاجته ، مادام لايتنافى مع ماقصره القرآن من الهداية ... فكم من حكمة فيه اذا مستها يد العلم أسفرت أسرارها .. وأبانت عن سر اعجازها وسحر بيانها .. وكل مايساعد من العلوم على الكشف عن الأسرار الكونية ، والدلالة على قدرة الصانع الحكيم ، والابانة عن مبلغ آياته ونعمه ولايتعارض مع أسلوب اللغة وألوف تعبيرها ، من غير اغراب ولاتكلف ولااغراق فى التأويل ، واسراف فى التحديد ، فهو مما يجوز أن يستخدم فى فهم آيات القرآن الكريم ، فهو لاتفنى عجائبه ، ولاتحصى أسراره ... " اهـ

---

(١) كان رحمه الله أستاذا بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وله عدد من المؤلفات الاسلامية ، ومجموعة من الأحاديث الاذاعية .

(٢) انظر مقالا له بعنوان : " التفسير العلمى " بمجلة " لواء الاسلام " عدد جمادى الاخرة ١٣٦٨هـ ـ مارس سنة ١٩٤٩م ص٣٨ ، ٣٩ بتصرف ايجاز .

شاهد من عندنا وشاهد منهم :

وتفصيل هذا العنوان : أن الذين أغرقوا فى التأويلات العلمية إنما كان العلم التجريبى المحسوس هو فى نظرهم صاحب القول الفصل والحكم اليقين . ومن هذا المنطلق كان بعضهم يحس إحساساً خفياً بشىء من الهزيمة الداخلية دفعته أن يقف موقفه . وفى الطرف الآخر كان بعض المعارضين ينكر بغير حجة ، ويتكلم بغير برهان وهنا نذكر شهادة لشاهدين قد نستهدى بها فى الحكم ، وشهود قضيتنا العدول يخطئهم العد ولكننا نوجز خوف الاطالة والإملال .

أما الشهادة الأولى فهى وثيقة علمية اسلامية عربية :

وتمهيد القول لها أنها صورة خطاب موجهه إلى رئيس الأطباء المأذون لهم فى مزاولة المهن الطبية فى الديار المصرية ، ونص الخطاب الصادر من الوالى لتعيين نقيب الأطباء يصلح من وجهة نظر كاتب هذه السطور — أن يكون وثيقة من وثائق مفاخرنا خاصة إذا علمنا أن تاريخها هو أوائل القرن الثامن الهجرى [1] ... وهاهى الرسالة وقد اتخذنا لبعض فقراتها العناوين المفصحة والموضحة :—

١ — وصف صناعة الطب :— [2]

إن صناعة الطب : علم موضوعها : حفظ الأبدان النفيسة ، ومقصودها : إعانة الطبيعة على حماية الأعضاء الرئيسة ، ومدارها الأهم : على معرفة العوارض وأسبابها ، ومدركها الأتم : الوقوع على الصواب فى معرفة الجسوم وأعراضها .

٢ — تفاوت مراتب الأطباء :

وحينئذ تتفاوت رتب أهلها عند تشعب مداركها ، واختلاف مسالكها ، وتشابه عللها ، والتباس صوابها بخللها ، إذ لا يميز ذلك حق تمييزه إلا من طال فى العلم تبحره ، وحسن فى رتب هذا الفن تصدره ،

---

(١) حينما كانت أوربا تلتمس العلاج فى صكوك الغفران ، وترى الحرب على المرض سخطا على قضاء الله ، وحينما كانت تحارب أى اتجاه إلى البحث وتجعل من كل محاولة علمية وليدة جثة وئيدة ... والرسالة التى نتحدث عنها ذكرها أبو العباس احمد بن على القلقشندى الذى ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة من الهجرة وتوفى سنة ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م ، عن عمر يقارب الخامسة والستين فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ ١١ ص ٣٧٨ — ٣٨٠ ط : المؤسسة المصرية للتأليف ولم يذكر القلقشندى تاريخ خطاب تعيين نقيب الأطباء هذا ، وإنما ذكر تاريخ الرسالة التى تلى خطابنا هذا فى ص ٣٨٠ وكان تاريخها هو المحرم سنة تسع وسبعمائة هـ وهذا كله قبل أن تعرف أوربا ما أسمته بعصر النهضة او عصر الاحياء !! فتأمل .

(٢) هذه العناوين الجانبية وضعناها من لدنا لإظهار ماتحويه هذه الرسالة من صنوف السبق العلمى ، وتركنا عبارات الرسالة متصلة .

٣ ــ تأكيد النظرية بالتجارب العملية :ــ

" وطابق بين نقله وعلاجه ، وعرف حقيقة ــ كل مركب فى الأدوية ومفرد ، بعينه واسمه وصفته ومزاجه ، وتكررت عليه الوقائع فعرفها دربة ، وأحكمها نقلاً .

٤ ــ اخلاق الطبيب :ــ

ولُقِّبَ بشرعة التقوى ؛ إذ كان الإقدام على " علاج " النفوس قبل تحقق الدواء مذموما شرعا وعقلا .

٥ ــ أهمية منصب نقيب الأطباء :ــ

ولذلك تحتاج " يعنى مهنة الطب " إلى رئيس ينعم فى مصالحها نَظَرُهُ ويجمل فى منافعها وَرْدُهُ وصَدْرُه ، ويعتبر أحوال أهلها بمعيار فضله ، ويلزم الداخل فيها ببلوغ الحد الذى لابد منه بين أرباب هذا الشأن وأهله .

٦ ــ معرفة أقدار قدامى الأطباء :ــ

ويعرف لأكابر هذا الفن قدر ما منحهم الله من علم وعمل .

٧ ــ إتاحة فرصة التدريب للأطباء الناشئين :ــ

ويبسط رجاء المبتدئ إذا كمّل نفسه ، حتى لا يكون فيها [1] بغير كمال الإستحقاق طمعٌ ولا أمل .

٨ ــ سبب إسناد رياسة الأطباء إليه :ــ

ولما كان القاضى[2] الحكيم فلان الدين : هو الذى بلغ من العلم غاية مراده .. فلو عاصره " الرئيس " [3] لاعتمد عليه فى كليات قانونه ، أو " الرازى [4] " لعلم أن حاويه من بعض فنونه ، قد حلب هذا العلم أشطره ، وأكمل قراءة هذا الفن رموزه وأسطره ، وحل أسراره الغامضه ... فلذلك رسم بالأمر الشريف فلانٌ ليكون متولى رياسة الأطباء بالديار المصرية على عادة من تقدمه .

٩ ــ المهام المنوطة بنقيب الأطباء :

" فليباشر هذه الرياسة ناظراً فى مصالحها ، مطلعاً من شهاب فضله ما يزين أفقها :

---

(١) فيها : أى فى مهنة الطب والمعنى أن من لم يبلغ كمال الإستحقاق العلمى يجب عليه أن يقطع الأمل فى أن يكون طبيبا .

(٢) سيتضح لك من الأسطر التاليه أن لقب القاضى كان يطلق على ذوى الرياسات ، ورئيس الأطباء من مهامه القضاء فى شئون مهنته .

(٣) يعنى به ابن سينا الفيلسوف الطبيب ولنا رأى فى آرائه الدينيه ، وكتابه القانون فى الطب من المراجع الرئيسة .

(٤) هو الطبيب العربى " أبو بكر الرازى ، وكتابه هو " الحاوى فى الطب " ، وله من الآراء ما ينبذ .

زينة السماء بمصابيحها ، والتفتيش على أعضاء النقابة متلمحا أحوال المستقل بأعبائها والداخل فيها .

١٠ ـ انتفاع رئيس الأطباء بخبرة سابقيه :

" سالكا فى سبيل ذلك سبيل من تقدمه من رؤسائها ، حاكما فى أمورها بما جرت به العادة المستقرة بين أكابرها وعلمائها ، مطارحا من قدمت هجرته فيها بما يقتضى له مراجعة اصـــــوله .

١١ ـ الحظر مزاولة المهنة الاعلى البارعين فيها :ـ

" ملزما من ظهر قصوره فيها بالتدرب إلى حد لا يقنع منه [1] بدون حصوله ، مجيبا فى الإذن لمن أظهر الاستحقاق ، وكان صدق ما ادعاه [2] قابلا للثبوت .

١٢ ـ الترقية على أساس العلم وطول الممارسة والإخلاص فى الدين وكرم الخلق :

قابلا فى الثبوت من مشايخ [3] هذه الصناعة من لا يشهد إلا بما علمه ، ولا يخبر من التدرب إلا بما رآه ووعاه [4] ، متحريا فى الثبوت لدينه آذنا بعد ذلـــك فى التصرف إن ترقى علمه بما استحقاقه إلى رتبه تعيينه ، وليعطى هذه الوظيفـــة حقها من تقديم المبرزين فى علمها ، وتكريم من منحه الله رجحة نقلها وفهمهـــا .

١٣ ـ موقف رئيس الأطباء من أدعياء الطب :

وتعليم من ليس عليه من أدواتها المعتبرة غير وسمها واسمها ، ومنع من يتطرق من الطرقية [5] إلى معالجة وهو عار من ردائها ، وكف يد من يتهجم على النفوس فيما غمض من أدوائها قبل تحقق دوائها ، واعتبار التقوى ، فيمن يتصدى لهذه الوظيفة ، فإنها أحد أركانها ، واختيـــار الأمانة فيمن يصلح للاطلاع على الأعضاء التى لولا الضرورة المبيحة حرم [6] الوقوف على مكانهـــا ، وليكن فى ذلك جميعه مجانبا للهوى ناويا نفع الناس ، فإنما لكل امرئ ما نوى . واللـــــه تعالى يحقق له الأمل ، ويسدده فى القول والعمل بمنه وكرمه ...

..... وشاهد منهم :ـ

ونسوق " الكلمات التالية " الذين يولهون " العلم التجريبى " أو التقدم الغربى ، وكاتبه

---

(١) يعنى : إذا لم يصل إلى الدرجة المبتغاة من المرانة والدربة فلا يؤذن له بمزاولة .

(٢) يعنى : لا يقبل منه ادعاء العلم والتجربة ، بل عليه اثبات ذلك بالأدلة الملموسة .

(٣) كأنه يشير بقوله " مشايخ الصنعه " ما يعادل بلوغ درجة الأستاذية .

(٤) أى يعرف من خلقه الأستاذ أنه لا يحابى ولا يتهاون ولا يدلس ، ويشهد لتلاميذه بما قدموا دليله من العلم والتجربة .

(٥) هذا تعبير أصاب المحز ويعنى المتطفلين الأدعياء .

(٦) يعنى عورات الرجال والنساء : إذ جسم المرأة كله عورة ، عدا وجهها وكفيها .. لكن الضرورات الشديدة تبيح المحظورات .

ليس من جلدتنا ، ولا يتكلم بلساننا ، إنه كاتب غربي " هو " فانفريوش "[1] .. ولعل كلماته تكون حجة على الذين فتنوا ولاهم يفصلون ، قال :

١ ـ قصور العلم التجريبي :

" العلم لا يبرهن شيئاً بصورة مطلقة ، وهو عاجز حتى عن إقامة الدليل بالنسبة للأمور الجوهرية ، وهنا يبرز السؤال : هل يعتبر عمل العلم غير مُجدٍ للمفكر الباحث عن شاطئ ، آمن وسط كل هذا ؟ الغموض .. والقسوة .. والشر .. والجلال التي تسود عالمنا ؟ قطعاً لا فالعلم يقوم بعملين اثنين ؛ فهو يمنحنا التواضع ويلون الكون ملقياً الضوء على خفاياه ، ويزيل ما يقيد الخيال عنه ، كما يزيد من رهبتنا له كلما تكشفت لنا أسراره يوماً بعد يوم "[2] .

٢ ـ العلم والحيرة :

" ومازلنا نشعر بالحيرة عند التفكير فيما إذا كان الكون محدوداً أو فسيحاً إلى ما لا نهاية ؟! وفيما إذا كان الكون هو الوحيد أم أنه واحد من مجموعة كبيرة ؟ إننا نخمن ما إذا كان هذا الكون قد بدأ بانفجار هائل !! وما إذا كان يتذبذب بين الضغط المطلق والإنتشار الواسع ؟ وما إذا كان يتجدد تلقائياً ، وهكذا يستمر إلى الأبد دونما تغير أم لا ؟ وكل هذا يدفعنا إلى التواضع "[3] .

٣ ـ العلم والإيمان :ـ

" من السخف إنكار وجود ما وراء ليات العلم ، إننا نفكر اليوم في القيم الروحية بعمق لأن العلم أعطى مفهوماً جديداً للكون عبر مقاييسه وتحليلاته "[4] .

٤ ـ العلم لا يذكي غرور المفتونين :ـ

" إننا نعيش في عالم صعب ، ورجال العلم مصيبون في تأملهم وسعيهم للتأثير في طريقة تقدمنا ، لكنني أعتقد بأن وجهة النظر المادية المتطرفة إنما يتمسك بها أولئك الذين غرهم ما توصلوا إليه من معرفة الأشياء المادية ، وإن اتباع العلم

---

(١) انظر كتابة : " ليس بالعلم وحده " ترجمة لجنة من الجامعيين ط : دار الآفاق ببيروت ، واسم الكتاب في أصله الإنجليزي :
Science is not enough
وترجمتها الحرفية : العلم ليس كافياً "

وأسلوب الكتاب يدل على ترجمة حرفية يعوزها الصقل اللغوي

(٢) انظر نفسه ص ٢٣
(٣) انظر نفسه ص ٢٤
(٤) انظر ص ١٧٤

لا يعنى بالضرورة الاستخفاف بالأمور الروحية ، بل فى الواقع إن اتباع العلم بشكل صحيح يعنى إيجاد[1] الإطار المناسب للنمو الروحى[2] ..

٥ ــ قيم الإنسان .. وقصور دعاة التطور :

" وقيم الإنسان كلها ليست مستمدة من حبه للبقاء ، أو التحيز فى الإختيار ، والإنسان الذى يكرس حياته لخير بنى جنسه لا يفعل ذلك كنتيجة حتمية " للنشوء والإرتقاء " : إن إيثار الغير مصدره عقل الإنسان وليس تاريخه السوبى[3] .

٦ ــ الاستدلال بالخلق على الخالق :

وكذلك الأمر بالنسبة لسعيه إلى المعرفة ، فتوقه إلى الفهم يتجاوز المعطيات الطبيعية التى تسيطر على تركيبه المادى ، فالراعى الذى ينظر إلى النجوم ليلا ويتأملها لا يفعل ذلك لأنه خامل وشارد العقل ، بل لأنه يتساءل إذا كان السبب الذى يجعله يفكر موجودا خلف تلك النجوم ؟[4]

٧ ــ لا خلود لمخلوق :ــ

وكل إنسان يقتحم المجهول لكن يكون بمنأى عن الموت ، إن عقل الإنسان وهو أثمن ما فيه يدمر فى لحظة بالصدفة ، أو سوء الطالع إن المعرفة الموروثة عبر السنين لن تدوم إذا فشل الرجال الأحرار[5] .

٨ ــ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا :ــ

نحن نفهم بأن الكون كبير ومعقد ، ووراءه من الأشياء ما قد لا نتمكن من معرفتها أبدا[6]

٩ ــ من غايات العلم :ــ

للعلم إيمان واحد يمتلكه المنفصلون ، فكل رجال العلم تقريبا وكل طلابه ، وكذلك الرجال الذين يعيشون ببساطة ، لهم إيمانهم المتفاوت والمتنوع ، وهذا الإيمان هو الذى يشكل ميزة الإنسان ليتعلم ويفهم ، وهذه هى رسالته[7] .

إن غاية المعرفة هى الفهم وليست السيطرة ، وهذا هو أساس وجودنا ، ولا يستطيع أحد أن يرسم حدودها النهائية ، قد يعرف أحفادنا أكثر مما عرفناه ، وقد يتمكنون من

---

(١) فى الأصل : خلق فعدلناها
(٢) انظر ليسر بالعلم وحده ص ١٧٤
(٣) انظر ص ١٧٥
(٤) انظر ص ١٧٥
(٥) انظر ص ١٧٥
(٦) انظر نفسه ص ١٧٥
(٧) انظر نفسه ص ١٧٦

إزاحة الستار قليلا ويعتقدون أنهم يفهمون السر ، ولسوف نترك لهم ميراثا قيما رغم أننا نعيش مرحلة خطرة (١) .

٥ ـ السمو عن تأليه المادة :ـ

وهناك واجب آخر لا يقل أهمية عن الواجبات الأخرى ، وهو أن نحيا بحيث يوجد سبب للحياة يتجاوز مفهومها الآلى والمادى ، وهو واجب يفرض علينا المضى فى البحث عن المعرفة (٢) .

فيصل القول
فى قضية التأويلات العلمية

بعد أن عرضنا ـ مستعينين بالله وحده ـ لجذور هذه القضية ، وأرخنا لها ، وبيّنا استغلال فلول الغزو الفكرى لأبطولة التناقض بين الدين والعلم ، وما قام به بعض المسلمين من تأويلات قاصدة أو شاطحة ، كرد فعل لهجمات أولئك المغرضين الضالين ، وبعد أن عرضنا فى حيدة موضوعية لآراء المانعين من التأويلات العلمية وآراء المؤيدين لها ، واستعملنا حقنا المشروع فى المناقشة والتعقب ، والتأييد أو التفنيد وفق ما يقتضيه مقام القول ، نحاول هنا أن نقعد أنفسنا منزلة الحكم بين هذه الآراء ، وهى منزلة لا ندعى لأنفسنا استحقاقها ، ولكن قواعد البحث المنهجى وضوابطه هى التى فرضته علينا ، وحُكْمنا فى هذه القضية هو :ـ

إننا نقسم النظرة العلمية إلى آى القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع :ـ

١ ـ بيان وجه الإعجاز العلمى :ـ

من نافلة القول أن نقول : إن إعجاز القرآن الكريم ليس قاصرا على وجه واحد من وجوه الإعجاز ، بل الصحيح أن الإعجاز وجوه شتى منها هذا الوجه العلمى ، وبيان هذا الوجه من الإعجاز العلمى يتضح فى بعض آيات القرآن الكريم خاصة تلك التى يتعلق موضوعها بالأكوان ، وبالخلق العام لهذه الأكوان ، ويجد القارئ لتلك الآيات الكريمة : أنها تقرر حقيقة علمية مستقرة ، لا يعتريها الزيف ولا التغيير ، وأن هذه الحقيقة لم تكن معروفة فى عصر التنزيل وهى لا تتعلق بأمر اعتقادى يجب أن يكون قاطعا ، ولا بحكم شرعى ينبغى أن يكون مفصلا ، ولا ينتقص من قدر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لم يعرفوا تفاصيل هذا السر من أسرار الكون ، الذى جاءت آيات قرآنية تشير إليه فى إيجاز

---

(١) انظر ص ١٧٦

(٢) انظر نفسه ص ١٧٧ .

فهو كما بينا أمر لاتتعلق به عقيدة ولا شريعة ، وقد ظهر لهم فى حياتهم من وجوه إعجاز القرآن وأولها :

الإعجاز البيانى مايكفى أن يكون حجة ناهضة ودليلا رائعا ، ومقصدا رادعا لمن لم يؤمن ثم شاءت حكمة العليم الخبير أن يكون هذا الوجه من الإعجاز مخبوءا فى هذا الكتاب الذى لاتنقضى عجائبه لهذا الجيل من الناس : الذى فتن فتونا بمبتكرات العلم التجريبى ، ومخترعاته وهذا من رحمة الله بعباده ، وقد أنزل سبحانه كتابه هاديا للبشر فى كل عصر ، كافيا لحاجاتهم القلبية ، والعقلية والنفسية والتشريعية ، والسياسية ، والإقتصادية ، فى كل مصر .

ومن صور هذا الإعجاز وهى كثيرة ، أنك تقرأ قول الله تعالى : " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوى بنانه " ٤٠٣ : القيامة فمن هذه الآية الأخيرة صورة من صور الإعجاز العلمى فى القرآن ، ذلك أنه قد أضحى من المسلمات القطعية : أن بصمات أصابع أى إنسان لاتتشابه مع بصمات أى إنسان آخر ، من هذه "الملايين" التى عاشت أو تعيش أو ستحيا على هذه الأرض حتى أصبحت هذه البصمات دليلا لايرقى إليه الشك فى كثير من المعاملات الرسمية ، فتوقيع إنسان ماعلى صك مالى أو وثيقة بيع قد يداخله التزييف والتزوير وأما أمر البصمة فهو يستعصى على التزييف والتزوير ، ولهذه الأسرار فى البصمة الإنسانية جاء قوله تعالى : " بلى قادرين على أن نسوى بنانه " ومعنى نسوى هنا : هى كمعناها فى قوله تعالى : " يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى ماشاء ركبك " فمعناها فى الموضعين أنه جعل خلقته على النحو الأتم الأكمل السواء ، وتمام تسوية البنان وهو : طرف الإصبع أن يكون على النحو المبدع المعجز الذى ذكرناه من قبل .

ويحسن بنا أن نذكر آراء بعض المفسرين السابقين فى الآية :

رأى الزمخشرى : يذكر الزمخشرى ثلاثة أقوال فى تفسير[1] الآية :

(أ) نسوى بنانه : أى أصابعه التى هى أطرافه ، وآخر مايتم به خلقه

(ب) نسوى بنانه : نضم سلامياته على صغرها ولطافتها - بعضها إلى بعض ، كما كانت أولا من غير نقصان ولاتفاوت ، فكيف بكبار العظام .

(جـ) قيل معناه على أن نسوى أصابع يديه ورجليه أى : نجعلها مستويه شيئا واحدا كخف البعير ، وحافر الحمار ، لانفرق بينهما ، فلايمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض ، والتأتى لمايريد من الحوائج " أ هـ .

---

(١) انظر "الكشاف" جـ٣ ص ٢٩٢ ط : الحلبى .

هذا ماذكره الزمخشرى والرأى الثانى الذى ذكره هو الذى يتعاطف بصلة من المرحمة مع ماكشفه العلوم عن وجه الإعجاز فسى الآية الكريمة فهذا مثال مصور لما نقصده بالإعجاز العلمـــــى .

٢ ـ التفسير العلمى :ـ

ونعنى بالتفسير العلمى : أن يقوم المفسر بشرح بعض التفصيلات العلمية لشىء ذكره القرآن ، وذكر آية الله فيه ، وفهم الذين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمة الله فيما ذكر على سبيل الإجمال ونفصل هذا الإجمال بمثال شارع ، قال الله تبارك وتعالى : " وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بيـــن فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين " ٦٦: النحل ، فالله سبحانه وتعالى يمتن على عباده بهذا اللبن السائغ ، وكل من سمع هذه الآية وقت نزولها من مؤمن أو كافـــر لايشك فى فائدة هذا اللبن ، ثم جاء عصرنا بأجهزته ومعامله ومختبراته فتمكن من أن يعرف مقدار الدهن الذى فى اللبن ، وماذا فيه من سكريات ، وماذا فيه من فيتامينات ، وماماثل ذلك ، بالكميات المحددة والمقادير المفصلة ، فهل يكون ذكر هذه المعارف حول هذه الآية الكريمة إلا إظهارا لأسرار آيات الله فى الخلق ، وبيانا لمزيد فضله على عباده ، وردا على بعض المولعين بتقدم العلوم فى عصرهم ؟ فهذا مانعنيه بالتفسير العلمى .

والفرق بين بيان الإعجاز العلمى فى " الآية " وبين تفسيرها تفسيرا علميا ، أن الأول : هو كشف المغطى ، والثانى : هو تفسير المجمل .

٣ ـ التأويل العلمى :ـ

وأما التأويل العلمى فهو التعسف فى فهم آيات القرآن ، وبترها من سياقاتها لتخدم معانى بعيدة عن أغراضها ، فتؤول آيات القرآن بالمزعوم من النظريات ، والمضطرب من التخمينات ، وهذا التأويل : سفه فى الرأى ، وقول على الله بغير علم ، وعدوان على بيان القرآن ، ومسخ لدلالات الالفاظ اللغوية ، وهذا هو المردود والمرفوض والمرذول . وأمثلته كثيرة وفى كل يوم ترى منها جديدا لأن التأويل تفسير بالهوى ، وقول بالظن ، والهوى لاضابط له ، والظن لايقمعه إلا اليقين .

ولقد ذكرنا من أمثلته : تفسير الدابة التى تكلم الناس ـ والتى ورد حديث القرآن عنها فى سورة النمل ـ بأنها هى : المذياع ، وعند مفسر آخر : هى سفينة الفضاء وعند ثالث : هى الصاروخ الموجه ، وقد سبق فى هذه الرسالة ذكر صور من هذه الشطحات التى يسمونها بالتفسير العلمى أو العصرى وسيأتيك منها مزيد إن شاء الله .

قواعد المنهج العلمى فى القرآن

يباهى المفتونون بما فى هذا العصر من مكتشفات العلم ، ومستحدثات الإختراع ويتشدقون بالدعاوى الفارغة ومنها أن التفكير الدينى : تفكير غيبى لا يصلح نظاما لحياة ، ولا منهجا لبناء أمة ، وأن سواء الصراط فى معتقدهم هو الفكر " العلمانى " أو " اللادينى " ونحن نريد أن نبين لهؤلاء أن القرآن الكريم هو أعظم دعوة عرفتها الأرض : وضعت العلم الصحيح فى موضعه من نفع البشر وإصلاح حالهم ، وإنك لواجد فى كتاب الله العديد من آيات القرآن التى تأمر بالبحث والنظر وتحض على الدرس والإختبار والتجريب .

فإذا كان العلم لا يعتمد غير الدليل والبرهان ، فها هو القرآن الكريم يجعل البرهان هو الفيصل بينه وبين خصومه فيقول الله ردا على دعاوى اليهود فى أن الجنة حكر لهم : " تلك أمانيهم " ثم يتحداهم أن يأتوا بالقرآن : " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " ١١١ : البقرة ، بل إن أعظم قضية فى الوجود كله هى التوحيد ، وأكبر كبيرة هى الشرك ، ومع ذلك فإن القرآن يطالب المشركين بالبرهان المصدق لزعمهم أن مع الله آلهة أخرى فيقول سبحانه : " ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به " فإنما حسابه عند ربه " ١١٧ : المؤمنون ، وسدد الله مقالة أصحاب الكهف إذ قالوا " هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا " ١٥ : الكهف ، فهم يبينوا ان النزاع بينهم وبين قومهم أنهم يعبدون من دون الله آلهة ، وأن الذى يفصل فى النزاع هو أن يأتوا بسلطان بيّن ، يؤيد زعمهم ، وتأمل تسمية القرآن للبرهان بأنه سلطان ووصفه لهذا السلطان بأنه يجب أن يكون بينا .

وأرسل الله أنبياءه بالمعجزات الملموسة القاطعة ، وسمى هذه المعجزات آية علامة دالة على صدق هذا النبى ، كما قال تعالى : " سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة " ٢١١ : البقرة ، وكما فى قوله تعالى ، " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا " ٥٩ : الإسراء .

ولم يعب الله على نبى من الأنبياء الكرام بل من أولى العزم منهم أن يطلب منه جل جلاله أن يريه الصورة العملية لإحياء الموتى ، وتفضل الله عليه بالدليل المشهود ، وذلك ما يذكره القرآن الكريم لنا فى قوله تعالى : (" وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم " ٢٦٠ : البقرة .

والأدلة من القرآن الدالة على ما قدمنا كثيرة ونكتفى بما ذكرنا .

الآيات الكونية فى القرآن لم تذكر عبثا

لقد ذكرت آيات القرآن الكريم العديد من الآيات الكونية لتحرك العقول ولتستلفت الأنظار إلى آيات الله فى الكون كله . وها نحن نبسط لك القول فى بعضها على النحو التالى :ـ

آيات تحث على النظر فى الأرض :ـ

يقول الله تبارك وتعالى : " وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون " ٢٠ ، ٢١ : الذاريات .

ويقول جل ذكره : " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشأ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير " ٢٠ : العنكبوت . فهل يتصور متصور أن أمره تعالى لعباده " فانظروا كيف بدأ الخلق " هى دعوة لهم إلى أن يفتحوا أعينهم ويغضوها أو أن يقلبوا أبصاراً شاردةً زائغة إلى أم أن القرآن بقوله : "انظروا كيف " إنما دعاهم إلى النظرة العلمية الفاحصة المدققة ، وتأمل " بدأ الخلق " مع أنه تعالى يقول : " ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا " ٥١ : الكهف . فكيف يأمرهم بالبحث عن شىء ما شهدوه ؟

نظن والله أعلم أنه يدعوهم إلى أن يدرسوا قشرة الأرض ، وأن يقلبوا طياتها وأن يستنطقوا بالبحث جمادها ، ذلك بعض ما يُفهم من دعوتهم إلى الوقوف على بعض أسرار الله فى بدء الخلق وليس ذلك فحسب إنه ليدعوهم إلى أن يعلموا الكثير والكثير عن طبقات الأرض ، وهو ما يسمى " بالجيولوجيا " بل يدعوهم إلى معرفة أنواع الصخور والمعادن خصائصها ليكون هذا العلم نافعا لهم فى دنياهم حين يعمرون ويشيدون ، ونافعا لهم فى دينهم حين تكون هذه الدلائل هادية لهم إلى كمال الإيمان وطمأنينة اليقين ، واسمع إلى قول الله تعالى : " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور " ٢٧ ، ٢٨ : فاطر .

فأنت ترى فى هاتين الآيتين كيف أشار القرآن إلى تكوّن المطر ونزوله من السماء وإلى علم الزراعة وإخراج الثمرات ، وتأمل هنا عناية القرآن بالجبال فالذين يدرسون العلم يشكون جفافه ، وهنا فى هذه الآية يستوقف القرآن السياق ليبين فى المؤمنين حسن الجمال بقوله " مختلف ألوانها " مع ما فى هذا الإختلاف اللونى من دلائل القدرة ... ومن الثمرات النضيجة الرطبة الهنيئة ، إلى الجبال تتقطع قطعا وتختلف ألوانا : من البياض إلى الحمرة إلى السواد الشديد ، ثم ينقل القرآن السامعين نقلة رابعة : إلى آيات الله فى البشر ثم نقلة خامسة : إلى آيات الله فى الدواب والأنعام وما فيها من منافع وما يلذ منها من لحوم وشحوم ، وما يستخرج منها من ألبان وما ينتفع به : من جلودها وأوبارها ، وأصوافها ، مع الأشارة إلى اختلاف الألوان الدالة على اختلاف الأنواع والأجناس ، ثم يأتى قوله تعالى " إنما يخشى الله من عباده العلماء " فالذين وقفوا على آيات الخالق وأسرار الخلق ، ودقائق الصنع ، يعلمون أن وراء ذلك كله الحكيم ، القدير ، العليم ، الخبير العزيز ،

الغفور . ثم ننقلك بعد ذلك إلى ملحظ رشيد وهو قوله تعالى : " إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور " ٢٩ : فاطر .

وتأتى هذه الآية بعد الآيتين الكريمتين السابقتين لتبين أن العالم الكامل فى الإسلام هو الذى جمع بين متطلبات الروح وبين علوم المادة هو الذى نظر فى السموات والأرض فلم يعبد غير خالقهما هو الذى قرأ آيات الله فى الكون بسمائه وأرضه فاستوعبها وتلا آيات الله فى الكتاب فاسترشدها واستهداها هو الذى أقام الصلاة وهو الذى أنفق مما رزق الله سرا وعلانية ، وتلك هى التجارة الحسنى .

فهذه آيات تظهر فيها تكاملية الإسلام وشمولية منهجه وأنه الدين الذى يريد أتباعه على أن يأخذوا قسطا من المادة وألا يغفلوا نصيبهم من حقوق الروح ، هم الذين يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة ولا ينسون نصيبهم من الدنيا .. وفى الآيات من دقائق المعانى وأسرار التربية ومناهج الحياة وما يضيق النطاق عن بسطه وما تحمر به النفس ويستوعب بعضه العقل ويحاول أن يعبر فيحصر أو يدركه الحس وأنى للمخلوق العاجز أن يحيط من علم علام الغيوب إلا بما يشاء سبحانه .

علم الفلك

كان علم الفلك من العلوم التى أوسع القرآن لها بين محكم آياته ، وهو علم يتجلى فيه آيات الله ما يدفع العقول الواعية إلى السجود لعظمة البارئ سبحانه ، وما يدفع الأنفس المتدبرة إلى خاشع اليقين ، ولنأخذ فى ذكر بعض آى القرآن الكريم التى تستلفت أنظارنا إلى تدبر هذا الكون الوسيع ومهما حاولت هذه الأنظار أن تتدبر ، وأن تعين نفسها على عمق النظرة بمستحدث الآلات وعظيم المجاهر ، فإن النتيجة مذكورة فى قوله تعالى : " الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير " ٣ ، ٤ : الملك .

مواقع النجوم :-

يقول الله تبارك وتعالى : " فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " ٧٥ ، ٧٦ : الواقعة .

تدبر معنا قوله تعالى " لو تعلمون عظيم " والمعنى أنكم لا تستطيعون أن تعلموا حقيقة عظيمة هذا القسم إلا إذا علمتم شيئا عن هذه النجوم وعن مواقعها فما هى هذه المواقع؟

يقول الدكتور محمد جمال الدين الفندى [1] : " ومواقع النجوم تفوق حدود الوصف والخيال ، وكلما عرف الإنسان وسائل [2] تمكنه من رصد مسافات أكبر ، اتسعت أمامه آفاق الكون ، وتعرف على نجوم أبعد ، ونظرا لكبر المسافات تستخدم السنة الضوئية كوحدة للقياس وهى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة كاملة ، علما بأن سرعة الضوء

(١) انظر كتابه : " الله والكون " ص ٢٧٠ ، ٢٧١

(٢) كتطوير صناعة المجاهر وما يسمى " بالتلسكوب الإلكترونى "

هى ثلاثمئة ألف كيلومتر فى الثانية الواحدة وعلى ذلك فإن السنة الضوئية تعادل عشرة ملايين الملايين من الكيلومترات ، أى واحدا متبوعا بعدد من الأصفار يساوى ثلاثة عشر صفرا ، وتذهب بعض النظريات الرياضية إلى أن الكون يتسع ، وحدوده تتمدد وهو أمر تدعمه المشاهدة فقد رصد الفلكيون عددا وفيرا من وحدات الكون العظمى أو الجزر الكونية ، وهى المجرات ، فوجدوا أنها تتباعد عن مجرتنا بسرعات تتزايد بازدياد البعد عنا ربما أمدتنا هذه الظواهر فى مجموعها بمادة للتعليق العلمى على قول الله تعالى " والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون " ٤٧ : الذاريات ، وتضم كل مجرة [1] من هذه المجرات آلاف الملايين من النجوم ، التى يمكن اعتبارها من حيث الحجم على غرار الشمس بصفة عامة وبعض تلك النجوم لها مجموعات من الكواكب على غرار المجموعة الشمسية ، ويقدر العلماء أن فى مجرتنا وحدها ما لا يقل عن مليونى كوكب شبيهة بالأرض .... وبعض هذه بحكم ظروفها الطبيعية يمكن أن يظهر عليها مخلوق شبيه بالإنسان ، وتعرف مجرتنا باسم " طريق التبانة " أو " سكة التبانة " كما سماها العرب ، ويبلغ طول قطر مجرتنا نحو ألف سنة ضوئية ، أما المجرة التى بجوار مجرتنا فهى مجرة " المرأة المسلسلة " وتقع على بعد منا يساوى خمسين ألفا وسبعمئة ألف سنة ضوئية .. وهناك مجرات اكتشفت حديثا : قدر بعدها عن أرضنا بنحو اثنى عشر ألف مليون سنة ضوئية ، كل ذلك وغيره يدفع من كان ذا بصر رشيد أن يفقه معنى قوله تعالى : " وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " وأن يحاول بدءوب العمل ، ومس قلوبّ النوم ، وخاصم الفتور ، أن يكون من أولئك الذين قال الله عنهم : " ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار " ١٩١ : آل عمران .

أقسم الله بالنجوم جملة ، وقد نقلنا لك قطرة من بحر علومها ، وهى قطرة صغيرة صغيرة ، إذا علمت أن المراصد العالمية تمكنت أن ترصد من المجرات ما يبلغ مئة مليون مجرة ليست مجرتنا هذه إلا واحدة منها وليست أرضنا بالنسبة لهذه المجرة إلا واحدة من مليونين .

كذلك أقسم الله ببعض النجوم المرئية لنا فقال جل ذكره عن الشمس : " والشمس وضحاها " ١ : الشمس ، وقال عز من قائل : "فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون " ٩٦،٩٧ : الأنعام .

وقال سبحانه : " إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره

---

(١) انظر كتاب " الله والكون " ص ٢٧٤ ، ٢٧٥

ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين " ٥٤ : الأعراف ٠

فكل هذه الآيات فى صميم علم الفلك ، ولنسأل العلم الحديث شيئا عن هذه الشمس التى أقسم الله بها ، وامتن على عباده بآياته فيها ، أنها كما يقول (١) الدكتور أحمد زكى : " كرة هائلة من غازات متقدة متوهجة قطرها نحو من ٨٦٥٣٨٠ ميلا ، ولو أننا صففنا على هذا القطر كرات أرضية ككرتنا الأرضية لبلغ عددها تسع كرات ومائة كرة ، ولو أننا جمعنا من هذه الكرات لتبلغ بأحجامها حجما مثل حجم الشمس لجمعنا نحو مليون منها "

وليس هذا الذى ذكرنا هو كل ما فى القرآن عن الشمس ، ولا هو كل ما أحاط به العلماء بمراصدهم ووسائلهم عن الشمس ، فلنتذاكر شيئا آخر عنها يزيدنا يقينا فوق يقين بقدرة العليم وعظمة مالك الملك ٠

يقول الله جل ذكره " وجعلنا سراجا وهاجا " ١٣ : النبأ ٠

وهذا السراج الوهاج هو الشمس ، فما هو هذا الوهج الذى وصف به الشمس حتى نفهم معنى الوهج فلنقرأ قول الله جل ذكره : " تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا " ٦١ : الفرقان ، فوصفت الشمس هنا أيضا فى هذه الآية بأنها سراج كما وصفت بذلك فى سورة النبأ ، ولنقرأ أيضا قوله سبحانه " هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون " ٥ : يونس ، فدائما يصف الله الشمس بوصف مغاير للقمر كما رأيت فى الآيات السابقة ، وسر ذلك نعرفه حين نعرف أولا معنى كلمة الوهج فى اللغة ، يقول ابن فارس (٢) : " الواو والهاء والجيم : كلمة واحدة وهى الوهج : حر النار وتوقدها ٠ ويستعار ذلك فيقال : توهج الجوهر تلألأ ٠ وتوهجت رائحة الطيب ووهج الطيب : أرجه ورائحته ٠ وسراج وهاج : وقاد ٠ وكذلك نجم وهاج " ا ٠ هـ ٠

الوهج والطاقة الشمسية :-

فهذا بعض حديث القرآن عن الشمس ، وهذا حديث اللغة عن وهجها ، وإليك بعض حديث العلم عن وهجها ، يقول الدكتور أحمد زكى (٣) " الشمس كرة من نار ، ودرجة حرارتها عند السطح تختلف بموقعها من قرص الشمس الذى نراه ، وهى تبلغ نحوا من ٦٠٠٠ درجة مئوية فى أوسط القرص وهى تبلغ دون ذلك كلما ابتعدنا نحو الطرف ، وهى عند أطراف القرص تبلغ نحوا من ٤٨٠٠ درجة لأن الإشعاع مصدره إلينا أبعد ، فهو ينفذ فى جو الشمس أكثف قبل أن يصل إلينا ، أما أوسط الكرة الشمسية - فى أوسط الأتون - فقد قدروا درجة حرارته فكانت حول ٢٠ مليون درجة ٠

(١) انظر كتابه " مع الله فى السماء " ص ١٩٠ ط : الهلال ٠
(٢) انظر معجم المقاييس ج ٦ ص ١٤٧ ٠
(٣) انظر كتابه " مع الله فى السماء " ص ١٩٢ ، ١٩٣ ٠

ومقادير الحرارة التى تشملها الشمس فيما حولها مقادير هائلة ، إن السنتيمتر المربع الواحد من سطح الشمس يشع فيعطى فى الدقيقة الواحدة ٨٩٫٠٠٠ سعر حرارى ، فهو يعمل عمل محرك قدرته ٩ أحصنة ، فالمتر المربع الواحد : يعمل عمل محركات قدرتها ٩٠٠٠٠ حصان ، وسطح الشمس كله يعمل فى إشعاعه عمل خمسة وثمانين ألف مليون مليون مليون حصان ، وهو عدد يكتب اختصاراً فيكون ٨٫٥ × ١٠ (٢٣) .

ونصيب الأرض من هذا الإشعاع كله يبلغ نحواً من جزء من ٢٢٠٠ مليون جزء ، ونصيب الميل المربع على سطح الأرض منه يعادل فى المتوسط ٥ ملايين من الأحصنة ـ الأحصنة (١) الميكانيكية ـ التى تتخذ وحدة للطاقة ، وللقدرة ٥٫٣ هـ .

وكل هذا الذى علمته من حديث القرآن واللغة والعلم عن ضوء الشمس وحرارتها ، يجيبك عن سر السؤال الذى طرحناه آنفا من وصف ضوئها بالتوهج ، ووصف القمر بأنه منير ، ذلك أن ضوء الشمس ذاتى منبعث منها ، وأما ضوء القمر فهو انعكاسى لأنه مستمد من ضوء الشمس وانعكاس له .

تأويل السموات السبع
بالكواكب السيارة

عند قول الحق جل ذكره : " الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت .. " ٣ : الملك ، أراد الشيخ المغربى أن يفسر الآية ببعض العلوم الفلكية ، فكان تأويله على هذا النحو المتناقض حين قال (٢) : " والسموات السبع هى طرائق السيارات ومداراتها . ولا ريب أن هذه المدارات طبقات : طبقة أدنى من طبقة ، وفلك فوق فلك . وإنما اقتصر الوحى من ذكر السموات على سبع ـ مع أن العلم اثبت أنها أكثر من ذلك ـ لأنه تعالى إنما يخاطب القوم وقت البعثة بما عرفوا من أمر الأفلاك والكواكب ، وقد أحالهم على النظر والتأمل فى تكوينها وأوضاعها ، ليتنبهوا إلى كمال إحكامها ، وليحدث الخطاب فى نفوسهم عبرة بإذعانا وفضل تأثر ، وليكون ذلك آية لهم على وجود الله وكريم صفاته . وهذا هو جُلُّ القصد من ذكر السموات فى القرآن . وليس القصدُ من ذكرها تقريرَ حقائق فى علم الهيئة ، وسكوتُ الوحى عن ذكر ما زاد على سبع السموات لا ينفى وجودَ الزيادة . والحكمة فى هذا السكوت أن المخاطبين فى ذلك العهد ما كانوا مقتدرين على النظر والتفكير فى غير السموات السبع ، أو السيارات السبع التى عرفها الأوائل ، واشتهر امرها عند عامة الناس يومئذ . أما النجوم الثوابت الأخر فلم يكن يتيسر لهم أو ينتظر منهم أن يوجهوا البصر فيها ليروا ما فيها من تفاوت أو إحكام ، وذلك ليمد هذا الشاسع عن متناول الحس ، وعدمَ الأوائلُ ما عرفه المتأخرون من طبائعها وأحوالها . وأما فلكا " أورانس " و " نبتيون " فلم يكونا معلومين فى ذلك العهد ، فلو أحال الله البشر فى قرآنه على ما لم يكتشفهم النظر فيه ، وإلا حاطه علما بأمره من النجوم الثوابت والفلكيين المذكورين ـ لكانت إحالته عبثا ، وتكليفه محالا . وقد أبى الله سبحانه وتعالى لنا ذلك فى مُنَزَّلِ وحيه ، ومحكم شرعه ، تفضلا منه ورحمة ، وسيأتى زيادة بيان لهذا البحث فى سورة نوح فانتظره .

---

(١) من خصائص أسلوب الدكتور أحمد زكى .. التكرار والترادف .

(٢) انظر ص ٥ من تفسير جزء تبارك .

تأويله في سورة نح :- ثم طد رحمه الله في سورة نح يبدئ القول ويعيده حول هذا الموضوع ثم انتهى إلى هذه النتيجة بقوله : (١) " ومحصل القول أن البشر في زمن نح - وهو الزمن الذى عاش فيه الكلدانيون المشهورون بعلم الهيئة ورصد الكواكب وعبادة النجوم ويسمون الصابئة أيضا - كانوا قد توصلوا إلى معرفة السبعة السيارة وقد قسموا الفضاء باعتبارها إلى طبقات سبع وبقيت هذه المعرفة متوارثة في الأمم جيلا بعد جيل حتى زمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فخوطبوا عن أمر السماء بما اعتادوا أن يتخاطبوا به فيما بينهم وهو أن السموات سبع ، وأن طباقها طبقة فوق طبقة ... إلى هذا القدر بلغ علم الأمم في الزمن القديم ، ولا يلزم منه أن تكون الكواكب والأجرام السماوية الكبرى في الواقع ونفس الأمر سبعة فقط ، ولا أن يكون الفضاء كذلك سبع طبقات فقط بل إن الله عنده من علم السماء وعدد أجرامها وتأليف طبقاتها مالم يصل إليه علم البشر اللهم إلا ماعلموه في العهد القديم من أمر السموات السبع كما وصفنا وإلا ما علموه في العصر الحديث من وجود بعض الكواكب السيارة الأخرى وبعض الطبقات والمدارات الأخرى . ولا مانع أن يطلع الله البشر في المستقبل على غير ذلك من الأجرام والطبقات . ولكن خطاب الله للأمم ووحيه إليها إنما يكون بما تدركه عقولها ، وتلمسه حواسها ، ويبلغ إليه تصورها في عهد إنزال الوحي ، ويكفي في الدلالة على المطلوب " . أ . هـ

نقض هذا الرأي :-

والواقع أن هذا الرأي الذى قال به الشيخ المغربي ينبعث من هزيمة داخل نفسه، فهو يخضع نص القرآن القطعي لفروض ظنية فهذه السيارات التي كان يظنها (٢) بها الشيخ حينما كتب ماكتب يقول الدكتور زكي (٣) المراصد والمجاهر نجوما جديدة لم يسمع " على أن العلم الحديث كشف عن ما هو أبعد من الكواكب ، كشف عن الكوكب " أورانس وهو على "زحل" واكتشف عام ١٧٨١ م ، وكشف عن الكوكب " نبتون " اكتشف عام ١٨٤٦ م ، وكشف عن بلوتو وهو على ما نعلم اكتشف عام ١٩٣٠ م فبلغت عدة الكواكب تسعة ، سوى طائفة كبيرة من كواكب سيارة صغيرة ، كويكبات تقع ما بين المريخ والمشترى ويبلغ عددها نحوا من ألف وستمائة كوكب ، وقليل منها الكبير ، وأكبرها "سيرس" وقطره نحو ٤٨٠ ميلا .. " أهـ والشواهد على اتساع ملكوت الله لا يحصيها العد .

وقول الشيخ رحمه الله : "إن الله إنما خاطب القوم وقت البعثة بما عرفوا من أمر الأفلاك ... " هذا القول كقوله في غير هذا الموضع : إن الله إنما خاطب العرب بما يعتقدون ... وهذه وأمثالها عبارات يردد بها بعض المتأخرين وبعض المؤولين ، ونريد أن نطرحها في متاهات الضياع حتى تطهر عقول المسلمين من أوزارها وحتى لا نبصر بها مرة أخرى ملفقة في كتاب ، أو مدونة في قرطاس ، فإن الله جلت قدرته لم يخاطب الناس بما عرفوا ، حتى وإن كان الذى عرفوه هو الضلال !! ولم يخاطبهم بما اعتقدوا ، ولو كان ما اعتقدوه هو البهتان ، وإنما خاطبهم سبحانه وتعالى : بالحق الذى لا يأتيه

(١) انظر وحي السماء ، من تفسير جزء تبارك .
(٢) عاش الشيخ المغربي رحمه الله حتى أوائل القرن العشرين الميلادى .
(٣) انظر مع الله في السماء صـ ١٥٧ - ١٥٨

الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبالعلم الذى أحاط بكل شئ . وشتان بين قائل يقول : إن الله يخاطب العباد بما تقوى عقولهم على إدراكه ، وبين قائل آخر يقول : إن الله خاطب العباد بما يعرفون ، ولو كانت معرفتهم هى الباطل ، وبما يعتقدون ولو كان معتقدهم هو الوهم الغارق المغرق .

شتان بين الأولى والثانية ، فالمقولة الأولى : هى خطاب الحق والرحمة والتأنى بالعباد والتكليف بالمستطاع المقدور ، وأما المقولة الأخرى : فهى عدوان على جلال الله ، وقول عليه بغير علم ، نعوذ بالله منه . وبما اعتمد الشيخ ومن حذا حذوه فى هذا التأويل على التفسير اللغوى للسماء وهو : كل ما علاك وأظلك فهو سماء ، لكن تتبع الاستعمالات القرآنية لكلمة السماء مفردة ، ومجموعة ، ومعدودة ، هدانا إلى أن عبارة السموات السبع فى كتاب الله لم ترد إلا ويراد بها هذه الطباق السبع ، التى لم نحط من علمها إلا بأقل القليل ، مما شاء الله لنا أن نحيط به .

تأويل الدكتور الفندى للسموات السبع :

وذهب الدكتور الفندى إلى تأويل السموات تأويلا فلكيا يناسب دراسته فأجاب عن تحديدها بسبع سموات بقوله (١) : "الغالب ، والله أعلم ، أنها تحديد للنوع وليس للكم (٢) وما السموات السبع التى ترتفع فوق رؤوسنا سوى :

١ـ الغلاف الجوى
٢ـ الشهب
٣ـ النيازك
٤ـ القمـــر
٥ـ الكواكب السيارة
٦ـ المذنبـــات
٧ـ الشمـــس

ورأينا فى هذا التأويل : أنه لا يسير على قاعدة حتى فى عد " السبعة " فيفرد الغلاف ويجمع الشهب ، ثم يجمع النيازك ويفرد القمر ، فلا هو ذكر أنواعا جامعة فقط ولا هو ذكر أفرادا من كل نوع ، ثم شقق القول فذكر النوع وعده سماء من السموات ثم يذكر أفراد ذلك النوع ، ويعد كل فرد منها نوعا على حدة ، فمثلا :ـ

ذكر الكواكب السيارة ثم ذكر الشمس والقمر ، وهل الشمس والقمر إلا من هذه الكواكب السيارات . وذكر الشهب والمذنبات والنيازك ، وهى تندرج تحت نوع واحد أو تكاد ، بل إن الصلة بين الشهب والمذنبات هى كما قال الدكتور أحمد زكى : ".. وبين الشهب والمذنبات علاقات وثيقة ، فمن الشهب شهب " معلومة مداراتها ، وهى مدارات مذنبات معلومة ، فمدار الشهاب ومدار المذنب مدار واحد ، ومن المذنبات المعروفة ما اختفى ، وحل ميعاده فلم يعد ، وعاد مكانه سرب " أو أسراب من شهب ، إن المذنب لابد تحطم ، وقد يتحطم المذنب فتدور البقية الباقية

---

(١) انظر كتاب "الله والكون" الدكتور محمد جمال الدين الفندى رئيس قسم الطبيعة الجوية بكلية العلوم بجامعة القاهرة صـــــ ٢٩٨ ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب عام : ١٩٧٦

(٢) يقصد أن العدد المذكور ليس حصراً للاجرام السماوية كوكبا كوكبا ، وإنما هو تحديـــد لأنواع تندرج تحتها أفراد ، لكن تعبيره جاء غير معبر عن مراده .

المتماسكة منه ، وسرب الشهب الذى نتج عن تحطمه ، تدور كلها فى مدار واحد ، وقد يتفرق اللحطام على المدار ويطول تورعه عليه على أنه ليس من المؤكد فى كل الحالات أن الشهب نتجت عن مذنبات تحطمت ولكن حتى فى هذا الذى لم يُؤكد ، يُغلِّبُ الظنُ أنها نشأت من غمامة منها نشأ المذنب .

المذنبات تعرفنا مباشرا

والوثاقة هذه التى بين أسراب الشهب والمذنبات نافعةٌ فى التعرف على تراكيب المذنبات تتركب مما تتركب منه الشهب من عناصر ومركبات ، هى بعض عناصر الأرض ومركباتها * . وإذا كانت المذنبات قد نشأت هى الأخرى من حطام كوكب سيار على ما قدمنا ، فهذا الكوكب يتركب مما يتركب منه الشهب ، من عناصر أرضنا هذه ومركباتها ... "

فهذا التأويل الذى قال به لا سند له من العلم الذى تكلم الدكتور من موقعة .

ولا سند له قبل هذا من القرآن الكريم ، الذى حاول الدكتور الفاضل : أن يفسر بعض آيه البينات بغير قواعد التأويل وضوابطه .

بروج السماء :

قال الله جل ذكره : " والسماء ذات البروج " ١ : البروج . وقال عز من قائل " ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين " ١٦ : الحجر وقال تبارك وتعالى : "تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا " ٦١ : الفرقان .

فالله تبارك وتعالى أقسم فى الآية الأولى بالسماء ذات البروج ، وامتن على عباده فى آية الحجر بأنه جعل فى السماء بروجا وزينها للناظرين ، وهذا الترتيب المحكم يشعرنا بأن البروج هى من أسباب زينة السماء ، وإلا فما سبب الامتنان بالزينة بعد ذكر البروج .

وآية " الفرقان " ذكر الله فيها بروج السماء ، ثم ذكر سراجها وهو الشمس كما سبق أن بينا فى غير هذا الموضع فى هذه الرسالة ثم ذكر القمر ، وكل هذا يبين لنا أن البروج هى غير الشمس وغير القمر فما هى هذه البروج ؟ إن قول من قال من المفسرين انها قصور فى السماء ليس بشئ والقول الذى يدل عليه السياق القرآنى هو أن البروج هى النجوم . (١)

يقول الدكتور الفندى (٢) " البروج حزام من مجموعات النجوم تزين السماء ، وتأخذ أشكالا ثابتة المعالم ، لا تتغير بالنسبة لبعضها البعض نظرا لبعدها الهائل عنا .

وتمر الأرض أمام هذا الحزام وتكمله مرة كل عام .... وتقع دائرة البروج فى مستوى فلك الأرض ، وهى تسبح من حول الشمس ، وقد قُسِّمَتْ إلى ١٢ قسما ، مقدار كل قسم منها ٣٠ درجة تقع فيها البروج ... وهى عبارة عن كوكبات البروج التى تقع إلى الشرق من برج " الثور " وليس فى برج السرطان نجم واحد لامع ، ولكن توجد فى مركزه نقطة تضئ بضوء خافت ، وهى تعرف باسم " خلية النحل " ويمكن للمناظير المكبرة العادية أن تحللها إلى العديد من النجوم ، وأما المناظير الفلكية فتكشف داخل هذه ال ١١ نقطة آلاف النجوم ، وكأنها هى مجرة قائمة بذاتها وضاربة فى أعماق الفضاء الفسيح المترامى الأطراف . وهناك علاقة بين اسم هذا البرج وبين مدار السرطان الذى يمثل أقصى إزاحات الشمس الظاهرية تجاه الشمال ، فتصبح أشعتها

---

(١) القول بأنها هى النجوم هو أول الأقوال التى ذكرها القرطبى من بين أربعة أقوال تفسير سورة البروج انظر حـ ١٩ ص ٢٨٣

(٢) انظر " الله والكون " ص ٢٨٧

محرقة فى مناطق الشرق العربى وحوض البحر المتوسط عموما .

وعندما تدرك الشمس برج الأسد تكون جداول الماء قد جفت فيترك الأسد عرينه باحثا عن الماء ، ويصير مصدرا للرعب فى الأرض التى تجوب فيها ، وتقول بعض المصادر أن الأسد يمثل القوة التى تسلط بها الشمس أشعتها على الأرض خلال تلك الفترة من الزمان .

على أية حال فإن الشعور بعظيم وطأة الحر وشدة الإشعاع إنما يتكامل بعد وصول الشمس ظاهريا مدار السرطان بنحو شهر كامل ، وذلك لأن استجابة الجو للتغيرات الكلية تحتاج إلى فترة طويلة من الزمان ، مثلها فى ذلك : مثل ايقادِ النارِ على قِدْرٍ به ماء فإن الماءَ لا يغلى إلا بعد مضى فترة كافية يمتص فيها حرارة النار .

وهكذا نرى أن أول من أوعى بأسماء هذه البروج الرعاة ، ثم الزراع ، وهو أمر طبيعى فقد بدأت الحضارات بالرعى فالزراعة ، وكان من الطبيعى أن تميز هذه البروجُ فصولَ السنة المختلفة لما يتبع ذلك من اختلافات فى حرارة الشمس ، وكميات المطر ، والرياح ونحوها .. " أ . هـ . فهذا بعض حديث العلم عن البروج وهو ليس غير بيان لبعض آيات الله فى هذا الكون العظيم .

قانون الجاذبية :

يقول الله تبارك وتعالى : " إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده " ٤١ : فاطر ، ويقول جل ذكره : " .. ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه " ٦٥ : الحج

ويقول سبحانه : " الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون " ٢ : الرعد

ويقول الحكيم الخبير : " خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم .. " ١٠ : لقمان

فهذه الآيات البينات تقرر لنا أن الله جلت قدرته جعل لهذا الكون نظاما عجيبا ، حتى لا يصطدم كوكب سيار بكوكب آخر ، كما يحدث من صور التصادم بين عربة وعربة ، أو بين سائر وراجل على سطح الأرض ، ويبين لنا كذلك سبحانه أن السموات مرفوعة بعمد غير مرئية لنا .

ويمكن أن نقول : أن هذه الآيات الكريمة تشير إلى بعض القوانين التى اجرى الله عليها نظام هذا الكون ، وما الجاذبية التى اكتشف بعض الباحثين أمرها إلا نظام من هذه الأنظمة الكونية التى شاءتها إرادة الله العلى الأعلى ، يقول الدكتور أحمد زكى [1] عن هذه الجاذبية : "لو أن قوة الجاذبية بين الأرض والشمس انقطعت إذن لمضت الأرض سبيلها تجرى فى خط مستقيم ، وفقا للسرعة الواحدة التى كانت لها منذ أن كانت هى .. نقوة الجاذبية هى التى

---

(١) انظر كتابه " مع الله فى السماء " صـ ٢٥ ببعض تصرف

تجعل الشمس تمسك بها الأرض ، لتقوم حولها وهي التي جعلت الشمس تمسك بعطارد والزهرة ، وجعلتها كلا في مداره يدوران حولها ، والجاذبية هي التي أمسكت بالمريخ ، والمشتري وزحل ، وسائر الكواكب السيارة وجعلتها جميعا حول الشمس في حركة دوران .

إن الحديث عن قوانين الحركة والجاذبية حديث طويل ، وهو إن أخذنا بأطرافه شغلنا عن غيره من الأحاديث ، ولكننا مع ذلك نريد أن نقف على طرف من هذا الحديث ففيه من آيات الله الكثير يقول (١) الدكتور زكي : " إن كل شيء في هذا الوجود يجذب كلَّ شيء آخر ، في أرض أو سماء ... إنك لتمشي في الأرض فتمر في جبل فيجذبك ، وتمر بين جبلين يتنازعانك جذبا حتى في الشارع تتجاذبك البيوت ، قطا كما تجذبك الأرض ، وأنت في بيتك يجذبك كل ما تلقى من أشياء وتجذبها ولكنك لا تحس من كل هذا لضآلته شيئاً ... وعلى ضآلة قوة الجاذبية ، وأثرها القليل في حركة الناس على الأرض ، هي جبارة عارمة في السماء ، حيث الكتل عظيمة هائلة ، وهي هناك نافعة ، لأن بها تمسك أجرام السماء بعضها بعضاً ، وإلا انفرط نظامها ، ومدبر الكون لم يدبر لها انفراطا .

ويحدثنا الدكتور زكي حديثا طريفا نرى من نتيجته أن قوانين الله الكونية يجب أن تطاع لأن أقدار الله لا مرد لها فيقول : ولهذا سن الله قانونا هو غير قانون يسنه الإنسان ، قانون المدبر الأعظم ، والأوحد لا يحتاج إلى نشر ، فهو في طبيعة الأشياء ، وهو في طبيعة كل الأشياء وتطويعه كل الأشياء ، وإذا أنت طلبت برهانا على وحدة هذا الوجود كله وانتظامه في سلك واحد لكان من أول البراهين التي يلقى بها على مائدة البحث قانون هذا التجاذب الذي يعمل في جمت في أرض ، وسماء ، وهواء ، وماء ، وهو يعمل في كل ذي حياة وكل جماد ، ويعمل فيها جملة ويعمل تفصيلا ، والأحياء التي لها شيء من اختيار فيما تصنع ، ولها إرادة هذه الأحياء ، لا تكاد تخرق حرمة هذا القانون ، حتى تجد جزاء ذلك فورا ، فلا تحقيق ، ولا تدقيق ، ولا نيابة ، ولا شرطة ولا قضاء ، بل هو القضاء يصدر حكمه على الفور في صرامة لا تعرف من الرحمة شيئا إن الذي يتحدى قانون الجاذبية ، فيقفز من فوق سطح بيت إلى الفضاء ، يهوي به هذا القانون فيدق على الأرض عنقه ، فلا يكاد يمهله ليدرك من عاقبة تحديه لسنة الله شيئاً " . هذا وبالفتنا هذا الحديث عن عقاب السنن الكونية للفت انتباهه إلى ما يجب على المؤمن حيال الأوامر الشرعية فإن من رحمة الله بعباده أنه لم يجعل المخالف لهذه كالمخالف لتلك ، بل فسح له في الأجل ، وبسط له من النعمة وذكّره وحذّره (٢) ورغّبه ورهّبه ، وحبّبه وكرّهه وكل ذلك تفضلا منه وكرما وصدق جل جلاله إذ يقول " ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا " ٤٥ : فاطر ، وإذ يقول " ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ... " ٤٢ : إبراهيم

---

١) ا[illegible] ... الإيمان ،

---

١) انظر مع الله في السماء ص ٨٥ وما بعدها بتصرف وإيجاز .
٢) أي ذكره بفضائله وحذره من معصيته ، ورغبه في طاعته ورهبه من عذابه ، وحبب إليه الإيمان ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان .

نقص الأوكسيجين فى طبقات الجو العليـــا :-

كان الإنسان يجهل الكثير عن طبقات الجو العليا ، ولم يبدأ فى معرفة شئ عنها إلا حينما بدأ فى إرسال المناطيد إلى طبقات الجو العليا فى أخريات القرن الماضى ، ثم توطدت معارفه بهذه الطبقات الجوية بعض توطد فى أوائل هذا القرن حينما خلقت الطائرات ، وزادت بعض الزيادة حينما سبحت سفن الإنسان فى أجواز هذا الفضاء ، وكان من معارف الإنسان التى عرفها بأخرة عن هذا الفضاء ، أنه كلما ارتفع فى طبقات الجو العليا على بعد عدة كيلومترات من سطح الأرض شعر بنقص الأوكسيجين نقصا يهدد حياته حتى يصل الإنسان إلى طبقة جوية ينعدم فيها الأوكسيجين فإن جازها الإنسان غير متأهب للأمر بما يحمله من أنابيب الأوكسيجين وارتداء الحلل المعدة لرجال الفضاء ، سلبت منه الحياة .

هذه الحقيقة العلمية التى اهتدى إليها الإنسان بأخرة هى التى جاء الحديث عنها فى قول الحق جل ذكره : " فمن يُرِد اللهُ أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون " ١٢٥ : الأنعام .

الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمريـــة

قال الله جل ذكره عن مدة لبث أهل الكهف فى كهفهم : " ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا " قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع " ٢٥ ، ٢٦ الكهف

حول هذه الآية الكريمة يقول الدكتور الأسعدى (١) :

" يتم القمر دوره كاملة حول الأرض فى :-

يـــوم	ساعة	دقيقـــة	ثانيـــة
٢٩	١٢	٤٤	٢٨

وهى طول الشهر العربى على التمام ، ولكن باستخدام أيام صحيحة " كما هو متبع " نقول : إن هناك شهرا طوله ٣٠ يوم ، وآخر طوله ٢٩ يوما بصفة عامة ، وذلك للتخلص من الكسور . ولا يلزم أن يكون الترتيب هو ٣٠ ثم ٢٩ يوما على التوالى ، بل قد تتوالى الشهور المتساوية الأيام .

وعلى أية حال نجد أن متوسط طول السنة القمرية هو ٣٥٤ يوما " يعنى ٢٩٫٥ x ١٢ " مع فارق قدره ١١ يوما كل سنة بحيث تصبح القاعدة العامة هى : كل ٣٠ سنة تمر ١٩ سنة بسيطة عدد أيام كل منها ٣٥٤ " أى بفارق نحو ١١ يوما عن السنة الشمسية " و ١١ سنة كبيسة عدد أيام السنة منها ٣٥٥ يوما " أى بفارق نحو ١٠ أيام فقط عن السنة الشمسية ".

وعلى هذا النحو يكون مجموع فروق الأيام كل ٣٠ سنة هو ١٩ سنة x ١١ يوم + ١١ سنة x ١٠ أيام = ٣١٩ يوما

ويضاف إليها ٧٫٥ أيام لأن السنة الشمسية هى كما نعرف نحو ٣٦٥٫٢٤٢ يوما . وبذلك يكون مجموع الفروق كلها هو ٣٢٦٫٥ يوما .

(١) انظر كتابه " الله والكون " ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ والنقل بإيجاز وتصـــرف .

وعندما نستخدم هذا الحساب الدقيق إلى حد كبير فى تحويل ٣٠٠ سنة شمسية إلى سنين عربية إسلامية نجد أنها تزيد بمقدار ٣٢٦٥ يوما فى الحساب ، وهذا القدر يعادل بالسنين العربية الصحيحة ٩ سنوات كاملات باستثناء بعض الشهور .. " أ.هـ

وهذا الذى ذكره أحد الفلكيين المعاصرين ليس من مكتشفات هذا العصر ، وإنما نجد الإشارة إليه عند بعض المفسرين القدامى على النحو التالى :ـ

١) فى تفسير ابن كثير : تعرض ابن كثير (١) لتفسير هذه الآية الكريمة ،

وردّ رواية قتادة من أن القرآن نقل قول أهل الكتاب ولم يؤيده (٢) ، ثم قال ابن كثير : (... وفى هذا الذى زعمه قتادة نظر فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائه سنة من غير تسع يعنون بالشمسية ، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال وازدادوا تسعا ، والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله ورواية قتادة لقراءة ابن مسعود منقطعة ثم هى شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور فلا يحتج بها والله أعلم" أ.هـ

٢) فى تفسير القرطبى :

وهذا الذى أشار إليه ابن كثير صرح به القرطبى تصريحا :

فقال (٣) " وحكى النقاش ما معناه : أنهم لبثوا ثلاثمئة سنة شمسية بحساب الأيام ، فلما كان الإخبار هنا للنبى العربى ذكرت التسع ، إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ، وهذه الزيادة هى ما بين الحسابين . وذكر الفزنوى نحوه ؛ أى باختلاف سنى الشمس والقمر ، لأنه يتفاوت فى كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة : سنة ، فيكون فى ثلاثمئة تسع سنين " أهـ

وهذا يرد على دعاوى " العصرين وبين وجود " الأصيل النافع " عند المفسرين السابقين ، وأن نقطة البدء لِمَن يريد أن ينبس ببنت شفة حول آية من كتاب الله أن يتعلم من هؤلاء ، وأن يفهم ويستوعب .... ثم ليبدأ ...

وأما قوله تعالى : " قل الله أعلم بما لبثوا .... "

فنستحسن فيه قول الزمخشرى (٤) : " إنه سبحانه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم ، والحق ما أخبرك الله به "

تأويل الحرس الشديد " بالبروتون السالب " :

حول قول الله جل ذكره :

" وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا " ٨ : الجن ذهب الكاتب عبد الرازق نوفل إلى تأويل " الحرس الشديد (٥) " بقوله " ... هذا الحرس الشديد ، لابد وأن يكون

١) أنظر تفسيره جـ ٣ ص ٧٩ ط ٤ الحلبى
٢) أى لم يؤيد القرآن قول أهل الكتاب أنهم لبثوا فى كهفهم ٣٠٩ وهو رأى خطير .
٣) أنظر تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٨٧
٤) انظر تفسير الكشاف جـ ٢ صـ ٢٥٧
٥) انظر كتابة " الله والعلم الحديث " صـ ٢٥٤ ـ ٢٥٦ الطبعة الأولى .

من غير جنس الشهب ، فقد ذكر زيادة على الشهب ثم بين أن هذا الحرس قد أعلنت لجنة للطاقة الذرية عن اكتشافه فى المعمل الذرى التابع لجامعة " كاليفورنيا " ... وهذا الكشف هو جزئ ذرى يسمى بالبروتون السالب " ويستطيع افناء المادة من جميع أشكالها افناء تاما وأن هذا البروتون السالب منطلق حول الكرة الأرضية فى طبقات الجو العليا ... والسيطرة على هذا البروتون لاتزال صعبة لأن اصطياده من الفضاء يتطلب عمليات معقدة ، ونقل عن مستشار اللجنة الدكتور " صمويل جلاستون " أنه سيأتى اليوم الذى يمكن الحصول فيه على تيار منه ، وإذا جاء هذا اليوم ، فإن رطلا واحداً من أى مادة ذرية ، يمكن توليد طاقة منه باصطدام " البروتون السالب " به توازى الطاقة المتولدة من مليون ونصف مليون طن من الفحم . وأعلنت اللجنة أنه بالاكتشاف الجديد يمكن لقنبلة زنتها عشرة أرطال فقط ، أن تفنى العالم كله . فقد قررت لجنة الطاقة الذرية ، أن الكرة الأرضية محاطة بالبروتون السالب ، أوما سمته المصادر الذرى . أليس ذلك هو الحرس الشديد الذى ملأ السماء ؟ وصدق الله العظيم الذى يقول : " وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون " ٣٢ : الأنبياء. وتأويل الحرس الشديد " بالبروتون السالب " تأويل لا يعرفه أهل العربية إلا أن تكون اللغة قد فقدت مدلولاتها وضوابطها ، وهو تفسير لم يعرفه أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من أهل التفسير وإنما هو من نزعات التأويل ، ثم إن قوله تعالى على لسان الجن : " ملئت حرسا " يدل على أن ذلك قد حدث ولم يكن للجن عهد به من قبل ، وهذا بدوره ينفى أن يكون الأمر أمر هذا " البروتون السالب " وسيأتيك مزيد فى الفقرة التالية .

هل بيان القرآن لم يتم فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :

تأويل مبتدع لقوله تعالى : " ثم إن علينا بيانه " :

ذهب أحد المصريين(١) إلى قول مبتدع ، وفهم مغلط حول الآية السابقة وهو :

" ... أما ما يتعلق بالقرآن الكريم كمعجزه خالدة ، وما ورد فيه من قضايا علمية عامة فربما نجد الإشارة إلى ذلك فى مثل قوله تعالى :

" لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه " ١٦ ـ ١٨ : القيامة. أى فإذا قرأناه على لسان جبريل فاتبع قرآنه ، ثم يبقى علينا بيانه عندما نشاء ، وربما لو فسر الرسول الكريم إشارات القرآن الكريم العلمية آنئذ ما فهم الناس كثيرا مما يقول ، ولهذا نستبعد الصور التى أوردتها الإسرائيليات فى هذا المجال !!!

فمثلا فى العصور الوسطى كانت هناك قلاع لها أبواب يقف عليها الحراس بحيث لا يلجأ إلا من يؤذن له بالدخول ، فهل لكل سماء باب عليه حراس فلا يؤذن لجبريل عليه السلام بالدخول أو المرور حتى يدق الباب ويطمئن إليه الحراس ؟ على النحو الوارد فى بعض أحاديث المعراج : قيل :

---

(١) هو الدكتور الفندى فى كتابه " الله والكون " صـ ٣٠٠

من الطارق ؟ قال أنا جبريل . قيل:ومن معك ؟ قال:هذا سيد الخلق .. ؟إنها ولاشك من صور العصور الوسطى " .

بيان عوار هذا الرأى :

١) زعمه بأن معنى " إن علينا بيانه " أى أن يبينه الله للناس عندما يشاء ، ثم نفذ اللهُ مشيئته هذه فى عصر " الاكتشافات العلمية " لم يقع فى هذا البيان فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم .والتالى فقد فهم هو من القرآن مالم يفهمه سيد الخلق صلى الله عليه وسلم !!

لأن الله لم يبين له الإشارات العلمية للقرآن ، كما يفهم من عبارته الأولى ... أو أن الرسول صلى الله عليه وسلم عَلِمَهُ ثم كتمه عن أصحابه ـ وحاشاه ـ لأنه لو أعلمهم به لما فهموه ، وكل هذا مردود على قائله ... لأن المقصود " بالبيان " هو السُنة المطهرة ، ويشهد لصحة هذا التفسير نصوص من القرآن الكريم منها : " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون " ٤٤ النحل.فالله سبحانه وتعالى يقول النبيه " لتبين للناس مانزل إليهم " أى لتوضح وتفصل لهم المنزل إليهم ، " فهناك " بلاغ " وهناك " بيان " وآية " القيامة " وآية " النحل " وغيرهما من الأدلة التى اتفق العلماء على الاستدلال بها لحجية السنة النبوية المطهرة .

ويشهد لهذا التفسير من نصوص السنة قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

" ... ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه "

٢) اعتراض الكاتب على تعبير " الحراس " و " الأبواب " تهكما بأحاديث المعراج دون أن يكلف نفسه نقل حديث واحد منها بنصه ولانكلفه فوق طاقته فنطالبه بالكلام عن سنده ومع ذلك فإن ألفاظ الأحاديث الواردة فى المعراج لم ترد فيها " كلمة الحراس(١) " إلا أن كلمة " الحراس " التى اعترض عليها الكاتب ، ووصفها بأنها من فكر العصور الوسطى هذه الكلمة استعملها القرآن الكريم بالنسبة للسماء فى قول الله تبارك وتعالى : "وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا " ٨ : الجن ، وأكثر المفسرين يرون أن المقصودون بالحرس الشديد هم الحفظة من الملائكة(٢) والمعنى : " ملئت ملائكة شدادا " فهل يسخر الكاتب من السنة أم من القرآن ؟ !

ثم ماوجه الصلة بين الإسرائيليات وبين قلاع العصور الوسطى ألم تعرف القلاع فى غير هذه العصور ؟ ثم ألا يوجد حرس وأبواب فى غير هذه القلاع ؟ ! لعل هذا العصر الذى نحياه هو أكثر العصور معرفة بالأحراس واتخاذا لها وهو أكثر العصور كذلك معرفة بالأبواب المغلقة ومن خلفها الحُجَّاب ومن أمامها السدنة .

---

(١) وردت أحاديث " الإسراء والمعراج " فى كتب السنة فى أبواب خاصة كما ترى فى الصحيحين

(٢) انظر القرطبى حـ ١٩ صـ ١١

ثم إن القرآن الكريم قد حدثنا عن أبواب السماء التى يسخر منها الكاتب ونحن بهما مؤمنون متيقنون وقد ورد ذكرها فى غير موضع من الكتاب الكريم كما ترى فى قوله تعالى : " وفتحت السماء فكانت أبوابا " ١٩ : النبأ وكما فى قوله تعالى : " واو فتحنا بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون " ١٤ : الحجر وكما فى قوله جل ذكره : "إن الذين كذبوا بآيتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين " ٤٠ : الأعراف .

أما ماهية هذه الأبواب وكيفها ومادتها فذلك أمر نكل علمه إلى الله الذى أحاط بكل شئ علما .

وسائل التفاهم المختلفة بين الكائنات :

قال الله جل ذكره :

" قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم " ٤ : الأنبياء ...

وقد ذهب أحد الكتاب المعاصرين(١) فى تأويل " القول " تأويلا غريبا بقوله : " ونحن قد نعتبر " القولَ " هنا رمزاً لوسائل التفاهم المختلفة بين سائر الكائنات ، ما يَعْقِلُ منها وما لا يعقل كالحشرات ومنها النمل والحشرات من أروع الكائنات التى ظهرت على الأرض ، ولم يمنعها عن المضى فى سلم التقدم سوى عدم وجود هيكل عظمى داخلى تعتمد عليه ، وكذلك نظام تنفسها المقيم (٢) " أهـ .

ولسنا نشك لحظة فى أن وسائل التفاهم بين الكائنات جميعا يعلمها الله ، ويعلم كل شئ ، لكن التأويل الذى ذكره الكاتب بترٌ للآية عن سياقها يؤدى إلى الخروج بها عن مدلولها ، فالآية السابقة عليها هى قوله تعالى :

" ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون " ٢ ، ٣ : الأنبياء .

الزمخشرى وتفسير هذه الآيات الكريمة :

(٣)

من أحسن ما طالعناه فى تفسير هذه الآيات قول " الزمخشرى " :

(.. والمعنى وهؤلاء أسروا النجوى ، فوضع المظهر موضع المضمر ، تسجيلا عَلَى فِعْلِهم بأنه ظلم) "هل هذا إلاّ بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون " هذا الكلام كله فى محل النصب بدلا من النجوى ، أى : وأسروا هذا الحديث ، ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمرا

---

١) (١) انظر كتاب " الله والكون " ص ٤١٧

(٢) تعبير غير مستقيم ، فما خلق الله شيئا إلا بحكمة وإتقان يناسب حاله .

(٣) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٢١

اعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا ملكا ، وأن كل من ادّعى الرسالةَ من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحرٌ ، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار — أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر • فإن قلتَ : لم أسروا هذا الحديثَ وبالغوا فى إخفائه ؟ قلتُ : كان ذلك شبهَ التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق إلى هدم أمره وعادةُ المتشاورين فى خطب ألاّ يشركوا أعداءهم فى شوراهم ، ويتجاهدوا فى طى سرهم عنهم ما أمكن • واستطاع ، ومنه قول الناس : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان(٦) ويرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إن كان ما تدعونه حقا فأخبرونا بما أسررنا • فإن قلت : هلا قيل يعلم السرَّ لقوله : " وأسروا النجوى " قلت : القولُ عامٌ " يشمل السر والجهر ، فكان فى العلم به العلمُ بالسر وزيادة فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم السر كما أن قوله " يعلم السر " آكد من أن يقول : يعلم سرهم ، ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته ، فكيف تخفى عليه خافية • قلت : فلم ترك هذا الآكد فى سورة " الفرقان " فى قوله :

" قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض " ٦ : الفرقان : ليس بواجب أن يجىء بالآكد فى كل موضع ، ولكن يجىء بالتوكيد تارة ، وبالآكد أخرى كما يجىء بالحسن فى موضع ، وبالأحسن فى غيره ، ليفتن الكلام اقتنانا ، وتجمع الغايةُ ومادونها على أن أسلوبَ تلك الآية خلاف أسلوب هذه ، من قِبَل أنه قدّم ههنا أنهم " أسروا النجوى " فكأنه أراد أن يقول : " إن ربى يعلم ما أسروه ، فوضع القولَ موضع ذلك للمبالغة(٣٢) ثم قصد وصفَ ذاته بأنه : " أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض " ، فهو كقوله : " .. علام الغيوب " ١٠٩ : المائدة ، " عالم الغيب لا يعزب عنه مثقالُ ذرةٍ • " ٣ : سبأ •

---

(١) بالبناء لما لم يسم فاعله .

(٢) : هذا الحديث : رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، والعقيلى فى الضعفاء ، وابن عدى فى الكامل ، وأبو نعيم فى الحلية والطبرانى فى الكبير ، وانظر الجامع الصغير للسيوطى ص ٣٦ ط : الكتاب العربى بالقاهرة ، واسناده ضعيف •

(٣٢) أى وضع " القول " موضع " السر " •

هل هناك حياة فى الكواكب الأخرى ؟

قال الله جل ذكره :

" ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون " ٤٩ : النحل . " ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير " ٢٩ : الشورى . " تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا " ٤٤ : الإسراء .

قضية وجود خلائق غير الإنسان فى هذا الكون الكبير : هى قضية شغلت الفكر الإنسانى طويلا ، ولا زالت تشغله إلى يومنا هذا ، وحول هذا الموضوع يقول الدكتور الفندى :(١)

" لقد كان من الطبيعى أن يثار موضوع المخلوقات السماوية بعد هذا الذى قدمناه وقبل أن نتحدث عن المخلوقات السماوية يجب مرة أخرى أن نفهم المقصود من السموات التى هى فى واقع الأمر اسم لكل ما علانا ، أو ارتفع فوق رؤوسنا ، ومن سائر أجرام الفضاء التى تنتشر فى هذا الكون بأسره الذى من حولنا ، مثل النجوم ، والشموس والكواكب ، والمذنبات ، والأقمار ، وغيرها ... وهى كلها تجرى فى مساراتها وتدور فى أفلاكها ، وهذه هى السماء كما يعرف العلم ، وهى المظهر المادى لهذا الوجود .

ولكن السموات المسكونة هى كواكب دبت عليها الحياة لتوفر الظروف الملائمة عليها . ولا يلزم أن تكون كل الكائنات من نفس مادة جسم الإنسان فالمعروف علميا أن جزيئات الغاز الذى يتكون منه جو الأرض ، وكذلك الجسيمات السائلة أو الصلبة الصغيرة العالقة فيه ، كلها تعمل على رد أشعة الشمس فى كل اتجاه ، وهذا هو معنى التشتت . (أى تناثر ألوان الطيف السبعة المعروفة) . وتلك الظاهرة إنما تكتمل بالنسبة إلى أصغر الموجات طولا ، وهى الأشعة الزرقاء ، ولما كانت هذه الأشعة هى كذلك أغزر الطاقات التى ترسلها الشمس تبعا لدرجة حرارة سطحها الخارجى المشع التى تبلغ نحو ٦٠٠٠ درجة مئوية ، فإنها بمجرد دخولها جو الأرض تتناثر فى كل الاتجاهات وتغمره بكميات وفيرة من اللون الأزرق ، بحيث يظهر لنا على هيئة قبة زرقاء فوق رؤوسنا رغم أنه لا وجود لهذه القبة فى واقع الأمر ... أ . هـ .

مناقشة هذا التأويل :-

ينتهى هذا التأويل بأصحابه إلى قضية جد خطيرة وهى : إنهاء المفهوم الدينى للسموات بصور من التأويلات المهاترة وقد ينتهى بهم هذا الشطط أيضا إلى إنكار الغيب برمته

(١) انظر كتابه " الله والكون " ص ٤١٠ ، ٤١١

لأن ما يلى السماء غيوبٌ محجبة لم تحط من علمها إلا بما علمنا الله ، فإذا كانت هذه القبة الزرقاء فوق رؤوسنا ، لا وجود لها فى واقع الأمر كما يقول أولئك المتعالمون الذين يزعمون أن مراصدهم وأعينهم قد أحاطت بكل شئ ووقفت على كل شئ ، وأتت من القول الفصل بما قطعت به كل قول ، فنحن إذن أمام نهج خطير فى الإفتيات على الحق باسم العلم ، وفى التكذيب بالغيب إيمانا بالمشهود وحدها .

ومن عجيب الأمر وغريب التناقض : أن الكاتب وهو يحاول بيان آيات الله فى الآفاق ويسوق الحديث تلو الحديث عن روائع الإعجاز العلمى فى كتاب الله ، تقوده خطاه إلى المداحض المزلقة ، وإلى المتاهات المضيعة حين أنكر غفلة أو غرورا قضية من أهم القضايا الغيبية فى الإسلام .

ومع ذلك فهل أتى الكاتب فى حديثه عن سكان الكواكب الأخرى بما لم يأت به الأوائل ، ولم يعرفه الأواخر ؟

والجواب : إن أخطر الأخطار المنهجية التى يقع فيها أولئك المصريون فى تفسيرهم للقرآن الكريم هى :

(١) نزع الآية أو جزء الآية من سياقه ولحاقه .

(٢) الجهل بكثير من القضايا الدينية الرئيسة فيتكلمون فى جزئيات ، قد تنتهى بهم إلى إنكار كليات .

(٣) افتقار أكثرهم إلى أداة اللغة وإلى موسيقاها .

الجذور التاريخية لهذه القضية :-

إن قضية وجود مخلوقات فى الكواكب الأخرى مثارة مناقشة فى القديم والحديث وفى الشرق وفى الغرب وعند المسلمين وغير المسلمين ، وحتى لا نضل فى بيداء الحديث نتصدى لما نصبنا أنفسنا له قبل غيره ، وقد تبين لنا أن من المفسرين القدامى من قال بهذا الرأى أو أشار إليه احتمالا ، فمثلا :-

الزمخشرى (١) :- وهو المفسر الذى غادر دنيانا هذه إلى الدار الآخرة فى أوائل القرن السادس الهجرى أو بالتحديد منذ ستين عاما وثمانية قرون ، يذكر الآراء فى قوله تعالى " ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون " ٤٩ : النحل .

فيقف عند قوله تعالى " من دابة " ويذكر لنا أربعة آراء :-

(١) أن يكون بيانا لما فى السموات وما فى الأرض جميعا ، على أن فى السموات خلقا لله يدبون فيها كما يدب الأناسى فى الأرض .

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٢٠٥ ط : الحلبى

(٢) أن يراد بما فى السموات الخلق الذى يقال له الروح ، ولعل الزمخشرى يشير إلى قوله تعالى : " يوم يقوم الروح والملائكة صفا " ٣٨ : النبأ ، والراجح أن الروح هو جبريل عليه السلام ولكن الزمخشرى يجعل الروح خلقا غير الملائكة .

(٣) أن يراد بما فى السموات الملائكة ثم كرر ذكرهم على معنى .. والملائكة خصوصا من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم .

(٤) ويجوز أن يراد بما فى السموات ملائكتهن ، وبقوله تعالى بعد ذلك " والملائكة " ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم .

وأما القرطبى : فيذكر الآراء التالية :ـ (١)

---

(١) قوله تعالى : " ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة " أى من كل ما يدب على الأرض . " والملائكة " يعنى الملائكة الذين فى الأرض ، وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة ، فميزهم من خفة الدبيب بالذكر ، وإن دخلوا فيها ، كقوله : " فيهما فاكهة ونخل ورمان " ٦٨ : الرحمن ، وقيل لخروجهم من جملة ما يدب ، لما جعل الله لهم من الأجنحة فلم يدخلوا فى الجملة فلذلك ذكروا .

(٢) وقيل : أراد " ولله يسجد ما فى السموات " من الملائكة ، والشمس ، والقمر والنجوم ، والرياح ، والسحاب ، " وما فى الأرض من دابة " : وتسجد ملائكة الأرض .

ولعل بهذا البيان تكون آية النهار قد محت ظلمة الليل .

هل جميع المخلوقات للحشر يكون عن طريق سفن الفضاء ؟

قال الله تبارك وتعالى :ـ

" ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير " ٢٩ : الشورى .

حول هذه الآية الكريمة قال الدكتور الفندى :ـ (٢)

" وتشير هذه الآية الكريمة فى صراحة تامة إلى وجود كائنات حية تدب على بعض الكواكب الأخرى .. أما جمع هذه الكائنات مع بعضها البعض ، فقد يكون عن طريق الإتصال بسفن الفضاء مثلا ، أو على متن أمواج الأثير كما قدمنا . وهنا يظهر لنا إعجاز القرآن العلمى ، مما يقطع بأنه من عند الله تعالى .. " .

مناقشة :ـ أما قوله عن " وجود كائنات حية فى الكواكب الأخرى " ، ودلالة الآية الكريمة على ذلك ، فهو أمر قد نتفق على أصوله ، ولا نعلم تفاصيله .

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١١٢ ، ١١٣

(٢) انظر كتابه " الله والكون " ص ٤١٧ .

وأما تفسيره لـ " جمعهم " بأنه قد يكون عن طريق سفن الفضاء فهو شطط القول والفهم الذى لا تدل عليه الآية الكريمة ، بل هو تأويل يكتنفه الغموض وتحيط به الغيوم ، وأين هو الحديث عن سفن الفضاء فى الآية الكريمة ؟ والمسألة هى من أمر الغيب التى ليس لنا أن نقتحمه بالهوى ، أو أن نقول فيه بالظن .

والمقصود بكلمة " الجمع " هنا هو الحشر كما قال عز من قائل : " يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن " ٩ : التغابن ، فقد سمى الله يوم القيامة بيوم الجمع ، وكيفية هذا الجمع لا يعلمها إلا الله وهو على ما يشاء قدير .

القرآن والطب

قبل أن نأخذ فى الحديث عن العلاقة بين القرآن والطب ، نرد على مقالة ظالمة هى إحدى هفوات العلامة العربى عبد الرحمن بن خلدون فقد قال مشبها ماورد من الأمور الطبية فى القرآن والسنة بأنه كطب الأعراب وعبارته هى (١) : " والبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة ... وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيها أطباء معروفون : كالحارث بن كلدة وغيره ، والطب المنقول فى الشرعيات : من هذا القبيل وليس من الوحى فى شىء وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع فى ذكر أحوال النبى صلى الله عليه وسلم من نوع أحواله التى هى عادةٌ وجبلّةٌ ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فإنه صلى الله عليه وسلم بُعِث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات "(٢) وقد وقع له فى شأن تلقيح النخل ماوقع ، فقال : أنتم أعلم بأمور دنياكم . فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث المنقولة على أنه تشريع ، فليس هناك مايدل عليه ، إلا إذا استعمل على جهة التبرك ، وصدق العقد الإيمانى ، فيكون له أثر عظيم النفع وليس ذلك فى الطب المزاجى ، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية كما وقع فى مداواة المبطون بالعسل والله الهادى إلى الصواب لارب سواه " أ . هـ .

وأول مايؤاخذ عليه ابن خلدون أنه ـ وهو العالم المنهجى المدقق المحقق ـ يشبه الطب المنقول فى الشرعيات بطب الأعراب ، وأنه ليس من الوحى فى شىء ... فلماذا لم يذكر لنا مايعنيه بقوله المنقول فى الشرعيات ، إن الشرع ـ بداهة ـ هو الكتاب والسنة ، ليس هناك شرع إلا ماكان منبعه منهما ، فهل ماورد فى القرآن من بعض المسائل التى لها علقة بالطب ليس من الوحى فى شىء ؟ ! وهل ماوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه من مسائل الطب العلاجى أو الوقائى هو

---

(١) أنظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧ ط : بولاق ، ص ٤٩٣ من ط : التراث ببيروت

(٢) أى من الأمور التى هى من قبيل العادات الإنسانية .

عادة وجبلة كما يزعم ابن خلدون ؟ إذا كان الأمر مجرد عادة وجبلة لما نصح ولما أمر ولما نهى ، وماذا يقول ابن خلدون فى شكاة رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن أخاه مبطون فيصف له العسل ، فيعود شاكيا فيصف له العسل ، فلما كانت الثالثة قال له الصادق المصدوق اسقه عسلا صدق الله وكذبت بطن أخيك ، فهل يمكن فى عقل عاقل أن تكون هذه الصيغةُ الآمرةُ فى حزم راشد ، وجدٍ مستيقن ، بل أكاد أقول المعنفة ، لو لا أنه صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة ، هل يمكن أن يكون هذا القول من الرسول صلى الله عليه وسلم على عواهنه ، حاشاه ثم حاشاه ، والغريب فى هذه الفتوى التى أفتانا بها ابن خلدون أنها متناقضة ، فهو فى شقها الأول يشابه دعاة المقلانية الجافية فى عصرنا هذا ، وفى الشق الثانى شابهت عقليته عقلية الدراويش المتواكلين ، فأى بركة فى طب ليس من الوحى فى شئ ، وإنما هو طبٌّ شبيه بطب الأعراب القائم على التجربة القاصرة ، فمداواة المبطون — فى رأى ابن خلدون — ليست مبنيةً على ما أودع الله فى العسل من خصيصه الشفاء !! وحدثنا بذلك فى محكم الكتاب ! وإنما علاج المبطون لا يصح إلا من جهة التبرك !! ومع إيماننا بأن الله وحده هو مصدر كل البركات فى السماء والأرض إلا أن كلمة التبرك هذه كم دجّل بها الدجالون ، وغالط المغالطون ، ودلّسوا على الغافلين .

ولسنا فى شئ مما قلنا متجنين على الرجل ، فعباراته بين يدى القارئ لينظر فيها ، بل لقد أكد فكرته بصور شتى ، ثم انتهى إلى نتيجة وهى قوله : " فلاينبغى أن يُحمل شئٌ من الطب الذى وقع فى الأحاديث المنقولة على أنه تشريع " ، وقوله : " المنقولة " ولم يقل النبوية أو الصحيحة قول له ماوراءه ... وسنرى فى الصحائف القادمة مايجعلنا نضع مقالة ابن خلدون فى موضعها الذى تستأهله ، وأول مانبدأ به من حديث الطب هو الحديث عن خلق الإنسان :

إعجاز القرآن فى أطوار خلق الإنسان :

ورد فى كتاب الله عديد من الآيات الكريمة حول خلق الإنسان فى نشأته ومادته وأطواره نذكر بعضها فى إيجاز :

(١) مادة خلق الإنسان : قال الله جل ذكره : " إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا " ٢ : الإنسان .

فما هى الأمشاج فى حديث اللغة ؟

يقول ابن فارس (١) " الميم ، والشين ، والجيم : أصل صحيح ، وهو الخلط ،

---

(١) أنظر معجم المقاييس : جـ ٥ صـ ٣٢٠

ونطفة أمشاج ، وذلك اختلاط المـاء والـدم .

وأكثر المفسرين فى تفسير الأمشاج يفسرونها تفسيرا لغويا ويقولون بما قال به ابن فارس : أو بقريب منه ، فالاختلاط هو اختلاط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق ، إلا أن من المفسرين من ذكر غير هذا، فالقرطبى (١) يذكر عن ابن عباس : تفسير الأمشاج بقوله : " خلق الإنسان من ألوان ، وعن مجاهد : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ، ونطفة المرأة خضراء وصفراء ، وعن قتادة : أن الأمشاج هى أطـوار الخلـق : من نطفة فعلقة .. وقال ابن السكيت : الأمشاج : الأخلاط لأنهـا ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفـة "

وجمع ابن كثير (٢) : بعض الآراء السابقة فى رأى واحد جمعا حسنا فقال : " يعنى ماء الرجل ، وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، وحال إلى حال ، ولون إلى لون ، وهكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن "

وأمثل الآراء فى نظرى فى تفسير كلمة الأمشاج أنها وردت فى وصف النطفة كما ذكـر القرطبى : " الأمشاج ما جمع وهو فى معنى الواحد ، لأنه نعت للنطفة كما يقـال : " ثوب أخلاق " والمعنى أن النطفة متكونـة من أخلاط وهذه الأخلاط هى مـن غذاء الإنسان الذى يتناوله ، وغذاء الإنسان هو من هذه الأرض ، ولذلك أثبتت تحاليل العلماء التشابه الكبير بين عناصر البنية الإنسانية وبين عناصر تركيب التربـة الأرضية ، وهذا بعض ما يفهم من قـول الحق تبارك وتعالى : " منها خلقناكـم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى "

(٢) خلـق الإنسان من علـق :- يقول الله تبارك وتعالى " اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق " ١ ، ٢ : العلـق

للمفسرين أقوال فى تفسير العلق فبعضهم يفسر العلق بأنه الدم الجامد جمع علقة يقول القرطبى (٣) وقال من علق فذكر بلفظ الجمع ، لانه أراد بالانسان الجمع ، وكلهم خلقوا من علق بعد النطفة ، والعلقة : قطعة من دم رطب : سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه فاذا جفت لم تكن علقـة "

وأما الزمخشرى (٤) فقال " ... فإن قلت لما قال " من علق " على الجمع وإنما

---

(١) أنظـر تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٢١ ، ولم نجد عند الزمخشـرى جـ ٣ ص ٢٩٥ مزيدا

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٥٣ ط : الحلبـى .

(٣) انظر تفسيره جـ ٢٠ ص ١١٩

(٤) انظر الكشاف جـ ٣ ص ٣٤٩ .

خلق من علقة كقوله : " .. من نطفة ثم من علقة .. " ٥ : الحج قلت لأن الإنسان فى معنى الجمع ... " ولم يكلف كثير من المفسرين (١) أنفسهم مشقة الوقوف لشرح كلمة العلق، وللتفريق بينها وبين العلقة وحجتهم : أنهم قد تعرضوا للمسألة فيما سبق سورة العلق من سور القرآن على الترتيب المصحفى .

والذى أرجحه أن المقصود من كلمة العلق : هو الحيوان المنوى الذى يكون منه الإنسان، وقد كشفت التحليلات الطبية الحديثة أن الرجل يقذف فى اللقاء الجنسى الواحد مع زوجته ما يساوى أربعة سنتيمترات مكعبة ، وأن كل سنتيمتر واحد يحتوى على قرابة ثمانين مليونا من الحيوانات المنوية ، كما دل على ذلك الفحص المجهرى ، وأن متوسط الحيوانات المنوية الحية فى المباضعة تقرب من مئتى مليون .

" وهذه الحقيقة العلمية التى لم تعرف إلا فى عصر تقدم التحاليل الطبية واستخدام المجاهر الدقيقة " المتطورة " تعد من الإعجاز العلمى للقرآن الكريم الذى سبق به العصور .

والدليل على ما ذهبنا إليه هو ما يلى :ـ

١ ـ دليل اللغة : من المعانى التى أوردتها المعاجم العربية لكلمة العلق . أن العلق دويبة تكون فى الماء (٢) أو أنه دودة سوداء (٣) تحيا على جلد الإنسان أو أنه دويبة تمص الدم (٤) .

٢ ـ دليل القرآن الكريم : وهو أن الله تعالى ذكر أطوار الجنين فى عديد من آيات القرآن الكريم كما سنتبين بعد قليل فكانت النطفةُ سابقةً على العلقة بينما فى سورة "اقرأ" (٥) ذكر العلق . أولا ، ولم يذكر غيره .

فإذا كان العلق كما أرى هو الحيوان المنوى كان ذلك سابقا على أطوار الجنين .

وعلى هذا يكون المقصودُ بالعلق هو النطفة ، لأن أصل كلمة النطفة لفةً تعنى الماء الصافى ، ثم أُطْلِقَتِ النطفةُ على منى الرجل والمرأة ومادام كلا الماءين

---

(١) كما فعل ابن كثير من ترك هذا التعرض انظر تفسيره جـ٤ صـ٥٢٧، ٥٢٨ .

(٢) انظر معجم المقاييس جـ٤ ص١٢٦ (٣) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ٤ ص٢٣٩

(٤) انظر القاموس المحيط جـ٣ ص ٢٧٥ (٥) هى سورة العلق .

يسمى نطفة صح إطلاق النطفة عليهما جميعا وعلى كل على حدة ، كما قال تعالى : "ألم يك نطفة من منى يمنى • ثم كان علقة فخلق فسوى" ٣٧، ٣٨ : القيامة.

وإذا تتبعنا كلمة النطفة فى القرآن الكريم ، وجدناها قد تؤيد ما ذهبنا إليه على النحو التالى : قال جل ذكره على لسان الرجل الراشد الذى يحاور صاحبه الغوى فى سورة الكهف : قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا" ٣٧: الكهف•

وقال تعالى : "أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين" ٧٧: يس

وقال سبحانه : "هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون" ٦٧: غافر (١)

٣) أطوار الجنين :- تحدث القرآن الكريم عن أطوار الجنين فى رحم أمه حديثا عجيبا كما ترى فى الآيات التالية :-

قال عز من قائل "يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" ٥: الحج •

وقال الحكيم العليم : "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" ١٢-١٤: المؤمنون

---

١) وردت اللفظة كذلك فى ٤٦ : النجم ، ٣٧ : القيامة، ١٩ : عبس

وقال العزيز العليم : " والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير " فاطر

ذكرنا فيما سبق بعض آيات من القرآن الكريم بادئين بآية الحج وهي تجلي لنا من أسرار الجنين في رحم أمه بما كان غيبا مستحجبا عن أهل الأرض كلها وقت نزول الوحي ، وتذكر لنا سورة المومنون " أطوار الجنين وتقلبه في رحم أمه ويُكَمِّل ما ورد في سورة " الحج "، "المومنون" منطلقا راسخا " لعلم الأجنة " وهو إعجاز لا يتسع المقام لبسط تفاصيله .... هذا بعض الحديث عن "إعجاز القرآن في خلق الإنسان" وهو قليل من كثير ، أو قبس من ضياء لا تقدر عين أن تحدق فيه ، وإليك حديث التأويلات :ـ

من التأويلات الطبية
لبعض آي الذكر الحكيم

هل طائر الإنسان هو الجهاز العصبي ؟ !!

قال الحق جل ذكره :ـ " وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا " يلقاه منشورا " ١٣ : الاسراء

هذه الآية الكريمة حاول طبيب نفساني (١) أن يتصدى لتفسيرها دون امتلاك لأداة اللغة أو اكتراث بدلالة الألفاظ ، وإحاطة بما قاله المفسرون حولها . فقال : " وتدل هذه الآية أن لكل إنسان طائرا ، وأن هذا الطائر يسري في عنق الإنسان ، ويحمل كتاب حياته ، وأن الإنسان سوف يقرأ كتابه وبذلك يكون الحسيب على نفسه

ومن رأيي أن هذا الطائر الذي تتحدث عنه الآية هو : " جهاز الإنسان العصبي المركزي " ويثبت علم الأجنة أن الإنسان في أيام حياته الأولى لم يبلغ بعد طوله ثلاثة سنتيمترات تبدأ طبقة جلدية أن تنغمس عند ظهره ، وتكون أنبوبة تحت جلده ، وعند عنقه بالذات تبدأ هذه الطبقة الجلدية بالتكاثر بسرعة مذهلة ويتكون جناحان من هذا التكاثر هما فصا (٢) المخ في مستقبل حياة الإنسان اللذان يحويان أكثر من ١٣ بليون خلية تحمل الأحاسيس المختلفة الآتية من الجسم إلى الجهاز العصبي المركزي ، والذاهبة من المراكز العليا إلى العضلات المختلفة لتحريكها لعمل مخطط محسوب ، وعلى كلا الجناحين او الفصين المتفرعين عند العنق والذين يجاسان في فراغ الجمجمة : تتكون خلايا الذاكرة التي تسجل كل أحداث حياة الإنسان وتكون رقيبة عتيدة عليه طول حياته تسجل ما يبدر منه .

واعتراضنا على هذا التفسير المغرب غير المعجب بما يلي :ـ

---

(١) هو الطبيب: جمال أبو العزائم في مقال له بعنوان " من إعجاز القرآن الكريم " نشر بمجلة رابطة العالم الإسلامي في عددها الصادر في ذي القعدة ١٣٩٨ هـ ص ٩

٢) في أصل المقال : " ويتكون جناحين .. هما فصي المخ " وهذا يدلك على مبلغ علم المفسرين العصريين باللغة القرآن وأمثال هذه الاخطاء كثيرة في المقال

١ـ أن كلمة الطائر ومشتقاتها وردت [١] فى مواضع عدة من كتاب الله ، وليس هناك استعمال واحد لها يدل على قريب من هذا المعنى او بضعيف الدلالة . ومن ثم فهو مخالف تمام المخالفة اللغة التى نزل بها القرآن ، فكلمة الطائر كما قال ابن فارس [٢] " الطاء والياء والراء : أصل واحد يدل على خفة الشئ فى الهواء ، ثم يستعار ذلك فى غيره وفى كل سرعة من ذلك الطير : جمع طائر ، سمى كذلك لما قلناه . يقال طار يطير طيرانا ، ثم يقال لكل من خف قد طار ... وتطاير الشئ : تفرق ، واستطار الفجر : انتشر ومن الباب: طائر الإنسان وهو عمله ....."

ويضيف الأستاذ الخولى [٣] : " من عادة العرب فى عيافة الطير وزجرها واعتبار تيامنها فى الطيران فألا ، وتياسرها شؤما قالوا: تطير : تشاءم ، والطائر فى الشؤم ، أو فى الحظ مطلقا ، أو فى العمل وما قدر لكل انسان "

٢ـ مخالفة هذا التأويل الغريب لكل ما قاله المفسرون :ـ

ا) فالمفسر السلفى ابن كثير [٤] : فسر الطائر بقوله : " وطائره هو ما طار عنه من عمله من خير وشر ويلزم به ، ويجازى عليه كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ؛ . والمقصود أن عمل ابن ادم محفوظ عليه قليله وكثيره ... وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى ، وقوله " ألزمناه طائره فى عنقه " إنما ذكر العنق لانه عضو من الأعضاء لا نظير له فى الجسد ، ومن ألزم بشئ فيه فلا محيد له عنه ... " أ . هـ

ب) وأما المفسر الفقيه القرطبى فقد قال [٥] :ـ " وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه " قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق . وقال ابن عباس " طائره " وعمله وما قدر عليه من خير وشر ، وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبى : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به ، وقال مجاهد : عمله ورزقه وعنه : ما من مولود يولد إلا وفى عنقه ورقة فيها مكتوب شقى أو سعيد وقال الحسن : " ألزمناه طائره " : اى شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر ، وما طار له من التقدير أى : ما صار له عند القسمة فى الأزل ، وقيل : المراد به التكليف أى التزام الشرع ، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به ، وينزجر عما زجر به [٦] أمكنه ذلك " ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا " يعنى كتاب طائره الذى فى عنقه " ا . هـ

---

١) أنظر فى ذلك المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم

٢) أنظر معجم مقاييس اللغة جـ ٣ ص ٤٣٥

٣) أنظر معجم الفاظ القران الكريم للأستاذ الخولى جـ ٤ ص ١٦٢

٤) أنظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ط : الحلبى .

٥) أنظر الجامع لأحكام القران جـ ١٠ ص ٢٢٩ ٦) كذا بالأصل والأولى أن تكون : زجر عنه

حـ ـ وأما المفسر المعتزلى الزمخشرى فقد قال [١] : " طائره عمله .. وعن ابن عيينة وهو من قولك طار له سهم إذا خرج : يعنى ألزمناه ما طار من عمله والمعنى أن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل لا يفك عنه ... "

وعند تفسير قوله تعالى : " قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون .. " ٤٧ : النحل .

قال الزمخشرى [٢] بعد أن تكلم عن التطيرة عند العرب : " ومنه قالوا : طائرُ الله لا طائرك ، أى قدر الله الغالب الذى ينسب إليه الخير والشر لا طائرك الذى تتشاءم به وتتيمن ، فلما قالوا : اطيرنا بكم أى تشاءمنا ، وكانوا قد قُحِطُوا " قال طائركم عند الله " أى سببكم الذى يجىء منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته إن شاء رزقكم ، وإن شاء حرمكم ، ويجوز أن يريد : عملكم مكتوبٌ عند الله فمنه ما نزل بكم عقوبةً لكم وفتنة ، ومنه قوله تعالى : طائركم معكم " ١٩ : يس ، وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه " ١٣ : الإسراء ، وقرئ : تُطيرنا بكم " على الأصل ومعنى تطيربه : تشاءم به ، وتطير منه : نفر منه " تفتنون " تختبرون أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة .

تأويل الرقيب والعتيد بأنهما نصا المخ : كتب أحد الكتاب [٣] سارداً بعض المعلومات عن العقل الآلى وطريقة عمله ثم استطرد فى الحديث إلى تأويل من هذه التأويلات العصرية المبتدعة للرقيب العتيد فقال : " وعلى ذكر التسجيل أو الإملاء على العقل الآلى كما هو معروف ومألوف ، يقوم العقل البشرى بتسجيل مماثل فى خلايا "الذاكرة" وهنا قد يتساءل المرء عن وظيفة نصى المخ فى يمين وشمال الجمجمة كمسجلين للحوادث التى يمر بها المرء ويُسَلم تسليما بقول الله تعالى :

" إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " ١٧ ، ١٨ : ق وهذا التفسير مسخٌ لمعنى الآية وبترٌ لها عن الآية السابقة عليها وهى قوله تعالى : " إذ يتلقى المتلقيان " ، والمتلقيان هما ملكان من ملائكة الله أُمِرَا بتسجيل عمل المرء وهما يلازمانه ، فهاتان الآيتان كقوله تعالى : " وإنّ عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون " ١٠ـ١٢ : الإنفطار ومع خروج هذا التأويل عن معانى القرآن فإنه أيضا مخالف مخالفة صريحة لما تدل عليه لفظتا

---

١) انظر الكشاف جـ٢ ص ٢٢٦ ط: الحلبى
٢) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٤٥٥
٣) انظر كتاب " الله والكون " الدكتور الفندى ص ٣٦٤

الرقيب والعتيد لغة ، وقد قال القرطبي [١] في معنى الرقيب العتيد : " أي ما يتكلم الإنسان بشيء إلا كتب عليه ، مأخوذ من لفظ [٢] الطعام وهو إخراجه من الفم . وفي الرقيب ثلاثة أوجه : أحدهما : أنه المتبع [٣] للأمر . الثاني : أنه الحافظ ، قاله السدي . الثالث : أنه الشاهد ، قاله الضحاك . وفي العتيد وجهان : أحدهما : أنه الحاضر الذي يغيب ، الثاني أنه الحافظ المُعَدُّ إما للحفظ وإما للشهادة ، قال الجوهري : العتيد الشيء الحاضر المهيأ ، وقد عَتَّدَه تَعْتِيدًا وأَعْتَدَه إعتادًا : أي أعدَّه ليوم ، ومنه قوله تعالى : " .. وأعتدت لهن متكأ .. " ٣١ : يوسف ، وفرس عتد وعتد ـ بفتح التاء وكسرها ـ المعد للجري " .

هل اتخذ قبيلة " عاد " مصانع لمحاولة الخلود في الأرض :ـ

قال الله تبارك وتعالى على لسان نبيه هود عليه السلام يخاطب قومه : " أتبنون بكل ريعٍ آيةً تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين . ١٢٨ ـ ١٣٠ : الشعراء .

تعرض أحد الأساتذة الأفاضل في إحدى الكليات الجامعية للقول في الآيات السابقة ، وفسر المصانع بأنها كانت معامل لصناعة الأدوية والعقاقير [٤] التي يتوهمون أنها تجدد الحيوية ، وتعمل على إطالة الحياة وهذا ما يستفاد من قوله تعالى " لعلكم تخلدون " . وكانت لهذا الأستاذ نظرية في أن حضارة القرن العشرين سبقتها في الأزمنة الغابرة حضارات كثيرة ، فاقتها في كل صور الحياة وصنوف التقدم ، وكان يسوق لمظاهرة هذه النظرية وتعضيدها الأدلة وأشباه الأدلة ، وكان هذا الفهم في هذه الآية الكريمة مما ارتآه من أدلة نظريته ، فهل جانب الصواب أم خالفه في هذا التأويل ؟

وللجواب على ذلك نبدأ بفهم كلمة المصانع : إذ هي مشتقة من الصنع ، ولقد وجدنا للأستاذ الخولي [٥] كلاما جديرا بأن نسجله في معنى هذه الكلمة ، والفرق بينها وبين أشباهها ، وهو : ... الفرق بين الصنع والعمل ، والفعل ، كما بينه غير واحد من اللغويين هو : أن الصنع أخص المعاني الثلاثة ، إذ يكون من الإنسان دون غيره ، ويكون بإجادة ، وعن ترتيب وإحكام ، لما تقدم العلم به ، ليتوصل إلى غاية مرادة منه ،

---

١) أنظر تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ١١

٢) لفظ الشيء : رماه وطرحه فهو ملفوظ ولفيظ انظر القاموس جـ ٢ ص ٤١٣ .

٣) كذا بالأصل ولو قال : المتتبع لكانت أفصح تعبيرا عن المراد .

٤) يبدو ـ والله أعلم ـ أن الأستاذ كان متأثرا في هذا التأويل بما كانت تردده بعض الصحف في ذلك الوقت عن العقار الذي عرف وقتها بـ " هـ ـ ٣ " أو عقار " إعادة الحيوية " الذي قيل : إن عالمة من المجر توصلت إليه .

٥) انظر معجم الفاظ القرآن الكريم جـ ٤ ص ٩٣ ، ٩٤ .

وأما العمل فأوسط الثلاثة ، إذ يكون من الإنسان والحيوان ، ويكون بقصد وعلم ، وأما الفعل فآخر الثلاثة وأعمها ، إذ يكون من الإنسان والحيوان والجماد جميعا ، ويكون بإجادة وبدونها ، ويكون بقصد وبلا قصد ولهذا يقال : كل صنع عمل ، وليس كُلُّ عملٍ صنعـــا وكلُّ عملٍ فعلٌ ، وليس كُلُّ فعل عملا ، ومن ملاحظة خصوص الصنع بالمراد الجيد ، قالوا للحاذق : صَنَعٌ ـ كبطل ـ وللحاذقة : صَنَاعٌ ، كما قالوا ثوبٌ صنيع للجيد ، وفرس صنيع ؛ أى حَسُنَ قيامُ صاحبه عليه ، كما قالوا : صَنَعَ فلانٌ جاريتَه أو صَنَّعَها : إذا ربّاها ، ومنه فى الآيـة : " ولتُصنَع على عَيْنِي " ٣٩ : طـه ، ومن هذا الملحـظ فى الصنع قالوا : فلانٌ صنيعـة فلان : إذا آثره على غيره ، وقالوا : اصطنعه : إذا اتخذه ، فهو صنيعةٌ ، وقالوا : صنعَ اللهُ لفلان ، أى أحسـن إليـه ، ومن هذا الخصوص فى معنى المادة قالوا : للقصور ، وما يصنعه الناس من الأبنية والآبارِ مصانعَ ، والفعل منه ـ كفَتَح ـ صَنْعا وصُنعا " وهذه الآيـة الكريمـة متعلقة بسابقتها وهى قوله تعالى : " أتبنون بكل ريع آية تعبثون " وأقوال المفسرين (١) فى معناها مختلفة : فالمروى عن عكرمـة : أنهم كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا ، فبنوا على الطريق أمثالا طوالا ليهتدوا بها .

وأرى أن هذا المنسوب إلى عكرمـة غير سديد ، إذْ أىُّ نكير أن يتخذ قومٌ الأعلامَ علـــى طرق أسفارهم ليهتدوا بها .

وروى عن مجاهد : إن الريع هو بنيان الحمام .

وقيل : كانوا يبنون بكل موضع مرتفع ليشرفوا على السابلة فيسخروا منهم .

وهذا الرأى الثالث : أقرب إلى ماتدل عليه ألفاظ الآيـة من سابقيـــه .

والمذكور فى معنى المصانع :ـ

١) الحصون المشيدة ، قاله ابن عباس ومجاهد .

٢) المصانع جمع مَصْنَعَة بفتح النون وضمها أو جمع مُصْنَعَة بضم الميم أو مَصْنَع وهو : الحوض الذى يجتمع فيه ماء المطر أو آبار المياه .

٣) أنها القصور العاليـــة .

والذى أرجحـه أنّ الريع : هو التل العالى ، كانوا ينحتون أو يبنون فى أعلاه البيوت ويبالغون فى ذلك البناء ويتفننون فيه كما قال جل ذكره عن أمثالهم من ثمود : " وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين " ١٤٩ : الشعراء ، وعيشهم كان من شرفات هذه البيوت بالطرة ، أو كان بالمبالغة فى البناء بما يخرج عن الحاجات المشروعـة أو الهادفة للإنسان ، وللجاهليات ـ قديما وحديثا ـ فنون تعبر عن ضلال المعتقدات ، وسفيه السلوكيات .

---

١) رجعنا فى تفسير هذه الآيات إلى القرطبى جـ ١٣ ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، والكشاف جـ٢ ص ٤٣١ ، وابن كثير جـ ٣ ص ٣٤١ ط: الحلبـــى .

وأرجح فى معنى المصانع : أنها الحصون المشيدة ، ظنوا أنها تدفع عنهم الغوائل وتقيهم العوادى والجوائح .

ومعنى : " لعلكم تخلدون " أى :كيما تخلدون أو " كأنكم خالدون "

* * *

هذا بعض حديث التأويلات وصورها ، وهو حديث يغنى بعضه عن بعض ، ويقوم الشاهد منه مقام الغائب .....

وبتمام هذا الحديث تتم رسالة :

" النص القرآنى بين التفسير والتأويل "

وإذا كان القلم قد بلغ منتهى شوطه المقدور ، فانه لم يبلغ منتهى غايته ... وما كل مايتمنى المرء يدركه .....

وهو يحسب أنه قد ابتغى الجادة ، وسعى لها سعيها ، فإن كان قد أمن العثرة فـ" ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم " ٤ : الجمعة .

وإن كانت الأخرى .... فالكمال لله العلى الكبير ، والعصمة لأنبيائه ورسله : " وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " ٨٥ : الإسراء

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام على إمام النبيين وعلى آله الطيبين وصحبه الطاهرين .

وكتبه

عبد الفتاح إبراهيم سلامه

المدرس المساعد بكلية الحديث الشريف

و الدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

المظاهر والفهارس

ثبت المصادر والمراجع (١)

مفتاح هذا الثبت

اتبعنا فى هذا الثبت الخطة التالية :-

أ - ترتيب المراجع حسب أسماء مؤلفيها .

ب- ترتيب هذه الأسماء ترتيبا أبجديا .

ج - تعريف موجز بالمؤلفين مع سبق التعريف بأكثرهم خلال صفحات الرسالة .

د - إغفال أداة التعريف " ال " وكلمة " ابن " و " أبو " عند ذكر الأعلام .

هـ - إذا كان العلمُ المترجَمُ له مبدوءاً بـ " ابن أبى " يكتفى بإغفال كلمة " ابن "

و - تصنيف المراجع حسب فنونها .

ز - اعتبار كل قائمة من القوائم النوعية وحدة قائمة بذاتها عند الترتيب الأبجدى .

ح - نشير إلى الطبعة التى رجعنا إليها ، وقد ألجأت الظروف أحيانا إلى الاستئناس بطبعة أخرى للمرجع دفعا للبس ، أو دحضا لوهم ، وخاصة إذا كانت الطبعة الأخرى محققة .

ط - كتابة الرسالة بين أكثر من بلد إسلامى أدى كذلك إلى استخدام طبعات مختلفة الصفحات للمرجع الواحد .

---

(١) المقصود بالمصادر المراجع الأمهات الرئيسة للرسالة ، وأما المراجع فهى ما دون ذلك

ثبت المصادر والمراجع (١)

مفتاح هذا الثبت

اتبعنا في هذا الثبت الخطة التالية :-

أ - ترتيب المراجع حسب أسماء مؤلفيها .

ب- ترتيب هذه الأسماء ترتيبا أبجديا .

جـ - تعريف موجز بالمؤلفين مع سبق التعريف بأكثرهم خلال صفحات الرسالة .

د - إغفال أداة التعريف " ال " وكلمة " ابن " و " أبو " عند ذكر الأعلام .

هـ - إذا كان العلمُ المترجَمُ له مبدوءاً بـ " ابن أبي " يكتفى بإغفال كلمة " ابن "

و - تصنيف المراجع حسب فنونها .

ز - اعتبار كل قائمة من القوائم النوعية وحدة قائمة بذاتها عند الترتيب الأبجدي .

ح - نشير إلى الطبعة التي رجعنا إليها ، وقد ألجأت الظروف أحيانا إلى الاستئناس بطبعة أخرى للمرجع دفعا للبس ، أو دحضا لوهم ، وخاصة إذا كانت الطبعة الأخرى محققة .

ط - كتابة الرسالة بين أكثر من بلد إسلامي أدى كذلك إلى استخدام طبعات مختلفة الصفحات للمرجع الواحد .

---

(١) المقصود بالمصادر المراجع الأمهات الرئيسة للرسالة ، وأما المراجع فهي ما دون ذلك

أ — كتب تفسير القرآن الكريم

* **الآلوسي :**

أبو الثناء شهاب الدين : محمود الآلوسي . ولد بجوار الكرخ بالقرب من بغداد في سنة ١٢١٧ هـ ، شغل مناصب التدريس والإفتاء ، وتوفي في سنة ١٢٧٠ هـ ، ودفن مع أهله في إقليم الكرخ ببغداد .. والآلوسي نسبة الى آلوس وهي جزيرة في نهر الفرات بها نشأ أجداده .

١ — روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني .

مصورة بيروت عن طبعة المنيرية بالقاهرة .

وقد طبع الكتاب بالأميرية قبل المنيرية .

* **البغوي :—**

أبو محمد : الحسين بن مسعود واشتهر بالفراء نسبة الى بيع الفراء ، والبغوي نسبة الى بلدة تسمى " بسخ " بخراسان . وتوفي في سنة ٥١٦ هـ .

٢ — معالم التنزيل للبغوي .

مصورة بيروت بهامش تفسير الخازن .

* **البنا :**

"الشيخ " حسن أحمد البنا " الداعية الإسلامي الشهير" اغتالته السلطة الحاكمة في سنة ١٩٤٩ م رحمه الله وغفر له .

٣ — في " التفسير وسورة الفاتحة " رسالتان طبعتهما في كتيب واحد دار المصر الحديث ببيروت ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م

* **البهي :**

د / محمد البهي قرقر وزير الأوقاف المصرية الأسبق وسبق التعريف به داخل الرسالة)

٤ — تفسير سورة الجن (كتبه في ذي الحجة ١٣٩٠ هـ = يناير ١٩٧١ م ط : دار الفكر ببيروت

٥ — تفسير سورة الطلاق . ط: دار الفكر ببيروت

* البيضـــاوى :

القاضى ناصر الدين أبو سعيد : عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى نسبة إلى قرية يقال لها البيضاء من أعمال شيراز . توفى ٧٩١ هـ .

٦ ــ أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوى . فى مجلد واحد . طبعة البهية ــ القاهرة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥ م .

* الجـلالان :

هما جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى . فأما المحلى فهو جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلى . ولد بمصر فى ٧٩١ هـ وتوفـــى فـــى ٨٦٤ هـ .

وقد بدأ المحلى التفسير ، وأتمه السيوطى ، والقدر الذى أتمه السيوطى هو من من أول البقرة إلى آخر الإسراء ، وكان الذى فسره المحلى من الكهف إلى ســـورة الناس ، ويبدو أن الفاتحة هى من تفسير المحلى .

٧ ــ تفسير الجلالين ط : دار القلم بالقاهرة .

* الجمـــل :

سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ .

٨ ــ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية فى أربعـــة أجزاء ط : عيسى الحلبى القاهرة .

* جـــوهرى :ــ

"الشيخ" طنطاوى جوهرى : ولد سنة ١٢٨٧ هـ = ١٨٧٠ م وتوفـــى سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٤٠ م وقد كان أستاذا بكلية دار العلوم وله عدد مـــن المؤلفات غير تفسيره المعروف .

٩ ــ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب المكونات وغرائب الآيات الباهرات .

* أبو حيـــان :

أثير الدين أبو عبد الله : محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان من غرناطة بالأندلس، ويعرف بأبي حيان ، ولد سنة ٦٥٤هـ ، وتوفي أبو حيان بمصر سنة ٧٤٥ هـ .

١٠ ـ البحر المحيط " وهو مشه الدر اللقيط من البحر المحيط لتلميذه أحمد بن مكتوم " وقد اشتهر هذا التفسير بالعناية بالنحو ومسائله ، ولكني وجدت فيه نقضا لشبهات المعتزلة والمجسمة والباطنية والمتصوفة ، كما يدمغ أضاليل النصارى وإفك التثليث ... وينهج في بعض مسائل الفقه منهج ابن حزم الظاهري .

ط : السعادة بالقاهرة في ١٣٢٨ هـ ، وطبعة الرياض .

* الخـــازن :

علاء الدين أبو الحسن : علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل البغدادي وعرف بالخازن لأنه كان خازن كتب بدمشق ، وولد ببغداد سنة ٦٧٨ هـ ، وتوفي بحلب سنة ٧٤١ هـ .

١١ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل .

مصورة ببيروت عن طبعة بالقاهرة .

* دروزة :ـ

محمد عزة دروزة ، كاتب معاصر ولد بفلسطين ١٣٠٥هـ ـ ١٨٨٨ م ، له عديد من المؤلفات معظمها : التفسير وعلوم القرآن والسيرة المحمدية وتاريخ العرب ، وتاريخ بني إسرائيل ، وبعض هذه المؤلفات يقع في عدة أجزاء .

١٢ ـ التفسير الجديد في ١٢ جزءا ط : عيسى الحلبي ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢م .

* الرازي :

فخر الدين : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي نسبة غير قياسية إلى إقليم الري توفي ٦٠٦ هـ .

١٣ ـ مفاتيح الغيب وهو المعروف بالتفسير الكبير "

الطبعة الأولى وهي مشهها تفسير أبي السعود العمادي وتقع في ثمانية مجلدات .

الطبعة الثانية وهي طبعة دار المصحف بالقاهرة في ٣٢ جزءا وتفضل سابقتها .

* رشيد رضا :

محمد رشيد رضا .. ولد بقرية القلمون بالشام فى جمادى الأولى ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥م وتوفى فى أغسطس ١٩٣٥ م.

١٤ — تفسير المنار فى ١٢ مجلدا ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وهو تفسير فسر فيه مؤلفه اثنى عشر جزءا من أجزاء القرآن الكريم وأفرد لسورة يوسف كتابا مستقلا ولم يتمها — وتتضمن الأجزاء الخمسة الأولى من التفسير آراء الشيخ محمد عبده فى التفسير التى كان يلقيها من فوق كرسيه فى الأزهر الشريف.

* الزمخشرى :

أبو القاسم : محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ولد ٤٦٧ هـ وتوفى ٥٣٨ م

١٥ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ٣ أجزاء ط : الحلبى بالقاهرة.

* أبو السعود :

أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادى . ولد فى سنة ٨٩٦ هـ ، تولى مناصب القضاء والإفتاء فى تركيا . وتوفى بالقسطنطينية فى ٩٥١هـ .

١٦ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم — فى خمسة أجزاء .

رجعنا إلى طبعة جمعية " المنار " الأزهرية وطبعة ابن الخطيب وصبيح بالقاهرة.

* الشربينى :

شمس الدين : محمد بن محمد الشربينى — توفى فى ٩٧٧هـ وكانت وفاته بالقاهرة ويعرف بالخطيب الشربينى .

١٧ — السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير . فى أربعة اجزاء . مصورة بيروت عن الطبعة التى طبعتها الأميرية بالقاهرة فى ١٢٩٩ هـ .

* شلتـــوت :

محمود محمد شلتوت — شيخ الأزهر الأسبق توفى ١٩٦٣ م رحمه الله .

١٨ — تفسير القـــرآن الكريم .

وهو تفسير لبعض آيات من الأجزاء العشرة الأولـى ط : دار القلم .

١٩ — الى القرآن الكريم — ويتضمن بعض الأحاديث التى كان يلقيها رحمه الله فى مقدمة الاذاعة .

ط : دار الهلال .

* الشنقيطى :

محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى الشنقيطى : من العلماء المتفرغين إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوفى فى ١٣٩٣ هـ .

٢٠ — أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن .

صدرت منه فى حياة المؤلف سبعة أجزاء عن مطبعة المدنى بالقاهرة .

* الشوكانـــى :

: محمد بن على بن محمد بن عبد الله عالم مجتهد يمنى تحرر من تقليد الزيدية وينهج منهج أهل الحديث فى مؤلفاته توفى ١٢٥٠ هـ .

٢١ — فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير فى خمسة أجزاء .

مصورة بيروت عن ط : القاهرة .

* الصـــــاوى :

أحمد الصاوى توفى عام ١٢٢١ هـ ذو تعصبات غالية .

٢٢ — حاشية الصاوى على تفسير الجلالين .

* الطـــبرى :

أبو جعفر محمد بن جرير ولد فى ٢٢٤ هـ وتوفى فى ٣١٠ هـ .

٢٣ — جامع البيان عن تأويل آى القرآن .

ط : المطبعى بالقاهرة فى ٣٠ جزءا .

ط : المعارف بالقاهرة صدر منها حتى الآن ١٦ جزءا .

وقد قام الأستاذ محمود محمد شاكر بتحقيق النص والتعليق فى منهجية مستأنية ودرس ممحص ، وشاركه أخوه الشيخ أحمد شاكر فى تخريج أحاديث ماصدر من الأجزاء قبل وفاته رحمه الله .

* عائشـــة :

عائشة عبدالرحمن . أستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

٢٤ — التفسير البيانى للقرآن الكريم فى جزءين .

الجزء الأول الطبعة الرابعة فى ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م ط: المعارف

الجزء الثانى الطبعة الثانية فى ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م ط : المعارف

ابن العربى :

أبو بكر : محمد بن عبدالله بن محمد بن الله بن أحمد المعروف بابن العربى المعافرى الأشبيلى المالكى ، ولد فى أشبيلية من بلاد الأندلس سنة ٤٦٨ هـ فارتحل إلى بعض البلدان الإسلامية لطلب العلم ثم عاد إلى الأندلس وولى القضاء بهـــا ، توفى سنة ٥٤٣ هـ وهو منصرف من مراكش وحُمل ميتا إلى مدينة فاس ودفن بها .

٢٥ — أحكام القـــرآن فى أربعة أجزاء متتابعة الصفحات .

حققه على محمد البجاوى وطبعه الحلبى بالقاهرة فى ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م .

* عيســـى :

" الشيخ " عبدالجليل عيســـى .. العميد الأسبق لكلية اللغة العربية بالقاهرة .

٢٦ — المصحف الميسر طبع بدار القلم بالقاهرة .

* القاســـمى :—

محمد جمال الدين القاسمى — من علماء الشام — ولد ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦م وتوفى ١٣٣٢هـ = ١٩١٤ م .

٢٧ — محاسن التأويل فى ١٧ جزءا — الأول منها يشتمل على قواعد التفسير — طبع فى دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة بتعليقات الأستاذ / محمد فؤاد عبدالباقى .

* القرطبي :

أبو عبدالله : محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي — توفي ٦٧١ هـ .

٢٨ — الجامع لأحكام القرآن — في عشرين جزءا — الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

صدرت في ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧

* قطب :

الأستاذ سيد قطب إبراهيم الكاتب الإسلامي الكبير ، كانت وفاته رحمه الله في عام ١٩٦٥ م نتيجة محاكمات سياسية معروفة ، قضت بإعدامه مظلوما .

٢٩ — في ظلال القرآن في ثلاثين جزءا ط : الحلبي بالقاهرة ، ط : الشروق ببيروت .

* ابن كثير :

أبو الفداء : إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

٣٠ — تفسير القرآن العظيم في أربعة أجزاء ط : الحلبي بالقاهرة .

ورجعنا إلى ط : دار الفكر ببيروت وتقع في سبعة أجزاء ومزودة بفهارس تفصيلية .

* مجاهد :

هو مجاهد بن جبر المكي المخزومي من خيرة أصحاب ابن عباس ولد في خلافة الفاروق رضي الله عنه سنة ٨١ هـ وتوفي سنة ١٠٤ هـ على أشهر الروايات .

٣١ — تفسير مجاهد

نشر هذا التفسير حديثا بتحقيق عبدالرحمن الطاهر بن محمد السورتي عن مخطوطة كانت بدار الكتب المصرية ثم صورت لمجمع البحوث الإسلامية بالباكستان وطبعت على نفقة أمير دولة قطر في ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦ وفي نسبة هذا التفسير لمجاهد رضي الله عنه نظر .

* محمد عبده :

محمد عبده بن حسن خيرالله .. ولد عام ١٨٤٩هـ بقرية شبشير بجوار مدينة طنطا ، ونشأ في محلة نصر من قرى إقليم البحيرة .. وتوفي بالإسكندرية ١٩٠٥ م ... كان مفتيا للديار المصرية .. صاحب منهج في التفسير .

٣٢ — تفسير جزء " عم يتساءلون " ط : الشعب بالقاهرة .

* المغـــربـــى :ـ

الشيخ : عبدالقادر .. كان عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة

٣٣ ـ تفسير جزء " تبارك .. " ط : الشعب بالقاهرة.

* ابن المنـــير :

ناصر الدين : أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى المالكى .

٣٤ ـ الإنتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال وهو مطبوع بهوامش طبعات الكشاف.

* النيســابورى :

نظام الدين : الحسن بن محمد بن الحسين القمى النيسابورى.

توفى سنة ٧٢٨ هـ على رواية صاحب كشف الظنون .

٣٥ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان .

طبعة الأميرية بالقاهرة فى ١٣٢٣ هـ ـ وقد أعيد طبعه أخيرا بدار الشعب ولم تتم .

* وجـــــدى :ـ

محمد فريد وجـــدى بن مصطفى وجدى بن على رشاد كاتب من أهل هذا القرن أصدر موسوعة تعرف بدائرة معارف القرن العشرين .

٣٦ ـ المصحف المفسر ـ ط: الشعب بالقاهرة ١٣٧٧ = ١٩٥٧ م.

ب ـ تفاســـير الفـرق للقرآن الكريم

الطباطبائى :

محمد حسين الطباطبائى : مفسر شيعى معاصر .

٣٧ ـ الميزان فى تفسير القرآن فى عشرين جزءا ط : الأعلمى ببيروت .

* الطبرسي :-

أبو علي : الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي نسبة إلى " طبرستان " المشهدي لأنه دفن ببلدة " مشهد " . توفي ليلة النحر سنة ٥٣٨ هـ كما ذهب صاحب " روضات الجنات "

٣٨ — مجمع البيان في تفسير القرآن ولعل الاسم الذي اختاره الطبرسي لكتابه هو "مجمع البيان لعلوم القرآن "

٣٠ جزءا في ستة مجلدات ط : مكتبة الحياة ببيروت في ١٣٨٠ هـ .

* القشيري :

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري ، من أصل عربي ، ولكنه ولد بنيسابور من بلاد فارس في ربيع الأول من سنة ٣٧٦ هـ ، وتوفي في ربيع الآخر من سنة ٤٦٥ هـ .

٣٩ — لطائف الإشارات " تفسير صوفي للقرآن الكريم " في ستة أجزاء

حققه وعلق عليه : د / ابراهيم بسيوني ط : الكاتب العربي بالقاهرة .

جـ — كتب في علوم القرآن ومباحثه

* الباقوري :

الشيخ " أحمد حسن الباقوري " وزير الأوقاف المصرية الأسبق .

٤٠ — مع القرآن ط: مكتبة الآداب بالقاهرة في ١٩٧٠ م .

* بدوي :-

د / أحمد أحمد بدوي أستاذ للأدب بكلية دار العلوم بالقاهرة .

٤١ — من بلاغة القرآن في جزء واحد .

ط : نهضة مصر — القاهرة .

* ابن تيمية :

٤٢ — مقدمة في أصول التفسير ط: السلفية بالقاهرة

بتعليق : محب الدين الخطيب .

* الخطـــــيب :

عبدالكريم الخطيب كاتب إسلامى معاصر .

٤٣ ـ إعجاز القرآن فى جزءين ط : الفكر العربى بالقاهرة .

* خليـــــل :

د / السيد أحمد خليل . أستاذ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

٤٤ ـ دراسات فى القرآن .

ط : المعارف فى ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م .

* الخولـــى :ـ

أمين الخولى ـ أستاذ جامعى معاصر وأديب معروف ، توفى فى ١٩٦٦ م .

٤٥ ـ التفسير : معالم حياته ،منهجه اليوم ـ كان هذا الكتب بحثا مستقلا ثم أعاد طبعه مع فصول كتابه " مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب"

ط : المعرفة بالقاهرة فى سبتمبر ١٩٦١ م .

* الدامغانى :ـ

الحسين بن محمد الدامغانى ، (نسبة إلى الدامَغان بفتح الميم ،وهى بلد كبير بين إقليمى الرى ونيسابور) ويرجح أنه من علماء القرن الخامس الهجرى .

٤٦ـ إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم .

حققه وأتمه : عبد العزيز سيد الأهل .

ط : دار العلم للملايين ببيروت فى ١٩٧٠ م .

* الذهـــــبى :

د . محمد حسين الذهبى ـ وزير الأوقاف المصرية الأسبق رحمه الله .

٤٧ ـ التفسير والمفسرون فى ثلاثة أجزاء ط: الكتب الحديثه بالقاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م .

* الرافعـــــى :ـ

مصطفى صادق الرافعى : أديب محروف ولد فى ١٨٨٠ م فى قرية بهتيم بمحافظة القليوبيه ونشأ بمدينة طنطا ،وعمل كاتبا بالمحكمة الشرعية بطنطا ،وتوفى فى مايو ١٩٣٦م.

٤٨ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ طبعة التجارية السابعة فى ١٣٨١هـ=١٩٦١م

* الزرقانـــــى :ـ

" الشيخ " محمد عبدالعظيم الزرقانى .. كان رحمه الله أستاذا بكلية أصول الدين بالقاهرة .

٤٩ ـ مناهل العرفان فى علوم القرآن " فى جزئين " الطبعة الثالثة : الحلبـــــى بالقاهرة وكان فراغ المؤلف من الطبعة الأولى فى جمادى الآخرة ١٣٦٢هـ =يونيه ١٩٤٣م.

* الزركشى :

بدر الدين : محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشى ولد بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ وتوفى بها سنة ٧٩٤ هـ .

٥٠ ـ البرهان فى علوم القـــرآن .. فى أربعة أجزاء .

الطبعة الأولى صدرت فى ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .

* الزفزاف :

" الشيخ " محمد الزفزاف : أستاذ الشريعة الإسلامية ،ووكيل كلية دار العلوم الأسبـــــق .

٥١ ـ التعريف بالقرآن والحديـــث ـ ط: السنة المحمدية بالقاهرة فى ١٣٧٥هـ=١٩٥٥م

* السيوطى :

جلال الدين : عبدالرحمن بن أبى بكر السيوطى ولد سنة ٨٤٩ هـ ،وتوفى بالقاهرة فى ٩٢١هـ

٥٢ ـ الإتقان فى علوم القرآن طبعـــة القاهرة التى صورت عنها طبعات بيروت تقع فى جزئين ،وقد قام الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم بتحقيقه ،ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٤م فى أربعة أجزاء .

٥٣ — لباب النقول فى أسباب النزول
رجعنا الى ط : الشعب ،والى المطبوعة بها مش الجلالين .

* الشربصـــــى :

د / أحمد الشرباصى .. أستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة
٥٤ — قصة التفسير ط : المكتبة الثقافية بالقاهرة .

* عائشـــــة :—

عائشة عبد الرحمن . سبق التعريف بها .
٥٥ — الإعجـــاز البيانى للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق .
ط: المعارف بالقاهرة فى سنة ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م
٥٦ — القرآن والتفسير العصرى ط: المعارف سلسلة اقرأ .
٥٧ — القرآن وقضايا الانسان ط : العلم للملايين ببيروت .

* عبد الجبـــــار :

أبو الحسن : عبد الجبار بن أحمد بن الخليل الهمذانى ، الأسد أبادى ، تولى قضاء " الرى " وانتهت إليه رياسة المعتزلة ،وتوفى بالرى فى ٤١٥ هـ .
٥٨ — متشابه القرآن فى جزئين ط : التراث القاهرة .
بتحقيق د. عدنان زرزور المدرس بجامعة دمشق .

العقـــــاد :

عباس محمود العقاد — أديب العربية الكبير فى هذا القرن — توفى فى مارس ١٩٦٤م ، ودفن بأسوان مسقط رأسه .
٥٩ — الفلسفة القرآنية ط : كتاب الهلال بالقاهرة .

* ابن قتيبـــــة :

أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى لأنه أقام ببلدة " دينور " قاضيا مدة من الزمن ولد فى بغداد ٢١٣ هـ وتوفى ٢٧٦ هـ رحمه الله .
٦٠ — تأويل مشكل القرآن بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر . ط: التراث بالقاهرة .

* ابـن كثير :ـ

سبـــــق تعريفـــــه .

٦١ ـ فضائـــــل القـــــرآن .

طبع ملحقا بنهاية التفسير فى الجزء السابع من طبعة الفكر ببيروت والجـــزء الرابع من طبعة الحلبى بالقاهرة .

* الواحـــــدى :

أبو الحسن : على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى فى ٤٦٨ هـ .

٦٢ ـ " أسباب النزول " ط: الحلبى : القاهرة .

د ـ دواوين الســـــنة النبوية وما حولها

* الألبـــــانى :

محمد ناصر الدين الألبانى الأرناؤطى ... محدث الديار الشامية فى هذا العصـــــــر .

٦٣ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء فى الأمة المجلد الأول طبع فى دمشق ١٣٨٤ .

٦٤ ـ حجة النبى صلـــى الله عليه وسلم كما رواها جابر

علق عليها وخرج أحاديثها : محمد ناصر الدين الألبانى ط: دمشق .

* البخـــــارى :

أبو عبدالله : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن ابراهيم بن بردزبه البخارى الجعفى ولد ببخارى فى شوال من سنة ١٩٤ هـ وتوفى ليلة عيد الفطر مـــن سنة ٢٥٦ هـ .

٦٥ ـ الجامع الصحيح " صحيح البخارى " ٩ أجزاء ط : الشعب بالقاهرة فى ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨م .

* الدارمي :

أبو محمد : عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام التميمي الدارمي السمرقندي ولد سنة ١٨١هـ — وكانت وفاته عام ٢٥٥ هـ .

٦٦ — سنن الدارمي في ثلاثة أجزاء .

* أبو داود :

سليمان بن الأشعث بن اسحق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني نسبة إلى "سجستان" وهو إقليم بين خراسان وكرمان ولد سنة ٢٠٢ هـ وتوفي سنة ٢٧٥ هـ .

٦٧ — سنن أبي داود

بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد .

* السيوطي :—

سبق التعريف به .

٦٨ — الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير .

ط : دار الكاتب العربي بالقاهرة في ١٩٧٦ م.

* الشاطبي :

أبو إسحق : إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي ، توفي ٧٩٠هـ .

٦٩ — الاعتصام : في جزءين ط: التحرير بالقاهرة ١٩٧٠

ولم يكمل الشاطبي رحمه الله كتابه ، أو لعل الأصل الذي طبع عنه الكتاب هو الذي اعتوره النقص وقد حققه : الشيخ محمد رشيد رضا .

* عبدالباقي :

محمد فؤاد — سبق التعريف به —

٧٠ — اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (البخاري ومسلم) في ثلاثة اجزاء طبعة الحلبي بالقاهرة في ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م .

* ابن عبد البـــر :

أبو عمـــر : يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ .

٧١ — جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغى فى روايته وحمله ... فى جزءين .

* العجلـــونى :

اسماعيل بن محمد العجلونى الجراحى المتوفى فى ١١٦٢ هـ .

٧٢ — كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس مصورة التراث ببيروت عن الطبعة الثالثة فى ١٣٥١ .

* القسطلانى :—

شهاب الدين : أحمد بن محمد الخطيب المصرى المعروف بالقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ .

٧٣ — إرشاد الساري إلى صحيح البخارى .

مصورة ببيروت عن طبعة بولاق .

* مسلـــم :

"الإمام" أبو الحسين : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى نسبة الى قبيلة قشير العربية ، ثم النيسابورى مولدا ، توفى بنيسابور سنة ٢٦١ هـ ، وكانت سنه عند وفاته خمسا وخمسين سنة .

٧٤ — الصحيح "صحيح مسلم"

شرحه : محيى الدين أبو زكريا : يحيى بن شرف المولود بدمشق فى ٦٣١ هـ والمتوفى فى سنة ٦٧٦ هـ .

طبع فى ١٨ جزءا فى ستة مجلدات بالمطبعة المصرية بالقاهرة .

* النسائى :—

أبو عبد الرحمن : أحمد بن على بن شعيب بن على بن سنان — ولد بنَسَاء بفتح النون وهى بلدة بخراسان سنة ٢١٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٠٣ هـ .

٧٥ — سنن النسائى بشرح جلال الدين السيوطى طبعة التراث ببيروت وهذه السنن هى السنن الصغرى ، وأما السنن الكبرى فلم تطبع حتى يومنا هذا .

هـ — كتب فى العقيدة الإسلامية والنبوة

* البهـــى :

سبـــق التعريف بـــه .

٧٦ — الجانب الإلهى فى التفكير الاسلامى ط : الفكر ببيروت .

* ابن تيمية :

تقى الدين أبو العباس : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبى محمد بن عبد الله بن تيمية الحرانى ولد بحران سنة ٦٦١ هـ — ١٢٦٣ م وتوفى فـــى شوال ٧٢٨ هـ فى سجن قلعة دمشق رحمه الله وغفر له .

٧٧ — الإكليل فى المتشابه والتأويل ط : التراث ببيروت مصورة ، وط : السلفية بالقاهرة ١٩٧٣م وقد نقل الشيخ القاسمى اكثره فى تفسيره محاسن التأويل جـ٤ صـ٧٥٢ وما بعـــدها .

٧٨ — مجموع الفتـــاوى ؛ فى خمسة وثلاثين جزءا وفهارسه فى جزءين

٧٩ — التدمرية " مجمل عقائد السلف " ط : الإمام بالقاهرة .

ط : المكتب الاسلامى بدمشق ١٣٩١هـ .

٨٠ — الفتوى الحموية الكبرى — بتحقيق الشيخ : محمد عبد الرزاق حمزة رحمه الله المدرس بالمسجد الحرام .

الرسالة المدنية فى تحقيق المجاز والحقيقة فى صفات الله تعالى

كلتاهما ط : المدنى : القاهرة

٨١ — درء تعارض العقل والنقل : الجزء الأول بتحقيق د / محمد رشاد سالم مطبعة دار الكتب ١٩٧١ وقد سبق لهذا الكتاب أن طبعه الشيخ محمد حامد الفقى تحت عنوان " الموافقة بين صريح المعقول وصحيح المنقول "

٨٢ — الحموية (وهى فى موضوع الصفات الالهية والعلو)

رجعنا إلى طبعة المنيرية بالقاهرة .

* ابن حنبل :

(الامام أبو عبد الله : أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن ادريس ينتهى نسبه إلى بنى مازن بن شيبان ولذلك لقب بالشيبانى ولد ببغداد ١٦٤ هـ وتوفى ٢٤١ هـ .

٨٣ — الرد على الزنادقة والجهمية .

طبع بمنشأة المعارف بالاسكندرية ضمن رسائل بعنوان عقائد السلف فى ١٩٧١م بتحقيق د / على سامى النشار وعمار جمعه الطالبى .

* الخولـــــى :

" الشيخ " أمين الخولـــــى

٨٤ــ من هدى القرآن : القادة الرسل ط : المعرفة بالقاهرة .

* الذهـــــبى :

شمس الدين : محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقى المعروف بالذهبى ، ولد سنة ٦٧٣ هـ ، وتوفى سنة ٧٤٨ هـ .

٨٥ــ العلو للعلى الغفار فى صحيح الأخبار و سقيمهـــا .

بتعليق : الشيخ : عبد الرزاق عفيفى ط : السنة المحمدية بالقاهرة فى سنة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م .

* الشرقـــــى :

أحمد ابراهيم بن عيسى .

٨٦ــ توضيح المقاصد وتصحيح القواعد فى شرح قصيدة ابن القيم المسمـــاة " بالكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية " فى جزئين

ط: المكتب الإسلامى بدمشق ١٣٨٢ هـ .

* الطحـــــاوى :

أبو جعفر : أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى المصرى ، وهو ابن شقيقة المزنى . صاحب الإمام الشافعى ، وقد تمذهب أبو جعفر بمذهب أبى حنيفة ولد بمصر سنة ٢٢٧ هـ وتوفى بها فى سنة ٣٢١ هـ

٨٧ــ العقيد السلفية

وقد شرحها صدر الدين : على بن على بن أبى العز وقد ولد فى ٧٣١ هـ وتوفى ٧٩٢ هـ بتحقيق أحمد محمد شاكر ط: الرياض مصورة .

ط: المكتب الإسلامى بدمشق وقد خرج أحاديثها : محمد ناصر الدين الألبانى .

ط ـ معاجم
اللغة وألفاظ القرآن والحديث

* حسن الزيات :

أحمد حسن الزيات : صاحب مجلة "الرسالة" التى كانت تصدر فى مصر، اشتغل فترة بالتدريس بمصر والبلاد العربية، رأس تحرير مجلة "الأزهر" فترة، له أسلوب متميز فى النثر الفنى .

١٢٤ ـ المعجم الوسيط . رجعنا إلى الجزءين الأول والثانى
صدر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وشارك فى إعداده الأستاذ الزيات مع آخرين .

* الـــرازى :

محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى .

١٢٥ ـ مختار الصحاح بترتيب محمود خاطر .
ط : الأميرية بالقاهرة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٦ م .

* الراغـــب :

أبو القاسم : الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى المتوفى فى سنة ٥٠٢ هـ .

١٢٦ ـ مفردات القرآن الكريم فى مجلد واحد .
تحقيق سيد كيلانى ط: الحلبى بالقاهرة .

* رضـــا :

"الشيخ" أحمد رضا عضو المجمع العلمى العربى بدمشق .

١٢٧ ـ معجم متن اللغة . فى خمسة أجزاء .
مطبعة الحياة ببيروت ـ ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨ م .

* ابن قيم الجوزية :

شمس الدين : أبو عبد الله : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي عرف بابن قيم الجوزية لأن أباه كان قيما على المدرسة الجوزية بدمشق من أنجب تلاميذ الإمام ابن تيمية ، توفي ٧٥١ هـ .

٨٨ — مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة في جزءين : ط: الرياض مصورة في ١٣٤٩ هـ اختصرها الشيخ : محمد بن الموصلي .
وقام بتصحيحها الشيخان : محمد حامد الفقي ، ومحمد عبد الرازق حمزة رحمهما الله .

* الملطـــــي :

أبو الحسين : محمد بن أحمد الملطي نسبة الى ملطية توفي بدمشقان سنة ٣٧٧هـ

٨٩ — التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع
ط: المعارف ببيروت المصورة عن طبعة "الكوثري" التي طبعت في القاهرة سنة ١٣٦٨هـ

* النجـــــار :

"الشيخ" عبد الوهاب النجار .. كاتب إسلامي معاصر ، اشتغل بالتدريس رحمه اللـــــه .

٩٠ — قصص الأنبياء الطبعة الثالثة بالقاهرة .

* هـــــراس :

د / محمد خليل هراس أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين القاهرة ولد في ١٩١٦ م وتوفي رحمة الله في شهر رمضان ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م .

٩١ — شرح القصيدة النونية لابن قيم الجوزية في جزءين ط : الامام ، القاهرة .

و — كتب فى الفقه وأصول الفقـــــه

* ابن بركـــــة :

أبو محمد / عبدالله بن محمد بن بركة البهلوى العمانى الإباضى ،من فقهاء الإباضية فى القرن الرابع الهجرى .

٩٢ــ الجامع ــ " كتاب فقهى " نشر لأول مرة فى عام ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م
حققه ونشره : عيسى يحيى البارونى .. وطبعة الكتاب مع جودة ورقها ملأى بالتصحيفات

* ابن حـــــزم :

ابو محمد على بن أحمد بن سعيد .. الفقيه الظاهرى .
ولد بمدينة قرطبة فى ٣٨٤ هـ .. وتوفى فى ٤٥٦ هـ .
٩٣ــ الإحكام فى أصول الأحكام . ثمانية أجزاء فى مجلدين .
ط: الإمام بالقاهرة عن طبعة الشيخ أحمد محمد شاكر .

* خـــــلاف :

" الشيخ " عبدالوهاب خلاف رحمه الله " أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة سابقا " ..
٩٤ــ علم أصول الفقه ط : العاشرة بالكويت .

* دراز :

* د / محمد عبدالله دراز . من خيار أساتذة جامعة الأزهر ،جمع بين الثقافتين : العربية والفرنسية ،وتوفى رحمه الله ــ فى سنة ١٣٧٨هـ = ١٩٥٨م . أثناء تمثيلـــه لجامعة الأزهر بالمؤتمر الإسلامى الذى كان منعقدا وقتها بلاهور بباكستان .
٩٥ــ الربا فى نظر القانون الإسلامى .
محاضرة ألقاها بالفرنسية فى مؤتمر القانون الإسلامى المنعقد بباريس فى شهر يوليو من عام ١٩٥٠ م ،ثم طبعت معربة بمطبعة الأزهر فى عام ١٩٥١م .
٩٦ــ دراسات اسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية نشر بدار القلم بالكويت بعد وفاته .

* الدســـوقـــى :

طه عبدالله الدسوقى من أساتذة جامعة الأزهر .

٩٧ — أصول الفقه ط: البيان العربى بالقاهرة .

* الشاطـــبى :

أبو اسحق : ابراهيم بن موسى سبق التعريف به .

٩٨ — الموافقات

ط: التجارية بالقاهرة بتحقيق الشيخ عبدالله دراز .

* الشوكانـــى :

محمد بن على بن محمد سبق التعريف به .

٩٩ — إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول .

ط: السنة المحمدية بالقاهرة وكذلك الخانجى بالقاهرة .

* الغزالـــى :

أبو حامد : محمد بن محمد بن محمد الغزالى ولد بمدينة طوس من إقليم خراسان سنة ٤٥٠ هـ وتوفى فى جمادى الآخرة ٥٠٥ هـ .

١٠٠ — المستصفى فى علم الأصول جزءان مصورة ببيروت عن طبعة قاهرية .

* الكرخى :

عبدالله بن الحسين الكرخى المتوفى سنة ٣٤٠ هـ

١٠١ — الأصول التى عليها مدار فروع الحنفية .

وهو مطبوع بهامش كتاب " تأسيس النظر " لعبدالله بن عمر الدبوسى .

ز — السيرة والتراجم والتاريخ

* ابن سعد :

أبو عبدالله : محمد بن سعد بن منيع المعروف بكاتب الواقدى .

١٠٢ — الطبقات الكبرى في ثمانية أجزاء

بتعليقات د / عونى عبدالرءوف ط: التحرير بالقاهرة فى ١٣٨٨هـ= ١٩٦٨م

* المطرى :

جمال الدين : محمد بن أحمد المطرى .

١٠٣ — التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة .

تاريخ تأليف هذا الكتاب هو ٦٠٩ هـ .

* ابو الفداء :

عماد الدين اسماعيل : المتوفى فى ٧٣٢ هـ .

١٠٤ — المختصر فى أخبار البشر ط: الحسينية بالقاهرة .

* المقدسى :

١٠٥ — البدء والتاريخ فى ستة أجزاء .

وينسبه بعض الباحثين الى أبى زيد البلخى .

ويحوى هذا الكتاب كثيرا من أخبار الفرق وكثيرا من تاريخ الحياة العقلية فى الإسلام . وقد انتفع به الدكتور / أحمد أمين فى كتابه "ظهر الاسلام" وكان عمدة المستشرق آدم متز فى كتابه " الحضارة الإسلامية "

وكل جزء من أجزاء الكتاب فى الطبعة التى رأيتها مترجم الى الفرنسية ويحتاج هذا الكتاب الى مزيد عناية وتحقيق ، لأن الطبعة التى رأيتها هى من إخراج أحد المستشرقين .

* المقريـــــزى :

أبو العباس : أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم بن تميم المقريزى وكلمة المقريزى هى نسبة لحارة ببعلبك تعرف بحارة المقارزة وفيها كان أجداده ويرجح أن مولده كان فى ٧٦٠ هـ بالقاهرة وتوفى فى ٨٤٥ هـ .

١٠٦ — النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم بتصحيح محمود عرنوس

ط : مكتبة الاهرام القاهرة .

ح — كتب حول التأويـــلات العلمية والعلوم الحديثـة

* ابن أبى أصيبعة :

أبو العباس : أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى المعروف بابن أبى اصيبعة .

١٠٧ — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء بتحقيق د / نزار رضا .

ط : مكتبة الحياة ببيروت فى ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م

* اسماعيـــــل :

د / عبد العزيز اسماعيل : طبيب معروف لأهل الجيل الماضى فى مصر .

١٠٨ — الإسلام والطب الحديث : الطبعة الثالثة بالقاهرة ١٩٥٩م .

* الجاحـــــظ :

أبو عثمان : عمرو بن بحر الجاحظ .. الأديب المنزلى الموسوعى توفى بالبطرة فى المحرم سنة ٢٥٥ هـ = ديسمبر من سنة ٨٦٨ م بعد أن لزمه مرض النالج زمنـــــــا .

١٠٩ — الحيوان موسوعة علمية عن الحيوانات فى صياغة أدبية فى سبعة أجزاء نشرها محققة مفهرسة الأستاذ / عبد السلام محمد هـــــارون

ط : الحلبى بالقاهرة .

* الجنـــــدى :

أنور الجندى كاتب اسلامى معاصـــــر .

١١٠ ــ محمد قريد وجدى : رائد التوفيق بين العلم والدين .

ط : الهيئة المصرية للكتاب فى ١٩٧٤ م .

* خـــــان :

وحيد الدين خان ... كاتب إسلامى معاصر من الهند يرأس تحرير مجلة الجمعية الأسبوعية، بعض آرائه عميق ، وبعضها الآخر كرأيه فى الجهاد يجـــب أن يقوم بميزان الكتاب الكريم والسنة المطهرة .

١١١ ــ الاسلام يتحدى ترجمة إلى العربيه واده : ظفر الاسلام خان .

ط : المختار الاسلامى بالقاهرة فى ١٩٧٣م.

* ابن خلـــــدون :

ابو زيد : عبدالرحمن بن خلدون ، ولد سنة ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢م وتوفى فى رمضان فى سنة ٨٠٨ هـ = مارس من سنة ١٤٠٦ م

١١٢ ــ المقدمة " المعروفة بمقدمة ابن خلدون " ط: المثنى ببغداد " مصورة "

وسميت بالمقدمة لأنه كتبها مقدمة لكتابه :

" العـــبر وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر " والكتاب كله مطبوع بالبولاقية فى سبعة مجلدات.

* زكـــــى :

د / أحمد زكى بدير جامعة القاهرة الأسبق ورئيس تحرير مجلة العربى سابقا توفى ١٩٧٦م .

١١٣ ــ مع الله فى السمـــــاء .

ط : الهلال القاهرة فى رمضان ١٣٧٥ هـ = مايو ١٩٥٦ م.

* عرجـــــون :

محمد الصادق عرجون العميد الأسبق لكلية أصول الدين .

١١٤ — نحو منهج لتفسير القرآن الكريم .

كتيب صغير الحجم انصرفت أكثر صفحاته إلى مناقشة التفسير العلمي ، ومناقشة الشيخ محمد عبده في بعض آرائه ويجد القارئ للكتاب أن عنوانه أوسع من محتوياته ، ولعله من عمل الناشر .

ط : العصر الحديث بلبنان في ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م .

* عـــــزت :

" المشير " أحمد عزت " قائد تركي سابق "

١١٥ — الدين والعلم .. ترجمه إلى العربية : حمزه طاهر .. وراجعه د / عبدالوهاب عزام ط: لجنة التأليف والنشر بالقاهرة في ١٣٦٧هـ= ١٩٤٨م .

* الغزالـــــى :

أبو حامد محمد الغزالي . سبق التعريف به .

١١٦ — جواهر القـــرآن .

طبعة الجندي بالقاهرة .

وقد تعرض فيه لصلة الإسلام بالعلوم .

* الغزالـــــى :

محمد الغزالي السقـــــا .

١١٧ — نظرات في القرآن الكريـــم .

الطبعة الثالثة من دار الكتب الحديثة في ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٢م

* الغمـــــراوى :

د / محمد أحمـــد .. كان رحمه الله أستاذا للكيمياء في كلية الصيدلة بجامعة القاهرة .. وكان يدرس مادة " آيات الله الكونية " بشعبة الدعوة في قسم الدراسات العليا بكلية أصول الدين بالقاهرة .

١١٨ — بين الدين والعلم : سلسلة الثقافة الإسلامية ١٣٧٩ هـ = ١٩٥٩ م .

* فانفـــربوش :

كاتـــب غربى معاصـــــر .

١١٩ ـ ليس بالعلم وحـــده ـ ترجمة لجنة من الجامعيين .

ط : دار الآفاق ببيروت .

* الفـندى :

محمد جمال الدين .. أستاذ للفلك بجامعة القاهرة .

١٢٠ ـ اللـــه والكـــون .

ط : الهيئة المصرية للعامة للكتاب ، ١٩٧٦م .

* مختـــار :

أحمد مختـــار " قائد تركـــى "

١٢١ ـ سرائر القرآن فى تكوين وإعادة الأكوان : ألفه بالتركية وترجمه إلى العربية الشيخ محب الدين الخطيب قدم له الأمير : شكيب أرسلان .

* نوفـــل :

عبد الرزاق نوفل ..... كاتب معاصـــر .

١٢٢ ـ الله والعلم الحديث ط: مكتبة مصر رمضان ١٣٧٦هـ = أبريل ١٩٥٧

* وجـــدى :

محمد فريد وجـــدى : سبق التعريف به

١٢٣ ـ الإسلام فى عصر العلم ط: الترقى فى ١٣٢٠ هـ = ١٩٠٣ م .

* الزبيـــــدى :

محمد مرتضـــى ٠٠٠٠٠

توفى مطعونا فى شعبان ١٢٠٥ هـ عن ستين سنة ودفن بالقاهرة وذكره الجبرتى فى تاريخـــــه ٠

١٢٨ ــ تاج العروس من جواهر القاموس ٠

"وهو شرح للقاموس المحيط للفيروز آبادى " ط: بيروت ٠

* الزمخشـــــرى :

محمود بن عمر وسبق التعريف به ٠

١٢٩ ــ الفائق فى غريب الحديث والأثر فى ثلاثة أجزاء ٠

حققه : الأستاذان : على محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم

الطبعة الأولى فى ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨ م عن دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة

١٣٠ ــ أساس البلاغة فى مجلد واحد ط: الشعب بالقاهرة ٠

* عبد الباقـــــى :

محمد فؤاد عبد الباقى من علماء الحديث الشريف ، ومن خيار محققى كتب السنة الصبوية ، وناشرى علومها ، وله فى ذلك قدم صدق ، توفى رحمه الله فى سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م ٠

١٣١ ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ط: الشعب ١٩٥٧م ٠

١٣٢ ــ معجم غريب القرآن الكريم : المستخرج من صحيح البخارى استخرجه الأستاذ عبد الباقى وطبع بمقدمة للدكتور محمد حسين هيكل وزير المعارف الأسبق وعضو مجمع اللغة العربية حينئذ ٠

* العطـــــار :

أحمد عبد الغفور كاتب سعودى معاصر ٠

١٣٣ ــ مقدمة لصحاح الجوهرى ط : الكتاب العربى بالقاهرة ، فى كتاب مفرد وقد كتب الأستاذ عباس محمود العقاد مقدمة لهذه المقدمة ٠

* ابـــن فارس :

أبو الحسين : أحمد بن فارس بن زكريا توفى ٣٩٥هـ .

١٣٤ — معجم مقاييس اللغة ٦ أجزاء

ط : الحلبى ، القاهرة ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م .

* الفيروز آبادى :

" مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى " الشيرازى ولد بكارزين بفارس فى ٧٢٩ هـ وتوفى بزبيد فى اليمن سنة ٨١٧ هـ عن عمر يناهز التسعين .

١٣٥ — القاموس المحيط

ط : الحلبى — القاهرة — ١٣٧١هـ = ١٩٥٢ م

* الفيومـــى :

أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ

١٣٦ — المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير

بتصحيح الشيخ حمزة فتح الله . ط: الأميرية بالقاهرة ١٩٠٩ م .

* ابن منظـــور :

جمال الدين : محمد بن مكرم بن على : الأنصارى المصرى ولد فى ٦٣٠هـ وتوفى فى ٧١١ هـ عن ٨١ عاما .

١٣٧ — لسان العرب ٢٠ جزءا مع جزءين للفهارس .

سلسلة تراثنا : ط : الدار المصرية للتأليف مصورة عن ط : بولاق .

* مجمع اللغة العربية بالقاهرة (لجنة من أعضائه)

١٣٨ — معجم ألفاظ القرآن الكريم فى مجلدين .

الهيئة المصرية للكتاب . القاهرة .

ى ـ كتب فى اللغة والنحـــــــو

* أمـــــــين :

محمد شوقى أمين • عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة •

١٣٩ ـ فى أصول اللـــغة " الجزء الثانى "

ويحتوى على " قرارات المجمع فى الدورات من الخامسة والثلاثين إلى الحادية والأربعين "

أخرجها وعلق عليها :

محمد شوقى أمين ، ومصطفى حجازى •

ط : الأميرية بالقاهرة فى ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥ م

* ابن جـــــنى :

أبو الفتح : عثمان بن جنى • المتوفى سنة ٣٩٢ هـ

١٤٠ ـ خصائص اللغة العربية فى ثلاثة أجزاء

بتحقيق الشيخ محمد على النجار

الطبعة الثانية ببيروت •

* خلف الله :

محمد خلف الله أحمد • أستاذ جامعى معاصر كان عميدا لكلية الآداب بجامعة الإسكنـــدريـــة •

١٤١ ـ فى أصول اللغة " الجزء الأول "

" مجموعة القرارات التى أصدرها المجمع من الدورة التاسعة والعشرين إلـــى الدورة الرابعة والثلاثين فى أقيسة اللغة وأوضاعها العامة "

أخرجها وضبطها وعلق عليها الأستاذان :

محمد خلف الله أحمد ، ومحمد شوقى أمين •

* ابن دريـــــد :

أبو بكر : محمد بن الحسن بن دريد الأزدى ، ولد فى البصرة سنة ٢٢٣هـ ، وأخذ النحو عن كبار النحاة فى عصره ••• وتوفى ببغداد سنة ٣٢١ هـ •

١٤٢ ـ الاشتقاق طبع فى القاهرة بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون •

* رضـــــــوان :

د / محمد مصطفى ... أستاذ معاصر بدار العلوم بالقاهرة .

١٤٣ ـ العلامة اللغوى : ابن فارس الرازى .

ط: المعارف بالقاهرة فى ١٩٧١ ـ

وتاريخ تأليف الكتاب هو رمضان ١٣٧٨هـ = أبريل ١٩٥٩ م .

* السيوطـــــى :

سبق التعريف بـــــــــه .

١٤٤ ـ المزهر فى علوم اللغة وأنواعها فى جزءين

طبعة المكتبة الأزهرية فى سنة ١٣٢٥ هـ

* ابن عقيـــــــل :

بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلى الهمدانى المصرى ولد فى سنة ٦٩٨هـ وتوفى فى ٧٦٩ هـ .

١٤٥ ـ شرح ابن عقيل على ألفية أبى عبدالله محمد جمال الدين بن مالك المولود فى ٦٠٠ هـ والمتوفى فى ٦٧٢ هـ فى جزءين

بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد ط: التجارية بالقاهرة فى ١٣٧٠ = ١٩٥١ م

* ابن فارس :

أحمد بن زكريا .. سبق التعريف بـــــــه .

١٤٦ ـ الصاحبى فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها

(وسر تسمية هذا الكتاب بالصاحبى أن ابن فارس لما ألفه أودعه خزانة الصاحب بن عباد)

طبع بالقاهرة فى ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م ، وقد نشرته المكتبة السلفية عن نسخة الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى ، وعليها تعليقاته .

* المبـــــارك :

محمد محمد المبارك أستاذ سورى جامعى معاصر

١٤٧ ـ عبقرية اللغة العربية • (كتيب)

ط : الفكر دمشق •

ك ـ كتب فـــى البلاغة والأدب

* الخضـــر حسين :

(الشيخ) محمد الخضر حسين •• شيخ الأزهر الأسبق، ولد بنفطة فى تونس عام ١٨٧٤م ورحل إلى مصر وتولى بها بعض المناصب العلمية وكان يصدر مجلة الهداية الإسلامية توفى رحمة الله سنة ١٩٥٨م •

١٤٨ ـ بلاغة القرآن • وهذا الكتاب نشر بعد وفاته رحمة الله • والعنوان من وضع الناشر • (انظر الرسالة ص٢٥٤)

* العقـــــاد :

سبق التعريف به •

١٤٩ ـ ساعات بين الكتب ط: النهضة المصرية الطبعة الثالثة فى ١٩٥٠ م

١٥٠ ـ ردود وحدود مجموعة مقالات ط: بيروت •

* العلـــــوى :

يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوى اليمنى •

١٥١ ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز

فى ثلاثة أجزاء مصورة بيروت عن طبعة القاهرة •

* القلقشندى :

أبو العباس : محمد بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل القلقشندى المصرى وسمى بالقلقشندى نسبة إلى قرية يقال لها قَلْقَشْنْدَة " بفتح القافين والشين وسكون اللام والنون وفتح الدال " وهى قرية من مركز طوخ بمحافظة القليوبية بمصر ولد سنة ٧٥٦هـ وتوفى ٨٢١هـ وقد ناهز الخامسة والستين من عمره

١٥٢ ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشا سلسلة تراثنا ط: التأليف والترجمة بالقاهرة
مصورة عن طبعة دار الكتب وقد رجعنا إلى الجزء ١١ منه .

* المـــــبرد :

أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ
١٥٣ ـ الكامل فى ثلاثة أجـــــزاء
طبعة : الأزهرية ، والفتوح الأدبية فى ١٣٣٩ هـ .

* ياقـــوت :

أبو عبدالله: ياقوت بن عبدالله : رومى الجنس ، حموى المولد ، بغدادى الدار ولد : ٥٧٤ هـ ، وتوفى ٦٢٦ هـ بحلب .
١٥٤ ـ ارشاد الأريب الى معرفة الأديب فى ٢٠ جزءا
ط : دار المأمون بالقاهرة بتحقيق د / أحمد فريد رفاعى وآخرين .

ل ـ كتب إسلاميـــــة عامـــــة

* الأفغانـــــى :

جمال الدين الأفغانى الأســـــد آبادى
١٥٥ ـ خاطرات جمال الدين جمع : محمد المخزومى بيروت فى ١٩٣١ م
وأعيد نشره بالأعمال الكاملة للأفغانى جمع : محمد عمارة ط: دار الكاتب العربى بالقاهرة .

* أمـــــين :

د / أحمد أمين ، أديب معروف وكان أستاذًا بكلية الآداب بجامعة القاهرة
١٥٦ ـ فجـــــر الأســـــلام
ط : الكتـــاب العربى : ببيروت .

* الجنـــــدى :

أنور الجندى : كاتب اسلامى معاصر .

١٥٧ ـ سقوط العلمانية ط: الكتاب اللبنانى ـ بيروت أنظر الرسالة ص ٣٨٣

* عائشة عبد الرحمن : (سبق التعريف)

١٥٨ ـ الشخصية الإسلامية دراسة قرآنية أنظر الرسالة ص ٣٨١

* العقـــــاد :

عباس محمود العقاد ، الأديب العربى الكبير

١٥٩ ـ حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ـ ط: المؤتمر الإسلامى بالقاهرة فى ١٩٥٧م

١٦٠ ـ الإسلام دعوة عالمية ط: الهلال بالقاهرة .

* الغزالـــــى :

"أبو حامد" سبق التعريف به

١٦١ ـ أحياء علوم الدين فى أربعة أجزاء

ط : عيسى الحلبى بالقاهرة مع مقدمة للدكتور بدوى طبانة ، فى ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م

* الغزالـــــى :

"الشيخ" محمد الغزالى السقا "الكاتب الإسلامى المعاصر

١٦٢ ـ الاستعمار أحقاد وأطماع انظر الرسالة ص ٣٨٢ الدار السعودية للنشر بجدة .

* ابن قيم الجوزية : "سبـــــق"

١٦٣ ـ بدائع الفوائد ٤ اجزاء ط : المنيرية با قاهرة .

* الكواكـــبى :

عبد الرحمن الكواكبى ، مصلح اجتماعى

١٦٤ ـ طبائع الاستبداد ومصارع الإستعباد ط: الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة .

* المراغـــــى :

" الشيخ " محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر الأسبق

١٦٥ ـ حديث رمضان ط: دار الهلال بالقاهرة

" وهو مجموع لبعض الدروس الدينية التى كان الشيخ رحمه الله يلقيها على محبيه "

م ـ كتب فى علم الـــكلام والفلسفـــة

* الأهـــــــوانى :

د / أحمد فؤاد الأهوانى • الأستاذ السابق بكلية الأداب بجامعة القاهرة

١٦٦ ـ الكندى فيلسوف العرب •

العدد ٢٦ من سلسلة أعلام العرب التى كانت تصدر بالقاهرة•

* بلـــــــدى :

د / نجيب ••• مدرس بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية •

١٦٧ ـ تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها ط: المعارف بالقاهرة ١٩٦٢م

* دنيـــــــا :

د / سليمان دنيا : الأستاذ بكلية أصول الدين بالقاهرة •

١٦٨ ـ التفكير الفلسفى فى الإسلام •

ط: الخانجى بالقاهرة الطبعة الأولى فى ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م

* الرازى : سبق التعريف به

١٦٩ ـ أساس التقديس فى علم الكلام ط: الحلبى بالقاهرة فى ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م

وقد أورد صاحب كشف الظنون هذا الكتاب باسم تأسيس التقديس•

* ابن رشـــــد :

أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد ، ويعرف بابن رشد الحفيد ، ولد بقرطبة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م ، وتوفى بمراكش ٥٩٥ هـ .

١٧٠ — فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال

ط : المعارف المحققة بالقاهرة وطبعة بيروت .

* موســـــى :

د . محمد يوسف ... درس فى الأزهر وفى إحدى جامعات فرنسا ثم عاد إلى مصر ودرس الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق والفلسفة بجامعة الأزهر .

١٧١ — بين الدين والفلسفة فى رأى ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط ط: المعارف بالقاهرة ١٩٦٨م .

* النشـــــار :

د / على سامى .. أستاذ كرسى الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

١٧٢ — نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام . ٣ أجزاء

الطبعة السابعة : ط: المعارف بالقاهرة فى ١٩٧٧ م ، وقد زاد المؤلف هذه الطبعة الجزء الثالث .

ن — كتب مقارنة الأديان والفرق

* بـــدران :

د / محمد بن فتح الله بدران . من أساتذة كلية أصول الدين بالقاهرة رحمه الله .

١٧٣ — المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ط: مخيمر بالقاهرة .

* بـــــدوى :

د / عبد الرحمن .. أستاذ سابق للفلسفة بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

١٧٤ — مذاهب الإسلاميين فى جزءين ط : دار العلم للملايين ببيروت

* براناتيـــس :

القس : اى . بى . براناتيس .

١٧٥ ــ فضح التلمود صدر عن سلسلة اليهود والعالم ترجمة زهدى الفاتح .

* البغدادى :

عبدالقاهر بن طاهر البغدادى المتوفى ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م

١٧٦ ــ الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منها

بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد ط: صبيح بالقاهرة

* ابن حـــــزم :

أبو محمد : على بن سعيد بن حزم من كبار فقهاء الأندلس . ولد بقرطبة فى سنة ٣٨٤ هـ وتوفى فى ٤٥٦ هـ (انظر داخل الرسالة ص ٢٠٢)

١٧٧ ــ الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل مصورة بغداد فى خمسة أجزاء عن طبعة القاهرة فى ١٣١٧ هـ .

١٧٨ ــ التقريب لحد المنطق والمدخل إليه .

* سلهـــــب :

نصرى سلهب : كاتب لبنانى مسيحى معاصر فى بعض كتبه إنصافٌ للحق ، وشهادة على قومه بالتعصب .

١٧٩ ــ لقاء المسيحية والإسلام ط: الكتاب اللبنانى : بيروت .

* الشهرستانـــى :

أبو الفتح : محمد بن عبدالكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستانى ولد فى ٤٧٩ هـ وتوفى فى ٥٤٨ هـ ، والشهرستانى نسبة الى شهرستان : بلدة إلى الشمال من خراسان ببلاد فارس .

١٨٠ ــ الملل والنحل فى جزءين

بتحقيق : محمد سيد كيلانى ط: الحلبى فى ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧م

١٨١ — العهد الجديد " للنصارى " عدد أسفاره سبعة وعشرون سفرا
ومنها الأناجيل الأربعة التى كتبها : متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا
ط : دار الكتاب المقدس بالقاهرة ....
وهذه الأسفار ليست هى الانجيل الذى أنزله الله سبحانه على عبده عيسى بن مريم عليه السلام وتلك حقيقة يعترف بها النصارى أنفسهم .

١٨٢ — العهد القديم " لليهود " عدد أسفاره تسعة وثلاثون ، وإصحاحاته ٩٢٩ اصحاحا .
مترجم إلى العربية عن العبرانية والكلدانية واليونانية ط : الكتاب المقدس بالقاهرة وهذه الأسفار ليست هى التوارة التى أنزلها العلى العظيم على كليمه موسى عليه السلام .

* الغزالـــــى : أبو حامد (سبق التعريف به)

١٨٣ — فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .
بتحقيق الدكتور : سليمان دنيا الأستاذ بكلية أصول الدين .
ط : دار إحياء الكتب العربية فى ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م .

١٨٤ — قانون التأويل " طبع ملحقا بكتاب : معارج القدس فى مدارج علم النفس "
ط : الجندى بالقاهرة .

س — الموســـوعات العامـــة

* البستـــانـــى :

بطرس البستانى .

١٨٥ — دائرة معارف البستانى " رجعنا إلى الجزء السادس منها " مطبوعاتى إسماعيليان : طهران .

* خليفة :

حاجى خليفة " مصطفى بن عبد الله ... وحساجى أى " الحاج " بالفارسية

١٨٦ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون — طبع بالقاهرة ١٣٦٢هـ وقد اعتمدنا طبعة المثنى ببغداد وهى مصورة عن طبعة القاهرة .

١٨٧ — دائرة المعارف العربية الميسرة "(انظر الرسالة ص ١٥٢)
بعض هذه الدائرة مترجم عن دائرة معارف كولومبيا ، وبعضها من تأليف بعض الاساتذة العرب نشر الدار القومية بالقاهرة بالإشتراك مع فرانكلين .

ع — كتب إلحادية لتبديد ظلماتها

* أدونيس : على أحمد سعيد كاتب لبنانى معاصر من دعاة التغريب والفينيقية
١٨٨ — الثابت والمتحول : رسالة فى الاتباع والإبداع عند العرب وهذا الكتاب هو الأطروحة التى تقدم بها لنيل " الدكتوراه " من الجامعة الأمريكية ببيروت تحت إشراف أحد القساوسة .
الجزء الأول ط: دار العودة ببيروت ١٩٧٤ .
وانظر الرسالة ص ٢١٠ .

* صادق جلال العظم " مدرس من دعاة الالحاد بجامعة بيروت "
١٨٩ — نقد الفكر الدينى الرسالة ص ٣٨٠

* عاطف أحمد : " كاتب شيوعى " أنظر الرسالة ص ٣٨٠
١٩٠ — نقد الفهم العصرى للقرآن دار الطليعة " الشيوعية " ببيروت .

* لوسيان كليمو فيتش : كاتب شيوعى من روسيـــا .
١٩١ — الإسلام : نشأته ومستقبله
تُرجم إلى الفرنسية ثم ترجمه إلى العربية د / إحسان حقى ، وقدم له بما يفضح المخططات الشيوعية . (انظر التفاصيل داخل الرسالة ص ٣٧٨) ط : بيروت .

ف — المجـــــلات

١٩٢ — مجلة : رابطة العالم الإسلامى .
العدد الصادر فى ذى القعدة ١٣٩٨هـ .

١٩٣ — مجلة : الرسالـــــة .
العدد الصادر فى العاشر من يناير ١٩٤٣ م .

١٩٤ — مجلة لواء الإســـــلام .
العدد الصادر فى جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ = مارس ١٩٤٩ م

١٩٥ — مجلة : مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
العدد الصادر فى صفر ١٣٩٢ هـ = مارس ١٩٧٢ م
وفى هذا العدد مقال بعنوان : " الطير الأبابيل فى واقعة الفيل " للشيخ الدكتور عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر الأسبق . ولم نقرأ هذا المقال إلا بعـــد الفراغ من مناقشة رأى الشيخ محمـد عبده فى واقعة الطير الأبابيل . لكن أمانة المنهج استحسنت هذا التنويه .

١٩٦ — مجلة : الهداية الإسلامية
رجعنا إلى العددين الصادرين فى جمادى الأولى والآخرة ١٣٦٥ هـ

مستدرك المراجع

هناك كتب رجعنا إليها لماما ،وهى فى فنون متنوعة ، رأينا أن نثبتها فى هذا الثبت بإيجاز وهى كما يلى :

١ — تنوير المقباس من تفسير ابن عباس .
جمعه الفيروز آبادى صاحب القاموس ، ونشر بالقاهرة .

٢ — التسهيل لعلوم التنزيل فى أربعة أجزاء
لمحمد بن أحمد جزى الكلبى ، ط: التجارية بالقاهرة

٣ — تفسير سورة الرحمن وسور قصار
تأليف د / شوقى ضيف . ط: دار المعارف بالقاهرة .

٤ — التفسير الكاشف ،وهو تفسير شيعى ، ٣٠ جزءا فى سبعة مجلدات للقاضى الشيعى محمد جواد مغنية ، وطبع فى بيروت .

٥ — المدخل إلى دراسة القرآن الكريم ط: الأزهر بالقاهرة
تأليف د / محمد محمد أبو شهبة الأستاذ السابق بكلية أصول الدين .

٦ — أسد الغابة فى معرفة الصحابة ط: الشعب بالقاهرة .
لعز الدين بن الاثير أبى الحسن : على بن محمد الجزرى المتوفى ٦٣٠هـ

٧ — الاستيعاب فى أسماء الأصحاب .
لأبى عمر بن عبد البر الذى سبق تعريفه .

٨ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .
لابن العماد الحنبلى .....

* * *

وهناك كتب أشارت الرسالة إليها ولم تنقل عنها فرأينا الاكتفاء بسابق ذكرها فى هوامش الرسالة .

الفهرست المفصل
لأسفار الرسالة ونجومها

نور من القرآن حول موضوعنا ..... ص ج

كتائن الرسالة "المحتويات ..... ص د

فصل من قصة هذه الرسالة ..... ص هـ

توطئة القول ..... من ص ١ـ١٤

صوى المنهج ..... من ص ١٥ ـ ١٨

حول تقسيم هذه الرسالة ..... من ص ١٩ ـ ٢٠

فواتح البحث
أضواء على العنوان

من ص ٢١ إلى ص ٤٣

المحتويات

النص في معاجم اللغة ص٢١

النص عند الأصوليين والفقهاء ص٢٢

تعريف القرآن الكريم ص٢٣

التعريف اللغوي للقرآن وآراء العلماء فيه ص٢٣

الرأي الأثير ص٢٦

القرآن الكريم وتعريفاته الاصطلاحية عند العلماء ..... ص ٢٦

تعريف القرآن عند المتكلمين ..... ص ٢٧

تعريف القرآن الكريم عند الفقهاء والمفسرين ..... ص ٢٧

التفسير بين اللغة والاصطلاح ..... ص ٢٨

التفسير في اللغة ..... ص ٢٩

التفسير في الاصطلاح الشرعي ..... ص ٣٠

موضوع علم التفسير ..... ص ٣٣

كلمة التفسير في القرآن ..... ص ٣٤

التفسير عند البهيين ..... ص ٣٤
بين التفسير والتأويل هل من فروق ..... ص ٣٥
التفسير .. أهميته .. وشرف منزلته ..... ص ٣٧
التفسير والتدبر ..... ص ٣٧
درجة المتدبرين والمفسرين كما بينها الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٣٨
أهمية التفسير ..... ص ٤٠
حرص السلف على طلب التفسير ..... ص ٤٢
خاتمة المطاف ..... ص ٤٣

السفر الأول

النص القرآني والتفسير

من ص ٤٤ الى ص ١٤٣

النجم الأول

فقه اللغة وفقه التفسير

من ص ٤٤ — ٨٢

منهجنا في فهم لغة القرآن ..... ص ٤٥
تحديد أصل الوضع اللغوي للكلمة والتفرقة بينه وبين الاستعمالات الحادثة والاصطلاحات المذهبية ..... ص ٤٥
التفرقة بين أصل الوضع اللغوي وبين الحقائق الشرعية للألفاظ .. ص ٤٦
تتبع استعمالات اللفظة في مواضع ورودها في القرآن الكريم ... ص ٤٩
مراعاة معنى اللفظة من خلال السياقات الواردة فيها ..... ص ٥١
معرفة الفروق بين الألفاظ المتقاربة ..... ص ٥٢
قضية الترادف ..... ص ٥٣
اللفظة القرآنية بين الأصول والأرحام اللغوية ..... ص ٥٥
طموح بعض الباحثين المعاصرين إلى هذا المنهج ..... ص ٥٧
رأي الدكتور هيكل ..... ص ٥٧

رأى الشيخ أمين الخولـــــى ..... ص ٥٨
رأى د. عائشة عبدالرحمـــن ..... ص ٦٠
محاولة تطبيق هذا المنهج حديثا ..... ص ٦٠
بذور هذه الفكـــرة ..... ص ٦١
أصول اللغة عند ابن فارس ..... ص ٦٢
مثال تطبيقى من عند ابن فارس ..... ص ٦٣
ومثال من عند الراغب ..... ص ٦٤
تطبيق نظرية الأرحام اللغوية على بعض الكلمات القرآنية ..
كلمة "الأب" أصلها واستعمالها ..... ص ٦٥
أرحام لكلمة الأب ..... ص ٦٦
الأم ..... ص ٦٧
الأولـــ ..... ص ٦٩
الضـــــلال ..... ص ٦٩
الفســـــر ..... ص ٧١
الفصـــــل ..... ص ٧١
الفلـــــق ..... ص ٧٢
نبـــــذ ..... ص ٧٣
الهـــــدى ..... ص ٧٤
الأرحام اللغوية وإيحاءات الحـــرف ..... ص ٧٦
القرآن مصدر للنحاة والنحو آلـة للمفسريـــن ..... ص ٧٧

النجم الثانى

التكامل الموضوعى

فى القرآن الموضوعى

من ص ٨٣ الى ص ٩٧

المحتويات

ما هو يوم الدين ؟ ..... ص ٨٤

إخلاص العبادة للواحد الأحد ، والكفر بالطواغيت ..... ص ٨٤

لمن تكون هداية القرآن ؟ ..... ص ٨٥

ماهية حجارة النار ..... ص ٨٥

عبادة المجل فى بنى اسرائيل ..... ص ٨٦

كل شئ خلق بقدر واحكام ..... ص ٨٧

مضاعفة أوزار المضلين والفاتنين ..... ص ٨٧

المسئولية الشخصية ..... ص ٨٨

تفاوت مراتب الناس تبعا لتفاوت أعمالهم ..... ص ٨٨

تاريخ بناء المسجد الحرام ..... ص ٨٩

مضاعفة ثواب المنفق فى سبيل الله ..... ص ٨٩

تعليم الله سبحانه لداود بعض الصناعات ..... ص ٨٩

درجات الأنبياء ..... ص ٩٠

التكامل الموضوعى والتطور التشريعى ..... ص ٩١

مراحل تحريم الربا ..... ص ٩١

مراحل تحريم الخمر : ..... ص ٩٥

أ ـ الطريقة الإعتقادية ..... ص ٩٦

ب ـ الطريقة التربوية النفسية ..... ص ٩٦

جـ ـ الطريقة الإجتماعية ..... ص ٩٦

د ـ الطريقة التشريعية ..... ص ٩٦

النجم الثالث

العلم بأسباب النزول

من ص ٩٨ الى ص ١١٣

المحتويات

سبب النزول وأهميته ..... ص ٩٩

ثمرات هذا العلم ..... ص ٩٩

بين عموم اللفظ وخصوص السبب ..... ص ١٠٠

خلاف فى آية بين عموم اللفظ وخصوص السبب ..... ص ١٠٢

آراء بعض العلماء فى هذا الخلاف ..... ص ١٠٣

سبب النزول معاصرة ورواية ..... ص ١٠٣

هل تتعدد أسباب النزول ..... ص ١٠٣

نتيجة الخلاف بين القائلين بعموم اللفظ والقائلين بخصوص السبب ص ١٠٤

سبب النزول بين الرواية والاستنباط ..... ص ١٠٤

ضرب بعض الأمثلة الشارحة ..... ص ١٠٥

دلالة سبب النزول ..... ص ١٠٨

محصلة القول ..... ص ١١١

النجم الرابع

الأصحاب ونهجهم فى التفسير

من ص ١١٤ إلى ص ١٤٣

المحتويات

الاستقصاء العلمى عند الأصحاب ..... ص ١١٨

التخصصات العلمية والمواهب النفسية لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ص ١١٨

تفاوت الأصحاب فى حفظ القرآن فى صدورهم ..... ص ١٢٠

درجات الأصحاب فى فهم القرآن متفاوتة وأسباب ذلك ..... ص ١٢٤
١ — تفاوت الأفهام ..... ص ١٢٤
٢ — لا يستوون بالعربية علما ..... ص ١٢٦
٣ — الاختلاف فى معرفة المعنى المركب ..... ص ١٣٠
قد يتأول صحابى آية على غير وجهها ..... ص ١٣١
اختلاف الأصحاب فى الفتيا ..... ص ١٣٢
اختلاف استنباطهم من الآية الواحدة ..... ص ١٣٣
سؤالهم بعضهم بعضا حول بعض مبهمات القرآن ..... ص ١٣٤
ويتفاضلون فى التفسير ..... ص ١٣٤
على قدر علمهم كان عطاؤهم ..... ص ١٣٥
روايات الصحابة وحملات التشكيك ..... ص ١٣٧
توقير علماء الأمة لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ... ص ١٤١
من الأصحاب أساتذة وعلماء مدارس ..... ص ١٤٣

السفر الثانى
النص القرآنى بين أطوار التأويل وقضاياه
من ص ١٤٤ إلى ص ٢٧٦

النجم الأول
قضية التأويل عند اليهود والنصارى

المحتويات

التأويل عند اليهود ..... ص ١٤٤
ذكر القرآن لأنماط من ضلال تأويلاتهم العملية ..... ص ١٤٥
التحريف والتأويل ..... ص ١٤٦
تأويلات فيلون اليهودى ومدرسة الإسكندرية ..... ص ١٤٧

العوامل الحافزة لفيلون على التأويل ..... ص ١٤٨

صور من تأويلات فيلون ..... ص ١٤٩

قواعد التأويل عند فيلون ..... ص ١٥٠

تعصب فيلون للتأويل وتبرير موقفه ..... ص ١٥١

أقسام التأويل عند فيلون ..... ص ١٥١

قواعد التأويل عند ابن ميمون ..... ص ١٥٢

التأويل فى المسيحية ..... ص ١٥٣

مصادر اختلاف النصارى ..... ص ١٥٣

قواعد التأويل عند النصارى ..... ص ١٥٤

قوانين الكليانس ..... ص ١٥٤

التأويل عند أوريجانوس ..... ص ١٥٥

قواعد التأويل عند أوغسطينوس ..... ص ١٥٥

مارتن لوثر وقضية التأويل فى المسيحية ..... ص ١٥٥

التأويل فى سفر " نشيد الإنشاد " ..... ص ١٥٦

صور من هذا السفر تخدش الحياء وتؤذى الفضيلة ..... ص ١٥٦

فقرات من الإصحاحين الأول والثانى ..... ص ١٥٦

صور من الإصحاحات الثالث والرابع والخامس ..... ص ١٥٧

صور من الإصحاحات السادس والسابع والثامن ..... ص ١٥٨

بواعثنا لنقل هذه الفقرات ..... ص ١٥٨

ولكن ليس الحق كالباطل ..... ص ١٥٩

أمثلة أخرى من التأويلات فى الكتاب المقدس ..... ص ١٥٩

ظهور عقيدة الصلب والفداء فى هذه التأويلات ..... ص ١٦٠

صور من التأويلات فى انجيل يوحنا ..... ص ١٦١

صور من التأويلات فى سفر الرؤيا من العهد الجديد ..... ص ١٦٢

صور من التأويلات العملية عند النصارى ..... ص ١٦٣

النجـــم الثاقـــب

التأويـــل : معانيـــه وأطـــواره

من ص١٦٥ إلـى ص٢١٤

معنى كلمة التأويل لغـــة ص١٦٦

استعمال كلمة التأويل فى العصر العربى ص١٦٧

بين التنزيل والتأويل ص١٦٧

استعمالات لفظ التأويل فى القرآن الكريم ص١٦٨

آراء المفسرين حول استعمالات الكلمة فى القرآن الكريم ص١٧٠

ثمرة هذه الجولـة ص١٧٤

كلمة التأويل فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ص١٧٤

التحذير من تأويل الجاهلين ص١٧٥

التأويل فى واقعة بئر أريس ص١٧٥

انطلاق المقريزى من تأويل حديث البئر إلى تأويلات أخرى ص١٧٦

تأويل اللبن بالعلـــم ص١٧٨

تأويـل القميص بالديـــن ص١٧٨

تأويل أو يلبسكـــم شيعا ص١٧٨

التأويل فى عهد الصحابة والتابعين ص١٨٠

تأول أم المؤمنين عائشة وأمير المؤمنين عثمان رضى الله عنهما فى قصر الصلاة ص١٨٠

رأى عبد الله بن مسعود فى تأويل عثمان رضى الله عنهما ص١٨١

مناقشـة القرطبى للمسألـــة ص١٨٢

تأويل خاطىء لقوله تعالى : "لا يضركم من ضل إذا اهتديتم" ص١٨٣

تفسير ابن مسعود للآيـة السابقـة ص١٨٤

التأويل فى حديث جابر عن حجة النبى صلى الله عليه وسلم ص١٨٦

تأويل خاطىء حول السعى بين الصفا والمروة ص١٨٦

انحراف التأويل مع قطعية الدليل ص١٨٧
محركة التأويل فى صفين ص١٨٩
التأويل فى عهد التابعين رضوان الله عليهم ص١٩٠
من تأويلات مجاهد بن جبر المكى رضى الله عنه ص١٩١
التأويل فى المعنى الاصطلاحى ص١٩٣
تعريف ابن رشد والغزالى للتأويل الاصطلاحى ص١٩٤
رأى ابن تيمية فى معانى التأويل ص١٩٥
تعريف ابن القيم للتأويل ص١٩٦
الفرق بين التفسير والتأويل (تتمة حديث) ص١٩٧
التأويل والظاهر ص١٩٩
أبو بكر بن العربى والأخذ بالظاهر ص١٩٩
الصاوى شارح الجلالين والأخذ بالظاهر ص٢٠٠
رأى عبد الله الكرخى ص٢٠١
رأى أبى محمد على بن حزم فى الأخذ بالظاهر ص٢٠٢
رأى ابن تيمية فى الأخذ بالظاهر ص٢٠٢
تقسيم ابن تيمية الظاهر الى نوعين وسطه القول فى المسألة ص٢٠٣
شروط صرف الألفاظ عن ظواهرها عند ابن القيم ص٢٠٧
عوامل ظهور التأويلات ص٢٠٨
شروط التأويل الجائز ص٢٠٩
التأويل والعقل ص٢١٠

النجـــم الثالـــث

التأويـــل وصلتـــه بالمحكـــم والمتشـــابه

من ٢١٥ إلـــــى ص ٢٥٩

المحتويـــــات

لفظة "المحكم" واشتقاقاتها فى القرآن الكريم .. .. ص ٢١٥

الإحكام فى اللغة ..... ص ٢١٦

لفظة "التشابه" فى القرآن ..... ص ٢١٧

التشابه فى اللغـــة ..... ص ٢١٨

الإحكام العام فى القـــرآن ..... ص ٢١٨

التشابه العـــــام ..... ص ٢١٩

الصلة بين قوله سبحانه "متشابها" وبين "مثانى" ..... ص ٢٢٠

المحكمات هن أم الكتـــاب ..... ص ٢٢١

معنى الزيغ ..... ص ٢٢١

معنى الفتنة فى الآية الكريمة ..... ص ٢٢١

ابتغاء تأويلـــه ..... ص ٢٢٢

المحكم والمتشابه فى آراء العلمـاء ..... ص ٢٢٣

تعريفات تقوم على تخصيص العام ..... ص ٢٢٥

هل المتشابه مما استأثر الله بعلمه ..... ص ٢٢٨

أ — القائلون : بأن الراسخين يعلمون المتشابه وحججهم ص ٢٢٨

ب — القائلون بأن الراسخين لا يعلمون المتشابه وحججهم .... ص ٢٣١

تعقيـــب ..... ص ٢٣٤

المتشابه منه ما يعلم ومنه ما لا يعلم ..... ص ٢٣٥

سبب نـــزول الآيـــــة ..... ص ٢٣٧

رأى للشيخ محمد عبده فى المتشابه ..... ص ٢٣٨

لا تعارض بين إيمان الراسخين وعلمهم ..... ص ٢٣٩

علم التأويل غير علم المعنى ..... ص ٢٤١
منزلة التأويل العملى من الشريعة ..... ص ٢٤٣
لماذا ذكر الله المتشابه فى القرآن ؟ ..... ص ٢٤٣
رأى الفخر الرازى فى المسألة ..... ص ٢٤٤
مناقشة صاحب المنار للشيخ الرازى فى أرائه ..... ص ٢٤٤
موقفنا من المسألة ..... ص ٢٤٥
الرأى المختار فى علة وجود المتشابه ..... ص ٢٤٧
١ — سجود العقل البشرى ..... ص ٢٤٧
٢ — المعنى التعبدى ..... ص ٢٤٧
٣ . الغرض الإعجازى ..... ص ٢٤٧
٤ — الاجتهاد فى التدبر ..... ص ٢٤٧
طوائف الناس حيال المتشابه : ..... ص ٢٤٨
١ — أهل الإثبات والتنزيه ..... ص ٢٤٨
٢ — المفوضة ..... ص ٢٤٨
٣ — المجسمة ..... ص ٢٤٨
٤ — المؤولة ..... ص ٢٤٨
أنواع المتشابه عند بعض العلماء : ..... ص ٢٤٩
١ — المتشابه والمشتبه فى رأى ابن حزم ..... ص ٢٤٩
مسائل ليست من المتشابه عند ابن حزم ..... ص ٢٤٩
المتشابه فى رأى ابن حزم ..... ص ٢٥٠
القول بأن المتشابه هو ما اختلف فيه من أحكام القرآن .. ص ٢٥٠
القول بأن المتشابه هو ما تقابلت فيه الأدلة ..... ص ٢٥٠
٢ — الفخر الرازى ونظرته الى المتشابه وتقسيمه له ..... ص ٢٥٠
الاشتباه من جهة دلالة اللفظ ..... ص ٢٥١
أنواع المتشابه عند الرازى ..... ص ٢٥١

٣ــ رأى أبى اسحق الشاطبى ..... ص ٢٥١
٤ ــ أحمد بن تيمية ..... ص ٢٥٢
٥ ــ الراغب الأصفهانى ..... ص ٢٥٢
٦ ــ رأى الإباضية فى المتشابه ..... ص ٢٥٣
آراء بعض العلماء المعاصرين فى المتشابه ..... ص ٢٥٤
١ ــ الشيخ الخضر حسين ..... ص ٢٥٤
رأى الشيخ شلتوت رحمه الله فى معانى المتشابه .... ص ٢٥٥
بين المتشابه والمشتبه مرة أخرى ..... ص ٢٥٥
أثر من فكرة التقريب ..... ص ٢٥٥
قول مستملح للشيخ شلتوت حول آية آل عمران ..... ص ٢٥٧
عوامل بقاء الفُرقة والفرق ..... ص ٢٥٨
المتشابه وأنواعه فى رأى الشيخ عبدالوهاب خلاف ..... ص ٢٥٩

النجم الرابع

التأويل بين منهجين متقابلين

من ص ٢٦٠ إلى ص ٢٧٧

موقف الإمام أحمد بن حنبل من قضية التأويل ..... ص ٢٦٠
الكلام على هذه الأحاديث التى نسب إليه تأويلها ..... ص ٢٦١
موقف ابن القيم من قضية التأويل ..... ص ٢٦٥
أقسام التأويل عند ابن القيم ..... ص ٢٦٥
أصحاب التأويل وأصحاب التخييل ..... ص ٢٦٥
أصحاب التجهيل وأصحاب التشبيه والتمثيل وأصحاب سواء السبيل ص ٢٦٦
التأويل وجنايته على الإسلام فى نونية ابن القيم ..... ص ٢٦٧

التأويل والفلسفة ..... ص ٢٧١
التأويل الفلسفى ظاهرة تاريخية ..... ص ٢٧٢
كيف تسللت الفلسفة إلى المجتمع الإسلامى ..... ص ٢٧٣
الفترات التى مرت بها العلائق بين الفلسفة وأفكار المسلمين ... ص ٢٧٤
الفرق الإسلامية ومدى تأثرها بالفلسفة الإغريقية ..... ص ٢٧٤
من أوزار الفلسفة ..... ص ٢٧٥
فتنة القول بخلق القرآن ..... ص ٢٧٦

السفر الثالث

النص القرآنى : وصور من التأويلات

من ص ٢٧٨ إلى ص ٤٩٦

النجم الأول

تأويل المعجزات والغيبيات

من ص ٢٧٨ الى ص ٣٢٧

معنى الغيب لغة وشرعا ..... ص ٢٧٨
استعمال كلمة الغيب فى القرآن ..... ص ٢٧٩
الإغارة على المعجزات والغيبيات ..... ص ٢٨٠
الرازى الطبيب وإنكار المعجزات : ..... ص ٢٨٠
صور من تأويلات منكرى المعجزات ..... ص ٢٨٠
تأويلات حول عمر سيدنا نوح عليه السلام وسفينته : ..... ص ٢٨٠
تأويل حول غرق الطوفان : ..... ص ٢٨١
تأويل ناقة صالح عليه السلام ..... ص ٢٨١
تأويل الهدهد : ..... ص ٢٨٢
تأويل النمل ..... ص ٢٨٢

"تأويل عقاب المسخ : ..... ص ٢٨٥
١ — أقدم محاولة لتأويل المسخ : ..... ص ٢٨٥
٢ — رأى الطبرى ..... ص ٢٨٥
٣ — رأى الزمخشرى : ..... ص ٢٨٦
٤ — رأى الجاحظ : ..... ص ٢٨٦
٥ — رأى الفخر الرازى ..... ص ٢٨٧
٦ — رأى ابن كثير : ..... ص ٢٩٠
٧ — رأى القاسمى : ..... ص ٢٩٠
٨ — رأى الشيخ رشيد رضا : ..... ص ٢٩١
٩ — رأى الشيخ عبد الجليل عيسى : ..... ص ٢٩١
تأويل "الوجوه" بالرؤساء والمقاصد ..... ص ٢٩٢
تأويلات شتى حول مائدة الحواريين : ..... ص ٢٩٥
١ — الذين حجدوا نزولها : ..... ص ٢٩٥
رأى ابن جرير الطبرى : ..... ص ٢٩٦
محتويات المائدة ..... ص ٢٩٧
المائدة فى رواية إنجيل متى ..... ص ٢٩٧
تأويل صاحب قصص الأنبياء لنزول المائدة ..... ص ٢٩٨
المأخذ على تأويله ..... ص ٢٩٨
نسيج الخيال حول المائدة ..... ص ٢٩٩
التأويلات الصوفية للمائدة : ..... ص ٣٠٠
تعقيب على الرأى السابق ..... ص ٣٠١
اختلافات المفسرين حول قوله تعالى (هل يستطيع ربك) ..... ص ٣٠١
اختيارنا فى المسألة ..... ص ٣٠٢
رأى القاسمى ..... ص ٣٠٢

تأويل الفلاسفة لكيفية الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ص ٣٠٤
تأويل الفجر بتفجر الماء ..... ص ٣٠٦
تأويل الأوتاد بالأهرامات ..... ص ٣٠٨
١ـ الدابة التى تكلم الناس والتأويلات المتنافرة المحيرة حولها : ..... ص ٣١٠
١ ـ خروج الدابة وظهور الأرواح ..... ص ٣١٠
٢ ـ خروج الدابة وأبطولة " الرجعة " : ..... ص ٣١١
رد "الطبرى" على متأولى الرجعة من الشيعة : ..... ص ٣١٣
زعم الشيعة أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمى عليا "رضى الله عنه" دابة الأرض : ص ٣١٣
رأى شيعى معاصر ..... ص ٣١٤
الدابة وعصا موسى عليه السلام ..... ص ٣١٤
تسرب الرواية الشيعية حول الدابة إلى بعض التفاسير السنية : ..... ص ٣١٥
الدابة بين الكلم والكلام : ..... ص ٣١٥
الدابة ودودة القطن : ..... ص ٣١٦
الدابة والمذياع : ..... ص ٣١٦
الدابة وسفن الفضاء : ..... ص ٣١٦
الدابة والإسرائيليات : ..... ص ٣١٦
تصورات متوهمة فى شأن الدابة : ..... ص ٢١٧
هل الدابة داعية يبعث ليقيم الحجة على الكافرين؟ ..... ص ٣١٧
تفنيد القرطبى لهذا التأويل : ..... ص ٣١٨
الرأى الذى ترتضيه : ..... ص ٣١٨
(تأويلات حول صفات جهنم : ..... ص ٣١٩
هل تتكلم جهنم؟ ..... ص ٣١٩
١ـ رأى ابن كثير ..... ص ٣١٩
٢ـ رأى القرطبى ..... ص ٣٢٠

٣ — رأى الشوكانى ..... ص ٣٢٠
الزمخشـــرى : ..... ص ٣٢١
رد ابن المنير على الزمخشرى : ..... ص ٣٢١
كيفية دعاء النار للكافرين ..... ص ٣٢٢
دفاع الشيخ المغربى عن المجاز فى تفسير الآية : ..... ص ٣٢٣
تعقيـــــب ..... ص ٣٢٤
هل ترى النار أصحابها حقيقة ؟ ٣٢٤
رد ابن المنير على الزمخشرى فى رؤية النار لأصحابها ٣٢٥
كيفية اطلاع النار على الأفئدة ٣٢٦

النـــجـم الثانـــى

تأويـــلات حـــول حقيقـــــة الجـــن

مـــن ص ٣٢٨ الـــى ٣٧٧

الجن فى لغة العرب : ..... ص ٣٢٩
انكار الدكتور البهى لصحاح الأحاديث ..... ص ٣٣٠
ماورد فى السنة عـن مادة خلق الملائكة ..... ص ٣٣١
قوله إن إبليس كان الملائكة ..... ص ٣٣١
اختيارنا فى المسألة ..... ص ٣٣٣
والإنسان أيضا من الجن !!! ..... ص ٣٣٧
مناقشات مع الدكتور البهى : ..... ص ٣٣٩
ركائز رأى الدكتور البهى : ..... ص ٣٣٩
استبدال الخرافات بالحقائق ..... ص ٣٤٠
تناقضات : ..... ص ٣٤٠
عالم ماتحت الأرض ! ..... ص ٣٤١
تناقضات تتلوسا بقاتها : ..... ص ٣٤٢

(الجن الإنسي ، والإنس الجني) ..... ص ٣٤٥
(إنكار "الرسالة" إلى الجن) ..... ص ٣٤٧
وجوابنا على هذا : ..... ص ٣٤٨
حديث لابن عباس يفسر كيفية استماع الجن : ..... ص ٣٥٠
موقف "الدكتور البهي" من هذا الحديث: ..... ص ٣٥١
الجن خلق: متميز ، مكلف ، مسئول : ..... ص ٣٥٣
أدلة اخرى من القرآن حول تكليف الجن : ..... ص ٣٥٤
رأى الشيخ شلتوت رحمه الله في مسئولية الجن : ..... ص ٣٥٦
تناسل الجن وذراريه : ..... ص ٣٥٧
من وظائف الجن : ..... ص ٣٦٠
١ ــ الجندية : ..... ص ٣٦٠
٢ ــ صناعات معمارية : ..... ص ٣٦٠
٣ ــ البناء والغوص: ..... ص ٣٦١
٤ ــ حمل الأشياء ونقلها عبرا لمسافات الطويلة : ٣٦٢
ا لفيصل بين الحق والخرافة : ٣٦٢
صور من شطط القـــــول . ..... ص ٣٦٣
ليس جديدا ولكنه إفك قديم : ٣٦٨
الخازن يبين موقف بعض الفرق من الجن : . ..... ص ٣٦٨
هل ينكر المعتزلة الجـــن ؟ ..... ص ٣٦٩
١ ــ الجاحظ : ..... ص ٣٦٩
٢ ــ القاضي عبدالجبار ..... ص ٣٧٠
٣ ــ الزمخشـــــري . ..... ص ٣٧٠
مقالات التناقض لم ينقطع حبلها ..... ص ٣٧٢
ومن أمثلة ذلك : ..... ص ٣٧٢
(تأويل قوله سبحانه " وجعلناها رجوما للشياطين" ..... ص ٣٧٥

تأويل غريب للآية السابقة ..... ص ٣٧٥
مناقشة هذا الرأى ..... ص ٣٧٦

النجـــم الثالـــث

التأويلات العلمية من أنبـائهـا وأمثالـــــها

مـــن ص ٣٧٨ إلـــى ص ٤٩٦

موقف أعداء الله من العلائق بين الإسـلام والعلم ..... ص ٣٧٨
العلاقة بين القرآن والعلم : ..... ص ٣٧٨
موقف التبشير والاستشراق من هذه القضية : ..... ص ٣٨٢
موقف المؤمنين بالقرآن من هذه القضية : ..... ص ٣٨٥
أصـــــول القضيـــــة ٣٨٥
أسئلة إلى سيد المرسلين عن بعض المسائل الفلكيـة : ..... ص ٣٨٦
أسئلة الى الصحابة عن بعض المسائل الكونية ..... ص ٣٨٧
موقف بعض المفسرين القدامى من الآيات الكونية :ـ ..... ص ٣٨٩
القرطبى فى تفسير آية كونية : ..... ص ٣٩٠
دقائق القرآن العلمية بين المحكم والمتشابه ..... ص ٣٩١
هل كانت هذه الآيات معطلة المعانى ؟ ..... ص ٣٩٢
سبب ذكر الكونيات فى القرآن ..... ص ٣٩٥
أثر اختلاط الثقافات فى ظهور هذه النزعة : ..... ص ٣٩٥
المنكرون لهذا المنهج من العلماء : ..... ص ٣٩٧
أبو اسحق الشاطبى : ..... ص ٣٩٧
مناقشة يسيرة : ..... ص ٣٩٨
عود إلى الاستماع إلى الشاطبى رحمه الله : ..... ص ٤٠٠
وقفة مع الشاطبى : ..... ص ٤٠١
إنكاره على المتجاوزين ..... ص ٤٠١

عودة إلى مناقشة الشاطبى : ..... ص ٤٠٢

رأى الأستاذ الخولى ومناقشتنا له ..... ص ٤٠٣

رأى الأستاذ سيد قطب : ..... ص ٤٠٦

طريقة الأستاذ سيد قطب فى الانتفاع بالكشوف العلمية : ..... ص ٤٠٨

رأى الأستاذ العقاد : ..... ص ٤٠٩

تعقيب ..... ص ٤١١

هل خالف العقاد نفسه ..... ص ٤١٢

رأى الشيخ رشيد رضا : ..... ص ٤١٣

هل التزم الشيخ رشيد رضا منهجه : ..... ص ٤١٤

موقف الأستاذ حسن البنا رحمه الله : ..... ص ٤١٤

رأى الأستاذ وحيد الدين خان فى المسألة : ..... ص ٤١٦

تعقيب على هذا الرأى ..... ص ٤١٧

رأى الشيخ محمود محمود شلتوت رحمه الله : ..... ص ٤١٨

مناقشة هذا الرأى ..... ص ٤١٩

رأى الدكتور محمد حسين الذهبى رحمه الله : ..... ص ٤٢٠

هل طرأ على هذا الرأى تعديل : ..... ص ٤٢٠

رأى الشيخ محمد الصادق عرجون : ..... ص ٤٢١

" " محمد الزفزاف : ..... ص ٤٢٢

" الأستاذ محمد عزة دروزه : ..... ص ٤٢٢

مناقشة هذا الرأى : ..... ص ٤٢٣

رأى الشيخ أحمد حسن الباقورى : ..... ص ٤٢٤

رأى الدكتور أحمد الشرباصى : ٤٢٥

رأى الدكتورة عائشة عبد الرحمن : ..... ص ٤٢٥

رأى الدكتور شوقى ضيف ..... ص ٤٢٦

المؤيدون للتفسير العلمى : ..... ص ٤٢٧
رأى أبى حامد الغزالى : ..... ص ٤٢٧
منهج الفخر الرازى : ..... ص ٤٢٨
التفسير العلمى عند الكاتبين فى علوم القرآن : ..... ص ٤٣٠
الزركشى فى البرهان : ..... ص ٤٣٠
السيوطى فى الإتقان ..... ص ٤٣١
وقفة مع السيوطى ..... ص ٤٣٢
نظرة ابن أبى الفضل المرسى فى المسألة : ..... ص ٤٣٣
استخراجه لأصول العلوم من القرآن الكريم ..... ص ٤٣٤
المؤيدون للمنهج فى العصر الحديث : ..... ص ٤٣٧
موقف الأفغانى من التأويلات العلمية للقرآن : ..... ص ٤٣٧
رأى الشيخ محمد عبده : ..... ص ٤٣٧
رأى الشيخ محمد مصطفى المراغى : ..... ص ٤٤٠
رأى الشيخ طنطاوى جوهرى ..... ص ٤٤٢
ذهابه إلى أن علماء الإسلام سبقوا "داروين" : ..... ص ٤٤٣
ما هى الصلة بين الهجاء والكيمياء؟ ! ..... ص ٤٤٣
رأى شهاب الدين الألوسى : ..... ص ٤٤٤
رأى محمد فريد وجدى ..... ص ٤٤٤
رأى الشيخ عبد الرحمن الكواكبى : ..... ص ٤٤٥
رأى القائد أحمد مختار ..... ص ٤٤٦
رأى المشير أحمد عزت ..... ص ٤٤٧
رأى الأديب مصطفى صادق الرافعى ..... ص ٤٤٨
رأى الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله ..... ص ٤٤٩
رأى الدكتور عبد العزيز إسماعيل ..... ص ٤٥١
نقد الدكتور الذهبى رحمه الله لهذا الكتاب ..... ص ٤٥٢

رأى الدكتور محمد أحمد الغمراوى ص٤٥٢
رأى الشيخ عبد الوهاب خلاف ص٤٥٤
رأى الشيخ محمد الغزالى ص٤٥٥
رأى الدكتور محمد جمال الدين الفندى ص٤٥٦
رأى الأستاذ عبد الوهاب حموده ص٤٥٧
شاهد من عندنا وشاهد منهم :ـ ص٤٥٨
أما الشهادة الأولى فهى وثيقه علمية إسلامية عربية ص٤٥٨
١ـ وصف صناعة الطب ص٤٥٨
٢ـ تفاوت مراتب الأطباء ص٤٥٨
٣ـ تأكيد النظرية بالتجارب العملية : ص٤٥٩
٤ـ أخلاق الطبيب ص٤٥٩
٥ـ أهمية منصب نقيب الأطباء ص٤٥٩
٦ـ معرفة أقدار قدامى الأطباء ص٤٥٩
٧ـ اتاحة فرصة التدريب للأطباء الناشئين ص٤٥٩
٨ـ سبب إسناد رياسة الأطباء إليه ص٤٥٩
٩ـ المام المنوطة بنقيب الأطباء ص٤٥٩
١٠ـ انتفاع رئيس الأطباء بخبرة سابقية ص٤٦٠
١١ـ حظر مزاولة المهنة إلا على البارعين فيها : ص٤٦٠
١٢ـ الترقية على أسس العلم وطول الممارسة والإخلاص فى الدين وكرم الخلق .. ص٤٦٠
١٣ـ موقف رئيس الأطباء من أدعياء الطب : ص٤٦٠
وشاهد منهم ص٤٦١
١ ـ قصور العلم التجريبى : ص٤٦١
٢ ـ العلم والخبرة : ص٤٦١
٣ ـ العلم والإيمان : ص٤٦١

٤ــ العلم لايذكى غرور المفتونين : ٤٦١
٥ــ قيم الانسان .. وقصور دعاة التطور : ص٤٦٢
٦ــ الاستدلال بالخلق على الخالق : ص٤٦٢
٧ــ لاخلود لمخلوق : ص٤٦٢
٨ــ وماأوتيتم من العلم إلا قليلا : ..... ص ٤٦٢
٩ــ من غايات العلم : ص٤٦٢
١٠ــ الصمو عن تأليه المادة : ص٤٦٣
فيصل القول فى قضية التأويلات العلمية :ــ ٤٦٣
١ــ بيان وجه الإعجاز العلمى ص٤٦٣
٢ــ التفسير العلمى ص٤٦٥
٣ــ التأويل العلمى ص٤٦٥
قواعد المنهج العلمى فى القرآن ص٤٦٦
الآيات الكونية فى القرآن لم تذكر عبثا ص٤٦٦
آيات تحث على النظر فى الأرض: ص٤٦٧
علم الفلك ص٤٦٨
مواقع النجوم ص٤٦٨
الوهج والطاقة الشمسية ص٤٧٠
تأويل السموات السبع بالكواكب السيارة ص٤٧١
نقض الرأى السابق ص٤٧٢
تأويل الدكتور الفندى للسموات السبع ص٤٧٣
بروج السماء ص٤٧٤
قانون الجاذبية ص٤٧٥
نقص الأوكسجين فى طبقات الجو العليا ص٤٧٧
الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية ص٤٧٧

رأى ابن كثير ورأى القرطبى فى هذا التفسير ..... ص ٤٧٧
تأويل الحرس الشديد بالبروتون السالب ..... ص ٤٧٨
هل بيان القرآن لم يتم فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ..... ص ٤٧٩
بيان عوار الرأى السابق ..... ص ٤٨٠
وسائل التفاهم المختلفة بين الكائنات ..... ص ٤٨١
تفسير الزمخشرى للآيات السابقة ..... ص ٤٨١
هل هناك حياة فى الكواكب الأخرى ..... ص ٤٨٣
الجذور التاريخية لمسألة الحياة فى الكواكب الأخرى ..... ص ٤٨٤
هل جمع المخلوقات للحشر يكون عن طريق سفن الفضاء ..... ص ٤٨٥
القرآن والطب ..... ص ٤٨٦
إعجاز القرآن فى أطوار خلق الانسان ..... ص ٤٨٧
خلق الإنسان من علق ..... ص ٤٨٨
أطوار الجنين فى رحم الأم ..... ص ٤٩٠
من التأويلات لبعض آى الذكر الحكيم ..... ص ٤٩١
هل طائر الإنسان هو الجهاز العصبى ..... ص ٤٩١
مناقشة ابن كثير والقرطبى لهذا الموضوع ..... ص ٤٩٢
رأى الزمخشرى فى طائر الإنسان ..... ص ٤٩٣
تأويل الرقيب والعتيد بأنهما فصا المخ ..... ص ٤٩٣
هل اتخذت قبيلة عاد مصانع لمحاولة الخلود فى الأرض ..... ص ٤٩٤

المصادر والمراجع

من ص ٤٩٩ الى ص ٥٣٨